



كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵏ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵏ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ ⵏ ⵜⴰⵎⴰⵔⴰⵏⵜ - ⵎⴰⵔⴰⵎⴰⵏⵜ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
مركز دراسات الدكتوراه - Centre d'Etudes Doctorales

تكوين الدكتوراه

مدارك الاجتماع في المستجدات الإنسانية المعاصرة

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع:

منهاج الفكر النقدي في القرآن المجيد

تحت إشراف: الأستاذ الدكتور:

حميد الصولي

من إعداد الطالب الباحث:

لحسن جمالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله العزيز الغافر على كرمه الغامر، وفضله الوافر، لا يحصره حاصر، ولا يحده شاكر، أنزل القرآن المجيد بدفتيه، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه، وصلى الله على رسوله المبعوث إلى العالمين بشيرا ونذيرا، وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. أما بعد،

فإن موضوع هذا البحث يركز على الاشتغال حول الفكر النقدي وتتبع مناهجه ومسالكه في القرآن المجيد، باعتباره موضوعا ذا أهمية في واقعنا الراهن؛ إذ هو منطلق الإصلاح والتصالح، ومبتدأ التجديد والتحديث، وبه نستطيع تحقيق النقد الذاتي، حتى نتبين مكان الخل في منظومتنا الاجتماعية فتتحاشاها، ونتعرف أسباب النهضة والتقدم فنأخذ بها ونرسي دعائمها وفق منهج قرآني مضبوط.

من هذا المنطلق، فإن موضوع تتبع منهج الفكر النقدي في القرآن الكريم، ودراسة أساليبه لضبط مناهجه، وتحديد معايير أمر يجب أن يصرف إليه الباحثون عنايتهم في مجال الدراسات الإسلامية - والدراسات القرآنية منها على وجه الخصوص-، ويخصصوا له أبحاثهم ودراساتهم الأكاديمية والجامعية؛ ذلك لأن التفكير فريضة كونية أسس لها الإسلام، ورسخ مهاراتها في عقول معتقيه، فلا يوجد دين أعطى العقل والتفكير مساحة كبيرة من الاهتمام كما صنع الدين الإسلامي في الدستور الرباني الكريم، على اعتبار أن الخطاب القرآني يوجه عقل الإنسان المسلم ويحرر وعيه وتفكيره.

ولأهمية التفكير في حياة الإنسان وردت مادة (فكر) بمشتقاتها مرات عديدة في القرآن الكريم بصيغة الفعل، مثل (فَكَرَ)، (يتفكرون)، (تتفكرون)، (أولم يتفكروا)، أو مرادفاتها، مثل: (يعقلون)، (يتذكرون)، (يبصرون) و(انظروا).. إلخ. وعلى الرغم من كونها وردت في القرآن المجيد بصيغة الفعل ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر (فكر)، ذلك أن الفعل في اللغة العربية أقوى في الدلالة التأثيرية وأعم من المصدر؛ لأن مادة الفعل تدل على مطلق الحدث وعلى الحدث في حد ذاته، وعلى من قام به وهو المفكر، على خلاف المصدر الذي يفيد مجرد الحدث .

ومن أجل استيعاب القراءة النقدية في القرآن المجيد، دعت آياته الكريمة إلى ضرورة استعمال الفكر وإعماله في إدراك الأمور وتبينها، حتى قاربت لفظة "فكر" ومشتقاتها ومرادفاتها في القرآن ما يناهز ثلاثمائة ونيفا، وسأقف على بعض ذلك في ثنايا هذا البحث. وكلها تفيد استخدام العقل وتحريره، وتؤكد إعمال الفكر والنظر واعتماد الحاسة النقدية في إدراك حقائق الأمور. ولأجل دراسة هذه القضية اخترت أن يكون عنوان أطروحتي الجامعية هو: "منهاج الفكر النقدي في القرآن المجيد".

ولهذا تناولت في هذه الأطروحة دراسة منهاج الفكر النقدي في القرآن المجيد من خلال تحديد مصطلحات مفردات عنوان البحث في القرآن ، وهي كما يأتي: منهاج الفكر والنقد، إضافة إلى استخراج مكونات المنهج النقدي القرآني المتمثلة في مبادئه وآدابه ومقاصده، وتتبع مجالاته في التربية والتعليم، وتصحيح العقيدة، وتوجيه السلوك، إلى جانب بيان الأصول الاستدلالية الفطرية والعقلية والحسية للفكر النقدي، وإبراز تجلياته المتجلية في نقد اليهود والنصارى ومزاعمهم، ونقد المستشرقين وشبهاتهم، تأصيل

العملية النقدية القرآنية على ضوابط منهجية عن طريق الإقناع والحجاج، ومنهج الترغيب والترهيب، ومنهج التدرج، فضلا عن ذكر خصائصه الخطابية البارزة في خاصية التصديق والهيمنة، وخاصية الوسطية والاعتدال، وخاصية الواقعية، والبحث في أساليبه النقدية الماثلة في أسلوب التقرير وأسلوب المثل والقصص في القرآن الكريم. والوقوف على آلياته في أوجه من الإعجاز القرآني العلمي والبياني والتشريعي.

إشكالية البحث

يعالج هذا البحث قضية من القضايا المنهجية التي لها صلة وطيدة بالفكر النقدي في القرآن الكريم. والغاية منها الوقوف على ملامح منهاج هذا النقد في كتاب الله العزيز الذي نخل به تراث ما قبله من الكتب والصحف في شمولية وافتحاص واستيعاب، وحاورها في مجادلة وحجاج برهاني دامغ، وفي واقعية إنسانية، على اعتبار أن القرآن الكريم رسالة سماوية خاتمة، وكتاب هيمنة وتصديق، قد اشتمل على صور عديدة من النقد والمحاورات والمجادلات لأهل الملل والنحل المغايرة.

وقد قدم ذلك كله في سياقات حجاجية برهانية متماسكة، مما لا يدع مجالا للشك في أنه الكتاب الوحيد الذي أحدث - ولا يزال - أكبر مراجعة فكرية للتراث البشري السابق عليه. ولهذا كله تفرض علي هذه الدراسة استخلاص - قدر ما يسمح به المقام - ما يمكن من معالم وخصائص هذا المنهاج كما هو وارد في القرآن الكريم.

وفي ضوء ما تقدم أسعى إلى تقديم أجوبة ممكنة عن الأسئلة الآتية:

ما هي أبرز الملامح المنهجية للفكر النقدي في القرآن؟

وما تجليات الإقناع في القرآن المجيد؟

وكيف قدم معتقدات الأمم الماضية وآراءها وفلسفتها في الوجود بكل موضوعية؟

وأين تكمن خصائص أسلوب الخطاب القرآني من أجل تحقيق غاياته النقدية وأهدافه الإصلاحية، سواء أكان ذلك في المجال الاعتقادي أم السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي، وفي سائر مجالات الحياة الإنسانية قاطبة؟

أهمية البحث

من خلال الإشكالات السابقة التي رسمها البحث، فإن أهميته تتجلى في جملة من الأمور، أبرزها:

أ - الاعتناء المتواصل بالتفكير النقدي في المناهج والدراسات القرآنية على الخصوص والأبحاث العلمية على العموم؛ لأن التقدم في المجال المعرفي والعلمي وغيرها من المجالات الإنسانية لا يتم إلا بالنقد لما أنجزه السلف السابقون، لأن الجانب المنهجي والتفكيري هو الذي يكون السبب المباشر فيما يبلغه الإنسان من مكانة علمية رفيعة في التاريخ الفكري.

ب - حاجة الإنسان إلى التفكير النقدي؛ لتصحيح تصوراته وتقويم سلوكه، والرقى بمحيطه إلى أعلى مستويات الثراء العلمي والفكري.

ج - تناقض السلوك الإسلامي العام في مجال التفكير في العصور المتأخرة مع ما جاء به القرآن الكريم من الدعوة إلى التفكير وإعمال العقل واعتماد الحجة والبرهان، واستنكار التقليد واتباع الآباء والأجداد في كل ما ورثوه عنهم من الكنوز الثقافية والفكرية.

د - إثراء المكتبة القرآنية برسالة تشتغل على القضايا النقدية والحوارية في القرآن المجيد، وتستخلص معالمه المنهجية، وخصائصه الأسلوبية والإعجازية.

أسباب اختيار البحث

يرجع اختياري لموضوع هذا البحث الذي يدرس قضية النقد والحوار والإصلاح في القرآن المجيد إلى مجموعة من الأسباب والدوافع، مجملها:

أ - تعلقي الشديد بكتاب الله ورغبتي في إنجاز دراسة علمية تتناول قضايا النقدية وتدرس مناهجه الفكرية والحوارية والإصلاحية، لا سيما وأن الله قد أكرمني بحفظه والعكوف على تعليمه.

ب - اقتناعي بضرورة العودة إلى القرآن المجيد لفهم أغراضه النقدية وأهدافه الإصلاحية؛ وأخذ مفاهيمه ومناهجه الصافية من منبعها الأصلي كما أرادها الله تعالى.

ج - تطلي إلى خدمة الفكر الإسلامي بدراسة أكاديمية تعتمد منهج البحث العلمي.

د - الحاجة العلمية الملحة إلى إبراز منهج التفكير النقدي وبيان أصوله وضوابطه كما قررها القرآن الكريم؛ ليسير المسلم على ضوئها.

هـ - الاستفادة من هذا الموضوع في تعميق فهم نصوص القرآن وتتبع مفهوم الفكر النقدي في نصوص القرآن، بدلا من إطلاق الأحكام السريعة.

و - رغبتني في الاطلاع على نماذج من المؤلفات والتفاسير التي تهتم بالجانب المنهجي التفكير النقدي، وتعتني ببيان الأساليب الجدلية القرآن، بحيث ندرك بواسطتها أن الجدل والحجاج القرآني هو خير طريق إلى الإقناع. فقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يجادل بالتي هي أحسن، أي بالأدلة القرآنية لأنها أحسن الأدلة وأقومها وأيسرها بلوغا لعقل الإنسان.

أهداف البحث

يهدف موضوع هذا البحث على وجه العموم إلى إبراز المناهج النقدية والحوارية ودراسة الأساليب الإقناعية والحجاجية في القرآن المجيد، كما يلي:

- الكشف عن مجالات الفكر النقدي في القرآن الكريم.
- بيان ضوابط الفكر النقدي التي قررها القرآن الكريم.
- استجلاء أثر القرآن الكريم في بناء منهاج التفكير النقدي عند المسلمين.
- إبراز مقاصد الفكر النقدي الفعلية، وتجلياته العملية في أفعال الإنسان من خلال النصوص النقدية في القرآن.
- إثبات الوقائع عن طريق هذا المنهاج وربطها بالأسباب ووصف القضايا الشرعية وتعليلها والبحث عن بواعثها الخفية، اعتماداً على استقراء الضوابط المنهجية.

الدراسات السابقة

إن البحث في قضية النقد والفكر الحواري في القرآن المجيد يعد من الأبحاث الحديثة التي لم تلق العناية اللائقة بها في التراث ومؤلفات المتقدمين، فلم يحظ هذا الموضوع بعد بما يستحقه من الدراسة والتحليل، فلا يوجد - حسب اطلاعي المتواضع - دراسة مستقلة فيما يخص منهاج الفكر النقدي في القرآن الكريم، غير أنه لا بد من الإشارة هنا إلى وجود بعض الدراسات والبحوث التي لها علاقة من قريب أو بعيد بجوانب هذا الموضوع، أذكر منها مايلي:

- **أثر القرآن على منهج التفكير النقدي عند ابن تيمية**، للدكتور محمود السعيد الكردي الليبي. دار النش: الدار الجماهيرية-ليبيا، 1395هـ 1986م فهذا الكتاب قد اهتم فيه مؤلفه بإبراز جانب هام من جوانب التراث لهذا المفكر المسلم الذي يعد ثمرة ناضجة من ثمار مدرسة القرآن العظمى، حيث كان للقرآن أثره الواضح في إنتاجه العلمي بصفة عامة، وعلى التفكير النقدي بصفة خاصة، فوجد في نقده أنه يرى أن لا وجود لأي شكل من أشكال التعارض بين العقل الصحيح والنقل الصريح، لأنهما بهذه السمات أداة واحدة للوصول إلى الحقيقة. بيد أنه بعيد عن بحث قضية النقد والحوار الإصلاحي في القرآن المجيد.

- **منهج النقد في التفسير**، للدكتور إحسان الأمين، نشرته دار الهادي ببيروت عام 1428هـ، ويقع الكتاب في مجلد كبير بلغت عدد صفحاته أربعاً وستين وأربعمئة (464) صفحة من القطع العادي، وقد تضمن هذا البحث تشخيص الأسس التي يقوم عليها النقد

بالرجوع إلى نفس القرآن والقواعد الجارية فيه، غير أنه لم يقف عند مناهج النقد وضوابط الحوار في القرآن.

- **التفكير فريضة إسلامية**، لمحمود عباس العقاد. صدر هذا الكتاب 1957، وصدرت نسخة منه عن مؤسسة هنداوي- مصر 2014م وهو كتاب تحدث فيه مؤلفه عن أهمية العقل، والتفكير في أمور الدين والعقيدة وكيف أنها من الأمور المسلم بها التي لا بد منها، كما تحدث عن مسألة الاجتهاد في الدين، والتحديات التي تشكلها المذاهب الاجتماعية والفكرية والعادات ليصل في النهاية إلى خلاصة مفادها " أن التفكير يوجب الإسلام وأن الإسلام يوجب التفكير"، بيد أنه لم يعتن ببيان المناهج النقدية والإصلاحية في القرآن.

_ **التفكير النقدي مدخل في طبيعة المحاجة وأنواعها**، للدكتور عمرو صالح ياسين، نشرته الشبكة العربية للأبحاث والنشر 1970م الذي وصف التفكير النقدي بأنه حارس على باب العقول، ويطالب القضايا بالدليل، والمفاهيم بالتعريف، وركز فيه كثيرا على بيان أنواع المحاجات والقضايا المنطقية. وهو مبحث له صلة ببعض مباحث هذه الرسالة، إلا أن الكتاب لم يتعرض لدراسة مناهج النقد القرآني، ولا لدراسة أساليبه الخطابية في الإقناع والبيان.

إلى غيرها من الأبحاث والمقالات العلمية التي لها علاقة بهذا الجانب.

منهجية البحث وخطته

من أجل تحقيق الغاية النبيلة التي يهدف إليها هذا البحث حتى يسهم في استقراء مفهوم الفكر النقدي في القرآن الكريم ودراسة مناهجه الحوارية وأساليبه النقدية والإصلاحية تقتضي طبيعته السير على منهجي الاستقراء والتحليل، حيث أتتبع فيه المفردات الإصلاحية والنقدية في القرآن، ثم أقوم ببيانها واستخراج القواعد المنهجية والحوارية منها، معتمدا في ذلك على:

- توثيق النصوص القرآنية برواية ورش عن نافع؛

- تخريجات الأحاديث النبوية وتوثيقها؛

- عرض أقوال العلماء والباحثين ومناقشتها،

- عزو الأقوال ومنقولات العلماء إلى مصادرها ومطانها.

وقد قسمت البحث إلى تمهيد، وثلاثة أبواب، وكل باب إلى ثلاثة فصول؛ وكل فصل إلى

ثلاثة مباحث؛ وكل مبحث إلى مطالب، ثم خاتمة:

بينت في التمهيد العلاقة بين القرآن المجيد والخطاب النقدي، ثم تناولت في الباب الأول تأصيل الفكر النقدي في القرآن المجيد، وضمنته ثلاثة فصول: خصصت الفصل الأول منها للدراسة المفاهيمية، وتناولت في مباحثه الثلاثة مصطلح: الفكر، والنقد، والمنهج في القرآن المجيد، ودرست في الفصل الثاني مكونات المنهج النقدي في القرآن، من خلال دراسة الأصول النقدية في القرآن المجيد في المبحث الأول، وتسطير آداب النقد ومبادئه في المبحث الثاني، ودراسة مقاصد النقد في القرآن المجيد في المبحث الثالث؛ لأخلص في الفصل الثالث من هذا الباب الأول إلى تتبع مجالات الفكر النقدي في القرآن الكريم، وجعلتها في ثلاثة مجالات على شكل مباحث، هي: مجال التربية والتعليم، ومجال التصحيح العقدي، ومجال الإصلاح وترشيد السلوك الاجتماعي.

وأما الباب الثاني فعالجت فيه أصول الفكر النقدي في القرآن المجيد ومناهجه وتجلياته، فتضمن الفصل الأول منه أصول الفكر النقدي في القرآن الكريم ومناهجه، وجعلته في ثلاثة مباحث، يركز المبحث الأول منها على دراسة الاستدلال بالأصل الفطري في القرآن الكريم، ويدرس المبحث الثاني قضية الاستدلال بالأصل العقلي في القرآن، ويتناول المبحث الثالث موضوع الاستدلال بالأصل الحسي في القرآن المجيد. فيما خصصت الفصل الثاني لإبراز مظاهر الفكر النقدي في القرآن المجيد وتجلياته من خلال نقد لشبهات المخالفين ونقضها، وجعلته في ثلاثة مباحث: وقفت في المبحث الأول منها على نقد القرآن المجيد ومجادلته لأهل الكتاب، ودرست في المبحث الثاني مظاهر النقد القرآني للمشركين ودحض شبهاتهم العقدية والسلوكية، لأخلص بعد ذلك إلى الوقوف عند النقد القرآني لمزاعم المستشرقين والعلمانيين ورد شبهاتهم حول القرآن المجيد في المبحث الثالث. ويرصد الفصل الثالث مناهج الفكر النقدي في القرآن، من خلال تسطير مباحث ثلاثة، يتناول المبحث الأول: منهج المحاجة الإقناعية، ويتولى المبحث الثاني دراسة منهج الترغيب والترهيب في القرآن، فيما كان المبحث الثالث مخصصا لدراسة منهج التدرج القرآني في النقد وإصلاح السلوك الإنساني.

وأما الباب الثالث والأخير فقد ضمنته موضوع الخصائص النقدية والأساليب الإقناعية في القرآن المجيد، فوقفت في الفصل الأول على "خصائص الفكر النقدي في القرآن الكريم"، وتناولتها في ثلاثة مباحث، هي: سمة التصديق والهيمنة في الأول، وسمة الوسطية والاعتدال في الثاني، وسمة الواقعية في الثالث، لأتحدث في الفصل الثاني عن أساليب الفكر النقدي في القرآن، فوقفت عليها في مباحث ثلاثة، هي أسلوب التقرير، وأسلوب المثل، وأسلوب القصص

القرآني. وأما الفصل الثالث والأخير فقد درست في مباحثه الثلاثة آليات الفكر النقدي الإعجازية في القرآن المجيد، وهي آلية الإعجاز العلمي في الأول، وآلية الإعجاز البلاغي والبياني في الثاني، وآلية الإعجاز التشريعي المقترن بالتحدي في الثالث.

وخلصت في الأخير إلى خاتمة تضمنتها جملة من النتائج التي أراها زبدة مختصرة لمجموع مباحث البحث ومطالبه.

تمهيد: القرآن والخطاب النقدي

إن الدارس لتاريخ التشريع ونزول القرآن الكريم على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - يلاحظ أنه سلك في تغييره ونقده لواقع المجتمع الجاهلي وغير الجاهلي منها متكاملاً، بأساليب نقدية متنوعة، تختلف بحسب اختلاف المخاطبين وتنوعهم؛ لأن عملية الإصلاح والتغيير - باعتبارها عملية شاقة عسيرة - تستدعي منهاجاً نقدياً قائماً على منهج علمي مؤسس على مبادئ الاستدلال والبرهنة.

من هذا المنطلق كان القرآن الكريم أعظم دستور وأسمى منهج عرفته البشرية على مدى تاريخها المديد، لأنه معجزة منزلة من عند الله العالم بأسرار الكون وفطرة الإنسان، ليكون نورا يضيء مسالك المعارف والعلوم، ويحث على القراءة واستعمال الفكر والنظر في خبايا الكون وأسراره، كما نجد ذلك مسطراً في تنويحه - في كثير من الآيات - بـ "أولي الألباب" و "أولي النهي" ، وإشادته بالتفكير واستعمال العقل في مواضع شتى من السور المكية والمدنية على حد سواء، ومن ذلك قول الله تعالى: {وَاتَّفَوْا يٰٓأُولِيَ الْأَلْبَابِ} ¹، وقوله تعالى: {يُوتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} ². وإن مجرد النظر في اشتقاق كلمة "القرآن" يوحي بأنه كتاب علم يدعو إلى أعمال الفكر والنظر.

القرآن في الدلالة اللغوية:

اختلف اللغويون في لفظة القرآن، وذهبوا في اشتقاقها مذاهب شتى، فرأى البعض أنه مهموز ³، وأكد الآخرون أنه غير مهموز. فمن اعتبره مهموزاً، جعله وصفاً على وزن "فعلان"، مشتق من القرء بمعنى الجمع ⁴، ومن اعتبره غير مهموز - حسب ما نقله الخطيب البغدادي عن الإمام الشافعي - جعله اسم علم على القرآن الكريم. قال الشافعي: "وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت، كان كل ما قرئ قرآناً، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل" ⁵.

وعلى كلا الاتجاهين فإن القرآن يتضمن معنى التلاوة، لأنه مأخوذ من فعل "قرأ" بمعنى تلا. قال في القاموس: "قرأه وبه، كَنَصَرَهُ وَمَنَعَهُ قَرْءاً وقراءةً وقُرْآنًا، فهو قَارِئٌ من قَرَأَةٍ وقُرْاءٍ وقَارِئِينَ: تَلَاهُ، كَاقْتَرَاهُ، وَأَقْرَأْتُهُ أَنَا، وَصَحِيفَةٌ مَقْرُوءَةٌ وَمَقْرُوءَةٌ وَمَقْرِيَّةٌ، وَتَقَرَّأَ: تَفَقَّهَ" ⁶.

1 - سورة البقرة، جزء من الآية: 196.

2- سورة البقرة، الآية: 268.

3 - كالزجاج في كتابه: معاني القرآن: 305 / 1، والفارسي في كتابه: المسائل الحلييات، ص: 292.

4 - ينظر: معاني القرآن، للزجاج، 305 / 1، ولسان العرب، لابن منظور، 1 / 128، مادة قرأ.

5 - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، 2 / 62، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

6 - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة قرأ: 1 / 49.

ويرادف القرآن: الكتاب، والفرقان، والبرهان. وكلها مرادفات تحمل دلالات فكرية ونقدية، تؤكد على ضرورة الاستناد إلى الدليل والبرهان. فالكتاب مشتق من الكتابة، بمعنى: ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط¹، والفرقان: كلمة تستعمل في الفرق بين الحق والباطل فرقا جليا بغير شبهة، فهي دلالة نقدية ومصطلح نقدي أعطي للقرآن؛ لفرقه بين الحق والباطل وبين الصدق والكذب في المقال وبين الصالح وغير الصالح في الأعمال². وأما البرهان فهو: البيان المؤيد بالحجة والدليل، قال تعالى: {أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ فَلَمْ يَهْتَوِ بِرْهَانَكُمْ} إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³، كما تطلق على القرآن مصطلحات وأوصاف أخرى تحمل في طياتها دلالات ومعاني نقدية، كمفردة "النور"⁴ و "المبين"⁵ و "المصدق" و "المهيمن"⁶ و "الهدى"⁷ و "الحق"⁸.

من معاني هذه الاشتقاقات اللغوية للقرآن الكريم نستشف أنه كتاب علم ونظر ونقد، بمنهاج منضبط يستند إلى أصول استدلالية قطعية؛ لكونه خطابا موجها إلى العقول البشرية، مؤمنها وكافرها، عالمها وجاهلها، عريبها وعجميها؛ لأن من أبرز خصائصه المنهجية في الخطاب: أنه كتاب عالمي، يخاطب النوع الإنساني على الجملة، موظفا في سبيل ذلك سائر الأساليب النقدية والبيانية، فالمتلقي للقرآن الكريم هو الإنسان بغض النظر عن أصله، وجنسه، ولغته، وثقافته. وهذا ما تؤكدته كثير من آيات القرآن الكريم التي توظف مجموعة من الألفاظ والمصطلحات التي تفيد عموم الخطاب في القرآن، ومن أعم هذه الألفاظ وأكثرها استعمالا في التنزيل: لفظ "الناس"، و لفظ "كافة" ولفظ "العالمين"، كما ورد في قول الله تعالى: {تَبَرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}⁹، كما وردت آيات كثيرة بأساليب النداء في القرآن تخاطب الناس بضرورة إفراد الله تعالى بالعبودية، ومن ذلك قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}¹⁰. إلى غيرها من الآيات التي تخاطب الإنسان وتدعوه إلى إفراد الله بالوحدانية، وليس هذا التمهيد محل بحثها وتتبعها. ومن أجل تحقيق هذا المقصد سلك القرآن الكريم في مخاطبة الإنسان مسالك مختلفة، وأساليب متنوعة، حتى تميز خطابه النقدي

1 - حول أسماء القرآن الكريم وصفاته، لعبد الجليل عيسى، سلسلة مع القرآن الكريم، العدد الثالث، ص 34، 1975م.

2 - نفس المرجع.

3 - سورة النمل، الآية: 66.

4 - قال تعالى: {قد جاءكم من الله نور} المائدة: 17.

5 - قال تعالى: {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين} النمل: 1.

6 - قال تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه} المائدة: 50.

7 - قال تعالى: {الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} البقرة: 2.

8 - قال تعالى: {والذي أنزل إليك من ربك الحق} الرعد: 1.

9 - سورة الفرقان، الآية: 1.

10 - سورة البقرة، الآية: 20.

بالشمولية والإحاطة بجميع أصناف المخاطبين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وأزمنتهم وأمكنتهم، وهي أصناف تتكون في مجمل أحوالها من ثلاث فئات:

- أهل الكتاب.

- المشركون والملحدون.

- المجتمع المسلم وعامة المؤمنين.

أولاً: خطاب القرآن لأهل الكتاب.

يعني القرآن الكريم ب"أهل الكتاب" من اليهود أتباع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام صاحب التوراة، والنصارى: أتباع سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام صاحب الإنجيل، فكان ذلك لقباً فخرياً منحه إياهم القرآن الكريم. وقد أدخل بعض العلماء أصحاب الديانات الأخرى كالصابئين في جملة "أهل الكتاب"، وقالوا: إنهم أهل التوحيد الذين آمنوا بالنبي يحيى واتبعوا الكتاب الذي أنزل عليه، وقد ذكره تعالى بقوله: {يَلِيحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِفُؤَادٍ} ¹. يقول العلامة الألوسي: "قل: هم قوم موحدون، يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كـ يحيى عليه السلام، وقل: إنهم يقرون بالله تعالى ويقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة، وفي جواز مناكحتهم وأكل ذبائحهم كلام للفقهاء" ².

تخصيص أهل الكتاب بالذكر في القرآن:

خص القرآن أهل الكتاب بالذكر واعتبرهم من أهل العلم والكتاب، وأكثر من ذكر أحوالهم، وليس ذلك لأهل ديانة أخرى غيرهم. ولعلَّ السبب في ذلك راجع إلى أمرين اثنين: الأمر الأول: أنهم من أمة الدعوة، وقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، لقول الله تعالى: {فُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} ³، والأمر الثاني: أنهم كانوا أعلم أمة العالم في ذلك العصر، يتلون التوراة، ويقرؤون الإنجيل، ويملكون قانوناً وتشريعاً.

نقد القرآن لأهل الكتاب:

إن القرآن كتاب هداية، ورسالة توحيد، وشرعية ومنهج، وقد علقت بعقيدة التوحيد التي كان يتبناها أهل الكتاب أخطاء كثيرة ومفاهيم مغلوطة، كما علقت بالأحكام الشرعية التي جاءت بها كتبهم تحريفات وتبديلات.

1 - سورة مريم، الآية: 11.

2 - روح المعاني: 391/1.

3 - سورة الأعراف، الآية: 158.

نقد القرآن لعقيدة أهل الكتاب:

حَادَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَزَاغُوا عَمَّا رَسَمْتَهُ لَهُمْ كَتَبَهُمْ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَجَعَلَ الْيَهُودَ عَزِيزًا
ابْنَ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: عَيْسَى ابْنُ اللَّهِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ، فَانْتَقَدَهُمُ الْقُرْآنُ فِي تَفْكِيرِهِمْ
هَذَا -كَمَا سَيَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ أَثْنَاءَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ- فَطَرَحَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَعْنَى التَّوْحِيدِ بِالْمَفْهُومِ
الصَّحِيحِ فَقَالَ تَعَالَى: {فُلٌ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ١ {إِلَهُهُ الصَّمَدُ} ٢ {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} ٣
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ١، وَدَعَاهُمْ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ فِي إِثْبَاتِ وَحِدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى
بِأَسْلُوبٍ مَنِهْجِي مُتَبَصِّرٍ، فَقَالَ: {فُلٌ يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ، إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا} ٢ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} ٢.

نقد القرآن لتحريفات أهل الكتاب في شرائعهم:

حَرَفَ أَهْلَ الْكِتَابِ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، فَحَرَفَ الْيَهُودُ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ تَحْرِيفًا لَفْظِيًّا وَمَعْنَوِيًّا، وَكْتَمُوا بَعْضَ آيَاتِ التَّوْرَةِ، وَأَلْحَقُوا مَا لَيْسَ مِنْهَا بِمَا هُوَ مِنْهَا، افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ انْتَقَدَهُمُ الْقُرْآنُ بِفُضْحِ افْتِرَاءَاتِهِمْ وَتَحْرِيفَاتِهِمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، كَمَا سَنَقِفُ عَلَيْهِ فِي ثَنَائِهَا هَذَا الْبَحْثَ، وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِخْتِصَارِ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَفُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}،³ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}،⁴ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا ضَالًّا فَلْيَلَا بِبَيْسٍ مَا يَشْتَرُونَ}،⁵

بهذا الأسلوب النقدي خاطب القرآن الكريم أهل الكتاب، فبين تحريفاتهم وتأويلاتهم، بمنهج حوارى، يوضح المعنى الصحيح للتصديق القرآنى وهيمنته على الكتب السماوية السابقة.

1 - سورة الإخلاص، الآية: 1-4.

2 - سورة آل عمران، الآية: 63.

3 - سورة المائدة، الآية: 43.

4 - سورة آل عمران، الآية: 70.

5 - سورة آل عمران، الآية: 187.

ثانيا: خطاب القرآن للمشرّكين والملحدّين:

بدأ نزول القرآن الكريم في بيئة جاهلية ومجتمع يطغى عليه الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، فكان لزاما عليه أن ينتهج في خطابه مسالك مختلفة وأساليب متنوعة. ومما سلكه القرآن في سبيل نقد المجتمع الجاهلي المشرك ودعوته إلى عقيدة التوحيد:

1- نقد التقليد الأعمى للآباء والأسلاف: وفي ذلك يحرص القرآن الكريم على هداية المشركين من خلال بيانه لخطورة عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع، وجرم اتباع نهج الآباء والأجداد دون علم أو بينة. قال تعالى: {وَلَقَدْ - اتَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} ¹، ويستمر هذا الخطاب النقدي الذي يهدف إلى البرهنة على وحدانية الله تعالى، فيقول: {أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنبَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؕ إِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ؕ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْبِلًا تَعْفَلُونَ} ².

2- استنتاج وحدانية الله من خلال اعتراف المشركين بذلك، ومن هذا قول الله تعالى: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَفُولَ اللَّهُ فَإِنِّي يُوقِعُونَ} ³.

3- الاحتكام للعلم والدليل: وذلك من خلال حوار قرآني هادئ مع المشركين، ومطالبتهم بالدليل والبرهان على جعلهم الأصنام إلها يعبد مع الله: {قُلْ آرَآئَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ؕ فِي السَّمَوَاتِ يَتَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ⁴.

4- أسلوب الحوار والمناظرة: وهو من الأساليب النقدية التي انتهجها القرآن الكريم في تقويم عقيدة أهل الشرك، ومن ذلك قول الله تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن

1 - سورة الأنبياء، الآية: 51 - 54.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 66.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 61.

4 - سورة الأحقاف، الآية: 3.

فَبَلِّغْهُمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنَّا فُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٩﴾ فُلْ قَلِيلٌ لِّهٖ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ¹. يقول الفخر

الرازي في تفسيره لهذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حكى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجة ولا دليل، حكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من الكفريات، فيقولون: لو شاء الله منا أن لا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر، وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه يريد لذلك فإذا أراد الله ذلك منا امتنع منا تركه فكنا معذورين فيه"².

لقد أظهرت هذه الأساليب التي تقدمها الآيات القرآنية السالفة سمو المنهج النقدي في القرآن، ومنطقية المبادئ والمنطلقات التي يؤسسها للوصول إلى نتائجه، وذلك من خلال الاحتكام إلى العلم الذي لا يقبل بغير الدليل والبرهان حجة وسبيلا للوصول إلى إقامة أحكامه وشرائعه.

ثالثا: خطاب القرآن للمسلمين وعامة المؤمنين:

خاطب القرآن المجيد عباد الله المومنين، باعتبارهم محل التكليف الشرعية، وباعتبارهم الفئة المعنية بالأحكام وإقامة التشريع القرآني، فمن البدهي إذن أن يتوجه الخطاب في القرآن الكريم إلى المسلمين والمومنين لتصحيح مسارات أفكارهم وتوجهاتهم، وإرساء مناهج حياتهم وتعاملاتهم، فنبههم القرآن إلى ما يلزمهم التشبث به من الأعمال المشروعة والأخلاق الحسنة، فحثهم على الاستعانة بالصبر والصلاة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}³، كما يفرض عليهم ضرورة الأخذ بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره ونواهيه، في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}⁴، وينظم شؤون حياتهم وتعاملاتهم الاقتصادية والمالية، كما في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ}⁵. إلى غيرها من الخطابات القرآنية النقدية، التي تهدف إلى إرساء معالم حياة المسلمين، سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، مما ساقف عنده في مباحث هذه الرسالة وأبوابها الآتية.

1 - سورة الأنعام، الآية: 149 - 150.

2 - تفسير الفخر الرازي 11/7.

3 - سورة البقرة، الآية: 152.

4 - سورة البقرة، الآية: 206.

5 - سورة البقرة، الآية: 281.

الباب الأول:

تأصيل الفكر النقدي في

القرآن المجيد:

يعتبر القرآن الكريم أعظم كتاب وأسمى دستور يدعو إلى التدبر وإعمال الفكر والنظر بالنقد والتمحيص في جميع الكائنات من أجل إدراك الأشياء على حقيقتها وماهيتها، فعاب على الإنسان -الذي كرمه الله بالعقل وفضله على سائر الحيوانات بالقدرة على التفكير والتدبر- التسليم المطلق بكل ما يحيط به أوعين له ويعرض في هذا الوجود، فعاب عليه اتباع ما وجد عليه آباءه الأولين من الهوى والحمية الجاهلية، واعتبر العقل والعلم أساس كل بناء، وأصلا في إدراك الأشياء.

وبدل على هذا نصوص كلية عامة في القرآن الكريم، منها على سبيل التمثيل قول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} ¹، فانطلاقا من سياق هذا المقطع القرآني نستبين هذا البعد النظري الذي يدعو إلى التعقل والتعلم والتفكر، وإليه أشار الإمام البخاري في صحيحه، حين بوب له في كتاب العلم بقوله: "باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} ²، فوجب على العاقل استخدام فكره؛ ليكون على علم وبصيرة من أمره، فإن العقل مناط التفكير قبل أن يكون مناطا للتكليف حسب تبويب الإمام البخاري رحمه الله. كما يدل على هذا آيات كثيرة جاءت في سياق التحاور مع المشركين، ونقض تمسكهم بما عليه آباؤهم الأولون بما هو أظهر وأهدى، ومن ذلك: قول الله تعالى: {فَلْأَوَّلُ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ} ³، وشكك في تعقل من يعبد الأوثان والأصنام، وما لا يعلمون ضرره أونفعه، فقال تعالى -على لسان إبراهيم عليه السلام-: {إِن لَّكُمْ وَلِيمًا تَعْبُدُونَ مِثْلَ دُونِ اللَّهِ أَقْبَلًا تَعْفَلُونَ} ⁴. إلى غير ذلك من نصوص الوحي التي تحت على التعقل والتفكر، وتتبي منهج القراءة النقدية المبتصرة، وتهدم جمود التعصب والاتباع دون التبصر وإعمال النظر في رسالات الله ورسله {وَتَرْيَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} ⁵؛ ولأجل بيان هذا النقد من خلال دعوة القرآن الكريم إلى إعمال الفكر أسست هذا الباب على ثلاثة فصول، تتخللها جملة من المباحث والمطالب، أحررها فيما يلي:

1 - سورة محمد، جزء من الآية: 20.

2 - صحيح البخاري، 1/ 37.

3 - سورة الزخرف، الآية: 23.

4 - الأنبياء، الآية: 67.

5 - سورة الأعراف، الآية: 198.

الفصل الأول: مصطلح الفكر النقدي في القرآن:

إن تحرير المصطلحات وتدقيق المفاهيم أمر مهم لا بد منه لكل باحث، وخصوصا الذي جعل غايته دراسة أمور الفكر والنقد؛ لما يشوب هذه المصطلحات والمفاهيم من الغبش والغموض، ويعتريها من الإبهام والإجمال، حتى لا يكاد القارئ يتبين مراد الدارسين والباحثين بها لكثرة تحولها وتجدها، وتطور المقصود بها بتطور الزمان وتغير المكان وتبدل الأحوال، ولمزيد بيان وإيضاح، وتحقيق لمطلب التواصل المعرفي بين البحث والقارئ كان لزاما علي تبين المراد بهذه المصطلحات المنهجية في هذه الأطروحة، من خلال المباحث الآتية.

المبحث الأول: مصطلح الفكر في القرآن:

دعا القرآن الكريم في كثير من سوره وفواصله إلى استعمال الفكر وإعماله في إدراك الأمور وتبينها، وتكررت لفظة "فكر" ومشتقاتها ومرادفاتها في القرآن مرات عديدة تناهز ثلاثمائة ونيف، سوف أقف على بعض ذلك في مطالب هذا البحث، بعد نظر مختصر حول مفهوم "الفكر" لغة وعرفا.

تدور مادة (ف ك ر) في اللسان العربي على معنى: استخدام العقل، وإعمال الخاطر في إدراك الأشياء، وهذا ما عبر عنه ابن فارس -رحمه الله- بقوله: "الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء"¹.

انطلاقا من هذا الأصل اللغوي، فقد وقف علماء الإسلام عبر القرون والعصور على مفهوم الفكر، وعرفوه تعريفات عدة، أقدمها تعريف الإمام الغزالي رحمه الله، حيث يقول: "اعلم أن معنى الفكر هو: إحضار معرفتين في القلب؛ ليستثمر منهما معرفة ثالثة"². والفكر عنده مرادف للنظر والتدبر، كما يستفاد من تمثيله لذلك بما مجمله: أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار، فله طريقان: أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة (وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة) والثاني: أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتتين معرفة ثالثة، هي: أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتتين السابقتين في القلب للتوصل إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا، وتذكرا، ونظرا³.

فالفكر إذن هو حركة النفس في ملاحظة المعقولات، واستخدام الإنسان العاقل لفكره يسمى تفكرا وتديبرا، كما أشار إلى ذلك التهانوي بقوله: "ولا شك أن النفس تلاحظ المعقولات في

1 - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (فكر) 4/ 357.

2 - إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، 4/ 425.

3 إحياء علوم الدين، 4/ 425.

ضمن تلك الحركة، فقول: **الفكر هو تلك الحركة**¹. ومعنى ذلك: أن الفكر هو الحركة التي يجريها الإنسان بعقله انطلاقاً من النظر في المعلوم ليدرك المجهول.

ثم تطور هذا المفهوم للفكر عند المفكرين المعاصرين، ففرق الجابري بين ثلاث مستويات من الفكر، ففرق بين الفكر كأداة، والفكر كمحتوى، والفكر كأديولوجيا بمعناها العام. والذي يهمنا من هذه المستويات الثلاث، هو ما يوافق ما قدمه علماؤنا الأقدمون، وهو مستوى الفكر كأداة، فقد عرفه بقوله: **"أداة لإنتاج الأفكار"**².

إن هذه التعاريف التي ترى في مفهوم "الفكر" أداة للنظر في الأشياء، من أجل إنتاج معارف سليمة، ومعلومات صحيحة، هي التي تتوافق ومفهوم "الفكر" الذي يتناوله موضوع هذا البحث، كما سيتضح خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: دعوة القرآن إلى التفكير والتدبر:

نزل القرآن الكريم لغايات شتى ومقاصد مختلفة، كان من أبرزها تحرير العقول من قيود الأهواء والشهوات، وتخليصها من العصبية، حتى يتمكن الناس بعد ذلك من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؛ فكان أقوم منهج سلكه القرآن في سبيل تحقيق ذلك: هو بعث روح التعقل والتفكير وإحياءها في نفوس المخاطبين، فبين أن لهم عقولاً يتميزون بها عن سائر المخلوقات الأخرى، وبها يستطيعون التمييز بين الحق والباطل، والتفريق بين الصواب والخطأ. فاستطاع القرآن الكريم بهذا الأسلوب البديع استنفار عقول كثير من الناس، فأقنعهم بالدخول في دين الله أفواجا، حتى صار الشخص الواحد لا يعرض عليه الإسلام والتوحيد إلا قبله، كما ورد ذلك مأثوراً عن الإمام الزهري رحمه الله؛ إذ يقول -وهو يتحدث عما بعد غزوة الحديبية-: **"فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً (...). فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه"**³.

هذا في مرحلة الإسلام الدعوية الأولى، وأما بعد هذه المرحلة فقد صنع القرآن الكريم عقولاً إسلامية عظيمة، تظهر ثمرتها فيما خلفه المسلمون من كنوز علمية وثقافية وحضارية حتى استطاعوا أن يسودوا العالم ويسوسوه من مشرقه إلى مغربه في فترة وجيزة لا تبلغ قرناً من الزمن، وذلك بفضل تطبيقهم العملي وتدبرهم العقلي واسترشادهم الفعلي بهدي القرآن الكريم وآياته الباهرة، حيث صار القرآن عنصراً أساسياً وجزءاً لا يتجزأ من حياة المسلمين وثقافتهم.

1 - كشف اصطلاحات الفنون، للتهانوي محمد بن علي ابن القاضي الحنفي 3/ 121، دار صادر - بيروت.
2 - إشكاليات الفكر العربي المعاصر، للدكتور عابد الجابري، ص 51، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية.
3 - سيرة ابن هشام، 3/ 322، ثم عقب عليه ابن هشام رحمه الله بقوله: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف".

وباستقراء أساليب القرآن الكريم التي تحت على التفكير والتدبر وتدعو إلى إعمال العقل وضرورة استخدامه نجد أمثلة كثيرة، ونماذج متنوعة، أخصها في فرعين اثنين، مردهما إلى تقسيم آيات التدبر إلى نوعين: آيات تخاطب غير المسلمين، وآيات تخاطب المسلمين.

الفرع الأول: دعوة القرآن إلى التفكير والتدبر من أجل الوصول إلى الحقيقة الإيمانية (التوحيد):

خاطب القرآن الكريم في غير ما آية منه غير المسلمين بخطاب التفكير والتعقل، من أجل الوقوف على حقيقة الإيمان بالله ربا واحدا لا شريك له وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم نبيا مرسلا، لا ساحرا ولا مجنونا، فقال تعالى: {فَلِإِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} ¹.

وتتيمز هذه الآيات التي تتوجه بخطاب التفكير إلى المشركين بنوع من التهديد والوعيد، كما نتستنتج ذلك من خلال تتبع آيات "الفكر" الموجهة إلى الكفار، ومنها الآية السابقة، ومن ذلك قول الله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} ²، وقوله عز وجل في سورة المدثر: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَفُتِلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ فُتِلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَاءَ صُلَيْهِ سَفَرٍ} ³.

وما أكثر الآيات القرآنية التي تدعو غير المسلمين إلى التدبر في آيات الله الكونية لعلمهم يهتدون بها إلى الإيمان القويم، على أن كثيرا منهم لا يتدبرون القرآن كما ينبغي، ولذلك خاطبهم الله بقوله: {أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ} ⁴ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْبَالُهَا} ⁴.

1 - سورة سبأ، الآية: 46.

2 - سورة الروم، الآية: 7.

3 المدثر، الآية: 18 - 26.

4 - سورة محمد، الآية: 25.

الفرع الثاني: دعوة القرآن إلى تدبره والتفكر فيه من أجل فهمه وتنزيله:

حث الإسلام عباد الله المسلمين على التدبر والتفكر في آيات الله القرآنية والكوينية، فدعاهم إلى قراءة القرآن بتبصر وتدبر، وإلى النظر في الكون نظرة تأمل واستشعار لعظمة البارئ الخالق المصور، فنص على ذلك في آيات كثيرة توضح أن الكتاب أنزل ليتدبر المسلمون آياته، ويتعقلوا معانيه وحكمه، ومن ذلك: قول الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} ¹، فكان تدبر القرآن الكريم مقصدا أساسيا من نزوله إضافة إلى مقصد فهم أحكامه وتشريعاته التي نص عليها قول الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ².

كما ضرب أروع الأمثلة وقص أحسن القصص من أجل أخذ الدروس والعبر، فكانت قصص القرآن وأمثاله -بالنسبة للمسلمين- بمثابة جامعة تربية عليا، يستفيد منها العالم والأمي على حد سواء عبر التاريخ، وفقه الاجتماع، وفن التعامل والسلوك، ونواميس التقدم والتحضر، وأصول بناء الدول وإقامة العمران؛ ذلك أن المسلمين قد استطاعوا -بفضل هذا النهج القرآني البديع- بناء حضارة إسلامية عظيمة في وقت وجيز، لم تستطع أية أمة قبل ولا بعد أن تقيم مثلها ولا أن تصمد مثل صمودها. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الإسلام رسالة الله الخالدة، وأن الأمة الإسلامية هي خاتمة الأمم، وأن رسولها محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وما يعقل ذلك إلا العالمون {وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} ³.

بهذا النهج يخاطب القرآن نفوس الناس وأرواحهم وعقولهم بأساليب متنوعة، وبألفاظ مترادفة، تكون تارة بألفاظ التعقل والتبصر، وتارة بألفاظ التفكير والتذكر أو التدبر. وكلها ألفاظ ومفردات قرآنية، جاءت في سياق تنبيه الغافلين، وبعث روح التعقل والتفكر في نفوس الناس أجمعين.

المطلب الثاني: أهمية التفكير في فهم القرآن:

إن أهمية التفكير في الحياة ومناحيها على وجه العموم مما لا يخفى على أحد من العقلاء، إذ هو أساس كل أمر وغاية، وعليه ينبني سير الأمم كلها إلى التحضر والتمدن، أو عودتها إلى تخلف وتقهقر. فإذا كان أمر التفكير في أصله على هذه الأهمية البالغة، فإن له أهمية كبيرة في فهم كلام رب العالمين، فإذا استثنينا اتفاق أفهام الناس على ما تدل عليه ظواهر

1 - سورة ص، الآية: 28.

2 - سورة النحل، الآية: 44.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 43.

الألفاظ والنصوص، فإنهم فيما عدا ذلك تختلف مراتبهم ومقاماتهم باختلاف تفكيراتهم حسب ما فتح الله به على كل فرد فرد من الناس.

فالتفكر والتدبر وإمعان النظر في آي القرآن ومعانيه، مما يعود بفهم عظيم وفتح جزيل على القارئ المتدبر، فهل يستوي الذين يعقلون ويتدبرون، والذين لا يتدبرون؟

هذا المبدأ عين ما أكدته نصوص الوحيين كتابا وسنة في مواطن كثيرة، تدل على أن التفكير وسيلة عظيمة لفهم خطاب الله تعالى فهما سليما مستقيما، فحثت على التفقه في الدين، علما بأن التفقه عملية تفكيرية، فقال تعالى: {قُلْ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} ¹.

فدعا القرآن الناس إلى أن يعينوا طائفة تتخصص في التفقه في الدين، ولا يكون ذلك إلا بتدبر كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ به يبلغون حقيقة هذا الكون، وقيمة متاع هذه الحياة الدنيا، كما دل عليه قول الله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ².

وفي سبيل تحقيق هذا المبدأ الذي يحث الناس على التفكير في خطاب الله تعالى؛ باعتباره مقصدا من مقاصد فهم الأحكام وأسرار التشريع، استخدم القرآن أساليب الحكاية والقصص، وهي من دواعي التفكير ودوافع التدبر، مصداقا لقول الله تعالى: {فَافْصِلْ الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ³، وحرف "لعل" كما نص عليه اللغويون يأتي للتعليل، كما في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ⁴، فنبه كثير من المفسرين إلى أن من مقاصد الصيام وغاياته تحقيق التقوى ⁵.

فحث القرآن على التفكير والتبصر لفهم الخطاب واستيعابه، كما أكد على ذلك قول الله عز وجل: {وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ فَلْكَفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنِ يَوْمِنَا إِنَّمَا لَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا زِينَةٌ وَتَلْذِثُ فِيهَا الْفُلُوكُ} ⁶.

1 - سورة التوبة، الآية: 123.

2 - سورة القصص، الآية: 60.

3 - سورة الأعراف، الآية: 176.

4 - سورة البقرة، الآية: 182.

5 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 1/ 515.

يَكَادُونَ يَفْفَهُونَ حَدِيثًا¹، فأنكر على الإنسان ألا يفقه الخطاب، وقد مكنه الله من أدوات الفهم والتعقل، ومن عليه بأساليب الإدراك، فأنعم عليه بالحواس السمعية والبصرية والكلامية حتى يتمكن من الاهتداء بتفكره وتدبره، فقال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا²، فإن أعمل الإنسان بصره وفكره كان شاكرًا، وإن عميت بصيرته واتبع هواه كان كفورًا.

فالقُرآن الكريم عندما يذكر السمع ويقرّنه بالبصر والعقل لا يذكر ذلك عبثًا، بل لينبه الإنسان على ضرورة استخدام فكره وعقله وحواسه، ليهتدي بها إلى الصواب، حتى لا يكون ممن نعتهم الله بقوله: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفِئَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفِئَتُهُمْ مِمَّنْ شَاءَ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ³.

ومما يؤكد أهمية التفكير في فهم القرآن أن الله تعالى قد أوجب النظر والتفكير، وجعله فرضاً عينياً على كل مكلف، فقال تعالى: {فَلَا تَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ⁴، وهو أمر دال على الوجوب، كما يفيد السياق، ويقتضيه مقصد الله تعالى من نزول القرآن الكريم المنصوص عليه في قول الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ⁵.

وقد نزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأمر الإلهي أعظم تنزيل، لوقوفه عند كل آية وقفة التأمل المتدبر، فكان وقافاً عند كتاب الله، كما روى ذلك ابن عباس رضي الله عنه، إذ يقول: "قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك أو قال: لك وجه عند الأمير، فاستأذن

1 - سورة النساء، الآية: 77.

2 - سورة الإنسان، الآية: 2.

3 - سورة الأحقاف، الآية: 25.

4 - سورة يونس، الآية: 101.

5 - سورة ص، الآية 28.

لي عليه قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعينته، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: إيه، أو هي يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه: {خُذِ الْعَبْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} ¹، وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله ².

ومن هنا ندرك أن السر الذي أوتيه بعض الناس في فهمهم العميق لآيات الكتاب العزيز يكمن في إعمال الفكر والتدبر، فهو الآلة الوحيدة -بعد فتح الله- التي يستطيع بها الإنسان أن يسبر أغوار القرآن الكريم، ويستنبط من آياته أحكاماً وحكماً، ليس يبلغها إلا العالمون على الحقيقة؛ لقول الله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} ³.

المطلب الثالث: تجليات التفكير في القرآن ومظاهره:

لما كان مقصد التوجيه القرآني للعقول البشرية مؤسسا على تدبر آياته الإعجازية، والتفكر في حكمه التشريعية، فقد استطاع القرآن الكريم بذلك أن ينتج عقولا عظيمة، ويبيّن بذلك صرحا فكريا عاليا، كما سننتبينه من خلال الوقوف على أهم تجليات التفكير ومظاهره في أمور ثلاثة:

أولاً: بناء شخصية عقدية:

إن أعظم ما يهدف القرآن الكريم إلى تحقيقه وتعميقه من خلال تدبر آياته هو الإيمان وترسيخ العقيدة، فإن درجة الإيمان تزداد بكثرة التدبر والتفكر، فينتقل المسلم بذلك من مرحلة التعقل والتفكر القلبي إلى مرحلة التذوق الوجداني؛ لاطمئنانه إلى حقيقة خالقه جل وعلا. وكلما كان الإنسان أقوى إيمانا وأعمق تصديقا، كان أكثر تأثرا وتأثرا بمشاهد القرآن الكريم؛ ومن أجل هذا المعنى جمع القرآن الكريم بين "الذكر" و"التفكر" في سياق الثناء على العقلاء وأولي الألباب، والحث على التفكير في آن واحد، فقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ⁴ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وَفُوعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ⁴، بيد أن

1 - سورة الأعراف، الآية: 199.

2 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم، 6/ 2657، رقم: 6856.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 43.

4 - سورة آل عمران، الآية: 191.

الذكر أعم من التفكير؛ لأنه نوعان: الذكر باللسان، والذكر بالجنان (وهو التفكير)، كما نبه عليه المفسرون¹.

وكثير من الآيات القرآنية تتحو هذا المنحى الإيماني، فاستطاعت -في وقت وجيز- أن تبني مجتمعا متكاملا، قويا بإيمانه، ومعتمدا على عزمته وإرادته، واضعا أمام ناظره قول الله تعالى: {فَلَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}².

ثانيا: تحرير العقول وبناء الإنسان:

إن من مظاهر التدبر في آي القرآن بناء عقول عاملة؛ وهو هدف نبيل جاءت سائر الرسالات السماوية من أجل تحقيقه وترسيخه، ومارس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذا في مراحلهم الدعوية، ووقفوا جميعا عند هذه النقطة الهامة.

وقد وقف القرآن الكريم عند بعض هذه المواقف التي تبني العقول وتنمي الحاسة النقدية لدى الإنسان في قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث رسم لعباد الأصنام من أمته طريقة واضحة في التحرر من الأوثان، فقال تعالى -بعد أن ذكر تحطيم إبراهيم لأصنامهم-: {فَالَوْآءَ أَنْتَ بَعَلْتَ هَذَا بِعَالِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ بَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِفُونَ ﴿٦٧﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَفَدَّ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْبَغُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؕ إِيَّاكُمْ وَلِلَّهِ كُفْرُكُمْ وَلِيْلَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَقْبَلَا تَعْفَلُونَ} ³.

وقد وقف السيد قطب عند قوله تعالى: {بَلْ بَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ}، فأوضح أن إبراهيم لم يكذب في قوله هذا، وإنما قصد أن يبين سخافة عقولهم وأفكارهم، ونقض تصرفاتهم وهدم تقديسهم لأوثانهم وتماثيلهم، وبناء عقولهم، فبين لهم أن الأصنام المعبودة لا تعرف من حطمها ولا تحمي نفسها من أحد، فهي إذن جماد لا يضر ولا ينفع، "وأنتم مثلها في عدم التمييز بين الجائز والمستحيل (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وقد هزهم هذا التهكم الساخر، فرجعوا إلى شيء

1 - التحرير والتنوير، لابن عاشور، 2/

2 - سورة التوبة، الآية: 51.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 62-66.

من التدبر والتفكر، وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم¹.

ثالثاً: الاهتمام بتبيين مقاصد الأحكام وغايات التشريع:

إن فهم أسرار التشريع وإدراك مقاصد الأحكام وغاياتها مظهر عظيم وهدف نبيل من مظاهر التدبر وأهداف التفكير، وهذا ما نلامسه في ذكر الله تعالى لبعض الحكم من أوامره ونواهيه بعد تقريرها وتشريعها مباشرة؛ ليبرز بذلك أساس الحكم المقرر، وينبه المستمع إلى أعمال نظره وفكره في إدراك المغزى. وكثيراً ما يستخدم القرآن في هذا الصدد كلمتي: "لعل" أو "لام التعليل".

وهنا أورد نموذجاً نتبين من خلاله هذا البعد الغائي،= من خلال النداء القرآني ودعوته إلى أعمال الفكر في إدراك الحكمة المنصوص عليها، وأمثلة لذلك بجعل الحكمة من الصيام هي "تحقيق التقوى" كما جاء في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}²، فقد نبه الله تعالى على الحكمة إجمالاً، وترك للعقل مجالا يدرك فيه هذه الحكمة "التقوى"، من خلال أعمال العقل في إدراك العلاقة بين الصيام والتقوى.

وكثيرة هي الآيات التي تشير إلى حكمة الحكم الشرعي إشارة مجملة دون الإفصاح عن تفصيلاته؛ لتفسح المجال أمام عقول المتدبرين والمتفكرين لينهلوا من موارد القرآن الكريم ومعينه، ويكتسبوا منه طرق استنباط الأحكام وأسرار التشريع. ومن هنا تختلف أفهام الناس ومداركهم، فيستنبط بعض الفقهاء -كالشافعي مثلاً- سبعين مسألة من آية واحدة، والله ذو الفضل العظيم {يُوتَىٰ الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}³.

المبحث الثاني: مصطلح النقد في القرآن المجيد:

لم يرد مفهوم "النقد" بهذا اللفظ مصرحاً به في القرآن الكريم، وإنما ورد النقد في القرآن على وجه من الممارسة والتطبيق، لذلك فإن كلمة "النقد" بهذا الأصل (ن ق د) لا وجود لها في القرآن الكريم، غير أن مؤداها ومضمونها وارد وحاضر بقوة في أغلب السياقات والسور القرآنية، فلا تخلو آية إلا وهي متضمنة أمراً بمعروف ونهيًا عن منكر، أو تعقيباً على أمة من الأمم، أو

1 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 4/ 2387.

2 - سورة البقرة، الآية: 182.

3 - سورة البقرة، الآية: 268.

تحذيرا للمشركون وعبداء الأصنام، أو تصحيحا للمناهج ودعوة الناس إلى أعمال العقل والنظر. وكل ذلك مندرج ضمن مدلول "النقد القرآني"، كما سنتبينه من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: مدلول النقد:

يرجع معنى "النقد" في اللسان العربي إلى أصل واحد، هو إبراز الشيء وبروزه¹، ومن هنا ورد استعماله في نقد الدراهم؛ لأن من خلاله يكشف عن حال الدرهم، هل هو جيد أم رديء، فنقد الدرهم: يعني الكشف عن حاله وإبراز صحيحه من فاسده وتميز جيده ورديئه، ثم استعمل اسما في مطلق التعامل بالدرهم أخذا وعطاء، فصار يجمع على نقود؛ ولهذا قال صاحب العين في كتابه: "النقد تمييز الدراهم، وإعطاؤها إنسانا وأخذها"².

من هذا الأصل اللغوي الذي يدل على الكشف والتمييز، أخذ مفهوم "النقد"، فاستعمل مصطلحا دالا على معان مختلفة باختلاف العلوم والتخصصات، فاستعمله الفقهاء في معنى التعجيل وخلاف النسيئة، فقالوا: باعه كذا وكذا نقدا³، وهو مرادف لقولهم: يدا بيد، أي دون تأخير، كما استعمله المحدثون والأدباء وغير هؤلاء في مختلف الفنون والمعارف الإسلامية ليدل على التمييز والتمييز بين الأشياء حتى يبرز صحيحها من سقيمها، وجيدها من رديئها.

فمصطلح "النقد" إذن مصطلح شرعي قد استخدم في معارف وعلوم عدة، وبناء على ذلك فقد جاءت تعريفات النقاد لمفهوم "النقد" مختلفة ومتفاوتة، لكن رجاها دائرة على ركنين اثنين، هما: إظهار عيوب الشيء، وإبراز محاسنه. فليس النقد -كما قد يتبادر إلى ذهن البعض- مقتصر على إبراز المعاييب ومكامن النقص والزلل، بل هو أيضا: إبراز مواضع الحسن والجمال في الشيء، حتى يتميز الخبيث من الطيب، كما يدل على ذلك اللفظ القرآني في قوله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}⁴.

ومن أهم التعريفات المصطلحية العامة التي حاولت الجمع بين تعريفات النقاد والباحثين لمفهوم النقد: تعريف الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله، حيث عرف مصطلح "النقد" بأنه: "عملية رصد لمواطن الخطأ والصواب، في موضوع معين بعد دراسته وفحصه؛ من أجل تقويم وتصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بذلك الموضوع"⁵.

من خلال هذا التعريف ندرك أن النقد يتوجه إلى كل إنتاج أو موقف بشري يعتريه الخلل والنقصان، دون أن يتوجه إلى وحي الله تعالى المعصوم من الخطأ والزلل، كما ندرك أن النقد

1 - ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 5/ 375، مادة (نقد).، ولسان العرب، لابن منظور، مادة (نقد). 3/ 425.

2 - العين، للخليل بن أحمد الفراء، 5/ 118، كتاب القاف، باب القاف والداد والنون.

3 - ينظر: الموطأ، للإمام مالك، 2/ 663، وبداية المجتهد، لابن رشد، 2/ 124، والمجموع، للنووي، 13/ 352.

4 - سورة آل عمران، الآية: 179.

5 - أبجديات البحث في العلوم الشرعية، للدكتور فريد الأنصار رحمه الله، ص 98، نشر دار الفرقان، المغرب، ط 1، 1417 هـ/ 1997 م.

عملية صعبة، تتطلب معرفة شاملة بموضع النقد ومحلّه، فليست مجرد رؤية سطحية؛ لأنها عملية مركبة تتطلب مهارات مختلفة في التقويم والتحليل والتفسير والاستنتاج.

المطلب الثاني: بناء الحس النقدي في القرآن:

دعا القرآن الكريم أمة الإسلام في غير ما موضع من سوره وآياته إلى النقد الذاتي، ترغيا وترهيبا، وأمرأ ونهيا، فاستطاع أن يغرس هذا الحس النقدي في أمة القرآن المؤمنة بتشريعاته وتعاليمه على مر تاريخها وعبر عصورها. وشواهد ذلك ودلائله كثيرة جدا في نداءات القرآن، أبرزها قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّسْ ضَلَّ إِذَا إِهْتَدَيْتُمْ} ¹، وقول الله تعالى مخاطبا نبيه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} ²، كما ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤسس للعلاقة الأسرية، وتضبط المسلم وتحذره من الانجرار وراء فتنها واتباع هواه المطلق، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} ³.

وباستقراء آيات القرآن الكريم وفواصله نتبين أن القرآن الكريم كتاب علم ونقد وهداية، يدعو إلى المنهج العلمي في تتبع الحقائق، وينبذ التسليم المطلق والانجرار وراء كل ما قيل، فأمر بالتبين والتثبت، ونهى عن الإمعية، وأمر بإقامة الحجج والبراهين، ونهى عن الانجرار وراء أهواء النفس وشهواتها. ومن هنا يمكن إجمال بناء القرآن الكريم لهذا الحس النقدي في أمور ثلاثة، هي:

- التبين والتثبت من الوقائع والأحداث والقضايا:

من أصول القرآن الكريم ومناهجه العامة التي أسست عليها معارف وعلوم شرعية كثيرة (كأصول القضاء، والجرح والتعديل، وغير ذلك من المعارف): أصل التثبت ومنهج التبين، حيث دعا القرآن أمته إلى ضرورة التأكد والتثبت من كل أمر يعن ويعرض لها، من وقائع وأحداث كيفما كانت، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ بِأَسْوَأَ بَيِّنَةٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} ⁴. وعبر سبحانه

1 - سورة المائدة، الآية: 107.

2 - سورة التحريم، الآية: 1.

3- سورة التغابن، الآية: 14.

4 - سورة الحجرات، الآية: 6.

وتعالى ب"التبين" للحث على بلوغ ذروة البيان، فمعناه: قوة الإبانة بطلب البيان والتعرف على طريقته¹، وقرأ حمزة والكسائي {فَتَثْبُتُوا}، أي طلب الثبات والثبات².

وكلتا القراءتين دالتان على مبدأ التأكد وداعيتان إلى التثبت بالطرق العلمية الأخرى، فلا ينبغي للمؤمن أن يسلم بكل ما يصله من الحقائق والمعارف من طريق واحد، بل يجب النظر في كافة الطرق والأطراف الأخرى حتى يتأكد من صحة ما بلغه.

- الدعوة إلى إقامة الحجج والبيانات:

من بديع ما يوصف به القرآن الكريم: أنه كتاب حجة وبرهان، وقد سلك الخطاب القرآني في سبيل بناء الحس النقدي لدى عموم المخاطبين منهجا بديعا، دعا فيه إلى ضرورة الاعتماد على اليقين والبرهان القطعي، ويرفض الخطاب القرآني دعاوى المشركين التي لا حجة لها، وطالبهم بإقامة الحجج والبراهين على ما يدعونه من أباطيل وشبهات، وعاب عليهم اتباع الأهواء والظنون، فقال تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ}³.

والدعاوى ما لم تقيموا عليها *** بينات أبناؤها أدعياء⁴.

فجمع القرآن الكريم بين المنهج والتطبيق، فلم يكن الخطاب القرآني يدعو إلى إقامة الحجة ثم يتركه، بل كان يرد على المزاعم ويفندها بالحجة والبرهان، فكرر القرآن الكريم مطالبة الأدعياء بإقامة الحجة والبرهان في غير ما آية وسورة، ومن ذلك قول الله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِ اللَّهَ فُلٌ هَآئُوًا بِرُهْنَكُم مِّنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}⁵. وقد أفصح الخطاب القرآني وبين نوع الحجة التي ينبغي أن يحتج بها المعاندون، ويستند إليها المدعون، كما يؤخذ من مفهوم قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ}⁶. فقد أشار القرآن الكريم هنا إلى ثلاثة أنواع من الحجج والبيانات، التي يمكن اعتمادها والاعتداد بها أثناء الاحتجاج والتحاور في وحدانية الله تعالى، وهي ثلاثة أنواع، علم مكتسب مبني على الاستدلال العقلي السليم، وعلم مستفاد من عالم آخر يهتدى به، وعلم منصوص عليه في الكتب السماوية المنيرة. قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وشمل قوله: {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا

1 - ينظر: تفسير الألوسي، 298 / 13، والتحرير والتنوير، 231 / 26.

2 - المرجع نفسه.

3 - سورة النجم، الآية: 23.

4 - مقتطف من همزية البوصيري رحمه الله.

5 - سورة النمل، الآية: 66.

6 - سورة لقمان، الآية: 19.

هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} مراتب اكتساب العلم وهي إما: الاجتهاد والاكتساب، أو التلقي من العالم، أو مطالعة الكتب الصائبة¹.

– التحذير من اتباع الأهواء النفسية والوقوع في براثن الفتن:

من أهم الأساليب التي انتهجها القرآن الكريم في سبيل بناء الحس النقدي لدى عامة المسلمين: أسلوب التحذير والتخويف من الأهواء واتباع الشهوات النفسية، فانطلق الخطاب القرآني من الترهيب والتخويف من الوقوع في تأليه النفس وإشباع رغباتها ونزواتها دون تفكير وتذكر، فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَفَلَبِهَ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}²، كما أكد على ضرورة اتهام النفس وعدم ائتمانها في غير ما آية، فقال تعالى – كما في سورة يوسف-: {وَمَا أَكْبَرُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}³ ودعا إلى إعمال العقل والنظر من أجل تطهير النفس وتركيتها، فقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَإِنَّهَا يُجْوَرَهَا وَتَفْوِيهَا ﴿٨﴾ فَدَا فَجَحَ مَسْ رَكِّيَّهَا ﴿٩﴾ وَفَدَّ خَابَ مَسْ دَسِّيَّهَا}⁴. ولأن الإنسان بطبعه – مجبول على الميل إلى الملذات والشهوات، كما هو مستفاد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"⁵، فقد حذر القرآن الكريم من الانصياع لهواه واتباع شهواته، وأقامه على شريعة غراء تقيمه على صراط سوي مستقيم. قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}⁶، كما يظهر هذا التحذير من النفس في أمر الله تعالى بالعدل في الأحكام، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا فَوَّامِينَ بِالْفِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَفِيرًا بِاللَّهِ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا}⁷.

1 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 21 / 175.

2 - سورة الجاثية، الآية: 22.

3 - سورة يوسف، الآية: 53.

4 - سورة الشمس، الآية: 7 – 10.

5 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، 8 / 142، رقم الحديث: 7308.

6 - سورة الجاثية، الآية: 17.

7 - سورة النساء، الآية: 134.

المطلب الثالث: أهداف النقد وغاياته:

مما لا يتصور عقلا وفطرة في النقد القرآني البناء أن يكون نقدا من أجل النقد فحسب، كما لا يتصور أن تكون حواراته ومناظراته وقصصه لغاية الحكاية والسرد فحسب؛ لأن ذلك من العبث واللغو، وكلام الله تعالى منزّه عن كل ذلك، فتعين أن هناك أهدافا وغايات كبرى من النقد القرآني، باعتباره كتابا سماويا، غرضه الكلي الأسمى: إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام وضيائه، وتخليصهم من عبادة العباد إلى إخلاص العمل لرب العباد، بالإضافة إلى أهداف وغايات جزئية أخرى كبيرة، أقف على أهمها فيما يلي:

1 - بناء صرح عقدي سليم: فإن النقد في القرآن لم يكن لمجرد هدم ما عليه الناس من عبادة الأوثان، أو لمجرد الكشف عن تهافت المشركين في تقربهم بالعبادة إلى ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وإنما كان النهج القرآن بالإضافة إلى ذلك، حريصا على التقويم والبناء، وإصلاح ما أفسدته المعتقدات الخرافية. ومن هذا المنطلق جاء القرآن الكريم داعيا إلى تحقيق وحدانية الله تعالى بإخلاص العبادات والأعمال كلها لله وحده، فلا رب سواه، ولا معبود بحق إلا الله، فدعا القرآن الكريم من بدايته إلى نهايته - إلى الإيمان بالله واحدا لا شريك له، مناديا إلى إعمال الفكر والنظر في آيات الله تعالى ومعجزاته الكونية الباهرة، فقال في أول البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [٢] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ¹، وقال في الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [١] اللَّهُ الصَّمَدُ} [٢] لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [٣] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ².

2 - تهيئة الأفراد والمجتمعات الإسلامية لتقبل الانتقادات الذاتية وأخذها بعين الاعتبار، وقد رسخ القرآن الكريم هذه الغاية في الرعيّل الأول الذين عايشوا تنزل الوحيين كتابا وسنة، كما نجد ذلك بالملاموس في قولة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "قد وليت عليكم، ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني" ³. وهذا تطبيق للمنهج القرآني في النقد: أنه لا معصوم إلا الله، ف"كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" ⁴.

1- البقرة: 20 - 21.

2 - سورة الإخلاص.

3 - تاريخ الطبري، 245/2، دار الكتب العلمية، ط 1، 1407هـ.

4 - أخرجه الترمذي في سننه، صفة القيامة والرقائق والورع، 4/659، الحديث رقم: 2499.

3 - كما يتغىي هذا النقد القرآني ترويض الناس عامة والمسلمين خاصة على اكتشاف أخطائهم وإمعان النظر في ذاتهم (النقد الذاتي)، وتقبل الانتقادات الموجهة إليهم بصدر رحب، ومحاولة إصلاحها. وفي سبيل تحقيق هذا القصد وردت آيات كثيرة تنادي المومنين بخطاب نقدي يغرس في الناس حب الإصلاح والتصالح مع الذات.

ومن هذه النداءات النقدية القرآنية قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} ¹، وقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْصِفُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} ²، وقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} ³، وتوبيخ من يظهر خلاف ما تبطنه أفعاله في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} ⁴، إلى غير ذلك من النداءات القرآنية التي ترسخ هذا المبدأ النقدي في الصف الإسلامي، لتحقيق بذلك تخليق الحياة العامة في مجال المعاملات والسلوك على وجه الخصوص.

4- ترسيخ منهج الدعوة إلى الله في نفوس المسلمين، وبناء آليات النصيح والتوجيه والإرشاد، عبر موهبة نقدية فريدة، تنطلق من المسلمات، ولا تتسرع في الوصول إلى النتائج. بل هي قائمة على منهج التدرج في عملية الإصلاح، لما تقتضيه عملية بناء الأفراد والمجتمعات من التريث والتأني؛ لأنها قائمة أساسا على مراحل زمنية متعددة، كمرحلة الانتقاء والاصطفاء، ثم مرحلة الإعداد التي تتطلب زمنا ليس باليسير.

إلى غير ذلك من غايات النقد القرآني وأغراضه الخاصة التي تدعو عموم المخاطبين إلى تصحيح أوضاعهم الإنسانية: اجتماعيا، وثقافيا، وعلميا، واقتصاديا، وأخلاقا، وآدابا.

المبحث الثالث: مدلول المنهج في القرآن المجيد:

يسير القرآن المجيد في عرض أحكامه العقائدية والتشريعية ونقد السلوكات الإنسانية وفق منهج منضبط في عرض الأحكام والنقد والمعالجة وسوق البراهين والأدلة، والتوجيه بالقصص وأساليب الحكاية، والتربية على القيم على حد سواء، فكان القرآن الكريم أعظم كتاب وأرقى خطاب منهجي عرفته الحياة البشرية عبر عصورها وقرونها، سواء فيما يتعلق منه بخطاب

1 - البقرة: 262.

2 - البقرة: 266.

3 - النساء: 29.

4 - الصف: 2.

العقول، أو بخطاب الوجدان، {قَوَّرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِفُونَ} ¹، و{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} ²، خطاب قرآني مجيد {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ³. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تؤسس لمنهج الخطاب النقدي في القرآن، تحقيقاً لقول الله تعالى: {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَابِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ⁴.

المطلب الأول: مصطلح المنهج في القرآن:

يعتبر القرآن الكريم خطاباً سماوياً صالحاً لكل زمان ولكل مكان، ورسالة ربانية موجهة إلى كافة العالمين، ذكرانا وإناثا، أفرادا وجماعات، وهو تبعا لذلك كتاب أصول ومعالم منهجية كبرى في التشريع والتربية والنقد والتوجيه، حتى يساير بذلك مستجدات الحياة البشرية، ويمد العقل الإنساني والإسلامي بأصول الاستنباط ومناهج الاستدلال: {إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} ⁵، ثم حث القرآن الكريم على إعمال العقل في إدراك النواميس الكونية والمعالم المنهجية في دلالات كتاب الله المجيد، فقال تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ⁶.

وقبل الخوض في تفاصيل المنهج القرآني ودوره في توجيه النقد القرآني من أجل بناء الإنسان عقلاً وسلوكاً، أقف عند مفهوم "المنهج" في القرآن الكريم. فقد وردت كلمة "المنهاج" في كتاب الله ملتصقة بـ"الشريعة" في قول الله تعالى: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} ⁷. وهو اشتقاق يرجع في أصله اللغوي إلى معنيين متباينين، يدل أولهما: على

1- سورة الذاريات، الآية: 23.
2 - سورة الطارق، الآية: 13 - 14.
3 - سورة فصلت، الآية: 41.
4 - سورة فصلت، الآية: 52.
5 - سورة المائدة، الآية: 4.
6 - سورة الأنبياء، الآية: 10.
7 - سورة المائدة، جزء من الآية 50.

الطريق البين الواضح الذي يسير وفقه السائر دون انقطاع وانحراف حتى يصل مقصده، ويدل ثانيهما: على الانقطاع وخلاف البيان والوضوح¹.

ومن المعنى الأول أخذ مصطلح "المنهج" الذي يدل على معنى الطريق الواضح، ثم استعير في سلوك الطريق المعنوية، فأطلق على الدين والرسالة الإسلامية؛ لكونها طريقاً بيناً واضحاً، كما استعيرت له لفظة "الشرعة، أو الشريعة"²، غير أن بين المصطلحين فرقاً دقيقاً، حيث جرى استعمال الشريعة في بيان الأحكام التفصيلية، كما يفيد سياق الآية، بخلاف المنهج الذي يعتبر طريقاً واضحاً للوصول إلى تلك الأحكام، تدليلاً واستنباطاً، ويؤيد هذا المعنى: أن أصل "الشرعة والشريعة" في اللغة هو: الماء الكثير من نهر أو واد وكل مورد³، والمنهاج الطريق الواسع، الذي يصل الناس عبر سلوكه إلى ورود الماء⁴.

من هذا الأصل اللغوي لكلمة المنهج الذي يتضمن صفتي الوضوح، والاستقامة، أخذ مفهوم المنهج، ليدل على نفس المعنى العرفي الذي نقصده في بحثنا هذا، وهو المشار إليه في سورة الفاتحة بقول الله تعالى: {إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}⁵، وقد أجمع المفسرون أن "الصراط" هنا مستعار، إما للدين أو للقرآن، وهما متلازمان⁶؛ لأن كلا التوجيهين له ما يؤيده في آيات الله المبين، كقول الله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}⁷. وفي التعبير بصيغة "أفعل التفضيل (أقوم)" دلالة على أرقى درجات الاستقامة، حيث يستلزم ذلك معاني ودلالات أخرى، كمبدأ "القصد"، والوسطية، والاعتدال، والمداومة، يقول الإمام القرطبي رحمه الله - بعد أن عرض أقوال المفسرين في قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ

إِسْتَفْمُوا}⁸ -: "قلت: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك"⁹، فتبين أن مفهوم "المنهج" - كما نستفيده من سياقات القرآن الكريم وأحاديث النبي الأمين - قائم على أسس ثلاثة، هي:

أولاً: المبادئ والنواميس المنضبطة التي يمكن اعتبارها من السنن القرآنية، بل تعتبر من سنن الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل، ويدل على هذا الأساس آيات كثيرة، منها: قول الله تعالى: {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ

1 - ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: نهج، 5/ 361.

2 - معجم الفرواق اللغوية، لأبي هلال العسكري، 1/ 298، ط 1، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي.

3 - مقاييس اللغة، 3/ 203، ماد (شرع).

4 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 6/ 223.

5 - سورة الفاتحة: 5.

6 - المحرر الوجيز، لابن عطية، 1/ 74، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.

7 - سورة الإسراء، الآية: 9.

8 - سورة فصلت، الآية: 29.

9 - الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، 15/ 358، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ/ 1985م.

مُهِتَدُونَ¹. وغالبا ما يختتم هذا المبدأ المنهجي بعبارة "سنت الله"، كما في قول الله عز وجل:
 {قَلَمْ يَكُ يَنْبَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْهِ فَدْ خَلَّتْ فِي
 عِبَادِهِ²}.²

ثانيا: الدقة في البيان والوضوح، فالقرآن الكريم كتاب فصاحة وبيان، قائم على أساس
 الدقة والإحكام في آياته، كما يدل على ذلك قول الله تعالى: {أَلَّا كِتَابٌ أَحْكَمَتْ
 - آيَتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ³}.³

ثالثا: الاستقامة والقصد، وهو من أبرز معالم المنهج القرآني، الذي يعتبر رسالة الوسطية
 والاعتدال، يحث على التزام القصد والتوسط في كل الأمور، حتى يتييسر للناس التزامه والمداومة
 على أحكامه وتشريعاته في أقوالهم وأعمالهم، كما يفيد ذلك آيات وأحاديث كثيرة، أهمها: قول
 الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا⁴، وقول النبي صلى الله عليه وسلم:
 "سدّدوا وقاربوا واغدّوا وروحوا وشئ من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا"⁵. ومن فقه الإمام البخاري
 رحمه الله أن بوب لهذا الحديث بقوله: "باب القصد والمداومة على العمل"⁶، فإن "أحب الأعمال
 إلى الله أدومها وإن قل" كما صح في الحديث⁷.

لا ريب إذن، أن القرآن منهج حياة، يهتم بالأنظمة الإنسانية، وتصحيح مسارات الأفراد
 والمجتمعات من بداية تكوينها وتأسيسها إلى بلوغ غاية مراحلها، وينظم سلوكياتها التعبدية
 والأخلاقية، الفردية والمجتمعية، ويحدد لها "المسارات العامة، ثم يترك المجال لحركة الفرد
 والمجتمع، كي يأخذا دورهما الطبيعي الذي يتم في ظل قوانين وسنن أودعها الله تعالى في
 الوجود كله، فالتأصيل رباني، والتفصيل إنساني، والتطبيق ميداني"⁸. فالإنسان ملزم بإعمال
 عقله من أجل إدراك التفصيلات التي تجاوزها القرآن الكريم وترك مجال النظر فيها مفتوحا أمام
 عقلاء المجتهدين والمفكرين.

1 - سورة الأنعام، الآية: 83.

2 - سورة غافر، الآية: 84.

3 - سورة هود، الآية: 1.

4 - البقرة: جزء من الآية 142.

5 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، 5/ 2337، الحديث رقم: 6098.

6 - صحيح البخاري، 5/ 2372.

7 - متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري في باب القصد والمداومة على العمل، 5/ 2373، الحديث برقم: 6464. ومسلم في كتاب: صلاة

المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، 2/ 189. الحديث برقم: 783.

8 - منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي، للدكتورة تهاني عفيف يوسف جابر، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص 16.

المطلب الثاني: دور المنهج القرآني في بناء النقد:

إن للمنهج القرآني في بناء العقل الإنساني وتوجيه سلوكاته التوجيه السليم أثرا كبيرا جدا؛ لأنه جاء بخطاب نقدي مرن، مؤسس على منهج التدرج، ومراعاة أحوال المخاطبين، ورفع الحرج، ولزوم القصد والاعتدال، وقائم قبل ذلك كله على ما جبلت عليه الفطرة الإنسانية، ومالت إليه العقول السليمة: {بَأْفِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ¹.

ويتجلى أثر المنهج القرآني في بناء النقد القرآني وتوجيه العقل الإنساني وسلوكاته: في أصول نقدية وضوابط توجيهية وتربوية عامة، أجملها في أصول أربعة، هي:

- أولها: بناء إنسان عالم: فإن أول طريقة رسمها القرآن الكريم من أجل بناء الإنسان هي طريقة التعلم، فكان أول أمر وجهه القرآن المجيد إلى عموم المخاطبين هو الأمر بالعلم والقراءة وبناء المعرفة، فقال تعالى: {إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ²، حتى سمي المصدر الأول في التشريع الإسلامي ب"القرآن"، فاشتقت حروفه من كلمة "اقرأ"؛ حتى تعيد الأمة قراءته بروح جديدة عند كل تغير وكل تجدد، فهو أمر متكرر، يتجدد الأمر به في كل زمان وفي كل محيط، لتعاد قراءته، من أجل "أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطار (الكونية) لأن ذلك وحده الذي سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنساني وصياغته" ³؛ نعيد قراءته؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي استطاع في ظرف وجيز أن يبني أمة "لم يتخيل أحد أنهم سوف يُكوّنون أمة، وبنى على أيديهم حضارة ما تزال غرة في جبين تاريخ الحضارات. وأقام على الأرض عمراناً ما شهدته الأرض قبل القرآن ولن تشهده بعده" ⁴.

من هذا المنطلق دعا كثير من الدارسين والمفكرين إلى قراءة النص القرآني بروح معرفية معاصرة، كما نلمس ذلك في قول الدكتور نصر حامد أبي زيد: "إن المعنى ذو طابع تاريخي (...) والمغزى وإن كان لا ينفك عن المعنى بل يلامسه وينطلق منه - نوا طابع معاصر، بمعنى أنه محصلة لقراءة عصر غير عصر النص" ⁵، فدعوا إلى تحقيق المعاصرة القرآنية عبر

1 - سورة الروم، الآية: 59.

2 - سورة العلق، الآية: 1 - 5.

3 - أزمة الإنسان ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، للدكتور: طه جابر، ص: 48، نشر: دار الشروق، سلسلات إسلامية.

4 - أزمة الإنسان ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، للدكتور طه جابر العلوني، ص 30،

5 - الخطاب والتأويل، للدكتور نصر حامد أبو زيد، ص 264، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

التفاعل فيما بين الواقع والنص القرآني من خلال تجديد المعرفة القرآنية¹، فيكون الأمر الوارد في قول الله تعالى: {اقرأ} أمراً بتجديد الفكر وتجديد المعرفة الإسلامية، وتطويرها حسب ما يقتضيه السياق المكاني والزمني، عبر العصور والدهور.

- ثانياً: إعداد إنسان متواضع لله تعالى خاضع لأوامره: ومن المراحل المنهجية التي سلكها القرآن الكريم من أجل تهيئة إنسان سليم بعد إعداده علمياً: إعداده فكرياً وعقدياً، حتى ينشأ على اعتقاد جازم بأن الله واحد أحد، متواضع له، ممتثل لأوامره، غير مستكبر على الله تعالى، غير باغ على أوامره، موقن بأنه عبد الله المكلف بتنفيذ أوامره، لا لشيء إلا لأن الله أمره وخالقه. ولا أدل على هذا المعنى من قول الله تعالى: {قَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} ²، فهي آية عظيمة جاءت لتقرير أصلي العلم والعمل بأوامر الله والخضوع لها. يقول العلامة ابن عاشور في تحريره "أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما له من العلم بوحداية الله، وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم؛ لأن في ذلك العلم، وذلك الدأب [أي عادة التواضع والخضوع لله عز وجل] استمطار الخيرات له ولأئمة"³.

وهذا الأصل توافرت الآيات القرآنية على اعتباره وتقريره، فجاءت آيات كثيرة في إنذار المستكبرين، وإخضاع المتجبرين المعرضين، ومن ذلك قول الله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} ⁴، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا فَدَّمتْ يَدَاهُ} ⁵، حتى تبلغ بالإنسان أسمى معاني التواضع وأعلاها في قول الله عز وجل: {قَلَا تَزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ} ⁶، وتصل به إلى تحقيق أزكى معان الانتماء إلى الدين الحق بالاستسلام والخضوع التام لأحكامه وتشريعاته، في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ

1 - ينظر: قراءات معاصرة في النص القرآني، لمجموعة من المؤلفين، ص: 69، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، نشر: مكتبة مؤمن قريش، ط 1، بيروت، 2008م.

2 - سورة محمد، الآية: 20.

3 - التحرير والتنوير، 104 / 26.

4 - سورة الأعراف، الآية: 146.

5 - سورة الكهف، الآية: 56.

6 - سورة النجم، الآية: 31.

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ¹. قال الطبري: "وقوله: {وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يقول: وقال: إني ممن خضع لله بالطاعة، وذل له بالعبودية، وخشع له بالإيمان بوحدايته"².

- ثالثاً: توجيه العقل البشري إلى إعمال النظر في الآثار: وهذا منهج نقدي رباني، يشمل مجالي العقيدة والمعاملات معا.

أما في باب الاعتقاد: فتكرر في آيات القرآن الكريم التنبيه إلى ضرورة النظر في المعجزات الكونية الظاهرة بدل البحث عن ذات الله الخفية، لأن حقيقته لا يمكن إدراكها وتصورها، ومن ذلك قول الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}³، وقول الله عز وجل: {يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}  أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁴. قال الرازي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: "إن الله تعالى ذكر ههنا خمسة أنواع من الدلائل: اثنين من الأنفس، وثلاثة من الآفاق، فبدأ أولاً بقوله: {خَلَقَكُمْ}، وثانياً: بالآباء والأمهات، وهو قوله: {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} وثالثاً: بكون الأرض فراشاً، ورابعاً: بكون السماء بناءً، وخامساً: بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض، وهو قوله: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ}، ولهذا الترتيب أسباب (ذكر منها): أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه. وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة، وكان أولى بالذكر؛ فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثناه بآبائه وأمهاته ثم ثلث بالأرض، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء. والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء"⁵.

وأما في أساليب الاستثمار ومجال التعامل المالي فقد نبه الله تعالى إلى ضرورة إعمال العقل في آثار المادة وأساليب استثمارها، لا في أصل المادة ومصدر الثروة والرزق، لأن الله

1 - سورة فصلت، الآية: 32.

2 - جامع البيان في تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، 21 / 470، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ / 2000م.

3 - سورة الذاريات، الآية: 20 - 21.

4 - سورة البقرة، الآية: 20 - 21.

5 - مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، 2 / 336، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط 3، 1420هـ .

موجدها، ومتكفل بحفظها وتوفيرها، سواء في ذلك الثروات البرية، والبحرية، والجوية؛ لذلك انصب الخطاب القرآني على تصحيح طرق الكسب، وبناء اقتصاد قائم على الاستثمار السليم وفق معايير شرعية منضبطة وقوانين إلهية حاکمة. فأباح التجارة بيعا وشراء وحرم الربا، فقال تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ¹، ونهى عن الغرر وأكل أموال الناس بالباطل، فقال عز شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ} ².

- رابعا: النقد الذاتي: دعا القرآن الكريم إلى ضرورة التغيير والتحديث والنقد الذاتي على مستوى الفرد أو المجتمع، في غير ما موضع من سوره وآياته، حيث إن موضوع النقد والتحديث والتغيير الفردي والإنساني مجال واسع جدا، يتطلب الحديث عن جوانب الحياة كلها: اعتقادي وفكريا، وأخلاقيا وسلوكيا، واقتصاديا، وسياسيا، وأسريرا. فأسس الله تعالى لهذا الأصل بقوله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} ³، ففتح الله تعالى باب النقد الذاتي، والبحث عن وسائل التعديل وتصحيح المسار، منبها على دعائم نقدية عامة. أبرز ذلك قول الله تعالى -في خصوص تزكية النفس وتربيتها أخلاقيا-: {فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَتَّبِعُونَ} ⁴، وقول الله تعالى - في خصوص إرساء مبادئ الصدق ونبذ الكذب والنفاق الاجتماعي-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} ⁵ كَبُرَ مَفْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} ⁵.

وعلى هذا النهج سائر التوجيهات القرآنية التي ترسم مبادئ التغيير والإصلاح بين الأفراد والمجتمعات، وتعتبر عملية الإصلاح هي التي تضمن وتكفل بقاء المجتمع البشري آمنا مطمئنا، كقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} ⁶، فجعل الله عدم الإصلاح والقيام بواجب التغيير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عاملا من عوامل خراب الديار وهلاك العمران، ونزول النقم، وانعدام النعم، كما هو مشار إليه في قول الله عز وجل -في سياق الحديث عن اليهود-: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

1 - سورة البقرة، الآية: 274،

2 - سورة النساء، الآية: 29.

3 - سورة الرعد، الآية: 12.

4 - سورة النجم، الآية: 31.

5 - سورة الصف، الآية: 3.

6 - سورة هود، الآية: 117.

أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ¹، وهي سنة الله الكونية التي قررها القرآن في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ²}. وهكذا كان القرآن الكريم نذيراً وبشيراً، يؤسس للعملية النقدية وبيئتها في نفوس الأفراد والمجتمعات الإسلامية حتى يكون التغيير فيهم سجية وطبيعة.

المطلب الثالث: خصائص المنهج القرآني ومميزاته:

إن القرآن المجيد خطاب رباني متميز، قائم على منهج تواصلية ورسالي بديع، وسائر على سبيل حوارى ونقدي فريد، سواء تعلق الأمر بأسلوبه البياني، أو بتشريعاته وأحكامه العقدية والفقهية، أو بتوجيه السلوك وتصحيح المسارات، فإن له في كل ذلك خصائص ومميزات منهجية مرنة، تجعله خطاباً يتجدد بتجدد الزمان والمكان. ومجمل هذه الخصائص المنهجية أربعة أمور:

أولها: التبين والتثبت:

من أبرز الخصائص المنهجية في القرآن الكريم: تأسيس أحكامه وحواراته على مبدأ التبين والتثبت، كما هو ثابت بالنص القرآني صراحة، وكناية، وإشارة وإيماء. ومن أظهر تلكم النصوص وأقواها دلالة قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ قَاسٍ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوْا أُنْ تُصِيبُوا فَوْماً بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ³}. فإن الله عزوجل قد مكن الإنسان من وسائل الإدراك والتثبت، وزوده بأجهزة العلم والمعرفة، وجعله مسؤولاً عنها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فقال تعالى في محكم التنزيل: {وَلَا تَفْوَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا⁴}. فوجب إمعان النظر والتثبت والتبين من الأفعال والأقوال، أثناء الأخذ والتلقي، والمحاورة والمحاجة، كما نستنبط هذا من محاورة نبي الله سليمان عليه السلام للدهد، حيث قال -كما في الآية الكريمة-: {فَال سَنَنْظُرُ أَصَدَفْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ⁵}.

1 - سورة الأعراف، الآية: 163.

2 - سورة الأعراف، الآية: 95.

3 - سورة الحجرات، الآية: 6.

4 - سورة الإسراء، الآية: 36.

5 - سورة النمل، الآية: 27.

على الرغم من تقديم الهدهد لخبره بأنه نباً يقين، فقال: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ} ¹؛ لأن عملية التثبت والتبين من صفات العقلاء وأنبياء الله تعالى.

ومما يؤكد هذا الأصل أن الإسلام دين العقل والعلم، ولا يقبل من أتباعه الإيمان بالحقائق الكبرى التي جاء بها الإسلام بمجرد التلقي دون نظر وتمحيص، ولذلك نجد القرآن المجيد قد قدم نصوصاً كثيرة تفرض النظر وإعمال الفكر للوصول إلى اليقين والتسليم المطمئن، ومن ذلك قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} ²؛ فعبر بالعلم دون القول؛ لأن مجرد القول باللسان يحسنه كل الناس عقلاؤهم ومجانينهم، كفارهم ومؤمنوهم، أما العلم فمتوقف على عملية الاستدلال والتدبر والتبين عن طريق النظر في ملكوت السماوات والأرض.

فالنص القرآني والديني -عموماً- يمتاز بخاصة التبين والتثبت، حتى كان لها أثر بارز وكبير في التشريع ومجالات الدين كله، عقيدة، وعبادات، ومعاملات، وأخلاقاً. ففي مجال الطهارة مثلاً: نجد فقهاء المالكية قد اعتبروا مجرد الشك في الحدث بعد الطهور ناقضاً للعبادة ³، وفي مجال الطهر من الحيض نجد الشارع الحكيم قد اعتبر الحيض علامة تتيقن بها المرأة من براءة رحمها، فقال تعالى: {وَالْمُطَلَّفُ يَتَرَبَّصُّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} ⁴، وفي تحديد دخول شهر الصيام: ينص القرآن على ضرورة التحري والتثبت من رؤية هلال رمضان، فيقول تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} ⁵، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأتوا عدة شعبان ثلاثين" ⁶. ومن أبرز ما جاء في التبين على وجه التصريح: تأكيد الله تعالى للتبين في باب الجهاد، وتكرار الأمر به مرتين، كما في قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا} ⁷.

1 - سورة النمل، الآية: 22..

2 - سورة محمد، الآية: 20.

3 - يقول ابن عاشر -رحمه الله- في منظومته المشهورة [المورد المعين على الضروري من علوم الدين]: "والشك في الحدث كفر من كفر".

4 - سورة البقرة، الآية: 226.

5 - سورة البقرة، جزء من الآية: 184.

⁶ - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الهلال فصوموا، 2 / 674، الحديث رقم: 1810، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان، 3 / 124، الحديث رقم: 2567.

7 - سورة النساء، الآية: 93.

ثانيا: التدرج في التقويم وتصحيح المسارات:

من سمات المنهج الرباني في القرآن المجيد -باعتباره مصدر التشريع الإسلامي الأول- سيمة التدرج في كافة أحكامه وقضاياه، ابتداء من إعداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم لتلقي الرسالة الربانية، نفسيا، وفكريا، وتربويا، وانتهاء بالتشريعات والأحكام الفقهية العامة. فكان أبرز هذه المحطات الأولية التي نلاحظ فيها خاصية التدرج محطة "غار حراء" التي تحنث فيها النبي صلى الله عليه وسلم الليالي ذوات العدد، من أجل إعداده وتهيئته، نفسيا، وسلوكيا، وفكريا؛ لأنه سيقوم بعملية البناء، ونقصد بالبناء هنا: بناء الإنسان، وبناء العمران، وبناء دولة مدنية عظيمة تصل إلى أقصى الغرب. هذا المقطع من السيرة النبوية ليس إلا بداية هذا النهج الرباني الفريد الذي بني عليه القرآن المجيد في تنزلاته، فكان ينزل منجما ويتدرج حسب حاجات الناس وقدراتهم الاستيعابية والإيمانية والعملية، لقول الله تعالى أواخر سورة الإسراء: {وَفَرَّأَنَا فَرَفَنَهُ لِتَفَرَّأَهُ، عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ¹. ويمكن تلخيص هذا المسلك الرباني في أسلوبين عالج بهما القرآن الكريم كافة العادات السيئة التي كانت مترسخة في المجتمع آنئذ. "فالأسلوب الأول: هو تأجيل العلاج حتى يستقر الإيمان في قلوب المسلمين بحيث يمكن الاستعانة بقوة الإيمان كدافع قوي يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة وتعلم عادات جديدة بدلاً منها. أما الأسلوب الثاني: فهو عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات، ومثاله الخمر" ².

وما أكثر الأمثلة التشريعية والنماذج النقدية التي جاءت لتصحيح المسارات العامة بهذا النوع من التدرج القرآني، وأبرزها: تحريم الربا، فقد مر بمراحل أربعة: **تبتدئ المرحلة الأولى** بنزول قول الله تعالى: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوْاْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُؤْاْ عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} ³، وهذه الآية الكريمة مكية، ليس فيها تحريم الربا ⁴، وإنما فيها الإشارة إلى بغض الله للربا، وأن الربا ليس له ثواب عند الله، فتحمل على أنها موعظة سلبية ⁵. ثم في **المرحلة التدرجية الثانية**: نزل قوله تعالى: {بِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ

1 - سورة الإسراء، الآية: 106.

2 - التدرج في التشريع الإسلامي، للدكتور: ماهر حامد محمد الحولي، بحث مقدم لورشة عمل "تطبيق الشريعة الإسلامية في ضوء الواقع الفلسطيني" الذي تنظمه كلية الشريعة والقانون بالتعاون مع جمعية القدس للبحوث والدراسات الإسلامية، المنعقد يوم الخميس 19 / نوفمبر / 2009م.

3 - سورة الروم، الآية: 38.

4 - بل نص الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي -رحمه الله- على أن الربا هنا محلل وفي آية البقرة محرم، كما في أحكام القرآن، 3 / 523، تخريج وتعليق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1424هـ / 2003 م.

5 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 3 / 80.

طَيَّبَتْ أَحَلَّتْ لَهُمْ وَبَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ¹، فحرم الله الربا تلويحا لا تصریحا؛ لأنه حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على أن الربا محرّم على المسلمين. وهذا نظير الدور الثاني في تحريم الخمر، حيث نزل قول الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْبَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا²، فكان التحريم فيه بالتلويح لا بالتصریح، ليزل في المرحلة الثالثة قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً³، فتدل الآية - بالتصریح- على تحريم الربا الفاحش، وهو الربا الذي بلغ في الشناعة والقبح مبلغا لا تحتمله العقول ولا تستحسنه الطبائع الإنسانية السليمة، حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافا مضاعفة، فيثقل كاهل المدين ويعسر عليه رده. وهو يشبه تحريم الخمر في مرحلته الثالثة، حيث كان التحريم جزئيا لا كليا، خاصا بأوقات الصلاة، كما يفيد قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ⁴. وفي المرحلة الأخيرة ينص القرآن الكريم على تحريم الربا مطلقا تحريما لا يفرّق فيه بين قليل أو كثير، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنِ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ⁵، وهذه الآيات الكريمة التي كانت المرحلة النهائية في تحريم الربا شبيهة بآية تحريم الخمر، حيث نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْكَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ⁶.

وبهذا التدرج الرباني استطاع القرآن الكريم أن يبني الإنسان، ويبلغ مبلغا كبيرا في معالجة كثير من أمراضه النفسية والاجتماعية، ويتمكن من تصحيح كثير من السلوكات

1 - سورة النساء، الآية: 159- 160.

2 - سورة البقرة، الآية: 217.

3 - سورة آل عمران، الآية: 130.

4 - سورة النساء، الآية: 43.

5 - سورة البقرة، الآية: 277.

6 - سورة المائدة، الآية: 92.

والمسارات الخاطئة في مجالات الاعتقاد والمعاملات التي كان عليها الناس قبل الإسلام، وأثناء مجيء الإسلام.

ثالثاً: الثبات ومسايرة المستجدات (المرونة):

من بين الإشكالات الكبرى التي ترد على النصوص التراثية الإنسانية عموماً قضية الثبات والتغير (ثبات النص وتغير الأحداث والأحوال)، لما لها من علاقة وطيدة بقضية التجديد وإمكانية التحديث، فنجد إمكانية الخضوع لمعيار "الثبات ومسايرة الزمان والمكان" في غير النص القرآني، كنصوص التراث الفقهي -مثلاً- أمراً مستحيلاً؛ لقصور النظر البشري، وعجز إدراكه عن تصور المستقبل، وبالتالي استحالة الشمول والإحاطة بدقائق الحياة وتفاصيلها.

لكن هذا الإشكال المنهجي يزول أثناء مواجهة النص الديني والقرآني على وجه الخصوص؛ لأنه نص رباني يمتاز بجمعه بين الثبوت وقابلية التجديد والتجدد، ومسايرة الأحداث والوقائع، وصلاحيته لكل زمان ومكان؛ لأن الغالب على النظم القرآني أنه لا يختص بزمان دون زمان، أو بمكان دون آخر، فإن النص القرآني "متجرد عن خصوصية الزمان والمكان، وآياته تمثل الدين الإلهي"¹، لأنه أنزل تاماً كاملاً شاملاً. كما نص عليه الله في قوله تعالى: {إِلْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً}²، وتم تشريعه بواسطة رسول بعث إلى الناس عامة، كما في قوله عز وجل:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}³. وقد استطاع فقهاء الأمة

ومفسروها البرهنة على هذا الأمر وترجمته إلى الواقع المشاهد، حتى اتضح للعيان أن النص القرآني والديني -عموماً- حافل بالحيوية، ومتميز بقابليته للاستمرار والتجدد، وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان، مصداقاً لقول الله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}⁴.

يقول سيد قطب رحمة الله عليه: "وتمت كلمة الله سبحانه صدقاً- فيما قال وقرر - وعدلاً- فيما شرع وحكم، فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان (...). ولا معقب لحكمه ولا مجبر عليه، إنه ليس المجتمع الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة، ليس المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية فتتغير

1 - دراسات في تفسير النص القرآني لمجموعة من الباحثين، 1/ 16.

2 - سورة المائدة، الآية: 4.

3 - سورة سبأ، الآية: 28.

4 - سورة الأنعام، الآية: 116.

قيمه وأحكامه (....) الإسلام يعين قيما ذاتية له يقررها الله، وهذه القيم تثبت مع تغير أشكال المجتمعات¹.

رابعاً: البيان ومراعاة أساليب الخطاب:

نزل القرآن المجيد بلسان عربي مبين، فجاء على وفاق ما يقتضيه واقع الأميين، فكان مقصده الأساس هو تحقيق البيان؛ لأن هدفه التواصل ووظيفته الإصلاحية إنما يتأسسان على "البيان". وهي سمة منهجية دلت عليها آيات كثيرة صريحة وردت مقترنة بما يفيد التعليل، كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ فَؤْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ²، وقول الله عز وجل: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ³، فبين تعالى أن القصد الأصلي هو البيان. ومما يؤكد هذا الهدف أمران اثنان، أولهما: نزوله بلسان عربي على وفق طبيعة الموحى إليه، والأمر الثاني: وصف القرآن الكريم في غير ما موضع من كتاب الله بـ"المبين" كما جاء ذلك في قول الله عز وجل: {الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمُبِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فَرَعَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ⁴، وكما هو منصوص عليه في قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ⁵.

فقد بين القرآن الكريم أنه نزل لهدف البيان حتى يستعد الإنسان لاستقبال أحكامه وتشريعاته، ويعتبر بما يحكيه من القصص، ويضربه من الأمثال، ويتدبر في آياته، ويتبصر بأساليبه البيانية المعجزة. ومن أبرز دلالات الإعجاز البياني في القرآن هنا: أمران اثنان:

أولهما: القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، فإنهما "نهایتان، كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما (...). ذلك على أن البلغاء مهما أوجفوا من ركابهم، ومهما أجلبوا بخيلهم ورجلهم، لا يبلغ الواحد منهم بعلمه غاية أمله، وإنما يبلغ كما قلنا إلى كمال نسبي بقدر ما يحيط به علمه،

1 - في ظلال القرآن، 3/ 1195 - 1196، نشر: دار الشروق، القاهرة.

2 - سورة إبراهيم الآية: 5.

3 - سورة النساء، الآية: 26.

4 - سورة يوسف: 1 - 2.

5 - سورة النحل، الآية: 103.

وما يؤدي إليه إلهامه في الحال، أما الوفاء بالمعنى حق وفائه ... فذلك أمر لا يستطيع أن ينتحله رجل اکتوى بنار البيان، فضلا عن أن ينحله الإنسان غيره"¹.

وثانيهما: خطاب العامة والخاصة: فإن القرآن الكريم خطاب رباني إلى الناس أجمعين، بمختلف مراتبهم وطبقاتهم المعرفية والاجتماعية. "يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلامه وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكافة الخلق، كما دل عليه قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}²"³. وبعد تحديد مفاهيم مفردات عنوان البحث من خلال القرآن أُنقل إلى بيان مكونات المنهج النقدي في القرآن في الفصل الآتي:

1 - النبأ العظيم، لفضيلة الدكتور عبد الله دراز، 109 - 100.

2 - سورة القمر، الآية: 17.

3 - النبأ العظيم، 113.

الفصل الثاني: مكونات المنهج النقدي في القرآن المجيد:

يقوم المنهج النقدي في القرآن على أساس "فقه الحجاج والمناظرة" الذي يقتضي الصدق والموضوعية، والاستدلال وإقامة الحجة والبرهان، وإبراز مكانة العقل في إدراك الأشياء على حقيقتها، بعيدا عن اتباع الأهواء والظنون وتقليد الآباء والأجداد، كما يصنعه المعاندون. فالقرآن أعظم كتاب فسح المجال أمام الإنسان لإعمال عقله وبصيرته، وممكنه من وسائل المنطق والإدراك، وإن للقرآن المجيد في ذلك ومبادئ نقدية، ندرسها فيما يلي من المباحث والمطالب.

المبحث الأول: مبادئ النقد في القرآن المجيد:

أسس القرآن الكريم لأركان نقدية علمية، هي بمثابة قواعد منطقية حاکمة تضبط عملية النقد والحوار؛ حتى يتبين لكافة العقلاء أن القرآن الكريم منهج حياة، ودستور علمي استدلالي، قائم على الحوار، وأساليب النقد البناء الذي جعل "الإصلاح" قصده وغايته؛ {إِنْ أَرِيدُ إِلَّا
الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} ¹، وتفصيل ذلك في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الموضوعية في حكاية الرأي الآخر:

إن الموضوعية والاعتراف بالآخر وحكاية آرائه ومزاعمه أساس النقد البناء والحوار الجاد الذي يراد منه أن يكون مثمرا وذا نتيجة إيجابية فعليا وعمليا، وليس معنى الموضوعية والاعتراف بالآخر والاعتبار برأيه هنا الإقرار بأنه على حق وصواب، وإنما معناه: الاعتراف بوجوده واحترام كيانه وحقه البشري في التفكير والرأي والتعبير. فالقرآن الكريم لم يسلب أحدا حقه في هذا الجانب، بل أثبتته وحكاه بكل موضوعية وإنصاف، ثم رد عليه بالحجة وأساليب البيان {فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} ²، فقد واجه المشركين، وتصدى لهم، وناظرهم وظهر عليهم فيما يتقولونه ويعتقدونه، حتى قال الوليد بن المغيرة -وهو أشد الناس عداوة للقرآن- "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفل له لمغذوق، وإن أعلاه لمثمر" ³.

ومن هذا المنطلق، فإن القرآن الكريم يستحضر أقوال الغير رغم فسادها وبطلانها، بل ويخلدها للتاريخ؛ إنصافا للمجاهد رغم ما هو عليه من فساد في الرأي والإدراك، فيمنح الفرصة للآخر بالقول، على أن يأتي الحق فيدمغ الباطل والقول الفاسد؛ كما نص عليه قول الله تعالى: {نَفْذِفْ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا

1 - سورة هود، جزء من الآية: 88.

2 - سورة النمل، الآية 66.

3 - دلائل النبوة، للإمام البيهقي، كتاب: جماع أبواب المبعث، باب: اعتراف قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، 2 / 198، بتحقيق عبد المعطي قلججي، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1408 هـ / 1988 م.

تَصِبُّونَ} ¹؛ ولأن القرآن كتاب حوار ومجادلة، فإنه يترك الخصم ليبين معتقده ويظهر موقفه دونما إغفال له؛ كما يذكر إيجابياته وسلبياته على حد سواء. فقد قال تعالى في سياق الحديث عن أهل الكتاب ومحاورتهم: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِفِنطَارٍ يُؤَدِّهِ² إِلَيْكَ} ²، وأثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على النجاشي، وذكر ما فيه من خصال الخير وهو غير مسلم، فقال: "إن بها ملكا لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده حتى يأتيكم الله عز وجل بفرج منه ويجعل لي ولكم مخرجا" ³.

فمطلب الموضوعية ونقل الرأي الآخر أمر أساسي في الحوار والنقد البناء الذي يهدف إلى بيان الحقيقة ودحض الشبهة والباطل، ولو تتبعنا هذا الأسلوب في آيات القرآن المجيد لوجدناها أكبر من أن تحصى، لكنني أحاول استخلاص أبرز الآيات القرآنية التي تبرز أصل الموضوعية والاعتراف بالرأي الآخر، باعتباره ثابتا من ثوابت النقد القرآني المجيد. ومن ذلك:

1 - حكاية دعاوى أهل الكتاب ومزاعم اليهود والنصارى، ومن ذلك: ادعائهم أن النار لن تمسهم إلا بمقدار عدد الأيام التي عبدوا فيها عجل السامري. قال تعالى: {وَقَالُوا لَسَ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً فَلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ⁴ أَمْ تَفُوتُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ⁴؛ ولأن هذه الدعوى مبنية على أمر غيبي لا يثبت إلا بنصوص الوحي، خاطبهم القرآن قائلا: إن دعواكم هذه قائمة على أحد التقديرين: إما أن يكون لكم عهد وبرهان من الله تعالى فيلزمكم الإدلاء به، والله لا يخلف وعده، وإما أن يكون قولكم مجرد ادعاء وتقول على الله تعالى بلا علم، فتكون دعواكم باطلة؛ لأنها خالية من الدليل. والافتراض الأول باطل قطعاً؛ وبقي الافتراض الثاني وهو خلو دعواهم من الحجة والبرهان، فكانت باطلة، كما ردها عليهم الإمام البصيري رحمه الله في همزيته بقوله:

والدعاوى ما لم تقيموا عليها *** بينات أبناؤها أدياء

ومن ذلك: ادعائهم أن الله أبناء، كما حكى الله ذلك في قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} ⁵، فذكر قول الآخر بكل موضوعية وإنصاف، حتى يؤسس لأصل نقدي حوارى بديع. فاليهود يزعمون أن عزيرا ابن الله،

1 - سورة الأنبياء، الآية: 18.

2 - سورة آل عمران، الآية: 74.

3 - سيرة ابن إسحاق = السير والمغازي ص 174، تحقيق: سهيل زكار، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 1، 1398 هـ / 1978 م.

4 - سورة البقرة، الآية: 79.

5 - سورة التوبة، الآية: 30.

وكذلك النصارى يزعمون أن عيسى ابن الله، وقد نفى الله عنه كل ذلك في قوله: {وَقَالُوا
اِتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ فَلَنُتُونَ
{1}.

2 - دعوى المنافقين بأنهم الأعز الذين سيخرجون المسلمين "الأذل" من المدينة. قال
تعالى في حكاية ادعائهم: {لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} ². فالأعز في كلمة المنافقين وقعت كناية عن
فريقهم، والأذل وقعت كناية عن فريق المسلمين، فجاء كلام الله تعالى فنزع العزة عن فريق
المنافقين وأثبتها للمؤمنين، فكأنه قال: صحيح ما تقولون، ليخرجن الأعز منها الأذل، ولكن
الأعز هو الله ورسوله والمؤمنون، فأبطل الله ادعائهم على طريقة القول بالموجب، وأسلوب
التسليم الجدلي ³.

3 - حكاية ادعاءات المشركين ومزاعمهم على القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى:
{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا
يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} ⁴،
فوقع قوله تعالى: {إنما يفترى الكذب} ردا لقولهم: {إنما أنت مفتر} بقلب ما زعموه عليهم، ورموا
به النبي صلى الله من الافتراء - وهو اختلاق الكذب - عليه، كما كان قوله تعالى: {لسان الذي
يلحدون إليه أعجمي} جوابا عن قولهم: {إنما يعلمه بشر}. فبعد أن نزه القرآن عن أن يكون
مفترى والمنزل عليه عن أن يكون مفتريا ثني العنان لبيان من هو المفترى. وهذا من طريقة
القلب في الحال. ⁵، فجاء القرآن الكريم فحكى ما قاله المشركون بكل موضوعية وإنصاف

1 - سورة البقرة، الآية: 115.

2 - سورة المنافقون، الآية: 8.

3 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 249 / 28 وما بعدها بتصرف.

4 - سورة النحل، الآيات: 102 - 105.

5 - التحرير والتنوير، 290 / 14.

للخصم، وأثبتته كاملاً دونما تغيير أو تحريف بزيادة أو نقصان، مهما كان كلاماً جارحاً أو كاذباً في حق الله أو حق رسوله صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: النقد بالبينة والبرهان:

من أبرز ركائز النقد القرآني وأساسه: الحجة والبرهان، فلا ادعاء يثبت إلا بحجة وبرهان، ولا حديث يصدق إلا ببينة وسلطان، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} ¹، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ فِيلًا} ²؛ ذلك لأن الحق والصواب لا يقوم إلا على الحجج والبراهين. ومن هنا كان خطاب القرآن الكريم للمشركين وكافة المعاندين مبنيًا على مبدأ المطالبة بالحجة وإقامة البينة على ما يزعمونه ويدعون. قال تعالى: {فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ³، وهو عام في كل دعوى تحتاج في تصديقها إلى الدليل والبرهان، سواء كانت في الأمور العقديّة، أو التشريعية، وسواء كان ذلك بالدليل العقلي أو النقلي، كما أسس له القرآن الكريم في قوله تعالى: {فَلْ أَرِيتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَفُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِمَّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ آثَرَةٍ مِمَّنْ عَلَّمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ⁴، فطالب بإثبات ذلك بالدليل العقلي أولاً، ثم بالدلائل والحجج النقلية ثانياً. قال ابن تيمية رحمه الله: "فالكتاب هو الكتاب -أي جنس الكتب المنزلة من عند الله- والآثار كما قال من قال من السلف: هي الرواية والإسناد يكتب بالخط، وذلك لأن الآثار من الأثر (...) يؤثر بالإسناد ويقيد ذلك بالخط، فيكون ذلك كله من آثاره" ⁵.

فلكي يكون الحوار منتجا ومثمرا لا بد من بناء أفكاره على الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة، والمنقولات الثابتة الصريحة؛ لما تقرر قرر عند علماء المناظرة في قاعدتهم المشهورة "إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل" ⁶. ومن هنا كانت عناية القرآن الكريم بالحجة والبرهان شديدة وكبيرة؛ لكثرة ما يدعو إلى إقامة الدليل والبرهان، باعتباره الميزان الذي على وزانه تؤخذ الأمور أو ترد، وتقبل الدعاوى أو تصد. قال الفخر الرازي -في تفسير قوله تعالى:

1 - سورة النساء، الآية: 86.

2 - سورة النساء، الآية: 121.

3 - سورة النمل، الآية 66.

4 - سورة الأحقاف، الآية 3.

5 - درء تعارض العقل والنقل، 1/ 57 - 58.

6 - ينظر: علم البحث والمناظرة، لطاش زده، بتحقيق أبي عبد الرحمن ابن عقيل، ص 33، وضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة، ص: 369.

{فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي} ¹:- "دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفياً أو إثباتاً فلا بد له من الدليل والبرهان" ².

ومن يمعن النظر وينعمه في آيات القرآن يجد أن كلمات "البرهان" و "السلطان" و "الحجة" قد وردت في سور عديدة من القرآن المجيد، وتأتي كثير من هذه الآيات في سياق حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين، ومطالبته لهم بتقديم الأدلة والبراهين التي تؤيد مزاعمهم وتؤكد معتقداتهم، وإلا كانوا مجاحدين منكرين، يحق عليهم العقاب والهلاك، كما عرض بهم القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً - آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} ³. كما تكررت لفظة "البرهان" في آية أخرى في نفس السياق الحوار، حيث يدعو القرآن الكريم غير المسلمين إلى التفكير في مخلوقات الله تعالى وعجائب صنعه وبدائع كونه، فقال تعالى: {أَمْ يَبْدَوُاْ أَنَّهُمُ الْخُلُقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَّرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَهُ مَعَ اللَّهِ فَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ⁴.

وفي سياق إنكار الله على المشركين مجموعة من الأمور والمسائل التي تتعلق بالإيمان بالله وادعاء أن له ولداً، نجد التعبير بلفظة "سلطان"، كما في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكِهَمَ لَيَفْضُلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَقَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَقْبَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ} ⁵.

وينبه القرآن على تهافت العقائد وسخافة الآراء التي لا تستند إلى دليل وسلطان، فيقول تعالى في محاجة المشركين وإبطال ديانتهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىَّ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا فُسِمَةُ ضِرْيَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ

1 - سورة الأنبياء، الآية: 24.

2 - تفسير الفخر الرازي= مفاتيح الغيب، 4 / 6، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.

3- سورة المومنون، الآية: 118.

4 - سورة النمل، الآية: 66.

5 - سورة الصافات، الآيات: 51- 56.

وَأَبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ¹. وما أكثر الآيات التي تتضمن هذه الكلمات الحجاجية وأمثالها، نكتفي منها بما أوردناه من الآيات التي تنص على أن إقامة الدليل والتمسك بالبرهان والتسلح بالعلم الوافي بمجال الحوار وموضوعاته ركن من أركان الحجاج والمناظرة المعتبرة؛ ومن أجل ذلك كان العلم وإقامة البينة والبرهان أصلاً من أصول الحوار النقدي في القرآن الكريم. فتعين على كل من يتصدى للحوار مع الآخر أن يكون متسلحاً بسلاح العلم؛ لأن الحوار القائم على الجهل بمجال المحاور وموضوع المناظرة يؤدي بالمحاور إلى الجدل المذموم المنهي عنه في القرآن المجيد: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلَسَّعِيرٍ²}.

ويؤكد القرآن على ضرورة التثبت من هذا الأمر، والتأكد من استصحاب الكتاب والتسلح بالعلم، كما دعا إليه في غير ما آية من كتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: {قَاتُوا بِكِتَابِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³؛ وقوله تعالى في محاوراة اليهود لما اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم في أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها، فادعوا تحريمها-⁴: {كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّا قَبْلُ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁵، فالإسلام دين العلم والهدى والبصيرة والكتاب، كما يفيد قول الله عز وجل: {فُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي⁶. "فإذا تم الالتزام بهذه الأسس فإن الحوار ينطلق معتمداً على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، فما أكثر ما يرد في القرآن: {فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ⁷}.⁸
وقد أنكر القرآن الكريم على من يجادل الناس بغير علم إنكاراً شديداً، كما جاء في الاستفهام

1 - سورة النجم: الآيات: 19 - 23.

2 - سورة الحج، الآية: 3 - 4.

3 - سورة الصافات، الآية: 157.

4 - أسباب النزول، للواحي، ص 75 - 76، نشر: دار الباز للنشر والتوزيع - دار الاتحاد العربي للطباعة.

5 - سورة آل عمران، الآية: 93.

6 - سورة يوسف، الآية: 107.

7 - سورة الأنبياء، جزء من الآية: 24.

8 - ضوابط الحوار مع الآخر، للدكتور سعد عبد الله عاشور، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الأول، ص 94، 2008.

الإنكاري -ردا على أهل الكتاب الذي يجادلون في ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام- الوارد في قوله تعالى: {هَآأَنَآمُ هَآؤَلَاءِ حَآَجَآَتُمْ فِيمَآ لَآكُمْ بِهِ عِلْمٌ قَلِمَ آَحَآَجُونَ فِيمَآ لَيْسَ لَآكُمْ بِهِ عِلْمٌ} ¹.

المطلب الثالث: ضبط الثوابت والمسلمات والانطلاق من المشتركات:

ينطلق القرآن الكريم في عملية النقد والحوار الحجاجي من المسائل والقضايا المشتركة التي يجتمع فيها ويتفق مع الطرف المخالف، خاصة من أهل الكتاب، كما يفيد قول الله عز وجل: {قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَآبِ تَعَالَوْآ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ} ². وبذلك تتحدد نقط الائتلاف والاختلاف، وتتبين مواطن الاتفاق والافتراق، فيبدأ الفريقان في معالجتها والتحاور عليها برؤية علمية تستند إلى الأدلة والبراهين العقلية والشرعية والحسية. وقد قال المفسرون: إن "الكلمة السواء" التي دعا إليها القرآن هي: ما يستوي فيه الفريقان، وهي هنا ما لا يختلف فيها الرسل والكتب السماوية المنزلة من عند الله. قال الطبري: "إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل هي أن نوحده الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئاً" ³، ويؤكد هذا ما جاء بعد هذه الآية في قول الله تعالى: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} ⁴. يقول الشيخ رشيد رضا: "فلما نكلوا دعاهم إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء وهو سواء بين الفريقين أي عدل ووسط لا يرجح فيه طرف آخر، وقد فسر به بقوله: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ} ⁵، ويقول الإمام الألوسي رحمه الله -تعليقا على الآية-: "وهي كلمة التوحيد وترك اتباع الهوى والميل إلى السوي، فإن ذلك لم يختلف فيه نبي ولا كتاب قط ما كان إبراهيم الخليل يهوديا متعلقا بالتشبيه ولا نصرانيا قائلًا بالتثليث ولكن كان حنيفا مائلا عن الكون برؤية المكون مسلما منقادا عند جريان قضائه وقدره، أو ذاهبا إلى ما ذهب إليه المسلمون المصطفون القائلون ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" ⁶.

1 - سورة آل عمران، جزء من الآية: 65.

2 - سورة آل عمران، جزء من الآية: 63.

3 - تفسير الطبري، 6 / 483.

4 - سورة آل عمران، الآية 63.

5 - تفسير المنار، 3 / 268.

6 - روح المعاني، للألوسي، 2 / 212.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وضعت أصلاً كبيراً من أصول الحوار والمناظرة بين المسلمين وأهل الكتاب وغيرهما من عامة المختلفين، حيث يلزمهم الانطلاق من القضايا المشتركة التي يتفق عليها جميع الكتب والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم ينظران فيما اختلفا فيه فيحققانه؛ ذلك لأن الحق في نفس الأمر واحد لا يختلف ولا يتعارض ولا يتعدد، لكنه قد يتنوع فيكون جنساً واحداً له أنواع، كلها ترجع إلى جنس واحد "ولهذا لا يمكن أن يكون دليلان قطعيان متعارضين، سواء كانا من المنقول أو من المعقول أو كان أحدهما عقلياً والآخر نقلياً (...). فالنقل الصحيح لا يتعارض في نفسه؛ لقول الله تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا}¹، وكذلك العقل الصريح لا يتعارض في نفسه"²، غير أن الاختلاف في القضايا الجزئية أمر وارد وواقع بين الناس في مختلف الأعصار والأمصار، بناء على اختلاف أفهامهم وتصوراتهم وإدراكاتهم، واتجاهاتهم وأغراضهم، تحقيقاً لقول الحق سبحانه: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}³.

يقول الفخر الرازي رحمه الله في توجيه الآية: "والمراد: افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال"⁴، فتعين أن يكون حوار الناس حول القضايا والمسائل الخلافية منطلقاً من الحديث عن مواطن الاتفاق، وتحديد محل النزاع والافتراق؛ لأن البدء بها سبيل إلى تحقيق التفاهم، والوصول إلى الحق والصواب، دون تشعب الحوار وتلاشي الأفكار، والدوران. يقول الدكتور محمد البهي رحمه الله: "لم يكن اختلاف الناس في الرأي واختلافهم في تطبيقه إلا وليد الاختلاف في تحديد مفاهيم الأشياء ومدلول الكلمات والمصطلحات، ولم يكن قيام المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية، ولم تكن التبعية لها والجمود عليها إلا نتيجة الاختلاف في الرأي وفي تطبيقه"⁵.

وبإمعان النظر في كتاب الله المجيد نجد هذا المبدأ حاضراً في نقده وحواراته مع غير المسلمين. ومن ذلك: الآية الواردة في التأسيس لمجادلة أهل الكتاب والتأصيل لمناظرتهم ومحاورتهم، بقول الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى ءُنْزِلَ إِلَيْنَا وَءُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}⁶؛ فقررت الآية أن يتم الابتداء بما هو مسلم لدي الخصمين معاً، مما "أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد"؛ ذلك لأن البداية بمثل هذه

1 - سورة النساء، جزء من الآية 81.

2 - منهج الجدول والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، للدكتور عثمان علي حسن، 695 / 2.

3 - سورة هود، جزء من الآية 118.

4 - مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، 410 / 18، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420 هـ.

5 - تحديد المفاهيم أولاً، للدكتور محمد البهي، نقلاً عن كتاب أدب الحوار في الإسلام، للدكتور محمد سيد طنطاوي، ص 54، نشر: دار النهضة، مصر، 1997 م.

6 - سورة العنكبوت، الآية: 46.

الأمر المسلمة تنتج حواراً هادئاً متسامحاً، يتبين منه الفريقان القواسم المشتركة والقضايا المتفق عليها فيما بينهما، ولهذا دعا القرآن الكريم المسلمين إلى إظهار موافقة الآخر في بعض ما يؤمن به أو يتفق فيه معه ولا يجحده، من توراة وإنجيل، وإيمان بالله الواحد الأحد. يقول الإمام المقاصدي الطاهر بن عاشور -مستتباً من جواهر هذه الآية الكريمة-: "وهذا مما يسمى تحرير محل النزاع وتقريب شقة الخلاف، وذلك تأصيل طرق الإلزام في المناظرة. وهو أن يقال: قد اتفقا على كذا وكذا فلنحتج على ما عدا ذلك، فإن ما أمروا بقوله هنا مما اتفق عليه الفريقان فينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق، وليس هو بداخل في حيز المجادلة؛ لأن المجادلة تقع في موضع الاختلاف"¹.

فغاية هذا الأصل الحوارى والمقصد منه: أن يجعل المتحاورين ينطلقان من مبدأ الاتفاق لا الاختلاف، حتى يرتاح كل منهما إلى الطرف الآخر، ويدركا أن "لا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدال والنقاش، وكلاهما مؤمن بالله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلهي متصل الحلقات"². ومن هنا وجه القرآن الكريم علماء الإسلام وفقهاءه وكافة المسلمين إلى ضرورة الرجوع إلى المراجع المتفق عليها عند اختلافهم وتحاورهم، فوجب الانطلاق من الوحي والرجوع إليه كلما وقع النزاع، كما هو مقرر في قول الله تعالى: {بِإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}³. وهي آية تشير إلى أن الاختلاف في الفهم أمر وارد وواقع؛ لأنه من طبيعة الإدراك البشري، ولإزالته يجب عليهم الاحتكام إلى الأصول المشتركة المتفق عليها بين المسلمين جميعاً -وهما أصلان: الكتاب والسنة- حتى يتضح الإشكال ويصل المتنازعان إلى الحل الذي يفض النزاع ويرفع الخلاف بينهما. ويعتبر هذا الأمر في الحقيقة هو الأصل الأول في عملية تسيير الحوار، حيث يجب الرجوع عند كل اختلاف إلى القاعدة المشتركة بين الطرفين. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإذا تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فأى القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه"⁴.

فلا يمكن "أن ينجح أي حوار إلا إذا انطلق من مرجعية متفق عليها بين الطرفين. أما إذا كانت الأطراف تنتمي إلى دين الإسلام، هنا ينبغي اتخاذ النصوص الشرعية مرجعية متفقة للحوار؛ اقتداء بقوله تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ}⁵،

1 - التحرير والتنوير، 21 / 7.

2 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 2745 / 5.

3 - سورة النساء، الآية: 58.

4 - الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، 78 / 5، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1408 هـ / 1987 م.

5 - سورة الشورى، الآية: 8.

(...) وأما إذا كان الطرف الآخر غير مسلم، فينبغي الاعتماد على القواعد والأسس المشتركة بين الأديان والحضارات، كالقواعد العقلية، والمسلمات، والمثل والقيم العليا، ونحو ذلك، التي يعرف بها الصواب من الخطأ والحق من الباطل¹.

المبحث الثاني: آداب النقد في القرآن المجيد ومبادئه

من أبرز القضايا النقدية التي أسس لها القرآن الكريم قضية المبادئ وآداب النقد والتحاور مع الخصم، إذ يستلزم ذلك التحلي بآداب النقد وقواعد الحوار، والتخلق بمجموعة من الصفات الخلقية التي تؤطر عملية التوجيه والإصلاح، وتسهم في إنجاحها بشكل كبير، حيث توفر حالة من الطمأنينة وتخلق جوا من التودد مع الآخر وانسراح صدره، فتكون سببا في بلوغ المراد وتوجيه الآخر بأدب جم. وفيما يلي من المطالب سأقف على جملة من الآداب النقدية التي أصلها القرآن الكريم، ودعا إلى مراعاتها وضرورة الاعتبار بها والأخذ بمبادئها.

المطلب الأول: مبدأ الحلم والصفح والصبر:

لما كان مجال النقد والحوار مظنة للمشاحنات والملاسنات، وكان سبيل الدعوة والإصلاح -على العموم- مليئا بالأشواك، اقتضى الأمر ضرورة التحلي بمبادئ العفو والحلم والرفق والتأني والصبر على الأذى والكلام الجارح، وليس لأحد كيفما كان، ومهما بلغت مرتبته العلمية والاجتماعية أن يختار بمفرده أية وسيلة يراها ناجعة في النقد والحوار، حتى لا تتحرف العملية النقدية عن مسارها الصحيح، فنتحول إلى جدال عقيم لا فائدة منه ترجى، {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}²، فوجب على المسلم ألا ينساق وراء كلام الطرف المخالف، فيبادله الملاسنة والمشاحنة، لقول الله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}³. وقديما قال الشاعر العربي:

من لي بإنسان إذا خاصمته *** وجهلت كان الحلم رد جوابه

وإذا صبوت إلى المدام شربت من *** أخلاقه وسكرت من آدابه

وتراه يصغي للحديث بسمعه *** وبقلبه، ولعله أدرى به⁴ ...

1 - ضوابط الحوار وآدابه في القرآن الكريم (نماذج وتطبيقات) للدكتور سجاد أحمد، وطاهر إسلام. مقال منشور في مجلة الأضواء، العدد 47 ج 32، ص 173.

2 - سورة الكهف، الآية: 53.

3 - سورة الأنعام، جزء من الآية، 109.

4 - هذه الأبيات نسبها غير واحد إلى أبي تمام، غير أنني لم أجدها في ديوانه، وممن نسبها إليه: شهاب الدين الأبيشي في المستطرف في كل فن مستظرف، 266 / 1، بتحقيق: د. مفيد محمد قميحة، نشر: دار الكتب العلمية، ط 2، 1986م.

ومن هنا أكد القرآن المجيد على ضرورة التحلي بخلق الحلم والصبر، تفاديا للوقوع في المحذور أثناء النقاش والنقد والإصلاح. وأبرز ما جاء في هذا الخصوص: قول الله تعالى: {قَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلَبِ لَآنَبَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ¹، رحيمًا بكافة الناس أجمعين، كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ²، فقد كان لهذا التآني وخلق الحلم الذي تحلى به النبي صلى الله عليه وسلم أثر كبير في إنجاح عملية الدعوة إلى الله تعالى، لما يتضمنه من التذلل والتواضع ولين الجانب، تحقيقًا لقوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ³، فكان لزامًا على كل عالم يتعرض للإصلاح والنقد والتوجيه، أن يتحلى بهذه الصفات القرآنية المجيدة. جاء في جامع بيان العلم وفضله أن ابراهيم بن أدهم رحمه الله⁴ قال: "ما من شيء أشد على الشيطان من عالم حلیم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: انظروا إليه، كلامه أشد علي من سكوته"⁵. وإنما قال ذلك لأن الناقد المصلح ينبغي أن يكون عالما بمواضع الكلام ومواطن السكوت، ولأن طبيعة مقام المصلح تقتضي الاتسام بالحلم والأناة في كافة أحواله وسائر أقواله وأفعاله، لما له من وقع كبير في كسب الطرف المخالف وإقناعه.

ومما يستوجب الرفق والتآني والصبر والترثيث إمهال الطرف الآخر وفسح المجال له حتى يتم كلامه ويفرغ من حديثه، ويبين حجته، ويورد أدلته، دون أن يقطع عليه محاوره شيئًا من ذلك. يقول إمام الحرمين رحمه الله: "وعليهما جميعًا أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه في نوبته"⁶. وبهذا أدبنا القرآن الكريم، كما جاء في سياق تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم من قول الله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْفَرْءِ إِنْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا⁷}. وقد تكرر الأمر بالصبر في غير ما موضع من القرآن الكريم، حتى يتجنب الإساءة إلى الغير، أو استصغاره واحتقاره، أو دفعه للحقد والبغضاء، فكان مما ورد في هذا الصدد قول الله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ⁸،

1 - سورة آل عمران، الآية: 159.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 106.

3 - سورة الحجر، جزء من الآية: 88.

4 - هو أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي التميمي، أصله من بلخ من أولاد الملوك، وكان زاهدا عالما، روى عن جماعة من التابعين. توفي سنة: 162 هـ. ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، 6/ 277 وما بعدها، وسير أعلام النبلاء للذهبي، 7/ 387 وما بعدها.

5 - جامع بيان العلم، للحافظ ابن عبد البر، 1/ 102.

6 - الكافية في الجدل، ص 533.

7 - سورة طه، الآية: 111.

8 - سورة لقمان، جزء من الآية: 16.

وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَفُولُونَ}¹، فالصبر قرين النقد والدعوة والإصلاح. " فإننا نجد التوجيه إلى الصبر بعد التوجيه إلى القيام والذكر، وهما كثيرا ما يقتربان (...) وكلاهما شاق عسير .. نجد التوجيه إلى الصبر. {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَفُولُونَ} مما يغيظ ويحنق، {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}²، لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة وبخاصة في أوائلها (...) وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جنته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملأذه"³، وهو أسلوب قرآني بديع، تكرر في القرآن الكريم كثيرا، بعبارات مختلفة، كما في قوله تعالى: {خُذِ الْعَبْرَ وَامْرِ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}⁴، وقوله عز وجل: {بِأَعْرَضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ}⁵. وكل ذلك مندرج ضمن الأمر الإلهي العام بالحكمة التي توجه العملية النقدية، وتضعها في مسارها الصحيح في قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ} ⁶. وأسمى ما تقتضيه الحكمة من المعاني هو الرفق والصبر والأناة؛ ومن أجل هذا المعنى العظيم قال المفسرون: إن الباء في قوله تعالى: {بالحكمة} للملابسة، "ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين: الحكمة، والموعظة الحسنة"⁷. فالحوار الجاد والنقد البناء متأسس على الرفق والحكمة ومبني على الصبر والتريث في القول والفعل، ومتوقف على النظر العميق في أحوال المخاطبين وظروفهم وعلى "القدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يتقل عليهم (...) فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه"⁸.

ومن مظاهر هذا الأدب النقدي القرآني البديع الهدوء وحسن الاستماع إلى الطرف الآخر، والإقبال التام على حديثه دون مقاطعته حتى يتم كلامه. فإن ذلك من تمام الصبر وكماله الدال على أن غرض الناقد المصلح إنما هو الوصول إلى الحقيقة والصواب، وكشف مواطن الزيف والانحراف لتجنب الفاسد منها وإصلاح ما يمكن إصلاحها منها. ولو صرنا إلى تتبع هذا النموذج النقدي في القرآن الكريم لوقفنا على آيات كثيرة تصور لنا تأثيره على عموم المخاطبين،

1 - سورة المزمل، جزء من الآية: 9.

2 - سورة المزمل، الآية: 9.

3 - في ظلال القرآن، 6/ 3747.

4 - سورة الأعراف، الآية: 199.

5 - سورة النساء، جزء من الآية: 62.

6 - سورة النحل، جزء من الآية: 125.

7 - التحرير والتنوير، للظاهر بن عاشور، 14/ 326 - 327.

8 - في ظلال القرآن 4/ 2202.

وكمثال على ذلك أقف على حوار نبي الله موسى لبني إسرائيل¹، حيث يعتبر حوار النقي منطلقاً من واقع الناس المعيش، وذلك عند قول الله تعالى: {فَالَوْ يَمْوِسَىٰ إِمَّا أَلَّا تُلْفَىٰ وَإِمَّا أَلَّا نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَىٰ} ١٤، قال بل أَلْفَوْا²، بكل ثبات وصبر وعدم استعجال رغم كل ما تعرض له قبل ذلك من السب والشتم ورميه بتهمة السحر. فلما جاء دور نبي الله موسى في الإدلاء بحجته، أمره الله تعالى بقوله: {وَأَلِيَّ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَفَّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ³، فما كان من سحرة بني إسرائيل بعد معرفة الحقيقة إلا أن خضعوا لها بعد قيام الحجج الدامغة عليها {فَبِأَلْفَىٰ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ⁴.

هكذا ضرب نبي الله موسى أروع الأمثلة على الصبر والرفق في مسيرته الإصلاحية، فحاور وناظر الجاحدين بالحكمة والموعظة الحسنة حتى استطاع أن يكسب قلوب بني إسرائيل بعد عملية حوارية طويلة، تخللتها ابتلاءات خطيرة -من الطاغية فرعون وحاشيته- تعرض فيها النبي موسى عليه الصلاة والسلام لأشد أصناف الأذى الجسدي والمعنوي، وصف لنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعض ذلك بقوله: "يرحم الله موسى، لقد أوزي بأكثر من هذا فصبر"⁵. وقد أكدت السنة النبوية -في غير ما مرة- أن الصبر والرفق زينة لا يكون في أمر إلا زانه، ولا يخلو من شيء إلا شأنه، فروت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شأنه"⁶.

المطلب الثاني: مبدأ القول اللين والمخاطبة بالتي هي أحسن

من المبادئ الأدبية العامة التي يتوقف عليها نجاح الحوار وقيام العملية النقدية الهادفة، القول اللين، ومخاطبة الطرف الآخر بالتي هي أحسن، فإن ذلك مما يلائم النفس البشرية، المفطورة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، لأن النفوس الإنسانية ميالة بطبعها إلى القول اللين، والخطاب الحسن. ومن أجل تأسيس هذا المعنى، قال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا⁷، دون التمييز بين مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم. يقول القرطبي رحمه

1 - وقد تكرر حوار في القرآن الكريم في أكثر من سورة.

2 - سورة طه، الآية: 64 - 65.

3 - سورة طه، جزء من الآية: 68.

4 - سورة طه، الآية: 69.

5 - متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى: وصل عليهم، 5/ 2333، الحديث رقم: 5977، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلف قلوبهم، 3/ 109، رقم: 2494.

6 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، 8/ 22، الحديث رقم: 6767.

7 - سورة البقرة، جزء من الآية: 82.

الله: "وفي هذا حث على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله لنا، ووجهه منبسطة طلقا مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مDAHنة، ومن غير أن يتكلم بكلام يظن أنه يرضي مذهبه"¹، وقال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية ما مجمله: "كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن (...) وأما دعوة الفاسق فبالقول الحسن فيه معتبر (...) وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}².

وللتأكيد على هذا المبدأ الحواري، وإبراز مكانته ودوره الكبير في ترشيد عملية النقد والإصلاح، وتحقيق أهداف المجادلة والحوار، قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}³، و نفس هذا النهج وُجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بالدعوة إلى الله عن طريق الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، فقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}⁴. فهو أمر بسلوك أنجع الطرق أثناء الحوار والمجادلة، ويقتضي ذلك لين الخطاب، والرفق بالطرف الآخر مهما كان متجبرا متكبرا، كما نجد ذلك في صنيع سيدنا موسى عليه السلام مع أطغى مَلِك على وجه الأرض، حيث أمر نبي الله موسى بالتزام القول اللين والخطاب الرقيق، الذي يصل إلى القلوب، فقال تعالى: {إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ بِفُؤَادٍ لَّهُ فَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ}⁵، فعلى الرغم من طغيان الخصم وقسوة قلبه أمر الله تعالى باللين في مخاطبته وأثناء الاستماع إلى كلامه؛ لأن في تليين القول ما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة⁶.

قد بيّن القرآن المجيد أن لحوار الجاد والنقد البناء مبناه على اللطف والهدوء، دون تسفيه الآخر وسبه وشتمه، مهما بلغ الطرف الآخر وبالع في السب والشتم؛ فلا يبغي الانسياق وراءه، والانجرار إلى معاملته بالمثل، كما بيّن ذلك في السنة النبوية أيضا. فقد صح في الحديث عن

1 - الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، 2/ 86.

2 - مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، 3/ 389.

3 - سورة العنكبوت، جزء من الآية، 46.

4 - سورة النحل، جزء من الآية: 125.

5 - سورة طه، الآيتان: 42- 43.

6 - تفسير أبي السعود، 3/ 362.

عائشة رضي الله عنها "أن رهطاً من اليهود استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك، فقالت عائشة رضي الله عنها: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله: يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله. قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد قلت وعليكم"¹؛ ذلك لأن السب والشتم إنما هو سلاح يجادل به الضعيف لا القوي، ولأن فاحش الحديث لا صلة له بتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، فهو مما يرجع عليها بالنقض والإبطال، لا بالنقد والإصلاح. وفي الحديث الشريف: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي"²، فلا يقابل الخطأ بمثله، بل الواجب عكس القضية تماماً، كما بين ذلك القرآن المجيد في صريح قول الله عز وجل: {وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}³، فوجب على الناقد المصلح توطين نفسه على لزوم العفو وترك مجازاة الإساءة بمثلها. ففي الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا"⁴، لأن ذلك من دواعي إنجاح العملية الحوارية والإصلاحية، حيث ينقلب حال الطرف الآخر من العداوة إلى المحبة، ومن البغضة إلى المودة⁵. يقول السيد قطب رحمه الله: "وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة والغضب إلى سكينه، والتبجح إلى حياء على كلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام! ولو قبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً. وخلع حيائه نهائياً، وأفلت زمامه، وأخذته العزة بالإثم"⁶.

ومما أشار القرآن المجيد إلى أنه يحقق مبدأ اللين والمخاطبة بالتي هي أحسن: مناداة الطرف الآخر بأحب الأسماء إليه وألطف الألقاب لديه، لما في ذلك من الدلالة على حبه، والإشعار بالاحترام والتقدير لشخصه، كما نجد هذا جلياً في محاوره خليل الله إبراهيم عليه السلام لأبيه، يتذلل إليه ويخاطبه بأقدس أنواع النداء، بقوله: {يَتَأَبَّىٰ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}⁷، ونجد لقمان يخاطب ابنه بشفقة الأب وحنانه،

1 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، 5/ 2242، الحديث رقم: 5678، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، 4/7، رقم: 5784.

2 - أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، 1/ 421، رقم الحديث 192، والترمذي في سننه، وقال: حديث حسن غريب، كتاب البر والصلة، باب اللعنة، 4/ 350، الحديث رقم: 1977.

3 - سورة فصلت، الآية: 33.

4 - أخرجه الترمذي في سننه، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. كتاب البر والصلة، باب الإحسان والعفو، 4/ 364، الحديث رقم: 2007.

5 - تفسير الرازي، 27/ 565.

6 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 5/ 3122.

7 - سورة مريم، جزء من الآية: 44.

فيقول: {يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} ¹. وهذا اللون من نداء الطرف الآخر ودعائه بأرقى الأساليب كثير ومتنوع في القرآن الكريم، مما يؤكد ويدل عليه: محاورة الصديق يوسف عليه السلام لرفيقه في السجن، إذ يخاطبهما قائلاً: {يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَّبَعُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ²، ففي مخاطبة الطرف الآخر بالصاحب دلالة قطعية على احترامه وتقديره، وحبه وقربه.

فالنصوص الحوارية في القرآن كلها دالة على أن الناقد والمصلح والمحاور مطالب بتحقيق مبدأ الملاطفة والمخاطبة بالتي هي أحسن "فالمحاور مطالب أن يشعر من يدعوه بأنه لا يتعالى عليه أو يتميز دونه، بل هو حريص عليه يتمنى له كل الخير؛ لأن حرص المحاور مفتاح من مفاتيح القلوب التي يفتح الله بها قلب من يحب من عباده، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، فقد كان ينظر على حال المشركين بعد محاورتهم" ³، كما دل على ذلك قول الله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ وَإِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَٰبًا} ⁴، وقوله تعالى في مفتح سورة الشعراء: {لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} ⁵. وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتبر الكلمة الطيبة صدقة، فقال في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: "الكلمة الطيبة صدقة" ⁶، وحكم القرآن بالويل والوعيد الشديد على كل همار لمار، فقال تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} ⁷.

وخلاصة هذا المبدأ النقدي الذي أصله القرآن الكريم: أن المصلح المحاور يلزمه أن يحرص على تجنب الألفاظ القبيحة المستهجنة، ويتخير الكلمات الجميلة، ويلتزم باستعمال الألفاظ الحسنة المقبولة في الشرع وفي عرف الناس وطبيعتهم، خالية من أي معنى قدحي ولو كان لا يفهم منه عن طريق الظاهر؛ ومن أجل بيان هذا الأمر وتأكيد هذا المعنى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نَظَرْنَا وَاسْمَعُوا} ⁸؛ لما في كلمة "راعنا" ⁹ من معنى خفي محتمل، كان اليهود يقصدونه في مخاطبتهم ومحاورتهم لرسول الله

1 - سورة لقمان، جزء من الآية: 12.

2 - سورة يوسف، الآية: 39.

3 - الدعوة: قواعد وأصول، لعبد العزيز جمعة أمين، ص 133، نشر: دار الدعوة للطباعة، الإسكندرية، ط 2، 1409 هـ، 1989 م.

4 - سورة الكهف، الآية: 6.

5 - سورة الشعراء، الآية: 2.

6 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآداب، باب طيب الكلام، 5/ 2241، الحديث رقم: 2827.

7 - سورة الهمزة، الآية: 1.

8 - سورة البقرة، جزء من الآية: 103.

9 - ذلك لأن راعنا يحتمل أن يكون مشتقاً من الرعي وهو المعنى الذي يقصده المسلمون، ويحتمل أن يكون مشتقاً من الرعونة، وهو المعنى المذموم الذي يقصده اليهود، كما بينه الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن، 1/ 49.

صلى الله عليه وسلم. قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله: "وهذا دليل على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعرض للتقصيص والغضب، ويخرج منه فهم التعريض بالقذف وغيره"¹، فتعين اجتناب كافة الألفاظ التي تحتل -بوجه من الوجوه- الإساءة إلى المخاطبين، لأن ذلك ينافي مبدأ احترام الطرف الآخر وإنصافه، كما سنقف عليه في المطلب الموالي.

المطلب الثالث: مبدأ احترام الطرف الآخر وإنصافه:

يعتبر تقدير الآخر وإنصافه وإنزاله منزلته ومكانته الإنسانية مبدأ ثابتاً من مبادئ النقد وآداب الحوار والإصلاح، وهو غير التملق والنفاق المزدول والمدح الكاذب والإقرار على الباطل²، بل غايته: التواضع للطرف الآخر، والاعتراف بجميله ومحاسنه، ومناقشة أفكاره بعيداً عن ذاته وشخصه، والتزام كل محاور بإفساح المجال للمخالف في الإعراب عن كل ما بجعبته والإفصاح عما بداخله؛ ذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، يقر بها إن كانت صواباً بلا تعصب، ويرد عليها إن كانت خطأ بالحكمة والتي هي أحسن. ومما له علاقة بهذا الأمر قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة لما لقي الشيطان: "صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان"³.

وإن مبدأ احترام الآخر وتقديره من أجل كسب قلبه وعاطفته وإذعانه منهج رباني له أسسه ودعائمه في القرآن المجيد، ومن ذلك قول الله تعالى في سياق محاوره المشركين: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}⁴، على الرغم من أن حججهم ظاهرة الفساد والبطلان، وذلك في غاية التأدب مع الآخر، واحترام الخصم والتخلي عن الاحتقار والتعصب المذموم، تنبئ عن الهدف من الحوار وغاية النقد والنقاش. ويلحق به: تجنب أساليب التحدي والتعسف في النقد والحوار، وإن كانت الحجة ثابتة بينة الدلالة قطعية لا ظنية؛ "لأن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف، وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه، وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسلميه وإذعانه. وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وجدت القناعة العقلية"⁵، فأتضح أن القرآن المجيد يسلك في عملية النقد والحوار مسلكين اثنين: أولهما محاولة كسب الطرف الآخر عاطفياً ووجدانياً، بواسطة مجموعة من الآداب والأخلاق الإنسانية الفاضلة، التي تجذب القلوب وتستهي النفوس البشرية المفطورة على حب من أحترمها وأحسن إليها. وثانيهما: إقناع الخصم بالأدلة والبراهين العقلية القاطعة، فيما إذا تعذر إقناعه بوسيلة الفطرة البشرية.

1 - أحكام القرآن، لابن العربي، 1/ 49.

2 - أصول الحوار وآدابه في الإسلام، لمصالح بن عبد الله بن حميد، ص: 33، نشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - مكة، ط 1، 1415 هـ / 1994م.

3 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، 3/ 1194، الحديث رقم: 3101.

4 - سورة سبأ، جزء من الآية: 24.

5 - أصول الحوار وآدابه في الإسلام، ص 25.

ومن احترام الغير وإنصافه الوارد في القرآن المجيد: الاعتراف بحسناته وإيجابياته، دون إقبارها والضرب عنها، ومما ورد في ذلك قوله تعالى -في سياق محاوراة أهل الكتاب-: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِفِئْتَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَآيِمًا} ¹، فبيّن القرآن المجيد بعض سمات الخير في الطرف الآخر احتراماً له وإنصافاً في نقل خبره وحاله، فلم يعمم في الحكم عليه بالشر فحسب، بل بين أن منهم الوفي والخائن، ولا يكون جميع أفراد أهل الكتاب خائنين ²، وقال سبحانه في موضوع آخر: {وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَمَةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَّعْدِلُونَ} ³، وفي هذا المنهج القرآني إشارة وتلميح إلى أن إنصاف الخصم واحترامه مما يقربه من قبول الحقيقة والإذعان لها، وأن إغاضته وعدم إنصافه واحترام مبادئه مما يؤثر عليه سلباً، ويحمله على التعصب وعدم الخضوع والإذعان للحقيقة وإن تبينها قلبه وأدركها منطقته. يقول الشيخ رشيد رضا في هذا السياق ذاته، موضحاً خطر تصرفات بعض المصلحين من المسلمين التي تخالف هذا المنهج النقدي القرآني الفريد: "وجملة القول: أن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم. والدقة التي نراها في تحريره الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ، فإذا نحن جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فإنهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الإسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع. ولكن وجد فينا من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الأمم من قبيل هجو غير المسلمين، وكل ما يحمده هو خاص بالمسلمين، حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الإسلام، ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق" ⁴.

وعلى هذا السنن جرى نهج النبي صلى الله عليه وسلم، حيث عامل بعض أهل الكتاب بما يستحقونه؛ فأثنى على النجاشي بما فيه من خصال الكفر وإن كان غير مسلم، فأمر صحابته بالمكوث بجوار النجاشي، قائلاً: "إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق، فحارزوا عنده يأتكم الله عز وجل بفرج منه، ويجعل لكم مخرجاً" ⁵، فتأدب بهذا الأدب صحابته رضوان الله عليهم، فأنصفوا مخالفيهم، وسلموا بما عندهم من الإيجابيات والأمر الحسن، ومما يدل على هذا الصنيع: قول المستورد القرشي وهو عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله

1 - سورة آل عمران، الآية: 74.

2 - تفسير المنار، 3 / 279.

3 - سورة الأعراف، الآية: 159.

4 - تفسير المنار، 4 / 55.

5 - سيرة ابن إسحاق، 1 / 174، تحقيق: سهيل زكار، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 1، 1398 هـ / 1978 م.

صلى الله عليه وسلم يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" ¹، فقال له عمرو: أبصِرْ ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويقيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك ². وهذا من العدل التام في الشهادة ونقل الأخبار، ومن الإنصاف المأمور به في قوله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ فَوْمٍ عَلَىٰ ٱلَّآ تَعْدِلُوٓاْ} ³.

ومما يندرج ضمن مبدأ الإنصاف والأمانة العلمية قبول الحق والاعتراف بالخطأ، إذا ظهر الصواب على لسان الطرف الآخر، لأنه يؤدي إلى التحرر المطلق من التعصب للأهواء والنفوس، ولذلك وصف الله به المؤمنين فقال: {ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ ٱلْأَحْسَنَهُ} ⁴. يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: "التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروط وعلامات، منها: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معينا لا خصما، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق" ⁵، حتى يكون النقد والحوار بريئا خاليا من شوائب التعصب، خالصا لطلب الحق، خاليا من احتقار الطرف الآخر، مبتعدا عن كل ما يتسبب في المشاحنات والمباغضات التي تفسد القلوب وتولد النفرة والقطيعة بين الطرفين.

فالنقد القرآني قائم على احترام الغير مهما كان مستواه العقلي والعلمي والفكري والعقدي، وطبعه السيء والحسن، مسلما كان أو غيره، يستحضر الطرف الآخر رغم فساد قوله وبطلان منهجه ومذهبه. فالآخر ليس مقصيا ولا ضعيفا في أساليب النقد القرآني على الإطلاق، بل الأمر على العكس تماما، حيث يستحضر الآخر في جميع حواراته وخطاباته النقدية بآداب إسلامية وأخلاق إنسانية عالمية، دون أن يبتزه أو يغمطه حقه، فيعطيه الفرصة الكاملة للتعبير عما يعتقد ويقول به، كما هو واضح في كثير من آيات القرآنية التي تحكي مقولات جميع الأطراف الأخرى المخالفة لمنهج القرآن المجيد، كحكاية قول الدهريين في قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ} ⁶،

وهو في ظل ذلك يعطي كل واحد حقه ومستحقه، وينزله مكانته ومنزلته؛ لأن أصول الإسلام قد أوجبت أن ينزل الناس منازلهم. جاء في مقدمة الإمام مسلم: "فلا يقصر بالرجل العالى القدر

1 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة ولروم أكثر الناس، 8/ 176، الحديث رقم: 7461.

2 - الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بهذا اللفظ، كتاب الفتن، باب أشراط الساعة، 8/ 176. رقم الحديث: 2898.

3 - سورة المائدة، جزء من الآية: 9.

4 - سورة الزمر، جزء من الآية: 17.

5 - إحياء علوم الدين، للغزالي، 1/ 44، نشر: دار المعرفة، بيروت.

6 - سورة الجاثية، الآية 23.

عن درجته ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق منزلته وَيُعْطَى كل ذى حق فيه حقه وينزل منزلته. وقد ذُكِرَ عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله تعالى عنها - أَنَّهَا قَالَتْ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ منازلهم¹، مع ما نطق به القرآن من قولِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَقَبَّحَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمَ عَلِيمٍ} ²³.

المبحث الثالث: مقاصد النقد في القرآن المجيد:

يستعمل لفظ "القصد" في اللغة في عدة معانٍ، منها: الاستقامة والاعتدال والتوجه والانكسار⁴، ويكثر استعمال لفظ "المقصد" عند العلماء بمعنى الغاية والهدف، مما يجعل الأصل الدلالي الأكثر استعمالاً من هذه الأصول هو أصل: التوجه والامم، لما له من تعلق بمعنى الغاية. وللأصوليين إطلاقات يعبرون بها عن المقاصد، كالأغراض والغايات والأسرار، وقد جمع علال الفاسي بين بعض هذه الألفاظ حين عرف مقاصد الشريعة بقوله: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"⁵.

إن العلم بمقاصد النقد في القرآن المجيد ضرورة ملحة في فهم آي القرآن؛ لما فيها من بعث العقول على إدراك الجديد من المعاني، وبث الحياة في النفوس من خلال فهم هذه المقاصد النقدية، فبها تستجلي مقاصد الشرع الحكيم من بعث الرسل، وإنزال الكتب عليهم، ولذلك نجد الكثير من المفسرين يشيرون في المقدمات إلى مقاصد القرآن، إما قصداً أو تبعاً، وذلك في معرض الكلام عن هدف المفسر من التأليف في تفسيره، وهو الأمر الذي جرت المقدمات عموماً على الإشارة إليه، من ذلك على سبيل المثال قول البغوي في مقدمة تفسيره (معالم التنزيل): متحدثاً عما جاء في القرآن الكريم من الهدى والفلاح: "أمر فيه وزجر، وبشر وأنذر، وذكر المواعظ ليتذكر، وقصص عن أحوال الماضين ليتدبر، وضرب فيه الأمثال ليتدبر، ودل على آيات التوحيد ليتفكر، ولا حصول لهذه المقاصد فيه إلا بدراسة تفسيره وأعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على ناسخه ومنسوخه، وخاصه وعامه"⁶، فجعل - رحمه الله - مقاصد القرآن من بيان العقيدة وقصص أحوال الماضين وذكر المواعظ وضرب الأمثال: التفكير والاعتبار والتذكر والتدبر. فقد كان القرآن صاحب البدء في انتقاداته لذوي العقائد، فحيناً بالتصريح، وحيناً آخر بالإضمار في ثنانيا التعبير، مما جعل كثيراً من الباحثين قد انتفع بما

1 - الحديث أخرجه أبو داود في سننه عن ميمون بن أبي شبيب "أن عائشة عليها السلام مر بها سائل فأعطته كسرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعده فأكَل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أنزلوا الناس منازلهم" وعلق عليه قائلا: ميمون لم يدرك عائشة، كتاب لأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، 4/ 411، الحديث رقم: 4844، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص: 164، نشر: دار الكتاب العربي.

2 - سورة يوسف، جزء من الآية 76.

3 - صحيح مسلم، 2/ 1.

4 - ينظر: معجم مقاييس اللغة لا بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط1، 1991. ولسان العرب لا بن منظور، مادة (ق ص د)، القاهرة: دار الحديث، 2003.

5 - مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي، ص: (7).

6 - معالم التنزيل، (33/1).

أشار إليه القرآن من اتجاهات يسرت حركة النقد في هذا المجال، وسوف أستكشف أهمية هذه المقاصد ومقاصدها النقدية، في المطالب الآتية.

المطلب الأول: إصلاح المعتقدات:

اتخذ القرآن المجيد لإصلاح العقيدة خطوات نقدية مهمة، أبرزها:

- النهي عن اتباع الظن والتقليد في العقائد:

إن الإسلام دين لا يقبل الظن والتقليد والهوى في تقرير العقيدة، ولا بد من اليقين القاطع، وذلك لأن الظن منهج باطل لا تبنى عليه العقائد، وقد أنكر القرآن على أهل هذا المنهج، فقال جل شأنه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَفَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾¹، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِيهِ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾²، "يعنى: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتوها بهواكم وشهوتكم، ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به... إِنْ يَتَّبِعُونَ وقرئ بالتاء إِلَّا الظَّنَّ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق، وأنّ آلهتهم شفعائهم، وما تشتهيهم أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل. (لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) يعنى إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم فأعرض عن دعوة من رأيتة معرضا عن ذكر الله عن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا، ولا تنتهالك على إسلامه"³.

وأما التقليد الأعمى: فهو "حجاب العقل، والمانع له من الانطلاق، والمعوق له عن التفكير، (...) ويندد (القرآن المجيد) بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم، ويجمدون على القديم المألوف، ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم"⁴، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ يَتَّبِعُوا مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَاَلَوْأَ بَلْ نَتَّبِعْ مَّا أَلْبَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْفِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾⁵. وهذه الآية الكريمة ومثيلاتها تدل على أن

1 - سورة النجم، الآية: (23).

2 - سورة النجم، الآيتان: (27 - 28)

3 - الكشف للزمخشري: (423 / 4 - 424).

4 - العقائد الإسلامية للسيد سابق، ص: (21).

5 - سورة البقرة، الآية: (170)، وفي مثل هذا المعنى: الآية في سورة المائدة: (104)، والآيات في سورة الزخرف: (21-25).

سند المشركين الوحيد في اعتقاداتهم الباطلة التي لا تستند إلى رؤية فكرية ولا تقوم على دليل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾¹.

- الإثبات بالأدلة العقلية:

قد خص الله الإنسان بالعقل، ودعاه إلى إعماله في طاعة الله تعالى والتفكر والنظر في دلائل قدرته وآثار رحمته وبديع خلقه وعجيب صنعه ومما من شأنه أن يؤدي إلى توحيد الله تعالى وتنشيطه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾²، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾³، ﴿فَدُبِّيْنَا لَكُمْ ءَايَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁴، ولذلك نبه القرآن الكريم إلى أهمية العقل في آيات كثيرة، وكان يذم الكفار ويصفهم بأنهم لا يفقهون ولا يعقلون، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ءُوْثِيَكَ كَآلَآنَعَمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ءُوْثِيَكَ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾⁵، وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾⁶، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ءُوْلُو ٱلْأَلْبَابِ﴾⁷، وهذه الآيات وأشباهها ينبه سبحانه من خلالها إلى أن آياته لا يستفيد منها إلا أولو الأبواب والنهى، وهي العقول السليمة. وقد كثر الحث في القرآن الكريم على النظر والتدبر والاعتبار. فالفكر كما قال أبو حامد الغزالي في الإحياء: " مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم"⁸.

من خلال ما تقدم يتبين أن اعتماد القرآن الكريم للأدلة العقلية في نقد ومحاجة أهل الكتاب والملحدين وعدم اكتفائه ببيان الحق والإعراض عن باطلهم لهو منهج قمن بالدراسة واستخلاص الدروس والعبر. وكلام العلماء على الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم للرد على

1 - سورة الزخرف، الآية: (23).

2 - سورة البقرة، الآية: (242).

3 - الأنعام، الآية: (151).

4 - سورة الحديد، الآية: (17).

5 - سورة الأعراف، الآية: (179).

6 - سورة يوسف، الآية: (105).

7 - سورة الرعد، الآية: (19).

8 - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي الطوسي: (223/4).

هؤلاء متنوع، ويمكن إجمالها في الرد على ثلاث مسائل: الخلق والوحدانية والبعث. وهي في الحقيقة جوهر العقيدة وهي كالآتي:

أولاً: أدلة الخلق: من الملحدين من ينكر أن هناك خالقاً قد خلقهم، ومنهم من يتوقف في المسألة ويدعي أنه لا يوجد دليل يحسم المسألة، والله جل وعلا يرد على هؤلاء وأولئك في القرآن المجيد بآية جامعة معجزة: ﴿أَمْ خُلِيفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلِيفُونَ﴾ (٣٣) أَمْ خَلَفُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوفُونَ¹. "فهذه ثلاث حجج عقلية ينتقد بها القرآن الكريم كلا الفريقين فيخيرهم بينها جميعاً؛ لأن البشر لم يخرجوا عن أحد احتمالات ثلاث: إما أن يكونوا مخلوقين من غير خالق أي وجدوا بطريق الصدفة.

وإما أن يكونوا خلقوا السماوات والأرض وخلقوا أنفسهم.

ج- وإما أن يكونوا مخلوقين لخالق واحد.

والاحتمال الأول: احتمال باطل إذ يستحيل أن يكون الخلق جاء بطريق الصدفة، لارتباط المسببات والنتائج بمقدماتها، واستحالة صدور أثر بلا مؤثر، وفعل بلا فاعل، وخلق بلا خالق، وتنظيم بلا منظم. وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكونوا خلقوا أنفسهم، فهو أشد بطلاناً؛ لأنه موجب اجتماع الضدين بنفس الوقت: الوجود والعدم، فيكونون خالقين مخلوقين. وعليه فلم يبق إلا الاحتمال الثالث: وهو كونهم مخلوقين لخالق واحد وهو الله رب العالمين، فيجب إذن إفراجه بالالوهية وإخلاص العبادة له، ولذلك يقول في نهاية آيات سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُمْ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾²، فهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام من دون الله وهو خالقهم بعد أن بين لهم بطلان كل احتمال يرد على الخاطر، ولم يبق إلا أنهم مخلوقون لخالق واحد متفرد بالالوهية. وقد روى ابن كثير في تفسيره قصة جبيل بن مطعم³ عندما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء أسرى بدر، وكان إذ ذاك مشركاً، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآيات كاد قلبه أن يطير -كما يروي عن نفسه- فكان سماعه لهذه الآيات من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام ونبذ الشرك والأوثان⁴.

1 - سورة الطور، الآيتان: (33-34).

2 - سورة الطور، آية: (41)

3 - انظر تفسير ابن كثير (244/4) "كتاب التفسير".... روي قصة جبيل بن مطعم البخاري ومسلم/ انظر فتح الباري/ ج: (8) ص: (603) حديث رقم: (4854)، وانظر تفسير الطبري: (33/27)

4 - عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد عبد القادر خليل ملكاوي، ص: (271).

ثانياً: أدلة وحدانية الله تعالى: إن الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد رد في كتابه المجيد رداً حاسماً يأخذ بالألباب وينير العقول على من ادعى أن هناك آلهة غير الله تعالى، لها في الكون نصيب وفي تدبيره تأثير، وذلك من جهتين:

الأولى: أن من يدعي ذلك عليه أن يأتي بالدليل، وهيهات، قال تعالى: ﴿فَلْآرَآئْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾¹ فهي دعوى بلا حجة. وطلب الحجة من المخالف هي قاعدة قرآنية مطردة يجب اتباعها مع أصحاب الدعاوى.

والثانية: هي دعوة أصحاب العقول السليمة إلى تصور نتيجة هذا الزعم الفاسد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾²، وبما أن أمر السماوات والأرض منتظم غاية الانتظام، فدل ذلك عقلاً على أن الإله المتصرف فيهما المستحق للعبادة دون سواه إله واحد. ويزداد الأمر وضوحاً حين يضرب الله تعالى المثل ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾³، وقد تكررت آيات القرآن الكريم التي تقرر الوحدانية في النفوس، ولا تبقى أدنى شبهة في ذهن من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد بدلالة تفرد الله تعالى بالخلق والأمر وعدم ادعاء أحد أنه خلق في هذا الكون شيئاً⁴.

ثالثاً: أدلة البعث في القرآن الكريم: لا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر الشبهات لدى الكافرين والملحدين، ومن أشد العقبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة الإسلامية، وقد تنوعت مناهج القرآن الكريم في إثبات حتمية البعث من الناحية العقلية. وذلك من وجهين:

الأول: دليل عدم عبثية الخلق، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَفْتُمَا عِبَادًا وَآلَكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾⁵، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

1 - سورة فاطر، الآية: (41)

2 - سورة الأنبياء، الآية: (22).

3 - سورة الزمر، الآية: (29).

4 - انظر: سورة الرعد، الآية: (16)، وانظر: سورة الأحقاف، الآية: (04)، والمؤمنون، الآية: (117).

5 - سورة المؤمنون، الآية: (115).

السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ¹، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ فَلْيَلَا مَا يَتَذَكَّرُونَ²﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ³﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى⁴﴾.

الثاني: دليل الخلق الأول، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁵﴾، وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ⁶﴾، وقال تعالى في سورة الحج في رد واضح صريح على من ينكر البعث: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْفَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنَبِّئِ لَكُمْ وَنُفِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ⁷﴾، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير⁸ ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَإِنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَن فِي الْفُجُورِ⁹﴾ فلا حجة لمعاندين أن يتبرأ من دليل يحمله في نفسه من يوم خلق إلى يوم يموت يشهد الله بأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. ويعاود القرآن الكريم التذكير بهذه الحقيقة الدامغة مرة بعد أخرى في آيات كثيرة⁸

1 - سورة الجاثية، الآية: (30).

2 - سورة غافر، الآيتان: (57-58).

3 - سورة السجدة، الآية: (18).

4 - سورة القيامة، الآية: (35).

5 - سورة الروم، الآية: (26).

6 - سورة يس، الآية: 77.

7 - سورة الحج، الآيات: (5-7).

8 - انظر: سورة مريم، الآيتان: (66-67)، والإسراء، الآيات: (49-51).

أن الإنسان قد يغفل عن شيء غائب عنه، ولكن كيف يغفل عن دليل يحمله بين جنبيه طوال حياته. وسيأتي مزيد بيان في هذا الموضوع عند الحديث عن الأصول النقدية إن شاء الله¹.

المطلب الثاني: التشريع وسياسة الأمة:

إن مجال التشريع وسياسة الخلق من أهم المجالات التي تحدث عنها القرآن الكريم، وذلك لماله من تأثير على صلاح المجتمع أو فساد، فإن كان نظام التشريع والسياسة مبنيا على الأسس المقعدة له شرعا كان صالحا، وإن كان بعيدا عنها كان فاسدا. والواقع خير دليل على ذلك، فقد جربت المجتمعات الإسلامية كل النظم السياسية البعيدة عن الإسلام فلم تلق في أي منها ما يشفي الغليل من الأمن والاستقرار، بل ذاقت المجتمعات الإسلامية جراء هذه التجارب مرارة الكبت والظنك والتخبط والتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية أشواطاً بعيدة.

ويتأسس نظام التشريع والسياسة في منهج الإسلام على ركائز أساسية، وسأقتصر على أربعة أسس تشتمل منها رائحة النقد:

1- الحكم بمنهج الله:

هذه قضية عقدية في المقام الأول، فلا يجوز لمسلم أن يعتقد بأن القوانين الوضعية والأعراف أصلح للعباد والبلاد من أحكام الشريعة، كما ينبغي للمسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الشريعة التي أتى بها خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الشرائع، ومن خصائصها أنها تسع أحوال الخلق في كل الأزمنة والأمكنة، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمة. والقرآن الكريم زاخر بالآيات التي تبين وجوب التحاكم إلى الشريعة الغراء في كل شؤون الحياة، أذكر بعضها:

قال الله تعالى: ﴿قَلَّا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾² "أي إذا كان انصرافهم عن تحكيم الرسول للخشية من جوره كما هو معلوم من السياق فافتضح كفرهم، وأعلم الله الأمة أن هؤلاء لا يكونون مؤمنين حتى يحكموا الرسول ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من حكمه، أي حرجاً يصرفهم عن تحكيمه، أو يسخطهم من حكمه بعد تحكيمه، وقد علم من هذا أن المؤمنين لا ينصرفون عن تحكيم الرسول ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من قضائه بحكم قياس الأخرى³. وسبب نزول الآية: ما روى البخاري في صحيحه بسنده عن عروة، قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شريح من الحرّة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك"، فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلون وجهه

1 - ينظر: ص: 138 من هذا البحث وما بعدها.

2 - سورة النساء، الآية: (64).

3 - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور: (88/4).

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك"، واستوفى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه¹ الأنصاري، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك².

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾³ وسبب نزول هذه الآية أن ابن عباس قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبا -وكانت امرأة فيها حدة- فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها... فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول؛ ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾⁴. وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁵. وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁶. وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْبَاسِفُونَ﴾⁷.

هذه الآيات ومثيلاتها في الدعوة إلى الحكم بمنهج الله تؤسس لحرية النقد للحكم، وهذا ما نلمسه من مواقف الخلفاء الراشدين، فقد خطب أبو بكر رضي الله عنه خطبة موجزة بعد توليته للخلافة وضح فيها طبيعة الحكم الإسلامي؛ إذ قال: "أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني"⁸، ومنها: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"⁹.

أشار في آخر خطبته إلى شيء مهم، وهو أن الحاكم ليس له مطلق الصلاحيات في تشريع ما يشاء، بل هو مقيد بالعمل في إطار طاعة الله ورسوله، فيكون هو والمسلمون أمام

1 - بمعنى: أغضبه.
2 - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: {فلا وربك لا يؤمنون} (46/6)، رقم الحديث: (4585).
3 - سورة الأحزاب، الآية: (36).
4 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (357/6).
5 - سورة المائدة، الآية: (46).
6 - سورة المائدة، الآية: (47).
7 - سورة المائدة، الآية: (49).
8 - ينظر: السيرة النبوية، لابن كثير، 4/ 493، وتاريخ الإسلام، للذهبي، 14/ 292.
9 - السيرة النبوية، لابن كثير، 4/ 493، وانظر: الإسلام وأوضاعنا السياسية لعبد القادر عودة، نقلا عن "الكامل" لابن الأثير: ج (2) ص: (135-138).

أحكام الشريعة وآدابها سواسية. وقد كان عمر يطلب من الرعية النصيحة وبيان أشكال النقص في إدارته لشؤون الدولة فكان يقول في خطبة له لما ولي الحكم: "من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه"¹. وعلى هذا كان عليه سلف الأمة في العصور الأولى، فما كانوا يتأخرون عن النقد من أجل البناء لحكامهم للدفاع عن حقوق الأمة وسلطانها كلما كانت الفرصة مواتية.

وفي سياق الاحتكام إلى منهج الله الذي يعد أصلا من أصول الإيمان جاء لفت الأنظار إلى نقد الله للمنافقين من الرعية الذين يستحبون التحاكم في فصل الخصومات وإثبات الحقوق إلى ما سوى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهم مع ذلك يدعون الإيمان بما أنزل على الأنبياء الأولين والآخرين. واعتبر القرآن ادعاءهم كذبا ناجما عن تسويلات الشيطان وإملاءاته لهم، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ وَإِذَا فِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ﴾² وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات مختلفة، قال الفخر الرازي بعد أن ذكر أربعة أوجه في سبب النزول: "واعلم أن المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في بعض المنافقين، ثم قال أبو مسلم: ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقا من أهل الكتاب، مثل أنه كان يهوديا فأظهر الإسلام على سبيل النفاق لأن قوله تعالى: "يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" إنما يليق بمثل هذا المنافق"³. وقال ابن كثير في تفسيره: "والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا"⁴.

من خلال ما سبق يتبين أن الاعتقاد بوجوب الحكم بمنهج الله والرضا به والاستسلام لأمره أمر لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول، وأما عمل المسلم بما يعتقد من أحكام الشريعة - حاكما كان أو محكوما - وتطبيقه في الواقع فهذا له أحكامه الخاصة به، وهذا البحث ليس محلا لعرضها، كما يظهر واضحا أن من شبه المحال أن تستقيم مؤسسات الحكم في أي بلد من غير إعطاء فرصة للنقد للسلوك الحكمي، ومن غير وجود رقابة شرعية شاملة من أجل التقييم والتصحيح.

2 - إقامة العدل:

1 - فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب، للدكتور محمد الصلابي، 1/ 142.

2 - سورة النساء، الآيتان: (59-60)

3 - مفاتيح الغيب: (10/121)

4 - تفسير القرآن العظيم: (2/346).

يعد العدل من أهم الدعائم التي يقوم عليها الإصلاح في مجال التشريع وسياسة الحكم بصفة خاصة، وفي جوانب الحياة كلها بصفة عامة، فلا يتصور صلاح التشريع ولا انتظام أمر المجتمع إلا على أساس العدل. وحقيقة العدل في ديننا الحنيف تدل على أنه ميزان الله في الأرض، وهدف الرسالات السماوية كلها، قال تعالى: ﴿لَفَدَّ آرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَفُومَ النَّاسُ بِالْفِسطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾¹ قال ابن كثير: "(الميزان) هو العدل، قاله مجاهد وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة"²، وعرف العدل بأنه " المساواة في المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر"³، أي من غير تفرقة بين المستحقين لنشره بين الأنام؛ ولأهمية العدل بعث الله الرسل وأنزل الكتب كما في الآية السابقة، فهو سبب صلاح العباد والبلاد، وقوام الدين والدنيا، فكل ماجاء به الرسل هو الحق وليس وراءه حق، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁴ ويكفي قيمة العدل فضلا أنه قرين التوحيد في كتاب الله تعالى، فإن التوحيد أعظم العدل كما أن الشرك أظلم الظلم، قال ابن القيم: "فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما، أما الأول ففي قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْعِلْمُ فَآيَمًا بِالْفِسطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾"⁵، وأما الثاني: فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"⁶ وأنه سبب لقيام الدول والمجتمعات، وسر استقرارها، قال ابن تيمية: وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة"⁷. فمن أسمائه عز وجل "العدل" فهو متصف بالعدل المطلق عادل في أحكامه الشرعية والقدرية، فمن كمال عدله سبحانه أنه لا يظلم مثقال ذرة يوم القيامة، فهو يعطي لكل ذي حق حقه بفضلته وجوده وكرمه ورحمته، يثيب من شاء بفضلته، ويعذب من شاء

1 - سورة الحديد، آية: (24).

2 - تفسير ابن كثير، ج: (27/8).

3 - تاج العروس، (444/29).

4 - سورة الأنعام، الآية: (116).

5 - سورة آل عمران، الآية: (18).

6 - الفوائد لابن القيم، (81/1).

7 - الفوائد لابن القيم، (146/28).

بعدله، فعده ينتظم جميع جوانب الحياة: عدل في الحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ
نِعَمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا¹ عدل في القول والشهادة: ﴿وَإِذَا
فُلْتُمْ بِأَعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾² وعدل في كتابة الوثائق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ
كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَبْ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّيَّ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَعِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ
بِالْعَدْلِ﴾³ وعدل في الصلح: ﴿بِإِنْ بَاءَتْ بِأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَفْسَطُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ﴾⁴.

يتضح من خلال الآيات المذكورة ومثيلاتها أن العدل قيمة نقدية أساسية فكما تتناول العقيدة
تتناول السلوك الإنساني جميعه: فكرا وتصورا، قولا وعملا، وكل الفئات البشرية مع الذكر
والأنثى والقريب والبعيد والغني والفقير والكبير والصغير والصديق والعدو والموافق والمخالف. و
العدل شرعه الله تعالى لتمييز به الأنصبة والحقوق، وتقاييس به الأعمال والأشخاص، فهو مقدم
على كل الاعتبارات والقيم الأخرى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا فَوَّامِينَ
بِالْفِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ
غَنِيًّا أَوْ فَفِيرًا بِاللَّهِ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ
تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾⁵ وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كُونُوا فَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْفِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا فَوْمٍ عَلَىٰ
أَلَّا تَعْدِلُوا إَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

1 - سورة النساء، الآية: (57).
2 - سورة الأنعام، الآية: (153).
3 - سورة البقرة، الآية: (281).
4 - سورة الحجرات، الآية: (9).
5 - سورة النساء، الآية: (134).

﴿١﴾ بل قد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يستقيم كما أمره، وألاّ يتبع أهواء الناس الجانحة إلى الباطل حتى لا يكون محلا لانتقادات المغرضين. وإن السنة النبوية اهتمت بالعدل كذلك اهتماما بالغا وأولته عناية فائقة، فقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الإمام العادل أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، وأن الإمام الجائر على العكس من ذلك، فقال: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا"2. و"إن تاريخ الإسلام ليحتفظ بأمثلة وشواهد عملية للعدل المطلق الذي حققه الحكم الإسلامي في العصور الذهبية الأولى التي لا حكم فيها إلا للإسلام، ولا هادي إلا تعاليم القرآن"3. فملاك الأمر كله هو أن نعلم أن العدل ميزان الحضارة والتقدم، فالذين يرسون قوائم العدل هم المتقدمون، والذين ينحرون العدل، ولا يقبلون النقد البناء لتستفيد طائفة على حساب الأخرى هم المتأخرون.

3 - الشورى:

الشورى هي الأمر الذي يُتَشاور فيه، قال الراغب: "التشاور والمشاورة والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه، وشرت العسل وأشرته: أخرجته"4، وتعريفها اصطلاحاً: يؤخذ جله من التعريف اللغوي: وقد عرفها الباحثون تعريفات عدة، ومن أدق التعريفات فيما يتعلق بالشورى العامة تعريف الدكتور هاني سليمان الطعيمات قائلاً: "الشورى: استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في أمر من الأمور العامة المتعلقة بها بهدف التوصل فيها إلى الرأي الأقرب إلى الصواب الموافق لأحكام الشرع تمهيداً لاتخاذ القرار المناسب في موضوعه"5. والمقصود من تعريفات الشورى تقليب الرأي وإظهاره قصد استتباط رأي يحقق للأمة المؤمنة أمراً يستقيم به نظامها، وينصلح به حالها.

ومبدأ الشورى "أسمى وأعدل وأحكم قواعد الحكم الصالح بين البشر، ولا يمكن الاستعاضة عنه بغيره، وقد جاء بدرجة كافية من العموم والمرونة؛ بحيث يتسع لكل تنظيم صحيح يوضع لتطبيق هذا المبدأ"6. وأما "مكانة الشورى في الإسلام فبيئة واضحة، تجلت في نصوص القرآن كما تجلت في عمل الرسول مع أصحابه، وفي عمل أصحابه بعضهم مع بعض"7. قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾8، يقول القرطبي رواية "عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر

1 - سورة المائدة، الآية: (9).

2 - أخرجه مسلم في صحيحه: (1458/3)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم الحديث: (1827).

3 - التكافل الاجتماعي: (139/1)، نقلا عن منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع لمحمد السيد يوسف، ص: (174).

4 - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص: (470).

5 - حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص: (225).

6 - أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، ص: (62).

7 - منهج القرآن في بناء المجتمع لمحمد شلتوت، ص: (76).

8 - سورة آل عمران، الآية: (159).

الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده"¹. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾² قال القرطبي نقلاً عن ابن العربي: "الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب"³.

من خلال ما تقدم تبين أن الشورى على نحو عام هي محاولة نقدية لسبر الأفكار حول موقف من المواقف، وهي أحد أعمدة النظام الإسلامي، بل هي أسلوب حياة نحتاج إلى مزاولتها في جميع المؤسسات الاجتماعية، فكلما حسن تفهم الناس لوجهات النظر المتباينة صار التحاور والتشاور بينهم أكثر وأسهل. ولكن " الأمة لا تملك الحق في التشاور حول تحريم شيء أحله الله تعالى، كما أنها لا تملك الحق في التشاور من أجل إمكانية تحليل شيء حرمه الله تعالى، لكن من حقها ترجيح بعض الآراء المتداولة، والاجتهاد في إيجاد تطبيقات عملية لبعض القطعيات، كما أن من حقها البحث في بعض الجزئيات المستجدة، ونحن نعرف أن الجزئيات والفرعيات هي مناط الاجتهاد"⁴.

المطلب الثالث: تثبيت القيم والأخلاق:

لما كانت الأخلاق الحميدة هي قوام الشعوب والأمم، وعنوان سعادتها ورفقها في كل مناحي الحياة، سلك القرآن الكريم في بيانها وإبراز ثمراتها مناهج مختلفة، منها:

- الحث على التمسك بها بذكر فوائدها الحميدة، والتحذير من عواقب الأخلاق الذميمة.

- ومنها: ذكر قاعدة عامة معترف بها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾⁵.

- ومنها: ذكر القدوات الحسنة من الأنبياء، وهكذا. ولكن المنهج الذي يهمننا إبرازه هنا المنهج النقدي، وسأقتصر على ذكر بعض النماذج لكثرة الآيات في هذا المجال:

1 - التثبيت من الأخبار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ

فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا فَوْماً بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾⁶ "قرأ

الجمهور فتبينوا من التبين، وقرئ فتثبتوا من التثبت، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الإفادة وعدم العجلة، والتبصر بالأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر. وفي تكثير الفاسق والنبا شيع في الفساق والأنباء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبا فتوقفوا فيه،

1 - تفسير القرطبي: (250/4)

2 - سورة الشورى، الآية: (35)

3 - الجامع لأحكام القرآن: (37/16).

4 - أساسيات نظام الحكم في الإسلام لعبد الكريم بكار، ص: (55).

5 - سورة الرحمن، الآية: (59).

6 - سورة الحجرات، الآية: (6)

وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه"¹.

وفي الآية دلالة على وجوب الاحتراز وعدم الاعتماد على الإشاعات دون التأكد من مصادرها، ولعل صاحب الإشاعة يريد إثارة الفتنة بين الناس. وهذا ما يؤكد سبب نزول الآية: "هو أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة، وهو أخو عثمان لأمه إلى بني المصطلق واليا ومصدقا فالتقوه، فظنهم مقاتلين، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إنهم امتنعوا ومنعوا، فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيقاع بهم، فنزلت هذه الآية، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئا، ويستدل بهذا أن الآية عامة لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق... إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد، لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربة الإيمان"².

وكثيرا ما اندلعت الحروب، وذهب ضحيتها الأبرياء من الخلق بسبب الافتراءات الرائجة، والأخبار الكاذبة، والتسرع في اتخاذ القرارات، فلما نزل القرآن المجيد انتقد هذه الظاهرة، وهي عدم التبين والتثبت من الأنباء.

2 - السخرية والاستهزاء وسوء الظن والتجسس:

فالسخرية والاستهزاء من الأخلاق التي ألهمت مشاعر العرب وضماثرهم، وجاء الوحي كتابا وسنة لانتقادها. والمراد بالسخرية: "أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعاييب"³. وقد كان هذا الخلق الشنيع منتشرا في المجتمعات الجاهلية، كما هو اليوم في المجتمعات الإسلامية، وقد يسخر القوي من الضعيف، والغني من الفقير، والذكي من الساذج، وهكذا، وقد نهى الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ فَوْمٌ مِّنْ فَوْمٍ عَٰبِىَ أَن يَّكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَٰبِىَ أَن يَّكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْفَبِّ بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَّأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ

1 - فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن: (136 / 13).

2 - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: (98/28).

3 - تفسير الرازي: (108/28).

رَّحِيمٌ¹ وقد بيّن القرآن -من خلال هاتين الآيتين- ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة في نقد السلوك، من الامتناع عن السخرية، والهمز واللمز والتنازع بالألقاب، وإساءة الظن وتتبع عورات الناس ومعايبهم، والغيبة والنميمة، ووجوب المساواة بين الناس، واعتقاد أن معيار التفاضل والتمييز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق²، "فالتمييز إنما يكون بإخلاص الضمير، ونقاء القلب، وإخلاص الأعمال لله عز وجل، لا بالمظاهر والثروات، ولا بالألوان والصور، ولا بالأعراق والأجناس"³.

وبناء على ما سبق يتضح أن في النص القرآني إشارة خفية إلى أن القيم الظاهرة في الناس ليست هي القيم الحقيقية التي يزن بها الله الناس، بل هناك قيم أخرى خفية لا يعلمها إلا الله، وهي التي يزن بها العباد، "فلما نزل القرآن الكريم وجد المقاييس عند العرب التي يقيسون بها الرجال والأفراد غير متينة ولا عادلة، فرفضها ووضع لهم ميزاناً يرفع به الله أقواماً ويخفض آخرين وهو التقوى، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ⁴ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ⁵ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هؤلاء المغمورين الذين تنبو عنهم أعين الناس: "رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره"⁶. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»⁷.

فالقرآن حافل بعشرات الآيات التي تنتقد الأخلاق الذميمة، وتدعو إلى الاتصاف بالأخلاق الحسنة، يجدها من تتبّع واستقرأ أي القرآن بدقّة. وفي سورة الإسراء مجموعة من الآيات الكريمة في هذا الجانب الأخلاقي التي لها علاقة وطيدة بتهديب الأخلاق وتركيز النفوس، ومنها: بر الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، والنهي عن التبذير، وعدم قتل الأولاد، والبعد عن قربان الفاحشة، وقتل النفس، وقربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وفيها المحافظة على العدل، ومراقبة الإنسان ربه في كل ما يسمع ويبصر، والتحذير من الكبر وغير ذلك مما له الأثر البالغ في تهذيب النفوس وإصلاحها. وسأرشد من أراد الاطلاع على هذه الآيات بأرقامها مخافة إطالة البحث، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَفَضِّلْ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ

1 - سورة الحجرات، الآيتان: (11-12).

2- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ل د وهبة بن مصطفى الزحيلي: (250/26).

3 - المصدر السابق: (252/26)

4 - سورة الحجرات، الآية: (13).

5 - أخرجه مسلم في صحيحه: (2024/4) كتاب البر والصلة، باب فضل الضعفاء والخاملين، برقم: (2622).

6 - أخرجه مسلم في صحيحه، (1987/4) كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله...، برقم: (2564).

الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَفُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا
فَوَلًا كَرِيمًا¹ وقد وردت آيات كثيرة في الدعوة إلى تهذيب النفوس، والتخلق بالأخلاق
الحسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ فَبَلَّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ -امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ².

لا شك أن تهذيب أخلاق الناس وتزكية نفوسهم من مهام الرسل عليهم الصلاة والسلام.
قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ³ وقال تعالى: ﴿لَفَدَّ مَنِ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِ ضَلَالٍ مُّبِينٍ⁴ قال ابن كثير -رحمه الله-: ويزكيهم أي
يطهرهم من رذائل الأخلاق وندس النفوس وأفعال الجاهلية⁵، وقال ابن سعدي -رحمه الله-
"ويزكيهم أي يطهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق
الرذيلة، وذلك كتركيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى
الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق،
ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوَادد، وغير ذلك من أنواع التزكية"⁶.

فالقرآن الكريم كله موعظة وتذكير وشفاء للصدر من مرض الشك والشبهات وغيرها من
رذائل الأخلاق. وسيد الثقليين -عليه الصلاة والسلام- كان خلقه القرآن الكريم، فعن سعد بن

1 - سورة الإسراء، الآية: 23 وما بعدها من الآيات.
2 - سورة البقرة، الآية: (176)، وانظر: سورة المائدة، الآية: (2)، وسورة المؤمنون، الآيات: (1-11)، وسورة الفرقان، الآيات: (63-76).
3 - سورة البقرة، الآية: (150).
4 - سورة آل عمران، الآية: (164).
5 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (1/ 335).
6 - تيسير الكريم الرحمن: (1/ 74).

هشام -رحمه الله- قال: سألت عائشة -رضي الله عنها-: أخبريني عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالت: "كان خلقه القرآن"¹. وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"²، قال ابن عبد البر في "التمهيد": ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل، فبذلك بعث ليتممه، وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾³⁴.

وبعد إنهاء الكلام عن مكونات هذا المنهج المتمثلة في مبادئه وآدابه ومقاصده أبدأ الحديث مرة أخرى عن بعض مجالات هذا المنهج في القرآن في الفصل الآتي، وأقول مستعينا بالله:

1 - قال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
2 - رواه الحاكم في المستدرک، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: (670/2)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: (464/1)، رقم الحديث: (2349).
3 - سورة النحل، الآية: (90).
4 - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد البر (ت: 463هـ): (334/24).

الفصل الثالث: تتبع مجالات الفكر النقدي في القرآن الكريم:

لقد اعتنى القرآن المجيد بالتعليم والتربية اعتناء بالغاً، وبأهما رتبة سامية؛ إذ صنفهما من أولويات هذا الدين الحنيف التي بها تحيي الأمة، وتتجو السفينة، وتسعد البشرية، ولذلك رغب الشارع الحكيم في طلبهما والإقبال عليهما من خلال جملة من الآيات القرآنية الدالة على ذلك، منها: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾¹ فقد انتهج القرآن الكريم منهاجاً فعالاً تنوعت وتتأغمت فيه أصول التربية والتعليم، مختاراً أجودها من أجل بناء إنسان مؤمن صالح لنفسه ولغيره. وفي هذا الفصل ثلاثة مباحث، وفي كل مبحث ثلاثة مطالب:

المبحث الأول: في مجال التربية والتعليم:

يحتل موضوع التربية والتعليم في القرآن المجيد مرتبة أسمى وعناية فائقة؛ لما لهما من آثار كبيرة على تركية النفس الإنسانية وتقويمها من جهة، ولما لهما من دور كبير في إصلاح المجتمعات من جهة أخرى.

المطلب الأول: مفهوم التربية والتعليم

أولاً: مفهوم التربية:

إذا نظرنا في معاجم اللغة العربية، وجدنا للفظ التربية ثلاثة أصول في اللغة:

1- بمعنى الزيادة والنمو من قولهم: ربا يربو، أي زاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّا تَرْبُوا فِي مَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾².

2- بمعنى النشوء تدريجياً من قولهم: ربي يربي على وزن خفي يخفي، أي: نشأ. واشهد ابن منظور لهذا المعنى بقول ابن الأعرابي: فمن يك سائلاً عني فإني ... بمكة منزلي وبها ربيت³.

3- بمعنى الإصلاح وسياسة الأمر ورعايته من قولهم: ربه يربه على وزن مد يمد أي: أصلحه ورعاه، ومنه قول حسان بن ثابت كما أورده ابن منظور في لسان العرب⁴:

ولأنت أحسن إذ برزت لنا *** يوم الخروج بساحة القصر

من درة بيضاء صافية *** مما ترب حائر البحر.

وقال: ترب حائر البحر: أي مما تربيه، أي رباه مجتمع الماء في البحر.

1 - سورة العلق، الآيات : 1- 5

2 -سورة الروم، الآية : 38

3-لسان العرب : 307/14، مادة ربا.

402/13-14

وقد ركب بعض العلماء من هذه الاشتقاقات اللغوية تعريفاً اصطلاحياً للتربية، منهم الإمام الببيضاوي (ت685هـ) في تفسيره لـ "رب العالمين" قال: "الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل (...) ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ارجع إلى ربك"1. وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني (المتوفى502هـ): "الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام"2. وقد أعطاها بعض المعاصرين مفهوماً اصطلاحياً واسعاً: فقال: "التربيةُ عموماً تُعتَبَرُ عمليةً شاملةً، تتناولُ الإنسانَ من جميعِ جوانبه: النفسية، والعقلية، والعاطفية، والشخصية، والسلوكية، وطريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة، وتعامله مع الآخرين، كذلك تناوله في البيت والمدرسة وفي كلِّ مكانٍ يكونُ فيه، وللتربية مفاهيمٌ فرديةٌ، واجتماعيةٌ، ومثاليةٌ"3.

نخلص مما سبق إلى أن التعاريف التي تجول حول بيان مفهوم التربية من منظور الإسلام تلتقي معانيها في أنها: الأسلوب الأمثل في التعامل مع الفطرة البشرية بألوان من الأنشطة الموجهة في ظل القيم والمثل والمبادئ الإسلامية، وعلى أساس من خبرات الماضي وخصائص الحاضر واحتمالات المستقبل لبناء شخصياتهم وتعديل سلوكهم حتى يكونوا أفراداً صالحين نافعين لأنفسهم ودينهم ووطنهم وأمتهم الإسلامية والبشرية جمعاء.

ثانياً: مفهوم التعليم:

التعليم لغة: مصدر مشتق من "علمه العلم تعليماً وعلاماً ككذاب فتعلم، وليس التشديد هنا للتكثير كما قاله الجوهري. وأعلمه إياه فتعلمه، وهو صريح في أن التعليم والإعلام شيء واحد، وفرق سيبويه بينهما فقال: علمت كأذنت، وأعلمت كأذنت... وربما استعمل في معنى الإعلام إذا كان فيه تكثير نحو قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾4 5.

واصطلاحاً: "تنبيه النفس لتصور المعاني. والتعلم تنبيه النفس لتصور ذلك. وربما استعمل في معنى الإعلام، لكن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم. وتعليم الله تعالى لآدم الأسماء أن جعل له قوة بها نطق، وبها وضع أسماء الأشياء، وكتعليمه الحيوان كل واحد فعلاً يتعاطاه وصوتاً يتحراه"6.

قال أبو البقاء الكفوي: "وقد يراد بالإلهام التعليم كما في قوله تعالى: ﴿بِأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَاهَا﴾7 ولا يراد به إلهام الخواص، لأنه لا يكون مع القدسية، وأيضاً إلهام الخواص للروح

1 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للببيضاوي: (28/1)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1: 1418 هـ.

2 - المفردات في غريب القرآن للراغب: (336/1).

3 - مدخل إلى علوم التربية لكمال عبد الله، وعبدالله قلي، ص: (4-6)

4 - سورة المائدة، الآية: 5.

5 - تاج العروس للزبيدي، (127/33-128).

6 - التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف بن تاج العارفين، ص: (102).

7 - سورة الشمس، الآية: 8.

لا للنفس. والتعليم من جهة الله تارة يكون بخلق العلوم الضرورية في المكلف، وتارة بنصب الأدلة السمعية أو العقلية. وأما الإلهام فلا يجب إسناده ولا استناده إلى المعرفة بالنظر في الأدلة، وإنما هو اسم لما يهّجس في القلب من الخواطر بخلق الله في قلب العاقل فيتنبه بذلك ويتفطن فيفهم المعنى بأسرع ما يمكن، ولهذا يقال: (فلان ملهم) إذا كان يعرف بمزيد فطنته وذكائه ما لا يشاهده، ولذلك يفسر وحي النحل بالإلهام دون التعليم¹.

والتعليم: "فرع من التّربية يتعلّق بطرق تدريس الطلاب أنواع المعارف والعلوم والفنون التّربية والتّعليم - مناهج التّعليم"²

وقد عرفها الإمام الغزالي في كتابه التربوي (أيها الولد) بما مضمونه: إن التربية هي الفارق والفاصل بين الإنسان والحيوان، فهي الأساس والمنطلق والضرورة في صلاح الفرد و في صلاح المجتمع، والسبيل إلى تحقيق التمدن والسعادة للإنسان والارتقاء من الحيوانية إلى الإنسانية. ومن هذا المنطلق شبه الغزالي المربي بالفلاح الذي يقطع الشوك، فالفلاح يخرج إلى الحقل يوميا لينزع الشوك الفاسد ليُبقي على الصالح، وكذلك المربي³.

وأنا لا أحاول في هذا المبحث استكشاف حقيقة التربية والتعليم وتوصيفهما في الممارسات التربوية، وذلك لتعدد التعريفات وتباين المقاربات لمصطلحات التربية والتعليم تبعا لمرجعية المدارس التربوية في اختياراتها المختلفة بحكم الامتداد التاريخي الطويل من جهة، وبحكم تداخل عدد من العلوم مع هذا المصطلح الجديد المسمى بـ "علوم التربية" من جهة أخرى.

والعلاقة بين التربية والتعليم علاقة تكامل من حيث المرامي والأهداف، ولا يفصل بينهما إلا لضرورة البحث في ميدان العمليات التربوية، وذلك عن طريق انقسام الأهداف إلى الأهداف التربوية، وهي تلك التغييرات التي يراد حصولها في سلوك الإنسان الفرد، وإلى الأهداف التعليمية، وهي نتائج موقف تعليمي معيّن. فالتعليم: أداة البناء، والتربية: أداة التغيير، فكلاهما يسعى لتحقيق مستقبل أفضل، فالتعليم: يهدف للتدريب على مهارة ما ولتحصيل المعرفة، والتربية مفهومها أعم.

المطلب الثاني: مكانة التربية والتعليم

إن التربية والتعليم من قواعد التطور والنهوض في أي مجتمع، ومن أهم الأمور في الحياة البشرية، فالتقدم والرقى لا يتحققان بالسياسة ولا بالمال، وإنما بإعداد جيل واعٍ ما حوله من مشكلات الأمور، وقادر على فهمها والسعي في حلّها بطرق سلمية بعيدة عن التعقيدات. فالمجتمع لا يمكن أن يتطور فكريا وعلميا وحضاريا إلا بالتربية والتعليم.

1 - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص: (173).

2 - معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، (1542/2).

3 - ينظر: أيها الولد المحب، تحقيق وتعليق: الشيخ القره داغي، ص: 128، شر: دار البشائر الإسلامية، ط 4، 1431 هـ.

فالتعليم عمل ضروري لكونه الطريق الأول لمعرفة مصدر السعادة والكمال الحقيقي، قال الله تعالى: ﴿بَاعَلَّمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوِيَكُمْ﴾¹. وأول باب ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان (باب العلم قبل القول والعمل) ثم تأتي التربية لرسم الطريق الذي ينبغي السير على وفقه من أجل إحداث الأثر العملي المطلوب تقويماً للسلوك. يقول الله عز وجل: ﴿كُونُوا رَبَّنِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾². وقد تبلغ عملية التربية والتعليم درجة العبادة والطاعة إذا سبقها التقوى، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾³، كما أن الهدف الأكبر من نتيجة المعارف والعلوم باعتبارها في الإسلام طريقة مثلى هو تقوى الله وخشيته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁴. "والتربية والتعليم كعلم نشأ مع بزوغ فجر الإسلام، وصارت له مدرسة في مدينة الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-. هذه المدرسة التي أنشأها الرسول الكريم للتربية والتعليم، كان كتابها القرآن، وهو الوحي المثلوث، وبيانها ما جاء عن النبي من قول أو فعل أو تقرير، فكل حركاته -صلى الله عليه وسلم- وسكناته، إنما هي بيان عملي لهذا الكتاب المقرر على المسلمين، وقد شرحه لهم عملياً رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ونستطيع أن نقول: إن التربية والتعليم علم بدأه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، مصداقاً لقوله -عز وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنْ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾⁵. فكان -صلى الله عليه وسلم- يريهم على القرآن، يشرح لهم معنى الآية، ويجيبهم عن كل ما يصعب عليهم فهمه. سأله بعض صحابته قال: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟، قال: "كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء"⁶. قال يزيد بن هارون: العماء، أي: ليس معه شيء"⁷. ومما يعطي من شأن التربية والتعليم أن الإسلام أشاد بالعلم والعلماء، وأوصى الأمة بطلب العلم؛ لأن حقائق هذا الدين من

1 - سورة محمد، الآية: 19.

2 - سورة آل عمران، الآية: 79.

3 - سورة البقرة، الآية: 282.

4 - سورة فاطر، الآية: 28.

5 - الجمعة، الآية: 2.

6 - أخرجه الترمذي في سننه، وقال: هذا حديث حسن (288 / 5).

7 - انظر أصل هذا الكلام من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي لكمال الدين عبد الغني المرسي، ص: (15-16).

الأساس إلى القمة ليست منقولة إلينا بالوراثة، بل هي حقائق تستنبط من الوحيين كتاباً وسنة. فإن أول ما نزل من القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾¹. "والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر"². ولم يقل اقرأ باسم الله، ذلك لأنه أراد سبحانه منذ البدء أن يشير إلى أن هذا الدستور الإلهي النازل من السماء إنه هو تربية، إنه نزل باسم المربي. وما دامت هذه التربية إلهية المصدر، فهي إذن محكمة الأحكام كله، كاملة في جميع جوانبها³. وكانت كلمة "اقرأ" دعوة للإنسان إلى البحث بإجالة فكره وكل ما أوتي من وسائل العلم بحثاً مستفيضاً في المقروء كالكتب والمسموع من العلماء، والمنظور في السماء والجمال والبحار، وفي كل ما خلق الله تعالى من كائنات صغيرة كانت أم كبيرة.

ومما يدل على عظم شأن التربية والتعليم علو مكانتهما كل الآيات الواردة في الإشادة بالعلم وأهله، وتلفت الأنظار إلى علو درجاتهم، منها قوله تعالى: ﴿نَّ وَالْفَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁴، وقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾⁵ ومن بين الأشياء المقسم بها الأدوات العلمية الثلاث وهي القلم يكتب به، والمادة التي توضح وهي المداد، ومادة يكتب عليها وهي الصحيفة المعبر عنها بالرق المنشور. والله تعالى إنما يقسم بشيء من مخلوقاته تنويعاً بشأنه، ولفناً لأنظار الناس إليه. ومن الآيات التي تشيد بالعلماء، وتلفت الأنظار إلى سمو مكانتهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁶، وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ ءُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾⁷.

وأختم هذا المطلب بما ورد عن الإمام مالك - رحمه الله - في موطأه: أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء⁸.

1 - سورة العلق، الآية : 1.

2 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود : (177/9).

3 - التعليم في بلاد المسلمين لعبد الفتاح بن سليمان عثماوي، ص : (07).

4 - سورة القلم، الآية : 1.

5 - سورة الطور، الآيات : 1 - 2 - 3.

6 - سورة فاطر، الآية : 28.

7 - سورة المجادلة، الآية : 11.

8 - موطأ الإمام مالك : (100/2).

المطلب الثالث: الآيات التي تؤسس للتربية والتعليم:

سبقت الإشارة إلى أن التربية لفظ يقترن بلفظ التعليم؛ فهما معنيان متلازمان لا يكادان ينفصلان، وقد رسم القرآن الكريم كبريات معالم منهج التربية والتعليم مبينا ذلك في الخطوات التي ينتهجها النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ القرآن والسنة النبوية التي تولت بيان تفصيل ما في القرآن، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَىٰكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾¹، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾²، فقد أتت هاتان الآيتان بمنهج شامل لأصول التربية والتعليم الذي ينبغي أن يتبعه كل معلم ومرب ومناقش وناقد؛ لأنه منهج أصيل أنزله الخالق سبحانه العليم بطبيعة تكوين الإنسان، ودروب نفسه ومنحنياتهما. وترتيب هذه الأصول في الذكر مقصود، قال الألوسي في تفسيره: "وحينئذ أمر ترتيب هذه المتعاطفات ظاهر؛ إذ حاصل ذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - يمهّد سبل التوحيد ويدعو إليه، ويعلم ما يلزم بعد التلبس به، ويزيد على الزيد شهداء. فتقديم التلاوة لأنها من باب التمهيد، ثم التزكية لأنها بعده، وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بها المؤمنون، وهي من قبيل التخلية المقدمة على التحلية؛ لأن درء المفسد أولى من جلب المصالح، ثم التعليم لأنه إنما يحتاج إليه بعد الإيمان، بقي أمر تقديم التعليم على التزكية في آية البقرة - يعني الآية: 128-: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولعله كان إيذاناً بشرافة التحلية كما أشرنا إليه هناك فتأمل"3. وسأعمل بإذن الله على استخراج هذه الأصول التربوية التي أنقذ الله بها هذه الأمة من الضلال المبين. ومن صفات هذا المربي ما يلي:

- 1 - التلاوة: بدأت هذه الآيات القرآنية بهذا الأصل، وهو التلاوة، لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ فَرَأَتْهُ فَاطَبَعَتْ فَرْعَانَهُ﴾^٤ ثُمَّ إِنَّ

1 - سورة البقرة، الآية: 151.

3 - روح المعاني: (326/2).

عَلَيْنَا بَيَانُهُ¹. ومعنى التلاوة: القراءة المتتابعة المرتلة التي يكون بعضها تلو بعض، وهي لا تخرج عن طباع العرب وكلام فصائها. وأصل التلاوة من الاتباع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْفَمِرِ إِذَا تَلَيْهَا﴾² والتلاوة المرتلة كافية في إقامة الحجة، فلا يعذر أحد بالجهل بعد التلاوة، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَيَّتِنَا﴾³، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكُفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾⁴. ومن ذلك ما يسمى في باب التعليم "نص الانطلاق"، ويتأكد على طالب العلم الأخذ بهذا الأدب، وهو الإنصات والتأني في تلقي العلم، وعدم مقاطعة التلاوة قبل فراغ التالي من كلامه.

2 - التزكية: التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر⁵.

بيد أن التزكية لا تتلى ولا تعلم ولا تحفظ، وإنما هي ثمرة من ثمرات التلاوة وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة، مثل الطاعة وتهذيب الأخلاق وتعديل ما يطرأ من سلوك سيء، مما يدل على أن التربية والتعليم ليس مقتصرًا وكافيا في توفير الوظيفة أو الصناعة التي يقوم بها الإنسان عند الحاجة لتدر عليه نفعا ما، وهذه حالنا، ولسان الحال أفصح من لسان المقال. فإذا لم تثمر هذه الأصول التربوية والتعليمية التزكية فهي كالعدم، فإنما هي محض سلوك وعمل عابر ويختفي. والله تبارك وتعالى انتقد الذين يعلمون ولا يعملون بعلمهم، فقال: ﴿فَلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ

يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾⁶ "وقوله تعالى: قل على معنى قل له (أي للقانت) أيضا بيانا للحق وتصريحا به وتنبيها على شرف العلم والعمل: "هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ" فيعملون بمقتضى علمهم، ويقننون الليل سجدا وركعا يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم "وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم.... وأن العلم الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله⁷. وهذه الآية أيضا تؤصل لأمر مهم يدخل في آداب النقد، وهو أن يكتفى عن عدم توجيه اللوم للمخاطب الذي لم يعمل بعلمه بنفي المساواة بين العالم وغيره، لأن مقتضى العلم العمل به. حتى لا تأخذ المخاطب العزّة، ويأنف من الاستماع

1 - سورة القيامة، الآيتان: 18 - 19.

2 - سورة الشمس، الآية: 2.

3 - سورة القصص، الآية: 59.

4 - سورة العنكبوت، الآية: 51.

5 - روح المعاني للألوسي: (326-325/2).

6 - سورة الزمر، الآية: 10.

7 - روح المعاني للألوسي (237-236/12).

للخطاب الموجه إليه؛ بدليل أن الناس لا يزالون يظنون بالعلماء خيرا فيقصدونهم في معرفة ما ينفع وما يضر، لذلك تجب دعوتهم إلى اتباع الحق بالطف أسلوب، مثل صنيع إبراهيم الخليل عليه السلام في حوار مع أبيه آزر، قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾¹، فكرر نبي الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى لإثارة غريزة الحنان في أبيه، وإشعاره بالتلطف والترفق، وذلك لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة. وقوله: {إني قد جآءني من العلم...} بينه الزمخشري في "الكشاف" قائلا: "ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ليست معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي، فلا تستتكف، وهب أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه"².

فالآية الكريمة تؤسس لنفي التعالم والأفضلية والذكاء في الخطاب، ولأسيما إذا كان المخاطب يرى نفسه من أهل العلم، أو أهل المراتب العليا في المجتمع، كما تؤسس لجواز إخبار المعلم أو الناقد من يخاطب بما عنده من العلم مما يعطيه أحقية الاستماع والاتباع، قال الطاهر ابن عاشور: "وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يتبع مركوزة في غريزة العقول، لم يزل البشر يتقصون مظان المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاء ما يضر، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾"³.

فهذه الآية تدعو المربين إلى "استخدام السؤال وسيلة من وسائل تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية المنشودة... وإن أهمية السؤال في التعلم والتعليم ومكانته في المنهج التربوي القرآني واضحتان تمام الوضوح، فالسؤال في القرآن هو وسيلة اكتساب العلم ورفع الجهل عن النفس، ولكن وفق منهج سليم وتوجيه سديد، وذلك بأخذ العلم من مصادره الموثوقة"⁵. واستدل بالآية نفسها على دور السؤال في اكتساب المعلومات، كما أن السنة النبوية لفتت الأنظار إلى مكانة السؤال في جعلها ضرورته للمتعلّم كالدواء للمريض، قال صلى الله عليه وسلم: "فإنما شفاء العي السؤال"⁶؛ ولذلك أرشدنا القرآن إلى ضرورة الاستزادة من العلم، وأن الإنسان مهما بلغ من العلم

1 - سورة مريم، الآية: 43.

2 - الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل، (19/3).

3 - سورة النحل، الآية: 43.

4 - التحرير والتنوير: (115/16-116).

5 - السؤال في القرآن الكريم وأثره في التربية والتعليم لأحمد بن عبد الفتاح ضليبي، ص: (281).

6 - سنن أبي داود: 93/1، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، رقم الحديث: 336. وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

يبقى في حاجة ماسة إلى المزيد منه، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾¹، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا فَلِيلًا﴾².

3 - التعليم: وهو التفسير والبيان، وجاء بعد "التلاوة" في هذه الأصول في قوله تعالى: "ويعلمهم الكتاب" بعد قوله: "يتلو عليهم آياته"، وذلك أن غاية علم التلاوة النطق الصحيح للألفاظ، وغاية التعليم والتفسير الفهم الصحيح للمعاني القرآنية وغيرها. والارتباط بين التلاوة والتعليم واضح وجلي، فلا يستقيم المعنى إلا إذا استقام اللفظ، بل لا وجود للمعنى إلا بإقامة المبنى، ومن ثم وجب تصحيح النطق أولاً بألفاظ القرآن وغيره من الخطابات محافظة على المعنى، ثم يجب علينا أن نفهم بعد التلاوة الصحيحة المعنى الذي يحمله اللفظ. وهذا من وظائف نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - يتلو عليهم القرآن، ويبين لهم معانيه وما خفي عليهم من أحكامه وأسراره. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾³، وهو صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في كل ما نأتي وما نذر.

4 - تعليم الحكمة: الأصل الرابع من هذا المنهج التربوي تعليم الحكمة. وكلمة الحكمة تأتي في القرآن غالبا بعد كتاب منزل، وجاءت في اختيارنا لهذه الأصول كلها متصلة بالكتاب، فشاركنا الكتاب في نسق التعليم بفعل واحد (ويعلمهم)، لأنها مرتبطة به، فيجب أن تعلم الحكمة كما يعلم الكتاب. وكاد أن يتفق علماء التفسير على أن الحكمة المتصلة بالكتاب هي السنة، وبذلك فسرنا ابن كثير في تفسيره، ونسبه إلى غير واحد من السلف كما فسرنا بالفهم في الدين⁴، وهي ما أخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"⁵. قال ابن حجر في كتابه فتح الباري: "واختلف الشراح في المراد بالحكمة هنا - يعني حديث (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب) - فقيل: القرآن كما تقدم، وقيل: العمل به، وقيل: السنة، وقيل: الإصاغة في القول، وقيل: الخشية، وقيل: الفهم عن الله، وقيل: العقل، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب مع الإصاغة"⁶. وقال صاحب تفسير المنار مفصلا في معنى {ويعلمهم الكتاب والحكمة} من سورة البقرة في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة: "فسروا الكتاب بالقرآن، والحكمة بالسنة، والثاني غير مسلم على عمومه (...). وأما الحكمة فهي في كل شيء معرفة سره وفائدته. والمراد بها أسرار

1 - سورة طه، الآية: 114.

2 - سورة الإسراء، الآية: 85.

3 - سورة النحل، الآية: 44.

4 - تفسير ابن كثير (145/1).

5 - أخرجه الترمذي في السنن 5/ 38، كتاب العلم، باب ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، الحديث (2664)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه).

6 - فتح الباري لابن حجر (170/1).

الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها، وقد بين النبي ذلك بسيرته في المسلمين، وما فيها من الفقه في الدين، فإن أرادوا من السنة هذا المعنى قي تفسير الحكمة فهو مسلم، وهو الذي كان يفهم من اسمها في الصدر الأول، وإن أرادوا بالسنة ما يفسرها به أهل الأصول والمحدثون فلا تصح على إطلاقها. فالحكمة مأخوذة من الحَكَمَة - بالتحريك - وهي ما أحاط بحنكي الفرس من اللجام وفيها العذاران، وفي ذلك معنى ما يضبط به الشيء، ومن ذلك إحكام الأمر وإتقانه. وما كل من يروى الأحاديث يحقق له هذا المعنى، ولكن الذي يتفقه في الدين، ويفهم أسرارهم ومقاصدهم يصح أن يقال: إنه قد أوتي الحكمة التي قال الله فيه: ﴿يُوتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُوتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^{1 2}. وفي الآية إرشاد للمربي أن يكون حكيما بأن يمتاز بالقدرة على حل المشاكل التي تواجهه، والهدوء عند مواجهة القرارات الصعبة، والقدرة على التكيف مع ما يدور حوله في البيئة المحيطة، والإصابة في القول والعمل، ورجاحة العقل.

المبحث الثاني في مجال تصحيح العقيدة:

لكون العقيدة الإسلامية هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فيجب سلامتها من مظاهر الشرك، ودخائل الشك حتى تستمر عقيدة الفطرة على نقائها وصفائها في قلب كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر، وتنتشر الطمأنينة والاستقرار في نفوس الناس، وأنها هي القاعدة الأولى التي تركز عليها أركان الإسلام الخمسة، فلا قيام للأركان الأخرى بدونها لما يتفرع عنها من توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، من أجل ذلك كان من الأهمية بمكان تناول هذا المبحث في بيان مفهوم العقيدة ومكانتها وذكر نماذج في منهج تصحيحه من القرآن.

أ - مفهوم العقيدة لغة:

كلمة العقيدة في اللغة مأخوذة من عقد. العين والقاف والداد أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها. وهو نقيض الحل، ومنه: عقد الشيء يعقده عقدا وتعقدا، ومنه تعقاد التمايم. واعتقده كعقده وقد انعقد وتعقد، ومنه عقدت الحبل أعقده عقدا وقد انعقد، ومعقد الحبل مثل مجلس، وهو موضع عقده يقال له: عقده، وجمعها عقد، لأنها تمسكه وتوثقه، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْ شَرِّ النَّبَّاتِ فِي الْعُقَدِ)³، أي السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن فيها. وقالوا للرجل إذا لم يكن عنده غناء: فلان لا يعقد الحبل أي أنه يعجز عن هذا على هوانه وخفته؛ قال: فإن تقل يا ظبي حلا حلا، ... تعلق وتعقد حبلها المنحلا. أي تجد

1 - سورة البقرة، الآية: 269.

2 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا: (389/1).

3 - سورة الفلق، الآية: (4).

وتتشمر لإغضابه وإرغامه حتى كأنها تعقد على نفسه الحبل. وعقد قلبه على الشيء: لزمه، وفي الحديث: "الخيل معقود في نواصيها الخير". أي ملازم لها كأنه معقود فيها. والمعاهد: هي مواضع العقد، والعقدة: القلادة، والعقد: الخيط ينظم فيه الخرز وجمعه عقود، ويقال: اعتقد الدر والخرز وغيره: إذا اتخذ منه عقداً¹.

وفروع الباب كلها تعود إلى أن أصل العقد هو: نقيض الحل، "وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة، والتماسك، والمراسة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم"2. أي وصل الشيء بغيره كما تعقد الحبل بالحبل، ثم استعمل في المعاني كأنواع العقود وفي الأجسام3.

فمن استعملاته في المعاني في القرآن أن يقال: عقد العهد واليمين يعقدان عقداً، وعقدان: أي أكدهما، ومنه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَنُكُمْ)⁴ وقرئ بالتشديد

ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى: (وَلَا تَنْفُضُوا أَلَايَمِينَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)⁵

والمعاهدة: المعاهدة، وفي قراءة ابن عباس: (وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَنُكُمْ)⁶ وكقوله تعالى:

(وَلَكِنْ يُّؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمِينَ)⁷ ويجوز أن تقرأ بالتخفيف. ثم أطلق العقد

على العهد وجمعه عقود، وهي أوكد العهود، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا

بِالْعُقُودِ)⁸، فإذا قلت: عاقدت فلانا وعقدت عليه، فتأويله: عاهدته وألزمته ذلك باستيثاق.

كذلك استعمل العقد في البيع والنكاح وغيره فيقال: عقد البيع وعقد النكاح. وعقدة كل شيء:

إبرامه وإحكامه ووجوبه، ومنه: اعتقد الأمر: أي صدقه⁹. واعتقدت كذا: عقدت عليه القلب

والضمير، حتى قيل: العقيدة ما يدين الإنسان به¹⁰.

ومن استعملاته في الأجسام أن يقال: "اعتقد الشيء: أي صلب، وعقد العسل: أي اشتد،

وإذا أطبق الوادي على قوم فأهلكهم يقال: عقد عليهم، وعقد الحبل أو الخيط: إذا شده"¹¹.

من تتبع تفاريع مادة (عقد) يجدها ترجع إلى أصل العقد وهو نقيض الحل. قال صاحب

تاج العروس عند لفظ عقد: "والذي صرح به أئمة الاشتقاق: أن أصل العقد نقيض الحل (...)

ثم استعمل في جميع أنواع العقود في البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد

1 - انظر معجم مقاييس اللغة: (87/4): ولسان العرب: (296/3) مادة عقد.

2 - الوجيز في عقيدة السلف الصالح "أهل السنة والجماعة" لعبد الله بن عبد الحميد الأثري، ص: (23).

3 - انظر الآية الأولى من سورة المائدة بتفسير القرطبي: (31/6)، والبحر المحيط: (409/3).

4 - سورة النساء، الآية: (33).

5 - سورة النحل، الآية: (91).

6 - سورة النساء، الآية: (33).

7 - سورة المائدة، الآية: (91).

8 - سورة المائدة، الآية: (1).

9 - ينظر مقاييس اللغة: (87-86/4).

10 - المصباح المنير: (421/2).

11 - عقيدة القرآن لمحمد ملكاوي، ص: (19).

الجازم"1. والمعتقد بفتح القاف: قد يكون مصدرا ميميا بمعنى الاعتقاد: أي ما يعتقده الإنسان. وقد يكون اسم مفعول: وهو حكم لا يقبل الشك عند صاحبه.

يتبين لنا مما تقدم في اشتقاق كلمة (عقد) أن كلمة العقيدة في اللغة على وزن فعيلة بمعنى اسم المفعول من عقد بمعنى معقودة، وجمعها عقائد، قال نشوان بن سعيد الحميري (ت573هـ) في كتاب "الحوار العين" "والعقائد: جمع عقيدة، وعقيدة الرجل: دينه وما يعتقده"². وهي تعني الأمر الذي يعقد عليه الإنسان قلبه وضميره، بحيث يصير عنده حكماً لا يقبل الشك فيه لدى معتقده حتى يكون لاعتقاد القلب عليه أثر ظاهر من الخضوع والإذعان له، فأشبهت العقيدة العهد المشدود والعروة الوثقى لاستقرارها في القلب ورسوخها في الأعماق.

ب - تعريف العقيدة شرعاً:

من المعنى اللغوي نستطيع أن نتعرف على المعنى الاصطلاحي، وقد عرفه العلماء قديماً وحديثاً، فمن التعريفات القديمة ماورد في المواقف³، وشرح العقائد النسفية⁴، والجواهر الفريد⁵، والتعريفات للجرجاني⁶، العقيدة: "هي مايقصد بها الاعتقاد نفسه دون العمل". كما عرفها غير واحد من القدماء: "والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله وبعثه الرسل وجمعها عقائد"⁷.

وعرفها السفاريني بقوله: "هو حكم الذهن الجازم، فإن كان موافقا للواقع فهو صحيح، وإلا فهو فاسد"⁸.

وقال ابن أبي زيد القيرواني في رسالته: "من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره ولا شبيه له ولا نظير له ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له ولا شريك له"⁹.

إن تطلق العقيدة في الاصطلاح على ما كُلف المسلم بالإيمان به والتصديق بأنه حق من مسائل الغيب. ويشمل هذا التكليف أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل: أي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره¹⁰.

وأما تعريفها في الكتب الحديثة فقد قيل في تعريف العقائد بصيغة الجمع: "هي مجموعة الأمور الدينية التي تجب على المسلم أن يصدق بها قلبه، وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقيناً

1 - تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى، الزبيدي: (394/8).

2 - الحوار العين، ص: (331).

3 - المواقف، الإيجي: (38/1).

4 - شرح العقائد النسفية لرمضان الحنفي، ص: 8 0.

5 - الجواهر الفريد لرمضان الحنفي، ص: (6).

6 - التعريفات: الجرجاني، ص: (158).

7 - منقول من كتاب "مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية" لعثمان جمعة ضميرية، ص: (121).

8 - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية لأبي العون محمد السفاريني: (60/1).

9 - متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، المالكي (المتوفى: 386هـ)، نشر: دار الفكر.

10 - انظر: صحيح البخاري، (19/1) كتاب الإيمان؛ باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام.

عنده لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة، ودليل ذلك قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)¹، وقوله تعالى: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)²، وقوله تعالى: (إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)³4.

وأخصر تعريف وشامل تعريف محمود شبت خطاب، قال: "العقيدة هي مثل عليا يؤمن بها الإنسان، فيضحي من أجلها بالأموال والنفس؛ لأنها عنده أغلى من الأموال والنفس"⁵. وعليه، فالعقيدة هي أمور دينية غيبية ثابتة بكتاب الله، أو بمأصح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يجب على المسلم اعتقادها بقلبه لإخبار الله تعالى بها على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم.

وجزئيات العقيدة الإسلامية: تعني الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المطلب الثاني: مكانة العقيدة:

إن دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة، يكذبها الواقع الإنساني، ويبطلها تاريخ البشر الطويل، حيث يشهد واقع البشرية أن الإنسان حيثما كان، وفي أي ظرف وجد، وعلى اختلاف أحواله، وتباين ظروفه، لا يخلو من عقيدة أبداً، سواء كانت هذه العقيدة حقا أو باطلاً، صحيحة كانت أو فاسدة⁶. والإنسان مضطر إلى التدين بفطرته، ويحتاج إلى شرع في حياته، وإلى إله يلجأ إليه في كل أحواله، قال ابن القيم في كتابه الفوائد: "للإنسان قوتان قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية. واستكمال القوة العلمية (النظرية) إنما يكون بمعرفة فطرته وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها. واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه - سبحانه - على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاء وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه"⁷.

1 - الحجرات، الآية: (15).

2 - سورة البقرة، الآية: (2).

3 - سورة آل عمران، الآية: (9).

4 - عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد ملكاوي، ص: (19).

5 - بين العقيدة والقيادة، ص: (33).

6 - انظر: عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري، ص: (19).

7 - الفوائد لابن قيم الجوزية، ص: (18).

ذلك لأن العقيدة يحتاج إليها في نشر الطمأنينة والاستقرار في نفوس الناس، و إصلاح حياتهم في ربوع الأرض، ومن أجل هذا كانت أول أركان الإسلام باعتبارها الفطرة الغريزية التي فطر الله الناس عليها ، فيجب سلامتها من شوائب الشرك ودخائل الشبهات، وكان استمرار عقيدة الفطرة على هذا النحو أمرا مطلوباً من كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر، وتلك هي الفطرة التي قررها الله تعالى في قوله: (بَأْفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً وَإِـرَّتَ اللَّهُ إِلْتِ وَـرَ النَّاسَ عَلِيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْفِيْمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)¹.

قد بقي القرآن الكريم يتنزل في مكة المكرمة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عاما كاملة، يحدثه فيها عن قضية أساسية واحدة ألا وهي العقيدة "يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"²، ممثلة في قاعدتها الرئيسة: الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة. فكانت العقيدة هي القضية القرآنية الكبرى، لأنها قضية كل إنسان؛ تفسر له سر وجوده في هذا الكون، وغايته التي يسعى من أجلها، وتفسر له نشأته، وتحدد له مصيره ونهايته.

وقضت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يقوم هذا الدين على قاعدة "الألوهية الواحدة" فكل تنظيماته، وكل تشريعاته، تنبثق من هذا القاعدة. فكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال، المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء.. لا بد لها من أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة تتناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء.. فكذلك هذا الدين. إن نظام هذا الدين يتناول الحياة كلها، ويتولى شؤون البشرية، كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان، لا في الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة، ولا في عالم الشهادة وحده، ولكن كذلك في عالم الغيب، ولا في المعاملات المادية الظاهرة وحدها، ولكن كذلك في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا، فلا بد إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا³.

يتبين مما تقدم من مطالب هذا المبحث أن العقيدة الإسلامية ضرورية لاستقامة وصلاح الحياة البشرية، وبدونها تصير الحياة فوضى، ويعيش حاملها في جاهلية عمياء، وأنه لا فوز بعز الدنيا وسعادة الآخرة إلا بها. وأن هذه العقيدة تجعل صاحبها قويا عزيزا، وقابلا لحكم الله في كل شيء، وتهب الضمير يقظة وحياة، واستراحة في الفكر واطمئنانا في البال على المستقبل، كما تتوازن في صاحب هذه العقيدة القيم وقوى الروح والعقل والجسم، فلا يطغى جانب على جانب.

1 - سورة الروم، الآية: (29).

2 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب البيوع، باب جواز السلم الحال، 6 / 20، الحديث رقم: 10979. والحاكم 2 / 611، 612، وصححه، ووافقه الذهبي.

3 - انظر أصل هذا الكلام في كتاب "مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية" لعثمان جمعة ضميرية، ص: (37-40).

المطلب الثالث: نماذج في منهج تصحيح الاعتقاد في آيات القرآن:

لابد لكل مجتمع من أسس ودعائم يقوم عليها، وقبل نزول القرآن كانت المجتمعات تقوم على أسس الأجناس والألوان وقضايا عرقية والأقاليم وغيرها. فلما نزل القرآن المجيد هدم تلك الأسس الظالمة، وألغى تلك الاعتبارات الباخسة، وبنى المجتمعات على عقيدة مناسبة مع واقع حياة الإنسان. فأنزل الله في القرآن المجيد آيات تصفي عقائد العرب وغيرهم مما اختلط بها من أفكار يهودية ونصرانية ومجوسية ووثنية، وسأذكر في هذا المطب صورا من منهج النقد القرآني لهذه العقائد الباطلة:

1 - إقامة الحجة على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية واعترافهم بتوحيد الإلهية عند الشدائد:

أ - إقرارهم بتوحيد الربوبية:

ومن أقوى الحجج التي أقامها القرآن الكريم على المشركين في تقرير وحدانية الله تعالى إقرارهم بأن الله تعالى هو وحده الخالق المدبر المالك الرازق المحيي المميت. وجاء هذا الإقرار في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: {فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} ¹، وقوله تعالى: {فُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ بَأْسِي تَسْحَرُونَ} ².

عند ما تعرض سيد قطب - رحمه الله - للآيات الواردة من سورة العنكبوت في هذا السياق، قال: "وكانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، ومنزل الماء من السماء، ومحیی الأرض بعد موتها بهذا الماء.. يقولون أن صانع هذا كله هو الله، ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، أو يعبدون الجن، أو يعبدون الملائكة، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء له في الخلق.. وهو تناقض عجيب" ³.

1 - سورة يونس، الآية: 31.

2 - سورة المؤمنون الآية: (83-88)، وينظر أيضا: سورة العنكبوت الآية: (60)، و (62).

3 - في ظلال القرآن (428/6).

والم تأمل في القرآن المجيد، يدرك أنَّ جل الحوارات الدائرة بين الأنبياء وأقوامهم إنما هي في إثبات الوجدانية لله تعالى، وإلا فإنَّ الإقرار بوجود الله تعالى والاعتراف به خالقاً مدبراً رازقاً أمر فطري في النفوس البشرية، إلا إذا انتكست كليا كالنمرود بن كنعان وفرعون موسى، ولهذا وجهت الرسل لأقوامهم المكذبة بإرسالهم إليهم التوبيخ على إنكارهم قائلين: {أَفِىِ اللّهِ شَكٌّ بِطَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ¹، فإنَّ وجود الله ووجدانيته أمر لا شك فيه، لظهور البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على ذلك، وصدق من قال:

وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه الواحد ².

ب - إقرارهم بتوحيد الألوهية عند الشدة والكرب:

قد ثبت في آيات كثيرة إقرار المشركين بتوحيد الإلهية والتجاؤهم إلى الله تعالى وحده عند الشدة والكرب ناسين كل ما كانوا يدعون من دون الله من الشفعاء والأنداد، منها: قوله تعالى: {فَلْأَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ³ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} ⁴؛ "لأنَّ الفزع إليه سبحانه عند شدة الضيق واليأس من الأسباب مركز في فطرة البشر، تتبعث إليه بذاتها كما تتبعث إلى طلب الغذاء عند الجوع مثلاً" ⁴. وفي قوله تعالى: {بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ} قال الزجاج: أعلمهم أنهم لا يدعون في الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لأنهم عبدوا الأصنام ⁵.

وقال تعالى: {فُلْ مِّنْ يُنَجِّيَكُم مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْسَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} ⁶ فُلْ اللَّهُ يُنَجِّيَكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ} ⁷ فُلْ هُوَ الْفَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْفِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ يَنْظُرُ كَيْفَ نَصْرِفُ أَلْيَتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} ⁸.

1 - سورة إبراهيم، الآية: (9).
2 - إحياء علوم الدين للغزالي (141/1).
3 - سورة الأنعام، الآيتان: 40 - 41 ,
4 - تفسير المنار (342/7).
5 - زاد المسير لابن الجوزي: (28/2).
6 - سورة الأنعام، الآيتان: (62-64).

وبماثل معنى الآيات السابقة الآيات الكثيرة¹ التي تبين أنّ ما تقلده المشركون من الشرك، إنّما هو أمر طارئ يشغل مخيلاتهم في وقت الثراء والرخاء، أما إذا حل بهم ما لا يُطاق من البلواء واللأواء فإنهم يلتجئون بالدعاء إلى الله وحده، مخلصين له الدين، وضلّ عنهم كل ما كانوا يدعونه من الأصنام والأوثان، ويعدون الله تعالى أن يكونوا من المؤمنين الشاكرين إذا أنجاهم من تلك البلواء، ولكنهم بعد نجاتهم سرعان ما ينقضون العهد ويعودون إلى الشرك مرة أخرى.

ويبدو من خلال هذه الآيات المجيدة أن النقد بالاحتجاج يعتبر مقصداً لوضع كثير من العمليات في إطار المسؤولية، والمسؤولية في إطار الإحساس بها، كما يبدي النقد في أوجه احتجاجاته الوعود بالرجوع إلى الحقيقة، والتنكر للإملاءات الشركية والمغلوطة.

2 - منهج الدعوة إلى التوحيد عن طريق السؤال والجواب:

من بديع منهج النقدي القرآن: تنويع الأساليب حتى لا يسأم المخاطب، وهكذا نوع القرآن الكريم الأساليب وتفنن في دعوة المشركين إلى توحيد الله تعالى عن طريق السؤال والجواب، كما في قول الله تعالى: {فَلْيَمْسَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ بَيْنَهُمَا إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ². أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعاندين: لمن جميع الكائنات في السماوات والأرض تدبيراً وخلقاً وتصرفاً وملكاً، قل لهم تقريراً وإلزاماً هي الله تعالى وحده، لأنهم لا يستطيعون إنكار ذلك، إما بقيام الحجة عليهم أو باعترافهم. قال الرازي: "أمره بالسؤال أولاً، ثم بالجواب ثانياً، وهذا إنّما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب فيه قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع" ³. وقد ذكر الزمخشري في الكشاف: "{لمن ما في السماوات والأرض}" سؤال تبكيت، و{قُلْ لِلَّهِ} تقرير لهم، أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره ⁴.

ومن الآيات الواردة في هذا السياق عن طريق السؤال والجواب، قوله تعالى: {فَلَمْ يَسْأَلِ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلِإِلَهِ أَقْبَاتُ خَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} ⁵ إلى آخر الآية. قال القرطبي رحمه الله: "أمر الله تعالى نبيه

1 - ينظر: سورة الإسراء، الآية: (66)، وسورة النحل الآيات: (52-54)، وسورة النمل الآية: (61)، وسورة العنكبوت، الآية: (65)، وسورة الزمر، الآية: (7).
2 - سورة الأنعام، الآية: (13).
3 - مفاتيح الغيب للرازي: (488/12-489).
4 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (8/2).
5 - سورة الرعد، الآية: (17).

صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، ثم أمره أن يقول لهم هو الله إلزاماً لهم للحجة إن لم يقولوا ذلك وجهلوا من هو¹.

ومنه قوله تعالى: { فَلْأَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مِمَّنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ } ﴿٧١﴾ فَلْأَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مِمَّنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ } ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }².

قال الطاهر ابن عاشور: "ومن أبداع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم، فهو دليل الحدوث، وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم، حتى الأصنام فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل، وتشرق وتضيء بضياء النهار، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائما، لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما، ولأن النعمة بتعاقبهما دوما أشد من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما، لأنه لو كان دائما لكان مسؤولا، ولحصلت منه طائفة من المنافع، وفقدت منافع ضده. فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلا إلى ما هو دون. وسبق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقوله لهم اهتماما بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله على ضدين متعاقبين، حتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيه لهم، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال³، وقال دروزة محمد عزت: "أسلوب الآيات يدل على أن السؤال موجه إلى الكفار على سبيل التبكيث والتفريع والتذكير، وأنها ليست منقطعة الصلة بالسياق

1 - الجامع لأحكام القرآن الجامع لأحكام القرآن: (ت: 671هـ) (303/9).

2 - سورة القصص، الآيات: (71-75).

3 - التحرير والتنوير (169/20).

السابق. والمتبادر أنها جاءت لتبرهن بأسلوب آخر على ما قررته الآيات السابقة من قدرة الله ومطلق تصرفه وحكمه وقضائه"¹.

من هنا نتبين أن الخطاب النقدي إذا كان عن طريق السؤال والجواب يكون أشد تبكيثاً وإلزاماً بالحجة الواضحة التي لا يمكن إنكارها. فالآيات الكريمة المذكورة تبين للناس عموماً والمشركون خصوصاً أنَّ تعاقب الليل والنهار بهذا الشكل العجيب، والنظام الدقيق إلى يوم القيامة، يدل دلالة واضحة على قدرة الخالق، لا إله غيره، ولا أحد في فعله يماثله. لأن الأجوبة كلها أدلة حسية تحت تأثير النظر والمشاهدة.

3 - الاستدلال بالمتقابلات:

من الأدلة التي أقامها القرآن الكريم على المشركون: الاستدلال بالمقابلة بين من يقدر على خلق هذه الأشياء العظيمة وبين من لا يقدر على شيء البتة، بل لا يستطيع أن يجلب نفعاً لنفسه ولا أن يدفع ضراً عنها - فضلاً عن نفع أو ضرر غيره كما يعتقد المشركون أن له شيئاً من التأثير في حياة الناس ومنافعهم. ومن ذلك قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}². جاء في تفسير أبي السعود: "أَفَمَنْ يَخْلُقُ" هذه المصنوعات العظيمة، ويفعل هاتيك الأفاعيل البديعة، أو يخلق كل شيء {كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} شيئاً أصلاً، وهو تبكيث للكفرة، وإبطال لإشراكهم وعبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى"³.

ومن آيات المقابلة الواردة في هذا الخصوص، قوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴿٤﴾ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَفُوا وَخَلْفَهُ بَشَبَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ خَلْقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهْرُ}⁴. فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع مقابلات:

- الأولى: بين الله رب السماوات والأرض، وبين شركاء عاجزين عن كل شيء. قال الفخر الرازي: "ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لأنفسها، ودفع المضرة عن أنفسها، فبأن

1 - التفسير الحديث: (340/3).

2 - سورة النحل الآية: (17).

3 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (ت 982هـ): (104/5).

4 - سورة الرعد، الآية: (17).

تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها، ودفع المضرة عن غيرها، كان ذلك أولى، فإذا لم تكن قادرة على ذلك، كانت عبادتها محض العبث والسفه"1.

- الثانية: بين الأعمى، وأريد به المشرك الذي لا يبصر الحق، وبين البصير وأريد به المؤمن الذي يبصر الحق. وهذه المقابلة لها علاقة بالتي قبلها، كما قال الرازي مبيناً العلاقة بينهما: "ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة، (يعني الأولى) بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير"2.

- المقابلة الثالثة: بين الظلمات والنور، فلا يمكن أن تكون الظلمات مساوية للنور، فكيف تصح المساواة بين جمادات عاجزة جائمة، وبين من خلق السماوات والأرض البديعة؟

- المقابلة الرابعة: وهي بين من يخلق ومن لا يخلق، وفي هذه المقابلة قيام الحجة عليهم والتهكم بعقولهم، "يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله في الخالقية، فوجب أن تشاركه في الإلهية، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل البتة، ولا خلق ولا أثر، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الإلهية محض السفه والجهل"3. قال القرطبي -عند قوله تعالى: {فَلْأَبَاتُخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}-: "هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: {فَلْأَبَاتُخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} معنى؛ بدليل قوله تعالى: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}4 أي: فإذا اعترفتم فلم تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح"5.

ومن هذا الاستدلال التقابلي قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْفَيْ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} هَذَا خَلَقَ اللَّهُ بِأَرْوَئِهِ مَا ذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}6. فقد ذكر الله تعالى من مخلوقاته: خلق السماوات بغير عمد مرئية، وإرساء الأرض بالرواسي الثابتة، ونشر كل أنواع الحيوانات والدواب فيها المأكولة والمركوبة، و إنزال المطر من السماء لإنبات كل صنوف النبات فيها النافعة والبهيجة، فقابل سبحانه ما ذكر بمطالبة المشركين بإحضار مخلوقات

1 - مفاتيح الغيب: (26/19).

2 - المصدر السابق: (26/19).

3 - المصدر السابق: (26/19).

4 - سورة لقمان، الآية: (25).

5 - الجامع لأحكام القرآن: (303/9).

6 - سورة لقمان، الآيتان: 9 - 10.

معبوداتهم الباطلة فعجزوا، فأصبحت في بطلان بين. قال الرازي: "يعني: الله خالق، وغيره ليس بخالق، فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق"¹.

يقول ابن القيم عند رده على الفرق المتنازعة في "الفاعلية" هل هي صفة كمال أم لا؟ "إن من المعلوم تصريح العقل أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق كما قال تعالى: {أَقَمَنَّ يَخْلُقُ كَمَّ لَا يَخْلُقُ أَقْبَلًا تَذَكَّرُونَ}². وهذا استفهام إنكار يتضمن الإنكار على من سوى بين الأمرين، يعلم أن أحدهما أكمل من الآخر قطعاً. ولا ريب أن تفضيل من يخلق على من لا يخلق في الفطر والعقول كتفضيل من يعلم على من لا يعلم، ومن يقدر على من لا يقدر، ومن يسمع ويبصر على من لا يسمع ولا يبصر. ولما كان هذا مستقراً في فطر بني آدم جعله الله تعالى من آله توحيده وحججه على عباده، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}  وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {³، وقال تعالى: {فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ⁴، وقال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ}  وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ {⁵، وقال تعالى: {مَثَلُ الْبَرِّيفَيْنِ كَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَقْبَلًا تَذَكَّرُونَ} ⁶، فمن سوى بين صفة الخالقية وعدمها فلم يجعل وجودها كمالات ولا عدمها نقصاً فقد أبطل حجج الله وأدلة توحيده وسوى بين ما جعل بينهما أعظم التفاوت"⁷.

1 - مفاتيح الغيب: (144/25).

2 - سورة النحل الآية: (17).

3 - سورة النحل، الآيتان: (75 - 76).

4 - سورة الزمر، الآية: (9).

5 - سورة فاطر، الآيات: (19 - 22).

6 - سورة هود، الآية: (24).

7 - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم: (808/1).

فالتقابلات الخطابية في القرآن المجيد تهدف إلى الاستدلال على نفي الند و الشريك في ملكه أبدأً، كما تبرهن على نفي قبول أي مبرر -منطقي في زعم المشركين والملحدين- يخول عبادة غير الله من الأصنام والأوثان. وهذا ما يسمى حجة البرهان بالخلف: تقتضي وجود رأيين متعارضين، الثاني: يعمل على نفي ودحض وتفنيد الرأي الخصم الأول، وذلك بإظهار ضعفه أو عدم صلاحيته. وما ذكرنا من التقابلات الخطابية في القرآن ينبئ عن غيرها مما لم نذكر. والله أعلم.

المبحث الثالث: النقد القرآني في مجال الإصلاح وتوجيه السلوك:

من أبرز الغايات النقدية في القرآن المجيد، إصلاح المجتمعات، دينيا وسلوكيا، واجتماعيا، وسياسيا، واقتصاديا، عنوانه قول الله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَفْوَومٌ} ¹. ولقد أولى القرآن الكريم موضوع "الإصلاح" اهتماما كبيرا، وعناية بالغة، تتجلى في الكم الهائل من الآيات القرآنية الواردة في موضوع الإصلاح، التي استوعبت كافة مجالات الإصلاح وميادينه، وما ذلك إلا لأن القرآن المجيد كتاب إصلاح وتحديث وتجديد، كما سنقف عليه في هذا المبحث من خلال ما يلي من المطالب.

المطلب الأول: مفهوم الإصلاح في القرآن:

عبر القرآن المجيد عن هذه العملية الإصلاحية بألفاظ مختلفة، أبرزها: الإصلاح، والتغيير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن اللفظة التي يهمنها الوقوف عندها في هذا المطلب هي لفظة "الإصلاح"؛ لأنها أعم وأشمل. وبالرجوع إلى اشتقاقها اللغوي نجدها راجعة إلى مادة (صلح)، التي تفيد معنى التغيير وإزالة الفساد الذي علق بشيء من الأشياء ²، فهو إزالة الفساد وإعادة الشيء إلى حالة حسنة، والإتيان بالصلاح والصواب والخير، كما ورد بذلك التعبير القرآني في قوله تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} ³، ومنه اشتق الفعل الرباعي (أصلح) الذي يدل على عملية التغيير والإصلاح بعد الفساد، كما جاء في السياق القرآن عند قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} ⁴، وقوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِفْتَتَلُوا بِأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} ⁵.

1 - سورة الإسراء، جزء من الآية: 9.
2 - ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 3/ 303، مادة (صلح)، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، 6/ 547، مادة (صلح)، نشر: دار الهداية، ولسان العرب، لابن منظور، 2/ 516، مادة صلح.
3 - سورة النساء، جوء من الآية 127.
4 - سورة هود، الآية: 117.
5 - سورة الحجرات، من الآية: 9.

وأما الإصلاح في العرف الشرعي، فغير مختلف عن دلالاته اللغوية كثيراً، حيث نجد تعريفات العلماء للإصلاح كلها راجعة إلى معنى فعل الصلاح والخير الذي يتحقق به حصول المنفعة المادية والمعنوية في مختلف شؤون الحياة، غير أن مفهوم الإصلاح في العرف الشرعي لا يختص بعملية الصلاح بعد الفساد، بل هو أعم وأوسع، يشمل ثلاثة معان:

أولها: الإصلاح بمعنى الصلاح وممارسة عملية التغيير والقيام بمهمة البناء والصلاح، وقد ورد هذا المعنى في آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}¹، وقوله عز وجل: {وَإِذَا فِیْلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ فَاَلَوْأَ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}².

- والمعنى الثاني: إطلاق الإصلاح بمعنى مباشرة عملية الإصلاح بعد وقوع كل مضرة أو ذنب أو فساد، وهي سنة التدافع بين الخير والشر، ومحاولة ستر الذنب وغفرانه بالتوبة، كما في قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}³، كما يراد به القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الأصل العرفي كثير في القرآن الكريم، ومما ورد به قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ}⁴، وقوله تعالى: {إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}⁵. وبه امتدح الله المسلمين في قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}⁶.

- والمعنى الثالث: الإصلاح بعد وقوع الفساد وانتشاره، ولا يكون ذلك إلا حين ينقرض الرسل والأنبياء وورثتهم من العلماء، فيبعث الله من يجدد أمر خلقه وعباده، وفي هذا المعنى ورد السياق القرآني على لسان نبي الله شعيب: {إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ}⁷.

1 - سورة الأعراف، جزء من الآية 55، والآية: 85.

2 - سورة البقرة، الآية: 10.

3 - سورة الأنعام، جزء من الآية: 55.

4 - سورة هود، الآية: 117.

5 - سورة القصص، الآية: 19.

6 - سورة آل عمران، الآية: 110.

7 - سورة هود، الآية: 88.

وعلى ضوء هذه المعاني الثلاث جاءت تعاريف العلماء لمفهوم الإصلاح مختلفة ومتنوعة، أبرزها: تعريف الإمام الرازي له بقوله: "الإقدام على الحسن"1، وهو تعريف روعي فيه المعنى الأول الذي يدل على مطلق الإصلاح والصالح.

وعرفه صاحب المنار بقوله: "بأن أتبع العمل السيء التأثير على النفس عملاً يضاده، ويذهب بأثره من قلبه حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير كما كانت من قبل أهلاً لنظر الرب"2، غير أنه تعريف روعي فيه المعنى الثاني فحسب.

ومن التعاريف التي روعي فيها المعنى الثالث: قول عبد الحميد بن باديس رحمه الله: "الإصلاح هو إرجاع السيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد"3. وقريب من هذا التعريف ما جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية، في تعريف الإصلاح بأنه: "استقامة الحال بعد الفساد، بما يقتضيه الشرع والعقل والحكمة"4.

ومن التعاريف التي جمعت بين معاني الإصلاح كلها قول الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله: "الإصلاح جعل الشيء صالحاً، وهو موضوع للقدر المشترك بين إيجاد الشيء صالحاً، وبين جعل الفاسد صالحاً"5، فشملت المعاني الثلاث كلها، من فعل الخير وإيجاد الصلاح، والإصلاح بعد الفساد. ويشمل ذلك الإصلاح مجالات الحياة الإنسانية كلها، دينية كانت، أم ثقافية واجتماعية، أم سياسية واقتصادية.

المطلب الثاني: الإصلاح السياسي والاقتصادي في القرآن:

لم يكن الإصلاح في النقد القرآني مقتصرًا على المجال الديني والفكري أو العقدي فحسب، بل تجاوزه ليشمل الإصلاح في مجالات الحياة كلها، وأبرز ذلك: الإصلاح السياسي، والإصلاح في المجال المالي والاقتصادي.

أولاً: الإصلاح السياسي في القرآن الكريم:

يعتبر التأسيس للإصلاح السياسي ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية والإسلامية، إذ لا يتم الإصلاح والتغيير الإيجابي في حياة الناس إلا من خلال الإصلاح السياسي، ويشمل ذلك أصول الحكم في الإسلام، وأساس نجاح عملية السياسة الشرعية التي بها صلاح البلاد والعباد، وأبرز ذلك أمور ثلاثة:

-
- 1 - التفسير الكبير، للرازي، 11/ 252.
 - 2 - تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، 7/ 336.
 - 3 - مجالس التنكير، للشيخ ابن باديس، ص 73، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1416 هـ / 1995 م.
 - 4 - الموسوعة الفقهية الكويتية، 5/ 62.
 - 5 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 8/ 175.

1- نظام الحكم، فقد أسس القرآن الكريم نظام الولاية والبيعة وطاعة ولي أمر المسلمين في المعروف¹، حتى يتحقق الاتحاد والالتئام تحت ظلال حكم واحد، ويستقيم أمر الأمة تحت ولاية واحدة، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، "بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صلى الله عليه و سلم : (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)²3، ولتحقيق الولاية والسمع والطاعة بالمعروف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}⁴. قال الفخر الرازي: "اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا"⁵. وما ذلك إلا من أجل الحفاظ على نظام سياسي صالح غير فاسد، قائم على السمع والطاعة لولي أمر المسلمين "فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة. والشرعية التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق"⁶.

ومن هنا ندرك أن الولاية أو الخلافة في أصلها مجرد وسيلة إلى تحقيق مصالح المسلمين ودرء المفساد عنهم، وليست غاية في حد ذاتها على الإطلاق، ومما يدل على ذلك أن علماء الشريعة الإسلامية قد فصلوا في الموضوع تفصيلات كثيرة، فتحدثوا عن ضرورة تولية الأصلح للخلافة، ومن ذلك قول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "والمهم في هذا الباب معرفة الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية ومعرفة طريق المقصود"⁷، ومما يؤكد أن المراد من الخلافة هو الإصلاح من القرآن الكريم، قول النبي الله موسى لأخيه هارون: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}⁸.

2- مبدأ الشورى: الذي يركز على رأي الجماعة، ويقوم على إشراك جماعة المسلمين في الحكم، حتى لا يستبد الحاكم بحكمه ورأيه، فيطغى على الناس ويجانب الصواب في تسيير أمور المسلمين. يقول الإمام أبو بكر ابن العربي: "الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول،

1 - لما في الصحيحين من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الطاعة في المعروف". أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، 6 / 2612، الحديث: 7145. ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، 6 / 15، الحديث رقم: 4871..

2 - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، 2 / 340، الحديث رقم: 2610. والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

3 - السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص 217.

4 - سورة النساء، الآية: 58.

5 - تفسير الرازي، 10 / 112.

6 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 2 / 691.

7 - السياسة الشرعية، ص 37، نشر: دار المعرفة.

8 - سورة الأعراف، الآية: 142.

وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا"¹، ومن أجل الحفاظ على هذا النهج الإصلاحية ورد قول الله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}²، وهو خطاب موجه إلى أكمل الناس عقلاً وأفضلهم رأياً وأدقهم سياسة وتدبيراً، فكيف بغيره من الخلق، ولذلك اشترطها الله تعالى في كثير من المجالات، سواء كانت تتعلق بقضايا الأمة، أو قضايا قرية أو بلد، أو كانت متعلقة بشؤون الأسرة الخاصة. يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله في تحريره: "فتعين أن المشاورة المأمور بها هنا هي المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها، وقد أمر الله بها هنا ومدحها في ذكر الأنصار في قوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}³، واشترطها في أمر العائلة فقال: {فَإِنْ أَرَادَا إِصْلَاحًا عَلَى تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا}⁴، فشرع بهاته الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها: وهي مصالح العائلة، ومصالح القبيلة أو البلد، ومصالح الأمة"⁵.

وإن في أمر القرآن الكريم بالشورى⁶ تقييدا للسلطة، حتى لا يتعسف البعض في استعمال الحق، أو يستبد بالأمر دون مشاورة أهل الحل والعقد من المسلمين، وقد عاب الله استبداد الطاغية فرعون، حين قال: {أَنَا رَبُّكُمْ أَلاَّ عُبَى}⁷، فقال تعالى مخاطباً نبيه موسى:

{إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}⁸، لأن الطغيان والاستبداد بالرأي يعطل الإصلاح السياسي المنشود، ويهدم البناء الحضاري الإنساني المعهود، "ويسمح بوجود أفكار مشلولة وعقيمة، لا تسمح للشعب بفرصة التدارك أو التفكير والنظر إلى الممتلكات بمنطق القعالية"⁹.

الحكم بين الناس بالعدل: ذلك لأن العدل اساس الملك، وشرط كل إصلاح وبناء، سياسياً كان أم اقتصادياً أو اجتماعياً، حيث يشمل الحكم بالعدل حفظ الأموال والأعراض، وينظم علاقات الناس فيما بينهم، فهو أعظم وجوه الإصلاح التي جاء بها القرآن المجيد في قول الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}¹⁰؛ لما يحصله من المنافع والمصالح الأمنية، والمساواة بين أفراد الأمة في استحقاق الأشياء. جاء في الصحيح أن

1 - أحكام القرآن، لابن العربي، 4 / 91.

2 - سورة آل عمران، جزء من الآية: 159.

3 - سورة الشورى، جزء من الآية: 35.

4 - سورة البقرة، جزء من الآية: 231.

5 - التحرير والتنوير، 4 / 147 - 148.

6 - وقد حمله فقهاء المالكية وجماهير العلماء على الوجوب، لا على الندب، وقالوا: إنه أمر عام، للرسول ولولاة أمور المسلمين، فيشاور الأمير قادة الجيش فما يتعلق بالحرب، والفقهاء فيما يتعلق بشؤون الشريعة، والسياسيين فيما يتعلق بالشؤون السياسية، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم. ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي، 1 / 390 - 391، والتحرير والتنوير، 4 / 148.

7 - سورة النازعات، من الآية: 24.

8 - سورة النازعات، الآية: 20.

9 - تأملات، للمفكر الإسلامي مالك بن نبي، ص: 137، نشر: دار الفكر، بيروت - لبنان، ط 2000م.

10 - سورة النساء، من الآية: 57.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا"¹.

ثانيا: الإصلاح الاقتصادي في القرآن المجيد:

لم يكن النقد القرآني بمنهجه مقتصرا على المجال الديني والأخلاق المجتمعية فحسب، بل يعتمد بالإضافة إلى ذلك على الإصلاح الاقتصادي الشامل، الذي يتحرى إصلاح المنظومة الاقتصادية كلها، بيعا وشراء، واحتكارا واستثمارا. ويتجلى هذا الإصلاح القرآني الشامل للمنظومة الاقتصادية في النقاط الآتية:

بيان طرق الاستثمار المشروعة، والحث على التجارة والكسب الحلال، والبيع على الوجه الذي يتراضى عليه الطرفان، فقال تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ}²، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ}³، وفي الحث على طلب الكسب الحلال ورد قوله تعالى: {فَبَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}⁴

1- إصلاح أموال اليتامى بتنميتها والحفاظ عليها، والتصرف فيها على الوجه الذي يعود عليهم بالمنافع والمصالح؛ لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ فَلِي إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}⁵؛ ذلك لأن استثمارها في المصالح الشخصية، أو الأكل منها بغير وجه شرعي أمر منبوذ ومنهي عنه في قول الباري سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}⁶، إلا أن يكون ولي اليتيم فقيرا فقد أبيح له الأكل من مال اليتيم بحسب المعتاد والمعروف، كما في النص القرآني: {وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}⁷.

1 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، 6/ 7، الحديث رقم: 4825.

2 - سورة البقرة، جزء من الآية: 274.

3 - سورة النساء، الآية: 29.

4 - سورة الجمعة، جزء من الآية: 10.

5 - سورة البقرة، الآية: 217.

6 - سورة النساء، الآية: 10.

7 - سورة النساء، جزء من الآية: 6.

- تجريم الإسراف ومنعه من خلال الحجر على السفهاء، وعدم تمكينهم من التصرف في المال؛ كما وجه إليه القرآن الكريم: {وَلَا تُوتُوا السَّبَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا} ¹؛ لأنهم لا يحسنون استثمارها ووضعها في مواضعها، ولذلك اشترط القرآن الكريم امتحانهم واختبارهم - قبل تمكينهم من أموالهم - حتى يتبين نضجهم وحسن تصرفهم فتسلم لهم، وإلا حجر عليهم حتى يتبين نضجهم {وَابْتَلُوا الَّتِي تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} ².

- النهي عن أكل أموال الناس بالباطل؛ فحرمت بناء على هذا الأصل تعاملات كثيرة، كالقمار والميسر والسحت، والغصب، وغيرها من أصناف التعاملات والتحايلات الفاسدة، فقال تعالى: {وَلَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيفًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ³.

- تحريم الغش والربا والغبن والغرر وغير ذلك من التعاملات التي فيها الإضرار بمال الغير؛ حفظاً لأموال الناس، وإصلاحاً للعمليات الاستثمارية الصالحة، التي تكون سبباً في تنمية اقتصاد الأمم والمجتمعات، وفي هذا السياق وردت آيات نقدية كثيرة، منها قول الله تعالى في نقد الغش والغشاشين: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} ⁴ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ⁵ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} ⁶، ويتكرر هذا الخطاب النقدي في القرآن الكريم مرات عديدة، أبرزها قول الله تعالى: {وَيَلْفُومِ أَوْفُوا أَلْمِ كِيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ⁵. فدللت الآيات السابقة على تجريم الغش والغرر، وإفساد مال الغير والإضرار به بأي وجه من الوجوه، ودعت إلى حماية الملكية الفردية، والالتزام بأخلاق الإنسانية في المعاملات المالية.

1 - سورة النساء، من الآية: 5.

2 - سورة النساء، الآية: 6.

3 - سورة البقرة، الآية: 187.

4 - سورة المطففين، الآيات: 1 - 2 - 3.

5 - سورة هود، الآية: 84.

المطلب الثالث: آيات الإصلاح في القرآن الكريم:

إن مما يلفت انتباه الباحث -أثناء وقوفه على مجالات الإصلاح في القرآن الكريم- وجود تلك الكمية الهائلة لمادة الإصلاح ومشتقاته في الكتاب العزيز، فهي تشغل حيزا كبيرا من آيات القرآن المجيد وسوره، وذلك ما يبرز لنا مكانة الإصلاح وأهميته في الرسالة الإسلامية، سواء في ذلك الإصلاح الإلهي أو الاصلاح البشري الذي يكون عادة إما بفعل الرسل والأنبياء، وإما بواسطة ورثة الأنبياء من العلماء، وغيرهم من عباد الله المصلحين. ويتتبع الآيات التي ورد فيها لفظ "الإصلاح" ومشتقاتها بصيغها المختلفة في القرآن -اعتمادا على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم1، أو الموسوعة القرآنية الميسرة2- نجد أن لفظة الإصلاح وردت إحدى وأربعين مرة في القرآن المجيد، موزعة على عشرين سورة قرآنية، إحدى عشرى سورة منها مكية، وتسع سور منها مدنية، باعتبار أن طبيعة كلتا المرحلتين _المكية، والمدنية- بحاجة إلى الحديث عن الإصلاح والتحديث، وتغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية.

وفيما يلي أورد جدولا مبينا لهذا الكم الهائل من آيات الإصلاح في القرآن الكريم، لنقف من خلاله -بصورة أوضح وأبين- على موضوعات الإصلاح، ومجالاته الإنسانية والاجتماعية الذي تطرق إليها النقد القرآني في سياقاته المختلفة، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أوالجماعات:

السورة، وعدد آياتها:	الآية التي ورد فيها لفظ "الإصلاح" ومشتقاته:	رقم الآية:
سورة البقرة مدنية عدد آياتها: 285	1- {وَإِذَا فِىلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْآرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }.	الآية: 10
	2- {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَإِنَّهُمْ أَتُوبَ عَلَيْهِمْ }.	الآية: 159
	3- : {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَباً أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ }.	الآية: 181
	4- : {وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَحْ لَهُمْ خَيْرٌ }.	الآية: 218
	5- : {وَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ }.	الآية: 222

1 - المعجم المفهرس، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ص 401 – 412، نشر: دار الجيل بيروت، لبنان، ط 1408 هـ / 1907م.
2 - الموسوعة القرآنية الميسرة، لمحمد بسام رشدي الزين، ووهبة الزحيلي، ومحمد عدنان سالم، ومحمد وهبي سليمان، ص 896، نشر: دار الفكر، دمشق = سوريا، ط 2002م.

الآية: 226:	6- {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا}.	
الآية: 61.	{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.	سورة آل عمران مدنية عدد آياتها: 200
الآية: 16	1- {وَالَّذِينَ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا بِمَا تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا}.	سورة النساء مدنية عدد آياتها: 175
الآية: 35	2- {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّيَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا}	
الآية: 114	3- {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}.	
الآية: 127	4- {وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}.	
الآية: 128	5- {وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}	
الآية: 145	6- {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}.	
الآية: 41	{فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ}.	سورة المائدة مدنية عدد آياتها: 122
الآية: 49	1- {فَمَنْ أَمْسَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.	سورة الأنعام مكية عدد آياتها: 167
الآية: 55	2- {أَنَّهُ مِمَّنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.	
الآية: 33	1- {فَمَنْ إِنْتَبَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ	

	يَحْزَنُونَ}.	سورة الأعراف مكية عدد آياتها: 206
الآية: 55	2- {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}.	
الآية: 84	3- {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}.	
الآية: 142	4- {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}.	
الآية: 170	5- {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}.	
الآية: 01.	{قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}.	سورة الأنفال مدنية عدد آياتها: 67
الآية: 81	{إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}.	سورة يونس مكية عدد آياتها: 910
الآية: 88	1- {إِن أَرِيدُ إِلَّا الْأِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}.	سورة هود مكية
الآية: 117	2- {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ}.	عدد آياتها: 121
الآية: 119	{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}.	سورة النحل مكية عدد آياتها: 128
الآية: 89	{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ}.	سورة الأنبياء مكية عدد آياتها: 111
الآية: 05	{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.	سورة النور: مكية عدد آياتها: 62
الآية: 152	{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}.	سورة الشعراء مكية عدد آياتها: 226
الآية: 50	{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي	سورة النمل مكية

عدد آياتها: 95	إِلَّا رَضِيَ وَلَا يُصْلِحُونَ}.	
سورة القصص مكية عدد آياتها: 77	{إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}.	الآية: 18
سورة الأحزاب مدنية عدد آياتها: 73	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٣﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ ءَعْمَلَكُمْ}.	الآية: 71
سورة الشورى مكية عدد آياتها: 50	{فَمَنْ عَٰبَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ ءَلَى اللَّهِ}.	الآية: 37
سورة الأحقاف مكية عدد آياتها: 35	{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}.	الآية: 14
سورة محمد مدنية عدد آياتها: 37	1- {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}.	الآية: 02
	2- {سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}.	الآية: 06
سورة الحجرات مدنية عدد آياتها: 18	1- {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِلُوا آلِئِ تَبْغِي حَتَّىٰ تَبْغِءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَفْسَطُوا}.	الآية: 09
	2- {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}.	الآية: 10

بهذه العملية التجريدية لمشتقات الإصلاح في القرآني ينتهي الباب الأول من هذا البحث، ومجمل ما قدمه هذا الباب: أن القرآن المجيد يعتبر كتاب علم ودعوة فكر ونظر، كما تؤيده الدلالات الاشتقاقية اللغوية للقرآن الكريم، فهي كلها دائرة على أسامي الكتاب والقرآن والفرقان والهدى والنور والبرهان، وأن القرآن المجيد كتاب نقدي عالمي، يتوجه بأوامر التغيير والإصلاح إلى النوع الإنساني على الجملة، موظفا في سبيل ذلك سائر الأساليب النقدية والحوارية،

فالمتلقي للقرآن الكريم هو الإنسان، بغض النظر عن أصله، وجنسه، ولغته، وثقافته. وهذا ما تؤكدته كثير من آيات القرآن الكريم التي توظف مجموعة من الألفاظ والمصطلحات التي تفيد عموم الخطاب في القرآن، ومن أعم هذه الألفاظ وأكثرها استعمالاً في التنزيل: لفظ "الناس"، ولفظ "كافة" ولفظ "العالمين".

وفي الباب الموالي-إن شاء الله- سأحدث عن منهج الاستدلال القرآني في الخطاب النقدي المتميز بتنوعه المتكامل؛ إذ يخاطب الإنسان في كل قواه الإدراكية عقلاً وحساً وفطرة.

الباب الثاني:

أصول الفكر النقدي في

القرآن الكريم، ومناهجه

الفصل الأول: أصول الفكر النقدي في القرآن الكريم:

ينهج القرآن المجيد في مخاطبة فكر الكيان الإنساني منهج الاستدلال العقلي الذي يخاطب فيه مداركه الفكرية المنطقية، وخاصة القوة العاقلة فيه، ليقنعه من خلال تلك القوة بحقائق دينية، أو ليرد عنه الشبهات الوافدة عليها، فبالإضافة إلى مخاطبة هذا البعد العقلي في الإنسان بالدليل القائم على الحجّة المنطقية، فإنه يخاطب فيه كل القوى التي من شأنها أن يكون لها مدخل في الاقتناع بالخطابات الموجه إليها الماثلة في حواسه التي تلتقط معارفها من آفاق الكون من خلال توجيه القرآن الكريم لها إلى النظر في المشاهد الكونية من أجل بناء الاستدلال عليها والوصول منها إلى القناعات العقلية، كما يخاطب في شأن الاستدلال على الحقائق الدينية فطرة الإنسان ومشاعره وعواطفه و صولا منها إلى مدخل اليقين بها؛ إذ المراد من الإنسان هو الإيمان الجازم بالله واليوم الآخر وما يتضمنه من مشاهد الحشر والحساب والثواب والعقاب، وهذا الإيمان قد يحصل لبعض الناس من باب العقل أو من باب الحس وقد يحصل في بعض الأحوال من باب غير باب العقل، وهو باب المشاعر وكل ما من شأنه أن يكون له أثر بالغ في إثارة فطرة الإنسان وعواطفه من رجاء وخوف، وخشية وشوق، وعليه، فقد بُني منهج الاستدلال القرآني المتكامل على مخاطبة الإنسان في كل قواه الإدراكية عقلا وحسّا ومشاعر وعواطف، وسأكسر هذا الفصل على ثلاثة مباحث، وداخل كل مبحث ثلاثة مطالب، وأقول مستعينا بالله:

المبحث الأول: الأصل الفطري:

الإنسان يخرج من بطن أمّه لا يملك علماً فعلياً، ولكنه يملك قوة العلم وهي فطرة لديها كل القابلية والاستعداد للعلم بما تحمله من مبادئ وأصول إلهية تحتاج إلى أرضية مناسبة لظهورها وتكاملها، لأنّ الفطرة ليست من قبيل العلم الحسولي الذي يؤخذ بالاكْتساب عن طريق الحواس، وسيتبين معنى الفطرة ببيان لفظها ومشتقاته من نصوص الكتاب والسنة. وقبل النظر في دلالات هذه النصوص وموضوعاتها. ننظر أولاً فيما تيسر من المعاني اللغوية للفطرة من خلال القرآن؛ لما لها من تأثير في الاستعمالات الشرعية. ثم نقف على أهم أقوال العلماء في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأود تناول هذا المبحث في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: مفهوم الفطرة في القرآن:

يستتبط من تتبع المعاني اللغوية للفطرة في المعاجم¹ أن الله تبارك وتعالى عندما خلق الإنسان أودع فيه صلاحية الاستقبال للدين الحق، وهذا مايسمى بالأصل الفطري، وهو الذي يخاطبه القرآن في عقول وقلوب المشركين المتأثرين بالديانات الباطلة، وغيرهم ممن تأثر بالغرب لدرجة الإلحاد. ونفس المعاني اللغوية هي التي وردت في القرآن، قال في اللسان: "وأصل الفطر: الشق، ومنه قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْبَطَرَتْ}²، أي: انشقت. وفي الحديث: "قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تَفَطَّرَ قدامه" أي: انشقتا. يقال: تَفَطَّرَ وانْفَطَرَت بمعنى. وفي التنزيل العزيز: {السَّمَاءُ مَنبَطِرٌ بِهِ}³، وجمعه «فطور» وفي التنزيل: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَافاً} مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَبَوُّتٍ فَإِزْجَعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ⁴ "5.

وتأتي بمعنى الابتداء والاختراع. "والفطرة: الابتداء والاختراع. وفي التنزيل العزيز: {الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاطِرٍ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}⁶. قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا

1 - "الفطر: الشق، وفطره يفطره ويفطره: شقه فانفطر وتَفَطَّر، و(فطر) الله الخلق: خلقهم، وبرأهم. - الأمر: ابتدأه، وأنشأه... والفطرة: ... الخلقه التي خلق عليها المولود في رحم أمه، والدين". انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي (456-457) وجاء في لسان العرب لابن منظور(المتوفى: 711هـ) (58/5): "الفطر: الابتداء والاختراع، والفطرة منه الحالة، كالجلسة والركبة، والمعنى أنه يولد على نوع من الجيلة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد، ثم مثّل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لأبائهم والميل إلى أديانهم عن مقتضى الفطرة السليمة؛ وقيل: معناه: كل مولود يولد على معرفة الله تعالى والإقرار به فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً، وإن سماه بغير اسمه، ولو عبد معه غيره".

2 - سورة الانفطار، الآية: 1.

3 - سورة المزمل، الآية: 16.

4 - سورة الملك، الآية: 3.

5 - لسان العرب 56/5.

6 - سورة فاطر، الآية: 1.

فطرتها، أي أنا ابتدأت حفرها... وقال أبو الهيثم: الفطرة: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}¹، أي خلقتني².

وتأتي الفطرة أيضاً بمعنى: الوهي أو الاختلاف أو الخل، يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ} أي ليس فيه اختلاف، ولا تنافر، ولا نقص، ولا عيب، ولا خلل، ولهذا قال تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ} أي: انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً، أو نقصاً، أو فطوراً... وقال ابن عباس في رواية: {من فطور} أي: من وهي، وقال قتادة: {هل ترى من فطور} أي: هل ترى خلايا ابن آدم؟³، وتؤول هذه المعاني اللغوية كلها إلى تعريف الفطرة في اللغة بأنها: هي الخلقة الأولى لأي شيء، وحدوث الاختلال فيه. وفيما يلي أذكر أهم دلالات الفطرة ومعانيها الاصطلاحية التي ذهب إليها العلماء في بيان مفهومها وتفسير آيتها، ومدي تلاؤم الفطرة وتوافقها وارتباطها بالإسلام، وما يدعو إليه، فأقول:

معنى الفطرة في الاصطلاح القرآني:

لقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في مفهوم الفطرة، قال الإمام ابن قيم الجوزية: "هذا موضع اضطربت فيه الأقدام، وطال فيه النزاع والخصام"⁴، وذلك أن مفهوم لفظها لم يكن قطعي الدلالة، وأنه جاء في سياقات متعددة، وورد في القرآن المجيد على ثلاثة معان:

الأول: وهو الأبرز وروداً أن الفطرة تعني: الخلق والإبداع على غير مثال سابق، قال عز وجل: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفاً⁵}.⁵

الثاني: يذهب إلى أن الفطرة تعني انتقاص القوانين المؤلفة، والسنن القائمة في نظام الكون، كما في قوله تعالى: {يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ۖ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدّاً⁶}⁶، وقال في سورة الشورى: {يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّرْنَ مِنْ بَوْفِهِنَّ⁷}⁷، وهذا المعنى يعود إلى المعنى اللغوي:

الانشقاق.

1 - سورة الزخرف، الآية: 26.

2 - نفس المصدر.

3 - تفسير القرآن العظيم، 177/8.

4 - أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية، 945 /2.

5 - سورة الأنعام، الآية: 80.

6 - سورة مريم، الآية: 91 - 92.

7 - سورة الشورى، الآية: 3.

الثالث: وهذا يشير إلى الارتباط بين الخلق والدين؛ إذ أن الله هو الخالق والمشرع، قال جل وعز: {فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَٰهَ فِطْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ¹. وفي ضوء هذه الآية تعرض العلماء للفطرة بالتعريف والتفسير.

أورد العلماء العديد من التعريفات للفطرة عند بيان مفهومها ولم يقتصروا على تعريف واحد، يرجع السبب في ذلك إلى النظر لمفهوم الفطرة من جانب دون آخر أو الاستناد على أثر من الكتاب أو السنة دون آخر أو الرجوع إلى المعنى اللغوي لها. وسأكتفي بذكر سبعة منها:

الأول: الفطرة بالكسر: الخلق، والثاني: الفطرة بمعنى البداءة التي ابتدأهم عليها، والثالث: الفطرة هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقت. والرابع: الفطرة: الإسلام، قال ابن حجر العسقلاني: "وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف" ². والخامس: الفطرة هي أخذ الميثاق من الذر، دليلهم ما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنوعمان - يعني: عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} فَالَوْأَ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ³، ⁴. والسادس: الخلق التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على فطرة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقه مخالفة لخلق البهائم التي لا تصل بخلقها إلى معرفة ذلك" ⁵. والسابع: فطرة الله هي التوحيد الذي تشهد به العقول السليمة والنظر الصحيح ⁶.

بعد عرض آراء العلماء حول معنى الفطرة نتبين أن الآراء الثلاثة الأولى استندت في بيانها لمفهوم الفطرة على أصل الكلمة في اللغة، وذلك يبدو واضحاً عند مقارنتها بما تقدم من بيان مفهوم الفطرة في اللغة. أما القول الرابع (الإسلام) فهو مبني على أدلة من الكتاب والسنة. والتعريف الاصطلاحي يدور في أكثره على أنها بمعنى الإسلام، قال البخاري: "قال ابن

1 - سورة الروم، الآية: 29.

2 - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، 3 / 248.

3 - سورة الأعراف، الآية: 172 - 173 - 174.

4 - قال الحاكم في المستدرک: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، 593/2، برقم: 4000، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته 349/1، برقم: 1701 - 752.

5 - التمهيد لابن عبد البر النمري (المتوفى: 463هـ) 68/18.

6 - غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (المتوفى: 850هـ) 411/5.

شهاب : يصلى على كل مولود متوفى، وإن كان لغيره¹، من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام²، وهو آخر قول الإمام أحمد ، كما حكاه المروزي³ وجزم به البخاري في كتاب التفسير، باب : " لا تبديل لخلق الله " ومن ذلك قوله تعالى: {بِأَفْئِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}⁴. فالدين الحنيف هو الإسلام، ويؤكد هذا الرأي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم ذكر الآية السابقة⁵، فلم يرد في الحديث أو يسلمانه، وذلك دليل على أنه يولد على الإسلام. والإسلام فسر النبي - عليه السلام - في حديث جبريل الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه، والمراد بالإسلام هو الإيمان بالله بدليل قوله - صلى الله عليه وسلم -: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله"⁶. وإذا كان الأمر كذلك فالإسلام هو الدعوة لتوحيد الله. والتوحيد هو الدين الحنيف الذي دعا إليه جميع الأنبياء. ما من نبي إلا ويقول لقومه: {يَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}⁷، وبهذا يكون المقصود من ولادة المولود على الفطرة أنه يولد على التوحيد الذي هو عقيدة الإسلام⁸، خلافاً لليهودية والنصرانية والمجوسية التي لا تقر بوحدانية الله تعالى، من هنا يتوافق هذا الرأي مع الرأي الذي جاء بعده والذي يشير إلى أخذ الميثاق من الذر على الخلق المشار إليه في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}⁹. يقول ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد ربك؛ إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وقرارهم به¹⁰. وهكذا فسر الإمام الطبري الفطرة المشار إليها في عالم الذر بالتوحيد الذي تقبله النفوس البشرية، إذن فقد حصل

1 - المقصود أنه ابن زنا، فيصل على المتوفى وإن كان من الزنا. فتح الباري، لابن حجر، 3/ 221.
2 - صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (94/2) رقم الحديث : 1358.
3 - فتح الباري، 3/ 249.
4 - سورة الروم، الآية: 29.
5 - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الروم ، باب : {لا تبديل لخلق الله}، الحديث رقم : 4775.
6 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة 15/1. الحديث رقم: 25.
7 - الأعراف، الآية: 64.
8 - درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، 7/ 426.
9 - سورة الأعراف، الآية: 172.
10 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ) (10/ 546).

التوافق مع الرأي السادس والسابع بأن الفطرة هي التوحيد وهي أمر موجود في داخل كل إنسان، ولو خلي بين الإنسان وفطرته فإنه لا يستدل إلا على الله، إذا لم يكن هناك ما يصرف الفطرة عن طبيعتها التي خلقت عليها.

بعد هذا النظر في آراء العلماء في مفهوم الفطرة تجددها شبه متوافقة في بيان مفهوم الفطرة وإن لم تكن صريحة، ويؤيد هذا الأمر ما أشار إليه الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه "الإيمان والحياة" ما نصه: " هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بالله، حتى قال أحد كبار المؤرخين: "لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد"¹، ويؤكد هذا المعنى الدكتور دراز في كتابه "الدين" حين ينقل عن هنري برجسون قوله: " لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة"²، وحول هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولما كان الإقرار بالصانع فطرياً - كما قال صلى الله عليه وسلم-: "كل مولود يولد على الفطرة" الحديث، فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه، وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد"³.

بناء على ماتقدم فإن الفطرة تُعد دليلاً لإثبات وجود الله ووحدانيته - سبحانه وتعالى-. وهذا هو محور المطلب الثاني الموالي:

المطلب الثاني: اعتماد أصل الاستدلال بالفطرة في القرآن:

ذكر الله عز وجل الفطرة السوية التي خلق الناس عليها، في كتابه العزيز؛ إذ قال: {بِأَفْئِمَّةٍ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}⁴. يستدل بهذه الآية على أن فطرة الإنسان لها علاقة وطيدة بالدين الحنيف، وأنها الأساس التي تبنى عليه جميع المعارف الإنسانية، وعلى رأسها معرفة الله سبحانه، ومع ذلك اختلف فيها هل تُعد دليلاً على إثبات وجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى - أم لا؟ وهذا الذي نود تناوله في هذا المطلب، وقبل الجواب على هذا السؤال لا بد من بيان معنى الدليل، و"هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر"⁵.

1 - الإيمان والحياة للقرضاوي ص 45.

2 - الدين، لدراز، ص: 83.

3 - مجموع الفتاوى لابن تيمية، 6/2.

4 - سورة الروم، الآية: 29.

5 - التعريفات للجرجاني (المتوفى: 816هـ) ص 104.

وإذا كان الدليل مبنيًا على علم، فقد علم أن الإنسان حينما يولد لا يعلم شيئاً، مصداقاً لقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً} ¹، وهذا ماجعل بعض علمائنا وخاصة المتكلمين لا يذكرون دليل الفطرة ضمن الأدلة على حصول المعرفة بالله تعالى لقولهم "بأن معرفة الله تعالى على الأغلب نظرية، أي تحتاج إلى نظر، وأن معرفة الله تعالى هي نوع من العلوم؛ لذلك لا يمكن الاستدلال عليه بالفطرة؛ لأن الإنسان يولد ولا علم معه" ². يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رداً عليهم " وإذا قيل: إنه ولد على فطرة الإسلام، أو خلق حنيفاً ونحو ذلك، فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده؛ فإن الله تعالى يقول: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً} ، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام ولمعرفته ومحبته" ³. قلت: هذا القائل، إن أراد بهذا القول أنهم خلقوا خالين من المعرفة والإنكار من غير أن تكون الفطرة تقتضي واحداً منهما، بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان وكتابة الكفر، وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر، وهذا هو الذي يشعر به ظاهر الكلام - فهذا قول فاسد؛ لأنه حينئذ لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار والتهويد والتتصير والإسلام، وإنما ذلك بحسب الأسباب، فكان ينبغي أن يقال: فأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ويمجسانه" ⁴.

مما يدل على صحة الاستدلال بهذا الأصل الفطري ملازمة التدين في تاريخ الأمم والحضارات فلم يخل عصر من العصور أو أمة من الأمم من دين أو معبود، سواء أكان حقا أو باطلا. وهذا يدل على أن دلالة الفطرة أقوى من أي دليل آخر عقليا كان أو علميا كما أشرنا إلى ذلك في المطلب السابق، ولو ترك الإنسان على فطرته السليمة في جزيرة نائية دون تعليم أو تأثير خارجي لتوصل لحقيقة وجود الله تعالى. قال ابن القيم: "فلا بد لكل أحد من إله يألهه، وصمد يصمد إليه. والعباد مفطورون على محبة الإله الحق، ومعلوم بالضرورة أنهم ليسوا مفطورين على تأله غيره؛ فإذا إنما فطروا على تأله وعبادته وحده، فلو خلوا وفطروهم لما عبدوا غيره ولا تألهوا سواه" ⁵. وهذا ما أثبتته ابن طفيل في قصة حي بن يقظان، كيف نشأ في الغابة لوحده مع الحيوانات ثم تدرج في معرفته حتى وصل إلى حقيقة، مفادها: أنه "علم بالضرورة أن كل حادث لا بد له من محدث" ⁶، فلا ينتقض هذا بكثرة ما نراه في هذا العصر من كثرة الملاحدة اللادينيين، فالكثرة لا تعني الأكثرية، فكثرتهم نشأت عن أسباب مختلفة، وإن قورنوا بالمتدينين يكونوا أقلية. إذن يبقى الإلحاد استثناء مخالفًا للأصل الفطري في البشر، والإلحاد يحتاج إلى البحث في أسبابه، كما يبحث في سبب كل ما يخالف الأصل القار.

1 - سورة النحل، الآية: 78.

2 - تهذيب شرح السنوسية أم البراهين لفوده، ص 81.

3 - درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية 383/8.

4 - المصدر السابق 444/8.

5 - شفاء العليل 306/1.

6 - فلسفة ابن طفيل ورسائله (حي بن يقظان)، لعبد الحليم محمود، ص 09.

ومن أقوى البراهين أيضا على إثبات دليل الفطرة أن العقيدة الإسلامية تمتاز بأنها عقيدة فطرية " بمعنى أنها ليست غريبة عن الفطرة أو مغايرة لها، بل هي تلائم الفطرة وتنميها ولا تصادمها"¹.

يقول الإمام الغزالي حول هذا المعنى - وإن كان من الذين لا يوردون دليل الفطرة ضمن الأدلة-: "فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف، وإليه الإشارة بقوله عز وجل: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}²، إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد. وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة، ومطبق لها في الأصل"³.

ومن براهين الاعتداد بالأصل الفطري: "لجوء الإنسان إلى الفطرة السليمة التي هي مضطرة بطبعها إلى الإقرار بوجود الرب الخالق، وذلك لما تحتاج إليه النفوس من لجوئها إلى قوة عليا تستنقذ بها عند حلول المصائب بها"⁴. إن بني آدم جميعهم يشتركون في هذا الشعور، وهو اللجوء عند الشدائد إلى الله وحده دون غيره من المعبودات الباطلة، بل إن اعتداده بقدراته الشخصية يتزعزع عند الحاجة، فالناس حالياً أمام ماينزل بهم عالميا من ابتلاءات "وباء كورونا كوفيد19" (2020م) كل يشعر في قرارة قلبه بافتقاره إلى ربه، وإن أظهر غير ذلك اعتزازا بالإثم ودفعاً للحرَج. وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ فَاعِداً أَوْ فَايَماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}⁵، فرجوع الإنسان عند الشدة إلى خالقه سبحانه برهان جلي على الاعتداد بالأصل الفطري، قال حبنكة الميداني: "وهذه الفطرة مهما تراكمت عليها الغفلات، وتراكبت عليها الظلمات، وانحرفت بها الأهواء عن سوائها، لابد أن تصحو وتستيقظ وتستبصر إذا ضاق عليها الخناق في الملمات، واشتد عليها الكرب في الحادثات، وتقطعت بها أسباب الخلاص والنجاة"⁶.

1 - عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لخليل ملكاوي، ص 26.

2 - سورة الأحزاب، الآية: 72.

3 - إحياء علوم الدين للغزالي 14/3.

4 - قضية الألوهية بين الدين والفلسفة: الجليند، ص 33.

5 - سورة يونس، الآية: 12.

6 - براهين وأدلة إيمانية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص 141.

ومما يستدل به أيضا على الاعتماد على الأصل الفطري: أنه لا بد من وجود معارف فطرية ضرورية ينتهي الاستدلال إليها، ولا يقوم إلا بها، وإلا فلا يمكن تثبيت استدلال عقلي للحاجة إلى أساس ضروري يرجع إليه، كما لا يلتفت إلى القول بأن معرفة وجود الله ليست فطرية، بل هي نظرية تحتاج إلى إقامة الدليل عليها، لأن هذه العلوم الفطرية الأولية، لا تزيد في ضرورتها على العلم بوجود الله، بل إن معرفة الله أكثر استقرارا في قلوب الناس من كثير من هذه المقدمات العلمية التي يعتقد أهل النظر أنها ضرورية فطرية، وإلى هذا المعنى يشير نظام الدين النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان عند تفسير آية: {فَآلَتْ

رُسُلُهُمْ أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ¹: "إنه كان من عقيدتي أن العلم بوجود الواجب في الخارج من جملة البديهيات، وكان يستبعد ذلك كثير من أقراني وأصحابي لما رأوا أن الأقدمين ما زالوا يبرهنون على ذلك في الكتب الكلامية والحكمية" ²، ومن المتأخرين الذين أشاروا إلى هذا المعنى أيضا سعيد البوطي -رحمه الله- قائلا: إن "إثبات وجود الله تعالى يبدأ من جملة من الحقائق والمبادئ الفطرية التي أجمع العلماء على ضرورتها" ³. وغير خاف على كل من تتبع شواهد القرآن وتفسير العلماء له أن الاستدلال بالفطرة أصل معتمد، وحتى الذين لم يوردوا دليل الفطرة ضمن الأدلة ذكروا ذلك في ثنايا حديثهم عن الفطرة. فها هو الإمام الغزالي يقول في معرض حديثه عن إثبات وجود الله تعالى: " بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيرهِ ومصرفهِ بمقتضى تدبيرهِ، ولذلك قال الله تعالى: {أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ

فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}؛ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: لا إله إلا الله، وما أمروا أن يقولوا: لنا إله، وللعالم إله؛ فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نشوئهم وفي عنفوان شبابهم؛ ولذلك قال عز وجل: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} ⁴، وقال تعالى: {بِأَفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} ⁵. فإذن، في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان ⁶.

1 - سرّة إبراهيم، الآية: 13.

2 - غرائب القرآن، 175/4.

3 - كبرى اليقينات الكونية للبوطي، ص 65.

4 - سورة لقمان، الآية: 24.

5 - سورة الروم، الآية: 29.

6 - إحياء علوم الدين 104/1 - 105.

ومن المعاصرين الذين لم يذكروا دليل الفطرة من بين الأدلة على إثبات وحدانية الله وعبوديته سبحانه وتعالى، وتعرضوا له في ثنايا كلامهم د قحطان الدوري حيث قال: "الاعتقاد بوجود الله تعالى هو الفطرة التي فطر الناس عليها، أما الإلحاد فهو طارئ على الفطرة"¹.

مما يدل على استقرار الاستدلال بالفطرة أيضا عدم انفكاك الإنسان عن العجز الذاتي الذي ينمي فيه الشعور بالافتقار إلى إله قادر مدبر، يتوجه إليه لجبر نقصه، ويلجأ إليه في حاجاته. قال ابن تيمية -رحمه الله- عن هذا العجز الذاتي والافتقار إلى الله: "إن فقر المخلوقات إلى الخالق، ودالاتها عليه وشهادتها له أمر فطري فطر الله عليه عباده، كما أنه فطرهم على الإقرار به"². وهذه حقيقة مركوزة في الفطرة الإنسانية، وحتى الكفار والمشركون لا يملكون إنكارها عند سؤالهم عن خالق السماوات والأرض، فيقولون: الله. يقول الله تعالى: {وَلَيْسَ سَأَلَتْهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قَائِلِي يُوَفِّكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَ لَيْسَ سَأَلَتْهُمْ مِّنْ نَّزْلِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} ³.

يستنتج من عرض هذه البراهين وكلام العلماء حول أصل الاستدلال بالفطرة أنهم اتجهوا إلى رأيين:

الأول: يجيز الاستدلال بالفطرة بداية. الثاني: يقول بعدم الجواز، ولكنه يؤكد على أن الفطرة متهيئة لقبول ذلك. وبهذا التقى الرأيان في أن كلا منهما أعطى للفطرة مكاناً لقبول الدين الحنيف الذي تحدث عنه الله تعالى في آية الفطرة في سورة الروم.

المطلب الثالث: أثر النقد القرآني في الاستدلال بالفطرة:

تُعد الفطرة واحدة من الطرق التي توصلنا إلى الإقرار بربوبية الله وإلهيته الواحدة ووجوب الخضوع له والإسلام له -أعني هنا ما فطر الله عليه النفوس والمشاعر الوجدانية العميقة داخل النفس دون ما فطر الله عليه الأفكار والعقول- وتتغير أدلة الفطرة حسب تغير خطاب الله تعالى لوجدان الإنسان. ومنها ما يمكن أن نسميه:

1- دليل الالتزام بالمسلمات:

1 - العقيدة الإسلامية ومذاهبها: قحطان الدوري، ص 03، نشر: دار العلوم- عمان، ط 1: 1428 هـ - 2007 م.

2 - مجموع الفتاوى 47/1.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 61 - 63.

لقد أرشدنا الله عز وجل في القرآن المجيد إلى الرجوع إلى الإحساس الداخلي المتمثل بالفطرة السليمة الموجودة داخل كل إنسان، ونبذ كل ما قد يخالطها من أفكار إلحادية ومادية، كما في آية الفطرة في سورة الروم، قال الله تعالى: {بِأَفْئِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ¹، و فيما يلي أذكر تفسير مفردات هذه الآية الكريمة.

قوله تعالى: {بِأَفْئِمَّ وَجْهَكَ} قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره" ².

قوله: {لِلدِّينِ} والتعريف في الدين للعهد وهو دينهم الذي هم عليه وهو دين الإسلام ³.
قوله: {حَنِيفاً} "الحنف وهو الميل، وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل، أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلاً ومنقطعاً عن الشرك كقوله تعالى: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيباً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ⁴، ⁵. وقد ذكر ابن عبد البر إجماع أهل التأويل من السلف على أن المراد بـ {فِطْرَتَ اللَّهِ} في الآية دين الإسلام ⁶.

قوله: {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} ذكر ابن كثير في تفسيره قولين، هما: - أنه خبر بمعنى الطلب، ومعناه: لا تبدلوا خلق الله بإفساد الفطرة، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. - أنه خبر على بابه، ومعناه: أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، فلا يولد أحد إلا على ذلك، و لا تفاوت بين الناس في ذلك ⁷.

وبهذا يظهر أن الفطرة في الآية من الأمور المسلمة الضرورية التي تقتضي التوحيد، ولو فرض أن الله قد خلق الناس خلقة يمكن أن تقتضي التوحيد، ويمكن أن لا تقتضيه للزم أن لا يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق، ولكن أمر بلزوم مقتضاها، فدل ذلك على أن "مقتضى الفطرة" هو الدين القيم. فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلا بتحقيق مقتضى الفطرة ⁸، وقد سبق لي

1 - سورة الروم، الآية: 29.
2 - تفسير القرآن العظيم، 313/6.
3 - التحرير والتنوير: 88/21.
4 - سورة البقرة، الآية: 143.
5 - المصدر السابق 88/21.
6 - التمهيد لابن عبد البر 72/18.
7 - تفسير القرآن العظيم: 314/6.
8 - المعرفة في الإسلام، للقرني: ص 233.

أن ذكرت من مكونات المنهج النقدي ضبط الثوابت والمسلمات والانطلاق من المشتركات، مستدلاً بقوله تعالى: {فُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيباً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ¹، ومقتضى الفطرة من هذا القبيل.

2- دليل الإشهاد:

والإشهاد يقصد به سد ذريعة الإنكار والاختلاف، وهذا ما تشير إليه آية الإشهاد في القرآن الكريم التي ورد فيها "ذكر الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقرؤا بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك، وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة، وينقطع به العذر، وتحل به العقوبة، ويستحق بمخالفته الإهلاك" ². قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَالَوْ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} ³.

وبتأمل أقوال العلماء في آية الميثاق سواء الذين قالوا بإخراج الذرية وتحقق الإشهاد بلسان المقال أو الذين أنكروا ذلك، وقالوا: إنه بلسان الحال، نجد أنهم متفقون على دلالة الآية على فطرية التوحيد.

وفي بيان وجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وكونه من العلوم الضرورية يقول الإمام ابن تيمية: ".... هذا الإشهاد من لوازم الإنسان، فكل إنسان قد جعله الله مقراً بربوبيته، شاهداً على نفسه بأنه مخلوق والله خالقه؛ ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا شاهدون به على أنفسهم. وهذا أمر ضروري لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهذا مما خلقوا عليه وجبلوا عليه، وجعل علماً ضرورياً لهم لا يمكن أحداً جرده، ثم قال بعد ذلك: {أَن تَقُولُوا} أي: كراهة أن تقولوا، ولئلا تقولوا: {إنا كنا عن هذا غافلين} عن الإقرار الله بالربوبية، وعلى أنفسنا بالعبودية، فإنهم ما كانوا غافلين عن هذا، بل كان هذا من العلوم الضرورية اللازمة لهم التي لم يخل منها بشر قط. {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ}، وهم آباؤنا المشركون، وتعاقبنا بذنوب غيرنا، وذلك لأنه لو قدر أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم،

1 - سورة آل عمران، الآية: 63.

2 - تفسير المنار: 336/9.

3 - سورة الأعراف، الآية: 172 - 173.

ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم ... قالوا: نحن معذرون، وآباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يبين خطأهم.

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية¹. ويذكر العلماء آيات تبين معنى آية الإشهاد أو آية الميثاق².

نستنتج من هذه الآية أن الإشهاد ينبغي أن يكون في سلم أولوياتنا عند الدخول في الموضوع المراد وضعه تحت المجهر، أو الفكرة التي يراد تشريحها بمشرح النقد قصد محاصرات تسللات وتملصات المنازع، وهذا منهج قرآني يمكن فهمه من عدة مواضع في القرآن، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نشهد لإرضائه في إقرار الحق وإبطال الباطل، فقال آمرا بالشهادة عند المبايعات: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}³، وقال عند دفع الأموال لليتامى: {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ}⁴، وعند نفي التهمة كذلك، فلما قالت ثمود لنبيهم هود عليه السلام: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا إغْتِرَبِكَ بَعْضُ إِلَهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِئٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ}⁵، كما أمر بالإشهاد على الحقوق الشخصية كالإشهاد على الطلاق وغيره. وأخذ الشهادة على الأمن والأمان، وعدم الإساءة إلى الآخرين، فقال تعالى مخاطبا اليهود: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}  {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}⁶، وبالإشهاد استحققت الأمة المحمدية الأفضلية ونالت قصب السبق والشهود على الأمم الأخرى كما يقول القرآن: {وَكَذَلِكَ

1 - درء التعارض لابن تيمية: 488/8.

2 - انظر: آية: 7 في الأحزاب، وآية: 102 في الأعراف، وآية: 11 في الأعراف أيضا، وآية 83 في آل عمران.

3 - سورة البقرة، الآية: 281.

4 - سورة النساء، الآية: 6.

5 - سورة هود، الآية: 54.

6 - سورة البقرة، الآية: 83 - 84.

جَعَلَنَّاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا¹.

3- دليل الاضطرار: ويعنى به ما ورد في آيات كثيرة من ذكر استيقاظ الفطرة عند حالة الاضطرار، وظهور أثرها، وبروز مقتضاها على النفوس من اللجأ إلى الله تعالى بالدعاء، وإنزال الفاقة به سبحانه، والتوجه إليه دون غيره بالاستغاثة، فهي تقبل عليه إقبال العارف بمن يملك نجاته، ثم قد يعود إلى كفره أو فجوره بعد نجاة الله تعالى له، ورفع حالة الاضطرار التي كان عليها؛ لأنه ينسى، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ²، وما في معناها من الآيات³ التي تشعر الناس عند الشدائد بالعودة إلى مقتضى الفطرة التي فطروا عليها، وهذا من أعظم الشواهد الحسية على وجود المعرفة الفطرية واستقرارها في النفس، فإن كل إنسان يشعر من قرارة نفسه أن له ربا وخالقا ويحس بالحاجة إليه، وإذا وقع في ورطة عظيمة اتجهت يداه وعيناه وقلبه إلى السماء يطلب الغوث من ربه.

فهذا منهج رباني يدعو العباد أن لا يلتمسوا الهدى وكشف الضر والرزق... من غير الخالق سبحانه، وغير كتابه العزيز، كما يدعونا إلى التخلي عن المسلمات الشخصية المغلوطة، والمواقف المسبقة التي قد تضعف العلاقة بين العبد وربّه، وهذه مشكلة نعاني منها كثيراً بسبب الغفلة والنسيان، فلا بد من أن ينصف الإنسان نفسه، وذلك بالتعرف إلى الله في الشدة والرخاء. كما أن الإنصاف أيضا مطلوب شرعا مع الأشخاص، وذلك بإثبات الحيادية والعدل باتخاذ الإجراءات المناسبة مع كل شخص ومع كل موقف بغض النظر عن التوجهات الخاصة للشخص، أو أي نفوذ يميل لأحد الأطراف على الآخر. وهذا حق ينبغي ضمانه كذلك في الحس النقدي لإنجاح المواقف.

4- أسلوب التقرير: والمراد هنا الاستفهام التقريري علما أن للاستفهام أنواعاً أخرى تعرف من خلال سياق الكلام . وقد أفاض علماء المعاني - رحمهم الله - في دراستها في علم المعاني، وهو فن من فنون البلاغة. ويعرّفون الاستفهام بأنه: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة من أدوات الاستفهام. والإقرار يعود في أصل مادته إلى معنى "الإذعان للحق والاعتراف به"⁴. وفي عرف النحاة والبلاغيين، يعرف بأنه: "إلجاء المخاطب إلى الإقرار بأمر يعرفه"⁵؛ لأي غرض من الأغراض التي يُراد لها التقرير كالإدانة واللوم ونحو ذلك⁶.

1 - سورة البقرة، الآية: 142.

2 - سورة الزمر، الآية: 6.

3 - انظر مثلاً: الأنعام: 41-42، ويونس: 22-23، والنحل: 53، 54، والإسراء: 67، والعنكبوت: 65، ولقمان: 32، والروم: 33، والزمر: 49، وفصلت: 50.

4 - انظر مادة "قرر" في اللسان، 88/5.

5 - شرح الكافية؛ للرضي الاسترأبادي، 83 / 4.

6 - شروح التلخيص: مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، 2 / 307.

وأما الاستفهام التقريري: فهو "حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده ثبوته أو نفيه... ولا يحتاج إلى جواب؛ إذ يطلب من المخاطب أن يقر بما يُسأل عنه نفيًا وإثباتًا، ويجب أن يليها الشيء الذي تقرر به"1. والآيات القرآنية التي تتضمن استفهامات تقريرية كثيرة، نذكر منها ما يتعلق بموضوع الفطرة، منها:

ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا: {فَالْتَّ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}2، قال الحافظ ابن كثير "قالت الرسل {أَفِ اللَّهِ شَكٌّ} وهذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به. والاعتراف به ضروري في الفطر السليمة. والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك"3، فيكون الرسل قد احتجوا على الكفار بدليل الفطرة، وهي قولهم {أَفِ اللَّهِ شَكٌّ} وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك، فهذا استفهام تقرير"4، أي مفاده النفي، أي أن الله تعالى فوق الشك، وأن الشك فيه مما تنكره الفطر. وهذه الحجة داخلية نابعة من نفس الإنسان.

ومنها: قوله تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاتَ بِهِجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَأَلَّهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}5. أمس جعل الأرض فراراً وجعل خيلها أنهرأ وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً. أله مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ 6. أمس يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَّهَ مَعَ اللَّهِ فَلْيَلَا مَا تَذَكَّرُونَ 7. أمس يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَأَلَّهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 8. أمس يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَأَلَّهَ مَعَ اللَّهِ فَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ 9. إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 5 إلى غيرها من الآيات التي كلها استفهامات تقرير،

1 - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، 95/1، تحقيق وشرح: عبد اللطيف محمد الخطيب، ط1، السلسلة التراثية، الكويت سنة 2001.

2 - سورة إبراهيم، الآية: 13.

3 - تفسير القرآن لعظيم: 482/4.

4 - مجموع الفتاوى لابن تيمية: 339/16.

5 - سورة النمل، الآية: 62 - 66.

تتضمن تقرير الناس بأمر تعرفه فطرهم، وهو ما غرسه الله فيها من معرفته، كأنه تعالى يقرر عباده على شيء فطرهم عليه"¹. يقول الشعراوي رحمه الله: قوله: {أفي الله شك} هو لؤن من الخطاب الذي لا يترك لمن توجه إليه الكلام أن يُجيب إلا كما تريد أنت. وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كنت واثقا من أن مَنْ تُوجه إليه الكلام سيجيب - إن استحضر الحق في ذهنه - كما تريد أنت². وليس المراد إذن بهذا النوع من الاستفهام الوارد في الآيات المذكورة طلب العلم؛ لأنه صادر ممن يعلم وهو "الله" تعالى إلى آخر يعلم، وهو العبد المفطور على التوحيد، لكن المقصود به هو حمل الموجه إليه الكلام على الإقرار والاعتراف بما يعرفه بفطرته التي فطره الله عليها.

والمستفاد مما ذكر أن أسلوب التقرير أسلوب من الأساليب النقدية في اللغة العربية، ويستخدم لنقد موضوع ما أو مواضيع أو فكرة معينة لدى المتلقي مع الإشارة إلى التهاون بشأن الفكرة، وضرورة الاعتراف بها، وبيان وجه الصحة فيها بالرجوع إلى مصدرها الصحيح، وهو هنا "الله" سبحانه، كما يستفاد أن أسلوب التقرير يتسم بالموضوعية والدقة في التعبير والألفاظ، كما هو الشأن في هذه الآيات وفي كل آي القرآن؛ إذ يجب تجنب التعابير المعقدة التي تحدث تشويشا في الفهم لدى المتلقي حتى يتقرر المعنى في ذهنه، و يتحقق الاتصال معه، و يتمكن من إيصال الموضوع المطروح إلى أكبر عدد ممكن.

المبحث الثاني: الدليل العقلي

لقد خلق الله الإنسان وأكرمه بالعقل، فصار به كائنا متميزا عن غيره من المخلوقات، صالحا لأن يخاطبه في القرآن بالآيات التي توجه عقله إلى النظر في الحجج والبراهين التي تثبت أصول الإيمان وقواعد الدين، وتفند عقائد الكفر والشرك، وتدحض شبهات أهل الزيغ والإلحاد والشك؛ لذلك اعتبر العلماء العقل مناطا للتكليف وشرطا لقيام الحجة، وأصلا من أصول المعرفة، وقدرة في الإنسان تمكنه من الاختيار من البدائل المطروحة، والنقد للقضايا المعروضة، تمييزا للصائبة من الخاطئة. وذلك بمنهجية معتدلة وواضحة، تؤمن بالعقل كأصل من أصول الفكر النقدي، ولكن لا ترفعه فوق قدره الذي حدده له الشرع الإسلامي. وبيان ذلك - إن شاء الله - في المطالب الآتية: - مفهوم الدليل العقلي، - إمكانية الاستدلال بالعقل في القرآن، - أثر الفكر النقدي في الاستدلال بالأصل العقلي في القرآن.

المطلب الأول: مفهوم الدليل العقلي:

حتى يفهم جيدا ما يراد بالدليل العقلي، يتم الحديث عنه جزئيا، ثم تركيبيا:

1 - دلائل التوحيد للقاسمي ص 25-26.
2 - تفسير الشعراوي: الخواطر، 12/ 7452.

– الدليل بمعناه اللغوي¹:

هو "المرشد والهادي، أو ما به الإرشاد، سواء كان علامة أو أمانة، وسواء ناصبها وواضعها، أو ذاكرها والمنبه عليها، وهو فعيل بمعنى فاعل على المبالغة، كعليم وعالم، وسميع وسامع، وقدير وقادر، ودليل معدول عن دال، والمصدر منه دلالة ودلالة بالفتح والكسر، والفتح أعلى، وقد يسمى الدليل دلالة مجازاً من باب تسمية الفاعل باسم المصدر. كقولهم: رجل صوم، ويجمع على أدلة وأدلاء". ويجوز أن يسمى الله تعالى دليلاً بالإضافة، وأنكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب "الحدود" حيث قال: ولا حجة في قولهم لله تعالى: يا دليل المتحيرين؛ لأن ذلك ليس من قول النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا أحد من الصحابة، وإنما هو من قول أصحاب العكاكين. وحكى غيره في جواز إطلاق الدليل على الله وجهين مفرعين على أن الخلاف في أن أسماء الله هل تثبت قياساً أم لا؟ لكن صح عن الإمام أحمد أنه علم رجلاً أن يدعو، فيقول: يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين².

أما ورود لفظ الدليل في القرآن، فإنما جاء مراداً به الدلالة والعلامة، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا³، كما جاء الفعل منه مراداً به الهداية والإرشاد في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ⁴.

– وأما معنى الدليل اصطلاحاً: فهو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر⁵. وقد اخترت هذا التعريف من بين التعريفات لأمرين: أولهما: لأنه يمثل القدر المتفق عليه عند أهل الكلام والمنطق. وثانيهما: اشتماله على خاصة الدليل، وهو التلازم بينه وبين مدلوله، يقول ابن تيمية: "وخاصة الدليل أن يكون مستلزماً للمدلول. فكل ما استلزم شيئاً كان دليلاً عليه، ولا يكون دليلاً إلا إذا كان مستلزماً له. ثم دلالة الدليل تعلم كما يُعلم لزوم اللازم للملزم"⁶، وخص المتكلمون اسم الدليل ما دل بالمقطوع به من السمعي والعقلي، وأما الذي لا يفيد إلا الظن فيسمونه أمانة⁷. ولاداعي لهذا التفريق لما فيه من تضيق لمفهوم الدليل، فإن معرفة الله ضرورية عند أكثر الناس، بل أكثر من ذلك أن القرآن قد استعمل لفظ الدليل فيما يقع تحت الحواس، فذكر أن الله جعل الشمس دليلاً على الظل. قال ابن الصباغ – دفعا لهذا التفريق –:

1 - ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (المتوفى: 370هـ) 47/14، مادة (دل)، والصاحح للجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) 4/1698، مادة (دل)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت: 395هـ) 259/2، مادة (دل)، والكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي، (ت 1094هـ) ص: 239.
2 - البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (ت: 794هـ) 50/1.
3 - سورة الفرقان، الآية: 45.
4 - سورة الصف، الآية: 10. وانظر: سورة سبأ: 14، وسورة طه: 40، والقصص: 12.
5 - التعريفات للشريف الجرجاني (ت: 816هـ) ص: 104، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، نشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م.
6 - النبوات لابن تيمية، 773/2، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، نشر: أضواء السلف، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م.

7 - البحر المحيط للزركشي: 51/1.

"اختلف المتكلمون في إطلاق اسم الدليل على الظني، وإنما قصد بهذه التسمية الفصل بين المعلوم والمظنون، فأما في أصل الوضع فلم يختلفوا في أن الجميع يسمى دليلاً وضعاً. وكذلك قال ابن برهان وابن السمعاني: الفقهاء لا يفرقون بينهما، وفرق بينهما المتكلمون، وهو راجع إلى اللفظ دون المعنى"1. ولم يأت لفظ "الدليل" في القرآن مقصوداً به تأصيل العقائد، ولكن يأتي بدله ما يتضمن معناه كالتعبير بالحجة والبينة والبرهان والسلطان والآية والبصيرة، وقد بين الأصوليون فروقاً بين بعض هذه الألفاظ، وهي مذكورة ومثبتة في كتبهم، تركتها مخافة الإطالة بسوقها.

- وكلمة العقل ترجع في أصلها اللغوي إلى معنى المنع²، مصدر عقل يعقل، فهو معقول وعاقل. يقال عقل الدواء بطنه، أي أمسكه، وعقل البعير: إذا ثنى وظيفته إلى ذراعه، وشدهما جميعاً بحبل لمنعه من الهرب. وأطلق العقل على معان كثيرة، منها: الحجر والنهي والدية؛ لأن القاتل يسوق الإبل إلى فناء المقتول ثم يعقلها هناك، ويطلق - أيضاً - على الملجأ والحصن، وكذلك القلب؛ ولذا قال عمر بن الخطاب في ابن عباس - رضي الله عنهما -: "ذا كم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً"³، وما سبق من المعاني فهي تدور حول المنع.

- وأما العقل بمعناه الاصطلاحي: عرفه الباجي أبو الوليد، قائلاً: "العلم الضروري الذي يقع ابتداءً ويعم العقلاء"⁴. و"العلم الضروري هو ما لزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه الانفكاك منه، ولا الخروج عنه"⁵. يلاحظ أن الباجي قد قصر العقل على العلوم الضرورية بذكره في التعريف "ما يقع ابتداءً أي دون ما يحصل بكسب الحواس، فسوى بذلك عقول البشر، فلا يتفاضل أحد على أحد من جهة العقل علماً أن التفاضل موجود بين العقول.

تعددت تعريفات العقل بحسب استعمال لفظه، إلا أن هذه التعريفات لا تخرج في معانيها عن الأصل اللغوي للفظ العقل، وبالتالي وجدت مادة "العقل" تستعمل في أربعة معان:

الأول: "الغريزة المدركة" وفيها يقول ابن تيمية: "وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما: أن العقل غريزة. وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء"⁶.

الثاني: العلوم الضرورية، وفيها يقول ابن تيمية رحمه الله: "ثم من الناس من يقول: العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول: العقل هو العمل بموجب تلك العلوم، والصحيح أن اسم

1 - المصدر السابق: 53/1.

2 - يظر: لسان العرب 11 / 458، وما بعدها مادة عقل. والقاموس المحيط 1033/1 وما بعدها مادة عقل.

3 - أخرجه الحاكم في المستدرک (3/ 539)، قال الذهبي: "منقطع". أي بين الزهري وعمر رضي الله عنه.

4 - الحدود في الأصول للباجي (المتوفى: 474 هـ) ص 99.

5 - المصدر السابق: ص 96.

6 - مجموع الفتاوى: 287/9.

العقل يتناول هذا وهذا"1. وتلك العلوم الضرورية تعم جميع العقلاء كالعلم بالممكنات والواجبات والممتنعات. وبها عرف الفلاسفة والمتكلمون "العقل".

الثالث العلوم النظرية: وهي التي تحصل بالنظر والاستدلال. وهذه تفاوت الناس فيها وتفاضلوا. يقول الماوردي رحمه الله: "وليس لهذا حد - يعني العقل المكتسب؛ لأنه ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل. ونماؤه يكون بأحد وجهين: إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة...وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة"2.

الرابع: العمل بموجب العلم، يقول شيخ الإسلام: "وأما العمل لعلم، وهو جلب ما ينفع الإنسان، ودفع ما يضره، بالنظر في العواقب، فهذا هو الأغلب على مسمى العقل في كلام السلف والأئمة، كالأثار المروية في فضائل العقل"3. فكل من خالف ما جاءت به الرسل فقد خالف عقله، رغم ادعائه أنه من أرباب العقول، وأساطين الفهم. وقال ربنا عز وجل حكاية عن أصحاب النار: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}4، وقد أشار ابن تيمية - رحمه الله - إلى هذا المعنى في أكثر من موضع في مصنفاته. فكل من عرف العقل بذكر بعض هذه المعاني المتقدمة فتعريفه ليس بجامع.

من خلال ماتقدم يبدو أن العقل يمكن أن يستعمل في كل المعاني الأربع المتقدمة مجتمعة: العلوم الغريزية، والضرورية، والمكتسبة، والعمل بمقتضى العلم. كما أن المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، بمعنى أن العقل صفة تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات، بأن صاحب العقل يعقل ما علمه، ويميز بين الحق والباطل، والخير والشر.

- والدليل العقلي مركبا: يتعرف عليه من خلال العلوم التصديقية المبنية على العلوم التصورية، وذلك أن "المدرجات الذهنية منحصرة في التصورات والتصديقات، وطريق التعرف عليها عند فقدان الوسائل الحسية والأدلة المادية ينحصر في واحد من طريقين:

1- طريق التعريف بصور المفردات، وذلك بمعرفة وجوه دلالتها حتى تحصل صورتها في الذهن، أو يستطيع تمييزها عن غيرها، ويعبرون عن هذا بالتصور. -وهذا لا يعنينا في بحثنا-.

2- طريق إقامة الأدلة النظرية ليتوصل بها إلى المعلومات التصديقية الموجبة أو السالبة، أو لإقناع الآخرين، وتسمى تلك التصديقات حجة عقلية أو دليلا عقليا، ولهذا الطريق ضوابط وقواعد يجب التزامها حتى يكون الدليل مقنعا والنتيجة سليمة"5. فالمناطقة يسمون الطريق الأول ب"الحد" ويجعلون مبادئه الكليات الخمس التي هي الجنس، والنوع، والفصل،

1 - نفس المصدر.

2 - أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي (المتوفى: 450هـ) ص 20.

3 - درء لتعارض العقل والنقل: 22/9.

4 - سورة الملك، الآية: 11.

5 - ينظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص 24-25.

والخاصة، والعرض العام. والثاني ب"البرهان" ويجعلون مبادئه القضايا وأحكامها: من التناقص والعكس وغيرهما، يقول ابن قدامة المقدسي في تعريف البرهان: "وهو الذي يتوصل به إلى العلوم التصديقية المطلوبة بالنظر. وهو عبارة عن أقاويل مخصوصة، ألفت تأليفاً مخصوصاً بشرط يلزم منه رأي هو مطلوب الناظر، وتسمى هذه الأقاويل مقدمات"1. وهذه طريقة المتكلمين في التوصل إلى الدليل العقلي، وفيها معاناة وجهد، وأما طريقة القرآن الكريم في الإتيان بالأدلة العقلية تكون بألفاظ قليلة سهلة، وبخلاصة تحتوي على معان كثيرة، فإن الأدلة العقلية على أصول الدين وما يتبعها مما يتعبد به العبد مولاه سبحانه واردة في القرآن المجيد، وقد قرر هذه الحقيقة - فضلا عن أهل السنة وسلف الأمة - الكثير من مشاهير المتكلمين وبعض الفلاسفة المسلمين، ولو شرعنا نستقصي ما قاله المتكلمون والفلاسفة والشيعة في ذلك ل طال بنا المقام، ويكفي أن نشير إلى رأي واحد من مشاهير المعتزلة، وهو القاضي عبد الجبار، وقد ذكر في المجلد الرابع من كتابه "المجموع في المحيط بالتكليف" أن من دليل إعجاز القرآن أنه "اتفق فيه أيضا استنباط الأدلة التي توافق العقول، وموافقة ما تضمنه لأحكام العقل على وجه يبهر ذوي العقول ويحيرهم، فإن الله سبحانه ينبه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاناة وجهد بألفاظ سهلة قليلة، تحتوي على معان كثيرة، كما ذكره عز وجل في نقض مذاهب الطبيعيين في قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ فِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَاتٍ وَغَيْرِ صِنَوَاتٍ تُسْفَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}2، إلى آخر الآيات التي ذكرها في نفي الثاني وفي غير ذلك من الأبواب التي لاتحصى"3.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان أن القرآن المجيد فيه من الأدلة العقلية ما يغني ويشفي كلام طويل في بعض كتبه، مثل "درء تعارض العقل والنقل" كقوله: "إن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره. ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه"4، ومواقع متفرقة من "الفتاوى" و"مجموعة الرسائل الكبرى" و"الرد على المنطقيين"، وسنرجئ الكلام بشيء من التفصيل على ذلك إلى المطلب الأخير في هذا المبحث إن شاء الله.

المطلب الثاني: ضوابط الاستدلال العقلي في القرآن:

إن الاستدلال العقلي عملية تفكيرية تستند إلى قواعد معينة، يتم بموجبها التوصل إلى قرار أو استنتاج، وذلك عن طريق استعمال كل ما من شأنه أن يمثل أحد أشكال الاستدلال العقلي كالاستدلال الاستقرائي، والاستدلال الاستنباطي، والاستدلال التمثيلي، كما يرتبط هذا

1 - روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه للمقدسي (ت: 620هـ) 69/1.

2 - سورة الرعد، الآية: 4.

3 - نقلا عن ابن الوزير الصنعاني: ترجيح أساليب القرآن، ص 21.

4 - درء تعارض العقل والنقل: 28 / 1.

الاستدلال بكثير من الموضوعات، كالتفكير النقدي والمنطقي وغيرهما من الموضوعات المعرفية والعقدية، بشرط أن يهدف هذا الاستدلال إلى توليد معرفة جديدة عن طريق إعمال الفكر في المعلومات المعقولة، والأدلة الشرعية، والآيات الكونية، وتقليب الأمر على وجوهه، واستخدام قواعد معينة للوصول إلى نتائج صحيحة.

وأعني بالاستدلال بالعقل: ما كان مضبوطاً بضوابط تعصمه من التناقض في قضاياها، ومن التضليل في مغزاه ومرماه، ومن الاحتكام إليه دون قيد أو شرط. خلافاً للمسرفين فيه أو المعرضين عنه، ويشير ابن تيمية إلى هذا المعنى عند ذمه من أعرض عن القرآن والإيمان، وجعل عقله أصل علمه، وجعل القرآن والإيمان تابعين له، فقال: "لكن المسرفون فيه (العقل) قضاوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم، اعتقدوها حقاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به. والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم¹، ومن أهم هذه الضوابط:

- أن لا يكون العقل منفرداً عن الشرع في الأمور التي يعجز عن إدراكها، ويوضح هذه القضية شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً بقوله: "...العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلاً بذلك؛ بل هو غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق، كما قد يحصل للبهيمة"².

- أن لا يكون العقل مقدماً على الشرع عند توهم التعارض، "لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل... وإذا كان الأمر كذلك، فإذا علم الإنسان بالعقل أن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما يناعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه"³.

وأما إمكانية الاستدلال العقلي في القرآن خصوصاً وفي النقل عموماً لا يحتاج إلى إثباتات ولا شهادات، بل هي مسألة ثابتة بنفسها، ومن أراد معرفة ذلك فليراجع كتاب الله وليتدبر ما اشتمل عليه من عجائب البراهين العقلية، من أمثلة وأقيسة برهانية واستدلالية ومن كل ما يوصل إلى معرفة أصول الاعتقاد على الوجه الإجمالي كالإقرار له سبحانه بالربوبية، ووجوب

1 - انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (339/3)، والصواعق المرسلّة، لابن القيم 458/2، 459.

2 - مجموع الفتاوى 339 /3.

3 - ينظر: درء التعارض لابن تيمية (138/1، 141)، والصواعق المرسلّة، لابن القيم (810/3)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ت: 792هـ) (ص340 ومابعداها).

إفراده بالالوهية، وإثبات الكمال له عز وجل. وفيما يلي بعض الأدلة القرآنية على هذا الاستدلال العقلي، من ذلك:

الآيات التي ورد فيها التصريح بلفظ البرهان، كما في قوله تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ} ¹. أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يقول لهؤلاء هذا برهاني مضمن في هذا الذكر الذي هو القرآن، قال ابن الوزير اليماني: "وهذه الآية دالة على أن كتب الله لا تخلو من البراهين المحتاج إليها في أمر الدين" ²، ويدل على هذا المعنى أيضا قوله تعالى: {إِيتُونِي بِكِتَابٍ مِّمَّنْ قَبْلَ هَذَا أَوْ آثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ³. قال الألويسي في تفسيره: "وقوله تعالى: ائتوني بكتاب إلى آخره تبكيت لهم بتعجزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجز عن الإتيان بسند عقلي" ⁴، وكما في الآيات التي ورد فيها الإخبار من الله بأن هذا القرآن أتى بكل مثل للناس للتذكير والوعظ. وخصوصا قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} ⁵. قال ابن تيمية عند هذه الآية: "ينبه على أنها (الأمثال) براهين وحجج تفيد تصورا أو تصديقا" ⁶، وذلك أن ذكر الجدل في الآية ينبه على ذلك. وسيأتي التمثيل في المطلب الموالي إن شاء الله ضمن الكلام على أثر النقد في الاستدلال العقلي في القرآن. ومثل هذه الآيات في الدلالة على هذا المعنى قوله سبحانه: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} ⁷. يقول شيخ الإسلام: "أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحق من قياسهم" ⁸. ومن ذلك الآيات التي جاء فيها التصريح بأن الله أنزل القرآن، وأرسل الرسل بالبينات والهدى، كقول الله عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ} ⁹، وقوله

1 - سورة الأنبياء: 24، وانظر البقرة: الآية: 110، والنمل الآية: 66، والقصص، الآية: 75.
2 - إثبات الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد: ابن الوزير اليماني (ت: 840هـ) ص 11.
3 - سورة الأحقاف، الآية: 3.
4 - روح المعاني، 3/363.
5 - سورة الكهف، الآية: 53.
6 - مجموع الفتاوى، 66/14.
7 - سورة الفرقان، الآية: 33.
8 - المصدر السابق، 14/106.
9 - سورة البقرة، الآية: 184.

سبحانه: {لَفَدَ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَفُومَ النَّاسُ بِالْفِئْسَةِ} ¹. قال الطاهر بن عاشور: "والبيّنات: الحجج الدالة على أن ما يدعون إليه هو مراد الله، والمعجزات داخلة في البيّنات" ². فلا شك أن القرآن والرسول قد بينا سائر أصول الدين، وبيننا الأدلة العقلية والحجج الباهرة الدالة عليها، كما بينا الأحكام الخبرية والطلبية ومسائلها ووسائلها. ودلالة القرآن على المطالب ³ نوعان: أحدهما: الخبر المحض. الثاني: الأدلة العقلية والبراهين اليقينية والعلوم الضرورية الدالة على صحة مقتضى الأخبار، وبذلك تكون دلالتها شرعية عقلية؛ لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، وعقلية لأن بالعقل يعلم صحتها، ويستقل بإدراكها وليس لمجرد الخبر. "فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبر بالحق ويقيم عليه الأدلة العقلية البرهانية الموصلة إلى معرفته كالأقيسة العقلية وهي الأمثال المضروبة" ⁴.

من يراجع القرآن ويتدبره يجزم بأن الله يبين الحقائق بالأدلة العقلية، والأمثال المضروبة الدالة على توحيده وصدق رسله، وإثبات صفاته، وبطلان الشرك، وإقامة الحجة على المشركين بكونهم خالفوا المعقول والمنقول، ووقعوا فيما يستلزم الخيانة الكبرى المتجلية في عبادتهم لغير الله، والتقص من ربوبيته وألوهيته، وكماله في ذاته وصفاته،

وبهذا تكون الحجج العقلية قد سطع برهانها، وأبادت زيف ظلمات الشرك وأباطيلها، ودلت على صحة الأخبار ومقتضاها. ومرادي بالأدلة العقلية فيما ذكرت الميزان العقلي العادل المتمثل في الأقيسة الصحيحة المستمدة من وحي الله تعالى، المتضمنة للتسوية بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين، وليس مرادي تلك الأقيسة المختصة بمنطق اليونان، والمتهوكين من الفلاسفة وأهل الكلام والرومان. الذين يبددون الطاقة العقلية التي وهبها الله للإنسان فيما لا ينتج ولا يثمر، وفيما لا يستطيع الإدراك البشري بلوغه ومعرفته، وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل، ولكن فيه توجيه له أن يعمل في حدوده، و في مجاله الذي يملك وسائله ويدركه.

المطلب الثالث: أثر النقد القرآني في الاستدلال بالأصل العقلي:

يعتبر الاستدلال العقلي عملية نقدية حوارية جدلية، وممارسة يقوم فيها العقل بمتابعة المسألة باستمرار عن معنى وقيمة حقائق الظواهر المحيطة بالإنسان، وذلك لنقد كل الحقائق المكتسبة التي توصف بأنها مُطلقة، وكل الأحكام المسبقة، وللتخلّي عن كل المعتقدات الباطلة؛ لأنّ الحقائق والأفكار البشرية تبقى نسبية ومحدودة، وليست مطلقة ونهائية.

ولذا فإن القرآن الكريم يرسم للناس طريقاً متميزاً في كسب الحوار، وانتقاد الخصوم، أو توجيه أنظار العقل لموضع العظة والعبرة. والقرآن يقوم أساساً على مخاطبة العقل، ويعلمهم

1 - سورة الحديد، الآية: 24.

2 - التحرير والتنوير: 416/27.

3 - الرسالة الأكملية فيما يجب لله من صفات الكمال لابن تيمية، ص 70.

4 - درء تعارض العقل والنقل: 305/3.

كيف يساءلون ويتساءلون ويفكرون، وكيف يستنبطون الأحكام العقلية المنطقية المبنية على النتائج الصحيحة، الموافقة للمنهج الشرعي الذي أراده الله، وألزمنا بالسير عليه كما سار عليه سلفنا الصالح، فلاشك أن القرآن الكريم كتاب كامل بكل ما يعنيه الكمال، وقد احتوى على أفضل الاستدلالات العقلية، وأحكم المناهج النقدية والحوارية، وأقوى النتائج الدامغة؛ لذا كان لزاماً أن يكون استمداد كل ما يحتاج إليه أهل النقد والمناظرة والجدل من أصول ومناهج وآداب من كتاب الله عز وجل الذي اعتبر استخدام العقل والفكر السليم مبدأً أساسياً في الإيمان الصحيح والعلم والتفقه والفطنة والتدبر.

يقرر الغزالي أن براهين القرآن هي براهين واضحة جلية تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة. ف "أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويتضرر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي. وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً. ولهذا قلنا: أدلة القرآن أيضاً ينبغي أن يصغى إليها إصغاء إلى كلام جلي، ولا يمارى فيه إلا مرأى ظاهراً، ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر، وتحقيق النظر. فمن الجلي أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر"¹.

وفي هذا المطلب إن شاء الله بيان للأثر النقدي في الاستدلال بالأصل العقلي في القرآن؛ إذ نجد القرآن المجيد يخاطب الناس بدلائل العقل البرهانية، والجدلية والخطابية، وذلك لكي يلبي كل حاجات الناس العقلية ومواهبهم وقدراتهم، وما أشد الحاجة إلى هذه الأدلة العقلية في هذا الزمن الذي كثرت فيه الدعوات للحوار مع الآخر. وتأكيداً لهذه الحقيقة أذكر أبرز الأقيسة العقلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم:

1- القياس الاقتراني: وهو "قياس" مؤلف من قضيتين متى سلمتا "أي القضيتان من معارض" لزم عنهما لذاتهما قول آخر "أي قضية أخرى نتيجة لهما"². سمي هذا القياس بالقياس الاقتراني لاقتران أجزائه، وهي حدوده، من الأصغر والأكبر والوسط. وأنا لست بصدد ذكر تفاصيل ذلك في هذا البحث.

وحول ما ورد من هذا النوع من الاستدلال في القرآن الكريم يبين الزركشي أن من طرق الاستدلال على المعنى المقصود في القرآن بحجة عقلية تقطع المعاند نوعاً منطقياً "وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ

مَنْ فِي الْقُبُورِ}³، فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات فالمقدمات من أول السورة إلى

1 - إجماع العوام للغزالي، ص 59.
2 - شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (ت: 972هـ) 397/4.
3 - سورة الحج، الآية: 7.

قوله: {وَأُنَبِّتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}¹، والنتائج من قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} إلى قوله: {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}².

ومنه قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}³، مقدمتان ونتيجة، لأن اتباع الهوى يوجب الضلال، والضلال يوجب سوء العذاب، فأنتج أن اتباع الهوى يوجب سوء العذاب. وقوله: {فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}⁴، أي القمر أفل، وربي ليس بآفل، فالقمر ليس بربي. أثبتته بقياس اقتراني جلي من الشكل الثاني، واحتج بالتعبير على الحدوث والحدوث على المحدث⁵. وفي هذا المعنى يقول الزمخشري في تفسيره: فأراد (أي إبراهيم عليه السلام) أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها⁶، وهكذا يحتج إبراهيم عليه السلام على قومه بالحجة التي وفقه الله إليها من قوله: "فلما جن عليه الليل" إلى قوله: "وهم مهتدون".

ومن أمثلة القياس الاقتراني الحملي⁷: قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"⁸.

2- القياس الاستثنائي: وهو ما تكون النتيجة أو نقيضها مذكوراً فيه بالفعل⁹، وسمي بالقياس الاستثنائي لاشتماله على معنى الاستثناء بكلمة "لكن"، والفرق بينهما: إن كان اللازم، وهو النتيجة أو نقيضها، مذكوراً فيه بالفعل فهو الاستثنائي، وإن كان مذكوراً فيه بالقوة، بأن لم يتصل فيه طرفاه، فهو الاقتراني. ويكون في القياس الاستثنائي مثل قوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا}¹⁰، أي لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة إلا الله¹¹، وقوله: {وَلَوْ

1 - سورة الحج، الآية: 6.

2 - وتفصيل ترتيب المقدمات والنتائج يرجع إليه هناك في البرهان في علوم القرآن، 469/3.

3 - سورة ص، الآية: 25.

4 - الأنعام: 77.

5 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، 469/3_470.

6 - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (ت: 538هـ) 40/2.

7 - ضوابط المعرفة: حبكة الميداني، ص 239.

8 - أخرجه الدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب: في التوبة 1793/3، رقم: 2769، وحسنه لألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني، 831/2 رقم: 4515، نشر: المكتب الإسلامي.

9 - بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب لشمس الدين الأصفهاني (ت: 749هـ) 137/1.

10 - سورة الأنبياء، من الآية: 22.

11 - ضوابط المعرفة لحبكة الميداني، ص 274.

كُنْتَ قِظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَبْضُوا مِنْ حَوْلِكَ¹، وقد شهد الحس والعيان أنهم ما انفضوا من حوله وهي المضمرة وانتفى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فظ غليظ القلب².

3- القياس المضمر: وهو "الذي تحذف فيه إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف، أو هو ما ذكرت فيه مقدمة واحدة"³. يقول ابن سينا: "الخطابة معلولة على الضمير والتمثيل، والضمير هو القياس الإضماري، والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما، ويسمى في عرف الفقهاء قياساً فقهيًا، بينما هو في عرف المناطقة تمثيل؛ لأن فيه مشابهة بين أمرين"⁴، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}⁵.

ومن تأمل هذه الآية يفهم أنه إن كان الخلق من غير أب مسوغاً لاتخاذ عيسى إلهاً أو ابناً له، فإن آدم أولى من عيسى، لأنه خلق من غير أب ولا أم، ومع كل هذا لا أحد يقول ذلك، فكانت الحجة قائمة عليهم. وهذا المنهج يعطي الدليل فصاحة وبياناً، قال شارح العقيدة الطحاوية: "إن الطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف إحدى المقدمات وهي طريقة القرآن"⁶، ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: "وإننا نجد أنه قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة، وكأن سياق الدليل لو في غير كلام الله تعالى يكون هكذا: إن آدم خلق من غير أب ولا أم، وعيسى خلق من غير أب، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً. وإن الحذف قد صير في الكلام طلاوة، وأكسبه رونقاً، وجعل الجملة مثلاً مأثورًا، يعطي حجة في الرد على النصارى، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه، وإنما خلق من تراب، فلا عزة إلا لله تعالى"⁷.

4- قياس الأولى.

يسمى هذا النوع من الأقيسة العقلية بالقياس الأولوي كما قال ابن تيمية: "وإن أمكن جعله نوعاً من قياسي الشمول والتمثيل، إلا أن له خاصية يمتاز بها عن سائر أنواع القياس، وهي أن يكون الحكم المطلوب أولى بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليل الدال عليه"⁸، وقال أيضاً: "وهذا النمط هو الذي كان السلف والأئمة - كالإمام أحمد وغيره من السلف - يسلكونه من القياس العقلي في أمر الربوبية وهو الذي جاء به القرآن"⁹. وقد استعمل القرآن الكريم قياس

1 - سورة آل عمران، الآية: 159.

2 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، 123/3.

3 - الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة لأبي القاسم ص 180.

4 - النجاة في المنطق والإلهيات لابن سينا، 28.

5 - سورة آل عمران، الآية: 58.

6 - شرح العقيدة الطحاوية، للحنفي، ص 85.

7 - المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة، ص 270.

8 - شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، ص 48-49.

9 - المرجع السابق: ص 49.

الأولى في تقرير كثير من أصول الاعتقاد، وله تطبيقات كثيرة في كتاب الله عز وجل: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ¹. ومن أمثلة ذلك: كل الآيات الكريمة التي جاء فيها إثبات حكم الشيء بناء على ثبوته لنظيره بصورة أقوى، فإن من خلق الشيء أول مرة يكون قادراً على خلق مثله أو أقل بسهولة لثاني مرة، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أول مرة وشيء هو ثاني مرة. ومن تلك الآيات قوله عز وجل: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} ^{٧٦} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ} ^{٧٧} فَلْيُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ} ^{٧٩} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} ^{٨٠} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ} ^{٨١} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ². ومثل هذه الآيات كثيرة في الذكر الحكيم ³.

وقد أبرز فلاسفة الإسلام إمكان البعث في دراساتهم النظرية، ولكنهم اعترفوا بوجود مبتغاهم في القرآن المجيد بأوجز عبارة، وأحكم برهان، ولا عجب إذا وجدنا الفيلسوف الكندي يؤصل لتلك البراهين في دراسته للتفسير من الناحية النظرية "فقد تحدث عن الآيات التي في آخر سورة يس كما نقله عنه الأستاذ أبو ريذة حيث قال في تفسير الكندي لهذه الآيات: إن فيه (أي تفسيره) يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى، وهي:

1- وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة، لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب. هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة {فَلْيُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}.

1 - سورة النحل، الآية: 60.

2 - سورة يس، الآيات: 76 - 82.

3 - ينظر على سبيل المثال: سورة الروم، الآية: 26، وسورة غافر، الآية: 56، وسورة الأحقاف، الآية: 32، وسور ق، الآية: 15.

2- ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن واقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى، وذلك أيضا على أساس المبدأ الأكبر، وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق. هذا الدليل موجود في آية {إِلَٰذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ}، وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

3- خلق الإنسان أو إحيائه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن. وهذا هو مضمون آية {أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}.

4 - الخلق والفعل مطلقا مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافا لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل. و هذا معنى آية {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وهذه الآية في رأي الكندي إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياسا منهم لفعل الله على فعل البشر، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول، فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي، وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمني. فأى بشر - كما يقول الكندي - يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها من إيضاح أن العظام تحى بعد أن تصير رميما، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضه، كلت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية¹.

ومن أكثر أبواب الاعتقاد اعتمادا على هذا الضرب - قياس الأولى - من الأدلة العقلية إثبات صفة الكمال المطلق للرب تبارك وتعالى. ولابن تيمية رحمه الله رسالة بين فيها غاية البيان كيفية دلالة قياس الأولى على إثبات الكمال لله عز وجل تسمى "الأكمالية"، أو "تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال". وهي موجودة في المجلد السادس من "مجموع الفتاوى"، وكذلك في "مجموعة الرسائل والمسائل" في المجلد الأول، كما استعمل القرآن الكريم أيضا قياس الأولى في إثبات كثير من المسائل، ومنها مسألة البعث بعد الموت، فإذا كنا نؤمن

1 - نقلا عن: مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر عوض الألمعي، ص: 329-330، ط 3: 1404هـ.

بالحياة الدنيا، وهي وجود بعد عدم، فلا شك أن يكون إيماننا بالحياة الأخرى أهون في تصورنا لأنها وجود بعد وجود.

5- قياس الخلف 1:

يعرف قياس الخلف بأنه: إثبات الأمر بإبطال نقيضه؛ وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان، ولا يخلو المحل من أحدهما، كالمقابلة بين عدم الوجود. فدليل الخلف أن يبطل النقيض فيثبت الحق، وأن القرآن الكريم يتجه في استدلاله إلى إبطال ما عليه المشركون، فيبطل عبادة الأوثان، فيثبت التوحيد.

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ

لَبَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}². وتقرير الدليل من غير أن نتسامى إلى مقام البيان القرآني، كما يسوقه علماء الكلام هكذا: لو كان في السماوات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وإن هذا التنازع يؤدي إلى فسادهما لتخالف الإرادتين، ولكنهما صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدي إلى الفساد، فكانت الوجدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون. ويسمى علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع، أي: امتنعت الوثنية لامتناع الفساد، فكانت الوجدانية. كما يسمى برهان التفنيد، وبرهان إلزام لا برهان إيضاح.

ومن قياس الخلف في إثبات أن القرآن من عند الله، قوله تعالت كلماته: {وَلَوْ كَانَ

مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا}³. وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته ولا عباراته، فإنه يثبت النقيض، وهو أنه من عند الله تعالى.

ومن قياس الخلف كل الآيات البيّنات التي كان فيها إثبات المطلوب بإبطال نقيضه.

ومن قياس الخلف قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِثْلٌ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}⁴، أي: إن ذلك باطل، فما يؤدي إليه باطل، وبذلك ثبت التوحيد. ومنه قوله تعالى:

{فَلَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا}⁵، وهذا أيضًا من قبيل فرض التمانع الذي يؤدي إلى الفساد، ولا فساد، فيبطل ما يؤدي

1 - ينظر: "المعجزة الكبرى القرآن" لأبي زهرة: ص 271-272.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 22.

3 - سورة النساء، الآية: 81.

4 - سورة المؤمنون، الآية: 92.

5 - سورة الإسراء، الآية: 42.

إليه"، ومنه قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً فَلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ} أَمْ تَفُوتُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ¹.
فالله تعالى قبل أن يرد عليهم ويثبت كذبهم أثبت الأمر بإثبات نقيضه، وهو إن كنتم اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وهذا باطل لأن الله لم يعطهم هذا العهد فثبت بطلان ما ادعوه وهو أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات.²

ومن الأدلة العقلية "السبر والتقسيم" حيث يذكر أقسام الموضوع المجادل فيه، ويبين أنه ليس من خواص واحد فيها ما يوجب الدعوى التي يدعيها الخصم. ومنها "قياس التمثيل" ويسمى أيضاً قياس الغائب على الشاهد، وهو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف، ويبين الجهة الجامعة بينهما، لكن الفرق كبير جداً بين استخدام القرآن الكريم له، واستخدام المتكلمين، فالمتكلمون يحصرونه بالعقل وتصوراته، أما القرآن الكريم يستخدمه لإثبات قدرة الله عز وجل بأمور مشاهدة للإنسان أو معلومة له بشكل قطعي بديهي لا تنكره العقول. ومن الأدلة العقلية: "القصص": مثل قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه³. وهذه بعض مناحي القرآن في الاستدلال العقلي من غير إحصاء، وإنما ذكرنا بعضها، وبعضها ينبئ عن غيره.

يلاحظ الدارس لأدلة القرآن، والمتدبر لمعانيها، أن استدلالات القرآن في النقد والتمحيص لا تتجه إلى مجرد إلزام المخالفين وإفحام المناوئين، بل تتجه في الأغلب إلى إرشاد القارئ المتأملين، وتوجيه نظرهم إلى الحقائق الكونية، الدالة على القدرة الإلهية، وأن أسلوب القرآن في مسالك البرهنة على مسائله يعتمد على الأمور البديهية أو المحسوسة، أو الأمور التي من شأنها أن تنفذ الإنسان من متاهات الشكوك إلى حقائق الأمن واليقين، يحوي أسلوبه ضرب المثل الكامل، وهو أعظم من أن يوصف بأنه أتى على منهاج خطابي بليغ، وقصصاً فيه أقوى العبر والعظات في ذات القصة تؤثر في نفس من ألقى السمع وهو شهيد، وأقيسة سيقّت في بيان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ومحاوراتهم للمعاندين المكابرين. وإنه لمن الواضح أن القرآن الكريم مليء بالأقيسة والاستدلالات والبراهين، وليس فيها قيد من قيود أشكال منطق أرسطو كما توهم بعض المتفلسفين، وإنما هي الحجج والبراهين العقلية اليقينية التي لا تختلف نتائجها بين أمة وأخرى ولغة وأخرى على مر الدهور والسنين. ولا يظن ظان أننا نقصد هنا أن نوازن بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان، فإنه لا محل للموازنة بين طرائق القرآن وأساليبه المبنية على أسس قوية من الأحكام والإعجاز، وبين أساليب البشر، ولو جمعت ما جمعت من أنواع الحقيقة والمجاز، ولكننا نقصد هنا بيان أمرين:

1 - سورة البقرة، الآية: 79.
2 - المناهج العقلية التي استخدمها القرآن الكريم في الحوار والجدل مع أهل الكتاب: قيس سالم مجلي المعاينة، بحث ضمن دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 44، العدد: 1، 2017، نشر: عمادة البحث العلمي وضمان الجودة- الجامعة الأردنية.
3 - تنظر الأمثلة في "المعجزة الكبرى القرآن" لأبي زهرة: ص 271-272.

الأول: أن براهين القرآن وحججه قامت على أسس متينة من الجودة والإتقان في نظمها وتراكيبها، وفي صحة مقدماتها ونتائجها، وفي بعد مقاصدها في إصلاح القلوب والمجتمعات البشرية.

الثاني: توجيه الأفكار إلى ضرورة استمداد كل ما يحتاج إليه أهل النقد والمناظرة والجدل من أصول ومناهج وآداب من كتاب الله عز وجل، لأن في القرآن الكريم طريقة متميزة وناجعة تفيد في توجيه أنظار العقل لموضع العظة والعبرة، وفي التدريب على بناء أفضل الاستدلالات العقلية المنطقية المبنية على النتائج الصحيحة، وأحكم المناهج النقدية الشرعية، التي تمكنا من التوصل إلى أقوى النتائج عند النقد أو الحوار مع الآخرين المخالفين أو المناوئين على اختلاف أطرافهم وألوانهم.

منطق القرآن - إن صح القول بذلك - إنما هو منطق العقل والجنان، ومنطق البلاغة والبيان، ومنطق الحجة والبرهان، وليس منطق أرسطو القائم على ترتيب المقدمات والنتائج والأشكال والقياسات على هيئة خاصة، وأسوار خاصة، ونظم خاصة كما توهم بعض المتفلسفين، وقد يجر الاسترسال في هذه الأشكال والقياسات والأسوار إلى سرعة نقضها وهدمها بأبسط تشكيك في سلامة تركيبها، فتتحول إلى جدل عقيم، ومراء سقيم. ضرره أقرب من نفعه.

إن القرآن نزل من عند الله ومعه ميزة الإعجاز والتحدي، فهو مما يعجز عن مجاراته الطوق البشري، وقوة النبوغ الإنساني. فطريقة القرآن في الاستدلال والإقناع أولى وأبلغ، ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه "أقسام اللذات" كما نقله عنه ابن تيمية: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ¹، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} ²، وقرأ في النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ³، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} ⁴، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي" ⁵.

فهذا نموذج من نماذج أساطين المتكلمين، كالغزالي والجويني والشهرستاني وغيرهم يؤكد -عن تجربة- أن العقل يعجز عن معرفة هذه الحقيقة بنفسه مستقلاً، إذن لا بد من وسيلة أخرى تكون معصومة من الخطأ والزلل، وهذه الوسيلة هي وسيلة واحدة أنعم الله بها على هذا الإنسان، ألا وهي وسيلة " الوحي " التي عرف بها الأنبياء والرسل ربهم، وعرفوا الناس به سبحانه وتعالى.

1 - سورة طه، الآية: 4.

2 - سورة فاطر، الآية: 10.

3 - سورة الشورى، الآية: 9.

4 - سورة طه، الآية: 107.

5 - درء تعارض العقل والنقل، 1/ 160.

المبحث الثالث: الأصل الحسي:

الإنسان يتعرف على الموجودات من حوله، ويحكم عليها بالعلم اليقين أو الظن بعدة طرق¹، وهذه الطرق قد تكون نابعة من داخل نفس الإنسان، أو من خارجها. فإذا كانت من خارج النفس فهي الخبر الشرعي أو غيره الصادق بدلالته على ما يخبر عنه. وإن كانت من داخل النفس فهي تدور بين أصول ثلاثة:

- الأصل أو الدليل الحسي الظاهري والباطني².

- الأصل أو الدليل العقلي المتدبر بحدوده وضوابطه، وقد تحدثنا عنه في مبحث "الأصل العقلي".

- والأصل أو الدليل الفطري وهو ما فطر الله تعالى الإنسان عليه من معرفة كثير مما يحتاج إليه في حياته، ومن أعظمها: المعرفة الفطرية المغروزة في نفسه عن الله تعالى ووحدانيته وقدرته، كما هو مبين في كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - . وقد فصلنا القول فيه في مبحث "الأصل الفطري".

المطلب الأول: الاستدلال بالحس في القرآن:

من الحواس التي هي وسيلتنا للتعرف على عالم الشهادة: الآفاق والأنفس، أخذ "الدليل الحسي"³، وهو منسوب إلى الحس: كل ما يدرك بإحدى الحواس الخمس. ويقابله المعنوي، ويقال له أيضا: برهان حسي، أي ساطع كأنك تحس به⁴.

وعلماء الأصول لا يذكرون دليل الحس من بين الأدلة المختلف فيها في بناء الأحكام الشرعية، وإنما يذكرونه كدليل لتخصيص العموم. وكلامنا في الحس الظاهري وهو المتمثل في

1 - ينظر أصل هذا الكلام في مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس والأربعون، ص: 252.

2 - والحواس الباطنة يقصد بها الوجدانيات وهي الأمور المدركة بالحواس الباطنة. كقولنا: إن لنا جوعاً، وغضباً، وخوفاً، ونحوها. ويقابلها الحسيات: وهي الأمور المدركة بالحواس الظاهرة. كقولنا: الشمس مشرقة، والنار محرقة. وكلٌّ من الوجدانيات والحسيات - عند المناطقة - هما من قسم المُشاهدات: وهي ما يحكم فيه بالحس، سواء كان من الحواس الظاهرة أو الباطنة. انظر: كتاب "التعريفات" للشريف الجرجاني (ت: 816هـ) ص: 215، 250. ويذكر الأصوليون أن هناك دليلاً مركباً من دليل العقل، ودليل الحس. وهو عبارة عن ثلاثة أشياء وهي: العلوم المتواترة والعلوم التجريبية والعلوم الحدسية. فمعنى المتواترات هي: العلوم التي تحصل بالأخبار المتواترة، كالعلم بأحوال الأمم الماضية، والعلم بوجود البلاد النائية كبغداد ومكة، وكالعلم بشجاعة علي رضي الله عنه... وغير ذلك من العلوم الحاصلة بتواتر الأخبار. والتجريبيات وهي: العلوم التي تحصل بالعادة وتكرر المشاهدات كعلمك بأن النار تحرق، وكعلمك بأن الطعام يشبع... وغير ذلك من العلوم التي تحصل بالتجريب. والحدسيات وهي: العلوم التي تحصل بالحدس: أي: بالتخمين والتحريز، وهو: الأخذ بالظن كالعلم بجودة الفضة ورداءتها، وكالعلم بجودة الذهب ورداءته... وغير ذلك من العلوم التي تحصل بحدس وتخمين. انظر: رفع النقاب عن تنقيح الشهاب لأبي عبد الله الحسين بن علي الجرجاني ثم الشوشاوي السملالي (ت: 899هـ) 1/ 618-20.

3 - قال ابن فارس في المقاييس: الحاء والسين أصلان: فالأول غلبة الشيء بقتل أو غيره، والثاني حكاية صوت عند توجع وشبهه. فالأول الحس: القتل، قال الله تعالى: {إذ تحسونهم بإذنه} [آل عمران: 152]. ومن هذا الباب قولهم: أحسست، أي علمت بالشيء. قال الله تعالى: {هل تحس منهم من أحد} [مريم: 99]. وهذا محمول على قولهم قتلتم الشيء علماً. فقد عاد إلى الأصل الذي ذكرناه. ويقال للمشاعر الخمس: الحواس، وهي: اللمس، والذوق، والشم، والسمع، والبصر. ومن هذا الباب قولهم: من أين حسست هذا الخبر، أي تخبرته... والأصل الثاني: قولهم حس، وهي كلمة تقال عند التوجع. ويقال حسست له فأنا أحس، إذا رقت له، كأن قلبك ألم شفقة عليه. انظر: مقاييس اللغة (2/ 909-10) مادة (حس). قال الفراء: تقول من أين حسيت هذا الخبر؛ يريدون من أين تخبرته. وحسست بالخبر وأحسست به أي أيقنت به... وقال ابن الأثير: الإحساس العلم بالحواس، وهي مشاعر الإنسان كالعين والأذن والأنف واللسان واليد، وحواس الإنسان: المشاعر الخمس وهي الطعم والشم والبصر والسمع واللمس. انظر: لسان العرب، 6/ 49-50. مادة (حس). وأما الدليل الحسي اصطلاحاً، وهو: ما يحصل بالحواس الخمس وهي: حاسة الذوق، وحاسة الشم، وحاسة السمع، وحاسة البصر، وحاسة اللمس. وهو نفس ما أشار إليه ابن الأثير في اللسان ذكرته قبل أسطر.

4 - معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار، 1/ 495.

الحواس الخمس المعروفة، وأما الحسّ الباطنيّ الذي يتحدث عنه الفلاسفة أكثر من غيرهم فليس موضوعنا¹.

فهذه الحواس الظاهرة² تنقل مدركاتها - وهي العلم بالتصورات المفردة - إلى العقل الذي هو مقر الإدراك كله. فالمدركات الحسية أصل للمدركات العقلية: فالعقل يدرك التصديقات المنقسمة إلى البديهيات وإلى النظريات، وتسمى الكسبيات³، فالعلوم الكسبية "لا يمكن اكتسابها إلا بواسطة العلوم البديهية. وحصول هذه العلوم البديهية إنما يحصل عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدث هذه التصورات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أول الحواس تحصيلًا للتصورات وأهمها. وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمل عقله فيما يدلّه على الحقائق"⁴.

وأما الاستدلال فهو التوصل إلى حكم تصديقي مجهول بملاحظة حكم تصديقي معلوم، أو بملاحظة حكمين فأكثر من الأحكام التصديقية المعلومة⁵. والاستدلال بوجه مفصل: هو "استنتاج قضية من قضية، أو هو الوصول إلى حكم جديد مغاير للأحكام التي استنتج منها. ويكون ذلك عن طريق الاستعانة بما هو معلوم للوصول إلى ما هو مجهول مع مراعاة القواعد السليمة لصحة الانتقال من المعلوم إلى المجهول بالطرق المختلفة"⁶. وكذلك الأمر بالنسبة إلى استدلال القرآن، فإن الأدلة القرآنية سيقّت لأجل إثبات قضايا مجهولة مستنتجة من قضايا معلومة، لذلك وجدنا الإسلام يرفع من شأن العقل ويأمر الإنسان باستنفاد طاقاته تفكيره في كشف حقائق الحياة، واكتناه أسرارها، لأن الشرع لا يتبين إلا بالعقل، والعقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع حقائق علمية، وهي إما أن تكون فكرية محضة، وإما أن تكون مستندة إلى الحواس.

أ - الفكرية المحضة⁷: وهي الحقائق التي لا يتوقف إثباتها على الحواس، بل يكفي في إثباتها بالفكر وحده دون حاجة إلى تأييدها بمشاهدة أو تجربة، ومن هذه الحقائق ما يسمى

1 - يرجع إليه من شاء الاطلاع عليه في كتاب "النفس من كتاب الشفاء" لابن سينا، ص: 227.

2 - الحاسة: هي القوة التي تدرك الجزئيات الجسمانية. والحواس ظاهرة وباطنة، وكل منهما خمس بالوجدان، فالمجموع عشر. أما الحواس الظاهرة: فهي السمع - والبصر - والشم - والذوق - واللمس. وأما الحواس الباطنة: فهي الحس المشترك - والخيال - والوهم - والحافظة - والمتصرف - ووجه الضبط أن الحاسة: إما مدركة أو معينة على الإدراك. والمدركة: إما مدركة للصور - أعني ما يمكن أن يدرك بالحواس الظاهرة - وهي الحس المشترك. وإما مدركة للمعاني - أعني ما لا يمكن أن يدرك بها - وهي الوهم. والمعينة: إما معينة بالتصرف، وهي المتصرف. وإما معينة بالحفظ. فإما أن يحفظ الصور وهي الخيال. وإما أن يحفظ المعاني وهي الحافظة. وإنما كان هذا وجه الضبط لا دليل الحصر إذ لا شك في أنها غير منحصرة فيما ذكر عقلاً. واعلم أن الحواس كلها في الإنسان عند المحققين آلة للإدراك إما لحدوثه أو لحفظه والمدرّك في الحقيقة هو العقل. دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمّد نكري (ت: ق 12هـ) 5/2.

3 - البديهيات: كون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان، وكون الكل أعظم من الجزء. الكسبيات: هي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التفريق. التحرير والتنوير: 233/14.

4 - التحرير والتنوير 233/14.

5 - ضوابط المعرفة: حبنكة، ص 149.

6 - إرشاد القرآن والسنة إلى المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة: ص 69، دراسة وتحقيق أيمن عبد الرزاق الشوّاء، نشر: دار الفكر - دمشق: 1996م.

7 - منهج البحث العلمي في الإسلام، لإبراهيم السلقيني، بتصرف، ص 110، بحث ضمن بحوث "مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة" 1 ذو القعدة 1389هـ فبراير 1969م.

بالعلوم الأولية البديهية المغروزة في كل نفس بشرية، فهي في غنى عن أن يبرهن عليها، مثل الواحد نصف الاثنين، والضدان لا يجتمعان، والأثر لا بد له من مؤثر وما شابه ذلك، وهي التي إليها المرجع في كل استدلال، إذ لا بد للإنسان في طريق وصوله إلى حقيقة عقلية من أن يستند إلى هذه البديهيات، وذلك بجعلها العماد الذي يرتكز عليه في بناء معارفه العقلية، والبحث عن الحق والالتزام به، ويضاف إلى هذه البديهيات تلك القوة الكامنة في النفس التي تقتضي معرفة الحق وإرادته، وإيثاره على الباطل، ويسمى الأمران - العلوم الأولية البديهية والقوة الكامنة في النفس - المعرفة الفطرية، مادامت الفطرة سالمة من عوارض البيئة ومؤثراتها.

ب - الفكرية المستندة إلى الحواس أو التجربة:

هناك نوع من القضايا العلمية لا يكتفى فيها بالفكر فقط، بل يفتقر الفكر في إثباتها إلى أن يستند إلى الحس أو التجربة، مثل المعادن تتمدد بالحرارة، والماء مركب من الأوكسجين والهيدروجين وما شابه ذلك. وهذه الحقائق وإن كان البعض يقول: لا تبلغ الحقائق الحسية والتجريبية من حيث التقويم منزلة الحقائق العقلية في الاستدلال، معللاً ذلك بأن الإدراك الحسي قد يعتريه الخطأ ممن أصيب بمرض عمى الألوان فلا يستطيع أن يفرق بين الألوان، أو الخطأ من شخص مريض بالخوف نفسياً فينظر إلى ظل شجرة أو ثوب معلق فيحسب ذلك شخصاً يترص به، أو أن التجربة إنما تبرهن عن نفسها في الماضي والحاضر فقط أما في المستقبل فلا تستطيع أن تثبت نفسها فيه، وأطوي هنا الحديث عن دليل التجربة، لأنه ليس محل بحثي، ومناسبة ذكره كونه مشتركاً مع الحس في إثبات القضايا العلمية الفكرية .

ولا يكون ما ذكر طاعنا في الدليل المستند إلى الحس، لأن الخطأ في هذه الحالة غير ناشئ من الاستدلال الحسي في أصله، وإنما منشؤه مرض الشخص، والمرض له أحكامه الخاصة في الإسلام. ومن جهة أخرى نجد الحقائق الحسية منها يستخرج العقل المعاني الذهنية، فلا داعي لإعطاء القيمة الكبرى لجانب دون آخر، فكل واحد منهما يتوقف على الآخر في أداء دوره الخاص به. والاستدلال الحسي له مكانته من بين الاستدلالات المتنوعة بتنوع القضايا. ولكل قضية من القضايا ولكل نوع من الدعاوى نوع من الأدلة يناسبها، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء المادية يستدل عليها بالبراهين التجريبية المحسوسة. والدعاوى المتعلقة بالمجردات لا يقبل معها إلا براهينها المسلمة. والدعاوى المتعلقة بحقوق الأفراد والجماعات لا يقبل فيها إلا الشهادات المثبتة لها. وهكذا لا تصبح القضية حقيقة علمية إلا بوجود الدليل المناسب لها¹. قال البوصيري - رحمه الله - في همزيته:

والدعاوى مالم تقيموا عليها *** بينات أبنائها أدياء.

1 - منهج البحث العلمي في الإسلام، ص 110، بحث ضمن بحوث "مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة" 1 ذو القعدة 1389هـ فبراير 1969م.

بعد كل ذلك نود أن نوصل للاستدلال الحسي في القرآن المجيد من خلال ذكر بعض الدواعي للمطالبة به، من ذلك:

أولاً: طلب المعاينة قصد طمأنة القلب بقوة الحجة والبرهان:

ورد في الآية التاسعة والخمسين من سورة البقرة سؤال أبينا إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد ما يموتون، فسأله ربه سبحانه عما إذا كان غير مؤمن بقدرته حتى يسأل ذلك، فأكد إبراهيم عليه السلام إيمانه بكلمة "بلى" ولكنه أبدى رغبته في الاطمئنان القلبي عن طريق المعاينة والحس، فأمره أن يأخذ أربعة من الطيور ويقطعهن أجزاء ويفرقها على جبال مختلفة ثم يدعوهم إليه فتأتي إليه بإذن الله حية ساعية. وختمت الآية ب خطاب موجه إليه ليعلم أن الله عزيز لا يعجزه شيء، حكيم لا يفعل إلا ما فيه الصواب والسداد. قال تعالى: {وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِسْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ¹، ونتيجة التجربة لم تذكر، لأنها منطوية في أسلوب الآية على تقدير أن إبراهيم

فعل ما أمره الله به وتجمعت الأجزاء، وعادت إليها الحياة بقدرة الله، وسعت إلى أبينا إبراهيم - عليه السلام - . قال الزمخشري: "وبلى: إيجاب لما بعد النفي، معناه بلى آمنت ولكن ليطمئن قلبي ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة² علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك"³. "فإن قيل: قول إبراهيم: (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) يشعر ظاهره بفقد الطمأنينة عند السؤال؟ قلنا: معناه: ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الإحياء بتصويرها مشاهدة فتزول الكيفيات المحتملة، وقلت: هذا تكلف، والقول ما سبق أن هذا رحمة من الله للعباد، وظاهر الحديث عليه، ولأن إزالة الشبهات ودفع الخواطر من صريح الإيمان، روي عن مسلم وأبي داود، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: "وقد وجدتموه؟"، قالوا: نعم، قال: "ذلك صريح الإيمان"⁴.

1 - سورة البقرة، الآية: 259.

2 - المضامة: المضامة بضم الميم الأولى وتشديد الميم الثانية: هي حزام من جلد أو من حرير بأبزيم يلبسه رجال البلاط وجلساء الملك في المغرب العربي؛ وتكون بمثابة زينة. ولكن بعض الناس لا يستغنون عن المضامة لأنهم يجمعون أثوابهم بها، وبدونها تربكهم ثيابهم أثناء العمل: انظر: "المعجم العربي لأسماء الملابس ل. د. رجب عبد الجواد إبراهيم، ص 296.

3 - الكشف 309/1.

4 - فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشف) لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: 743 هـ) 513/3. والحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، 119/1، رقم الحديث: 209.

وقال الرازي في تفسيره: "وعلى قول المتكلمين: العلم الاستدلالي مما يتطرق إليه الشبهات والشكوك فطلب -يعني: إبراهيم عليه السلام- علما ضروريا يستقر القلب معه استقرارا لا يتخالجه شيء من الشكوك والشبهات... قال محمد بن إسحاق والقاضي: سبب السؤال أنه مع مناظرته مع نمرود لما قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، فأطلق محبوسا، وقتل رجلا، قال إبراهيم: ليس هذا بإحياء وإماتة، وعند ذلك، قال: رب أرني كيف تحي الموتى لتتكشف هذه المسألة عند نمرود وأتباعه"¹.

يعلم مما ذكر أن الاستدلال الحسي له مكانة معتبرة في تحويل العلم الاستدلالي إلى العلم الضروري بإزالة الشكوك والشبهات التي قد تحصل للمستدل له، وفي جلب سكون القلب وطمأنينته، كما حصل به لإبراهيم عليه السلام زيادة يقين وطمأنينة في اعتقاد قدرة الله تعالى على الإحياء.

ثانيا: بيان المعنى المستبعد في ظن المخاطب بالأدلة الناصعة، وبالمشاهدة الحسية:

كلما كانت الشبهة أقوى في قلب الإنسان يرغب في سماع دليل مزيل لها، ولكن إن كان الدليل عمليا فذلك أقوى وأكمل؛ إذ تستحكم الحجة آنذاك على القلب بما فيها من الاتساق مع الحوادث المعروفة والمحسوسة، ويكون وقعها في عقل المخاطب وفي قلبه أكثر تمكنا، وهذا ما سنتبينه في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال الله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَبْنَىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ².

ولإيضاح المشهد نورد بعض أقوال المفسرين التي لها علاقة بالموضوع:

قال الرازي - رحمة الله عليه - مبينا الدافع للرجل على الإفصاح بما تنضح به مشاعره من شك أو استبعاد: "أما قوله تعالى: {قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها} فقد ذكرنا أن من قال:

1 - مفاتيح الغيب، 3/34-36.

2 - سورة البقرة، الآية: 258.

المار كان كافرا حمله على الشك في قدرة الله تعالى، ومن قال كان نبيا حمله على الاستبعاد بحسب مجاري العرف والعادة أو كان المقصود منه طلب زيادة الدلائل لأجل التأكيد". ثم بين الإمام الرازي أن الله ذكر في الآية ثلاثة أدلة حسية، الأول: أمره بالنظر إلى طعامه وشرابه وهو لم يتغير، تأكيدا لقوله: لبثت يوما أو بعض يوم، وهذا حتى يعظم اشتياقه إلى دليل ثان، ممثلا في آثار محسوسة تصور لبثه مائة عام، وهو أمره بالنظر إلى حماره، فرآه صار رميما، وعظاما نخرة، والحمار لا يكون كذلك إلا بعد دهر طويل، وهذا حتى يعظم تعجبه من قدرة الله، فقال رحمه الله: "كلما كانت الشبهة أقوى مع علم الإنسان في الجملة أنها شبهة كان سماع الدليل المزيل لتلك الشبهة أكد، ووقوعه في العمل أكمل، فكأنه تعالى لما قال: بل لبثت مائة عام قال: فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، فإن هذا مما يؤكد قولك لبثت يوما أو بعض يوم فحينئذ يعظم اشتياقك إلى الدليل الذي يكشف عن هذه الشبهة، ثم قال بعده: وانظر إلى حمارك، فرأى الحمار، فعظم تعجبه من قدرة الله تعالى، فإن الطعام والشراب يسرع التغير فيهما، فرأى ما لا يبقى باقيا، وهو الطعام والشراب، وما يبقى غير باق، وهو العظام، فعظم تعجبه من قدرة الله تعالى، وتمكن وقوع هذه الحجة في عقله وفي قلبه¹، ثم أراه دليلا ثالثا، ممثلا في ضم هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم، وردها إلى الحياة على مرأى ومسمع من صاحبه الذي لم يمسه البلى، وهذا حتى يتبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى، فتمكن وقوع هذه الحجة في عقله وفي قلبه. وهذا مايشير إليه الطنطاوي في التفسير الوسيط في قوله: "فلما تبين له بالأدلة الناصعة وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والنشور، قال أعلم أي أستيئن وأؤمن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء. والفاء في قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ... عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل: رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير. وفاعل تَبَيَّنَ مضمَر يفسره سياق الكلام والتقدير: فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير"².

تعلمنا الآيتان الكريمتان منهجا واضحا لاكتساب الحقائق العلمية، وهذا المنهج لا يمكن الاستغناء عنه لكل باحث عن الحقيقة العلمية، وذلك أن بعض القضايا لا يمكن إثباتها بمجرد دعواها بالعقل، بل لا بد أن تكون مستندة إلى دليل حسي يدعمها، وبمقدار زيادة الدلائل لأجل التأكيد تكتسب القضية الوضوح والاقتناع بها، وأنا لا أنكر أن من القضايا ما يمكن إثباته عن طريق العقل وحده، ولكن هناك قسم آخر منها يفتقر في إثباته إلى الاعتماد على الحواس، ولاسيما العلوم المادية، ولولا اعتمادها على الحواس، ومن ورائها العقل لما تمكن الإنسان من الاكتشافات الجديدة، ولما اتضحت واتسعت هذه العلوم.

1 - مفاتيح الغيب، 29/7، 33.
2 - التفسير الوسيط للطنطاوي، 599/1.

والاستدلال الحسي قاعدة منهجية من القواعد التي رسمها القرآن الكريم لتكون وسيلة معينة للباحث على الوصول إلى الحقائق، وسواء أكانت هذه الحقائق دينية أم دنيوية، ولذا القرآن المجيد يأمر أولي النهى أن يعملوا حواسهم وعقولهم في مظاهر الحياة وألا يهملوها، وسيسألون يوم القيامة عن هذا الإهمال، قال تعالى: {وَلَفَدَ ذُرْأَنَا لِحِجْهَمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْذِيكَ كَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنَ الْغَالِبِينَ} ¹. "وإنما قال: لا يفقهون بها ولم يقل: لا تفقه "؛ لبيان أنهم هم المؤخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور، واكتناه الحقائق، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده، وهو... أي: ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله" ².

فلا أطيل في التأصيل لهذا الاستدلال في القرآن فيمكن التأصيل له بكل الآيات القرآنية التي ترشد إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والآفاق للتدبر. وإلى بلوغ حد الإعجاز ورد في القرآن تكرار بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة، كالتشبيه والتمثيل والاحتجاج، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار لأهل الكفر، ولأجل العظة والعبرة والذكرى لأهل الإيمان.

وكذلك السنة النبوية نفس الشيء في إعطاء القيمة والمكانة للاستدلال الحسي، ومن ذلك ضرب الأمثال التي تستمد عناصرها من الواقع المحسوس للأشياء التي لا تدركُ بالعقل وحده، بل تشترك معه الحواس المختلفة، كالرؤية بالعين الباصرة، وبها تدرك الحركات والألوان، والسمع بالأذن، وبها تدرك الأصوات أو الاصطكاكات، واللمس، وبه تدرك النعومة والخشونة، وبالشَّم، وبه يدرك الروائح، والذوق، وبه تدرك المطعومات، وغير ذلك مما يدرك بالحواس الكثيرة مع العقل.

وأذكر نموذجا واحدا من السنة النبوية، وهو تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم النخلة بالمسلم. أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله، قال: "هي النخلة"³. هذا الحديث النبوي يعد نموذجا رائعا من الاستدلال الحسي كسائر الأحاديث الواردة على سبيل ضرب المثل الذي يجسده الواقع الذي يعيش فيه الإنسان،

1 - سورة الأعراف، الآية: 179.

2 - تفسير المنار، 9 / 356 - 357.

3 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة، 2164/4، رقم: 2811.

"فقد جمع في المثل بين النخلة وما يتعلق بها من الثمار والجريد والليف، والساق ودوام الخضرة طوال العام، والإيواء إلى ظلها وقاية من الحر وحلاوة التمر، وتستريح الأذن إلى حفيف السعف والجريد وغيرها مما هو مألوف، وبين المسلم وما يصدر عنه من الطاعات وعمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلاهما يُشبه الآخر في دوام الانتفاع وعمومه"¹.

إن الاستدلال الحسي يتميز في علم الاستدلال بتقريب وتجسيم المعاني المجردة في صور محسوسة يشترك في إدراكها جميع الحواس، كما يمتاز بتنمية القدرات والمهارات العقلية والفكرية، وإعمال العقل في الكشف عن أعماق الحنكة والخبرة في فهم أسرار الواقع.

وبعد بيان مقامه وإمكانية الاستدلال به يأتي إبراز أثره النقدي في القرآن، وذلك باعتبار كونه مسلكاً للاستدلال بالأدلة المادية المحسوسة للإثبات أو الرد، وهو ما سأبرزه قدر المستطاع في المطلب الآتي:

المطلب الثاني: أثر النقد القرآني في لاستدلال الحسي:

الحواس هي أول الأدوات المعرفية في تحصيل التصورات، وهي مدركات جزئية، والعقل مقر الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، ثم يعمل العقل في التنسيق بين المدركات الحسية بالجمع أو التفريق للترقي بالنتائج الجزئية إلى نتيجة عامة كلية. يقول الله: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}². "فقله تعالى: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة تفسيره: أنه أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل،... فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك؛ إذ بهما إدراك أهم الجزئيات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية. واقتصر عليهما من بين الحواس، لأنهما أهم، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق. ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقر الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصورات المفردة"³.

من استقرأ القرآن المجيد يجده يسلك منهجين في لفت أنظار الناس إلى الأدلة والحجج لإثبات معرفة الله للجاحدين أو المنكرين أو الجاهلين:

1- أدلة وحجج تعتمد على الأصل العقلي المحض، والأصل الفطري المركز في العقول البشرية، مادام سالماً من إفساد آليته بالآراء الفلسفية الضالة المضلة. وهو ما تناولته في المبحثين السابقين.

1 - التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، ص: 21.

2 - سورة النحل، الآية: 78.

3 - التحرير والتنوير: 233/14.

2- أدلة وحجج تستند إلى شواهد المعرفة الكونية المحسوسة المحيطة بالإنسان الناظر من جميع جهاته الست، وحتى بين جنبيه {وَفِجْ أَنْفُسِكُمْ أَقْبَلًا تُبْصِرُونَ} ¹.

فقد اعتمد القرآن الكريم في استدلاله على وجود الله وربوبيته، وإمكان المعاد ورسالة الرسل على منهج قويم يجمع بين ما لا يمكن للإنسان دفعه مما يشاهد ويحس ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، وذلك منهج خاص بالقرآن المجيد فليس له وجود في كتب الحكمة النظرية. قال ابن القيم: "وهذه الطريق (يشير إلى الاستدلال على الخالق بآيات الأنبياء) من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله. وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل. ودلالاتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات" ². وفيما يلي أشير إلى بعض الأمثلة مما ورد في القرآن من هذا النوع من الاستدلال:

أولاً: معجزات الأنبياء:

أكثر آيات الأنبياء وروداً في القرآن ما أظهره الله على يد نبيه موسى -عليه الصلاة والسلام- ليواجه بها من أنكر وجود الخالق سبحانه وادعى مقام الربوبية وهو فرعون وقومه، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَبَسَّطَ بَنُجْ إِسْرَآءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرِعَوْنُ مَثْبُورًا} ³. فوصفها بأنها بينات، معناه: أنها جليات واضحة ظاهرات الدلالة على مدلولها.

وأنها بصائر أي: هي حجج وأدلة تبصر بصدق ما يدعيه موسى من ربوبية الله تعالى، ومن إرساله له إلى فرعون وقومه. والآيات التسع: ذكر ابن كثير في تفسيره "عن ابن عباس ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي: يده، وعصاه، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وقال: وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي" ⁴، وفي قوله: وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي إشارة إلى أن المفسرين اختلفوا في تحديد الآيات التسع، حيث يوردون روايات عن السلف، بينها اختلاف حول بعض الآيات. وقد أشار ابن القيم إلى وثوق هذه الأدلة الحسية وقوتها وعلوها في الدلالة على وجود الله تعالى وحياته وإرادته وعلمه وعلى صدق الرسالات السماوية وعلى المبدأ والمعاد يوم القيامة في قوله: "وليس في طرق الأدلة أوثق ولا

1 - سورة الذاريات، الآية: 21.

2 - الصواعق المرسله لابن القيم: 1197/3.

3 - سورة الإسراء، الآية: 101 - 102.

4 - تفسير القرآن العظيم 124/5.

أقوى منها، فإن انقلاب عصا ثقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به، ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد. فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد وفلق البحر طرقا، والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفع على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء"1، ومن هذا الاستدلال أيضا:

- المضروب بعضو من أعضاء البقرة، كما قال تعالى: {وَإِذْ فَتَلْتُمْ نَفْسًا قَادَرَاتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} ﴿٧١﴾ بَقْلْنَا إِضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْفَلُونَ}2. تذكر الآية القتل المضروب ببعض البقرة فقام وأخبر عن قاتله، وهي دالة على صدق موسى -عليه الصلاة والسلام- وعلى بعث الأجساد بعد موتها. قال القرطبي: "قلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله، ثم عاد ميتا كما كان"3، كما أظهرت هذه المعجزة الربانية ما كانوا يسترونه من أمر القتل الذي قتلوه، فتبين أمر القاتل الحقيقي مشاهدا لهم.

- ما أظهره الله على يد عيسى عليه السلام من أنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، كما قال تعالى: {وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ: إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَابْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَابْرِئُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}4، فكان ما ذكر معجزة من معجزات نبي الله عيسى عليه السلام.

- ما أخبر الله من قصة أصحاب الكهف، فإن الله بعثهم من مرقدهم بعد لبث طويل، والله أعلم به، وبين الحكمة من ذلك بقوله: {وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا}5، وقد أشار القرآن في كثير من الآيات البينات إلى هذا النوع من الاستدلال بما يلفت النظر إلى دلالتها على القدرة الإلهية على إحياء الموتى وعلى الربوبية فضلا عن دلالتها على النبوة.

1 - الصواعق المرسلة 1198/3.

2 - سورة البقرة، الآية: 71 - 72.

3 - الجامع لأحكام القرآن: 457/3.

4 - سورة آل عمران، الآية: 48.

5 - سورة الكهف، الآية: 21.

وهذه الأدلة المذكورة أدلة مادية حسية واقعة تحت تأثير السمع والبصر لمن حضر تلك الوقائع، وأدلة سمعية قطعية لتواترها لمن لم يحضرها، فهي براهين قطعية على القدرة الإلهية على إحياء الأموات، وعلى صدق النبوات، فوجب القطع بذلك، لأنه أخبر به من ثبت صدقه، عمن ثبتت قدرته.

ثانيا: استجابة الدعوات وكشف الكربات:

يدخل في هذه الآيات ما يكرم الله به الصابرين الصادقين من عباده المؤمنين من استجابة الدعوات وكشف الكربات، وأذكر آية على سبيل المثال، وليقس عليها مثلها، من ذلك قصة أيوب - عليه السلام - الذي ابتلاه الله في نفسه وأهله وماله، لكنه بكمال صبره، وصدق دعائه من الله عليه برجوع كل ما ذهب منه، بما فيهم أهله، قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ¹، وأمثلة على هذا لا تعد ولا تحصى، وقد ألفت كتب في هذا الموضوع².

وقد ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك، قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي، فقال يا رسول الله: هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قرعة³، فوالذي نفسي بيده، ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا يومنا ذلك⁴.

ولا ريب أن الله يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف الضر عنه إذا مسه، فإن استجيب الدعاء وحصل المدعوبه، فذلك دليل حسي على وجود السميع القادر المجيب، فإن قيل: قد لا تحصل الإجابة في بعض الحالات، قلنا: قد توجد موانع تمنع من الإجابة، أو اقتضت الحكمة الإلهية تأخير الإجابة، أو تعويضها بما هو أصلح للعبد. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال⁵: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن

1 - سورة الأنبياء، الآية: 82 - 83.

2 - منها: كتاب "المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات" لأبي القاسم خلف بن بشكوال الأندلسي (ت: 578هـ).

3 - سحابة.

4 - أخرجه في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، 12/2، رقم: 933.

5- مسند الإمام أحمد (ت: 241هـ) 215/17.

يُصَرِّفُ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا " قَالُوا: إِذَا نَكُثَرُ، قَالَ: " اللَّهُ أَكْثَرُ " 1، وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ مُحَسُّوسٌ لِمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ، وَدَلِيلٌ سَمْعِي قَطْعِي لَتَوَاتُرِهِ لِمَنْ لَمْ يَشَهِدْهُ وَلَمْ يَحْضُرْهُ.

تالٲا: الاسٲدلال بالمخلوقات على الخالق:

كل المخلوقات ذواتها، وصفاتها، وأحوالها من الآيات الكونية، "والمراد بالآيات الكونية: أنها المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات"².

الآيات الكونية تتنوع وتنقسم باعتبارات مختلفة، وأنا أتحدث عنها باعتبار من تقع عليه،
فتنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: آيات الأنفس: وهي ما يظهره الله من علامات وآثار قدرته في ذوات وأجسام الإنسان من حواس وقوى، وقدرات عقلية وجسمية، وما يصابون به من شر أو خير، ومن نعمة أو نقمة: كالنوم والمرض.

النوع الثاني: آيات الآفاق3: وهي ما يظهره الله من علامات قدرته في الأشياء الخارجية،
أي الأشياء المحسوسة في أقطار السماوات والأرض4.

1 - آيات الأنفس:

لاغرو إن قلت: كل القضايا التي تطرح للنقاش في هذا الموضوع مع الملاحدة المعاصرين، أو الرافضين للإسلام، فهي تعود بجذورها إلى نماذج البراهين القرآنية؛ إذ كل ما يذكر في خصوص حقيقة الإنسان ودلالاتها على الخالق سبحانه ورعايته موجّهٌ إليه في قوله تعالى: {وَفِجْ أَنْفُسِكُمْ وَأَقْلَا تَبْصِرُونَ} ⁵، وما يشبهه من الآيات.

قد لقي الاستدلال بخلق الإنسان في القرآن عناية خاصة، بدليل أنه ذكر في أول آية نزلت فيه على نبيه عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَوٍ} ^٦، فذكر خلق الإنسان خاصا بعد ذكر الخلق عاما، "لكون خلق الإنسان من علق دليلا يشترك فيه جميع الناس. فإن الناس هم المستدلون وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية. فالإنسان هو الدليل وهو المستدل وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما

1 - قال الحاكم في المستدرک 760/1: هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجاه عن علي بن علي الرفاعي، وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت عند الترمذي في سننه، 566/5، برقم: 3573، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

2 - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري، 1/ 141.

3 - الآفاق: جمع أفق وهو الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها، أو ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض. انظر: لسان العرب: 10/5، والقاموس المحيط: 864.

4 - التحرير والتنوير، 18/25.

5 - الذاريات: 21.

6 - سورة العلق، الآيتان: 1 - 2.

تفكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه"1. ولما كان الإنسان يحمل في بدنه من آثار الخلق ما يماثل نظيره في سائر المخلوقات جاء الأمر بالتبصر في الأنفس بأسلوب الإنكار على من غفل عن ذلك، ويطالب بالدليل على وجود الله وربوبيته في غيرها. بل أكثر من هذا أمر القرآن الإنسان بالنظر إلى أصل خلقه. {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}2.

وقد ورد ذكر خلق الإنسان في عديد من المواضع في الكتاب العزيز، تارة بالإجمال، وتارات أخرى بالتفصيل، فتارة بذكر أطوار خلقه ومراحل نشأته وحياته، وتارة بالتنبيه إلى إحسان صورة الإنسان وتسوية خلقته وعدله، وتارة بذكر تركيب أعضائه وجوارحه وحواسه وتقديرها بمقادير وأشكال مختلفة، وتارة بذكر ما صنف إليه البشر من اختلاف في الألوان والأجناس والألسن3. وهذا كثير في القرآن، يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره؛ إذ نفسه وخلقته من أعظم الدلائل على خالقه وفطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، ومع ذلك غافل عنه، معرض عن التفكير فيه، ولو فكر في نفسه لجزره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. ومن أراد الاستزادة في التنبيهات القرآنية إلى خلق الإنسان ودلالة أطواره وأحواله وتفاصيله على خالقه - سبحانه - المتفرد بالألوهية والوحدانية فليرجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الموضوع خاصة4.

وللعلماء تقارير متنوعة في دلالة خلق الإنسان على وجود الخالق عز وجل. ومنها تقرير لطيف للفخر الرازي أخذه من قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}5. يقول: "والمقصود من ذلك: أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم"6.

ثم ذكر أن هذا الوجه أوفق في تقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، من تقريره بأنه خصيم لربه، منكر لخالقه، لأن هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر. ويقرر أبو الحسن الأشعري وجها استدلاليا آخر لدلالة خلق الإنسان على الخالق تبارك وتعالى، قائلا: "ويدل ترتيب ذلك على محدث قادر حكيم، من قبل أن ذلك لا يجوز أن يقع بالاتفاق، فيتم من غير مرتب له، ولا قاصد إلى ما وجد منه (أي التريب) فيها (أي الأجسام) دون ما كان يجوز وقوعها عليه من الهيئة

1 - مجموع الفتاوى لابن تيمية: 263/16.

2 - سورة الطارق، الآية: 5.

3 - انظر تفصيل ذلك في: "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" لابن القيم، 539/2.

4 - ومن أراد التوسع في موضوع خلق الإنسان زيادة على "مفتاح دار السعادة" لابن القيم فليراجع "كتاب الدلائل والاعتبار في الخلق للجاحظ، و"الحكمة في المخلوقات" للغزالي. و"آيات الله في الأنفس والآفاق أو طريقة القرآن الكريم" في العقائد لأحمد العدوي.

5 - سورة يس، الآية: 76.

6 - مفاتيح الغيب، 174/19.

المخالفة لها، وجواز تقدمها في الزمان، وتأخرها بذلك إلى محدثها ومرتبها، لأن سلالة الطين والماء المهين يحتمل من الهيئات ضروباً كثيرة، لا يقتضي واحد منها سلالة الطين، ولا الماء المهين بنفسه، ولا يجوز أن يقع شيء من ذلك فيها بالاتفاق لاحتمالها لغيره"1.

يبين الأشعري في هذا التقرير النظر إلى أن الصدفة لا يمكن لها أن تقيم هذا النظام البديع الدقيق المتمثل في هذه السنن الكونية من خلق وتكوين وتنشئة وتطور. فطريقة الأشعري واضحة في الإشارة إلى دليل الجواز، وإن كانت هي نفس الطريقة التي احتفى بها المتكلمون بعده في تقرير هذا الدليل، إلا أنهم يضيفون إليها صورة معقدة تسلب الدليل بساطته وسهولته، وتبعد خلق الإنسان من أن يكون دليلاً مباشراً على خالقه، فخالفوا الطريقة القرآنية التي تجعل خلق الإنسان وحدوثه مقدمة بديهية تدرك بالمشاهدة والحس، ويبني عليها ضرورة وجود خالق أبدعه، ويقول الدكتور "محمود قاسم": "ولو كانت هذه الوظائف وليدة الصدفة، أو توجد من تلقاء ذاتها، لوجب أن توجد للأجسام جميعها دون تفرقة. فوجودها إذن في بعض الأجسام دون بعض دليل على وجود صانع اقتضت إرادته أن تكون مخلوقاته أسمى مرتبة من بعضها الآخر وينطبق هذا القول على الكون بأسره، لأنه مجموعة"2.

وفي طريقة القرآن غنية عن الطرق الكلامية الطويلة، الغامضة المعقدة، التي تفقد الاستدلال الحسي مغزاه، وهو الدلالة بشكل واضح ومباشر على مدلوله، وهو هنا وجود الله تعالى، قال ابن تيمية - رحمه الله -: "والقرآن العزيز ذكر خلق الله تعالى لما خلقه من الجواهر التي هي أعيان قائمة بأنفسها، مع ما نشهده من إحداث الصفات والأعراض أيضاً، والاستدلال بذلك على الخالق سبحانه، وجعل ذلك من آياته هو مما بينه القرآن"3.

2 - آيات الآفاق: السماء والأرض:

لما أنهيت حديثي عن المجال الأول في الاستدلال بالمخلوقات على الخالق ألا وهو آيات الأنفس، انتقلت إلى الحديث عن المجال الآخر، وهو آيات الآفاق اقتداء بقوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآبَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ءَنَّهُ الْحَقُّ}4، وهي مجتمعة في قوله سبحانه: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا}5، فهذه الآية قد شملت العالم العلوي بذكر السماوات، والعالم السفلي بذكر الأرض، وجميع الأحياء بذكر الدواب المبتوثة.

1 - رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، لأبي الحسن الأشعري (ت: 324هـ) ص 83-84.
2 - "ابن رشد وفلسفته الدينية"، ص 100 من الطبعة الثالثة، منقول من تحقيق عبد الله شاطر في المرجع السابق في الصفحة نفسها.
3 - درء تعارض العقل والنقل: 234/7.
4 - سورة فصلت، الآية: 52.
5 - سورة الشورى، الآية: 27.

وهذه الآيات الكونية لم يذكرها القرآن الكريم على أنها مقصودة لذاتها؛ ولكنها شواهد القدرة الإلهية في الآفاق والأنفس، ودعوة عملية للإيمان بالله من منطلق أن كل ما نشاهده في هذا الكون علويه وسفليه فهو خاضع للنظام الدقيق والعناية الفائقة، من خالق مالك متصرف وهو الله عز وجل المستحق وحده للعبادة.

والآيات الكونية لا يمكن استيعاب التنبيه عليها، وإحصاؤها نوعاً نوعاً، ولكن المقصود هنا ذكر جملة منها لاستنباط المنهج القرآني في عرض تلك الآيات الكونية.

أ - السماء 1:

الآيات الكونية السماوية هي الآيات العلوية كالسما والشمس والقمر والنجوم والكواكب والرعد والبرق والصواعق، وقد ورد لفظ السماء في القرآن في (120) موضعاً، ولفظ الجمع في (190) موضعاً². قال ابن القيم -رحمه الله- مبيناً شأن هذه الآية الكونية: "ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخباراً عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتتام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته"³.

يتخذ القرآن من الآيات الكونية أدلة يناقش ويقيم بها الحجة على المشركين والملحدين، فهذه طريقة جميع الرسل لما حصلت المجادلة بينهم وبين الأقوام المكذبين الذين حصل عندهم شك أو اضطراب في الله، فقالت لهم رسلهم مرشدين لهم إلى الدليل والطريق لمعرفة سبحانه: {أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ⁴، "أي: أفي وجوده شك، فهو الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه" وهذا على أحد المعنيين في الآية. "والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرد بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات"⁵.

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله - سبحانه - فاطر السموات والأرض أي موجدتهما وخالقهما. وهذا موسى كليم الله يستخدم نفس الاستدلال في مواجهة طاغية عصره فرعون المتأله عندما سأله عن رب العالمين، ولا يزال موسى عليه السلام يأتيه بالدليل تلو الدليل حتى أعجزه،

1 - وهي "منطقة فضائية مرئية من الأرض، تبدو كالحبة عليها، تحتوي على الغلاف الجوي. انظر: الموسوعة العربية العالمية: 90 / 13، والموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن طبعة 1965: 1010 / 2.
2 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي: 459 - 465.
3 - مفتاح دار السعادة: 561/2.
4 - سورة إبراهيم، من الآية: 13.
5 - تفسير ابن كثير: 482 / 4.

فلجأ الطاغية إلى الوعيد والتهديد، قال تعالى: {فَالْإِنشَاءُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} ٢٢ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوَفِّينَ} ١ إلى آخر الآيات. "أي خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه" ٢.

وفي رد الله على أهل الكتاب في زعمهم أن الله ولدا استدل سبحانه بهذه الآية الكونية على وحدانيته قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفِيهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَبِيَ بِاللَّهِ وَكَيْلًا} ٣، وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قِنْدٌ فَرِحْتُونَ} ١١٥ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ٤ قال الرازي في تفسيره مفيدا لنا فائدة نفيسة: "واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكا ومالكا لما في السموات وما في الأرض، فقال في مريم: {إِنْ كُلُّ مَسٍّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتٍ الرَّحْمَنِ عَبْدًا} ٥. والمعنى: من كان مالكا لكل السماوات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى ولمريم، لأنهما كانا في السماوات وفي الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما، فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولدا وزوجة" ٦.

1 - سورة الشعراء، الآية: 22 - 23.

2 - مفتاح دار السعادة، 138/6.

3 - سورة النساء، الآية: 170.

4 - سورة البقرة، الآية: 115 - 116.

5 - سورة مريم، الآية: 94.

6 - مفاتيح الغيب، 272/11.

ففي هذه الآيات وأمثالها رد على النصارى ومن أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب وملحدين ممن نسب لله الولد، فأكذبهم الله جميعاً في دعواهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

- وفي دعوة نوح -عليه السلام- قومه استدل لهم بخلق السماوات والأرض على وجوب

إفراد الله -عز وجل- بالعبادة وترك عبادة الأصنام، قال تعالى مخبراً عنه: {أَلَمْ تَرَوْا

كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْفَمَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

الشَّمْسَ سِرَاجًا} ¹. "لم يدع نوح عليه السلام دليلاً إلا استدللّ به لقومه على وجود الله

ووحدانيته وقدرته، من خلق السماوات والأرض، وخلق الناس، وإنبات النبات، ولكنهم قوم أغبياء وحمقى، فأصروا على ملازمة عبادة الأصنام والضلال والإضلال" ².

وفي محاجة إبراهيم -عليه السلام- لقومه استدل لهم بخلق السماوات والأرض على

ربوبية الله ووجوب إفراده بالعبادة، فقال: {بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي

بَطَّرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} ³. "وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي

خلقها لمنافع العباد هو الذي يحسن ⁴ أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب" ⁵.

وفي قصة أصحاب الكهف أنهم قاموا واستدلوا لملكهم الذي يحث قومه على عبادة

الأصنام بأن العبادة لا تتبغي إلا لرب السماوات والأرض وخالقها، فقالوا: {رَبَّنَا رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَئِنْ نَدَعُوهُ لَنُفْسِدَنَّ فُلْنًا إِذَا شَطَطًا} ⁶، "وكثيراً

ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية" ⁷.

الشمس والقمر والكواكب:

الشمس والقمر والكواكب آيات كبرى ودلالات عظمى من آيات الله تعالى، فالشمس في

شروقها وغروبها بنظام لا تحيد عنه منذ خلقها الله -عز وجل- قال ابن القيم: " فهذا الترتيب

والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته

ووحدانيته" ⁸.

1 - سورة نوح، الآيات: 15 - 16 وما بعدها.

2 - التفسير الوسيط للزحيلي، 2745/3.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 56.

4 - كلمة "يحسن" اخترت -مع كل تقدير واحترام للإمام الرازي رحمه الله- أن يكون مكانها "يستحق".

5 - مفاتيح الغيب للرازي: 153 / 22.

6 - سورة الكهف، الآية: 14.

7 - تفسير ابن كثير: 294 / 6.

8 - مفتاح دار السعادة: 602/2.

الشمس:

استدل إبراهيم -عليه السلام- بالشمس على وجود الله، في حاجته للنمرود المنكر لوجود الله -عز وجل- المدعي للألوهية والإحياء والإماتة بقوله: {قَبَّانَ اللَّهُ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ قَاتٍ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ¹، أي إن كنت كما تدعي إلها تتصرف في الوجود بالإحياء والإماتة وغيرهما فهذه الشمس تظهر كل يوم من المشرق، فأت بها من المغرب. فلما تيقن عجزه على ذلك وإقامة الحجة عليه بهت أي أخرس فلا يتكلم. وهذا برهان لا يقبل المعارضة بوجه من الوجوه. ثم تأمل ما في ضمن هذه المناظرة من حسن الاستدلال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة، التي تستلزم وجوده وكمال قدرته ومشيئته وعلمه ووحدانيته، من الإحياء والإماتة المشهودين للذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده، وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق، ولا يقدر أحد سواه على ذلك" ².

الكواكب والقمر:

وفي آيات كريمات من سورة الأنعام ورد استدلال إبراهيم -عليه السلام- في مناظرة قومه بالكواكب والقمر والشمس معاً، فالنجوم خلقها الله، وجعلها رجوماً للشياطين، ومصابيح وزينة للسماء، وعلامات يهتدى بها. والقمر خلقه الله، وقدره منازل، وجعله يسير سيرا يستدل به على مضي الشهور. كل هذه الأجرام السماوية من ضمن أدلته على وجود الله وأنه المستحق للعبادة، قال تعالى: {قَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ إِلِيلٌ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي قَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِيلِينَ} ^{٧٧} قَلَمَّا رَءَا الْفَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي قَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} ^{٧٨} قَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ قَلَمَّا أَقْبَلْتُ قَالَ يُفَوِّمُ إِنَّي بِرَحْمَةٍ مِّمَّا تَشْرِكُونَ} ^{٧٩} إِنَّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّعِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيبًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ³. وهذه بهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه كما قال ابن القيم: "من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته" ⁴.

من الدلائل العقدية للآيات الكونية: السحاب والرعد والبرق والصواعق: فهي من آيات الله الكونية، وجند من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو.

1 - سورة البقرة، الآية: 257.

2 - مفتاح دار السعادة: 3 / 1400.

3 - سورة الأنعام، الآيات: 77 - 80.

4 - مفتاح دار السعادة: 602/2.

ولعظمة الآيات الكونية أفرد القرآن الكريم سورا بأسمائها كالشمس والقمر والليل والنجم والطارق والبروج والطور، ومنها الرعد التي ورد فيها من عجائب الكون ما يدل على قدرته ووحدانيته من رعد وبرق وسحاب وصواعق، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} ١٣ وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْبَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} ١، وعن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه-: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث، وقال: "سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته" 2، وقال سبحانه في سورة النور: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْفُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ يَفْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ} 3. يرينا الله عز وجل من آياته إنزال المطر حياة للعباد والبلاد، ومقدماته من البرق والرعد خوفاً وطمعا، وصواعق ابتلاء للمصاب بها لنستدل بها على وجوده، وتوحيد ربوبيته، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وعموم إحسانه وسعة علمه، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلاق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

إنها آيات مرئية بالأبصار، مشاهدة بالحواس، والعقل يدلنا على ما جعلت له آية، قال ابن القيم: "فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل" 4.

ب - الأرض 5:

يقصد بالآيات الكونية الأرضية الآيات السفلية كالأرض والجبال والبحار والأنهار وغيرها. وقد عظم الله من شأن الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها،

1 - سورة الرعد، الآيتان: 13 - 14.
2 - أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب: القول إذا سمعت الرعد: 656/4، برقم: 1869، وصححه النووي في الأذكار، كتاب الأذكار في صلوات مخصوصة، باب ما يقول إذا سمع الرعد: ص 181 برقم (523). وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص 268.
3 - سورة النور، الآية: 42.
4 - مفتاح دار السعادة: 1/ 535.
5 - وهي كرة ضخمة يتكون سطحها من سخور وتربة وماء، ويحيط بها الهواء، وليست كروية تماما، إذ إن في المسافة بين القطبين أقصر من قطرها عند خط الاستواء. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 1/ 511 - 514. وقد ورد لفظ الأرض في القرآن في أربع مائة وواحد وخمسين موضعا، ولم يرد بلفظ الجمع. انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 34 - 42.

كما عظم أكثر من شأن الشمس والقمر والكواكب، قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} ¹، وقرن خلقها مع خلق السماوات في كثير من آي القرآن الكريم، وقال تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} ². فلا داعي إلى تكرار الكلام عن الأرض كآية من آيات الكون، فقد مر ما يغني عن ذلك عند الكلام عن السماء وآياتها، إلا أن مجال الاستدلال الحسي بالنسبة للأرض أوسع منه بالنسبة للسماء؛ إذ الأرض في متناول الحواس، وذلك أن آياتها أقرب إلى الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، لما للإنسان فيها من مستقر ومتاع إلى حين، فمنها خلقه ومسكنه وطلب رزقه بالمشي في مناكبها. كل هذا مما جعل الإنسان يدرك أن الأرض تحوي أنواعا كثيرة من الآيات في الحيوان والجماد والظواهر الطبيعية وغيرها مما تواتر وجوده عن طريق السمع، فهذه الآيات دلائل قدرة الله وعظمته، فالمؤمن كلما رأى أو سمع منها شيئا سبح الخالق، وأثنى عليه بما هو أهله. وقد نبه القرآن إلى ظواهر العناية والإحكام، والتسخير والإتقان في هذه الكرة الأرضية العجيبة، وذكر ذلك بألفاظ وأساليب متنوعة، وفي أوصاف كثيرة، يمكن إجمالها في الآتي:

فمن ذلك أن الله جعلها فراشا وبساطا ومهادا، وذللها للعباد، ووضعها للأنام، وجعل السبل فيها للانتقال في قضاء الحوائج، وأرساها بالرواسي لئلا تميد بهم، وبحيبيها بالماء بعد موتها، وهياها للحرث وإخراج أنواع النبات والزروع والثمار المتنوعة مع تجاورها وتمائلها، وجعل فيها الأرزاق والأقوات والمعاش. ولولا خلق الله ما ذكر وأكثر في هذه الأرض لما كانت موطنًا ملائما لحياة جميع المخلوقات، قال ابن القيم -رحمه الله-: "ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه" ³.

وسأسوق آيات قرآنية تستوقف الباحث للتأمل في منهج القرآن وأسلوب عرضه للآيات الكونية وتوظيفها في الغرض الذي سيقف له، منها الآيات التي يستدل بها على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِفَالًا سَفَّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ⁴، وقال تعالى:

1 - سورة الذاريات، الآية: 20.

2 - سورة الجاثية، الآية: 2.

3 - مفتاح دار السعادة 571/2.

4 - سورة الأعراف، الآية: 56.

{وَاللّٰهُ الَّذِيۡ اَرْسَلَ الرِّيۡحَ فَتُثِيۡرُ سَحَابًا فَسَفَّنٰهُ اِلَىۡ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاٰخِیۡنَا بِهٖ
اِلَآرَضَۢمۡۤ اٰتٰهَا مَوۡتَیَّهَا كَذٰلِكَ النُّشُوۡرُ} ¹.

وقال تعالى: {وَمِنْۢ اٰیٰتِهٖۡ اَنَّكَ تَرٰی اِلَآرَضَۢمۡ خٰشِعَةًۢ بِاِذَاۤ اُنۡزِلْنَا عَلَیْهَا
اَلۡمَآءَ اِهۡتَزَّتْ وَرَبَّتْۖ اِنَّ الَّذِیۡ اٰخِیَاہَا لَمُحِیۡ اَلۡمَوۡتِیۡۤ اِنَّہٗ عَلٰی کُلِّ شَیْءٍ
فَدِیۡرٌ} ².

وقال تعالى: {وَاٰیۡةٌ لَّہُمۡ اِلَآرَضُۢمۡ اَلۡمِیۡتَةُۤ اٰخِیۡنَہَا وَاُخۡرَجۡنَا مِنْہَا حَبًّا
بِمِۡنَہٗ یَاۡکُلُوۡنَ ﴿۳۱﴾ وَجَعَلۡنَا فِیۡہَا جَنَّتٍ مِّنۡ نَّخِیۡلٍ وَّاَعۡنَبٍ وَبَجَرۡنَا فِیۡہَا
مِّنَ اَلۡعِیۡوٰنِ ﴿۳۲﴾ لِیَاۡکُلُوۡا مِنْ ثَمَرِہٖۤ وَمَا عَمِلۡتَہٗ اَیۡدِیۡہِمۡۚ اَقۡلًا یَّشۡکُرُوۡنَ} ³.

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِیۡ مَدَّ اِلَآرَضَۢمۡ وَجَعَلَ فِیۡہَا رَوَاسِیَ وَاَنْۡهَرَاۤ اَۡمۡ
کُلِّ اَلۡثَمَرٰتِ جَعَلَ فِیۡہَا رَوۡجِیۡمٍۭ اِثۡنِیۡنِ یُغۡشِیۡ اِلَیۡلَ النَّہَارِۚ اِنَّ فِیۡ ذٰلِکَ
ءَاٰیٰتٍ لِّقَوۡمٍ یَّتَفَكَّرُوۡنَ} ⁴.

في هذه الآيات السابقة "استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت فحياة، وسلب
خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهدم وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك
الخاصية، فلو كان مستحيلا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات
المختلفة بعد موتها، لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى.

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج
العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها، فتسعد بالطمأنينة والاستقرار. وفي قوله تعالى: {وَإِن

تَعۡجَبْ فَعَجَبٌۭ قَوْلُهُمۡۚ اَۡذَا كُنَّا تُرَابًاۙ اِنَّا لَمِیۡ خَلِیۡ جَدِیۡدٍ} ⁵... الآية، إشارة إلى
أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث ومعناه: إن كان لك عجب من شيء فمن إنكارهم
البعث، فأعجب لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون
إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه،

1 - سورة فاطر، الآية: 9.

2 - سورة فصلت، الآية: 38.

3 - سورة يس، الآية: 32 - 33 وما بعدها.

4 - سورة الرعد، الآية: 3، وما بعدها.

5 - سورة الرعد، الآية: 5.

وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله - سبحانه - هو الفاعل لذلك، والمخترع له، والقادر عليه، وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى"1.

وبالمناسبة أذكر تقريراً في دلالة إحياء الأرض على وجود الخالق سبحانه وقدرته على البعث فيه رد على الطبيعيين الماديين، يقول القاسمي: "من أظهر البراهين على وجوده - تعالى - : الحياة على الأرض إن نباتية أو حيوانية، فإن الحي لا يتولد إلا من حي، وبه يستدل على نفي التوالد الذاتي، وهو زعم تولد الحي من المادة، وذلك لأن المادة خالية من الحياة، ساكنة خاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها، ويستحيل أن تولد حياة في ذاتها أو غيرها، لاسيما العقل الإنساني بجميع قواه وغرائزه، فإنه لا بد له من خالق عالم حكيم، إذ المواد لا تولد عقلاً، ولا تستطيع أن تخرج كائناً جهازياً متصفاً بأوصاف مباينة لنظام المادة"2.

وفي الآيتين الأوليين ذكر إرسال الرياح وتصريفها أي تقليبها في آيات أخرى في عدة مواضع من القرآن "والرياح بالجمع أو الريح بالمفرد كلاهما وردا في القرآن من الآيات الكونية التي امتن الله بها على عباده دالة من تفكر فيها وتأملها أن وراءها خالقاً حكيماً، وهي مأمورة كسائر جنوده - سبحانه - فيقلبها "في مهابها: قبولاً ودبورا وجنوبا وشمالا، وفي أحوالها: حارة وباردة وعاصفة ولينة، وتارة مبشرة بين يدي السحاب، وطورا تسوقه، وأوانة تجمععه، ووقتا تفرقه، وحيناً تصرفه. وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب"3.

إذن، الريح آية من آيات الله يتصرف فيها، "وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله، فلو أراد كل من في العالم قلب الريح من الشمال إلى الجنوب أو إذا كان الهواء ساكناً أن يحركه لتعذر"4.

الدواب:

قد تنوع ذكر الدواب في القرآن ، فتارة تذكر مجملة للدلالة على أنها من آيات الله العظيمة في خلقه كقوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ} ٢١٢ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ - آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوفِنُونَ} ٥٥، ومرة تذكر أجناس منها للتنبيه على ما فيها من وجوه الدلالة على خلقها وبارئها وعلى منافعها كقوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نِّسْفِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَیِّنٍ قِثِّ وَدَمٍ لِّبَنَاءٍ

1 - مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص: 327 وهو نقله من مخطوطة: استخراج الجدل من القرآن الكريم لابن الحنبلي ص 14.

2 - دلائل الوحيد: ص 50، ارجع إليه إن شئت، فإن فيه المزيد في هذا الموضوع.

3 - ينظر: تفسير الطبري: 27/6/3، وتفسير القرطبي: 197/2.

4 - تفسير الرازي: 172/4.

5 - سورة الجاثية، الآية: 2 - 3.

خَالِصاً سَآيِغاً لِلشَّارِبِينَ¹، كما أن الدلالة على ما ذكر حاصلة في النظر إلى خلقها البديع الصنع، كما هو الشأن في النظر إلى صنع الله المتقن في الجبال وأوصاف الأرض، قال تعالى: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِفَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ }².

فعظمة الله وقدرته تتجلى في كل شيء، وليس في الخلق فقط وحتى في هداية الدواب كالنحل والذباب والبعوض وغيرها إلى أداء وظيفتها الكونية في غاية من الدقة والانضباط، قال تعالى: { وَالَّذِي فَدَّرَ بِهِدْيَ }³. أشار ابن القيم إلى هذا المعنى بكلام نفيس أنقله ولو كان طويلاً، قال: "ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والنملة والبعوض والعنكبوت؛ فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير. والازدراء بذلك ميراث من الذين استتكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحصار، فأنزل الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْفَهَا }⁴، فما أغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدرىها وتحتقرها، وكم من دلالة فيها على الخالق وحكمته ولطفه ورحمته، فسل المعطل، من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها؟ ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة، فأغناها بما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير"⁵. فالقرآن الكريم يزخر بالكثير من الحقائق الكونية، ونماذج من مراحل نشأتها وتكونها، والسنن الربانية التي تحكمها، ولو تتبعنا ذلك في القرآن لطل بنا المقام.

وقد أكدنا سابقاً أن السمة السارية في كل الآيات الكونية في القرآن الكريم: أنها منتزعة من الفضاء المحيط بنا، والواقع المعيش حولنا، فالأرض بسهولها وجبالها وبحرها وبرها ونباتها وحيوانها. والسماء بسقفها وشمسها وقمرها ونجومها أمور مدركة محسوسة. وقد عرضها القرآن المجيد في سياق يتسم بالعموم والإجمال دون الخوض في تفاصيلها وأجزائها، كما تم عرضها وسياقها في منهج آخذ بمجامع القلب، يملك الشعور والإحساس، ويستجيش كوامن النفس، ويملك عليك السمع والبصر على نحو لافت للنظر إلى جلالها وجمالها، ودال على الغرض الذي سيقته له، مما يدل على أن هذه الآيات الكونية وما تدل عليه من حقائق علمية لم تذكر

1 - سورة النحل، الآية: 66، ونحوها في المؤمنون، الآيتين: 21-22، وانظر أيضاً سورة النحل، الآيات: 5-8، وآية: 80، وغافر، آيات: 78-80، والحج، آية 86.
2 - سورة الغاشية، الآيات: 17 - 20.
3 - سورة الأعلى، الآية: 3.
4 - سورة البقرة، الآية: 25.
5 - مفتاح دار السعادة: 694/2.

في القرآن الكريم لمجرد الذكر، أو من أجل البيان الأولي للناس، وإنما ذكرت للغرض الذي سبقت في ثناياه، وهو الاستدلال بها على تحقيق قضايا كبرى في الدين الإسلامي، كإثبات وجود الله وربوبيته وألوهيته وصدق النبوات وإمكان البعث.

ولما أمعنا النظر في منهج القرآن المجيد في اختيار تلك الآيات وأسلوب عرضها وتوظيفها في الاستدلال بها تحقيقاً للهدف الذي سبقت له يمكن لنا أن نتزود من هذا المنهج القرآني بعدة منهجية فكرية نقدية، هي جديرة بالعناية من المشتغلين بالنقاش والجدال، وذلك من أجل تنفيذ الباطل وإظهار الحق، ومن ذلك:

- اختيار الأسلوب الذي يجعل الحجة سهلة الإدراك، منتزعة من الواقع الذي تعيشها النفس، ويتملاها العقل، يكفي في إدراكها الوسائل الفطرية التي ركبت في كل الناس، وهذا مما يجعل الحجة تقوم عليهم جميعاً؛ لأنهم يستون في ملكات الإدراك والفهم لها. فالمشاهد المعروضة للإنسان من السماء والأرض واختلاف الليل والنهار، والجبال والحيوان، وما خلق الله في السماوات والأرض على اختلاف أشكاله وأنواعه فهي داخلة في وعيه وعالمه بأي حظ كان له من العلم.

- عرض القرآن للظواهر الكونية متنوعة ومتعددة يدعونا إلى أن تكون الأدلة متعددة الأنواع ومتنوعة الأشكال في الفكر النقدي، كي يحقق هذا التنوع عدداً من الأهداف، منها:

- انتفاء السامة والملل في تلقي ما يعرض من الحقائق العلمية والدينية؛ علماً أن التنوع يملك الحس والشعور في المحسوسات والمعنويات معاً، ولأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحاً¹، ويكون سبباً لهداية من أراد الله له الهداية²؛ لذا نجد القرآن الكريم في منهج عرضه للظواهر الكونية، تارة يخلق بنا إلى فضاءات الأفلاك والعوالم العلوية، وتارة ينزل بنا إلى جبال الأرض، ثم ما يلبث أن ينحدر بنا إلى سهولها ثم الخوض في أمواج البحر ثم الغوص في أعماقه. كل ذلك في تنوع مرن يأخذ بحواسك ومشاعرك.

- الاستحواذ على اهتمام الناس رغم اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم؛ إذ الناس مختلفون فيما يستوقفهم ويثير انتباههم ويسترعي تركيزهم، فالعالم ربما لفت نظره ما لا يلفت نظر التاجر، والصانع ربما استوقفه ما لا يستوقف الفلاح، والبحار وهو راكب البحر يمزج عبابه ربما أخذ انتباهه ما لا يأخذ انتباه البدوي، وهو راع غنمه أو إبله في الصحراء، وهكذا الحال في فئات البشر.

- ومما نلاحظ بشكل واضح أن أكثر الآيات القرآنية التي نتحدث عن الحقائق الكونية، تنتهي غالباً بأفعال مشتقة من الإيمان والتفكير والعلم والعقل والتذكر نحو: يؤمنون، يتفكرون، يعلمون، يعقلون، يتذكرون... وما أشبه ذلك مما يحث المرء إلى مزيد من النظر والتأمل، كما

1 - تفسير التحرير والتنوير: 54 / 26.

2 - مفاتيح الغيب للرازي: 20 / 13.

نرى اطراد حذف المتعلق. والمقرر عند البلاغيين: أن المتعلق يحذف لأغراض بلاغية، منها إرادة العموم، وأنه لا يقصد به فرد معين، وهذا مما يوسع دلالة الكلام؛ إذ لو عين لصاقت دائرة الدلالة. قال صاحب الجوهر المكنون: (ويحذف المفعول للتعميم).

وبناء على هذه السمة القرآنية في الآيات الكونية وغيرها من الآيات ينبغي للباحث أو المفكر الإسلامي الناقد أن تكون ملاحظ عباراته في مناقشاته أو كتاباته عامة الدلالة ومقتصرة على ما يحقق القصد الذي سيقته له. وهذا المقصد يمكن أن يفهم - والله أعلم - من التعبير القرآني "لقوم يعقلون" وما أشبهه مع حذف المتعلق، بأن لا يبتعد في كلامه عما يحقق الهدف، أو ما هو دائر في فلكه وتبع له.

- ومما يلفت النظر أيضا أن كل آية كونية وردت في كتاب الله إلا ويستوي في إدراكها المتقدمون على نحو ما وصل إليه علمهم، والمتأخرون كذلك، إلا من مسخت فطرهم كالنمرود وفرعون وكل من ينكر وجود الله، فإن قلت: قد يعود بالنقض على علم المتقدمين ما تم اكتشافه حديثاً، قلنا: إن القرآن المجيد عام الدلالة وحمّال الوجوه، فإن دلالات أي القرآن تحتل ما وصل إليه العلم الحديث، وتحتل ما سبق من علم المتقدمين، بل من معجزة القرآن أن فيه دلالات لم يهتد إليها الخلق بعد إلى يوم القيامة، فلا يجوز لكل مهتم بالعلوم الطبيعية الكونية وغيرها قصر معنى الآية على ما تم اكتشافه حديثاً من المعاني المادية والمعنوية.

انطلاقاً من هذا المقتضى يحسن بالمناقش والمحاور لأصناف الناس من المنكرين وغير المنكرين، أن يخاطبهم بما يعقلونه ويدركونه، وذلك بالترقي في مخاطبة أصناف البشر، وهو ما يسمى بمراعاة المقام الحالي المتمثل "في جملة من القرائن الحالية التي تجيء من جهة الحوادث والنوازل والتي تتأبى على الحصر والتخمين يدركها المشاهد لها"،¹ في حال المخاطبين كما هو الحال بالنسبة للخطاب القرآني في الآيات الكونية، فمنهم من قرب له صورة البعث بما يعرف من أحوال نفسه، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْبَةِ ثُمَّ مِّنْ عِلْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنَّبِّئَ لَكُمْ وَنُفِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً}،² ومنهم من جسد لهم إمكان البعث بأحوال العالم كإحياء الأرض بإنزال المطر وإنبات النبات، وقدكرت سابقاً عدة آيات في هذا الموضوع، وهناك أناس لا يقنعهم الدليل العقلي الحسي ولا الدليل العقلي المنطقي،

1 - الاقتراض البنيكي والاضطرار الشرعي، للدكتور إسماعيل الحسني: ص 87.

2- سورة الحج، الآية: 5.

فذكر لهم القرآن قصصا واقعية تدل على القدرة الإلهية على بعث الأجساد بعد موتها، كما في قصة موسى مع قومه¹، وقصة الذي مر على قرية² وكلاهما في سورة البقرة، والحكاية التي تنقل وقائع ثابتة بالدليل المتواتر، مثل حكاية القرآن قوما من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}³. قال ابن عباس: " كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون قالوا: نأتي أرضا ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم⁴.

ومن لم يؤمن بكل الأدلة الحسية ولا العقلية وتمادى في جحوده وعناده، فانه تبارك وتعظم أعطانا الحل، وهو قوله سبحانه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ فَمَنْ تَبَيَّنَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ⁵، وقوله عز من قائل: {فَلَا تَفْعَدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}⁶.

هذا ما تيسر لي ذكره في هذا الأصل الحسي النقدي مبرزا إياه من خلال قراءتي لتلك الآيات القرآنية الدالة على معجزات الأنبياء، وإجابة الدعاء، والآيات الكونية الواسعة التي تحسك بمظاهر الجلال والجمال عند التأمل في وصف القرآن الكريم لحقائقها. وهذا ما لا تجده في غير القرآن من النظريات العلمية، فبين كلام الله وكلام الخلق من الفرق كما بين الخالق والمخلوق. فتلك الآيات كلها أدلة حسية وشواهد حق. ومن مميزات الأدلة الحسية أنها سهلة المأخذ، لما فيها من تبسيط الأفهام، وتقريب المعاني، وتنمية شعور الإحساس في الإنسان بهذا الكون المعيش، بخلاف ما نراه من نوع خاص من الأسلوب يتسم بالغموض من حيث الفهم والإدراك في كثير من الأدلة العقلية غير النقلية التي يسوقها النظار والمتكلمون والفلاسفة في تقرير القضايا العامة والحقائق الكبرى بأسلوب قد لا يوافق الفطرة ولا العقل، وفي ختام هذه الأصول النقدية القرآنية أقول يجب على كل خادِم لهذا الدين في حال عرضه للحقائق الدينية والعلمية من أجل إظهار الحق وتنفيذ الباطل أن يتبع الهدى القرآني في أسلوبه الواضح القوي المقنع للقلب والعقل جميعا. وبعد كل ماسبق تبين أن أصول الاستدلال في القرآن تنوعت حسب قوى الإدراك في الإنسان: الفطرة والعقل والحس، وقد تم الحديث عنها بإذن الله بماتيسر، والآن أنتقل إلى إبراز تجليات الفكر النقدي في القرآن في الفصل الآتي، المتجلية في نقد مزاعم اليهود والنصارى وشبهاتهم العقيدية، ونقد مزاعم المستشرقين وشبهاتهم حول القرآن والسنة.

1 - سورة البقرة: 65-72.

2 - البقرة: 258.

3 - سورة البقرة الآية: 241.

4 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 661/1.

5- سورة البقرة، الآية: 255.

6- سورة الأنعام، الآية: 68.

الفصل الثاني:

تجليات الفكر النقدي في القرآن المجيد من خلال دحض شبهات المخالفين

لم يكن الكتاب العزيز أثناء تأسيسه لأصول التغيير وقواعد النقد والحوار كتابا يقتصر على تقديم نظريات علمية فحسب. بل كان دستوراً تطبيقياً في مجال النقد والرؤية الإصلاحية، كما يتجلى ذلك في وقوفه على كثير من وقائع الأمم السابقة، وتعامله مع قضايا المشركين، وشبهات الملحدين، واستخفاء المنافقين، مما لو وقفنا على عرضه من آيات القرآن الكريم لأخذ منا حيزاً كبيراً جداً من هذا الفصل الذي عقد لغاية إبراز ملامح النقد القرآني لمعارضيه من أهل الكتاب والملحدين والمستشرقين؛ لأن موقفهم من القرآن الكريم ليس بموقف جديد أو حديث، بل يشبه إلى حد بعيد ذلك الموقف الذي اتخذته مشركو مكة وغيرهم من القرآن المجيد، فلا يختلف عنه اختلافاً كثيراً. فجل اتهاماتهم وشبهاتهم الزائفة تسير في وجهة متحدة لغاية واحدة، هي أن القرآن مجرد ادعاء ووضع بشري من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وأن صاحبه ليس إلا ساحراً أو مجنوناً، يملأ عليه الكتاب بكرة وأصيلاً، كما جاءت حكاية ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله عز وجل: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} ¹. فهذه الآية جزء من كل، واقتباس يسير من الآيات الإعجازية الكثيرة، المؤسسة لأصول الحوار والحجاج والنقد القرآني، الواردة في سياق دحض آراء المخالفين وإبطال مزاعمهم، ورد شبهاتهم وافتراءاتهم التي تهدف بمجموعها إلى غاية واحدة، هي نسف القرآن الكريم، بدعوى أنه نقولات عن التوراة والإنجيل، وأن المصادر الإسلامية كلها مختلقة مصنوعة في القرن الثاني من الهجرة، وبالتالي فإن القرآن الكريم تم وضعه في القرن نفسه -حسب مزاعم بعض المستشرقين- كما سأفصله في ثنايا هذه الرسالة من خلال المباحث والمطالب الآتية.

المبحث الأول: نقد أهل الكتاب:

يعتبر أهل الكتاب من أعظم الأمم التي مرت من هذا العالم عبر التاريخ البشري، ومن أبرز الأمم السابقة وأكثرها وروداً في الحوارات النقدية القرآنية، حيث وردت بخصوصهما أطول سور القرآن، كالبقرة وآل عمران وغيرهما من السور. وعلى لسان القرآن جرى تسميتهن بمصطلح "أهل الكتاب"، مراداً به طائفتين من الأمم السابقة، هما: اليهود، والنصارى، باعتبارهما الطائفتين اللتين أنزل الله عليهما الكتب السماوية، فعرفا في الأوساط الاجتماعية بالقراءة والكتاب. وحين جاء القرآن الكريم آمن به عقلاؤهم وعزروه ونصروه، وعارضه الباقون وأنكروه، فدعت الضرورة

1 - سورة الفرقان، جزء من الآية: 5.

إلى إبراز منهج النقد القرآني عند مخاطبتهم والتأسيس لمحاورتهم في كثير من آيات القرآن المجيد، كما سنتبينه في المطالب الآتية.

المطلب الأول: معالم الشخصية اليهودية في القرآن (العناد والجحود والحيل):

إن مخاطبة القرآن الكريم لأهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً مختلفة تماماً عن مخاطبة غيرهم من المشركين، نظراً إلى أنهم أهل كتاب، وقد كانوا على علم قبلي ببعض أحكام التشريع، ومن أجل هذا تنوعت الأساليب القرآنية في محاولة إقناعهم ومحاورتهم بين مدح وذم، وتنقيص وتمجيد، وتصديق وتكذيب، وترغيب وتحذير منهم. ولعل أعظم سورة تجذب نظر القارئ الباحث في النقد القرآني لليهود هي سورة البقرة، ولعل أول آية قرآنية تجلب نظره، هي قول الله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ} ¹؛ لكونهم الشديد إلى التقليد وبعدهم السحيق عن التحقيق "وتمرنهم على تكذيب الأنبياء، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد" ². وردت تسميتهم في القرآن أيضاً بـ"بني إسرائيل"، نسبة إلى إسرائيل، الذي سمي به سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى في سياق انتقادهم وإبراز افتراءاتهم ³: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّا قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ} ⁴. وأما تسميتهم بـ"اليهود" فإما اشتقاقاً من فعل هاد ⁵، بمعنى رجع وتاب؛ أخذاً من قولهم: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} ⁶؛ فسموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل ⁷. أو أنه اسم جامد معرب، نسب إلى "يهودا" وهو اسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ⁸، فنسبهم إليه العرب، فقالوا "اليهود". وقد اشتهروا بمعارضتهم الشديدة لكتاب الله العزيز، ومحاولاتهم الكثيرة لتحريف كلام الله وأحكامه عن مواضعها، فحاورهم القرآن الكريم بالحجج والأساليب الإقناعية التي تناسب مقامهم، باعتبارهم أمة كتاب و"أمة التوراة"، وفيما يلي بسط مجموعة من افتراءاتهم التي تثبت عنادهم في تطبيق الشرائع، وجحودهم بآيات الله وأنبيائه ورسله، ومعاداتهم للقرآن المجيد.

وقد سجل لنا القرآن الكريم كل ذلك بين دفتيه، فحفظ في السطور والصدور؛ ليبقى حجة وبرهاناً على مر العصور والدهور، يقصم افتراءاتهم الزائفة، كادعائهم أن النار لن تمسهم إلا

1 - سورة المائدة، جزء من الآية: 84.
2 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تفسير الإمام ابن عجيبة الحسني، 69 / 2، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، ط 1419 هـ.
3 - ينظر: تفسير الإمام ابن جرير الطبري، 7 / 6، والمحرم الوجيز = تفسير الإمام ابن عطية، 472 / 1.
4 - سورة آل عمران، من الآية: 93.
5 - أساس البلاغة، للزمخشري، ص 707.
6 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 156.
7 - الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري، 176 / 2، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1412 هـ / 1992 م.
8 - ينظر: التاريخ اليهودي العام، لصابر طعيمة، ص 34 وما بعدها، وهذه حياتي، للدكتور أحمد ديدات، ص: 70.

أياما معدودة، فرد عليهم القرآن بقياس الخلف¹ قائلا: {فَلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَفُؤُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ²، فقبل أن يرد عليهم لإثبات كذبهم أثبت الأمر بإثبات نقيضه وهو إن كنتم قد اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله وعده، وذلك باطل؛ لأن الله لم يعطهم أي عهد، فتقرر بطلان ما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة³. وفيما يلي مجموعة من القضايا التي تصور جحود اليهود وافتراءاتهم، وشدة عنادهم مع أنبيائهم ورسولهم، كما خلدها القرآن الكريم بداية من أعظم سوره: سورة البقرة.

أولا: اليهود والبقرة:

رسمت لنا سورة البقرة من القرآن الكريم صورة واضحة وتشخيصا دقيقا لواقع اليهود، بتسجيلها مجموعة من المواقف المتنوعة التي تكشف طبيعة اليهود في تصرفاتهم وتعاملاتهم اليومية مع أنفسهم ومع غيرهم، كما حفظت لنا بعضا من تاريخهم الحافل بوقائع الكيد والعناد والخذلان والحسد والغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق. فكان ذلك هو السياق العام الذي انطلق منه القرآن في تسجيل قصة البقرة، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ^{١٢} ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ} ⁴، فبغدرهم ونقضهم لعهد الله ونبيه استوجبوا المسخ وحرمان النعم، كما هو وارد متكرر في القرآن. وقد أثبتت سورة البقرة أن هذا الخلق الذميمة متأصل في الشخصية اليهودية على مدى تاريخهم وسيرتهم مع أنبياء الله ورسوله، ومع غيرهم من العالمين. جاء في القرآن بعد قصة البقرة: {أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ⁵. فإن كلمة {كلما} لافتة للنظر، فهي "تدل على أن نقض العهد عملية متكررة عند اليهود، فكل عقد يعقدونه يقومون بنقضه أيا كان الطرف الآخر الذي عقده معه؛ لأن (كلما) حرف يفيد التكرار والاستمرار، ويدل على تحقق وتوافر وجود جوابها عند وجود شرطها...⁶.

1 - قياس الخلف هو: إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وهو برهان إلزام لا برهان إيضاح. ينظر: المعجم الفلسفي، لصليبا، 1/ 189.

2 - سورة البقرة، الآية: 79.

3 - المناهج العقلية التي استخدمها القرآن الكريم في الحوار والجدل مع أهل الكتاب، لقيس سالم مجلي المعاينة، منشور في مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 44، العدد: 1، السنة: 2017، ص: 141.

4 - سورة البقرة، الآيات: 62 - 64.

5 - سورة البقرة، الآية: 99.

6 - الشخصية اليهودية، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 244.

ثم توالى الآيات القرآنية في كشف شخصية اليهود المتسمة بالعناد والمكر والتطلع في فهم ألفاظ الوحي المنزل من عند الله كما تصوره قصة البقرة، ومن تمامها: {فَالَوْ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ} ٦٨ فالَوْ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٦٩ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْفِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا فَاَلَوْ أَنِّي جِئْتُ بِالْحَقِّ فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} ٧٠، فتعنتوا في الفهم وتتطعوا في التنزيل، فسألوا موسى ما كان الله قد كفاهم كلفته بقوله: "اذبحوا بقرة"؛ لأنه جل ثناؤه إنما أمرهم بذبح بقرة من البقر "أي بقرة شأوا ذبحها من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع أو صنف دون صنف، فقالوا بجفاء أخلاقهم وغلظ طبائعهم وسوء أفهامهم، وتكلف ما قد وضع الله عنهم مؤونته، تعنتا منهم" ٧١.

لقد عانى أنبياء الله المرسلون إلى بني إسرائيل معاناة شديدة، تعرضوا فيها لشتى أنواع التنقيص والتكيل، والتكذيب والتقتيل، وأصناف المعاندة والمكابرة. وقد سجل القرآن الكريم مواقف عديدة ووقائع كثيرة، حافلة بما تعرض له أنبياء الله المرسلون من التعذيب والتقتيل من قبل اليهود. جاء في القرآن بعد قصة البقرة: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَعَّلْنَا مِمْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيفًا تَفْتُلُونَ {¹}. فكانوا كلما بعث إليهم نبي يحدد شريعة موسى ويقيم التوراة نبذوه وحاربوه، "وانما يعني جل ثناؤه بقوله: (وقفينا من بعده بالرسول)، أي أتبعنا بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة؛ لأن كل من بعثه الله نبيا بعد موسى صلى الله عليه وسلم إلى زمان عيسى ابن مريم، فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: (وقفينا من بعده بالرسول)، يعني على منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به"². وقد أكد القرآن الكريم في مواضع كثيرة أن هذا نهج اليهود في معاملة أنبيائهم ورسولهم، كما يؤخذ ذلك من قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَفْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}{³}. إلى غير ذلك من المواقف الدالة على استخفافهم بكلام الله ورسالاته، وحقدهم الشديد الذي بلغ بهم قتل أنفسهم وأنبيائهم في مقاطعة صارخة مع العهد الغليظ الذي عاهدوا عليه ربهم وخالقهم. {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيفًا مِنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}{⁴}. وأكد القرآن ذلك أيضا في سياق حديثه عن محاولتهم قتل نبي الله عيسى بن مريم: {فَبِمَا نَفْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ فُلُونَا غُلْفًا بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٤﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٥﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}{⁵}.}

ثالثا: اليهود وبعثة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم:

على غرار عادة اليهود في المكر والمكيدة ونقض العهود، تعاملوا مع بعثة الرسول الخاتم الذي انتظروه ليعزروه وينصروه ادعاء وزعما، لكنهم اصطدموا بالدعوة المحمدية ورسالته،

1 - سورة البقرة، الآية: 86.

2 - تفسير الإمام الطبري، 2/ 318.

3 - سورة آل عمران، الآية: 112.

4 - سورة البقرة، الآيتان: 83 - 84.

5 - سورة النساء، الآية: 154 - 156.

خاصة بعد نزوله في المدينة (يثرب)، لأن القرآن الكريم في الفترة المكية الأولى أسس لأرضية مشتركة هدفها الجمع بين أهل الكتاب على اعتبار وحدة المصدر "الذي صدر منه القرآن والكتب السماوية، ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب، وتأييد القرآن للنبي والأنبياء السابقين والكتب السابقة والتنويه بهم، واستشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة رسالته النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم لشهادة الإيجابية، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها، كما يلهم طبيعة استجابتهم للدعوة الإسلامية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها"¹، لكنهم سرعان ما انقلبوا على الرسالة المحمدية، "خصوصاً أن الدعوة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم ليست مقصورة على الأميين من العرب، بل موجهة أيضاً لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهي دعوة عالمية عامة شاملة ومتممة لكل ما سبقها من الأديان الكتابية ومصححة لها، ومهيمنة عليها"². حينها أحس يهود يثرب بالخوف على مصالحهم الشخصية، فلا يضمن لهم البقاء في المدينة إلا القضاء على دعوة النبي الجديد، فأخذوا يكيدون ويمكرون ويتحينون الفرصة المناسبة لقتله صلى الله عليه وسلم، فتعرض لعدة محاولات لاغتياله، والتخلص منه، والقضاء على دعوته، فكان من بين محاولاتهم المتكررة التي باءت بالفشل:

- تسميمه من قبل امرأة يهودية بعد فتح خيبر. جاء في صحيح البخاري: "لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود، فجمعوا له فقال: (إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه)؟ فقالوا نعم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (من أبوكم)؟ قالوا فلان، فقال: (كذبتكم بل أبوكم فلان) قالوا: صدقت (...). ثم قال (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه)؟ فقالوا نعم يا أبا القاسم قال: (هل جعلتم في هذه الشاة سما)؟ قالوا: نعم. قال: (ما حملكم على ذلك؟). قالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح، وإن كنت نبيا لم يضرك"³.

- إلقاء الصخرة عليه حين خرج الرسول إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، فبيتوا الغدر وقالوا: "إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟"⁴.

- حصاره يوم الخندق، وتأليب كافة الأعداء عليه، وتحزيب الأحزاب لتشتيت شمله ونسف رسالته، كما هو مبسوط في كتب السير والمغازي مما يبين فظاظة اليهود وقسوة قلوبهم، كما في التعبير القرآني البليغ: {ثُمَّ فَسَّتْ فُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ فَسُوءًا وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَّبَجَّرُ مِنْهُ أَلَأَنْهَرُ وَإِنَّ

1 - دراسة في السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، ص: 278، نشر: مؤسسة الرسالة - دار النفائس، ط 10، 1406 هـ / 1986 م.

2 - منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين، د. نادية الشرقاوي، ص: 63. نشر: صقحات للدراسات والنشر.

3 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الجزية، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، 3/ 1156، الحديث رقم: 2998.

4 - السيرة النبوية، لابن هشام، 3/ 108. تعليق وتقديم وضبط: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل.

مِنْهَا لَمَّا يَشْفَوْ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ¹.

إلى غير ذلك من المكاييد التي يكيدونها لدين الله، وقد حذر منها القرآن الكريم في غير
ما سورة وآية. ومن ذلك ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْبُوا وَاصْبَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ²} وَلَسَ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمْ³.

تبين من خلال ما سبق أن عناد اليهود ومكرهم الخبيث قديم ليس بحديث، ابتداءً منذ عهد
رسول التوراة نبي الله موسى عليه السلام. وهو ما دفعهم إلى رمي القرآن ورسالة الإسلام
بافتراءات ومزاعم لا تقوم على سند، كما سنقف عنده في المطلب الأخير.

المطلب الثاني: معالم الشخصية النصرانية في ضوء القرآن الكريم:

أطلق القرآن على أتباع المسيح نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام اسم "النصارى"،
دون استعمال مصطلح "المسيحيين"؛ لما بين اللفظتين من فرق جوهرى يذكره الباحثون في
مجال مقارنة الأديان. فإن "النصارى" حسب بعض الدارسين هم أتباع نبي الله عيسى الحقيقيين،
بدليل قول الله تعالى: {كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنِ أَنْصَارِي إِلَى
اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ⁴}، فقد سُمي القرآن من استجاب لدعوة المسيح
ونصره وآزره بالنصارى⁵. فيما رجح بعض الدارسين تسميتهم بالمسيحيين؛ لأن النصرانية كفر
كما يؤيده الاستعمال القرآني الوارد في سياق شركهم: {وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ
اللَّهِ⁶} بيد أن الذي عليه المصطلح القرآني والحديثي هو تسميتهم بالنصارى¹ في الغالب

1 - سورة البقرة، الآية: 73.

2 - سورة البقرة، الآية: 108.

3 - سورة البقرة، جزء من الآية: 119.

4 - سورة الصف، الآية: 14.

5 - ينظر: معجم مفردات القرآن، للراغب الإصفهاني، ص 516، تحقيق: نديم مرعشلي، مطبعة التقدم العربي، دار الفكر، بيروت، 1392هـ/1972م، والزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر ابن الأنباري، 2/ 225، تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن، دار الرشيد للنشر، العراق، 1399هـ/1979م، والنصارى في القرآن الكريم والتفاسير، لعواد علي، وحسن البطوش، وعلاء الرشق، بإشراف يوسف قزماخوري، ص: 34، 51، ط 1، 1998م، إصدارات المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان.

6 - سورة التوبة، الآية: 20.

الأعم، كما سماهم بالحواريين، وبالمؤمنين أحياناً، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا
 أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَمْيُضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ
 يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} ².

وفي هذا السياق أكد القرآن المجيد أن النصارى أقلّ عداوة وأخفّ إيذاء من اليهود على
 العموم، كما ينص عليه قول الله عز وجل: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا
 إِنَّا نَصَارَى} ³؛ ذلك لأن معركة الرسالة الإسلامية مع النصارى بداية الأمر لا تعدو أن تكون
 كلامية وحجاجية فحسب، فلم يعلنوا حرباً مبيدة على الإسلام ونبيه كما صنع اليهود. غير أن
 النصارى بدورهم رفضوا هيمنة الشريعة الإسلامية وشمولها لسائر البشرية، فامتنعوا عن اعتناقها
 والانضواء تحت لوائها، مع أنهم كانوا على بينة من أمرها، ويعرفون صدقها وصدق صاحبها
 كما يعرفون أبناءهم ⁴، ولئن كانوا أخفّ عداوة، وأقلّ قساوة، وألين جانباً من اليهود، فإنهم ليسوا
 أنقص درجة منهم في العناد والمكابرة، فطفقوا يقيمون دعاوى وافتراءات بغرض التضليل وادعاء
 أن لا هدى إلا هداهم، وأن لا دين إلا النصرانية. وقد سجل لنا القرآن الكريم مجموعة من تلكم
 الادعاءات والمزاعم التي تبناها النصارى عنادا ومكابرة، أقف عند أبرزها فيما يلي.

أولاً: إن الدين الحق هو النصرانية، وإن المسلمين ليسوا على شيء:

من أبرز القضايا التي وقف عندها القرآن الكريم باعتبارها أصل الفرق والاختلاف وسببه
 قضية التعالي النصراني على المسلمين، حيث يعتبرون أن الدين الأحق بالاتباع هو المسيحية،
 وأن لا دين غيره. قال تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} فُلْ بَلْ مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيباً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ⁵. فقد أخرج ابن أبي حاتم في سبب
 نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "قال ابن سوريا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما
 الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله فيهم:
 {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} ⁶. وقال الواحدي: "قال ابن عباس: نزلت

1 - دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، ص: 103، نشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 1، 1414هـ.

2 - سورة المائدة، الآية: 85.

3 - سورة المائدة، الآية: 84.

4 - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن، للدكتور محمد جمعة عبد الله، ص: 311، جامعة أم القرى، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1436 هـ / 2015م.

5 - سورة البقرة، الآية: 134.

6 - تفسير ابن أبي حاتم، 1/ 358.

في رءوس يهود المدينة: كعب بن الاشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر ابن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبينا أفضل الانبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الاديان، وكفرت بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن، وقالت النصارى: نبينا أفضل الانبياء، وكتابنا الانجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الاديان، وكفرت بمحمد والقرآن. وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك"1. وهو مطلب نصراني يستمد أسلوبه من منطق التعالي الذي يعامل به أهل الكتاب -على العموم- المسلمين، وقد حكى القرآن مواقف منه في غير موضوع، ومن ذلك: قوله تعالى: {وَفَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْ أَبْنَوْا لََّهِ وَأَحِبُّوا ۖ}2، فكان النصارى يدعون أن الله يعاملهم معاملة الأب لابنه والحبیب بحبیبه، عطفًا ورحمة وبرًا وشفقة وحبًا؛ لما كانوا عليه من اعتقاد في المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام3.

ثانيا: لا يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا:

من بين المواقف المتعالية التي سجلها القرآن في مكابرة الطرف النصراني وعناده: أن الجنة حكر على أتباع المسيح، فلا سبيل لدخولها إلا لمن كان نصرانيا على ملتهم، كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}4. وأصل الكلام كما ذكر المفسرون: "قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين هذين المقولين وجعلا مقولا واحدا، اختصارا وثقة بفهم السامع"5، وفي قول الله تعالى: {تلك أمانيتهم} إشارة إلى طبيعة الشخصية اليهودية والنصرانية في خلق المزاعم وافتراء الأكاذيب، وبيان "أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديمًا ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمتله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين، ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوئته وثباتا على شركهم"6. فكان من معجزة القرآن الخالدة أن يصف كل أمة بما يناسبها وأن يسجل عليها ما يلزمها ولا يفارقها من الصفات الرذيلة في كل أجيالهم من

1 - أسباب النزول، للواحي، ص: 25، دار الباز للنشر والتوزيع، نشر: مؤسسة الحلبي.

2 - سورة المائدة، الآية: 20.

3 - ينظر: تفسير الفخر الرازي، 328 / 11، وفي ظلال القرآن، للسيد قطب، 726 / 2، وتفسير الأولوسي، 108 / 2.

4 - سورة البقرة، جزء من الآية: 110.

5 - تفسير الأولوسي، 357 / 1، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، 672 / 1.

6 - التحرير والتنوير، 675 / 1.

قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا¹. فكان التعالي على المسلمين دأبهم وديدنهم على سنن سلفهم من اليهود: {وَقَالُوا لَسْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً²، لا اعتقادهم الأفضلية في أنفسهم، وأن غيرهم من سائر الأمم لا يرقى إلى رتبتهم ومكانتهم عند الله، فهم أحباؤه وأصفياءه} {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ³}.³

ثالثا: سعي النصارى في تضليل المسلمين وإرجاعهم عن الكلمة السواء:

لم يأل الصليبيون جهدا في ثني الناس عن اعتناق الديانة الإسلامية على مر تاريخها منذ بدايتها إلى الآن، وبذلوا كل جهودهم واستفرغوا جميع ما أوتوه من قوة وطاقة في سبيل تضليل العالمين، ونشر افتراءات وأكاذيب عن الديانة الإسلامية، هدفها: التشكيك في الوحي وصدق الرسالة المحمدية ونسف الهوية الإسلامية من أساسها عن طريق استعمال أساليب المكر والخداع وكتمان العلم، وتلبيس الحق بالباطل {وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ⁴}. وقد حكى القرآن المجيد ببعض من التفصيل محاولات المسيحيين المتكررة في تحقيق هدفهم الخبيث، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁵، ولهم بهذا الخصوص محاولات ومواقف متكررة، لخصها القرآن في قوله تعالى: {وَلَسْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ⁶، في إشارة إلى الحيل والخدع التي يقومون بها من أجل ثني الناس عن الإسلام وصددهم عن اتباع الرسول محمد. وهو عين ما سجل عنهم القرآن في آية أخرى: {وَقَالَتِ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ⁷. والغرض من حيلتهم وخطتهم الدنيئة هذه: تشكيك ضعفة المسلمين فيؤمنوا ببعض ما أنزل الله على رسوله محمد من الشرائع أحيانا ويكفروا بها أحيانا أخرى، فيظن الناس أن تكذيبهم هذا ليس مبنيا على الحسد والعناد، وإلا لما آمنوا له أول الأمر⁸. وفي سبيل تحقيق هدفهم هذا القائم على غير أساس؛ زوروا الروايات التي وردت في الإنجيل توافق آيات

1 - في ظلال القرآن، للسد قطب، 33 / 1.

2 - سورة البقرة، جزء من الآية: 79.

3 - سورة المائدة، جزء من الآية: 20.

4 - سورة آل عمران، الآية: 68.

5 - سورة آل عمران، الآية: 70.

6 - سورة البقرة، الآية: 119.

7 - سورة آل عمران، الآية: 71.

8 - المحرر الوجيز، للإمام ابن عطية، 257 / 8.

القرآن، حتى لا تنقض مزاعمهم وافتراءاتهم حول القرآن والرسالة الإسلامية، حتى بلغ بهم الحقد أن يضعوا روايات زائفة لا علاقة لها بالوحي ولا صلة لها برسالة الإنجيل، كما شهد به القرآن من تحريفهم للكلام عن موطنه وموضعه، إما استبدالاً للكلمات، أو بإخفائها وكتمانها، أو بالزيادة والنقصان فيها¹. وقد كشف القرآن أفاعيلهم هذه في آيات كثيرة من القرآن، كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْبُوهَا عَنْ كَثِيرٍ}²، في إشارة لطيفة إلى محاولة النصارى لإخفاء صفات رسول الله والبشارة به في الإنجيل³.

وهذا ما دفع كثيرا من علماء المسلمين إلى الاهتمام بدراسة المسيحية وعقائدها، لتبيين ما يتخبط فيه أصحابها من تناقض صارخ وتهافت واضح. وفي ذلك يقول الجاحظ في رسالته (المختار في الرد على النصارى) "ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا: إن عزيرا ابن الله (...) وحكى عن النصارى أنهم قالوا: المسيح ابن الله، وقال: {وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}⁴، وقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}⁵، لكنت لئن أُخِرت من السماء أحب إلي من أن أُلْفَظَ بشيء مما يقولون، ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم إلا بالإخبار عنهم والحكاية منهم"⁶، ويقول ابن حزم في ملله⁷ قريبا مما قاله الجاحظ، رحمهما الله جميعا.

هذه بعض الاقتباسات القرآنية الدالة على ما كان عليه أهل الكتاب يهوديهم ونصرانيهم - من الجحود والعناد، قبل بعثة الرسول محمد وبعد بعثته وهجرته إلى يثرب، قدمتها بغرض تبين شخصيتهم الحقيقية وكشف أبرز خصائصهم وخصالهم، لأعقب عليها بمنهج القرآن في نقد آرائهم ودحض مزاعمهم، والرد على افتراءاتهم وشبهاتهم العقدية على الخصوص في المطلب الآتي.

المطلب الثالث: النقد القرآني لمزاعم أهل الكتاب وشبهاتهم:

انطلاقاً من خصال العناد والمكابرة والتعالي وأساليب الحيل والخداع، التي لا تكاد تفارق أهل الكتاب حسب ما كشفه القرآن الكريم وسجله على غالبيتهم، وأقرته تأليفهم⁸، فإنهم ابتدعوا

1 - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، للدكتور محمد جمعة عبد الله، ص: 101.

2 - سورة المائدة، الآية: 16.

3 - ينظر: تفسير الرازي، 11/ 326، وتفسير الألوسي، 3/ 268.

4 - سورة التوبة، الآية: 20.

5 - سورة المائدة، جزء من الآية: 75.

6 - الرد على النصارى، ضمن رسائل الجاحظ، 3/ 334، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، نشر: دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411 هـ / 1991م.

7 - الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم الظاهري، 1/ 111 - 112، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ط 2، 1416 هـ / 1996م.

8 - جاء في التلمود -على سبيل المثال-: "يجوز لليهودي أن يلجأ إلى الأكاذيب (الحيل) لكي يراوغ أمياً" (بابا قاما 113 n). من كتاب: التلمود كتاب اليهود المقدس، ص: 395.

مجموعة من الافتراءات والمزاعم على الله تعالى، خاصة في مجال الاعتقاد وتوحيد الألوهية، فجاء القرآن لمحاجبتهم وكشف عوراتهم، حتى لم يجد المنصفون منهم بدا من الاعتراف والإقرار بها على أنفسهم، كما جاء في رسالة البروفسور جفري باريندر (عيسى في القرآن) قال: "إن المعاني العميقة والهامة التي يتضمنها القرآن غير معروفة لدى عامة المسيحية، كما كانت شهادة القرآن بالتوحيد وشهادته بكون عيسى ومريم مجرد بشر لا غير صحيحا مهماً أشد ما كانت الكنيسة في حاجة إليه، غير أنها تجاهلته، وعلى المسيحية أن تعيد صياغة مصطلحاتها، مثل: ابن الله، والثالوث، والخلاص، والنظر إليها من منظار جديد (...). لأن المثل الذي أعطاه الإسلام لأهل الكتاب يفرض علينا الخجل من أنفسنا"¹. فسولت لهم أنفسهم أن يقفوا أمام الحقائق القرآنية الثابتة؛ ليتحدوا مسائله العقدية والإيمانية، فكان من أبرز ما سطره القرآن بهذا الخصوص: قضية التثليث، وادعاء اليهود أن عزيز ابن الله والنصارى أن عيسى ابن الله، وقضية ادعائهم يهودية أبي الأنبياء إبراهيم أو نصرانيته. فهي ثلاث قضايا حاجهم فيها القرآن الكريم وأفحمهم فيها، كما سنتبينه في الآتي.

أولاً: نقد القرآن لقضية التثليث:

من أبرز الافتراءات التي يرمي بها النصارى كتاب الله المجيد أنه اعترف بعقيدة التثليث من خلال حكايته لقصة عيسى وأنه كلمة من الله وروح القدس، فقالوا: إن القرآن وافق المسيحية في معتقداتها خاصة فيما يتعلق منه بتأليه المسيح². قال القمص زكرياء بطرس: "عقيدتنا: الله واحد في ثالوث: الأب، والكلمة، والروح القدس (...). فلا نقصد من التثليث أن هناك ثلاثة آلهة، بل إله واحد وهذا الإله الواحد موجود بذاته ويطلق على ذلك الأب: ناطق بكلمته، ويطلق على ذلك الابن: حي بروحه، ويطلق على ذلك الروح القدس (...). ويذكر القرآن هذا الثالوث في آياته كما يتضح من الآتي: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ۖ أَلْفِيهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ³، فيتضح من هذه الآيات الثالوث الذي نؤمن به ذات الله، والكلمة، والروح القدس"⁴. ولا يخفى ما في هذا الزعم من كتم الحقائق والدسياسة في محاولة التأسيس لعقيدة التثليث من أقدم كتاب رد على التثليث بعبارات لا تحتل معنى آخر، فإنهم بعد أن قسموا الله إلى ثلاثة أقانيم⁵ أو أجزاء لكل منها طبيعة الله كما يدعون، قاموا بتوزيع أعمال الكون بينها، يختص كل واحد منهم بعمله، "فالله الأب ينسب إليه الخلق والتبني والدعوة،

1 - نقلا عن كتاب: المسيحية والإسلام والاستشراق، للدكتور: محمد فاروق الزين، ص: 71 - 72، نشر: دار الفكر، دمشق، ط 1، 1421 هـ / 2000م.

2 - تنزيه القرآن عن دعوى المبطلين، للدكتور: منقذ بن محمود السقار، ص: 175، نشر: تكوي للدراسات والأبحاث، ط 1، 1436 هـ / 2015م.

3 - سورة النساء، جزء من الآية: 170.

4 - بين المسيحية والإسلام، للقمص زكرياء بطرس، ص: 6 - 9.

5 - جمع أقنوم، ويراد بها: شخص، أو كائن مستقل بذاته. والأقنوم: أطلقته النسطورية أصحاب نسطور الحكيم وهم فئة من النصارى، وقالوا: إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة. ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة نسر، ص: 620، ومادة قنيم، ص: 1487، والمصباح المنير، للفيومي، 601 / 2، مادة نزا. وفي: ويستعمل عند المسيحيين للدلالة على الثالوث الأقدس. مادة أقنوم: 46 / 1، و 443 / 2.

وأما الله الابن فينسب إليه فداء البشرية وغفران الخطايا والذنوب. أما الله الروح القدس فينسب إليه منح الميلاد الثاني، والحياة الطاهرة للبشر، وتقديس النفوس¹.

جاء القرآن المجيد فصح المسار، ونفى هذا الادعاء، ونسف هذا الافتراء بحجج عقلية وبراهين منطقية وعقلية دامغة تدل على أن المسيح بشر مخلوق كسائر الناس، وأن الله واحد لا يشاركه في ملكوته أحد، فأنكر عليهم ذلك بقوله تعالى: {لَفَدَّ كَبَرُ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ فَلْقَمَنَّ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}². وقد اتسم الاستدلال القرآني على المخالف بوضوح الدلالة، وسهولة صياغة الأدلة ويسر فهمها وبعدها عن التعقيدات³. قال الرازي: "وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط. والتقدير: إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا، فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره"⁴، فاستدل عليهم بالبرهان العقلي المنطقي الناسف: "من يملك من أمر الله وإرادته شيئا يدفع به الهلاك والإعدام عن المسيح وأمه، وعن سائر أهل الأرض، إن أراد عز وجل أن يهلكهم ويبيدهم؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتجهيل، أي إن المسيح وأمه من المخلوقات التي هي قابلة لطوء الهلاك والفناء عليها كسائر أهل الأرض، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا، لا يوجد أحد يستطيع أن يرد إرادته، لأنه هو المالك لأمر الوجود كله"⁵. ومن المقدمات المنطقية التي سلكها القرآن في سبيل الرد على هؤلاء ونفي تعدد الآلهة: ما يسمى بطريقة البرهان العقلي فيستدل به على المطلوب الذي جعل دليلا عليه، كما في قوله عز وجل: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}⁶، فهي من قياس الخلف المشتمل على قضية شرطية متصلة؛ لاشتغالها على حكم بوجود اللزوم بين تعدد الآلهة بحق وفساد السماوات والأرض، أي: ولكن الفساد غير حاصل، والنتيجة: إذن فالتعدد غير حاصل⁷. وقد أشار الإمام الشاطبي إلى أن هذا الضرب من الأدلة يستدل به على الموالف والمخالف، لأنه أمر معلوم عند من له عقل⁸، والآيات التي تنفي تعدد الآلهة بالأقسة المنطقية والبراهين العقلية كثيرة ومتنوعة، منها قول الله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا

1 - ينظر: تفسير المنار، 6/ 254، وكتاب: الله واحد أم ثالث، للدكتور محمد مجدي مرجان، ص: 27.

2 - سورة النساء، جزء من الآية: 19.

3 - الجدل في القرآن، لمحمد التومي، ص: 167.

4 - تفسير الفخر الرازي، 11/ 328.

5 - تفسير المنار، 6/ 256.

6 - سورة الأنبياء، جزء من الآية: 22.

7 - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: 89، نشر: دار القلم، دمشق، ط 4، 1414 هـ / 1993 م.

8 - الموافقات، للشاطبي، 4/ 100، بتحقيق: فضيلة الدكتور الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، ط 1، 1438 هـ / 2017 م.

خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ¹. فيستحيل عقلاً أن يكون المخلوق إلهاً، وعيسى مخلوق، والخالق الذي هو الله غير مخلوق.

هذا فيما يتعلق بالرد على ادعائهم بأن القرآن قد اعترف بالوهية المسيح وأن الله ثالث ثلاثة عن طريق العقل، وأما عن طريق الروايات النقلية فإن القرآن كان صريحاً منذ الفترة المكية بأن عيسى نبي الله ورسوله ليس إلا، فكل اتهاماتهم للقرآن بأنه يعترف بالتثليث باطلة نفسها القرآن نفسه. ومن أوائل السور المكية التي نصت على ذلك، وروت قصة مولده بتفصيل -على خلاف ما يدعون- سورة مريم المكية، وجاء فيها: {بَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً²}، {بَاتَتْ بِهِ فَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، فَالُوا يَمْرِيماً لَفَذَ جِئْتَ شَيْئاً قَرِيّاً³}، إلى أن ورد في آخرها التصريح بما يخالف معتقداتهم وافتراءاتهم على نبي الله عيسى على الحقيقة: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ۖ وَجَعَلَنِي مُبَرَكَاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ۖ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَفِيّاً ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ۖ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ⁴}، ثم تتباعت الآيات القرآنية في السور المدنية تنفي ما يدعي النصارى من عقيدة الثالوث، وأن المسيح مجرد إنسان ولدته مريم العذراء، وكانا يأكلان الطعام ويقضون حاجاتهم كسائر الناس، فقال تعالى: {لَفَذَ كَعْبَرِ الَّذِينَ فَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ (...)} مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتِمَّتْ صِدْقُهُ كَانَا يَا كُلِّ الطَّعَامِ⁵. فكانت كلها آيات إعجازية تدعو المنصفين من النصارى إلى تصحيح مسارهم العقدي وترك ما هم عليهم من الغلو والتتبع بالطف العبارات وألین الإشارات: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْفِيهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

1 - سورة المومنون، الآية: 92.

2 - سورة مريم، الآية: 21.

3 - سورة مريم، الآية: 29.

4 - سورة مريم، الآيات: 29 إلى 33.

5 - سورة المائدة، الآية: 75 و 77.

وَاحِدٌ¹، ومعنى {كلمة الله} في الآية أنه مخلوق بكلمة الله كما خلق آدم، لا أنه كلمة الله على الحقيقة؛ لأن عيسى يموت وكلمة الله لا تموت². فقد نسفت هذه الآية الكريمة الثالث بجميع أشكاله وصوره، ومحته من الوجود، فهل بعد هذا يقولون: إن في القرآن إشادة بالثالث؟

ثانيا: النقد القرآني لنسبة الولد لله:

من افتراءات أهل الكتاب التي كر عليها القرآن المجيد بالنقد والنقض: زعمهم أن الله ولدا، حيث ادعى اليهود أن عزيز ولد لله، كما ادعت النصارى أن المسيح ابن الله، وهو ما حكاه عنهم القرآن في قول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَفَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}³، ذلك حين جاء النصارى إلى رسول الله وقالوا: "ألست تقول: إن عيسى روح الله وكلمته، فهذا يدل على أنه ابن الله"⁴، وأخرج المفسرون في سبب نزول الآية عن ابن عباس قال: "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامٌ بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا؟ وأنت لا تزعم أن عزيز ابن الله، فأنزل الله الآية"⁵. هكذا كانت جماعة من اليهود تقدس عزيزا حتى اعتبرته ابنا لله، وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم⁶. وفي إنجيل مرقس: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب"⁷. فهي فرقة من فرق أهل الكتاب تدعي أن المسيح ليس إلها ولا ثالث ثلاثة، وإنما هو ابن لله. قال ابن جرير الطبري: "وهذا قولٌ كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكية والنسطورية، كانوا فيما بلغنا يقولون: "الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أباً والداً غير مولود، وابناً مولوداً غير والد، وزوجاً منتبّعة بينهما"⁸، وهو ما يفهم أيضا من إنجيل يوحنا الذي ورد فيه: "الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الْآنُ حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ وَالسَّامِعُونَ يُحْيَوْنَ"⁹.

فخصص القرآن الكريم آيات كثيرة تبرهن على فساد هذه المزاعم، وأن الله لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. ومن أظهر الآيات الناطقة ببطلان هذه المعتقدات الكهنوتية قول الله تعالى بعد أن حكى ادعاءهم: {ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَتَلَهُمُ اللَّهُ ابْنَىٰ يُوبِخُونَ ﴿٢٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ

1 - سورة النساء، الآية: 170.

2 - رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة عبد الله، ص: 30.

3 - سورة التوبة، الآية: 30.

4 - تفسير الفخر الرازي، 7 / 136.

5 - ينظر: تفسير ابن أبي حاتم، 7 / 226، وتفسير الطبري، 14 / 202، وتفسير الرازي، 16 / 28.

6 - تفسير المنار، 10 / 286.

7 - إنجيل مرقس، الفصل الثالث عشر، نقلا عن تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، 6 / 78.

8 - تفسير الطبري، 10 / 482.

9 - إنجيل يوحنا، الباب الخامس، الآية الخامسة والعشرون.

إِلَهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا امْرُؤًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ،
 عَمَّا يُشْرِكُونَ¹. فاستخدم القرآن قياس الشبه²؛ لإبراز مشابهة أهل الكتاب للمشركين عبدة
 الأوثان في نسبة الولد لله، واعتبر القرآن اعتقادهم ببنوة المسيح وعزير ردة في عقيدة التوحيد
 المعتمدة، وجعلها مماثلة لعقائد الكفار قديما. وهي لفظة إعجازية من القرآن الكريم تبين عمق
 الجذور التاريخية لتأليه البشر في الفكر الإنساني وتأثيرها في ديانات الأمم وأهل الكتاب على
 الخصوص³، من غير أن يستندوا في ذلك إلى حجة منقولة أو معقولة: {أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ
 أَفْكِهَمَ لَيَفْضُلُونَ^{١٥١} وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^{١٥٢} أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ
^{١٥٣} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^{١٥٤} أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^{١٥٥} أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ^{١٥٦}
 قَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴، و{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى
 مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ⁵. لكن الله غني عن الولد مترفع
 عن كل نقیصة منزّه عن الشبيه والنظير، فليس عزير ولا عيسى إلا بشرا مخلوقا، له أم من
 البشر، ولا شك أن كل من له أم حدث بعد أن لم يكن، فلا يصح أن يكون ابن الله له طبيعة
 أخرى مخالفة لوالده، وتتاسب طبيعة البشر. فجاءت آي القرآن المجيد صريحة في نفي البنوة
 مطلقا عن الله وأنها مستحيلة في حقه، فقال ردا على أهل الكتاب: {وَقَالُوا ابْتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ فَلَنُتَوَّعَ⁶، فليس الأمر كما افترضوا،
 بل كل شيء ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء، والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له منهم
 ولد؟ والولد إنما يكون من شيئين متناسبين متناظرين، وليس لله من نظير ولا شبيه ولا مشارك ولا
 صاحبة⁷، فأنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟ كما استفهمهم القرآن⁸.

ثالثا: نقد القرآن لادعاء أهل الكتاب الأفضلية والاحتكارية لرسالة أبي الأنبياء إبراهيم:

مما ادعته اليهود والنصارى: أن القرآن شيد بهم وشهد لهم بالأفضلية على سائر الأمم،
 متشبثين في تأييد زعمهم هذا بأن أبا الأنبياء إبراهيم ما كان إلا يهوديا أو نصرانيا حسب زعم
 المسيحيين، فهو على ملتهم لا على ملة الإسلام. فادعى اليهود أنه عليه الصلاة والسلام كان

1 - سورة التوبة، الآيات: 30 - 31.
 2 - وقياس الشبه عرفا: إلحاق فرع بأصل لكثرة شبيهه بالأصل في الأوصاف من غير أن يعتقد أن الأوصاف التي شابه الفرع بها الأصل علة
 لحكم الأصل. ينظر: المستصفي، للغزالي، ص: 316 - 317، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1413
 هـ. وإرشاد الفحول، للشوكاني، 1/ 136.
 3 - ينظر: المسيحية نشأتها وتطورها، لشارل جنيبير، ص: 160، ومنهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، د. نادية
 الشرقاوي، ص: 184.
 4 - سورة الصافات، الآيات: 151 إلى 157.
 5 - سورة الزمر، الآية: 5.
 6 - سورة البقرة، الآية: 115.
 7 - تفسير ابن كثير، 1/ 396.
 8 - مقتبس من قول الله تعالى {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} في سورة الأنعام، جزء من
 الآية: 102.

يهوديا وادعت النصارى أنه كان مسيحيا، على الرغم من أن المسيحيين يدعون أن عيسى ابن الله، كما في إنجيل متى: "هذا نسب يسوع المسيح ابن داوود بن إبراهيم"1. وأما اليهود فيستغلون نسبة نبي الله إبراهيم إليهم لإيهام الآخرين بأنهم أحق بالنبوة والرسالة من غيرهم، "وأنهم أحق الناس بالأرض المباركة المقدسة التي جعلها الله لإبراهيم وذريته والتي أخبر عنها في القرآن: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}2"3، كما أيدوا زعمهم هذا بالآيات القرآنية الواردة في سياق تاريخ الديانة اليهودية، كما في قوله تعالى: {وَلَفَدَ -اتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}4، حتى تأله القوم فرأوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، كما في القرآن: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ}5، وبنوا على عقيدتهم هذه مجموعة من القوانين والمعاملات6، كتحريم الربا فيما بينهم وتجويزه مع الآخرين، وتزويج اليهودية من غير اليهودي للمصلحة الصهيونية وتحريم العكس، وإباحة الزنا بغير اليهودية، وإباحة دم غير اليهود... إلى غير ذلك من الأمور التي افتراها اليهود على التوراة، وتستمد مشروعيتها مما جاء في التلمود: "كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن أن يعيش من دون إسرائيل"7، وفي فقرة أخرى: "إن اليهود هم وحدهم البشر، أما الشعوب الأخرى فليست سوى أنواع مختلفة من الحيوانات"8، فسموا أنفسهم: الشعب المختار.

لكن القرآن الكريم كر على هذه الدعاوى نقضا ونقدا؛ لمخالفتها للمقاييس الصحيحة في التفضيل عند الله، فليست بالانتساب والمزاعم، وإنما هي بالامتثال والتقوى، وموازن أخرى تتبع لمراتب الإيمان والصدق وقرب الإنسان من ربه؛ لذلك كان الرد القرآني التلقائي على ما يدعون: {فَلْ يَلْمِ يَعْدِبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}9، كما قرر أن إبراهيم ليس يهوديا ولا نصرانيا، وإنما كان حنيفا مسلما، فلم يجادل

1 - إنجيل متى، 1 - 1.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 70.

3 - منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، د. نادية الشرقاوي، ص: 96.

4 - سورة الجاثية، الآية: 15.

5 - سورة المائدة، جزء من الآية: 20.

6 - ينظر في ذلك: التلمود كتاب اليهود المقدس: تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه، للدكتور أحمد إبيش، ص: 395، القسم السادس: العصبية الدينية والإثنية في التلمود، نشر: دار قتيبة.

7 - التلمود البابلي، عبودة واره: 10/ب - تعنيت: 3/ب - مدراش يلقوط، زكرياء 969، نقلا عن "أبحاث في الفكر اليهودي" لحسن ظاظا، ص: 101، نشر: دار القم، دمشق - دار العلوم، بيروت، ط1، 1407 هـ / 1987م، و "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها" للدكتور حمد الزغبى، ص: 71، مكتبة العبيكان، ط1، 1418 هـ / 1998م.

8 - نقلا عن "همجية التعاليم الصهيونية" لبولس مسعد، ص: 63.

9 - سورة المائدة، الآية: 20.

أهل الكتاب في شيء لا يعرفونه ؟ حسب الاستفهام القرآني المعجز الوارد في سياق التسليم الجدلي: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} هَآنَتْمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ، عَلِمْتُمْ قَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ، عَلِمَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ¹. ثم إن شرف الانتساب إليه لا يتم إلا باتباع منهجه وملته، وبيّن "أن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوه وآمنوا بما جاء به ووسلوا طريقه، وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أنكر اليهود نبوته، وأمته المؤمنة برسالته"²، كما في قوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}³، فاستدل عليهم القرآن بلزوم كلامهم، وسحب بساط الأفضلية من تحت أرجلهم نسبها إلى المؤمنين حقا وصدقا؛ فادعائهم أن إبراهيم منهم وأنهم أتباعه، يلزم منه أن يكونوا موحدين غير مشركين قائمين بالشعائر التي شرعتها ملة إبراهيم، كما في قوله تعالى: {فُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}⁴، وقوله تعالى في سياق محاوراة اليهود في سورة البقرة بخصوص هذه المسألة: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (...)} وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (...). فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ⁵. قال الرازي مبينا دلالة الالتزام في المحاجة القرآنية الواردة في هذه الآيات: "ذكر (الله) جوابا إلزاميا وهو قوله: {قل بل ملة إبراهيم حنيفا} وتقرير هذا الجواب أنه: إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف إن

1 - سورة آل عمران، الآيتان: 94 - 95.

2 - منهج القرآن في الرد على المخالفين، لنادية الشرقاوي، ص: 97.

3 - سورة آل عمران، الآية: 67.

4 - سورة آل عمران، الآية: 95.

5 - سورة البقرة، الآيات: 32 إلى 36.

كان المعول في الدين على التقليد. فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد، فالرجوع إلى دين إبراهيم عليه السلام وترك اليهودية والنصرانية أولى¹.

المبحث الثاني: نقد المشركين في القرآن المجيد

جاء القرآن الكريم والمشركون غارقون في أوهام عقدية وخرافات شركية كثيرة، فكان لا بد للنقد القرآني من أن يسلك معهم طريقا آخر مختلفا عن منهجه في محاوره أهل الكتاب ومجادلتهم ونقد أحوالهم؛ ذلك لأن حال المشركين أكثر تعقيدا من حال أهل الكتاب، وإقناعهم أصعب، وتصحيح مساراتهم شبه مستحيل؛ لما هم عليه من الأمية والعصبية، والكبرياء والأنفة والاعتزاز بالنفس والتمسك بالعادات، والتقليد الأعمى لما عليه الآباء والأجداد، فكان جلبهم وجذبهم إلى الطريق السليم عسيرا مستعصيا، لأنهم سيقاومون لا محالة كل فكرة تنتقدهم وتدعو إلى غير ما ألفوه؛ ومن أجل ذلك أعد النبي الخاتم إعدادا خاصا منذ ولادته إلى مبعثه لصعوبة المهمة الإصلاحية التي أنيطت به، وجفاف البيئة وقسوة أهلها الذين بعث فيهم. فمذ أن بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم بذلوا جهدا كبيرا في إسكاته وإخماد دعوته بكل ما أوتوه من قوة مادية ومعنوية {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً}²، غير أن التوجيه القرآني كان أقوى وأمتن وأقدر على مواجهة المزاعم والافتراءات التي يختلقها المشركون بالنقد والنقض والبيان والإيضاح {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَلْحَقٌ³}، كما سنتبينه من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: الشخصية المشركة في ضوء القرآن المجيد:

من منطلقات الفكر النقدي في القرآن الكريم أنه يقرر المعالم الشخصية العامة التي تتعلق بالطرف الآخر المخالف، قبل أن يجادله ويحاوره وينتقده ويرد عليه ما كان فاسدا ويقبل منه ما كان صحيحا سليما، حتى يحاججهم بما يفهمهم، ويحاربهم بسلاحهم، كما انطلق في محاوره أهل الكتاب - حسبما تقدم في المبحث الأول من هذا الفصل - من مجادلتهم بالعلم والكتاب الذي ادعوه بعد أن كشف معالمهم وعرى عن شخصيتهم المتسمة باللبس وكتمان الحق، والتعالي والمعاندة والمكابرة. على النهج نفسه انطلق في محاوره المشركين ونقدتهم من خلال الإعجاز البلاغي واللغوي، وفصاحة الكلام وبلاغته التي يدعون، بعد أن وقف القرآن المجيد وقفات متعددة عند الشخصية الشركية أو "الأمة الجاهلية" فأبرز معالمها العامة ووأوصافها

1 - تفسير الفخر الرازي، 4/ 70.
2 - سورة النساء، جزء من الآية: 101.
3 - سورة فصلت، جزء من الآية: 52.

السلبية التي لا تكاد تفارقها في لحظة من اللحظات، وإن أول أمر يلاحظه الدارس لمقارنة الأديان والنقد القرآني للمخالفين أن الله قرن بين اليهود والمشركين في سياق عداوتهم مع الرسالة الجديدة، كما سجله القرآن في قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}¹، في إشارة بديعة إلى أن المشركين لا يختلفون كثيرا في حقدهم للرسالة المحمدية عن اليهود. فجسد لنا القرآن صورة الشخصية المشركة، وسجل لنا مجموعة من سماتها ومعالمها، مما سأجمله فيما يلي:

أولا: القسوة والاعتداء والإيذاء

نزل القرآن الكريم في بيئة كان أهلها جفاة قساة القلوب، وبعث حامل الرسالة الجديدة في قوم لا يعرف اللين والرفق -في غالب أحوالهم- إلى حياتهم سبيلا، فكان لا بد للقرآن الكريم أن يعتمد على هذا الجانب في تكوين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: {بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلْبِ لَآنَبَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}²، ذلك لأن الشدة والقسوة لا تقابل بمثلها، وإنما تقابل بالرفق واللين وحسن المقال والخصال، خاصة في مجتمعات أعرابية يسودها التوحش وشظف العيش، حسبما قرره ابن خلدون في مقدمته بقوله: "والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم"³، وذلك لبعدهم عن الاعتدال كما أشار إليه بقوله: "والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال"⁴. وقد نبه القرآن المجيد إلى هذه القسوة بقوله: {وَلَا كِسْفَ فُلُوبُهُمْ

وَزَيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}⁵، وربما التصقت هذه القسوة والجفوة ببعض من أسلم منهم أيضا؛ لقلة اختلاطهم برسول الله وكبار الصحابة. ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: (إن يعيش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم) قال هشام يعني موتهم"⁶. ونتيجة لقسوة القلب والجفاء الذي تعيشه قريش وغيرها من قبائل العرب المجاورة، لقي رسول القرآن منهم صنوفا من التعذيب الجسدي والنفسي، كما

1 - سورة المائدة، الآية: 84.

2 - سورة آل عمران، الآية: 159.

3 - تاريخ ابن خلدون، 1/ 189، تحقيق: خليل شحادة، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 2، 1408 هـ / 1988م.

4 - تاريخ ابن خلدون، 1/ 104.

5 - سورة الأنعام، الآية: 44.

6 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، 5/ 2387، الحديث رقم: 6146.

لقي صحابته المستضعفون أشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل والتشريد، مما لم يقف عنده القرآن كثيرا إلا إشارات وإيماءات كما في سورة الأحزاب: {إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ قُوفِكُمْ وَمِنْ أَسْبَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُّونَا} ١ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} ٢، وفي قوله: {لِلْبُقَرَاءِ الْمُهْجَرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ٣ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} ٤، وقوله جل وعلا: {إِنَّمَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ} ٥؛ ذلك لأن مقصد القرآن النقدي في تلك الفترة -وهي لحظات نزوله- هو توجيه مسار المسلمين، وتثبيت قلوب المعذبين وتخفيف ما هم فيه من التعرض للإيذاء والاعتداء اللفظي والجسدي وإعلامهم أنها لحظة عابرة، كما في قوله تعالى: {وَدَعَا أَذِيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} ٦، {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} ٧، {وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} ٨ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} ٩.

ثانيا: المكر والتآمر والافتراء بغرض الصد عن سبيل الله

مما سجله القرآن المجيد على الشخصية المشركة: نظرية التآمر والمكر وخلق الافتراءات والأكاذيب على الله وعلى كتابه القرآن بغرض التضليل عن سبيل الله ونهجه، فصور لنا مجموعة من تلك المواقف الماكرة في آياته وسوره، ومن أبرز ذلك قول الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ} ١٠، في إشارة لطيفة إلى قصة التآمر التي حاكها المشركون لما اجتمعوا في دار الندوة من أجل إيجاد حلول ناجحة ناجعة في التخلص من نبي القرآن بأساليب المكر والدسيسة. يقول ابن إسحاق: "ولما رأت قريش أن رسول

1 - سورة الأحزاب، الآيتان: 10 - 11.

2 - سورة الحشر، الآية: 8.

3 - سورة الممتحنة، الآية: 9.

4 - سورة الأحزاب، الآية: 48.

5 - سورة المزمل، الآية: 9.

6 - سورة النحل، الآيتان: 126 - 127.

7 - سورة الأنفال، الآية: 30.

الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَزَلُوا دَارًا، وَأَصَابُوا مِنْهُمْ مَنَعَةً؛ فَحَذَرُوا خُرُوجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرِيهِمْ؛ فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ، يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ خَافُوهُ¹. فكان تعاملهم مع الإصلاح القرآني قائمًا على المكر والمكيدة، والافتراء على الوحي ومنع الناس عن المسجد الحرام ليصدوا عن سبيل الله -حسب التعبير القرآني-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}². وأما افتراءاتهم فكثيرة لا تكاد تحصر، سجل منها القرآن الكريم ما يتعلق بمسار الوحي وتوحيد الله كإسنادهم البنات لله في قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (...)} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى³، وادعائهم أن محمدا ساحر أو مجنون أو يعلمه بشر تارة أخرى، كما يحكي كل ذلك القرآن الكريم بقوله: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}⁴، وقوله: {وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢﴾ أَجْعَلْ آلَ اللَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}⁵، إلى غيرها من الآيات الكثيرة التي وردت في هذا الصدد لتصوير هذا المشهد الذي يحكي عن معالم الشخصية المشتركة وتصرفاتها تجاه الرسالة المحمدية

ثالثا: الأمية، والجاهلية:

لم يكن العرب الذين بعث فيهم الرسول الخاتم قوم علم ولا أمة كتاب، فقد كانت غالبيتهم العظمى أمية لا تحسب ولا تكتب، حتى جاء القرآن الكريم فنبههم إلى القراءة في أول ما نزل منه، لأن عرب مكة وضواحيها حينها منقطعون عن الأمم الأخرى ومبتعدون عنهم في مسالك الحضارة والتعلم، فاتخذوا لهم طرقا وأساليب مختلفة في العيش والتقاليد والعادات حتى أكثروا من الخرافات واتباع الظنون، لذلك كان القرآن المجيد كثيرا ما ينتقدهم في ما يتقولونه من كلام لا يستندون فيه إلى علم أو كتاب أو برهان، وينكر عليهم الاستناد إلى الظنون، كما في قوله: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَّا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

1 - نقله ابن سيد الناس عن ابن إسحاق، ولم أقف عليه في سيرته. ينظر: عيون الأثر في فنون المغازي والسير، لابن سيد الناس، 1/ 233، نشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1406 هـ/ 1986 م.

2 - سورة الأنفال، الآية: 36.

3 - سورة النحل، الآية: 57، 62.

4 - سورة النحل، جزء من الآية: 103.

5 - سورة ص، الآية: 3-4.

أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ¹، وذلك لأنهم كانوا أمة أمية في جاهلية جهلاء، فجاء الرسول غير مختلف عنهم في وصف الأمية، كما صرح به القرآن: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ²}. قال الرازي: "قال الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمة العرب. قال عليه الصلاة والسلام: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"³، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون والنبى عليه الصلاة والسلام كان كذلك"⁴.

وقد جسد القرآن الكريم أمر هذه الأمية والجاهلية العربية وصور مظاهرها من خلال إبرازها لما كانوا فيه من أخطاء فاحشة في التصورات والسلوكات، كعبادتهم للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وقتلهم لبناتهم تشاؤما أحيانا كما في قوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ⁵، أو خوفا من الفقر تارة أخرى كما في قوله: {وَلَا تَفْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ⁶ إلى آخر هذه التصورات السخيفة المتهاففة المضطربة، التي كانت تنشئ بدورها اضطرابا في العبادات والشعائر والسلوك (...) ومن عادات جاهلية شتى لا سند لها إلا هذا الركام من التصورات الاعتقادية المضطربة (...) تمثله تلك الفوارق الطبقية، وتمثله تلك الحروب والمشاحنات القبلية التي لم تجعل من العرب أمة يحسب لها حساب في العالم الدولي"⁷.

رابعاً: العصبية والتقليد الأعمى

من الصفات التي يكتمل بها تصور معالم الشخصية الشريكية في القرآن: ما تمسكوا به من عصبية عرقية وتقليد وثني قل لهما نظير، حتى شبه القرآن حالهم ذلك بحال بهائم الأنعام الصماء العمياء البكماء التي ليس لها عقل تعمله وتذكر، ولا آذان تصغي بها وتستمع، ولا عين ترى بها وتبصر، فقال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْفِلُونَ⁸، وقال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذِيِّ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْفِلُونَ⁹، في إشارة إلى

- 1 - سورة الأنعام، الآية: 149.
- 2 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 157.
- 3 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في كتاب: الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا نكتب ولا نحسب، 665 / 2، الحديث رقم: 1814، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب وجوب الصيام لرؤية الهلال والفطر لرؤيته، 123 / 3، الحديث رقم: 2563.
- 4 - تفسير الفخر الرازي، 380 / 15.
- 5 - سورة النحل، من الآيتين: 58 - 59.
- 6 - سورة الإسراء، جزء من الآية: 31.
- 7 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 199 / 1.
- 8 - سورة الأنفال، الآية: 22.
- 9 - سورة البقرة، الآية: 170.

تعصبهم المقيت الذي يرفض الآخر ولا يقبل الاصغاء، والاستماع إلى رسالته، بله تقبل نقده وإصلاحه، فأخلدوا إلى تقليد آبائهم وأجدادهم قائلين: {بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا} ¹، {إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ ءِثْمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْتَدُونَ} ²، فكان هذا سببا في نبذهم لكل ما جاء به القرآن من تشريعات ربانية وإصلاحات عقدية، وسببا في مجادلتهم لله والتصدي لآياته ومعجزاته بالكاذيب والأباطيل وخلق المزاعم والافتراءات على الله وعلى القرآن ورسول القرآن، كما سنتبينه في الآتي.

المطلب الثاني: نقد القرآن لشبهات المشركين العقدية

وقف القرآن في كثير من آياته عند افتراءات المشركين العقدية، وبين تناقضاتهم وتهافتهم بخصوص ما هم عليه من أباطيل المعتقدات كعبادة الأوثان، وادعاء تعدد الآلهة، وإنكار البعث واليوم الآخر ادعاء وزعما بأن الدهر هو خلاصة الحياة...، فأخذ القرآن المجيد في نقد هذه الأباطيل العقدية والافتراءات الشركية، وسلك في تحقيق هدفه النقدي أسلوبين اثنين: أولهما: أسلوب النقد عن طريق الحكي والقصص عن الأقوام السابقة؛ وثانيهما: أسلوب النقد المباشر والرد بالحجج العقلية، والبراهين الفطرية والكونية، على الرغم من جحودهم وإصرارهم على التجاهل والإعراض الذي يبلغ -أحيانا- حد الصد من سماع القرآن؛ كما في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْفُرْعَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} ³. لكن القرآن المجيد ظل واقفا موقف الناقد المتبصر المنطلق من الدلائل والبراهين، كما سنتبينه من خلال نقد القرآن الكريم للشبهات الآتية.

أولا: شبهة الدهرية ونفي الخالق:

وقف القرآن المجيد عند هذه الشبهة الإلحادية في عدة مواضع، وبين خطأها وكذبها بأدلة وبراهين قطعية، تنسف ما يدعيه الدهريون ونفاة الخالق الواحد، كما نلاحظ ذلك في مجادلات القرآن لأشهر هؤلاء الدهريين عبر التاريخ الإنساني والوجودي، كفرعون والنمرود وغيرهما ممن حاورهم القرآن الكريم وأفحمهم. وعلى غرار ذلك يعرض القرآن قول المشركين بالدهرية، في قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} ⁴. ونفهم من السياق أن المراد بالدهر هو الزمن المعروف في توالي الليالي والأيام، ولا يصح حمله هنا على أنه اسم من

1 - سورة لقمان، الآية: 20.

2 - سورة الزخرف، الآية: 21.

3 - سورة فصلت، الآية: 25.

4 - سورة الجاثية، الآية: 23.

أسماء الله، كما بينه المفسرون استناداً إلى قراءة عبد الله بن مسعود {وما يهلكنا إلا دهر يمر}1. ثم تعقبهم القرآن بالرد والنقد، فكان ذلك قائماً على ثلاثة مقامات.

- المقام الأول: عرض شبهاتهم وادعاءاتهم على ميزان الاستدلال وقواعد الجدل، ومطالبتهم بالحجة والبرهان: فقد أثبت القرآن أن مزاعمهم هذه لا تقوم على أساس علمي صحيح، وإنما هي ظنون وأكاذيب يختلقونها ويتوهمونها. ومعلوم أن الدعوى متى كانت فارغة غير مستندة إلى دليل فإنها ساقطة في ميزان الاستدلال وقواعده، لأنها نتيجة مبنية على غير مقدمات أو على مقدمات فاسدة لا أصل لها يؤيدها ولا برهان يعضدها، والنتائج السليمة الصحيحة لا تقوم على التخرص والظنون وإنما تقوم على أساس المحاجة والاستدلال؛ ولهذا جاءت نصوص قرآنية كثيرة تكتفي بهذا الرد، كما في قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}2، وقوله: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}3، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تدحض شبهاتهم من جهة عدم استنادها إلى بينة أو برهان، كما يؤسسه قول الله تعالى: {بَلَيَاتٍ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}4.

- المقام الثاني: محاورتهم بأساليب عقلية وبراهين منطقية تتسف ما يدعونه، حيث جادلهم القرآن بطريق الحصر المنطقي في قوله تعالى: {أَمْ خُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلَفَاءُ}5، فافترض القرآن المجيد في هاتين الآيتين افتراضات ثلاثاً، بأسلوب الاضراب الانتقالي إلى إبطال شبهتهم الدهرية6، فلا يخلو الأمر إذن إما:

أ- أن يكون كل شيء في هذا الكون قد وجد من غير موجد له، من دون علة ولا سبب له في الإيجاد، وذلك مستحيل عقلاً؛ نقضه القرآن المجيد في استفهام إنكاري أول سورة الإنسان بقوله: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً}

1 - ينظر: تفسير الطبري، 78/22، والمحزر الوجيز، لابن عطية، 87/5، وروح المعاني، للألوسي، 151/13.

2 - سورة الجاثية، الآية: 23.

3 - سورة النجم، جزء من الآية: 28.

4 - سورة الطور، الآية: 36.

5 - سورة الطور، الآيتان: 33 - 34.

6 - ينظر: تفسير الفخر الرازي، 215/28 وما بعدها، وتفسير ابن عاشور، 67/27.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾¹.

ب- أو يكون كل شيء في هذا الكون له قدرة على إيجاد نفسه، وهو أمر مستحيل عقلا؛ إذ لا يمكن للشيء أن يخلق نفسه.

ت- وإما أن يكون كل شيء في هذا الوجود يحتاج إلى موجد له، وهو الخالق الإله المتصرف في الكون كما يشاء ويريد، وكما يعترف به المشركون أنفسهم حينما يسألون من خلق السماوات والأرض؟ كما في قوله تعالى: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَفُولَ اللَّهُ فَأَبَى يُوبَقُونَ}².

ث- فبطل الافتراضان الأولان وبقي الافتراض الثالث متعيना، ودليلا قطعيا على وجود الله الخالق الصانع، وبطلت دعوى الدهريين ونفاة خالق الكون ومنشئه عن طريق هذا الأسلوب الاستدلالي الاستدراجي القطعي؛ لأن كل موجود من عدم لا بد له من موجد.

ج-المقام الثالث: إثبات وجود الخالق بدلائل الاختراع، عن طريق عرض العلامات المشاهدة المحسوسة الدالة على أن للكون ربا يتصرف فيه بقدرته وإرادته، فيعز من يشاء ويذل من يشاء. وهذا ما قام عليه حوار القرآن مع فرعون، كما في قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ³، في إشارة ظاهرة إلى أن مجرد التأمل في الكائنات وتصريفها وتقديرها يقضي عن طريق الحتم والضرورة بأن هناك إلها يدبره، وليس وليد الصدفة أو من باب الاتفاق، كما نبهت إليه آية أخرى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} ﴿٢٠٣﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ⁴؛ ذلك لأن الكون والإنسان نظام متسق متزن يستحيل أن يوجد من غير موجد له قدرة مطلقة {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}⁵، كما يستحيل

1 - سورة الإنسان، الآية: 1-2.

2 - سورة العنكبوت، الآية: 61.

3 - سورة الشعراء، الآية: 23.

4 - سورة الذاريات، الآية: 20 - 21.

5 - سورة غافر، الآية: 56.

في الواقع ذاته أن يصنع شيء بديع من غير عقل مدبر، فإن "كل نظام يدل على وجود العقل" كما يقرره أرسطو¹، لأن ما يحصل اتفاقاً وصدفة لا يمكن أن يبقى ويتكرر ويستمر، كما عليه حال الكون وخلق الإنسان.

ثانياً: نقد القرآن لشبهة القول بتعدد الآلهة:

مما انتشر بين المشركين من الشبهات: قولهم بتعدد الآلهة، وعبادتهم للأصنام تبعاً لذلك الزعم. فبعد أن اعترف هؤلاء بوجود إله خالق، قالوا بتعددده وتشبيهه بالمخلوق فنسبوا إليه ولداً وبنات وجعلوا له أشباهاً يعبدونهم من دون الله الواحد بعد إيمانهم بوجوده، على غرار قول الله تعالى: {وَمَا يَوْمٍ أَكْثَرُهِمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} ²، كما جاء في قولهم في التلبية وهم يطوفون بالبيت الحرام: "ليكن لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك" ³، ليأتيهم القرآن مرة أخرى بأدلة عقلية وحسية، تتسف ما يدعون وتهدم ما يزعمون، فسلك القرآن المجيد في سبيل نقد هذه المزاعم الواهية ونقضها مسلكين اثنين:

- المسلك الأول: مسلك المحاجة والإقناع العقلي، فبرهن لهم القرآن المجيد على أن تعدد الإله شيء مستحيل عقلاً؛ لما يلزم عنه من تنازع الآلهة وفساد الكون واختلال نظامه تبعاً، فبين القرآن فساد هذا الزعم في آيات ثلاث من سوره، فقال في سورة الإسراء: {قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذَا لَابَّتْ غَوَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} ⁴، فعلى فرض تعدد الآلهة، فإنها ستتجه لمنازعة الله الواحد ومغالbته على السلطة وسلكت في ذلك سبل الغلبة والقهر؛ لأن شأن ذوي السلطة أن يتألبوا على السلطان الأعظم فيسلبوه ملكه⁵؛ ولأن تعدد المدبرين سبب إفساد التدبير⁶، فينتج عنه التصادم المؤدي إلى اختلال الكون وذهاب كل إله بما خلق، كما في الآية الثانية: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِإِ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَغْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ} ⁷، فلو كان مع الله غيره لتفرد كل إله بما خلقه وتقوى به على غيره وتقاتلوا فيما بينهم حتى يغلب القوي منهم الضعيف⁸، فينتج عن ذلك فساد الكون واختلال المصريح به في الآية الثالثة من قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ

1 - نقلاً عن كتاب: مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر عواض، ص: 143.

2 - سورة يوسف، الآية: 106.

3 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفقتها ووقتها، 4 / 4، الحديث رقم: 2872.

4 - سورة الإسراء، الآية: 42.

5 - التحرير والتنوير، 15 / 111.

6 - تفسير المنار، للشيخ رضا، 3 / 185.

7 - سورة المومنون، الآية: 92.

8 - ينظر: تفسير الطبري، 19 / 66، وروح المعاني، للألوسي، 9 / 258.

رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِْبُونَ¹، فعبر ب"لو" وهي أداة للتلازم؛ لتدل على لزوم الجزاء للشرط²، وأصل هذا القياس الاستثنائي المتصل، قضيتان هما: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، لكنهما لم تفسدا" فجاء القرآن المجيد ورفع المقدم والتالي للعلم بهما بالبديهة المنطقية لزوما، فصارت نتيجة هذا القياس المنطقي: "فليس فيهما آلهة إلا الله" فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً³، ويسمى أيضاً بقياس الخلف، وبرهان التمانع؛ لأنه إثبات المطلوب بإبطال نقيضه⁴؛ لأن الكون لما كان منتظماً غير مختل ولا فاسد تعين أن الذي يدبره إله واحد لا متعدد، وبطل زعم القائلين بتعددده، وتقرر أن الحقيق بالعبادة هو الله الواحد المدبر للكون بأسره "إذ لا يمكن أن يستقيم نظام المعدد إلا إذا كان له جهة واحدة"⁵.

- المسلك الثاني: مسلك المحاجة والإقناع الحسي، فإن مما يعتمد القرآن في نقده لشبهات المخالفين: صرف أنظارهم إلى مشاهدة الواقع المحسوس، ودعوة أفكارهم وعقولهم إلى التفكير في الكون البديع الصنع؛ للتعرف على عظمة الخالق، وإدراك سخافة معبوداتهم وتفاهة أصنامهم التي يشركون بها، وإظهار عجزها وعدم قدرتها على فعل شيء. وهذا أسلوب نقدي تكرر في القرآن المجيد مرارا، خاصة في حوارات الأنبياء والرسل مع أقوامهم، كما نجد ذلك في سورة الأنبياء في مجادلة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه: {فَالَوْأَءَآنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمَ ﴿١٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِفُونَ} ⁶. وهو الأسلوب النقدي الثاني الذي استخدمه القرآن في الرد على مشركي مكة أيضاً، كما نجده في قوله -بعد الآية الحجاجية السالفة-: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا فَتَفْتَنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} ⁷، فلفت النقد القرآني أنظار المشركين إلى تدبر الأمارات الدالة على وجود الله في هذا الكون المعجز، كما يصرح بذلك قول الله عز وجل: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ءَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} ⁸، في إشارة نقدية إلى أن إدراك الخالق لا يحتاج إلى كبير عقل وتضلع في العلوم والمعارف العقلية والنقلية، فكل من له أدنى عقل وأدنى مرتبة فكرية يمكنه معرفة وجود الخالق ابتداءً،

1 - سورة الأنبياء، الآية: 22.

2 - روح المعاني، للألوسي، 9 / 24.

3 - ينظر: ضوابط المعرفة، لعبد الرحمن حبنكة، ص: 274، وتفسير الفخر الرازي، 22 / 127..

4 - المعجم الفلسفي، لصليبا، 1 / 189.

5 - تفسير المنار، 7 / 470.

6 - سورة الأنبياء، الآيتان: 62 - 63.

7 - سورة الأنبياء، الآية: 30.

8 - سورة آل عمران، الآية: 190.

على غرار قول الأعرابي: "البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على اللطيف الخبير؟"¹، ذلك لأن العقل حجة في معرفة الصانع قبل ورود الشرع كما هو مقرر، وإنما جاءت الشرائع لبيان ما لا يدرك بالعقول، كأنواع العبادات والحدود². ومن الآيات القرآنية النقدية التي بينت تهافت معبوداتهم وعدم قدرتها على شيء: قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ}³، لأنها مجرد مصنوعات زائفة لا تقدر على حماية نفسها من الآفات فكيف لها أن تقدر على حماية غيرها؟⁴ وقد ضعف الطالب والمطلوب.

ثالثا: نكران البعث والقول باستحالة الحياة بعد الممات:

من الشبهات التي تعرض لها القرآن بالنقد والنقض: شبهة القول باستحالة الحياة بعد الموت، والكفر باليوم الآخر وما يتعلق به من البعث والنشور جملة وتفصيلا، فاعتبر هؤلاء المشركون أن البعث بعد الموت شيء محال؛ لأن الإنسان له حياة دنيوية واحدة، فإذا مات صار عظاما متأكلة. فمن يحيي العظام وهي رميم؟ كما حكاه القرآن عن بعضهم في قوله تعالى: {قَالَ أَنَبَى يُحْيِي هَذِهِ إِلَٰهُهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}⁵، وقول القرآن المجيد حكاية عن أبي بن خلف أو غيره من المشركين حسب اختلاف منقولات الرواة في سبب نزول الآية⁶: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ}⁷.

فجاء النقد القرآني ليصحح مسار هذا الفكر المنحرف الحائد عن الصواب الذي يقتضيه العقل، ويبين أن الذي خلق النفس الإنسانية أول الأمر من لا شيء قادر على أن ينشئها مرة أخرى وهي شيء يذكر، فتم ذلك عبر آيات متفرقة في كتاب الله المجيد، أولها: آية الحج التي وردت بخطاب النداء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ}⁸، فاستدل القرآن على صحة البعث والنشر بالخلق الأول على إمكانية الخلق الثاني؛ لأنه لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال

1 - ينظر: السيرة النبوية، لابن كثير، 1/ 141، وتفسير الرازي، 2/ 334، وتفسير الألوسي، 13/ 218.

2 - روح المعاني، للألوسي، 8/ 40.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 43.

4 - تفسير الفخر الرازي، 22/ 147.

5 - سورة البقرة، جزء من الآية: 258.

6 - ينظر: تفسير الإمام الطبري، 20/ 553، وأسباب النزول، للواحدي، ص: 246.

7 - سورة يس، الآية: 77.

8 - سورة الحج، الآية: 5.

أخرى، فلم لا يجوز أن يحصل الخلق الثاني بعد تغيرات كثيرة واختلافات متعاقبة؟¹ وهو بعد ذلك أهون من الخلق الأول، كما أكد ذلك في الآية الثانية من سورة الروم: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}²، فمن الجلي أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر³، كما تصرح به الآية الثالثة التي ترد على قولة أبي بن خلف: {فَلْ يُخَيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}⁴، وشبيه بهذا الرد المفتح قوله تعالى في سورة الإسراء: {فَسَيَفُوتُونَ مَنْ يُعِيدُنَا فَلِ الَّذِي بَطَرَ كُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}⁵، تنبيهها إلى أن من كان عليه الأمر الأصعب سهلاً فلا أن يكون عليه الفعل السهل الحقيق سهلاً يسيراً أولى⁶، كما أكدته في المشهد الرابع في سورة القيامة: {أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنِي} ﴿٣٦﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٧﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٨﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّ الْمَوْتَى}؟⁷ فبرهن لهم القرآن المجيد على أن الله قادر على البعث والإحياء بعد الممات، وأوضح للقوم أن الحياة ليست مجرد حركة لا علة لها ولا سبب ولا هدف ولا غاية، وأنها ليست مجرد أرحام تدفع وقبور تبلع... بل هي حياة وراءها هدف "ووراء الهدف حكمة"⁸.

المطلب الثالث: نقد شبهات المشركين وافتراءاتهم على الرسالة المحمدية:

لم يقف عناد المشركين عند اتخاذ آلهة وأصنام يعبدونها من دون الله، بل تجاوز بهم كل الحدود حتى جادلوا في رسالة الله إليهم، ورموا القرآن ورسول القرآن بافتراءات ومزاعم لا سند لها ولا موجب إلا الجاهلية بتعصبها المقيت. فإنه لما أعجزهم القرآن بالبراهين القطعية والحجج الدامغة الدالة على وحدانية الله التجأوا إلى أسلوب آخر من المراء والجدال، يقصدون من ورائه إبطال كل دليل يأتي به القرآن ونبيه، فأسسوا مجموعة من الشبهات يواجهون بها القرآن نفسه بغرض إبطال دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وكل إصلاح عقدي أو واقعي يأتي به، فكان من بين هذه الشبهات التي قدموها قصد الطعن في رسالة القرآن ومعارضة نبيه: ثلاث شبهات بارزة، عرضها القرآن بكل إنصاف وكر عليها بالنقد والنقض، كما سنتبينه في الآتي.

1 - تفسير الرازي، 17 / 195.

2 - سورة الروم، الآية: 26.

3 - تفسير المنار، 3 / 186.

4 - سورة يس، الآية: 78.

5 - سورة الإسراء، جزء من الآية: 51.

6 - تفسير الرازي، 17 / 195.

7 - سورة القيامة، الآيات: 36 - 39.

8 - في ظلال القرآن، 6 / 3774.

أولاً: رمي رسول القرآن بالسحر والجنون:

من طبيعة الكون أن يتدافع فيه الشر والخير، والباطل والحق، فتوجه سهام الطعن لحملة الإصلاح ودعاة التجديد عبر تاريخ الإنسان، لذلك نجد هذه الشبهة قد وجهت إلى كثير من أنبياء الله من قبل أقوامهم، وليس المشركون بأول من رمى بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، كما يسجله القرآن المجيد: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِّنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦٓ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} ¹، بناء على ظنهم الفاسد بأن الوحي لا ينزل على بشر منهم، كما وضحت آية أخرى في قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاثِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ} ²، فلما نطق بالوحي وبلغ رسالة ربه رموه بالسحر والجنون والشاعرية على الرغم من كون محمد بن عبد الله لم يقل الشعر قط في حياته. فكان هذا الزعم المتهافت بيّن الخلل واضح البطلان؛ لانبنائه على تعصب مقيت وحقد دفين للقرآن ونبيه؛ لذلك لم يهتم القرآن المجيد كثيراً بالبرهنة على بشرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الأمر لا يحتاج إلى ذلك، وإنما اكتفى بتسجيلها لتبقى وصمة عار على جباههم، لأنهم بشر، والذي يناسب وضعيتهم البشرية أن يكون الرسول بشراً منهم يتحدث بلسانهم، كما أكدته آية الإسراء: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} ³، فأجابهم القرآن المجيد: {فُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرُّنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا} ⁴، فإنهم لما توهموا استحالة أن يبعث الله بشراً رسولا، أخبرهم القرآن أنهم متناقضون، فلو كانوا ملائكة لأرسل الله إليهم ملكا، لكنهم بشر ورسول الله بشر أيضا.

والذي يلاحظه قارئ الآيات الواردة في رد هذه الشبهة: أن النقد القرآني المجيد قد ركز بخصوص هذا الموضوع على تكوين شخصية رسول الله، وتثبيت قلبه على الصدع بالحق، وعدم المبالاة بما يتقولون والالتفات إلى مايفترون، لأنهم متناقضون في مزاعمهم ⁵، فتارة يرمون بالسحر والكهانة وتارة بالشعر وتارة أخرى بالجنون، وهي كلها أحوال مختلفة لا تجتمع في شخص واحد، كما أشارت إليه الآية القرآنية: {فَذَكِّرْ بِمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

1 - سورة الذاريات، الآية: 52 - 53.

2 - سورة ص، الآية: 3.

3 - سورة الإسراء، الآية: 94.

4 - سورة الإسراء، الآية: 95.

5 - تفسير المنار، 3 / 248.

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ¹. يقول العلامة الألوسي رحمه الله في بيان هذا النقد القرآني لمزاعمهم: "وبدأ بقولهم المتناقض لينبه أولاً على فساد آرائهم ويجعله دستوراً في إعراضهم عن الحق وإيثار اتباع أهوائهم. فما أبعد حال من كان أتقنهم رأياً وأرجحهم عقلاً وأبينهم آياً منذ ترعرع الى أن بلغ الأشدّ عن الجنون والكهانة! على أنهما متناقضان لأن الكهان كانوا عندهم من كاملهم وكان قولهم إماماً متبعاً عندهم، فأين الكهانة من الجنون؟"².

ثانياً: ادعاء أن القرآن من وضع البشر وأنه مفترى من دون الله:

لما أعجز القرآن مشركي مكة بحججه وبراهينه الدالة على وحدانية الله وأحقّيته بتسيير الكون بشريعته، فعجزوا عن مقابله بالحجة والاستدلال، سلكوا مسلك الطعن في القرآن باعتباره الوسطة بينهم وبين السماء، فزعموا أنه كتاب من وضع البشر في أساطير الأولين، افتراه محمد بن عبد الله وأعانه عليه قوم آخرون، حسب التعبير القرآني: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ وَإِفْكٌ يُفْتَرِيهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} ^٤ وقالوا أساطير الأولين إكتتبها بهي ثملئ عليه بكرة وأصيلًا³. ومن الروايات الأخرى التي جرت على ألسنتهم: أن الرسول تعلم القرآن من غلام أعجمي. فقد روى البيهقي عن مجاهد أن قريشاً قالت: "إنما يعلم محمداً عبد لآل الحضرمي رومي، وكان صاحب كتب"⁴، فأشاع المشركون وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة أن محمداً يتلقى القرآن منه {قَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُوثَرُ} ^{٢٤} إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ⁵.

فجاء النقد القرآني سريعاً، وكان رده كالصاعقة على عقولهم وقلوبهم، لما نزلت آياته تتحداهم وتستهنئ بمفترياتهم التي يكمن وراءها كثير من الضغينة ومعاندة الحق والصواب، فتم الرد القرآني على طريقتين اثنتين:

- أولاًهما: تكذيب اتهاماتهم ومزاعمهم؛ لعدم قيامها على أساس واقعي صحيح؛ لأن من يتهمونه بتعليم محمد هو غلام رومي أعجمي، والقرآن نزل على غير لسانه بلسانه العربي المبين {لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}⁶، فكيف

1 - سورة الطور، الآية: 27.

2 - روح المعاني، 41 / 14.

3 - سورة الفرقان، الآيتان: 4 - 5.

4 - ينظر: شعب الإيمان، للبيهقي، 159 / 1، وسيرة ابن هشام، 393 / 1 وفيه أن اسمه جبر النصراني.

5 - سورة المدثر، الآية: 23 - 24.

6 - سورة النحل، الآية: 103.

يستقيم ادعائهم؟ فإن ذلك الرومي أعجمي لم يكن يعرف العربية، وهذا القرآن قد بلغ بيانه فيها حد الإعجاز 1، ف"أحالهم على علمهم برتبة القرآن في الفصاحة" 2.

- والطريقة الثانية: أسلوب التحدي والإعجاز؛ لأن القرآن لا يخلو: إما أن يكون من وضع البشر، فبإمكانهم أيضا الإتيان بمثله، ولهم الاستعانة بعلماء الأرض وفصحاء الكون كله. وإما أن يكون كتابا منزلا من عند الله يعجز عنه البشر جملة وتفصيلا، فلا يسعهم بعد ذلك إلا أن يذعنوا لأحكامه وتشريعاته، فكان أسلوب التحدي في هذا السياق النقدي أنفع من غيره، فتحداهم القرآن في غير ما آية منه بقوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} 3، سواء في أسلوبه أو نظمه وبلاغته، أو علومه وتأثيره في الهداية 4، فكان هذا تحديا مطلقا عاما بعد أن وقع التحدي بمثل القرآن، أو بعشر سور منه، كما في قوله تعالى: {فَلْيَبْلُغْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} 5، وقوله: {آمِ يَفُولُونَ بِفُتْرِيهِ فُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 6، فكشف القرآن المجيد بهذا التحدي عن عجزهم وكذبهم في كل ما يرمون به القرآن ورسوله، وأسكتهم بعد أن قالوا: {لَوْ نَشَاءُ لَفُتْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} 7، فلم تبق إلا النتيجة الحتمية التي قررها القرآن بقوله: {فَبِإِلْمِ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نُنَزِّلُ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} 8، وقد أعلن الجميع عجزه أمام الأسلوب القرآني المعجز بلفظه ومعانيه، فنبههم إلى قيام الموجب بقوله: فهل انتم مسلمون؟ بعد قيام الحجة وزوال العذر 9.

-
- 1 - تفسير المنار، 8 / 248.
 - 2 - تنزيه القرآن عن المطاعن، لقاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد، ص: 208، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث- القاهرة، ط 1، 1435 هـ / 2014 م.
 - 3 - سورة البقرة، الآية: 22.
 - 4 - تفسير المنار، 1 / 105.
 - 5 - سورة الإسراء، الآية: 88.
 - 6 - سورة هود، الآية: 13.
 - 7 - سورة الأنفال، الآية: 31.
 - 8 - سورة هود، الآية: 14.
 - 9 - في ظلال القرآن، 2 / 516.

ثالثاً: رمي القرآن بالتناقض والاختلاف:

من المزاعم والدعاوى التي وجهها مشركو مكة إلى القرآن بغرض إبطاله وإفحامه والاحتجاج على مصدريته البشرية: قولهم بأن القرآن متناقض في آياته؛ متمسكين في تأييد دعواهم الزائفة هذه ببعض الآيات العامة التي بدا لهم فيها بعض التناقض حسب فهمهم القاصر. فما أن قرأ عليهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قول القرآن: {إِنَّكُمْ وَمَا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ¹، حتى انتهز

المشركون هذا التعميم الوارد في الآية؛ ليتخذوا منه مطعناً في القرآن، وليرموه بالتناقض والاختلاف ²، قائلين: إن معنى الآية يقتضي أن المشركين وجميع معبوداتهم يدخلون النار، بما فيهم عيسى ابن مريم الذي يعبد النصارى، كما جاء على لسان المجادل عبد الله بن الزبير السهمي القرشي، إذ قال لرسول الله في شأن الآية: "فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيزاً وهذه بنو تميم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟" ³، والقصة أوردتها كتب السيرة بشكل أوسع وأشمل، ليس هذا محل بسطها، وإنما ساق الباحث من ذلك ما له علاقة بالنقد القرآني في محاورته للمشركين؛ لنقد مزاعمهم وتبيين شبههم، من خلال مسلكين اثنين:

المسلك الأول: رفع العموم بالتخصيص:

توجه القرآن المجيد بالنقد إلى مشركي مكة الذين يرمونه بالتناقض والاختلاف، بأن القرآن رسالة إلهية محضة يستحيل أن يقع منها تناقض أو اختلاف كما يتوهمون ويجادلون عناداً ومكابرة {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ فَوْمٌ خَصِمُونَ} ⁴، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إختِلَافًا كَثِيرًا} ⁵. ثم بين القرآن -في سياق الآية التي توهموا فيها التناقض- أن ما توهموه عموم لا يصلح أن يقال فيه بالتناقض خاصة وأن سياق الآية إنما خاطب المشركين على التخصيص، لكنه على الرغم من ذلك رد عليهم زعمهم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ⁶، فيندفع اعتراض المشركين بهذا التخصيص ⁷، لأن هؤلاء "ليسوا تحت المراء لأنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه" ⁸. وذهب بعض المفسرين كالإمام الطبري ⁹ وابن عاشور ¹ وغيرهما ² إلى أن الآية لم

1 - سورة الأنبياء، الآية: 97.

2 - مناهج الجدل في القرآن الكريم لزاھر عواض الألعين، ص: 219.

3 - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، 12 / 153، الحديث رقم: 12739، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط 2، 1404 هـ / 1983 م، والطحاوي في بيان مشكل الآثار، 3 / 44، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

4 - سورة الزخرف، الآية: 58.

5 - سورة النساء، جوء من الآية: 81.

6 - سورة الأنبياء، الآية: 100.

7 - ينظر: تفسير الطبري، 18 / 538، وتفسير الأولوسي، 9 / 89.

8 - تفسير ابن عطية، 4 / 101.

9 - تفسير الطبري، 18 / 540.

ترد للتخصيص، بل هي مستقلة مستأنفة جاءت لتأكيد ما قالته الآية السالفة لا لتخصيصه، فكأنما قال القرآن -بعد اعتراض المشركين على الآية-: "بل الأمر كذلك، وليس الذين سبقت لهم منا الحسنى منهم؛ لأنهم غير معنيين بقولنا: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}^{3 4}.

المسلك الثاني: تفسير العموم:

وضح القرآن المجيد في آيات كثيرة أن المراد بعموم الآية: من يحبون أن يعبدوا من دون الله، حسبما هو مبين في جواب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لابن الزبيري آخر الحوار الذي جرى بينهما: "من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته"⁵. وتأكد بيان ذلك وبسطه في قول القرآن نفسه: {وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْهُمْ⁶ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ⁶، وقوله: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوها⁷، فوضح أن الملائكة وأنبياء الله كعيسى ابن مريم مجرد مخلوقات اتخذهم الجاهل آلهة، وإنما بعثوا للعالمين مبشرين ومنذرين، كما في السياق القرآني: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا⁸. قال الرازي في بيان هذا النقد القرآني الحوار مع المشركين: "واعلم أن سؤال ابن الزبيري ساقط من وجوه: أحدها: أن قوله: {إنكم} خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركي مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط. وثانيها: أنه لم يقل {ومن تعبدون} بل قال: {ما تعبدون} وكلمة ما لا تتناول العقلاء (...) وثالثها: أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة، وقال سبحانه: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوها⁹. ورابعها: هب أنه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل

-
- 1 - التحرير والتنوير، 155 / 17.
 - 2 - كالإمام الفخر الرازي الذي يحكي كلا المذهبين ويرجح أنها تأكيدية لا تخصيصية، في تفسير مفاتيح الغيب، 189 / 22.
 - 3 - سورة الأنبياء، الآية: 98.
 - 4 - تفسير الطبري، 540 / 18.
 - 5 - أخرجه الإمام الطبري في تفسيره، 539 / 18، وأورده ابن هشام في سيرته، ص: 359، وابن كثير في البداية والنهاية، 111 / 3، ونقله عامة المفسرين في سياق نزول الآية.
 - 6 - سورة الأنبياء، الآية: 29.
 - 7 - سورة الأنبياء، الآية: 98.
 - 8 - سورة الفرقان، الآية: 1.

مكرمة، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَفَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ¹.

المبحث الثالث: نقد مزاعم المستشرقين والعلمانيين وشبهاتهم حول القرآن المجيد

لم تكن دراسة المستشرقين للإسلام عموماً والقرآن الكريم خصوصاً لغرض التعليم أو التعلم، بل كان هدفهم الأول هو النقد والتمحيص والوقوف على أخطاء القرآن ومداخله حسب زعمهم، حتى كان بعضهم يعتكف عمره كله ليجد شبهة واحدة يتصدى بها للقرآن الكريم ويحاجج بها المسلمين، فأصدروا على مدى سنوات وأعوام عشرات من الدراسات والتحقيقات والأبحاث، وموسوعات كاملة تتعلق بالقرآن والإسلام، تاريخاً وحضارة وعلوم وسياسة واقتصاداً، من أشهرها: "دائرة المعارف الإسلامية" التي تقع في أربعة مجلدات ضخمة، يستخلص منها دارسها زبدة الفكر الاستشراقي وخلاصته فيما يتعلق بالقرآن والإسلام ورجالاته. فكان هدفهم الأول ومنهجهم الثابت هو التشكيك في كافة المصادر الإسلامية، بدءاً بالقرآن الكريم، فاختلفوا مجموعة من الشبهات والمزاعم، التي نجد أغلبها عند مشركي مكة والمجادلين من أهل الكتاب، كما سنتبينه في المطالب الآتية.

المطلب الأول: معالم الشخصية الاستشراقية، والعلمانية:

لم يكن اهتمام العلمانيين بالقرآن ودين الإسلام شيئاً يذكر بالمقارنة مع الجهد الذي بذله المستشرقون في دراساتهم المتعمقة في كل ما له علاقة بالشرق الإسلامي وكل ما له صلة بمصادره الدينية والمعرفية، حتى بلغ بهم الحد أن يخدموا التراث الإسلامي دراسة وتحقيقاً وإخراجاً أكثر مما خدمه المسلمون أنفسهم. فكان لكلتا الشخصيتين: الاستشراقية والعلمانية، ميزات ومعالم تميز تعامل كل منهما عن الآخر تجاه القرآن الكريم وتشريعاته وأحكامه.

أولاً: الشخصية الاستشراقية:

ترجع جذور الشخصية الاستشراقية في حقيقتها إلى الدراسة التي يقوم بها الغربيون من اليهود والنصارى لعلوم الشريعة الإسلامية والعربية وكل ما ينبثق من حضارة الشرق الإسلامي من ثقافة ومعارف وعلوم دينية ودنيوية، وكلمة "الاستشراق" مولدة مأخوذة من لفظ (الشرق) الذي يستعمل في المفهوم الغربي المعاصر على عموم البلاد الإسلامية²، استعملها المحدثون في ترجمة كلمة (Orientalism) التي تفيد معنى (مستشرقين) أو علماء المشرقيات، لكن الاستعمال الأكثر شيوعاً هو مصطلح "المستشرقون"³، ويراد بالاستشراق في عرف المهتمين

1 - تفسير الفخر الرازي، 22/ 187.

2 - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، للدكتور مشتاق بشير الغزالي، ص: 17.

3 - ينظر: المستشرقون مالهم وما عليهم، لعمر فروخ، مجلة الاستشراق، العراق 1987، العدد الأول، ص: 54، وإنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، لمالك بن نبي، ص: 25، والاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، لإسحاق موسى الحسيني، ص: 1، والمستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص: 13 وما بعدها.

بالفكر الإسلامي: تلكم الدراسات والأبحاث التي يقوم بها الغربيون لتراث الشرق، وكل ما يتعلق بتاريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه، وعلومه، وتقاليده وعاداته¹، فهو بهذا الاعتبار يرجع إلى العصور القديمة بعد نزول الوحي وتخوف أهل الكتاب من سيطرة القرآن المجيد على العالم، بدوافع التبشير والتنصير، ومحاولة إقناع المسلمين ببطلان الإسلام ورسالته القرآن، وجذبهم في المقابل إلى اعتناق المسيحية².

من هنا نتبين أن الاستشراق في مغزاه ليس إلا أسلوباً جديداً للتبشير؛ لأن "الاستشراق حركة ولدت في أحضان التبشير"³، وبحسب تعبير أحد الباحثين: فإن "الاستشراق ولد في حضن التنصير، وكبر في حضن الاستعمار، ونضج في النهاية في حضن المؤسسات التعليمية"⁴. وقد ظهرت بذوره الأولى بشكل ملموس وملحوظ في العصور الوسطى، ثم اتخذ أشكالاً وأطواراً متنوعة، حيث كان الغرب في بداية الطور الأول يعيش عصوراً مظلمة، لم تكن لديه مصادره الذاتية التي تمكنه من إنتاج المعارف والعلوم، وحين احتكت الأمة الغربية بالمسلمين في الأندلس⁵ لم تجد أمامها سبيلاً آخر للتعلم غير التلمذ على المسلمين وقراءة مؤلفاتهم وعلومهم، فانطلقت البعثات الغربية إلى مدن العالم الإسلامي وحواضره، كإفريقية وقرطبة بالأندلس⁶، ثم في المرحلة الثانية تزدهر المعارف الإسلامية في العالم الغربي، فأثرت في آدابه وفنونه وفلسفة حياته كلها، فكان الشعور الأوروبي والغربي -على العموم- تجاه المسلمين قد انقلب عداوة وحقدًا، فخشيت الكنيسة على نفوذها من تأثير الإسلام على الحياة الغربية الأوروبية، خاصة بعد أن تيقنت الكنيسة أن القرآن لا يقر بصحة عقيدتها الحالية⁷، فراحت تُجند علماءها وباحثيها من أجل التبشير وتفسير المسيحيين من الإسلام والقرآن، لتجد أمامها فرصة سانحة بعد الضعف والنكسة التي يمر بها العالم الإسلامي حينها، فانقلب الصليبيون على مسلمي الأندلس وانقضوا عليهم ومزقوهم شر ممزق، لتجد أوروبا نفسها أمام أمة واهية مهزومة في الحروب الصليبية آخر الأمر، فراحت تحتل بلدان العالم الإسلامي واحداً تلو آخر. فانتشر المبشرون والمنصرون من المستشرقين -بعد هذه المعارك واحتلالات العالم المشرقي- في كافة البقاع الإسلامية، فتراجع التنصير عن صورته المكشوفة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي⁸، ليتزى بزى العلم و"البحث العلمي" بعد استقلال البلدان في عصورنا المتأخرة، ليؤثر على الطبقة المثقفة التي تتولى قيادة الأمة، فيكون أقدر على التأثير في عامة المسلمين

- 1 - المعجم الأدبي، لجبور عبد النور، ص: 17، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- 2 - للتوسع في هذا الموضوع ينظر: كتاب الإسلام والغرب، للدكتور نور من دانييل، وكتاب الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، لمؤلفه: دودي بارت، ص: 9، ترجمة: الدكتور مصطفى ماهر، نشر: دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.
- 3 - آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد، لفضيلة الدكتور عمر بن إبراهيم رضوان، 6 / 1، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 1، 1413 هـ / 1992م.
- 4 - آراء المستشرقين حول القرآن، للدكتور عمر بن إبراهيم رضوان، ص: 38، نشر: دار طيبة، ط 1، 1413 هـ / 1992م.
- 5 - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، للدكتور مشتاق بشير الغزالي، ص: 22.
- 6 - المستشرقون والإسلام لمحمد قطب، ص: 13.
- 7 - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين لمشتاق بشير الغزالي، ص: 39.
- 8 - المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص: 14.

من المنصرين والمبشرين المكشوفين، وأعلم بمواطن الخلل في ثقافة المسلمين، وأدرى بالشبهات التي يروجونها لها من أجل زرع التشكيك بين المسلمين في مصادره الدينية.

انطلاقاً مما تقدم يمكن أن أستخلص المعالم المنهجية العامة التي تنماز بها الشخصية الاستشراقية في محاولتها لإفشال التاريخ الإسلامي وإقبار كافة المصادر الإسلامية بدءاً في القرآن الكريم، فيما يلي.

- تتميز الشخصية الاستشراقية عن غيرها من الشخصيات المعادية للإسلام باهتمامها البالغ بالقرآن وتعميق البحث في مصادر التراث الإسلامي وحضارته منذ عهد قديم إلى عصرنا الحاضر اهتماماً يتعجب منه المسلمون أنفسهم، ويتساءلون فيما بينهم: "ما الذي يدفع المستشرقين إلى هذا الاهتمام البالغ بكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، بينما هم أنفسهم - المسلمون - لا يرون أنفسهم أهلاً لهذا الاهتمام كله، ولا يرون تراثهم مستحقاً كل هذا الجهد"¹.

- يرجع اهتمامهم البالغ هذا بالدراسات القرآنية إلى عاملين اثنين، أولهما: أنهم أهل كتاب بالدرجة الأولى، قد ارتبطوا بالقرآن منذ نزول الوحي على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وثانيهما: التربص بالقرآن والمسلمين، سيرا على نهج أسلافهم الأولين في محاولة نسف كل ما يتعلق بالدين الإسلامي الناسخ ومصادره، حسب الإخبار القرآني نفسه: {وَلَا يَزَالُونَ يُفْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَإِنْ إسْتَبْعُوا}²، وقوله: {وَدَّبَّ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ}³، من خلال التشكيك في قوة العقيدة الإسلامية من الناحية البرهانية، وتشويه التاريخ الإسلامي وحقيقته على العصور، وإبراز مبادئ الدين الإسلامي في صورة بشعة، تجعلها مناقضة لمبادئ المسيحية وفي مرتبة أدنى منها عفة وأخلاقاً وتسامحاً⁴.

- مما يميز الشخصية الاستشراقية: تعمقها في الدراسات اللغوية والتاريخية وكل ما يتعلق بأصول القرآن؛ وانطلاقها في دراساتها من بعض المسلمات العلمية والدينية، حتى يطمئن إليها القارئ فتبث سمومها بين فقرات الكتاب وجمله، نقداً، وتشكيكاً، ونسفاً، كصنيعهم المتعلق بدراسات موضوع النسخ وغيره من موضوعات علوم القرآن الكريم، كإعجازه البلاغي واللغوي على سبيل المثال، حتى ذهب بعض المغفلين منهم إلى أن في القرآن لحناً غير مستساغ، حسبما سنقف عنده في موضوعه. وهي تهمة لم يستطع أحد من منتقدي القرآن أن يرميه بها؛ بدءاً من مشركي العرب وملحديهم، رغم قدمهم الراسخة في فنون الفصاحة والبيان.

1 - المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص: 7.

2 - سورة البقرة، الآية: 215.

3 - سورة آل عمران، الآية: 68.

4 - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين لمشتاق بشير الغزالي، ص: 42.

ثانيا: الشخصية العلمانية:

على خلاف الشخصية الاستشراقية، فإن العلمانية لا تظهر أية عداوة للقرآن والإسلام على العموم، لكنها تقف حجر عثرة أمام تطبيق تعاليمه، وتنزيل أحكامه، والسير على نهجه وسياسته، حيث يتناقض مبدأ القرآن ودعاوى العلمانية، التي تقول بضرورة فصل الدين عن السياسة والدولة، رغم أن الدين جاء لتسييس البشرية وتسيير حياة الناس العامة والخاصة؛ لأن القرآن ليس مجرد كتاب ديني ينحصر دوره في دور العبادة، كما هو واقع المسيحية الكنسية الذي يسيطر عليه منطق العلمانية في الغرب، وهو منطق "اللا دينية" أو "الدنيوية"¹ الذي تريد العلمانية أن تخضع له القرآن المجيد أيضا نتيجة التزعزع الذي تعرضت له الكنيسة في الغرب، والمناهضة العلمانية لكل ما هو ديني، حسب ما يذكره الدارسون لتاريخ نشأة العلمانية².

ومن هذا المعنى سموا بـ "العلمانيين" نسبة إلى العلم بمعنى العالم، رغم أن المراد بالمفهوم عرفا هو "خلاف الديني/ أو الكهنوتي"³، ولهذا فهي نسبة خاطئة نتجت عن ترجمة سئية لكلمة (Secularism) في الإنجليزية، أو (Secularite) بالفرنسية⁴. فهي ترجمة مضللة كما يعبر محمد قطب؛ "لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم، بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم. بل المقصود بها في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة"⁵. فتبين أن مبدأ العلمانية الأساس هو: نبذ الدين وإقصائه عن الحياة الإنسانية، وتطبيق القوانين البشرية بدل الشرائع السماوية فيما يتعلق بأمور الحياة العامة، وتقليص دور الدين في المعابد والمساجد والأحوال الشخصية التي لها علاقة بالزواج والطلاق/ أو الأحوال الشخصية. وقد مرت الفكرة العلمانية من بداية نشأتها إلى قيامها بمرحلتين اثنتين، أولاهما: مرحلة اعتبار الدين أمرا شخصيا، لا شأن للدولة به، غير أن عليها حماية المعابد، والتفكير العلماني في هذا المرحلة وإن طالب بالفصل بين الدين والدولة إلا أنه لم يسلب الدين حقه في التشريع وقيمه في المجتمع. وثانيهما: مرحلة العهد المادي أو المسمي بـ "الثورة العلمانية" في القرن التاسع عشر وما بعده، وهي المرحلة الأخطر التي تلغي الدين من الواقع بالكلية، وتدعو إلى عدم الأيمان بالأمور الغيبية، واعتبار المحسوس موجودا، والمعدوم معدوما غير معتبر⁶.

فتقرر من خلال هذا المعنى: أن العلمانية بفتح العين وكسره، "تصلحان تعبيرا عن الظاهرة المادية التي تستولي اليوم على مجتمعاتنا الإسلامية، وذلك لأن الكلمتين متكاملتان متفاعلتان من حيث المفهوم، فالعلمانية هي تكريس للدنيوية، والعلمانية أساس هذا التكريس؛ لأن

1 - قاموس المورد، لمنير البعلبكي، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، 1977م.

2- ينظر: العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص، للدكتور أحمد إدريس الطعان، ص: 45 وما بعدها، نشر: دار ابن حزم، الرياض، ط 1، 1428 هـ / 2007م.، ومذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص: 446 وما بعدها.

3 - المعجم الوسيط، (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) 156 / 2.

4- الكنز، معجم فرنسي - عربي، لجروان، ص: 1030.

5 - مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص: 445.

6 - ينظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، د. جمعة الخولي، ص: 92، والموسوعة الميسرة، ص: 367 - 368،

العلم بمفهومها هو العلم المادي والتجريبي والطبيعي، أي الدنيوي فقط، ولا تعترف بعلوم غيبية ميتافيزيقية أخرى، فالعلمانية وإن لم ترتبط بالعلم من حيث الاشتقاق فإنها لا تنفك عنه، إذ هي ارتبطت تاريخيا بتعلم العلوم العقلية والطبيعية والتجريبية"1.

مما سبق يمكننا استخلاص أهم سمات الشخصية العلمانية ومعالمتها البارزة تجاه القرآن المجيد ومواقفها ضد تشريعاته السياسية والاقتصادية على وجه الخصوص، فيما يلي:

- نبذ كل ما له علاقة بالدين، ومحاولة التفريق بين ما هو ديني ودنيوي، وأن الدين أو القرآن لا دخل له في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة، وما يتعلق بتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- اعتبار القرآن كتابا دينيا يتعبد بتلاوته، وينحصر دوره في المسجد فحسب؛ وفصله عن مقصد تنزيله الأساس في تسيير شؤون الدولة الإسلامية على ضوء تشريعاته وأحكامه، وادعاء أنها نصوص تجاوزها الزمن، ولم تعد صالحة في عصرنا الحاضر بأية حال، فتعين استبدالها بالأنظمة البشرية التي تسير الواقع، حسب ما سنقف عنده في المطلب الأخير من هذا المبحث.

- ومن معالم الشخصية العلمانية: تحريفها لنصوص القرآن العقدية والشرعية، وحملها على غير محاملها الصحيحة، بنشر التصورات الخاطئة، ونسفها على الجملة والتفصيل إن اقتضت السياسة. ولولا أن القرآن كتاب تكفل الله بحفظه لحرفوه ونسفوه، كما صنعوا بالإنجيل، فإن محرري دائرة المعارف البريطانية، وهم من ذوي الكفاءات والتخصصات اللاهوتية قالوا: "لم يبق من أعمال السيد المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة"2، فغيروا كل ذلك بما تقرره مبادئ العلمانية؛

- إن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بلاغا للقرآن والشرعية مجردا عن الحكم والتنفيذ، لأن القرآن رسالة روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم في أمور الدنيا3.

على هذه المعالم العامة، بنت الشخصية العلمانية مبادئها، وأسست قوانينها التي منها تنطلق في التصدي لأحكام القرآن وتشريعاته، وتوجيه الشبهات لآياته ونصوصه، كما سنقف عليه في عرض الشبهات الاستشراقية والعلمانية والرد عليها من خلال نصوص القرآن نفسه، من خلال المطلبين الآتيين.

1 - العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص، للدكتور: أحمد إدريس الطعان، ص: 178، نشر: دار ابن حزم، الرياض، 1428هـ.
2 - العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، لسفر بن عبد الرحمان الحوالي، ص: 46.
3- ينظر: الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرزاق، دراسة ووثائق بقلم الدكتور محمد عمارة، ص: 21 وما بعدها، نشر: مكتبة الإسكندرية - الطبعة العربية الجديد، 2000.

المطلب الثاني: النقد القرآني لشبهات المستشرقين

بما أن القرآن المجيد وحي إلهي المصدر، يعتبره المسلمون مصدرهم الأول في التشريع، كان محط أبحاث المستشرقين ودراساتهم، فتوجهت إليه أنظارهم وصرفت إليه عنايتهم دراسة وترجمة، حتى يتمكنوا من تحقيق ضالتهم المنشودة في النيل من القرآن وتشكيك المسلمين في عقيدتهم التي تستمد أصولها من القرآن على الأساس؛ ذلك لأن القرآن المجيد مصدر خطر وتهديد دائم بالنسبة إلى هؤلاء المبشرين والمستشرقين من الغربيين، يخشون عودته من جديد... وكي لا يبقى للمسلمين أصل صحيح يستمسكون به، وهدى قرآني يهتدون به، ودستور رباني يحتكمون إليه، فإنهم أسسوا مجموعة من المزاعم والشبهات حول القرآن قصد التشكيك في عالميته، وفي كونه وحيا منزلا من عند الله قبل كل شيء، فركبوا بعد دراسات مضنية دامت لشهور وسنوات، لكنها تبقى مجرد مجهودات بشرية لا ترقى إلى مستوى النقد والتتقيص من الدستور الإلهي "القرآن المجيد" فكان غالب ما سطره هؤلاء المستشرقون من المزاعم والشبهات مسبقا إليه من قبل المنافقين ومشركي مكة منذ القرن الهجري الأول، غير أنهم غيروا صيغ الشبهات وتصرفوا في أساليبها، فسجلت من تلكم الشبهات والمزاعم الاستشراقية ما يلي:

الفرع الأول: نقد ادعائهم بأن في القرآن تحريفا ولحنا:

1 - دعوى وقوع التحريف واللحن في القرآن:

لم يزل المستشرقون يبحثون عن مواطن الخلل في القرآن الكريم، ويوجهون إليه انتقادات تتفاوت في درجات التعصب والبهتان، لكن ادعاء ورود اللحن في القرآن والقول بوقوع التحريف في آياته أشهرها وأوسعها انتشارا، إذ لم يتجرأ أحد من عقلاء العرب الأقحاح أن يرمي القرآن بهذه التهمة السخيفة التي وقف عندها كبار الباحثين من متعصبي المستشرقين، وتعتبر الشبهة الوحيدة التي سبق المستشرقون إلى إثارتها، وأما غيرها من المزاعم كاتهام الوحي بأنه شيء نفسي، أو ضرب من السحر، أو حالة من الصرع والجنون، فقد سبقهم إليها المشركون منذ عهد بعيد. ويجد المستشرقون في موضوع النسخ وجمع القرآن الكريم مدخلا لهذه الشبهة؛ حيث يستغلون مفهوم "النسخ" واختلاف الروايات ومعنى تأخر عملية التدوين والجمع في رمي القرآن باللحن والتحريف، على اعتبار أنه عمل بشري خالص، ناسين أن القرآن إنما دون في مصحف عثمانى بعد أن كان محفوظا في الصدور والسطور معا، كما أشارت إليه رواية زيد بن ثابت رضي الله عنه في قوله: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع"1.

أ - دعوى ورود التحريف في آيات القرآن وسياقها:

لاحظ الدارسون من المستشرقين اختلاف الروايات الواردة في قضية الجمع، فاتخذوها مسلكا للطعن في سلامة القرآن من التحريف، كما يبين ذلك قول المستشرق الألماني نولدكه: "لم

1 - أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني: حديث صحيح، 734 / 5، الحديث رقم: 3954، وللتوسع في الموضوع، يرجع إلى كتاب: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 1 / 237، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391هـ، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 1 / 99، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م.

يتم جمع القرآن خلال زمن الرسول بصورة كاملة (...) ولو افترضنا وفق ما ادعى زيد بن ثابت بأن القرآن لم يكن قد جمع، فهنا افتراض آخر يطرح نفسه، هو: من أين جاءت مضامين نسخة أبي بكر؟¹، ثم وضع فصلا خاصا لنقد القرآن سماه: "الوحي الذي أنزل على محمد ولم يحفظ في القرآن"²، إشارة إلى أن القرآن حُرّف بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم، كما يشير بروكلمان إلى هذا الزعم بقوله: "ومما يحتمل كثيرا من الشك ما ذكرته الرواية من أن معركة اليمامة الحاسمة مع مسيلمة سنة 12 هـ / 663م التي قتل فيها عدد كبير من قراء الصحابة، هي التي قدمت الداعي إلى جمع القرآن (...) على أن الخليفة عمر هو الذي أمر زيد بن ثابت"³ ليؤكد بذلك دعوى التحريف بسبب تأخر الجمع إلى عصور متأخرة، ويوافقه المستشرق جون جلكرايست فيقول -بكل صفاقة- في الفصل الرابع الموسوم ب(الفقرات التي فقدت من القرآن): "لقد رأينا من قبل أنه بعد مقتل عدد كبير من القراء في معركة اليمامة ذهب جزء من القرآن كان لا يعلمه إلا هؤلاء. وهناك أيضا عدد من الروايات الصحيحة توضح أن آيات منفردة وأحيانا مقاطع كاملة فقدت من القرآن. لقد أجمع المؤرخون المسلمون القدامى على أن القرآن في حالته الراهنة غير مكتمل : (قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله وما يدره ما كله، قد ذهب قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر)⁴5، ليستمر في إيراد الروايات الإسلامية المتعلقة بجمع القرآن وموضوع النسخ، قصد تأويلها وتصريفها فيما يخدم مصالح الاستشراق، مؤيدا زعمه هذا بأن الحفاظ فد ماتوا معظمهم في معارك المسلمين، وأن الرسول محمدا "كان هو نفسه عرضة لنسيان بعض أجزاء القرآن"⁶، ويتكفل المستشرق (كازانوف) بعرض بعض أمثلة التحريف بتبديل وتغيير فيقول: "إن القرآن قد أدخلت عليه بعد وفاة النبي تغييرات قام بها خلفاؤه ليفصلوا (...) بين بعثة الرسول وقيام الساعة اللتين يرى بينهما ارتباطا مباشرا، والدليل على ذلك ما ورد في الآية: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}⁷ فلما لم تقم الساعة وضع الصحابة سورة الشك موضع اليقين، ولا يستبعد أن الآية قبل التبديل هي كالاتي: (وسنريك بعض الذي نعدهم)⁸.

ب - دعوى وقوع اللحن اللغوي والبلاغي في القرآن:

استغل المستشرقون كذلك موضوع جمع القرآن واختلاف رواياته وأحرفه في اتهامه باللحن وضعف الأسلوب، وركاكة التعبير، لما يشتمل عليه أسلوبه من الالتفات والتكرار، وفساد

- 1 - تاريخ القرآن، للمستشرق نولدكه، 5/2، ترجمة وقراءة نقدية، للدكتور: رضا محمد الدقيقي، نشر: وزارة الأوقاف القطرية.
- 2 - نقلا عن كتاب المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبي شهبة، ص: 285.
- 3 - تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، 1/139.
- 4 - الإثقان في علوم القرآن للسيوطي، 2/66.
- 5 - جمع القرآن، لجون جلكرايست، ص: 15، كتاب منشور في الأنترنت على موقع: www.an-swering-islam.Org/arabic/gilchrist/jam
- 6 - المصدر السابق، ص: 19.
- 7 - سورة الرعد، الآية: 41.
- 8 - من كتاب نقد الخطاب الاستشراقي، لسالم الحاج بتصرف، 1/320، 321.

المعنى. وهي تهمة استشراقية خالصة، لم يقل بها مشركو الجزيرة العربية¹، الذين يعتد بقولهم في مجال فصاحة القرآن وبلاغته، ولعلمهم تلقفوه من بعض الروافض الشيعة الذين يزعمون أن عثمان تصرف في القرآن قصداً، حسب ما أورده الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني من الروايات المكذوبة عن عائشة رضي الله عنها في قوله: "وأما ما روي عن عائشة من قولها في أحرف المصحف إنها لحن، وإنها من غلط الكاتب فإنه أيضاً جار مجرى الخبر المروي عن عثمان في هذا الباب؛ لأنه من أخبار الآحاد التي لم تقم الحجة بها"²، فاعتمد المستشرقون على روايات الروافض في هذا الباب، ليوجهوا للقرآن مجموعة من الشبهات، مفادها: "الطعن في أسلوب القرآن ولغته، ورميه بشبهة التكرار وانعدام الترتيب، ووقوع اللحن في كلماته".

رأى بعض المستشرقين أن في الأساليب القرآنية تكراراً وفساداً، خاصة فيما يتعلق بترتيب الأخبار، وحكاية القصص، فاعتبروا ذلك تجريحاً وطعناً في القرآن، كما يصرح أحدهم بذلك قائلاً: "إن في قصص القرآن الكريم انقطاعاً يفسد ترتيب الأخبار وتسلسلها ويعرضها إلى الغموض"³، كما يصرح بعضهم⁴ بأن القرآن لم يكن معرباً، وأن اللغويين هم الذين أعربوا القرآن حيث نزل القرآن بلهجة قريش، فقام اللغويون بحذوه على مثال لغة الشعر العربي الذي تتميز بوجود الإعراب في مقابل اللهجة الحجازية التي كانت على زعمهما غير معربة⁵، حتى ألف المستشرق الفلسطيني سامي عوض الديب في الموضوع مؤلفاً بعنوان: "الأخطاء اللغوية في القرآن الكريم/ Linguistic Errprs in the holy Koran in arabic"، الذي يفاجئ فيه القارئ من مقدمة الكتاب بقوله: إن الوحي هو: "كلام البشر عن الله، وليس كلام الله للبشر"⁶، ويقول بصدد حديثه عن مخالفة القرآن لقواعد اللغة: "وأخطاء القرآن اللغوية لا تتوقف على النحو، ويمكن تصنيفها إلى عدة أنواع: نحوية، وإملائية، واستعمال كلمات أو عبارات مبهمة، واستعمال كلمات بغير معناها، وترتيب معيب لعناصر الخطاب، ونص مبهم في الجملة، وتكرار، وانتقال من موضوع لآخر دون رابط بينهما، وتناقض. ويصل عدد أخطاء القرآن بأنواعها المختلفة إلى أكثر من 2500 خطأ"⁷، ثم استمر في تعداد الأخطاء المزعومة تفصيلاً، مما درسه اللغويون والبلغاء قبله، فلم يجدوه إلا أساليب معجزة في الفصاحة والبيان، خاصة ما يتعلق بأسلوب الالتفات الذي يعتبره هو لحنًا وخطأً لغوياً، كما سنقف عليه في النقد والتحقيق. ومرد تلك الأخطاء -حسب المستشرق الفلسطيني- إلى: المرض النفسي لدى مؤلف القرآن، أو عدم تمكنه من اللغة العربية وحدثة عهده بها "فهذه الظاهرة تتواجد بكثرة فيمن يتعلم لغة غير لغته الأم، كما هو الحال مع الإفريقيين الذين أتوا إلى فرنسا حديثاً، ويطلق على كلامهم عبارة

1 - المستشرقون والإسلام لمحمد قطب، ص: 58.
2 - الانتصار للقرآن، للقاضي الباقلاني، 539 / 2، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، نشر: دار ابن حزم، ط 1، 1422 هـ / 2001م.
3 - تاريخ القرآن، للمستشرق نودلكه، ص: 277.
4 - من أمثال: (كارل فلرز) و (باول كراوس) و (سامي عوض الديب).
5 - ينظر: مخططات الاستشراق، لأنور الجندي، ص: 17، والغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، لمحمد علوة، ص: 98.
6 - الأخطاء اللغوية في القرآن الكريم، للدكتور سامي عوض الديب، ص: 5، نشر: مركز القانون العربي، 2017م.
7 - المصدر السابق، ص: 7.

الزنجي الصغير"1. ويمثل هؤلاء المستشرقون للأخطاء اللغوية النحوية الواردة في القرآن بجملة من الآيات التي تبدو مخالفة لقواعد النحو العربي الموضوعة، كرفع ما حقه النصب أو العكس، أو نصب ما عكسه الجر أو عكسه، مستشهدين بقوله تعالى: {إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ رِّجٌ}2، وقوله تعالى: {وَالْمُؤِوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّٰبِرِينَ}3، وغير ذلك من الآيات التي يظهر منها اختلاف مع مشهور قواعد العربية، مما بينه علماء المسلمين من اللغويين والمفسرين قبل أن يكون للفكر الاستشراقي وجود.

2 - نقد دعاوي التحريف ووقوع اللحن في القرآن:

يستدعي النقد القرآني لهذه المزاعم الاستشراقية التي تتوجه إلى الطعن في النص القرآني ورميه باللحن تفصيلها إلى ثلاث شبهات: أولها: ما يتعلق بتحريف القرآن بزيادة أو نقصان أو تغيير، وثانيها: ما يتعلق بالأساليب القرآنية البيانية والبلاغية؛ وثالثها ما يتعلق باللحن المزعوم وروده في الألفاظ والكلمات، إملائيا كان أونحويا.

أ - نقد الشبهة الأولى: (وقوع التحريف في القرآن):

غير بعيد أن يكون المستشرقون قد تلقفوا هذه الشبهة من القرآن نفسه، حيث أكد على تحريف الكتب السماوية السالفة من قبل أصحابها، فأرادوا أن يردوا عليه بسلاحه، فيطمسوا الحقيقة القرآنية انطلاقا من مدخل مفاهيمي خطير، ك"الأحرف السبعة" و"اختلاف القراءات" و"تأخر الجمع". والجواب على هذه الشبهة من منطلقين اثنين:

- أولهما: أن القرآن كتاب تعهد الله بحفظه، كما ينص عليه القرآن بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}4، وقوله في آية أخرى: {وَتَمَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}5، فهي آيتان دالتان على سلامة النص القرآني وأنه محفوظ من التغيير والتحريف بإجماع المفسرين6، فهو "ذكر حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكرا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير في صورته وسياقه، بحيث يتغير به صفة كونه ذكرا لله، مبينا لحقائق معارفه"7، لأنه كتاب تكفل الله بحفظه في الصدور والسطور، فكان يؤخذ شفاهة وكتابة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحالي بطرقه

1 - الأخطاء اللغوية في القرآن، ص: 29.

2 - سورة طه، جزء من الآية: 62.

3 - سورة البقرة، الآية: 176.

4 - سورة الحجر، الآية: 9.

5 - سورة الأنعام، الآية: 109.

6 - ينظر: الكشف، للزمخشري، 3/ 572، ومجمع البيان، للطبرسي، 5/ 331، وتفسير الفخر الرازي، 19/ 160 - 161.

7 - الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي، 12/ 103 / 104.

المتنوعة البالغة غايتها في الضبط والدقة والإتقان. فسلامة القرآن من التحريف حقيقة مطلقة، لا تقبل التشكيك إلا تعصبا ومكرا، على غرار صنيع المستشرقين حيث يعمدون إلى جمع الصحابة للقرآن فيزيفون حقيقته ومفهومه على عامة الناس، ويوهمونهم أنه من تأليف الصحابة، رغم أن القرآن كان مكتوبا ومحفوظا من قبل، وإنما شاء الصحابة أن يجمعه في مصحف واحد بين دفتين خوفا من اختلاف الناس عليه وموت حفظته، كما قال الإمام البغوي: "والذي حملهم على جمعه ما جاء بيانه في الحديث، وهو أنه كان مفرقا في العصب، واللحاف، وصدور الرجال، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا شيئا أو أخروا، أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم"1، فبقي الأمر على هذه الحال باتفاق جميع نسخ القرآن الخطية، وحفاظها الذين هياهم الله لحفظ كتابه من تأويل المبطلين وتحريف الغالين، حتى استحال على أحد من الخلق أن يتصرف في النص القرآني بزيادة أو نقصان.

- والمنطلق الثاني: اختلال فهم المستشرقين أو تحريف لمفهوم "اختلاف القراءات" ومعنى "تأخر جمع القرآن"، فإن اختلاف القراءات أمر ثابت بالإجماع، ولا يعني ذلك أن آيات القرآن خضعت لأي تبديل أو تغيير؛ لأن الوحي القرآني برواياته المختلفة محفوظ باللفظ والمعنى معا، كما أن تأخر جمع المصحف لا يعني أن القرآن لم يكتب إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل كتب وحفظ منذ أول آية نزلت منه، وقد كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم حريصا على تسجيل كل آية فور نزولها، وحفظها في السجلات التي سطر فيها²، وقد وردت أدلة كثيرة تنسف هذا الذي يدعيه المستشرقون الذين يخلطون بين التدوين وكتابة آيات القرآن وجمعه في مصحف واحد، منها:

الأدلة من القرآن: ينص القرآن على أن آياته كانت كتابا معهودا بين الناس، يشار إليه، وتتعلق به أحكام، كما دل عليه قوله تعالى: {ذَلِكَ أَلْكُتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}3، فالكتاب يدل على أن القرآن مكتوب حينها، لقوله في آية أخرى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ}4، والجمع معناه: الكتابة أيضا، لما أخرجه البخاري في الصحيح من قول زيد ثابت: "فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللحاف وصدور الرجال"⁵، ويؤكد ذلك تعليق

1 - شرح السنة، للبغوي، 4/ 521 - 522.

2 - ويدل على ذلك قصة إسلام عمر وغيرها من الأحداث. ينظر: سيرة ابن هشام، 1/ 342، واللبان، لفاطمة هدى نجا، الغرر ص: 154 وما بعدها.

3 - سورة البقرة، الآية: 1.

4 - سورة القيامة، جزء من الآية: 16.

5 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، 6/ 98، الحديث رقم: 4402.

الأحكام الشرعية به، في قوله: {إِنَّهُ لَفُرْعَانٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾} فِي كِتَابِ مَكْنُونٍ ﴿٨١﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} ¹.

الأدلة من الأحاديث الصحيحة: إن الأحاديث الدالة على وجود القرآن مكتوباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة وافرة، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو" ²، وحديث الموطأ أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب لعمر بن حزم: "أن لا يمس القرآن إلا طاهر" ³، وكذلك نهيه عن كتابة الحديث حتى لا تختلط السنة بالقرآن، حيث قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه" ⁴، واتخذ لنفسه كتاباً يكتبون له الوحي، ويأمرهم بكتابته فور نزوله، كما أخرج ذلك الإمام البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: "لما نزلت {لَا يَسْتَوِي} الْفَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ⁵، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته، فأنزل الله: {غَيْرِ أَؤْلَى الضَّرَرِ} ⁶ ⁷.

ب - النقد القرآني للشبهة الثانية: (اختلال الأساليب القرآنية):

من غريب ما يزعمه المستشرقون الذين لم يبلغوا مبلغ القرشيين في بيان العربية وفصاحتها، أن يقولوا باختلال الأساليب القرآنية، وأن آيات القرآن وموضوعاته غير متناسقة ولا متناغمة فيما بينها، ضاربين بعرض الحائط كل مؤلفات العلماء في موضوع المناسبات، التي حددت حتى مناسبات أوائل السور لأواخرها، ما بالك بمناسبة الآية للتي قبلها وبعدها، بيد أن الجواب على هذه الشبهة يكون انطلاقاً من تفصيل هذه الشبهة إلى مسألتين: أولاًهما: دعوى التكرار، وثانيها: اختلال التناسق بين الموضوعات والقصص القرآنية على الخصوص.

أما دعوى التكرار، فإن في القرآن تكراراً بالفعل، لكنه لم يكن لمجرد الإطناب والتكرار، بل وقع في القرآن لضرورة تقتضيه وفائدة تستجبه وتستدعيه، وهو ثلاثة أنواع، هي: ما يتكرر لفظه ومعناه متحد، وما يتكرر لفظه ومعناه مختلف، وما يتكرر معنى لا لفظاً، وفوائده البلاغية كثيرة، منها: تأكيد الأمر وتقريره في نفوس المخاطبين، والدلالة على المعنيين المختلفين كذلك

1 - سورة الواقعة، الآيات: 80، 81، 82.
2 - متفق عليه أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهة السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، 3 / 1090، الحديث رقم: 2828، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصاحف إلى أرض الكفار، 6 / 30، الحديث رقم: 4946.
3 - أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن، 1 / 199، الحديث رقم: 469.
4 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الثب في الحديث وحكم كتابة العلم، 8 / 229، الحديث رقم: 7702.
5 - سورة النساء، جزء من الآية: 94.
6 - سورة النساء، جزء من الآية: 94.
7 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، سورة النساء، 4 / 1677، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين... الحديث رقم: 4317.

إن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفا¹، والمبالغة في طلب الفعل أو الترك أو الدعاء، كما ورد في قول الشاعر العربي:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي *** ثلاث تحيات وإن لم تكلمي².

ولو كان أسلوبا معيبا لما استعملته العرب بكثرة، ولانتقده مشركو مكة وهم أفصح الناس وأعلمهم بلسان العرب وأساليبه الصحيحة والسقيمة على القرآن، بل وقع الأسلوب القرآني من نفوسهم موقعا عظيما، حتى سلموا لبلاغته تسليما.

وأما دعوى اختلال التناسق بين القصص وموضوعات القرآن فمردودة بأن القرآن ليس غرضه الحكاية والأحداث التاريخية بحد ذاتها حتى يطلب منه التسلسل في الأحداث والترتيب في الموضوعات، وإنما يقصد إلى التشريع، و "التذكير والتهويل؛ ولذلك ترد مرارا بحسب ما يقتضيه الكلام، وكثيرا ما ترد على سبيل الإشارة والتلميح. والنسق الخطابي يقتضي التكرار كما هو معروف"³، وقد صرح القرآن بهذا الهدف في آيات كثيرة، منها قوله: {فَافْصُصْ

الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}⁴، فيذكر من القصة ما يفي بغرض الموعظة والإفادة فحسب. وشبهتهم هذه تتم عن جهل بأساليب القرآن وخصائصه، فلا يجوز مقابلة أسلوبه القصصي بأسلوب القصة في التوراة؛ لاختلاف الغرض فيهما "ففي التوراة عدا أسفار الأنبياء والأمثال والأناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري الأخبار مجراها الاعتيادي"⁵، بخلاف القرآن الذي غرضه الإشارة إلى الأحداث بغرض الاعتبار والتبصر والتدبر، وأهداف أخرى تختلف حسب كل حالة، مجملها:

- أن الله إذا كرر القصة زاد فيها شيئا. فذكر الحية في عصا موسى -مثلا- وذكرها في موضوع آخر ثعبانا يفيد أنه ليس كل حية ثعبانا، وهذه بلاغة في القول؛

- تسلية الله لقلب نبيه، كما في الآية القرآنية: {وَكَلَّا نَفُصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الرُّسُلِ مَا نُنَشِّتُ بِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ وَاجْتَنَابَهُ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}⁶.

1 - الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن قيم الجوزية، ص: 111.
2 - ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش، 2/ 220، والفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، لابن القيم، ص: 112.
3 - الأساليب النثرية في الأدب العربي، لأنيس المقدسي، ص: 61.
4 - سورة الأعراف، الآية: 176.
5 - الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني، ص: 63، أطروحة قدمت إلى مجلس كلية الفقه، جامعة الكوفة، للباحثة: سحر جاسم عبد المنعم الطريحي، 1433 هـ / 2012م.
6 - سورة هود، الآية/ 119.

- مقصد الإعجاز: فإن القصة الواحدة وإن ظن المستشرقون أنها لا تتغير، فإن الأمر عكس ذلك، حيث يرد في ألفاظها زيادة ونقصان، وتقديم وتأخير، كما يشير القرآن من خلال هذا الأمر إلى أن العرب عاجزون عن الإتيان بمثله مهما تكررت القصة أو الآية. وكذلك صنع القرآن بمشركي مكة قديما، فإنهم لما سخرُوا منه تحداهم وكرر التحدي في مواطن مختلفة، قائلًا: {قَاتُوا بِسُورَةِ مَسِّ مِثْلِهِ}؛¹ دفعا لحججهم من كل وجه². ولأمثال هؤلاء المستشرقين المشككين في بلاغة أساليب القرآن يقال:

وإذا لم تر الهلال فسلم *** لأناس رأوه بالأبصار.

ج- نقد الشبهة الثالثة: (وقوع اللحن في القرآن):

هذه شبهة مردودة من وجهين اثنين: أولهما: أن القرآن نزل في بيئة عربية متميزة بالفصاحة والبلاغة، وبين أمة كانت بضاعتها الكلام الفصيح، حتى أقامت لها أسواقا أدبية رائجة كسوق عكاظ وغيرها من الأسواق والتجمعات التي يردها فرسان الفصاحة والنقد والبيان، فكان ذلك هو السبب في أن تحداهم القرآن بفصاحة الكلام وبلاغته، لأنه من جنس ما يعرفون ويتقنون "فلو كان في القرآن ما يخالف كلام العرب فإن هؤلاء البلغاء العارفين بأساليب اللغة ومزاياها لأخذوه حجة عليه ولعابوه بذلك، واستراحوا به عن معارضته باللسان أو السنان، ولو وقع شيء من ذلك لا حتفظ به التاريخ، ولتواتر بين أعداء الإسلام، كيف ولم ينقل ذلك ولا بخبر واحد؟"³، لكنهم رأوا في القرآن كلاما آخر أفصح وأرقى من مستوياتهم البلاغية والبيانية.

وثانيهما: أن القرآن سابق للتقعيد النحوي العربي، وهو الأصل الأول من أصول النحو العربي، وعليه فإن أية قاعدة تخالف لغة القرآن لا تخدم في الاستعمال القرآن، بل هو دال على العكس، وأن النقص في القاعدة لا في الاستعمال القرآني الفصيح، فالقرآن هو الحاكم على العربية والمهيمن عليها، وليس كما يتوهمه المستشرقون من أن القرآن خالف قواعد النحو العربي، رغم أن قواعد العربية لم تؤسس إلا في القرن الثاني من الهجرة النبوية، وهو جهل عجيب وخط مرفوض؛ لأن القواعد مناهج بشرية لم تؤسس إلا على أساليب العرب الفصحاء، وأفصحها على الإطلاق حينها القرآن الكريم. وقد سجل لنا التاريخ هذه الفصاحة اللغوية التي يتميز به القرآن، فلم يقدر أحد من العرب على معارضته ومدافعتة "فمحزوا حتى آثروا المقارنة على المعارضة، وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة، فلو قدرُوا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنقل إلينا"⁴، فاستفز القرآن كافة الخلق وأباح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا متى شاءوا

1 - سورة البقرة، جزء من الآية: 22.

2 - آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، للدكتور عمر رضوان، ص: 679.

3 - البيان في تفسير القرآن، للخنوي، ص: 81.

4 - إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، 4/ 7 - 8، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مطابع الأهرام، 1390 هـ / 1970 م. والمقصود بنفي المعارضة: هو سلامتها، لا ورودها، وإلا فقد سجل التاريخ محاولات كثيرة لبعض الأدعياء، فباءت كلها بالفشل، وصاروا أضحوكة بين الناس، تضرب بهم الأمثال "فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته، ومنهم ماكر وجد الناس في زمن أعقل من تروج فيهم سخافات فطوى صحفه وأخفاها إلى حين" كما عبر الشيخ دراز في النبأ العظيم، ص: 82.

وكيف شأؤوا بقوله: {فَل لِّسِ الْجَمْعِ الْإِنْسِ وَالْجِسِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} ¹، وأكد عجزهم وعدم قدرتهم بقوله: {فَبِإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} ²، "فلعمري لو كان فيه لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأبادة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلما يصعدون به إلى مزاحمته" ³.

فبطلت بهذا النقد القرآني الإعجازي كافة الأراجيف الاستشراقية التي تتعلق بأخطاء القرآن العربية والإسلامية، التي لن أحمل هذه الرسالة عبء الرد على مزاعمها الزائفة؛ لأن المفسرين وعلماء المسلمين ⁴ كانوا سباقين إلى تبين وجوها ومحايلها، قبل أن يكون للمستشرقين كلام يذكر، فلا يمكن بأي حال أن يكون لها تأثير على مصدرها، وإلا كان الأصل فرعاً ورجع الفرع أصلاً، وهو أمر مستحيل، خاصة وأن القرآن هو السبب المباشر في بقاء اللسان العربي إلى الآن، ولولاه لكانت العربية بحد ذاتها في خبر كان!!

الفرع الثاني: نقد ادعائهم بأن القرآن كتاب سيف وقتل:

لما أعيا المستشرقين إصاق تهمة "التحريف" ووقوع "الحن" بالقرآن من أجل نفسه بالكلية، صاروا إلى دراسة مضامينه، ليقفوا على شبهات تشكك عامة الناس في سلامة تشريعاته وقوانينه، فاستغل المستشرقون التوسع الإسلامي في أوروبا بسبب الفتوحات التي كانت في عهد المرابطين والعثمانيين في عملية تشويه الرسالة القرآنية، وتصويرها في نفوس الناس على أنها رسالة الحقد والكراهية، فادعوا أنها رسالة إرهابية تعتمد على السيف والحرب وكره الآخرين، ولا تنتشر إلا بالقوة والسلاح، وهو الأمر الذي يفسره تشريع الجهاد وفرضه على المسلمين بغرض إكراه الناس على اعتناق الإسلام، حسب المزاعم الاستشراقية التي لها تصور سلبي ناقص عن مفهوم الجهاد، فصورت حروب المسلمين ومعاركهم تصورياً سيئاً يشوه الحقيقة التاريخية الثابتة. يقول جون هيجل: "كان الإسلام دائماً وسيبقى دائماً دين السيف؛ لأنه لا يمكن العثور على أي فكرة للحب في القرآن" ⁵، فالخطر في نظر هؤلاء هو الخطر الذي يهدد الحياة البشرية والأوربية على الخصوص، كما يصرح الوزير البريطاني جلاستون في القرن الماضي: "ما دام هذا القرآن

1 - سورة الإسراء، الآية: 88.

2 - سورة البقرة، جزء من الآية: 23.

3 - النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، للدكتور عبد الله دراز، ص: 85، نشر: دار القلم، الكويت.

4 - للتوسع في الرد على الأخطاء المزعومة في القرآن يرجى الرجوع إلى: الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم دراسة ونقد، للدكتور أحمد محمد الفاضل، ص: 451 وما بعدها، نشر: مركز الناقد الثقافي، دمشق، وتفسير القرآن الكريم بخصوص كل آية يظن بها خطأ وحن، وكتاب القاضي الباقلاني "الانتصار للقرآن" 531/2 وما بعدها، وكتاب النبأ العظيم، للعلامة عبد الله دراز، وبعض المراجع المؤلفة في الموضوع على الخصوص، ك: موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، القسم الأول: القرآن، المجلد الثاني، و دعاوى المستشرقين حول وجود أخطاء لغوية في القرآن الكريم، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر، للباحثة: زيلمي ضاوية، 2014 - 2015م، وآراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، للدكتور عمر بن إبراهيم رضوان.

5 - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، د. مشتاق بشير الغزالي، ص: 42.

موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"1، ويستدلون على هذا الزعم بموقعة بني قريضة، التي أعمل فيها المسلمون السيف في يهودها، ويؤولون الرسالة التي أرسلت إلى ملوك قيصر والروم -وهي شاهدة على أن الإسلام دين سلم وسلام- بأن رسول القرآن حينها "لم يكن يملك القوة اللازمة لإجبارهما على اعتناق الإسلام، ولا المغريات التي تجعلهما يفعلان ذلك من تلقاء نفسيهما (..) وقد ثبت عدم صحة الرسالة التي عثر عليها وقيل: إنها هي رسالته صلى الله عليه وسلم للمقوقس عظيم القبط"2، ويعتمدون على بعض الآيات القرآنية التي قد تكون منسوخة، أو واردة في سياق خاص، كقوله تعالى: {فَإِذَا أَنسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}3، وقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}4.

هكذا يقدم المستشرقون مزاعمهم على أنها حقائق علمية ثابتة مبنية على البحث العلمي الموضوعي الدقيق، والحق أنها مزاعم باطلة، وشبهات عصبية مردودة بالنصوص القرآنية، والواقع.

أما النصوص النقدية التي وردت بهذا الخصوص في القرآن المجيد فكثيرة متنوعة، تفصل أحكام السلم والحرب؛ وربما لأن موضوعاتها متشعبة تحتاج إلى عقل فقهى راجح، وإمام كبير بأسباب النزول وسياقات الآيات الواردة في شؤون الجهاد والقتال، فقد وقعت أعين المستشرقين على آية القتل فقط، لتقتصر دراساتهم -عن جهل أو قصد- على آيات القتال فحسب، ولم تعد الانتقادات الاستشراقية إلى دراسة موضوع السلم والحرب في القرآن من كافة جوانبه. والحق أن القرآن المجيد ليس رسالة إكراه أو إرهاب. وبإمعان النظر في ثناياه نجد آياته النقدية شاهدة على إبطال هذه المزاعم الاستشراقية وتفنيدها، من خلال مسلكين اثنين:

المسلك الأول: التصريح بأن القرآن رسالة حب وتسامح، لا رسالة إكراه، فلم ينتشر بالسيف كما يزعم المستشرقون. وما كان لرسول القرآن وصحابته المؤمنين أن يخالفوا تعاليم القرآن الصريحة التي لا تحتل لبسا ولا تأويلا5، كقول القرآن: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ فَمَنْ دَبَّرَ الرَّشْدَ مِّنَ الْغَيِّ}6، وقوله: {وَفَلِ الْخَوْفُ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ

1 - المصدر السابق، ص: 43.

2 - من دائرة المعارف الاستشراقية المختصرة، بتصرف، 1: 402، و2/ 401.

3 - سورة التوبة، الآية: 5.

4 - سورة الأنفال، الآية: 91.

5 - المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص: 80.

6 - سورة البقرة، من الآية: 255.

شَاءَ فَلْيَكْفُرْ¹، بالإضافة إلى أن آيات القرآن التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين عديدة، لم ينسخ منها شيء، بخلاف آيات الحرب التي نسخ منها الكثير. وانطلاقاً من هذا المسلك فإن الآيات التي يستشهد بها هؤلاء المستشرقون إما أن تكون منسوخة، أو تكون قد وردت في سياق الحالة الحربية لرد العدوان، لها ظروفها وملابساتها الخاصة²، فاستخدم الإسلام السيف لإزالة القوى المادية والسياسية والعسكرية التي تقف في سبيل دعوته بين الناس والتعرف على دين الله "فإذا أزيلت تلك القوى الحاربة الباغية، فالناس أحرار بعد ذلك في أن يعتنقوا الإسلام أو يبقوا على عقيدتهم بغير إكراه، بشرط واحد هو ألا يعتدوا على المسلمين"³، وليس فيها ما يدعو إلى استمرار القتال مع غير المسلمين، كما سنتبينه في المسلك الثاني.

المسلك الثاني: تفصيل موضوع القتال والحرب تفصيلاً عقلياً دقيقاً عادلاً، ومردّه إلى حالات ثلاث:

– الأولى: حالة الحرب:

إن معظم الآيات التي استشهد بها المستشرقون جاءت في سياق هذه الحالة الحربية، التي يشن فيها غير المسلمين الحروب على المسلمين، فلم يكن للمسلمين بد من المواجهة ورد العدوان، فنزل قول القرآن: {إِذْ لِلَّذِينَ يُفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا⁴}، وفي نفس السياق ورد قول الله تعالى: {وَفَلْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا⁵}، فكان الاعتداء قيدا في القتال، وإلا كان البادئ باغياً معتدياً {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ⁶}، وكذلك آية "الإعداد والإرهاب": {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ⁷}، فإنما تتوجه إلى البغاة الذي يبتدؤون بالعدوان أو يبيتون الغدر والخيانة، لا لسائر الناس، كما يؤكد سياق الآية الذي ورد في نقض العهد⁸.

– الثانية: حالة السلم: وهي الحالة الطبيعية التي يعتزل فيها الناس القتال، دون أن تقع فيها بين المسلمين وغيرهم أية مشاحنة حربية، فيجزم القرآن الكريم حمل السلاح في هذه الحالة،

1 - سورة الكهف، الآية: 29.
2 - نحن والغرب، للدكتور يوسف القرضاوي، ص: 61.
3 - المستشرقون والإسلام، ص: 80.
4 - سورة الحج، من الآية: 37.
5 - سورة البقرة، جزء من الآية: 189.
6 - سورة البقرة، جزء من الآية: 189.
7 - سورة الأنفال، الآية: 91.
8 - ينظر: تفسير الطبري، 14 / 31، وتفسير ابن عطية، 2 / 545، تفسير الفخر الرازي، 15 / 499، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، 10 / 54، وما بعدها.

كما نص عليه في قوله: {فَإِنْ إِغْتَزَلْتُمْ فَلَكُمْ فُتُورٌ وَإِلَيْكُمْ} ¹، ويحث على معاملة غير المقاتلين بالسلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ²، كما جاء في قوله: {لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُفْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ³.

- الثالثة: حالة المعاهدة: حينما يكون بين المسلمين وغيرهم من المحاربين عهد وسلم، فتتص آيات القرآن في هذه الحالة على الركون إلى السلم ووجوب الوفاء بالعهد مهما بلغت قوة المسلمين، كما في قوله: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} ⁴، وقوله: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ} ⁵.

هذه نصوص قرآنية تكذب مزاعم المستشرقين وتفند أكاذيبهم التي ترمي القرآن بأنه كتاب الإرهاب، وإعمال السيوف في الرقاب، وتبين أن القرآن "لا يتشوف إلى القتال، ولا يتطلع إلى سفك الدماء" ⁶، كما تفيد آيات كثيرة، من بينها: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ} ⁷.

وأما الواقع فعلى خلاف ما يزعمون ويسطرون، إذ نجد رسول القرآن - وهو من هو في الشجاعة- لا يحب الحرب، ويقول: "يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية" ⁸، ويؤكد ذلك بقوله: "أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن (...) وأقبح الأسماء: حرب، ومرة" ⁹، وكذلك كان صحابته وأتباعه المؤمنون، وقد حكموا الأندلس ثمانية قرون "فلم يحدث مرة واحدة أن أكرهوا فرداً واحداً على اعتناق الإسلام (...) ووجود نصارى إلى هذه اللحظة في مصر والشام بعد أربعة عشر قرناً من الحكم الإسلامي دليل لا يقبل المحاكمة. ولم يحدث قط

1 - سورة النساء، الآية: 89.

2- سورة الممتحنة، الآية: 8.

3 - سورة الأنفال، الآية: 62.

4 - سورة التوبة، الآية: 4.

5 - نحن والغرب، للشيخ القرضاوي، ص: 61.

6 - سورة الأحزاب، الآية: 25.

7 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار آخر، 3/ 1082، الحديث رقم: 2804، وفي كتاب التمني، باب كراهية تمني لقاء العدو، 6/ 2644، الحديث رقم: 6810، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، 5/ 143، الحديث رقم: 4640.

8 - أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، 4/ 443، الحديث رقم: 4952، نشر: دار الكتاب العربي، بتعليق الألباني، والحديث صححه الألباني، والإمام أحمد في مسنده، الجزء الحادي والثلاثون، حديث أبي وهب الجشمي، 31/ 377، الحديث رقم: 19032، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1420 هـ / 1999م.

في ظل الحكم الإسلامي أن قامت حرب إبادة، كالتى أقامها النصارى في الأندلس قديماً، وفي البوسنى والهرسك وكوسوفا في الوقت الراهن"1، بل كان المسلمون يتعايشون مع غير المسلمين في جو فريد من التسامح والاحترام، كما يوجبهُ القرآن الكريم.

المطلب الثاني: النقد القرآني لشبهات العلمانيين والماديين:

تختلف الشخصية "العلمانية" عن غيرها من الشخصيات المعادية للقرآن وتشريعاته بأنها شخصية لها طابع ذاتي مستقل، وشخصية قائمة على منظومة مجتمعية، تُنظَر، وتسيطر، وتُسود، وتحكم. فليست مجرد مدرسة فكرية لها أتباعها وروادها، بل هي اتجاه فكري وعملي معاً، لها مواقف من القرآن المجيد على الخصوص ومن سائر الرسائل الدينية على العموم. والذي يلاحظه الباحث في شبهاتها الواردة حول القرآن باعتباره مصدر الشريعة الإسلامية، أنها لا تهدف إلى نسف النص الديني كما يتغياهُ المستشرقون وغيرهم من منتقدي القرآن، بل غايتها: تقييد النص القرآني، وجعله كسائر النصوص البشرية التي لا تسير الحياة الإنسانية المتطورة، والهيمنة على كل ما هو ديني، والسيطرة على كل كتاب يحاول تسييس الواقع وتسييره بتشريعاته وقوانينه المنزلة من عند الله.

ومن هذا المنطلق بادر رواد العلمانية ودعاتها إلى الحد من "الهيمنة الدينية" و"الحكم الديني" و"اعتبار القرآن مرجعاً في الحكم والسياسة وتدبير شؤون الدولة" فوجهوا إلى القرآن مجموعة من المزاعم والشبهات، بعضها يرجع إلى مجال الاعتقاد، وبعضها إلى مجال الأحكام والتشريع، أوردتها ثم أبين نقدها في النصوص القرآنية، من خلال الفرعين الآتين.

الفرع الأول: شبهات العلمانيين حول القرآن

1 - شبهة الخرافة والأسطورة

ترتكز هذه الشبهة على رمي المسائل العقدية الغيبية التي جاء بها النص القرآني بأنها أمور غيبية، يعتبر اعتقادها والإيمان بها من قبيل الخرافة التي ترفضها العقلية الماركسية المادية التي تستند إليها العلمانية وتستمد منها أصولها ومناهجها في مواجهة الدين لتحقيق النجاح "فنقد الدين هو الشرط الممهد لكل نقد"2، والاستناد إلى الواقع هو المنطلق السليم "فالدين وليد الأرض وليس وليد السماء"3 حسب الماركسيين، "فلا شيء غير الواقع ... أما الإيمان بمصدر إلهي للقرآن وبقداسة له، فهو كلام يقال، وفي الأخذ به طمس لهذه الحقيقة التي انتهى إليها هؤلاء عندما نزلوا المنهاج الماركسي في المادية الجدلية على القرآن الكريم"4. وعلى هذا النهج جرى كثير من رواد العلمانية العرب، متأثرين في تحليلهم للقرآن بالنظريات الماركسية

1 - المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص: 81.

2 - حول الدين، لكارل ماركس، ص: 33، ترجمة: ياسين حافظ، نشر: دار الطليعة، بيروت، ط 2، 1981م.

3 - المادية التاريخية، لكيلله وكوفالسون، ص: 313، ترجمة: إلياس شاهين، نشر: دار التقدم، موسكو، وانظر: مركسة الإسلام، لمنصور أبي شافعي، ص: 13.

4 - ينظر: الاتجاه العلماني المعاصر، ص: 381، والتفسير الماركسي للإسلام، للدكتور محمد عمارة، ص: 43.

العلمانية، فيترجم الدكتور نصر أبو زيد هذه الفكرة المادية قائلًا: "الواقع إذن هو الأصل ولا سبيل لإهداره، من الواقع تكون النص، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه (...). فالواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً. وإهدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة"¹، ويعتبرون العقيدة مجرد تصورات أسطورية في ثقافة المجتمع البشري، لم يكن مصدرها القرآن الكريم "بل كان مصدره الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية، وبالتالي لا مانع -بزعمهم- من استحداث أقوال في تفسير آيات الله تتناقض أصول العقائد الإسلامية"²، فكان من اللازم -في نظر هؤلاء الماديين- ضرورة تطوير العقيدة، وتطوير مفهوم لفظ الله، لأن وجود مسلمات وعقائد راسخة تعتبر عقبة في وجه تقدم الدراسات الإسلامية والفكر العربي حسب التعبير الأركوني³. وهي نظرية روكيش الأمريكي الذي يقول بنفس العقائد ووصفها بأنها أشياء غير صحيحة ولا وجود لها "وسبب تملكها لقلب المؤمن هو أنها (لا مفكر فيها) أن المؤمن يمنع نفسه من التفكير فيها بسبب حواجز نفسية واجتماعية، فلو فكر فيها لاكتشف أنه مخدوع ومتأثر بتأثيرات خارجية قوية"⁴. ومن هنا قالوا: "إن ارتباط ظاهرتي الشعر والكهانة بالجن في العقل العربي (...). هو الأساس الثقافي لظاهرة الوحي الديني ذاتها، ولو تصورنا خلو الثقافة العربية قبل الإسلام من هذه التصورات لكان استيعاب ظاهرة الوحي أمراً مستحيلاً من الوجهة الثقافية، فكيف يمكن للعربي أن يتقبل فكرة نزول ملك من السماء على بشر مثله ما لم يكن لهذا التصور جذور في تكوينه العقلي والفكري؟"⁵، ذلك لأن الفلسفة المادية لا تقبل سوى المادة باعتبارها الشرط الوحيد للحياة، ومن ثم ترفض الإله والعالم الغيبي كشرط من شروط الحياة⁶، فالغيبات -حسب الفكر العلماني- كالعرش، والملائكة، والصراط، كلها تصورات خرافية أسطورية⁷، قائلين بأن القرآن ينكر العالم الغيبي؛ لأن الغيب في القرآن هو المستقبل، كما سمي الماضي كذلك غيباً في بعض الآيات⁸، فأصبح من الممكن الوصول إلى عالم الغيب بقليل من المنطق والحساب⁹؛ "لأن دراسة القرآن دراسة علمية على يد نخبة من العلماء، سوف تساعد العلماء في اتخاذ الاتجاه الصحيح نحو تحقيق وإثبات معادلات هذا الكون الشاسع (...). ومعرفة الألغاز التي يتكون منها الإنسان"¹⁰، فصاروا يفسرون كل الغيبات بناء على هذا الأصل المادي قائلين: إن الجنة والنار هما النعيم والعذاب في هذه الدنيا "وليس في عالم آخر يحشر فيه الإنسان بعد الموت، الدنيا هي الأرض، والعالم الآخر هو الأرض، الجنة ما يصيب الإنسان من

-
- 1 - نقد الخطاب الديني، للدكتور نصر أبو زيد، ص: 99 - 100.
 - 2 - التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد، للدكتور محمد إبراهيم الشافعي، ص: 330.
 - 3 - الفكر الإسلامية، قراءة علمية، لمحمد أركون، ص: 15.
 - 4 - التيار العلماني الحديث لمحمد إبراهيم الشافعي، ص: 334.
 - 5 - ينظر: مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، ص: 38، والتفسير الماركسي، للدكتور عمارة، ص: 56.
 - 6 - الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، للدكتور عبد الوهاب المسيري، ص: 16، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان - دار الفكر، دمشق، سورية، ط 1، 2002م.
 - 7 - النص، السلطة الحقيقة، لنصر أبو زيد، ص: 135.
 - 8 - كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ سورة آل عمران، الآية: 41- 42 - 43.
 - 9 الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص: 82.
 - 10 - من كلام الصادق النيهوم، نقلاً عن كتاب ينتقده بعنوان "الصادق النيهوم إسلام ضد إسلام شريعة من ورق"، ص: 246، نشر: رياض الريس للكتب والنشر.

خير في الدنيا، والنار ما يصيب الإنسان من شر فيها"¹، وأما الحور العين وملذات النعيم فإنما هي تعبير عن الفن والحياة بدون قلق².

2 - شبهة قصور النص القرآني وتاريخيته:

تعتبر الشبهة الأولى التي تقضي بكون القرآن نصا من وحي العرب وخيالهم وثقافتهم فحسب مقدمة لهذه الشبهة الثانية التي تقول بمحدودية النص القرآني، وعدم عالميته وصلاحيته لكل زمان ومكان، واعتبار آيات القرآن قاصرة على أسباب نزولها وورودها دون أن تصلح لتجاوز واقع العرب حين نزوله، فهو رسالة محلية، وليست عالمية صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها نزلت للعرب في ذلك الزمان حسب ما يتطلبه حالهم المعرفي والثقافي، وهي في الحقيقة شبهة سبقت إليها طائفة من اليهود تسمى "العيسوية" أتباع أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني "زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول صادق، لكنه مبعوث إلى العرب خاصة"³.

هذه خلاصة النظرية العلمانية التي تبناها كثير من المفكرين العرب أيضا، وبذلوا جهدا كبيرا في إخضاع النص القرآني للتاريخية التي تعني: "إخضاع النص لأثر الزمان والمكان والمخاطب مطلقا"⁴، وكأنه كلام بشر عادي، لا وحي من الله العالم بأحوال الكون كله، فيكون القرآن على هذا الأساس مرتبطا بواقع وظروفه التي تنزل فيها، ومرتبطا بأسبابه وسياقاته. فتعاليم القرآن المقدسة مرتبطة بظروف تاريخية، والعقائد الإسلامية وصياغاتها ذات طابع تاريخي⁵. فاعتبروا نزوله بلسان العرب، ونزول بعض آيات القرآن لأسباب معينة، دليلا على محدودية خطابه وقصور تشريعاته، وعدم صلاحيتها للأزمنة المتأخرة عنه، خاصة عصرنا الحالي الذي يعرف تطورات كبيرة في مجال الثقافة والصناعة والاقتصاد؛ لذلك نجد العلمانيين يتشبثون بمبدأ "نزول كل آية على سبب"، كما يدعي ذلك المستشار محمد سعيد العشماوي في قوله: "كل آيات القرآن نزلت على الأسباب -أي لأسباب تقتضيها- سواء تضمنت حكما شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظاما أخلاقية"⁶، ويعبر عن ذلك المفكر الفرنسي الماركسي (روجيه غارودي) الذي أسلم فيما بعد وسمى نفسه (رجاء) بقوله: "إن الله في القرآن كما في التوراة والأنجيل، يكلم الإنسان في التاريخ. إن كبار المفسرين الأوائل للقرآن كالطبري، يذكرون بالظروف التاريخية التي نزلت فيها كل آية. والمقصود دائما هو جواب عيني من الله عن مسألة كانت أمة النبي تطرحها عليه (...) إن كل آية من القرآن هو جواب إلهي عن مسألة

1 - من العقيدة إلى الثورة، للدكتور حسن حنفي، 4/ 601.

2- العنف والمقدس والجنس، لتركلي على الربيعو، ص: 140 - 141.

3 - ينظر: تفسير النيسابوري، 4/ 14، وتفسير الألوسي، 2/ 161، و7/ 177،

4 - العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص، للدكتور: أحمد إدريس الطعان، ص: 332.

5 - ينظر: العقل في الإسلام، للعشماوي، ص: 69، وتاريخية الفكر، لمحمد أركون، ص: 126، والوحي والواقع: دراسة في أسباب النزول ضمن كتابه "هموم الفكر والوطن" لحسن الحنفي، 1/ 47.

6 - جوهر الإسلام، للعشماوي، ص: 197.

ملموسة"1، فأحكامه التشريعية بناء على هذا نسبية لا مطلقة، كما يؤكد ذلك العشماوي بقوله: "فأحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة، ولم تكن مجرد تشريع مطلق"2، بمعنى: أن كل آية إنما تتعلق بحادثة ذاتية، فهي مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة3، مستنديين في ذلك كله إلى أصلهم الذي يحدد "طبيعة العلاقة بين النص والواقع الذي ينتج النص"4. ولئن كانوا يحترمون التدين الفردي وبعض العبادات الشخصية التي لها طابع شخصي، فإنهم يعتبرون الأحكام العملية للقرآن تشريعات لا تستطيع مسايرة الحياة البشرية المعاصرة، بل يعتبرون التمسك بها سببا في تخلف الأمة "فقد أصبحت المساجد أوكار الإرهاب، وبرزت معالم التخلف ومظاهره في تنامي التدين الشخصي كما هو واضح في صفوف المصلين، والحجاب واللى"5، ومن هذا المنطلق فإن الصلاة مسألة شخصية وليست واجبة6، والصوم كذلك ليس فرضا، وإنما هو للتخيير، وقد فرض على العربي فقط؛ لأنه مشروط بالبيئة العربية، ولذلك فالصوم بالنسبة للمسلم غير العربي مجرد دلالة وعبرة دينية7، بل قد يكون حراما على المسلمين في العصر الحاضر؛ لأنه يقلل الإنتاج8. وأما عن علاقة القرآن وتشريعاته بتعاملات الناس وتسييره شؤون الدول فأمر لم يكن بتاتا؛ لأن نبي القرآن محمدا لم يكن إلا رسول دعوة دينية خالصة كخالين قبله من الرسل، فلا علاقة بين السياسة وبين الإسلام "وما كان ملكا، ولا مؤسس دولة، ولا داعيا إلى ملك (..) هيئات هيئات، لم تكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة (..) لم يكن هناك ترتيب حكومي ولم يكن ثمة ولاية ولا قضاة ولا ديوان (..) كانت زعامة دينية، ويا بعد ما بين السياسة والدين"9.

ولم تقف حدود العلمانية عند فصل القرآن عن تسيير شؤون الدولة فحسب، وإنما تذهب إلى فصل الدين عن العمران بكل معارفه ومؤسساته، إما لأن هذه هي حقيقتها -في إسلامية العمران كله- وإما لأن نطاق الدولة الحديثة قد امتد إلى الكثير من ميادين العمران"10.

3 - دعوى إساءة القرآن لحرية الإنسان (المرأة، وقضية الرق نموذجا):

مما يركز عليه العلمانيون في شبهاتهم التي تهدف إلى التشكيك في سلامة النص القرآني وعدم صلاحيته لمسايرة الحياة الإنسانية المتغيرة: قضية المرأة، وادعاء أنها مهانة في نصوص

- 1 - الأصوليات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها، ص: 88 فما بعدها، وانظر: الأصولية بين الغرب والإسلام، للدكتور محمد عمارة، ص: 62 - 70.
- 2 - معالم الإسلام، لمحمد سعيد العشماوي، ص: 120.
- 3 - الإسلام السياسي، محمد العشماوي، ص: 51.
- 4 - مفهوم النص، لنصر أبو زيد، 106 - 107.
- 5 - ينظر: القاشيون والوطن، ص: 200، والعلمانية تحت المجهر، للعظمة، ص: 181.
- 6 - ينظر: القراءة الجديدة، لعبد الرزاق هوماس، ص: 129، 169، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، للدكتور عبد المجيد الشرفي، ص: 63.
- 7 - ينظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لشرفي، ص: 63، 64، ولبنات لشرفي أيضا، ص: 173 وما بعدها، وسلطة النص، لعبد الهادي عبد الرحمان، ص: 109.
- 8 - حسبما أعلنه بورقيبة رئيس تونس السابق. ينظر: تونس الإسلام الجريح، لمحمد الهادي مصطفى الزمزمي، ص: 48 - 49، والتطرف العلماني في مواجهة الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص: 144.
- 9 - الإسلام وأصول الحكم، للشيخ علي عبد الرزاق، ص: 48 - 80، طبعة القاهرة، سنة: 1925.
- 10 - الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، للدكتور محمد عمارة، ص: 63.

القرآن "فتم إبعاد النساء من الحياة السياسية والتشريعية والدينية لمجرد أنهن نساء"1، و "تهمة الاسترقاق" وادعاء أنه لو كان صالحا لكل زمان ومكان لما أباح الرق، "وأن إباحته للرق لدليل قاطع على أن الإسلام قد جاء لفترة محدودة، وأنه أدى مهمته فأصبح في ذمة التاريخ"2، فعوض أن يعترف العالم الغربي بأسره، علمانيين، ولا دينيين بفضل القرآن ورسالة الإسلام على تحرير البشرية، وتكريم المرأة، صاروا يوجهون إليه أصابع الاتهام، فقالوا: "هضم الإسلام حق المرأة، حيث أعطاه نصف نصيب الرجل في الميراث، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وجعل الطلاق بيد الرجل، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة، فحرمها كثيرا من الحقوق التي تمتع بها الرجل"3، ومن ضمنها: حق النسب، فلقد "نبعت القيم الدينية والأخلاقية المزدوجة التي نعيشها حتى اليوم من هذا الاحتكار الأبوي للنسب والشرف والأخلاق والدين"4، وسبب ذلك - حسب نوال السعدوي- راجع إلى نشأة الأديان في عصور يحكمها النظام العبودي، ولهذا السبب نجد بعض المفاهيم التي تشير إلى الرق في بعض الآيات الدينية، كما نجد أيضا المفاهيم التي تشير إلى أن جنس الذكور أعلى درجة أو درجات من جنس الإناث"5، مشيرة بذلك إلى الآية القرآنية: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهَا دَرَجَةٌ}6، فاعتبرت المفكرة العلمانية نوال السعدوي أن الثقافة الإسلامية حولت المرأة إلى سلعة أو "عبدة"7 حسب تعبيرها "فظلت المرأة العربية المسلمة جزءا من ممتلكات الرجل، ولا زالت معظم البلاد العربية بما فيها مصر تحكم على نسائها بهذه القوانين الجائرة في الزواج حتى اليوم"8، فتوجهت النظرية العلمانية على العموم إلى الطعن في مجموعات من التشريعات القرآنية في هذا الباب، كتعدد الزوجات، وقضية "للذكر مثل حظ الانثيين" في الإرث، وغيرها من القضايا، التي يثيرها العلمانيون بغرض التشكيك في صلاحية النص القرآن لمسايرة الحياة.

الفرع الثاني: النقد القرآني لشبهات العلمانيين

نزل القرآن بخطاب عام موجه إلى البشرية جمعاء، كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه، يقابل انتقادات خصومه بصدر رحب واسع، ومنهج حوارى شامل، يتضمن النقد البناء لكافة الآراء والشبهات والمزاعم التي توجه إليه من قبل أعدائه وخصومه العلمانيين على الخصوص، من قبيل ادعاء كونه كتاب خرافات وأساطير، أو كتابا خاصا بمحيطه الذي نزل به، وبالتالي لا يصلح لتسيير شؤون الناس الدينية والدنيوية في الحياة المعاصرة، واتهامه بامتهان المرأة وحرية الأشخاص، كما سنتبينه في الآتي.

1 - عن المرأة والدين والأخلاق، لنوال السعدوي، ص: 47.

2- نقلا عن "شبهات حول الإسلام" لمحمد قطب، ص: 37.

3 - ينظر: الإسلام في قفص الاتهام، لشوقي أبو خليل، ص: 222، نشر: دار الفكر، ط 5- 1402 هـ / 1982 م.

4 - عن المرأة والدين والأخلاق، لنوال السعدوي، ص: 21، نشر: مؤسسة هندواي سي أي سي، 2017 م.

5 - عن المرأة والدين والأخلاق، لنوال السعدوي، ص: 21 - 22.

6 - سورة البقرة، الآية: 226.

7 - الوجه العاري، لنوال السعدوي، ص: 7.

8 - المصدر السابق، ص: 57.

أولاً: النقد القرآني للشبهة العلمانية: "الأسطورة العقدية في القرآن":

يأبى القرآن الكريم إلا أن يكون خطاب عقيدة وشريعة، وكتاب روح ومادة في آن واحد، على عكس ما يتوهمه العلمانيون الماديون الذين يعتبرون الغيب والإيمان "خرافة وأسطورة". فجاء النقد القرآني لتبيين أن الإيمان أو "الغيب" حركة وسطية في الحياة، وأنه كتاب يرفض الخرافة والأسطورة التي شاعت في التصورات الجاهلية المبنية على الأوهام، ويؤسس لغيبيات معقولة تدرك بالعلم وإعمال العقل والتكفر والتدبر، كالإيمان بالله وملائكته ورسوله وما أعده الله للمتقين في الحياة البرزخية، ويرفض في مقابل ذلك أن يتحول الإنسان إلى مجرد ماديات جوفاء لا روح فيها ولا حياة، معلنا ذلك في مفتتح سورة البقرة: {أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} ¹، ثم فصل معاني الإيمان وحكمه في كثير من آياته، كما في قوله: {يَأْتِيهَا النَّاسُ فَذَجَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِعْبَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} ²، "قالإيمان بالغيب حقيقة قائمة لا يمكن أن يرفضها عقل راجح أو ينكرها حس سليم رغم كونها غائبة عن ملامسة حواسنا إياها- فهي منبثة في كل خلية من خلايا أجسادنا، وفي كل ذرة من ذرات وجودنا، وعلينا أن نميز هذه الحقيقة عن الخرافة التي هي اللاغيب، وإنما هي مجرد أوهام تستجلب من دائرة العدم لتضاف إلى الغيب باسم الدين" ³، فيتكون لدينا ثلاث دوائر، هي: دائرة عالم الشهادة المدرك بالحس، وعالم الغيب وهو حقيقة قائمة لكنها تدرك بالنصوص الربانية ولا تقع تحت دائرة الإدراك الحسي مباشرة، ودائرة الخرافة، وهي وهمية لا وجود لها في واقع الأمر ⁴، ولا دليل عليها من النص القطعي الثبوت والدلالة، فتوجه النقد القرآني إلى تصحيح مسار الطرفين معا (الموغلون في الخرافات والأساطير، والماديون المنكرون للغيبيات بإطلاق) حتى يكون الناس على الهدى القرآني القائم على الوسطية والاعتدال في كافة أحكامه وتشريعاته العقدية والعملية، دون أن تقف عقيدة "الإيمان بالغيب" حجرة عثرة معيقة للتقدم الحضاري، والازدهار الفكري الإنساني.

فبين النقد القرآني بمنهجه: أن الطبيعة لا يمكنها أن تخلق أي شيء كما يزعم الماديون الذين ينسبون كل وجود رباني إلى "الطبيعة" بدل نسبته إلى الله وهو القائل: { لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ⁵، لكنهم بدل الإيمان بالغيب "الخالق" يعترفون بالغيب "الطبيعة" لأن الله شيء غير محسوس، وكأن الطبيعة شيء يحس

1 - سورة البقرة، الآية: 1 - 2.

2 - سورة يونس، الآية: 57.

3 - الإيمان بين الغيب والخرافة، لخميس بن راشد العدوي، وخالد بن مبارك الوهيبي، ص: 8 - 9، نشر: مكتبة الغبيراء، ط 1، 1428 هـ / 2007م.

4 - الإيمان بين الغيب والخرافة، ص: 21.

5 - سورة الأنعام، الآية: 104.

ويلمس! {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} ¹، تخوفاً من الاعتراف والإيمان بالخالق. لكنهم وقعوا في مغالطة وتناقض، فما الطبيعة على وجه التحديد؟ "إذا لم تكن محسوسة ولم يكن يحدها المكان ولا الحيز، وكانت غيباً لا تدركه الأبصار، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره، فما الذي يبرر في منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقي اسم الله، ونلجأ إلى مسميات ما أنزل الله بها من سلطان؟ (..) وما الذي يبرر في منطق العقل أن يقول قائل: إنه ليس حقيقة حتى يكون اسمه الله جل جلاله، ثم يكون هو ذاته حقيقة حين يكون اسمه (الطبيعة)؟" ²، فإن المؤمنين بالله ورسوله وبالغيبات المنصوص عليها لم يروا الله جهرة؛ لكنهم رأوا من الآثار ما يدل عليه، كما بينه القرآن: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ³، {إِنَّ اللَّهَ قَلِيلٌ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ قَبَآئِبِي تُوبِكُونَ} ⁴، فأين الطبيعة؟ وأين آثارها؟ و"متى شوهدت المادة وهي تخلق؟ وكيف تخلق؟" ⁵، وقد صرح (جورج إيرل دافيز george earl davis) عالم الطبيعة بذلك في قوله: "فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك هو أنه ليس هناك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه" ⁶.

وقد أثبت القرآن بأدلة عقلية وحجج منطقية -وقفت عند بعضها في مبحث النقد القرآني لشبهات المشركين- أن المخلوق مهما كانت تسميته وشخصيته: (الطبيعة/ الآلهة/ الأصنام...) لا يستطيع إيجاد نفسه بله غيره، وأن خالق الكون ومدبره هو الله الذي خلق الإنسان جسداً وروحاً، وقلباً وعقلاً، وجعل لكل منها حقوقاً ورتب عليها واجبات، حتى يبقى الإنسان متوازناً معتدلاً بين الإيمان بالقدر والإيمان بالتبعية والحرية الإنسانية، حتى لا تقف عقيدته عائقاً "عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة" ⁷، ولذلك فإن القرآن لم يهمل الحانب الديني، بل حث على طلبه وتحصيله بقوله: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} ⁸، فعلاقة الدين بالدنيا في القرآن قائمة على الوصل لا على الفصل كما يزعم العلمانيون، رغم علمهم ومعرفتهم بأن القرآن كتاب علم يحث على التقدم والرقى بالأمة إلى أوج الحضارة، وليس فيه ما يخالف هذا. فلو كان عائقاً أمام التقدم الإنساني لربما كانت شبهات العلمانيين هذه مقبولة "فهل وقف الإسلام القرآني في تاريخه عائقاً أمام ازدهار الأمة وازدهار حضارتها وثقافتها ومجتمعاتها حتى يحتاج

1 - سورة النمل، الآية: 14.

2 - مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص: 307.

3 - سورة الذاريات، الآية: 21.

4 - سورة الأنعام، الآية: 96.

5 - مذاهب فكرية معاصرة، ص: 308.

6 - الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من كبار العلماء الأمريكيين، ص: 41، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، تعليق ومراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، نشر: دار القلم - مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع.

7 - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، لعباس محمود العقاد، ص: 27، نشر: مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، 2012.

8 - سورة القصص، الآية: 77.

إلى مسخ أو طمس أو تشويه؟ أم أن الإنسان هو الذي يحتاج إلى إصلاح وتمثل حقيقي لدين الله عز وجل، وتفاعل حقيقي مع كلمات الله جل وعلا؟ (...) إن تضييع الوقت في تأويل الإسلام وتحريفه لن يجدي شيئاً، وسوف يزيد من مآسي الأمة وتأخر نهضتها"1.

ثانياً: النقد القرآني لشبهة "تاريخية القرآن ومحدوديته":

نصت كثير من الآيات2 - بما لا يحتمل تأويلاً ولا تعطيلاً - أن القرآن كتاب عالمي شامل، ورسالة كونية خالدة، صالحة لكل زمان ومكان، كما في قوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}3، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}4، وقول الله لرسوله: {فَلْيَأْيُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}5. وأثبت تطبيقه الفعلي في بعض الأوساط الاجتماعية -عبر التاريخ الإسلامي- نجاعته وقدرته على مسايرة الحياة الإنسانية، وحل مشاكلها السياسية والاقتصادية والأسرية، والإجابة عن نوازلها المستجدة، على خلاف ما يتوهمه العلمانيون والقائلون بمحدودية النص وقصوره على أقوام معينين (العرب وحدهم) بدعوى: أن القرآن إنما نزل بلسانهم، وأن كل آية في القرآن نزلت لسبب مخصوص في سياق مخصوص. والجواب على هذه الشبهة من ثلاثة وجوه:

الأول: إثبات عالمية النص القرآني وديمومة خطابه وتشريعاته، والثاني: بيان أن نزوله بالعربية لا يقتضي أنه خاص بالعرب، والثالث: إبطال دعوى "قصور كل آية على سبب نزولها".

الوجه الأول: الاستدلال على عالمية النص القرآني:

يُجمع المسلمون على أن الخطاب القرآني عام شامل وخطاب دائم "يستغرق الزمن كله، بل يتعدى الزمن. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتنق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)6 فكأن القرآن امتداد للزمن يتجاوز هذه الحياة (..) وممكن لكل هذه الأجناس أن يصل إليها القرآن، ويتجاوب معها، ويفهم منها، والعبارة القرآنية فيها مرونة تخرج منها أو تتحملها الآية"7. وإجماعهم هذا مستند إلى المنهج

1 - العلمانيون والقرآن الكريم، للدكتور أحمد إدريس الطعان ص: 841 - 842.
2 - أوردها بالتفصيل والتحليل فضيلة الدكتور محمد جمعة عبد الله في كتابه: رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن، ص: 129 وما بعدها، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1436 هـ / 2015م.
3 - سورة ص، الآية: 85.
4 - سورة سبأ، جزء من الآية: 28.
5 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 158.
6 - أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن، 3 / 43، الحديث رقم: 766، والإمام الترمذي في سننه، كتاب فضل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وقال: حديث حسن صحيح، 5 / 177، الحديث رقم: 2914.
7 - كيف نتعامل مع القرآن، للشيخ محمد الغزالي، ضمن سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، ص: 204 - 205، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م.

القرآني في التشريع وخطاب العقول، حاضرة كانت أو غائبة، فتميز هذا القرآن بعالمية خطابه، كما نستخلصه من ملامحه النقدية، على الشكل الآتي:

أ - من الملامح النقدية القرآنية الدالة على عالمية خطابه وشمول تشريعاته: أن الله يمنح كل نبي من المعجزات ما يناسب ثقافة قومه وطبيعة محيطه، فأعطى الله لرسول القرآن معجزة خالدة، لا يقتصر إعجازها على اللغة والبيان فحسب، بل يتعداه إلى الإعجاز العلمي والكوني الذي يخاطب ملاحدة العصر وعلمانييه. وما الآيات الكونية والخلقية إلا شاهدة على هذا الأمر. وهي أدوات فكرية وعقلية ومادية محسوسة، مشتركة بين سائر البشر يدركها سائر الناس: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَغُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ¹، فعلى هذا النهج وعد القرآن المجيد سائر البشرية بكشف الآيات الدالة على عالميته وصلاحيته للعالمين في الآفاق والنفوس، حسب ما يوافق كل عصر ومصر، فقال: {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَانِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ². غير أن النقد القرآني -في محاورته للعقل العلماني والمادي- خاطبهم بإعجاز علمي دقيق لم تكن العرب تفهمه أو تعرفها حينها، وإنما اكتشف بعض ذلك في عصرنا الحالي بفضل التطور العلمي الحديث في الطب، والفلك وغيرها من العلوم، قائلا: {قَلِيلَ نَظَرَ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِي ﴿٢﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} ³، فهي عملية علمية معقدة، يعسر على العرب والأمة المتواجدة حين نزول الآية إدراك خفاياها وخبايها، كما في آية المطر: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَتْرَىٰ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ} ⁴، وقوله: {أَقْبَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} ⁵، إلى غيرها من الآيات العلمية الدقيقة التي يستحيل أن تكون معروفة عصر نزول

1 - سورة البقرة، الآية: 163.

2 - سورة فصلت، الآية: 52.

3 - سورة الطارق، الآية: 5 - 7.

4 - سورة الروم، الآية: 47.

5 - سورة الأنبياء، الآية: 44.

الوحي، وإنما انتهى البحث العلمي المعاصر إلى اكتشاف بعض أسرارها "فهل في هذا مجرد مصادفة؟ هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية ومعتمد على علمه الطبيعي الخاص (...) لعلوم التشريح، والأرصاد الجوية والكونية والنفسية للحيوان والإنسان وفروع أخرى كثيرة؟"¹.

ب - ومن الملامح النقدية الدالة على عالمية الخطاب القرآني: أنه لا يفرق بين الأمم والشعوب في أدوات الخطاب، فكانت كثيرة من آياته تبتدئ بصيغة التعميم، كقوله: {يا أيها الناس}، أو {قل}. قال الإمام الرازي -في تفسير قوله تعالى: {فَلْ يَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}²، وقد اشتمل على نوعين من أساليب التعميم-: "لأن قوله: {يا أيها الناس} خطاب يتناول كل الناس. ثم قال: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس، وأيضاً فما يعلم بالتواتر من دينه: أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى كل العالمين. فإما أن يقال: إنه كان رسولا حقا، أو ما كان كذلك. فإن كان رسولا حقا امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقا في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الخلق وجب كونه صادقا في هذا القول، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل"³، ولا شك أن العلمانيين يقرون بنبوته وصحة رسالته، فيلزمهم تصديق كل ما جاء به القرآن.

الوجه الثاني: قضية "نزل القرآن بلغة العرب":

إن الاعتراض من هذه الناحية اللغوية مردود؛ إذ لا يتشترط في الخطاب العالمي (الذي أريد أن يخاطب العالم) أن يجيء بسائر اللغات "فإذا كانت التوراة والإنجيل أنزلت لبني إسرائيل بالسرانية وقد انقرضت تلك اللغة فهل من جاء بعد من بني إسرائيل غير مخاطبين بأحكامها؛ لأن لسانهم قد تغير؟ وهل مقررات الأمم المتحدة في نصوصها الملزمة المحكمة عند التنازع - وهي في الغالب الصادرة بالإنجليزية والفرنسية دون الترجمة لأغلب اللغات الأخرى - لا سلطان لها على بقية دول العالم بحجة اختلاف اللسان؟ أم هي مقررات عالمية وإن صدرت باللغة الإنجليزية أو الفرنسية"⁴. فلا وجه للاعتراض على "خطاب القرآن" من جهة لغته، وادعاء أن "عربيته" دليل على "التاريخية"، فاللغة إنما هي أداة تواصل، لا تدل على اختصاص الخطاب بقوم دون آخرين، وإنما تكون وفق لسان البلد الذي يبعث الرسول في أواسطه، كما عبر القرآن:

1 - المدخل إلى القرآن الكريم، للشيخ عبد الله دراز، ص: 177.

2 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 158.

3 - تفسير الفخر الرازي، 383/15.

4 - رسالة القرآن، لنخبة من الباحثين والكتاب، بمناسبة الاحتفال بإنجاز مصحف قطر وبدء تداوله، ص: 64، إعداد: إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، ط 1، 1431 هـ / 2010 م.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ فَؤْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ¹، فرغم أن قومه هم العرب -كما يقول الإمام النيسابوري- لكنهم قوم أخص من أهل دعوته، لأن أهل دعوته الثقلان: الإنس والجن، كما يؤكد ذلك وقوع التحدي وسريانه إلى قيام الساعة بنص القرآن: {فَلِّ لِيْسِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا²}. ونزوله بلسان قومه لا دلالة فيه على محدوديته، وإنما نزل بلسان العرب لأنهم كانوا أقرب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيبين لهم بلسانهم ثم ينوب عنه التراجم في كل أمة بلسانها الذي تفهمه³.

الوجه الثالث: قضية سبب النزول: إن ادعاء العلمانيين أن لكل آية سببا خاصا بها، تفهم الآية في سياقه دون أن تتعداه إلى غيره، مردود؛ لاعتبارين اثنين:

أولهما: أن الآيات التي نزلت بسبب هي أقل بكثير من الآيات التي نزلت من غير سبب، وواقع نزول القرآن الكريم يشهد بذلك، فإن عامة ما نزل فيه لم يتوقف على سبب؛ كما يثبته الاحصاءات الاستقرائية⁴ وتشهد به كتب (أسباب النزول) تكذيبا لمزاعم العلمانيين وافتراءاتهم التي لا تستند إلى برهان، وإنما غايتها الخيانة والغدر وطمس معالم القرآن "فإن الواقع الأميريقي والإحصائي يؤكد أن هذا الكل القرآني الذي ادعي أنه لم ينزل إلا على الأسباب لا يشكل إلا نسبة 7.5% من آيات القرآن؛ لأن مجموع آيات القرآن البالغ عددها: 2336 آية لم يتجاوز عدد الآيات التي لها سبب نزول سوى: 472 آية عند المدققين والمتحرزين⁵، و"ما ذلك إلا لأن رسالة هذا الكتاب العظيم: أن يرشد الإنسانية إلى سعادتها في الآخرة والأولى، بعيدا عن خصائص الجماعة الأولى من المؤمنين الذين نزل الوحي بلغتهم⁶، فليس لما نزل من القرآن لسبب معين مزيد فضل ولا مزية على ما نزل من غير سبب، فكلاهما مستويان في وجوب الامتثال والتنزيل، والسبب إنما يساعد ويفيد القارئ في إدراك معنى الآية وبيان المراد منها دون أن يدل على تخصيص الآية وقصرها على سببها.

وثانيهما: أن نزول الآية لسبب معين لا يستلزم اختصاصها به ومحدوديته في "الواقعة" التي ورد بخصوصها سبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب حتى يرد دليل

1 - سورة إبراهيم، الآية: 5.
2 - سورة الإسراء، الآية: 88.
3 - ينظر: تفسير النيسابوري، 452 / 2، تحقيق: الشيخ زكرياء عميرات، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ، وتفسير المنار، 255 / 9 - 256، وتفسير الألوسي، 177 / 7.
4 - ينظر: سقوط الغلو العلماني، للدكتور محمد عمارة، ص: 254 - 256، والتفسير الماركسي للإسلام، للدكتور عمارة، ص: 77 - 78، وإتقان البرهان في علوم القرآن، للدكتور فضل عباس، 357 / 1 - 358.
5 - العلمانيون والقرآن الكريم لأحمد إدريس الطعان، ص: 478، وينظر أيضا: إشكالية قراءة النص، لإلياس قويسم، ص: 69.
6 - الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم، دراسة ونقد، للدكتور: أحمد محمد الفاضل، ص، 255، نشر: مركز الناقد الثقافي، دمشق.

آخر على تخصيص النص إجماعاً¹، والمسألة -حتى لا أطيل بها هنا- مفصلة مبثوثة في كتب الأصول وعلوم القرآن؛ لأن القرآن رسالة كاملة قد أسس قواعد السياسة والتعاقد وما يضمن تحقيق "الإسلامية" في مؤسسات الدولة التشريعية والقضائية والتنفيذية²، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴿٥٧﴾} يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}،³ فعموم قوله: {وأولي الأمر منكم} دال على أن الخطاب موجه إلى سائر العالمين، لا خاصاً بفترة نزول الوحي وعهد الرسول محمد. فوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إنما دلت على اكتمال عملية التنزيل، لا على انتهاء أحكامها وتشريعاتها، كما عبر المصطلح القرآني: {إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً}،⁴ وقد برهن الواقع الفقهي والتشريعي عبر تاريخ الأمة الإسلامية على صلاحية النص القرآني لكل العصور والأصوار؛ بفضل الأصول والمناهج العلمية والعملية التي انبنت عليها أحكامه وتشريعاته، واستخلصها علماء الشريعة المتخصصون في دراسة النص القرآني العارفون بخصائصه وأساليبه، على شكل قواعد وآليات منهجية منضبطة يخضع لها المفسرون وعلماء الفقه والشريعة الذين أسندت إليهم مهمة التفقه في الدين، كما عبر القرآن: {قُلْ لَا أَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ مِّنْ دُونِ الْقُرْآنِ وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ يَأْتِيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}،⁵ حتى يبقى النص القرآني سليماً من تأويلات الجاهلين وانتحالات المبطلين⁶.

ثالثاً: النقد القرآني لدعوى: "امتهان المرأة، والحرية الإنسانية في القرآن":

من غريب ما يدعيه العلمانيون ومنتقدو القرآن في العصر الحاضر: أن القرآن قد امتهن العبيد والمرأة، وخط من مكانتهما ومنزلتهما الإنسانية، في خرق سافر للسياق الذي نزل فيه

1 - ينظر: الإبهاج في شرح المنهاج، لتاج الدين السبكي، 185 / 2، والقواعد والفوائد الأصولية، لعلي بن عباس الحنبلي، ص: 241، وأسباب النزول، للدكتور محمد سالم محمد، ص: 63.

2 - الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين، للدكتور محمد عمارة، ص: 43 وما بعدها.

3 - سورة النساء، الآية: 57 - 58.

4 - سورة المائدة، الآية: 4.

5 - سورة: التوبة، الآية: 123.

6 - مقتطف من الحديث الذي رواه البيهقي في السنن الكبرى، بلفظ: "يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين" في: كتاب الشهادات، باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه، 10/ 209، الحديث رقم: 20700.

القرآن، وتتكسر كامل للحقوق التي متع القرآن بها المرأة والرقيق على السواء، حتى ارتقى بهما إلى أعلى درجات التفضيل والتكريم ومعاني الإنسانية، دون مفاضلة بين الناس إلا على معيار "التقوى".

1 - المرأة في القرآن:

كانت المرأة قبل نزول القرآن في بعض الديانات والمجتمعات المسيحية وغير المسيحية مهانة بالفعل، فحررها القرآن وجعلها شقيقة الرجل في الأحكام، قائلا: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} ¹، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً} ²، وقد كانت المرأة لا رأي لها ولا مشورة، حتى جاء القرآن فاعتبر مشورتها وأريها، وحكاها بقوله: { فَدَسَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا } ³، فحقق القرآن المجيد مبادئ العدل بين الرجل والمرأة، وحق المساواة بينهما حيث تصح، وقرر اللامساواة حيث لا تصح المساواة، كالإزام الرجل بالمهر والنفقة وإعفاء المرأة عن ذلك، وهي الدرجة المذكورة في قول القرآن: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} ⁴، بعد أن أثبت أنهما مستويان في الحقوق والواجبات بقوله: {وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَ بِٱلْمَعْرُوفِ} ⁵، فهي درجة القوامة المستحقة للمرأة بحكم الفطرة ⁶، فهو تفضيل دنيوي مادي، لا تفضيل معنوي؛ لأن النص القرآني قد أثبت في غيرما آية أن ميزان التفاضل بين الناس ذكورا وإناثا إنما يقوم على معيار التقوى: {يَأْتِيهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوْٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقٰىكُمْ} ⁷. وإنما جعلت القوامة للرجل؛ لأن الفطرة الإنسانية شاهدة على أن الرجل أكثر صلوحا ونجوعا للقيادة وتحمل المسؤولية وأعباء الحياة الخارجية ⁸، فإناطة القوامة بالرجل لا يعني تكريمه وتفضيله على المرأة كما يتوهم العلمانيون، وإنما هو زيادة تكليف برعاية الأسرة المادية على الخصوص، كما كلفت المرأة أيضا

1 - سورة التوبة، الآية: 72.

2 - سورة النحل، الآية: 96.

3 - سورة المجادلة، الآية: 1.

4 - سورة البقرة، جزء من الآية: 226.

5 - سورة البقرة، الآية: 226.

6 - المرأة في القرآن، لعباس العقاد، ص: 9.

7 - سورة الحجرات، الآية: 13.

8 - افتراءات على الإسلام والمسلمين، للدكتور أمير عبد العزيز، ص: 47، نشر: دار السلام، ط 1، 1422 هـ / 2002 م.

بالرعاية الأسرية المتعلقة بشؤون البيت الداخلية، وكل ذلك راجع إلى دواع مادية بحثة¹، والأصل فيه ما قرره رسول القرآن صلى الله عليه وسلم وبينه بقوله: "إنما النساء شقائق الرجال"².

ولهذا فقد تتبع العلماء والباحثون في الدراسات القرآنية كافة الشبهات الموجهة إلى أحكام المرأة في القرآن فوجدوها لا تستقيم؛ لأن مدعيها إما معاند، أو جاهل بالتكريم الذي خص الله به النساء في شريعته³، خاصة ما يتعلق منها بأحكام "الإرث" فإن أصوله القرآنية لم تبني على مبدأ الذكورة والأنوثة، وإنما بنيت على ضوابط ومبادئ أخرى، هي: درجة القرابة بين الوارث والموروث، وموقع الوارث من الموروث، والعبء المالي الواقع على الوارث⁴، حسب ما نص عليه القرآن: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ}⁵، فليس من العدل أن يستوي الأخ والأخت أو الابن والبنت في الميراث، ثم يكون الرجل ملزماً بالنفقة والصدّق، وتكون المرأة غير ملزمة بهما، بل تستحقهما، ولذلك نجد المرأة في حالات أخرى ترث مثل الرجل أو أكثر مما يرثه، كما أثبت دارسو مسائل الإرث في القرآن ذلك عن طريق التتبع والاستقراء، فتحصل من ذلك: أن المرأة ترث نصف الذكر في حالات تمثل: 33.13% من حالات الميراث، بينما ترث الأنثى مثل الذكر أو أكثر من الذكر في حالات تبلغ 67.86% من حالات الميراث، ما يعني أن المرأة متميزة عن الرجل فيما يقرب من 90% من حالات الميراث⁶، مع العلم أن أصحاب الديانات السابقة عن رسالة القرآن لا يجعلون للبنت ميراثاً إذا كان لها إخوة من الذكور أصلاً، "كما أن المجتمعات التي لا دين لها تحرم المرأة من الميراث، فجاء الإسلام وأعطى المرأة حقها، وقال: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً}⁷".

تبين من خلال النقد القرآني السالف لشبهات العلمانيين ومزاعمهم حول "ظلم القرآن وامتهانه للمرأة" أن القرآن كرم المرأة فوق ما يتخيله العلمانيون الماديون، كما اعترف بذلك أحد

1 - ينظر: افتراءات على الإسلام والمسلمين، للدكتور أمير عبد العزيز، ص: 49، وتنزيه القرآن عن دعاوى المبطلين، للدكتور: منقذ بن محمود السقار ص: 287.

2 - أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب الطهارة، باب فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً، 1/ 189، الحديث رقم: 113، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب الرجل يجد البيلة في منامه، 1/ 95، الحديث رقم: 236 صحيح بتعليق الألباني.

3 - تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، للدكتور: منقذ بن محمود السقار ص: 271، نشر: دار تكوين للدراسات والأبحاث، ط 1، 1436 هـ / 2015 م.

4 - ينظر: شبهات حول المرأة وحقوقها في الإسلام، ضمن موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، لمجموعة من الباحثين، تحت إشراف: داليا محمد إبراهيم، المجلد الحادي عشر، الجزء: 18، 19/ ص: 5، نشر: دار نهضة مصر.

5 - سورة النساء، الآية: 32.

6 - ينظر: إحصائية لحالات الميراث في الفقه الإسلامي، للعالم السوداني الشيخ عبد الجليل ندى الكاروري، والغرب والإسلام، للدكتور محمد عمارة، ص: 181.

7 - سورة النساء، الآية: 7.

المستشرقين¹ بقوله: "وتعد مبادئ الميراث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف ... ويظهر من مقابلي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات -اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف- حقوقا في الميراث لا نجد مثلاً في قوانيننا"².

2 - الرق في القرآن:

إن ادعاء العلمانيين وزعمهم بأن القرآن يؤسس للرق وامتهان حرية الإنسان مردود من جهتين اثنتين: أولاًهما: أنها دعوى مخالفة للحقيقة التاريخية ولواقع المجتمعات التي نزل فيها القرآن، فقد كان الرق منتشراً بشكل لا يمكن محوه وإنهاؤه إلا عن طريق التدرج في تشريع أحكام خاصة به كما جاء به النقد القرآني، فقد نزل القرآن والناس طبقتان: عبيد، وسادة، يعتبرون العبيد أشياء لا قيمة لها، تقاس بالدواب وتلحق بالبهايم، فلم يكن السادة يطعمونهم إلا "إبقاء على وجودهم من أجل العمل فقط، وكانوا في أثناء العمل يساقون بالسوط"³، دون أن تعترض الأديان السابقة على نظام العبودية⁴، بل زكته وأيدته "فكانت اليهودية تبيحه، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمة ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبل"⁵، حتى نزل القرآن فنظر لتحريرهم، واعتبر إنسانيتهم، وأرجع إليهم كرامتهم، باعتبارهم إنساناً يندرجون ضمن قوله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}⁶، وخفف عنهم في عقوبات الحدود رافة ورحمة بضعفهم على خلاف ما عليه الناس في الأديان والمجتمعات الأخرى من تغليظ العقوبات على العبيد وتخفيفها على الأسياد {فَإِذَا آخِضْتُمْ فَانْصَبْ عَلَيْهِمْ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}⁷. فليس القرآن من أسس للرق إذن، وإنما وجده منتشراً عند العرب وغيرهم من الأمم بصورة بشعة جداً، جراء الاختطافات، والاستعباد القسري، أو الأسر من الحروب، أو عجز المدين عن وفاء دينه، كما كان الرومان يصنعون، حيث "يسترقون المدين الذي لم يتيسر له الوفاء بدينه، فيصبح المدين رقيقاً للدائن"⁸، حتى أصبح الرق نظاماً معروفاً معترفاً به في كل حضارة قديمة "وكان حكماء الأمم يقرونه ويرتبون نظام المجتمع على بقاءه، ومنهم حكماء في طبقة أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان. وكان رؤساء الأديان يعتبرونه قضاء عادلاً من الله، ويأمرون العبد بطاعة السيد والإخلاص له، كما يطيع ربه، ولو لم يكن على دينه، وكأن ساسة الأمم يحمون حق السيد على عبده ولا يعرفون للعبد حقاً تحميه الدولة

1 - هو المستشرق المتأثر بالحضارة الإسلامية غوستاف لوبون، صاحب كتاب "حضارة العرب".
2 - حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ص: 402، بترجمة: عادل زعيتر، نشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
3 - شبهات حول الجهاد الإسلامي، ضمن موسوعة بيان الإسلام، تحت إشراف: داليا محمد إبراهيم، المجلد: 9، الجزء: 14 - 15 / ص: 139.
4 - قاموس الكتاب المقدس، لنبذة من الأساتذة المتخصصين واللاهوتيين، ص: 592.
5 - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد، ص: 141.
6 - سورة الإسراء، الآية: 70.
7 - سورة النساء، الآية: 25.
8 - الرق في الإسلام، لأحمد شفيق باشا، ص: 23، ترجمة أحمد زكي، نشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

حتى حق الحياة"1، وكان المجتمع اليوناني يستعبد البشر مطلقا وبكثرة، وكان قرصانهم يختطفون أبناء الأمم الأخرى في مختلف السواحل ويبيعونهم في أسواق أثينا وغيرها "فامتلات بيوت الإغريق بالإيماء والعبيد"2. فلم يكن القرآن إذن هو الذي أباح الرق وأسس له، وإنما كان واقعا في التعامل مع الرقيق، حتى أعاد لهم كرامتهم الإنسانية. فالحقيقة التاريخية التي يجب قولها إذن، هي: أن الإسلام شرع العتق "ولم يشرع الرق"3، كما سنتبينه في النقطة الثانية.

ثانيا: إن الباحث المنصف في نصوص القرآن لن يجد فيها نصا واحدا يحث على الاسترقاق أو يؤيده، بل على العكس من ذلك جاءت آيات القرآن النقدية بمنهجها آمرة بالعتق، حتى تعيد للرقيق -الذين وجدتهم عبيدا- كرامتهم الإنسانية، مثلهم في ذلك مثل الأحرار والأسياد: {بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ}4، فكل الناس من آدم وآدم من تراب5، كما أكد ذلك رسول القرآن ومبينه بقوله: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس، ولا تكلوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم"6، وقرر أن "العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة استعلاء واستعباد، أو تسخير وتحقير، وإنما هي علاقة القربى والمودة والأخوة. فالسادة أهل الجارية يستأذنون في زواجها، كما في الآية القرآنية: {بِمِ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ بَنَاتِ النَّسَاءِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّاتِيَّاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَآلِهِنَّ وَآلِهِنَّ وَأَتَاهُنَّ}7، حتى أسس القرآن المجيد لإنهاء الرق وتحرير الرقيق من العبودية، عبر تشريعاته المختلفة، التي يمكن اختصارها في وسيلتين اثنتين:

- الوسيلة الأولى: المكاتبه8 التي توجب على السيد الخضوع لأمر العبد بطلب المكاتبه وشراء نفسه، كما نص عليه القرآن: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}9.

- والوسيلة الثانية: العتق الذي حث عليه القرآن في كثير من آياته، فأوجب عتق الرقبة في كفارة الصيام، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الظهار، وغيرها من الكفارات، حتى يتحقق بذلك

1 - المرأة في القرآن، للعقاد، ص: 97.
2 - ينظر: منشور للشيخ الخضر حسين، في مجلة الأزهر، الصادرة سنة: 1273 هـ، والإسلام في قفص الاتهام، للدكتور شوقي أبو خليل، ص: 181.
3 - المرأة في القرآن، لعباس العقاد، ص: 97.
4 - سورة النساء، جزء من الآية: 25.
5 - مقتبس من حديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، وقال: وهذا أصح عندنا من الحديث الأول، 735 /5، الحديث رقم: 3956.، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأنساب، 492 /4، الحديث رقم: 5118.
6 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: العبيد إخوانكم، 899 /2، الحديث رقم: 2407.
7 - سورة النساء، جزء من الآية: 25.
8 - وهي عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية نظير دفعه مالا لسيده. ينظر: حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، 232 /2، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، نشر: دار الفكر، بيروت، 1414 هـ / 1994 م.
9 - سورة النور، الآية: 33.

تحرير أكبر عدد ممكن من الرقيق، كما حث على العتق تطوعا وتقربا إلى الله، وشرع التدبير¹ حتى يتمكن السيد عند وفاته أن يجعل عبده حرا بعد موته توصية لله، تكفيرا للسيئات، وتكثيرا للحسنات؛ فتنفذ وصيته قبل التركة، كما نص عليه القرآن بقوله: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}².

فيكون القرآن بهذه الأحكام والتشريعات الإنسانية قد هيا كافة الأسباب والوسائل لإنهاء الرق؛ لأنه رسالة ربانية تعتبر الإنسان حرا، لا يدين بالعبودية إلا لله الخالق، لا أنه شرع نظام الرق وأسس له كما يزعم العلمانيون، بل وجده مشروعا فحرمه جميعا "ولم ييح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم في نظام الأسرى وتسخيرهم في أعمال من يأسرونهم من المقاتلين، وسبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعي في إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء"³، فلم يلغ القرآن الرق بطريق مباشر، لكنه ألغاه عن طريق التدرج "بخطى ثابتة مدروسة وعملية"⁴، فضيق موارد الرق ومنابعه، ووسع مصارف العتق وعدد مسالكه وسبله، فلم يبق من مداخل الرق إلا سبيل الأسر، في حين وسع طرق العتق والحرية، كما نلاحظ ذلك في كثير من آيات القرآن التي تحث الناس على عتق الرقاب، كقوله تعالى: {فَلَا إِفْتَحَمَ الْعَفْبَةَ} وَمَا أَدْرِيكَ مَا الْعَفْبَةُ ﴿١١﴾ فَكُّ رَفْبَةٍ⁵، وقد ترجم الصحابة والتابعون هذه الفكرة القرآنية إلى واقع الحال، فكان أبو بكر الصديق وغيره من الصحابة وأغنياء المسلمين يشترون العبيد ويحررونهم، كما هو وارد في كتب السيرة والتاريخ⁶. ومما يؤكد هذه العملية القرآنية: التطبيق الفقهي عند علماء المسلمين، فقد نص الفقهاء: أن من وجد طفلا ادعى نصراني أنه ابنه، وادعى مسلم أنه عبده، فإنه يقضى به للنصراني، حتى لا يدخل الطفل باب الرق، ولو كان في ذلك إسلامه؛ لأن بيئة الحرية أقوى وأحق بالتقديم⁷.

إذن، إن كل التجليات الفكرية النقدية المتقدمة مستنتجة من تعاملات القرآن المجيد مع معارضيه من أهل الكتاب والمستشرقين والملحدين، وكيفية رد شبهاتهم الفاسدة، واتهاماتهم الزائفة، بتنويع أساليبه الإقناعية، وحججه الدامغة في مقامات مناسبة. وبعد هذه التجليات المذكورة يأتي فصل آخر في مناهج الفكر النقدي في القرآن، منهج الحجاجي في إثبات

1 - مأخوذ من قولهم: أنت حر دبر حياتي. ينظر: التعريفات، للجرجاني، ص: 265، والتوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص: 646.

2 - سورة النساء، جزء من الآية: 11.

3 - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، لعباس محمود العقاد، ص: 144 - 145.

4 - الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ص: 187.

5 - سورة البلد، الآيات: 11، 12، 13.

6 - ينظر: معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصفهاني، 1/ 92، و3/ 1710، وسيرة ابن إسحاق، ص: 169، وسيرة ابن هشام، 1/ 318، و2/ 294، وسير أعلام النبلاء، 1/ 92، 2/ 95، والبداية والنهاية، لابن كثير، 7/ 205.

7 - ينظر: المبسوط، 7/ 172، و17/ 131، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1414 هـ/ 1993 م، والمحيط البرهاني، للشهيد برهان الدين مازة، 4/ 392، نشر: دار إحياء التراث العربي.

الوحدانية الإلهية، وتقرير الرسالة المحمدية، وترسيخ الأخلاق، ومنهج الترغيب والترهيب، ومنهج التدرج في قضايا العقيدة، وتقرير الأحكام، وتثبيت السلوك.

الفصل الثالث: مناهج الفكر النقدي في القرآن الكريم

إن عملية النقد والإصلاح في القرآن المجيد متأسسة على أصول وضوابط منهجية، تهدف كلها إلى تخليص الإنسان، وتصويب انحرافات، وتقويم اعوجاجه، وتبليغه الرسالة الإلهية بأساليب حجاجية وإقناعية، حتى ترسم له معالم السبيل المستقيم. وقد انتهج القرآن المجيد في سبيل هذا الهدف الإصلاحي مناهج نقدية دقيقة، أبرزها مناهج ثلاثة، هي: المنهج الحجاجي عن طريق الاستدلال العقلي الإقناعي فيما يتعلق بالأمور المتوقفة على الاستدلالات العقلية والبراهين المنطقية، دفعا للشبهات الشركية والإلحادية، ومنهج الترغيب والترهيب فيما يتعلق بالأحكام التعبدية والأخلاقية التي لها تأثير بالأهواء النفسية وشهواتها، ومنهج التدرج في تشريع الأحكام وتنزيلها وفق ما تتحقق به مصالح الإنسان وتندفع به مفسده. هذه أبرز المناهج التي سلكها القرآن المجيد في نقد السلوك الإنساني وعملية الإصلاح والتغيير الفردي والجماعي، أفصلها في المباحث الآتية.

المبحث الأول: منهج المحاجة الإقناعية

إن الإنسان مخلوق موحد لله بفطرته على الجملة، كما نص القرآن: {فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهًا قَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} ¹، فلا يزال في حاجة إلى تلبية حاجته في التدين والتعبد، كما تشير إليه الآية القرآنية: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} ²، غير أن الإنسان أعطي عقلا يلزمه بالبحث عن الحجة وسبل الإقناع دون الاكتفاء بالأحاسيس الفطرية، كما عبر نبي الله إبراهيم: {بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُ} ³. ومن هذا المنطلق سلك القرآن الكريم منهج الحجاج الإقناعي، الذي يهدف إلى تفصيل الأحكام العقلية والعملية والأخلاقية وبيانها لكافة الناس بيانا نقديا شافيا.

المطلب الأول: الحجاج الإقناعي في إثبات وحدانية الله:

كان الهدف الأسمى في النقد القرآني: هو تحرير عقول الناس من الاعتقادات الخرافية، ومن عبادة ما لا ينفع ولا يضر من دون الله، وذلك بمنهجية حجاجية إقناعية، أولى فيها القرآن المجيد هذه الغاية النقدية الممنهجة اهتماما بالغا، حتى وردت جل سوره مفتحة بالآيات الدالة

1 - سورة الروم، الآية: 29.

2 - سورة الروم، الآية: 32.

3 - سورة البقرة، جزء من الآية: 259.

على وحدانية الله وانفراده بأحقية العبادة دون غيره، كما جاءت خلاصة ذلك في فاتحة القرآن:

{إِلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾}

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ¹. وقد تفنن القرآن المجيد في تبليغ هذه الحقيقة التوحيدية

بأساليب حجاجية ووسائل إقناعية شتى، كلها تخاطب العقل والقلب والوجدان {إِلَّاهُ نَزَّلَ

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَفْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَفُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ².

ويمكن إجمال هذه الأساليب والوسائل الحجاجية الإقناعية في أسلوبين اثنين، هما: أسلوب الإلزام والإفحام، وأسلوب التوجيه والإرشاد.

أولاً: أسلوب الحجاج الإلزامي:

يتميز المنهج النقدي في القرآن المجيد في خطابه بالفصل بين حالة الإنكار وحالة الإقرار أو التسليم بوجود الله، فيتغير الخطاب النقدي القرآني حسب هاتين الحالتين، فيسلك في حالة الإنكار مسلك المحاجة والبرهنة العقلية التي تلزم المنكرين وتقنعهم بالحقائق القرآنية، وهي طرق استدلالية منطقية متنوعة، وقد ذكرت بعضها في مباحث الأصول النقدية السابقة، أورد أبرز ما استدل به القرآن منها فيما يلي:

1 - إبطال دعوى الخصم بناء على خلوها من الحجة والبرهان، وما أكثر الآيات النقدية الحجاجية التي تتجه إلى كلام المنكرين فتنتفضه لهذا السبب، ومنها قول إبراهيم في محاوره قومه: {وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا³، إذ الدعاوى الحجاجية لا تقوم إلا على البرهان والحجة الواضحة المقبولة عقلاً وفطرة وحساً {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ⁴.

2 - مسلك السبر والتقسيم الذي يهدف إلى إبطال دعوى المجادلين، ويتحقق "بحصر الأوصاف للموضوع الذي يجادل فيه ثم بيّن أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تسوغ قبول

1 - سورة الفاتحة، الآيات: 1، 2، 3، 4.

2 - سورة الزمر، الآية: 22.

3 - سورة الأنعام، الآية: 82.

4 - سورة الأنعام، الآية: 84.

الدعوى"1؛ لأن المناظر يقسم الصفات ويختبر كل واحدة منها هل تصلح للعلية أم لا؟ فمتى ظهر بطلانها وعدم صلاحيتها بطلت بذلك دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي. ومن الآيات التي جاءت وفق هذا النهج النقدي: قول القرآن: {لَفَدَّ كَبَرُ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ}2، فبين القرآن بطلان صفات الألوهية التي زعمها المسيحيون لعيسى بن مريم. قال الرازي: "وبيانه من وجوه: الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقا لا إلها، والثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلها (...) ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل"3، وقوله في آية أخرى: {أَمْ خُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلَفَاءُ}4، فإنهم علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة، ولا يقدرّون على الخلق والإيجاد، فبطلت كافة الصفات والعلل التي علقوا عليها ألوهيتهم5.

3 - الأقيسة المنطقية، وأقصد بها: الاستدلالات المنطقية التي تبلغ بالعملية الجدلية إلى النتائج القطعية المنبئية على مقدمات مسلمة، ويستخدم القرآن المجيد أبلغها وأقواها حجة وإقناعا، يعبر عنه بقياس الإضمار، وقد سبق الحديث عنه سابقا، ومعناه بإيجاز: حذف النتيجة أو إحدى مقدماتها، مع وجود قرينة تنبئ بحذفها6، وهذا النوع أكثر شيوعا في القرآن؛ لأنه أبلغ وأفصح "إن الطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف إحدى المقدمات، وهي طريقة القرآن"7؛ ذلك لأن القرآن مبناه على الحذف والإيجاز في شكل الأقيسة المنطقية، كما في قوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}8، فحذفت منه النتيجة ومقدمة أخرى، وهي: "إن آدم خلق من غير أب ولا أم وعيسى خلق من غير أب فحسب، فلو كان عيسى إلها بسبب ذلك لكان آدم أولى" وهم يصرحون ببشرية آدم9. ومن أظهر أنواعه الاحتجاج بالقياس في القرآن كما مر أيضا: قياس الخلف، وهو: إثبات المطلوب بإبطال نقيضه؛ لأن النقيضين لا يمكن اجتماعهما ولا ارتفاعهما معا، ولهذا سمي بدليل التمانع10، وعرف بأنه: "الذي يبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقضيه"11. وهو أسلوب

1 - ينظر: إرشاد الفحول، للشوكاني، 2/ 125، تحقيق: الشيخ أحمد عزوز عناية، نشر: دار الكتاب العربي، ط 1، 1419 هـ / 1999م، ومناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور: زاهر عواض الألمعي، ص: 74، ط 3، 1404 هـ.

2 - سورة المائدة، الآية: 75.

3 - تفسير الفخر الرازي، 12/ 409 - 410.

4 - سورة الطور، الآية: 33.

5 - تفسير الرازي، 28/ 216.

6 - ينظر: كتاب المنطق، لابن سينا، 2/ 190، بدون، والمختصر في المنطق، للإمام ابن عرفة، ص: 29، بدون، وتجريد المنطق، لنصير الدين الطوسي، ص: 50، نشر: مؤسسة الأعلى للطبوعات، بيروت- لبنان، ط 1، 1408 هـ / 1988م.

7 - شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي أبي العز الحنفي، ص: 23، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق.

8 - سورة آل عمران، الآية: 58.

9 - ينظر: المعجزة الكبرى القرآن، لمحمد أبو زهرة، ص: 398.

10 - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 2/ 173.

حاجي مستعمل في النقد القرآني كثيرا، ومن ذلك قوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا} ². فلو كان للكون صانعان لا اختل نظامه وتوازنه، لتناقض إرادتي الآلهة، فلما لم يقع في الكون أي اختلال دل على أن صانعه إله واحد ³.

4 - أسلوب المجارة والانتقال في الاستدلال، حيث يجاري الخصم فيما احتج به رغم ضعفه، فينتقل به من دليل إلى دليل آخر؛ لاستدراج الطرف المحاور، أو لعدم فهم المخاطب وجه الدلالة من الدليل الأول، فيأتي بدليل آخر لا يجد المحاور منه مفرا غير التسليم به. وهو ما نجده في حوارات الأنبياء مع أقوامهم، كما يقصه القرآن في حوار إبراهيم مع خصمه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتِيَهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} ⁴، فدعا من وجب عليه القتل فأعتقه ومن ليس عليه القتل فقتله، فجاراه إبراهيم دون أن يعلن مخالفته بادئ الأمر، وانتقل به إلى دليل آخر ينقطع به، قائلا: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا} ⁵ وانقطع عن العملية الجدلية بهذه الحجة القاطعة الملزمة.

ثانيا: أسلوب التوجيه والإرشاد الإقناعي

يختلف الخطاب في المنهج النقدي القرآني حسب اختلاف أحوال المخاطبين قبولا وإنكارا، فيسلك في حالة الإنكار مسلك الحجة المنطقية كما سلف، ويسلك في الحالة الأخرى مسلك الإقناع التوجيهي والإرشادي، وهو مسلك استدلاي أيضا، غير أنه يأتي على سبيل الإقناع والتأثير الوجداني، ويعتمد على الخطاب البياني والبلاغي، كما نجده فيما يصطلح عليه عند البلاغيين والمناطق بـ"الأسلوب الحكيم" أو "القول بالموجب" أو "المغالطة" ومعناه: التسليم الجدلي أو "تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غير تام الإنتاج" ⁶. ولهذا فهو منهج استدلاي غير قطعي من حيث المنطق والاستدلال العقلي، لكن له تأثيرا بليغا في نفوس المخاطبين، ووقعا كبيرا في وجدانهم. وأمثلة هذا الأسلوب النقدي كثيرة في الآيات القرآنية العقدية، منها قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ فَضِيَ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى

1 - تاريخ الجدل، لأبي زهرة، ص: 66.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 22.

3 - ينظر: تفسير الفخر الرازي، 9/ 377، و 18/ 458، و 22/ 127 وما بعدها، والإتقان، للسيوطي، 2/ 358.

4 - سورة البقرة، الآية: 257.

5 - سورة البقرة، الآية: 257.

6 - التحرير والتنوير، لابن عاشور، 13/ 201.

عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ¹، حيث ذكر مادة ما خلقوا منه من الطين؛ لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني، لأنهم استبعدوا أن يعاد خلق الإنسان بعد ما صار تراباً "وهذا القدح في استدلالهم يسمى في اصطلاح علم الجدل القول بالموجب، والمنبه عليه من خطأ استدلالهم يسمى فساد الوضع"².

ومن أساليب المنهج النقد القرآني في التوجيه والإقناع الإرشادي للمخاطبين: أسلوب الاستدلال بوجود الأثر على وجود المؤثر، فهو أسلوب كوني، واستدلال إقناعي إرشادي، لا منطقي ولا عقلي حتى ينقطع به المخالف؛ لأن المخاطب به إما مسلم مصدق به، أو غير مسلم لكن له قابلية التأثير والإقناع، فهو مسلك نقدي بليغ، يقدمه القرآن برهنة واستدلالاً على وجود خالق الكون وصانعه ومدبره، كما حكى الله ذلك بقوله: {وَكَذَلِكَ نُرِىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ}³. ويشمل كافة الآيات الكونية التي في القرآن، فهي حجج إقناعية على سبيل توجيه المخاطب وإرشاده لبلوغ الحقيقة المطلقة، ويتميز هذا الأسلوب النقدي باللين والرفق بالطرف المحاور؛ لأن غرضه التأثير الوجداني، كما في خطاب إبراهيم لأبيه: {يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}⁴، فسلك عليه السلام في دعوة أبيه إلى توحيد الله أحسن منهاج "واحتج عليه أبدع احتجاج، بحسن أدب وخلق ليس له من هاج، لئلا يركب متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكلية عن سبيل الرشاد (...) فيه من لطف الدعوة إلى اتباع الحق والإرشاد إليه ما لا يخفى"⁵.

كما استعمل القرآن المجيد في نقده العقدي أسلوب عرض حجج إقناعية كثيرة في موضوع واحد، وتقديم الأدلة والشواهد الدالة على وحدانية الصانع في عرض جانب واحد من الموضوع مقابل عرض جانبين أو ثلاث، فيقول: {أَوَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ ٱلْأَيْلِ كَيْفَ خُلِفَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} ⁶، ويؤكد ذلك بصيغة أخرى في قوله: {وَإِلَهُكُمْ

- 1 - سورة الأنعام، الآية: 3.
- 2 - التحرير والتنوير، 7/ 130.
- 3 - سورة الأنعام، الآية: 79.
- 4 - سورة مريم، الآية: 42 - 43.
- 5 - تفسير الألوسي، 8/ 414 - 460.
- 6 - سورة الغاشية، الآيات: 17 - 18 إلى 20.

إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَغُ النَّاسَ وَمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَا يَتِلَفُوفٌ يَعْفِلُونَ} ¹، ففي الآيتين إقناع كوني وتأثير وجداني على المخاطب بتوحيد
الله ونفي التعدد عنه، فكأنما خاطبه بقوله: إذا كان وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود؟
وكيف تجعل له شريكا في العبادة وأنت مقر بأنه لا شريك له في الخلق؟ ² وهذا التركيز على
جانب واحد من الموضوع أكثر فعالية على تغيير آراء الأفراد الأقل تعليما، أو الأفراد المؤيدين
لوجهة النظر المعروضة في الرسالة، حيث يصبح تأثير الرسالة في هذه الحالة تدعيما ³، ودعوة
إلى التأثير كما في قوله: {فَلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} ⁴، وقوله: {يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكُمْ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ⁵. "فهذا استدلال في غاية
الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين، من إثبات الصانع وصفات كماله من
قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدث العالم (...) وتوحيد الألوهية المتضمن أنه
وحده المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له" ⁶.

المطلب الثاني: المحاجة الإقناعية في تقرير النبوة:

لم تنزل الأمم والشعوب تكذب أنبياء الله ورسله بدعاوى متهافئة مختلفة. منشؤها إما:
الحداثة والمادية التي تجعل العقل والحواس ومعطيات العلوم التجريبية هي المعيار الوحيد للقبول
والرفض في العصر الحديث، أو منشؤها التعالي والاستكبار في العصور السالفة، وهي كلها
أسباب وبواعث مآلها إلى الغطرسة والأنفة من قبول حقائق المعجزات الخارقة التي من
خصائصها أن تكون خارقة لنواميس الكون ومخالفة لقواعد المخلوقات والمحسوسات، {ثُمَّ

أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَاطِينَ مُبِينِينَ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

1 - سورة البقرة، الآية: 162، 163.

2 - إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة، لابن القيم، ص: 93.

3 - من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، للدكتور معتصم بابكر مصطفى، منشور في مجلة "كتاب الأمة" سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، العدد: 90، جمادى الأولى 1414 هـ / السنة: 23، ص: 68

4 - سورة يونس، الآية: 101.

5 - سورة البقرة، الآية: 20.

6 - إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتحصيلها وبيان العلل المؤثرة، لابن القيم، ص: 92، دراسة وتحقيق: أيمن عبد الرزاق السواء،
نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان ج دار الفكر، دمشق، ط 1، 1417 هـ / 1996م.

وَمَلَايَهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ} ¹ {فَالْأُمَلَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 مِّن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ - اَمِنْ مِنْهُمْ - اَتَعْلَمُونَ اَنَّ صَلِحًا مُّرْسَلٌ
 مِّن رَّبِّهِ} ²، فتوجه النقد القرآني إلى تصحيح هذا الخل وتصويبه بأدلتة الحجاجية وأساليبه
 الإقناعية والبيانية التي تشرح للناس مهمة النبوة والرسالة: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
 مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَيُزَكِّيهِمْ} ³، وترسم حدود الأنبياء والرسول {وَلَوْ تَفَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
 لَّا خَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَفَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} ⁴. فما الرسول إلا بشر كسائر
 الناس، اختصه الله برسالة التبليغ عنه، حتى لا تكون للناس على ربهم حجة {رُسُلًا
 مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} ⁵؛ لأن العقل
 البشري مهما بلغ من العلم والمنطق لن يتوصل إلى تحقيق عبادة الله وتنظيم شؤون حياة المؤمن
 الدينية والدنيوية، على فرض أنه توصل إلى وجوده ووحدانيته. قال الرئيس ابن سينا: "والرسالة
 هي ما قبل من الإضافة المسماة وحيا على أي عبارة استصوبت لصلاح عالمي البقاء والفساد
 علما وسياسة. والرسول هو المبلغ ما استفاد من الإفاضة المسماة وحيا على أي عبارة
 استصوبت ليحصل بآرائه صلاح العالم الحسي بالسياسة والعالم العقلي بالعلم" ⁶، فكانت النبوة
 عبارة عن رسالة ضرورية لتوجيه البشرية إلى طريق الحقيقة {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
 النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
 عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} ⁷،
 فليست شيئا مبتدعا في التاريخ الإنساني {فَلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي

1 - سورة المؤمنون، الآيات: 45 - 46 - 47.

2 - سورة الأعراف، الآية: 74.

3 - سورة البقرة، الآية: 128.

4 - سورة الحاقة، الآيات: 44 - 45 - 46.

5 - سورة النساء، الآية: 164.

6 - رسالة في إثبات النبوة، مطبوع ضمن: رسائل في الحكمة والطبيعات، لابن سينا، ص: 84، نشر: مطبعة الحوائب، قسطنطينة، 1298هـ.

7 - سورة الأعراف، الآية: 157.

مَا يُفَعَّلُ بِهِ وَلَا بِكُمْ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ¹. ولتقريرها والبرهنة عليها جاء القرآن المجيد بمجموعة من الدلائل والحجج الإقناعية والبيانية. مجملها: الدلائل النفسية الإعجازية التي تتميز بها شخصية الرسول، والدلائل العقلية على رسالته، والدلائل العلمية والمادية التي تثبت صحة ما ادعاه وصدق ما جاء به مما لا يخالف سر الكون ونواميسه، بل يؤكد العلم وتأييده النظريات العلمية الحديثة.

أولاً: الدلائل الشخصية (المعجزات):

قد بين القرآن المجيد ما يعطاه الأنبياء من الدلائل والمعجزات الخارقة للعادات الجارية على غير نواميس الكون وقوانين نظامه التي يتميزون بها عن غيرهم من سائر العالمين، إشارة إلى أنهم رسل الله إلى خلقه، وسجل بهذا الصدد قصصاً نقدية عظيمة مستخلصة من معجزات الأنبياء والرسل السالفة، إثباتاً وتقريراً لدلائل نبوتهم ورسالتهم، من قبيل قوله في حكاية معجزة نبي الله نوح: {وَقَالَ إِرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُزْبِيهَا²، وقوله لنبيه موسى: {وَإِذِ اسْتَسْفَىٰ مَوْسَىٰ لِفَوْمِهِۦ فَعُلْنَا بِضُرْبِ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ³ فَإِنْبَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا⁴}. {بِأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ أَنْ يُضْرَبْ بِبَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَإِنْبَلَوْا فَكَانَ كُلُّ فِرْعَوْنَ كَالظُّوْدِ الْعَظِيمِ⁵، وإحياء الموتى في معجزة نبي الله عيسى: {وَأُبْرِءِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَائْخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ⁶}. وكذلك صنع القرآن في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان مؤهلاً نفسياً وأخلاقياً لحمل الرسالة الخاتمة قبل نزول الوحي أيضاً، فقد اشتهر بالصدق والأمانة بين قومه حتى لقبوه بالصادق الأمين⁷، لكن تأثير الكبرياء على بعض كبراء قريش لم يدعمهم يصدقونه حين تحققت نبوته، فكان النقد القرآني بمنهجه البليغ كفيلاً بتبليغ دلائل نبوته وإظهار معجزاته، قائلًا: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنَ الْيَتِيمَانِ⁸، وفي آية أخرى: {وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَىٰ

1 - سورة الأحقاف، الآية: 8.

2 - سورة هود، الآية: 41.

3 - سورة البقرة، الآية: 59.

4 - سورة الشعراء، الآية: 63.

5 - سورة آل عمران، جزء من الآية: 48.

6 - كما جاء في حلف الفضول وغيره من المواضع. ينظر: سيرة ابن إسحاق، ص: 85، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، 1/ 57، نشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1406 هـ / 1986 م.

7 - سورة الإسراء، الآية: 1.

السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَفَذَ رَبُّي مِّنَ - آيَاتِ رَبِّهِ

الْكُبْرَى} ¹. فهذه المعجزات بمثابة حجج قطعية على نبوة الرسل وصدق اتصالهم بالخالق؛

لأن خرق العادة ومخالفة قانون الطبيعة أمر لا يمكن أن يجري على يد بشر مخلوق، فلا يكون إلا من خالق العادة نفسها كالنار التي لم تحرق إبراهيم، وانشقاق القمر لنبي الله محمد صلى الله

عليه وسلم، كما جاء في سورة القمر: {إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا

- آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} ²، وبيانه كما في الحديث: "أن أهل مكة سألوا

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين" ³.

ثانيا: الدلائل العقلية، والعلمية:

أقصد بالدلائل العقلية هنا: الحجج المنطقية والواقعية المتاحة حين نزول القرآن على أمة

تفتخر بالأساليب البيانية والصناعة البلاغية، وكذلك المتاحة -حسب كل عصر- بعد اكتمال

الرسالة، وتقدم الناس في العلوم الكونية والإنسانية {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} ⁴. فلم يكن

النقد القرآني يتوجه بالخطاب إلى مشركي مكة المعاصرين للرسول نبينا محمد صلى الله عليه

وسلم فحسب، بل كان خطابا نقديا عالميا يتوجه إلى البشرية جمعاء في كل عصر ومصر،

دون أن يكون موضع اختلاف أو اختلال {وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

إِخْتِلَافًا كَثِيرًا} ⁵، فهذه مقدمة منطقية نتيجتها مسلمة عقلا، هي: أن الوحي الذي أتى به

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، فكان أبرز ما استدل به القرآن من الجهة العقلية

على صحة الرسالة المحمدية هي آياته وسوره وبيانه وسحره، فكان القرآن بمنهجه النقدي واقفا

بمرصاد كل من ينكر صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته، يتصدى لمحاججته

قائلا: {أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرِيَهُ فَلْئَلَّ بِسُورَةِ مِّثْلِهِءَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ⁶، إذ لو كان القرآن من صنيع محمد وتأليفه لتمكن العرب

من تحديه والإتيان بمثله، فالقرآن "معجزة عقلية، وما أبدع قول البوصيري:

1 - سورة النجم، الآيات: 13 إلى 17.

2 - سورة القمر، الأيتان: 1-2.

3 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر، 3/ 1331، الحديث رقم: 3438، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، 8/ 133، الحديث رقم: 7254.

4 - سورة ص، الآية: 86.

5 - سورة النساء، الآية: 81.

6 - سورة يونس، الآية: 38.

لم يمتحنا بما تعيا العقول به *** حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم¹.

والمراد بالأدلة العلمية: ما أخبر به الرسول من الحقائق العلمية في مجالات عدة في وقت لم يكن فيه أحد يعرفها أو يدرك مغزاها، وقد ألف الباحثون دارسو القرآن مؤلفات عدة في الإعجاز العلمي الذي تتبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبر به في الوحيين، ومن ذلك: مؤلف "القرآن والسنة والعلوم الحديثة" لمحمد أحمد مدني، ورسالة الدكتور مختار سالم بعنوان "الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية"، وغير الطب من المجالات العلمية الأخرى كالفلك والمجرات والجغرافية وخلق الإنسان، مما تضمنه القرآن. فإن كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يخدع الأمة التي عاشت في زمانه، لأنها أمة أمية خرافية، فهل يخدع من جاء بعده من الخلق بعد أن ازداد العالم علما وتقدما في الاختراعات والتكنولوجيا؟ بل جاء كل ما قاله وفق الحقيقة العلمية المثبتة حديثا "ككيف استطاع محمد صلى الله عليه وسلم الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل"².

ثالثا: الدلائل المادية:

مما يؤيد به القرآن المجيد دلائل النبوة المحمدية على الخصوص: مجموعة من الدلائل والتنبؤات المادية التي وقعت بعد الإخبار بها من طرف الرسول في نص الوحيين قرآنا أو سنة. فوقع هذه التنبؤات وحدوثها دليل محض على أن قائلها رسول من الله لا ينطق عن الهوى". والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء به القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعا جاءت في أحوال غير مواتية. إن هذه التنبؤات -وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ- تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها، وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية فلن نستطيع إدراك حقائقها إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري"³، فقدم القرآن في منهجه الخاص هذه الدلائل المادية التي هي في أول أمرها غيب وتنبؤات؛ قائلا: {كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ أَنَا وَرُسُلِي}⁴، وقص سير السابقين ممن لم يدركهم القرشيون بقوله: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا فَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ

1 - حياة محمد، لمحمد هيكمل، ص: 13.

2 - قالوا عن الإسلام، للدكتور عماد الدين خليل، ص: 55.

3 - الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان، لوحي الدين خان، ص: 167، تعريب: د. ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، نشر: مكتبة الرسالة.

4 - سورة المجادلة، الآية: 20.

لِلْمُتَّفِيْنَ} ¹. وفي سياق هذه التنبؤات المادية وردت آيات فيها نقد لأقوال المغترين بقوتهم وعتادهم، أبرزها:

الإخبار عن انتصار المسلمين، وتمكنهم في المستقبل القريب، قائلا: {أَمْ يَفُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ} سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُّونَ الدُّبْرَ} ²، وقد وقع مصداق ذلك يوم بدر وغيره من أيام المسلمين الخالدة، وإخباره عن دخول الصحابة إلى لمسجد الحرام محلّقين رؤوسهم، بقوله: {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمَفْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ} ³، فدخلوه بعد ذلك بقليل فاتحين. ومما ورد في السنة الصحيحة من هذه التنبؤات: إخبار الرسول صحابته بأحداث مؤتة وهي أبعد عن المدينة بكثير ⁴، كما روى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: "أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم" ⁵.

ومن أبرز هذه التنبؤات القرآنية التي تحمل نقدا تصحيحيا: الإخبار بانتصار الروم على الفرس في قوله: {أَلَمْ يَغْلِبْتَ الرُّومَ وَجِ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} ⁶. يقول أحد المؤرخين الغربيين ⁷ معلقا على هذه النبوة: "لم تكن أية نبوة أبعد منها وقوعا؛ لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية" ⁸. فهذا الحدث المعجز حدث تاريخي مشهور يدل على صدق رسول الرسالة القرآنية ومصدرها الإلهي العالم بأسرار الكون وخباياه "ومحمد الذي جلس في الشرق على حاشية الامبراطوريتين العظيمتين طار فرحا مما سمع عن تصارع الامبراطوريتين وقتالهما، وجرؤ في إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة سوف تكون لراية الروم بعد بضع سنين. وفي ذلك الوقت ساق الرجل هذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها

1 - سورة هود، الآية: 49.

2 - سورة القمر، الآية: 44 - 45.

3 - سورة الفتح، جزء من الآية: 27.

4 - تقع مؤتة بالبلقاء في الشام، وهي دون دمشق، وهي الآن تقع شرقي الأردن قرب الكرك. ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، 2/ 128، نشر: دار صادر، بيروت، ومعجم البلدان، لياقوت الحموي، 5/ 220، نشر: دار الفكر - بيروت، والتعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، 2/ 287.

5 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، 4/ 1554، الحديث رقم: 4014.

6 - سورة الروم، الآية: 1 - 2.

7 - هو المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون، المزداد بلندن، سنة: 1737 م، والمتوفى سنة: 1794م. ينتظر ترجمته بتفصيل في مقدمة كتابه المترجم "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية"، وبحث بعنوان: "مراجعة سقوط الإمبراطورية الرومانية" للأستاذ علي أدهم، ص: 86 وما بعدها، وهو منشور في مجلة: تراث الإنسانية، السنة: 1964م.

8 - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها = the History of the Decline and fall of the Roman Empire، لإدوارد جيبون، ترجمة: محمد علي أبي درة، 5/ 74، تقديم: أحمد نجيب هاشم، نشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

وقوعاً¹. فتلك تنبؤات الوحي الإلهي واجبة الوقوع، وأما تنبؤات الفكر البشري (المستقبلات) فعاقبتها مجهولة.

المطلب الثالث: الحاجة الإقناعية في التشريع وترسيخ الأخلاق:

إذا كان منهج الخطاب النقدي في آيات الأحكام والأخلاق يتسم بالواقعية ومراعاة الأحوال الإنسانية، فإنه يتسم كذلك بالإقناعية والبرهنة على الأحكام التشريعية، والتدقيق في المعلومة الفقهية أو الأخلاقية، والإحاطة علماً بحديثاتها وسياقاتها، فليست مجالاً للظنون والتوهمات كما ورد في بعض الآيات النقدية القرآنية، كما في قوله: {وَلَا تَفُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}²، وقوله: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}³. فالقرآن كتاب حجة وبرهان في كل شيء، فليست الأخلاق أو الأحكام الشرعية مبنية على الأهواء والشهوات الإنسانية، بل مبناهما كلها على العقل والمنطق، وتحقيق مصالح الناس، والحفاظ على سلامتهم النفسية والجسدية والعقلية؛ لذلك جاءت آيات الأحكام والأخلاق وفق هذا المنهج الإقناعي، كما سنتبينه في الآتي.

أولاً: الحجاج الإقناعي في تقرير الأحكام الشرعية:

جاء القرآن المجيد والعرب غارقون في مخالفات شرعية منكورة في حق الإنسانية، لا يقبلها عقل ولا منطق سليم كشرب الخمر، وقتل الأطفال، والغصب، واستباحة الزنا، والربا، والزواج بمنكوحات الآباء، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من المنكرات التي نشأوا عليها، وألفتها أنفسهم وأهواؤهم، اقتصادية كانت أو اجتماعية وأسرية. فكان لزاماً أن يكون خطاب القرآن النقدي مبنياً على الحاجة العقلية والأساليب البيانية الإقناعية حتى يستطيع جذب المخاطبين وتعريفهم ببشاعة ما يجترحون، فكان يعلل الأحكام الشرعي في حالتي الحلية أو الحرمة، ويظهر غاياتها وحكمها وغاياتها ومقاصدها، تبياناً لوجه فسادها إن كانت محرمة، أو سلامتها إن كانت حلالاً طيباً، بناء على الأصل القرآني العام: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}⁴. فاستخدم النقد القرآني في منهجه لهذا الغرض مجموعة من الأساليب الحجاجية والبيانية الإقناعية، أبرزها:

1 - تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية الرومانية، لإدوارد جين، نقلاً عن "الاسلام يتحدى" ص: 182.

2 - سورة الإسراء، الآية: 36.

3 - سورة النحل، الآية: 116.

4 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 157.

- أسلوب الحصر والقصر: وهو من الأساليب الحجاجية والإقناعية التي يستخدمها المحاور لتوجيه خطابه الحجاجي على الشكل الذي يقتنع به الطرف المخاطب، ويقصد به على الإجمال: تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، أو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما سواه¹، وإيراد شيء على عدد معين². وهو أنواع ومراتب وله طرق مختلفة³، ليس القصد من هذا البحث تتبعها وبسطها.

يعتبر هذا الأسلوب التفصيلي في مجال التشريع حصراً أو قصراً من أبرز الأساليب النقدية التي تتقرر بها الأحكام الشرعية تحليلاً أو تحريماً في القرآن الكريم، ففي سياق منع الخمر والقمار وتحريمهما قال: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} ⁴، وقوله في سياق تعداد المحرمات رداً على افتراءات المشركين لما حرّموا بعض الإبل والبقر والغنم: {فُلٌ لَّاَ أَجِدُ فِي مَآءٍ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} ⁵، وهو قصر مجازي كما ذكر السيوطي في الإتيان، قائلًا: "إن الكفار لما كانوا يحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وكانوا يحرمون كثيراً من المباحات، وكانت سجيّتهم تخالف وضع الشرع ونزلت الآية مسبوقة بذكر شبههم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وكان الغرض إبانة كذبهم. فكأنه قال: لا حرام إلا ما أحللتموه، ولا حلال إلا ما حرمتموه، والغرض الرد عليهم والمضادة، لا الحصر الحقيقي" ⁶، وفي سياق منع منكوحات الآباء وحصر النساء المحرمات، قال: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا فَدَّ سَلَفٌ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَفْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} ^{١١} حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ءُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ} ⁷ إلى آخر الآيات، فهذا استدلال حصري خطابي⁸، مؤسس على قواعد اجتماعية وإنسانية، سرعان ما اقتنع بها الناس وامتثلوا لدلالاتها، فقد كان بعضهم "في الجاهلية العربية إذا

1 - ينظر: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدیع، للخطيب القزويني، ص: 93، تعليق: الدكتور ياسين الأيوبي، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، 1432 هـ / 2011م، والإتيان في علوم القرآن، 2/ 134، والإيضاح في علوم البلاغة، ص: 118.

2 - ينظر: التعريفات، للجرجاني، ص: 118، تحقيق: إبراهيم الأبياري، نشر: دار الكتاب العربي، ط 1، 1405 هـ، والتوقيف على مهمة التعريف، للمناوي، ص: 282، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1، 1410 هـ.

3 - تنظر في: الإتيان، 2/ 135.

4 - سورة المائدة، الآية: 92.

5 - سورة الأنعام، الآية: 146.

6 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، 1/ 89، و 2/ 134.

7 - سورة النساء، من الآيتين: 22 - 23.

8 - التحرير والتنوير، 14/ 332.

مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات!"¹. وفي سياق منع المشركين من دخول المساجد قال: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ}²، كما قال في سياق انتقادهم والرد عليهم في خصوص تأخير حرمة شهر من أشهر الحرام إلى آخر: {إِنَّمَا النَّسِيَّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاظِّطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ}³، ففي قوله: زيادة في الكفر دلالة على أن ذلك لا يعدو أن يكون منبعه حب الغصب والغارات والظلم والعدوان، فهو قصر حقيقي⁴. وفي سياق بيان المأكولات والممنوعات قال: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ}⁵، وأوضح أن الإسراف في الأكل والشراب مضر بالإنسان، فوجهه إلى التوسط والاعتدال وعدم الإسراف بقوله: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}⁶، غير أنه في حالة الضرورة أباح بعض المحرمات؛ تقديمًا للنفس الإنسانية وإنقاذًا لها من الهلاك، قائلًا: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}⁷، فالضرورات الإنسانية تبيح المحظورات؛ لأن حفظ النفس الآدمية مقدم عقلا وطبعًا، فكان أولى بالتقديم حكما وشرعا.

– أسلوب السؤال والجواب الجدلي:

يعتبر أسلوب الاستفسار والتساؤل القرآني منهجا نقديا ومسلكا حجاجيا له أبعاد إقناعية وأهداف بيانية وتأثيرية في نفوس المخاطبين، يستخدمه القرآن بشكل أوسع، سواء في مجال العقائد بصيغة الاستفهام الجدلي، أو في مجال التشريع والأحكام بصيغ مختلفة، أبرزها: بأدوات الاستفهام، أو بلفظتي: يسألونك، ويستفتونك، ما يثبت أن القرآن المجيد كتاب نقدي حي، يحاور ويحاجج، ويستحضر الطرف المخاطب ويجيب عن سؤاله كيفما كان، سواء مباشرة كان أو ضمنيا، كما في قوله: {فَدَسَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَيَّ

1 - في ظلال القرآن، 1/ 605.

2 - سورة التوبة، الآية: 28.

3 - سورة التوبة، الآية: 37.

4 - ينظر: التحرير والتنوير، 10/ 191، وتفسير الألوسي، 5/ 285، وفي ظلال القرآن، 3/ 1651.

5 - سورة البقرة: 172.

6 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 29.

7 - سورة البقرة، الآية: 172.

اللَّهُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ¹. ومما ورد من هذا الأسلوب الجدلي الإقناعي في مجال التشريع: سؤال الناس عن أصول المباحات في المطعومات والمنكوحات، وجوابهم عن ذلك في الآية القرآنية: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ²، فكان الجواب بالطيبات أمراً دالاً على حلية المستلذات النافعة للإنسان ليخرج بها المطعومات والمشروبات الضارة به، كما جاء بيان ذلك في جواب السؤال عن الخمر والميسر، في قوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْبَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا³، فكان كل ما يذهب بالعقل ويحجبه عن تصرفه الطبيعي محرماً ممنوعاً؛ لأن ضرره أكبر من منافعه، كما علل القرآن "الفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين ديناً دائماً وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع (...) وتخصيص التخصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات إنما هو في مواضع خفاء العلل، فإن الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء فوجب بيان ما فيهما من المفساد إنباء بحكمة التحريم⁴. كما منع كل ما فيه إفساد المال وأكله بالباطل من غير وجه حق، كالميسر وغيره من أصناف القمار والغش والخداع {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ⁵. ومن هذا الأسلوب الجدلي: سؤال الناس عن أحكام النساء التي أدركهن الإسلام مهضومات الحقوق المالية والاجتماعية والأسرية، فقد كانت "اليتيمة تكون عند الرجل، فإذا كانت جميلة ولها مال تزوجها وأكل مالها، وإذا كانت ذميمة منعها عن الأزواج حتى تموت فيرثها"⁶، فانتقد القرآن المجيد هذا الوضع المأساوي بقوله: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ لِلَّهِ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ⁷. فقد ورد في سبب نزول الآية عن عائشة رضي الله عنها أنها: "اليتيمة تكون في حجر الرجل، وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من مهر مثلها، وإذا كان مرغوباً عنها لقلة مالها وجمالها تركها، وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وقد شركته في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها لذماتها، ويكره أن يزوجه غيره حتى لا يذهب بمالها، فيحبسها حتى تموت فيرثها، فنهاهم الله

1 - سورة المجادلة، الآية: 1.
2 - سورة المائدة، جزء من الآية/ 5.
3 - سورة البقرة، الآية: 217.
- التحرير والتنوير، 2/ 4.350.
5 - سورة النساء، الآية: 30.
6 - تفسير الفخر الرازي، 11/ 233.
7 - سورة النساء، 126.

عن ذلك"¹، فنزلت الآية وأوجبت على الناس مراعاة جانب المرأة وحفظ حقوقها في الصداق والإرث على غرار الرجل؛ لأن مبدأ العدل والإنصاف يناهض هذا الظلم الذي يمارسه الناس على المرأة أثناء نزول القرآن، وقد أكد منعه بقوله: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا تَيْتُمُوهُنَّ}

– أسلوب الوصف والتعليل:

اهتم القرآن المجيد بتعليل الأحكام وبيان أسرارها اهتماماً بالغاً، حتى أسس أساليبه النقدية الحوارية على مسالك التعليل سبراً وتقسيماً، كما نلاحظه في سياق محاوراة المشركين فيما يخص تصورهم لبهائم الأنعام وخلوها من كل منطق، لما حرّموا ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى، وبعض الغنم والوصيلة، وبعض الإبل كالبحيرة²، فناقشهم القرآن المجيد بحصر الأوصاف التي يمكن أن تنهض حجة لتحريمها حصراً منطقياً، فقال: {ثَمَنِيَّةَ أَرْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ إِثْنَيْ وَمِائَةِ مَعْزٍ إِثْنَيْ فُلٍّ - الدَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا إِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³، فإذا كانت الذكورة هي علة التحريم، فإن كل ذكر حرام، وكذلك الأمر بالنسبة للإناث، وإذا كانت العلة هي اشتمال الرحم على الحمل فكل مولود حرام، ذكر كان أو أنثى، فلم تتضبط أية علة مما ذكر، فبطل تحريمهم لما أحله الله "وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال"⁴. وعلى هذا النهج بين القرآن المجيد علل الأحكام وأوصاف النظم والقوانين التي يشرعها، كما أجاب المستفسرين عن سر تحريم وطء المحيض في قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ بِاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ⁵، فكانت كل أحكامه قائمة على التعليل إما ظاهراً أو باطناً كما نجد ذلك في قوله: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ⁶، وقوله: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا⁷، فإن العقوبة الزجرية ناتجة عن علة الزنا والفساد وغصب أموال الناس ظلماً وعدواناً، فكان العدل القرآني قائماً على مبدأ عقلي، نتيجته: حفظ الأموال والأعراض والأنفس الإنسانية كما تبينه آية القصاص:

1 - ينظر: تفسير الإمام الطبري، 9/ 256، وأسباب النزول، للواحدي، ص: 123، وللباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص: 79، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت.

2 - التحرير والتنوير بتصرف، 8/ 129.

3 - سورة الأنعام، الآية: 144.

4 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، 2/ 359.

5 - سورة البقرة، الآية: 120.

6 - سورة النور، الآية: 2.

7 - سورة المائدة، 40.

{وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْإِلْبَابُ} ¹، ذلك لأن "الإنسان إذا علم أنه متى قُتِلَ قُتِلَ كان ذلك داعياً له قويا إلى أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو (قصاص) كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان في ارتفاع القتل حياة لهم" ². بل نجد القرآن المجيد يعلل بعض الأحكام بعلتين، كما في قوله: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدِيَهُمْ فِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا اتَّخَذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} ³ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ، وَفَدَّ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ⁴، فقد نص القرآن المجيد هنا على علتين اثنتين، هما: الإفضاء، والعقد المعبر عنه بـ"الميثاق الغليظ"، "فإن قيل: بل هي علة واحدة مركبة من وصفين. فالجواب أن الإفضاء علة في استحقاق المهر في الصحيح من النكاح والفساد؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "قلها المهر بما استحل من فرجها" ⁴، والميثاق الغليظ هو عقد النكاح وهي كلمة الله عز وجل (...) فهو قد يثبت بمجرد -دون الإفضاء- جميع المهر بالموت، ونصفه بالطلاق" ⁵.

ثانيا: الحجاج القرآني في مجال الأخلاق والآداب الإنسانية:

تتبع الأساليب النقدية الحجاجية في آيات الأخلاق في القرآن، يقف الدارس على أساليب حوارية وإقناعية عدة، كلها تهدف إلى تصحيح المنظومة الأخلاقية وتقويم الآداب البشرية، خاصة وأن القرآن "جاء لتغيير مجتمع كان يعيش في جهل وتخلف ويحتاج إلى صياغة جديدة تقوم على قيم فاضلة، وأخلاق حميدة، ومثل وسلوكيات يجب أن تتبع" ⁶، وأبرز هذه الأساليب مجملة فيما يلي.

- أسلوب ضرب المثال، أو ما يسمى في علم الجدل بـ"قياس الشبه" ⁷، وهو أسلوب حوارى ومنهج نقدي اعتمده القرآن المجيد في تصحيح المسار الأخلاقي في آيات كثيرة، أورد منها قوله في النهي عن اتباع الهوى ووساوس الشيطان وفتته: {يَبْنَىءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ

1 - سورة البقرة، الآية: 178.

2 - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص: 175، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت، ط 4، 1998م.

3 - سورة النساء، الآية: 20 - 21.

4 - أخرجه الإمام الترمذي في سننه، وقال: هذا حديث حسن، كتاب النكاح، باب: لا نكاح إلا بولي، 3/ 407، الحديث رقم: 1102، والحاكم في المستدرک، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: ذكر ابنة بصرة بن أبي بصرة رضي الله عنه، 3/ 685، الحديث رقم: 6515.

5 - استخراج الجدل من القرآن الكريم، لعبد الرحمن بن نجم الدين أبي الفرج ناصح الدين ابن الحنبلي، ص: 117، تحقيق: د. زاهر بن عواض الألمعي، نشر: مطابع الفرزدق التجارية، ط 2، 1401هـ.

6 - من أساليب الإقناع في القرآن، د. معتصم بابكر مصطفى، ص: 96، بحث منشور في مجلة كتاب الأمة، العدد: 95، السنة: 23، جمادى الأولى 1424.

7 - استخراج الجدل من القرآن، لابن الحنبلي، ص: 119.

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِّهَمَآ¹، فإن آدم وحواء لما غفلا عن وسوسة الشيطان وفتنته تمكن من خداعهما والإيقاع بهما، حتى زينت لهما أنفسهما معصية ربهما²، فكان هذا تنبيهها عن طريق القياس الأولوي للإنسان على عدم الغفلة عن وساوس الشيطان وفتن الهوى والنفس الأمارة بالسوء، حتى لا يقع فيما وقع فيه أبواه من قبله، فإن الشيطان لما بلغت قدرته الإيقاع بنبي الله آدم وزوجه حواء فلأن يقدر على افتتان غيره من عامة الخلق أولى وأحرى³؛ "فكان ذلك سببا لخروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها، ودخلا في طور آخر من الحياة يكابدون فيها شقاء المعيشة وهمومها وأن الفتنة التي تحرم المفتون من دخول الجنة أسهل من الفتنة التي تخرج من الجنة"⁴. كما اعتمده القرآن المجيد في إبراز فظاعة الغيبة والنميمة وتشبيهها بأكل اللحوم الإنسانية في قوله: {وَلَا يَغْتَب بَّغْضِكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ⁵}، وهذا التشبيه: "مقصود منه استفظاع الممثل وتشويبه لإفادة الإغلاظ على المغتابين لأن الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهلية. فشبهت حالة اغتياب المسلم من هو أخوه في الإسلام وهو غائب بحالة أكل لحم أخيه وهو ميت لا يدافع عن نفسه"⁶، فكما يكره الإنسان أكل لحم أخيه الميت يلزمه أن يكره الغيبة وذكر الناس بما يكرهون. قال الفارسي: "المعنى: فكما كرهتموه فاكروها الغيبة"⁷. ومن هذا الأسلوب التشبيهي الإقناعي الذي له أثر كبير في ترسيخ القضايا النقدية الأخلاقية، قول القرآن: {بِأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ⁸}، وقوله في محاوراة الطاغية قارون {وَأَحْسِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ⁹}، وقوله في أدب الاستئذان: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ¹⁰}، فنبه إلى أن الطفل البالغ يلزمه التأدب بآداب الاستئذان، كما يستأذن غيره ممن بلغ قبله مبلغ الرجال¹¹.

– أسلوب القصص:

- 1 - سورة الأعراف، الآية: 26.
- 2 - تفسير المنار، 8 / 322.
- 3 - تفسير الرازي، 14 / 223.
- 4 - تفسير المنار، 8 / 322.
- 5 - سورة الحجرات، جزء من الآية: 12.
- 6 - التحرير والتنوير، 26 / 255.
- 7 - نقلا عن "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، 3 / 196، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391.
- 8 - سورة الأحقاف، الآية: 34.
- 9 - سورة القصص، جزء من الآية: 77.
- 10 - سورة النور، الآية: 57.
- 11 - ينظر: تفسير الرازي، 24 / 419، والتحرير والتنوير، 18 / 296.

يعتبر أسلوب الحكاية والقصة في القرآن نوعاً من قياس الشبه وضرباً من أضرابه، ولو لم يكن حجة إقناعية لما ورد في منهج النقد القرآني على سبيل إقامة الحجة على المعاندين، كما في الإشارة القرآنية: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ} ¹، فاعتمد القرآن المجيد على أسلوب القصة في النقد الأخلاقي من أجل الاعتبار والاتعاظ، كما في صريح النص القرآني: {بِأَفْضَلِ الْفَضْلِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ²، فمقصده الأساسي هو: التربية بالمثال، وذلك بذكر جميع الأخلاق الفاضلة وأصولها التي أطبقت الشرائع جميعها على وجوب التحلي بها، وبيان أصول الأخلاق السيئة التي نفرت منها جميع الشرائع ليجتمع في هذه الأمة ما تفرق في غيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ³، "وقد كان بعض علماء أهل الكتاب ممن قطع عمره في تعلم ذلك يعلم بعض هذه الأخبار، فيسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض ذلك، فينزل القرآن الكريم مجيباً عن هذه الأسئلة، فأدعن علماء أهل الكتاب بتصديقه فيما أخبر به، ولم يحك عن أحد منهم أنه أنكر شيئاً مما جاء أو كذبه مع شدة عداوتهم له، وحصرهم على تكذيبه، وطول احتجاج النبي صلى الله عليه وسلم به عليهم، وإخباره عن أنبيائهم ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمضمنات كتبهم ومكنونات شرائعهم، وعن كثير مما سألوا عنه بقصد التعنت والإفحام" ⁴.

ونجد من هذا الأسلوب الحجاجي الذي استخدمه القرآن من أجل الإصلاح والتغيير الأخلاقي نماذج متنوعة في القرآن، أبرزها: النهي عن الظلم والطغيان، كما نستخلصه من قصة فرعون وغيره من الطغاة الواردة في القرآن، كما في قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَدْخُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} ⁵، فجاءت عاقبته: {بِأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} ⁶، وقوله في قصة قارون: {إِنَّ فَارُوقَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ (...) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} ⁷، ومن ذلك: النهي عن خلق السفاهة في قصة هود عليه الصلاة والسلام، كما جاء في القرآن على لسانه: {قَالَ

1 - سورة إبراهيم، الآية: 47.

2 - سورة الأعراف، الآية: 176.

3 - منهج الفرقان في علوم القرآن، 2/ 158.

4 - منهج الفرقان في علوم القرآن، للشيخ محمد علي سلامة، 2/ 155، تحقيق: د. محمد سيد أحمد المسير، نشر: دار نهضة مصر، ط 1، 2002م.

5 - سورة القصص، الآية: 3.

6 - سورة القصص، الآية: 40.

7 - سورة القصص، الآية: 81.

يَفْقُومَ لَيْسَ بِهِ سَبَاهَةٌ وَلَكِنَّ رَسُولَ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ¹، وتقويم الانحراف والشذوذ الجنسي من خلال قصة لوط عليه الصلاة والسلام، فقد أورد النقد القرآني قصته في سياق إبراز بشاعة هذا الخلق الذميمة، وتبيين نتائجها السلبية ومفاسده على الأفراد والمجتمعات الإنسانية، {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾} أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ²، كما جاءت قصة المرأة التي نقضت غزلها بعد الجهد الجهد في ترسيخ قيم الأمانة والوفاء بالعهود، وجاءت قصة مريم العذراء ونبي الله يوسف لترسيخ قيمة الطهر والعفاف {وَعَلَّفَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ³، وقالت: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَفِيًّا⁴، كما تكررت قصة آدم في غير ما موضع من القرآن لتقرير مبدأ الاعتراف بالاثم والذنب، وضرورة التوجه بالتوبة والإنابة إلى الله {فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁵، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي اعتمدت أسلوب القصص في العملية الحجاجية النقدية، باعتباره سنة كونية لا تتخلف ولا تتغير، كما يلخصها القرآن في قوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁶، {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ أَمِنَةً مِّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ⁷. وسيأتي المزيد من البيان لدور القصص والأمثال في منهج النقد القرآني، إن شاء الله.

– أسلوب التبشيع والتقريع:

من الأساليب الحجاجية الإقناعية التي يسلكها القرآن المجيد في سبيل النقد الأخلاقي: أسلوب التقريع والإنكار في كل ما يستقبح عقلا وطبعاً وشرعاً ثم يرتكبه الناس، فيأتي النص

- 1 - سورة الأعراف، الآية: 66.
- 2 - سورة النمل، الآية: 56 – 57.
- 3 - سورة يوسف، من الآية: 23.
- 4 - سورة مريم، الآية: 17.
- 5 - سورة الأعراف، الآية: 22.
- 6 - سورة الأعراف، الآية: 95.
- 7 - سورة النحل، الآية: 112.

القرآني بإنكاره بأساليب توبيخية وتقريعية تبين مدى خطورة المخالفة الأخلاقية المرتكبة، كما نجد ذلك في النهي عن الفاحشة بقوله: {أَتَأْتُونَ الْبَهْشَةَ مَا سَبَفَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} ¹، وقوله في ترسيخ قيمة الصدق مع الذات والنفس الإنسانية بقوله: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ²، وقوله في توجيه البشرية إلى دراسة الوحي وتدبر آياته العقلية والكونية والإنسانية، قائلا: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ³، فورد هذا الخطاب الحجاجي مبدوءا بلام القسم وحرف التحقيق، وجاء فيه "كتابا" بصيغة التنكير، ثم ختمه بصيغة الاستفهام الإنكاري "أفلا تعقلون"؛ ليحقق كل ذلك معنى التفخيم والتهويل والتشنيع على المنكرين الذين لم يهتدوا بهدي القرآن ونقده ⁴.

- أسلوب الترجيح:

كثيرا ما يقارن القرآن المجيد بين كفتي القيم الحسنة والأخلاق السيئة لإظهار رجحان كفة القيم والأخلاق الجميلة على كفة الخلال السيئة، فیهیء النقد القرآني بذلك نفوس المخاطبين لها، وينبه عقولهم إلى إعمال الترجيح بينهما، كما نلاحظه في الآية القرآنية التي توازن بين العالم وغيره: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ⁵، كما لا يستوي الأعمى والبصير في سلوكهما: {مَثَلُ الْبَرِّيفِيِّ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِي مَثَلًا} ⁶، فجرى هذا الأسلوب النقدي التصحيحي الإقناعي من أجل تهذيب القيم الإنسانية، وتصحيح مسارها في كثير من الآيات النقدية القرآنية، كما في الآية الحربية التي تحت على الثبات وعدم الهوان: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ⁷، إن يَمَسَّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْفُؤْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ ⁸، وفي آية أخرى: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْفُؤْمِ إِنْ تَكُونُوا تَالِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَالِمُونَ كَمَا تَالِمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} ⁹، فالمسلم منتصر في كلتا حالتيه على

1 - سورة الأعراف، الآية: 79.

2 - سورة البقرة، الآية: 43.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 10.

4 - ينظر: تفسير الألوسي، 9/ 15، والتحرير والتنوير، 17/ 23.

5 - سورة الزمر، جزء من الآية: 10.

6 - سورة هود، الآية: 24.

7 - سورة آل عمران، الآية: 139 - 40.

8 - سورة النساء، الآية: 103.

السواء، إن مات فشهيد، وإن بقي فنصر عزيز، لأن أمر المؤمن كله خير "وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"¹، كما يتفاضل القاعدون عن الغزو والمجاهدون، ف{لَا يَسْتَوِي الْفَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}²، ويختلف فضل ما كان لله وما كان لغيره: {أَقِمَّ اسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَفْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِّنْ اسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَبَا جُرْفٍ هَارٍ}³، وترجح كفة المؤمن على الفاسق: {أَقِمَّ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَّ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}⁴، ويفضل الطيب الخبيث وإن بدا في صورة حسنة، كما صرح به في قوله: {فَلَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ}⁵.

المبحث الثاني: منهج الترغيب والترهيب

اعتمد الخطاب القرآني في عملياته النقدية والإصلاحية على منهج "الترغيب والترهيب"؛ لكونه أسلوباً متميزاً بإيجازه، وحسن نظامه وتأليفه، وجزالة ألفاظه ومعانيه، لافتاً للأنظار، وداعياً إلى إمعان التفكير والتدبر في آيات الله وتشريعاته؛ لأنه مقرون دائماً بوعده الله أو وعيده، كما في الآية القرآنية: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ أَلْذَّهَبَ وَالْمِصْصَةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}⁶، ويؤثر النفس الإنسانية ويؤثر عليها أكثر من أي أسلوب نقدي آخر؛ ذلك لأن النفس الإنسانية مجبولة على الرغبة في اللذائذ والنعم، ومفطورة على الرهبة من العقاب والآلام. ولبسط هذا النهج القرآني وأثره في عملية التغيير والنقد والإصلاح أسست هذا المبحث على المطالب الآتية.

المطلب الأول: دلالة الترغيب والترهيب في القرآن:

يتميز الخطاب النقدي في القرآن بتنوع أساليبه وتعدد مسالكه ومناهجه في مخاطبة المكلفين، ومن أرقى هذه الأساليب النقدية وأنجعها في تحقيق عملية التحديث والتغيير في نفوس المخاطبين: أسلوب الترغيب، والترهيب، ومنهج التعزيز والتخويف الذي استوعب قدراً كبيراً من آيات القرآن المجيد.

1 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، 8 / 227، الحديث رقم: 7692.

2 - سورة النساء، الآية: 64.

3 - سورة التوبة، الآية: 110.

4 - سورة السجدة، الآية: 18.

5 - سورة المائدة، الآية: 102.

6 - سورة التوبة، الآية: 34.

أولاً: مفهوم الترغيب من خلال الاستعمال القرآني:

يعتبر مفهوم الترغيب من المفاهيم القرآنية التي لها جذور وأصول كثيرة في آيات القرآن، وهو مشتق من رغب في الشيء، إذا أحبه وأراد، ورغب عنه إذا كرهه وامتنع عنه، ورغبه فيه شخص آخر، إذا زينه في نفسه وحببه إليه¹، فلفظ الرغبة راجع إلى أصليين ومعنيين اثنين، هما: الرجاء، والسعة²، كما يقال: تراغب المكان إذا اتسع³. قال ابن فارس: "الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلب لشيء، والآخر سعة في شيء، فالأول: الرغبة في الشيء: الإرادة له، رغبت في الشيء، فإذا لم ترده قلت: رغبت عنه، والآخر: الشيء الرغيب: الواسع"⁴، وقد ورد في القرآن بدلالات ومعاني شتى، كلها ترجع إلى المعاني السالفة، فجاءت بمعنى الرجاء في قوله تعالى: {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}⁵، بمعنى طلب النكاح منهن شوقاً ورجاء⁶، وقوله: {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}⁷، أي راجون عفوه طالبون خيره⁸، وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}⁹، أي راغبين في ثواب الله وجزائه وطاعته. وجاءت بمعنى الحرص وهو قريب إلى الرجاء والطلب، في قوله تعالى: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}¹⁰، أي فاحرص على التوجه إلى الله وطلب رضاه وحده دون سواه، كما يفيدته تقديم المعمول¹¹. قال ابن عاشور في تفسير الآية: "والرغبة طلب حصول ما هو محبوب"¹²، كما وردت بمعنى الكره والانصراف وعدم الإرادة في قوله: {فَالَ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ - إِلَهَتِي}¹³، أي أمنصرف عنها تاركاً لها رغبة في غيرها¹⁴.

هذه جملة المعاني اللغوية التي وردت في الاستعمال القرآني لمفهوم "الترغيب"، ولم يرد في تفسيرات الأقدمين حديث عن مفهوم الترغيب باعتبار جهته العرفية الاصطلاحية، وإنما تحدثوا في الغالب الأعم عن دلالاته ومعانيه اللغوية، ومن بين الأوائل الذين أشاروا إلى أصل الدلالة العرفية لمفهوم الترغيب: الإمام القرطبي، حيث قال: "الترغيب في العمل الصالح هو

-
- 1 - ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 115 - 116، ولسان العرب، لابن منظور، 422 / 1، مادة: رغب.
 - 2 - كتاب العين، للخليل بن أحمد، 413 / 4، كتاب الغين، باب الغين والراء ومعهما الباء.
 - 3 - المعجم الوسيط، لثلة من الباحثين، 740 / 1.
 - 4 - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 416 / 2.
 - 5 - سورة النساء، الآية: 126.
 - 6 - تفسير الطبري، 255 / 9 - 256.
 - 7 - سورة التوبة، جزء من الآية: 59.
 - 8 - تفسير البيضاوي، 373 / 5.
 - 9 - سورة الأنبياء، جزء من الآية: 89.
 - 10 - سورة الشرح، الآية: 8.
 - 11 - ينظر: تفسير الطبري، 498 / 24، وتفسير الرازي، 209 / 32، وتفسير المنار، 86 / 11.
 - 12 - التحرير والتنوير، 417 / 30.
 - 13 - سورة مريم، جزء من الآية: 46.
 - 14 - تفسير القرطبي، 113 / 13، تصحيح وتعليق: أحمد عبد العليم البردوني، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1405 هـ / 1985 م.

الذي يكسب الثناء الحسن"¹، والإمام الزركشي في بيانه لمعنى الترغيب، قائلًا: "هو البشارة من الله عز وجل إلى عباده المؤمنين (...). ترغيب الله العبد في التوبة، فإذا علم ذلك طمع في عفوهِ"². فكان هذا هو المعنى الأصلي الذي استقرت عليه دلالة "الترغيب" في عرف العلماء الأقدمين، وعليه جرى المحدثون والباحثون المعاصرون في تعريف الترغيب، غير أنهم توسعوا في تبيينه وتفصيله، قائلين -حسب تعبير عبد الرحمن النحلاوي-: "يمكننا باستقراء آيات القرآن أن نعرف الترغيب، كما يلي: الترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة خيرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى، وذلك رحمة من الله لعباده"³، وهذا تعريف مستخرج من قول الله سبحانه في سورة التوبة: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}⁴.

وهو مفهوم مشترك بين مجالات علمية مختلفة، أبرزها: مجال الدراسات النفسية والاجتماعية، حيث وقف عليه بعض الباحثين في علم النفس والاجتماع، فعرفوه بأنه: "الباعث أو المنبه للسلوك، حيث تؤدي الحاجة إلى خلق توتر يدفع الكائن الحي إلى المبادرة بالعمل"⁵، أو هو: "مصطلح نفسي بمعنى: حث السلوك وتواصله مباشرة تجاه هدف ما، أما الأهداف فقد تكون كامنة أو غير كامنة"⁶، فهو إذن: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه⁷.

من خلال هذه التعريفات السالفة التي حاولت تحديد مفهوم الترغيب في الاستعمال القرآني، نتبين أنه قائم على ركنين اثنين، أولهما: الدافعية أو الحافز، وهي القوة التي تحرك النفس الإنسانية وتوجه سلوكه وتعاملاته⁸، وثانيهما: رسم الهدف وتحديد الغاية المراد تحقيقها من العمل الذي وقع الترغيب على فعله، بتحديد نوع الجزاء أو المكافئة المترتبة عليه، فيقع الإنسان المكلف في حالة من الشوق، تجعله يتوق إلى إدراكها والفوز به، كما في الآية القرآنية: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَدَّ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۖ

1 - تفسير القرطبي، 12، 113.
2 - البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 2/ 389، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391 هـ.
3 - ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، لعبد الرحمن النحلاوي، ص: 230، نشر: دار الفكر، ط: 25، 1428 هـ / 2007 م، والترغيب والترهيب في القرآن الكريم، ص: 15.
4 - سورة التوبة، الآية: 73.
5 - ينظر: أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، لمؤلفه: الحسين جرنو محمود جلو، ص: 38 - 39، والمعجم الإسلامي، لأشرف طه أبو الذهب، ص: 156.
6 - معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، لأحمد زكي بدوي، ص: 210.
7 - أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، ص: 670، نشر: مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1395 هـ / 1975 م.
8 - علم النفس، كاظم عبد الحميد، ص: 227، ومدخل إلى علم النفس، لجماعة من المؤلفين، ص: 431 وما بعدها.

جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى¹، فالترغيب في المفهوم القرآني إذن، معناه: تحفيز المكلفين على عمل من أعمال البر والطاعة، لقاء جزاء موعود به دنيوياً كان أو أخروياً.

ثانياً: مفهوم الترهيب في الاستعمال القرآني:

ترجع جذور لفظة "الترهيب" إلى مادة (رهب) ذات معنيين أصليين، يدل أولهما على الخوف والفرع، وثانيهما على دقة وخفة². والأصل اللغوي الذي له علاقة بالاستعمال القرآني لمفهوم "الترهيب" هو الأصل الأول الدال على معنى الخوف، يقال: "رهِبْتُ الشَّيْءَ رُهْبًا وَرَهَبًا وَرَهْبَةً"³. ومنه اشتق الرهباء، والترهيب الذي هو ضد الترغيب، ومعناه: التخويف. ولم يرد في القرآن بهذا اللفظ، وإنما ورد بألفاظ أخرى، منها ما ورد بالصيغة المصدرية، كالرهبه في قوله: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ}⁴، و "رهبا" كما في قول الله تعالى: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}⁵، بمعنى: رجاء في الثواب، وخوفاً من العقاب، وقوله: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}⁶، بمعنى: الإفراط في الخوف والمبالغة في التحرز والخوف من غضب الله، كما تدل عليه نون النسبة في آخره، فإنها للدلالة على المبالغة⁷، ومنها ما ورد بصيغة الفعل، كقوله: {فَبِإِيَّايَ قَارِهَبُونَ}⁸، وقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ}⁹. وافرقت الإمام أبو هلال العسكري بين عموم الخوف والرهبه، قائلاً: "الرهبه طول الخوف واستمراره، ومن ثم قيل للراهب راهب؛ لأنه يديم الخوف"¹⁰. كما جرى التعبير عن مفهوم "الترهيب" في القرآن المجيد بعبارات ومرادفات أخرى، كالتحذير المباشر في قوله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}¹¹، واستعمال مفهوم الخوف

1 - سورة طه، الآية: 74 - 75.

2 - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 2/ 447.

3 - مقاييس اللغة، 2/ 447.

4 - سورة الحشر، الآية: 13.

5 - سورة الأنبياء، من الآية: 89.

6 - سورة الحديد، الآية: 26.

7 - ينظر: روح المعاني، للألوسي، 14/ 190، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، 27/ 421 - 422.

8 - سورة النحل، من الآية: 51.

9 - سورة الأنفال، الآية: 61.

10 - الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص: 271، نشر: المكتبة العلمية، بيروت، ط 2، 2005م.

11 - سورة النور، جزء من الآية: 61.

مقابل الطمع، والوعيد مقابل الوعد، والإنذار في مقابل التبشير، حتى تكرر فيه أصل الإنذار ومشتقاته أكثر من اثنتين وثلاثين ومائة (132) مرة، بمعدل يفوق وروده بمشتقات "الترهيب" بكثير؛ إذ نجد مفرداته لا تتعدى اثنتي عشرة لفظة، لكنهما على الجملة لفظان مترادفان، يؤديان وظيفة التخويف من عقاب الله وعذابه، كما نجده في تحديد مفهوم "الترهيب" في العرف الشرعي والدعوي، حيث عرف بأنه: "وعيد أو تهديد بعقوبة تترتب على إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به"¹، أو أنه: "تهديد من الله يقصد به تخويف عباده ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي"²، فالترهيب على كل حال قائم على معنى التخويف "وتحذير المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات بعد قبوله"³.

هذه نبذة مختصرة عن الاستعمال القرآني لمفهوم الترغيب والترهيب، الذي يعتبر أسلوباً بلاغياً متميزاً، يقوم على مبدأ الجزاء بالثواب أو العقاب، وعلى تحصيل المنافع والمصالح، وتجنب كل ما يثير المفسد والمضار. فتبين أن الترغيب والترهيب من حيث الاستعمال القرآني على الجملة: هو أن يسوق ما يتضمن الترغيب في الأعمال المشروعة المباحة أو المستحبة أو الواجب فعلها، ثم يتبعه بما يتضمن الترهيب من ارتكاب المخالفات الشرعية، أو يعكس الأمر فيقدم الترهيب على الترغيب، غير أن الشائع في الاستعمال القرآني هو التقديم بالترغيب وإردافه بمضامين التخويف والترهيب. قال جار الله الزمخشري: "من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط في اكتساب ما يزلف، والتنشيط عن اقتراف ما يتلف"⁴، فكان هذا من المنهج القرآني كما صرح به الإمام أبو السعود في قوله: "من السنة السنية القرآنية: شفع الوعد بالوعيد، والجمع بين الترغيب والترهيب؛ إيفاء لحق الدعوى بالتبشير والإنذار"⁵.

ثالثاً: الأبعاد النقدية لمنهج الترغيب والترهيب في القرآن:

يجد الباحث الممغن للنظر في خطاب القرآن المجيد أن القرآن يستعمل أساليب تبليغية ووسائل إقناعية شتى من أجل تحقيق غاياته النقدية والإصلاحية، فكان من أشد هذه المناهج النقدية أثراً في النفوس، وأبلغها وقوعاً وانتشاراً، منهج الترغيب والترهيب لملاءمته للطبع البشري الذي لا يستغني عن وسيلة التحذير والترهيب أو التحفيز والترغيب في مسيرته الإصلاحية، قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً}⁶. وقد صرح القرآن المجيد بهذا المعنى في كثير من

1 - أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلاوي، ص: 230.

2 - المرجع نفسه، ص: 230

3 - أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، ص: 670.

4 - الكشاف، للزمخشري، 1/ 104، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ.

5 - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، 3/ 12، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

6 - سورة الإسراء، الآية: 59.

الآيات التي سيقَّت لبيان وظيفة الرسل وعامة المصلحين في قوله: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} ¹، وقوله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمْسَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ²؛ ذلك لأن أبعاد هذا المنهج النقدي التربوي كثيرة جداً، ذكر منها المفسرون أهدافاً وغايات شتى، أجملها في الآتي.

1 - مداواة النفوس وتقويم السلوك البشري، وتهذيبه، وتربيته على الخير حثاً وترغيباً، وحمله على تجنب الشر تخويفاً وترهيباً. يقول العلامة ابن عاشور: "على عادة هذا الكتاب المجيد مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب" ³، فكان اللوم الرقيق بالتخويف من العقاب أنجع من إنزال العقاب عاجلاً؛ "لأن المعززات الشرطية أقل وضوحاً من المعززات غير الشرطية، ولأن تجنب العقاب خير من الفرار منه، فالتلميح أجدى من التصريح" ⁴، فكان هذا النوع من الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب ضرورياً في ضبط السلوك الإنساني، وتقويم تصرفاته.

2 - حماية المجتمعات الإنسانية وحفظ مصالحها ومنافعها العامة، ذلك لأن "مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما: جلب النفع ودفع الضرر" ⁵. والطريق إلى تحصيل هذين الأمرين إنما يكون باتِّباع أسلوب الترغيب والترهيب، وهذا الهدف ظاهر من سير الأنبياء والرسل، حيث يرغبون الناس فيما فيه صلاحهم ومصالحهم، ويُرهبونهم من أعمال الفساد والفجور، التي ترجع على الخلق بالضرر الكبير، ولنا في القصص القرآني غنى عن كل شاهد ودليل.

3 - تحقيق التبليغ ومعنى الإشهاد، وإيفاء "حق الدعوة بالتبشير والإنذار"؛ إذ إن الدعوة إلى التغيير والإصلاح لا تؤتي ثمارها إلا إذا سلكت سبيل الترغيب والترهيب، ومسلك التخويف والتعزيز، حتى تقيم الحجة على عامة المخاطبين {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} ⁶.

4 - ترتيب الجزاء عن العمل، فإن القصد الأساسي من ابتلاء الخلق ترغيباً وترهيباً في القرآن المجيد إنما هو لتقرير أن الجزاء من جنس العمل {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

1 - سورة النساء، الآية: 164.

2 - سورة الأنعام، الآية: 49.

3- التحرير والتنوير، 39/24.

4 - أساليب التشويق ولتعزيز في القرآن الكريم، للدكتور الحسين جرنو محمود جلو، ص: 84، نشر: مؤسسة الرسالة - دار العلوم الإنسانية، ط 1، 1414 هـ / 1994 م.

5 - أضواء البيان، للشنقيطي، 5/14، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

6 - سورة الحج، الآية: 76.

يَرَهُ ﴿٨﴾ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾¹؛ لأن النفس الإنسانية قد لا تخضع للحقائق الشرعية والقرآنية الا بوسائل إقناعية، عقلية كانت أو عاطفية، فكان منطق الجزاء بالثواب أو العقاب يخدم مجال العاطفة الإنسانية، تحفيزاً في الفعل أو الترك، حتى لا يستوي المحسن والمسيء في الدرجة {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ}².

المطلب الثاني: منهج الترغيب والترهيب في القرآن:

يستخدم القرآن المجيد منهج الترغيب والترهيب لتحقيق جلب الانتباه ولفت أنظار المخاطبين حتى يستجيبوا لدعوته الإصلاحية، ويذعنوا لمبادئه وثوابته النقدية، قال تعالى: {إِلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّكَثٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ فَالُوا بِتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} ³؛ ومن أجل تحقيق هذه الغاية فقد سلك القرآن الكريم في استعمال أسلوب الترغيب والترهيب مسلكاً بليغاً ومنهجاً نقدياً بديعاً، أساسه المنهجي قائم على ثلاثة طرق، أفصلها في الآتي.

الطريق الأول: اقتران مقام الترغيب بالترهيب وإرداف البشارة بالندارة:

هذا هو المسلك السائد في النقد القرآني القائم على أسلوب الترغيب والترهيب، وقد أجمع المفسرون على أن هذا النهج من خصائص القرآن المجيد وسماته النظامية البديعة، حتى اعتبره الشاطبي قاعدة مطلقة، حيث لا يرد في القرآن ترغيب إلا ويقارنه ترهيب "في لواحقه، أو سوابقه، أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله" ⁴، ولم يعتبر الآيات الفاصلة بين الوعد والوعيد فارقة بين الترغيب والترهيب، مؤكداً ذلك بقوله: "ولا يطولن عليك زمان إنجاز الوعد في هذا الاقتران، فقد يكون بينهما أشياء معترضة في أثناء المقصود، والرجوع بعد إلى ما تقرر" ⁵.

واقتران الترغيب بالترهيب في هذا النهج القرآني، يأتي على سبيلين أو مقامين اثنين:

- 1 - سورة الزلزلة، الآية: 8 - 9.
- 2 - سورة ص، الآية: 27.
- 3 - سورة الكهف، الآيات: 1، 2، 3.
- 4 - الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، 4 / 718، بتحقيق: فضيلة الدكتور الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، ط 1، 1438 هـ / 2017م.
- 5 - المصدر نفسه، 4 / 720.

- المقام الأول: إرداف الترغيب بالترهيب في آية واحدة:

فيرد الترغيب مقرونا بالترهيب في آيتين أو فاصلتين متتابعتين على وجه التصريح، وهو الأكثر ورودا في القرآن المجيد، ومن ذلك جمعه بين الترغيب والترهيب في آية واحدة: {قَابِلِ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْفُؤَمِ الْمُجْرِمِينَ} ¹، وقوله: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ} ²، وقوله في الجمع بين أسلوب الترغيب والترهيب في آيتين متتابعتين: {نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ³ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْآلِيمُ} ³، فتجتمع فيه آية الشدة مع آية الرخاء؛ حتى يبقى المخاطب دائما بين الألم والأمل، والخوف والرجاء، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر، كما جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء؛ ليكون المؤمن راغبا وراهباً، لا يرغب بغية يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه" ⁴. وقد يرد الترغيب مفصولا عن الترهيب بجملة من الآيات الاعتراضية، لكن منهج السياق النقدي يظل واحدا لا يختلف، كما نجده في مفتتح سورة العنكبوت، في الآية السابعة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} ⁵، ثم تفصل بينه وبين آية الترهيب جملة من الآيات التي تذكر الإنسان بأصله ومصيره حتى الآية الثانية والعشرين التي يرد فيه الترهيب الموافق للترغيب الوارد أوائل السورة: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِفَآئِهِ ءِؤْلَٰئِكَ يَلِيسُوا مِنْ رَّحْمَتِي وَءِؤْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ⁶.

- المقام الثاني: إيراد الترغيب أو الترهيب بصيغة غير صريحة:

حيث يرد أسلوب الترغيب مقرونا بالترهيب دون تصريح بلفظي "البشارة، والندارة" أو ما يرادفهما من المفاهيم، فتكون على شكل جملة من المعاني المحفزة أو المنفرة التي تسرد ما وعد به المتقون الصابرون أو ما توعده المنكرون الجاحدون، ثم يتبع ذلك بذكر ضده في نفس

1 - سورة الأنعام، الآية: 148.

2 - سورة غافر، الآية: 2.

3 - سورة الحجر، الآية: 29 - 50.

4 - رواه الإمام ابن عساكر، في تاريخ دمشق، 30 / 412 - 413.

5 - سورة العنكبوت، الآية: 7.

6 - سورة العنكبوت/ الآية: 22.

السياق وبنفس الأسلوب الذي يسوق ما ينتظر المؤمنين أو الكافرين من ثواب أو عقاب، ومن هذا السبيل: قول القرآن في مقام قدم فيه التهيب على الترغيب: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِفَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا فَأَلَوْا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَفَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} ¹، ثم يردف هذا التهيب التمثيلي بترغيب المتقين في قوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} ². ومن هذا الاستعمال التمثيلي، قوله في سورة التوبة: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَمُرُّونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ³، ثم أعقبه أسلوب الترغيب في الإيمان بقوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَمُرُّونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ⁴. وقد يرد فيه الترغيب مقدما على التهيب كما في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ} ⁵، ثم انتقل بعد ذلك إلى توعيد المكذبين برسالة نبي القرآن في قوله: {قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَتَّبِعَ بِرَبِّكَ بِكَاہِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} ^{٢٧} أم يفولون شاعراً تتربص به، ريب المنون ﴿٢٨﴾ فل تربصوا فإنني معكم من المتربصين} ⁶.

1 - سورة الزمر، الآية: 68.

2 - سورة الزمر، الآية: 70.

3 - سورة التوبة، الآية: 67.

4 - سورة التوبة، الآية: 72.

5 - سورة الطور، الآية: 19.

6 - سورة الطور، الآية: 27 - 28.

الطريق الثاني: تغليب أحد الأسلوبين على الآخر:

يرد أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن على جهة التغليب، وترجيح أحد الأسلوبين على الآخر حسب سياق الآيات وموضوعها، وأحوال مخاطبيها، ومناسبتها لما بعدها وما قبلها، فيذكر في الآية أسلوبا الترغيب والترهيب معا، غير أن أحدهما يغلب على الآخر، ويأتي في صورة أوضح وأبين من قرينه لوروده في سياقه المناسب له، ثم يذكر قرينه على وجه أشبه بالإشارة والتلميح على وجه الاجمال والاختصار، فتلخص لدينا من هذا الطريق مقامان اثنان:

- أولهما: مقام تغليب الترغيب على الترهيب:

تكرر هذا المقام المنهجي في القرآن في سور وآيات عدة، حيث يكون منهج السياق النقدي في خطاب عباد الله الخاضعين، فيرد وعدهم بخير الدنيا ونعيم الآخرة في الآية أو الآيتين، ثم يشير بعد ذلك إلى الجاحدين تنبيها وتوعدا، كما نجده في الآية القرآنية: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاسِفُونَ}¹. فالآية غلب فيها الترغيب على الترهيب؛ لأنها جاءت في سياق تبيان ما وعد به المؤمنون العاملون، لحثهم على العمل وترغيبهم في الاستزادة من الصلاح، فخاطبهم بحسب حالهم ومقامهم، حتى تأتي مناسبة الإشارة والتنبيه إلى خطر الكفر وسوء عاقبته: {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاسِفُونَ}. فهي طريقة نقدية ممنهجة تشير إلى أن كل هذا النعيم الموعود به متوقف على الالتزام بالإيمان والثبات على العمل به، قاصدا من وراء ذلك تخويفهم من مغبة الابتعاد عن السبيل، فهو "تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالندارة والعكس، دفعا للاتكال"². كما نجد هذا التغليب في سياق بيان الهدى القرآني في سورة الإسراء: {إِنَّ هَذَا الْأَفْرَاءَ أَن يَهْدِيَ لِي لَتِي هِيَ أَفْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا

1 - سورة النور، الآية: 53.
2 - التحرير والتنوير، 18 / 288.

أَلَيْمًا¹. فسياق الآية يدل على الترغيب في القرآن المجيد واتباع هديه ومنهجه، ثم أردفه بالترهيب من الكفر بما جاء به، دفعا للاتكال، حسب تعبير الطاهر بن عاشور.

- وثانيهما: مقام تغليب الترهيب على الترغيب:

نجد بعض الآيات في نفس هذا المنهج قد غلب فيها موضوع التخويف على الترهيب تبعا لسياق الآية وموضوعها الأساسي، فالتى جاءت في تحريم الزنا، وتحريم الربا، لا شك سيكون الترهيب فيها أرجح من غيره وأوضح، كما نتبينه في آية الربا {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٤﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَبَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ². فالآية غلبت الترهيب على الترغيب؛ لأن سياقها جاء أساسا لإبطال الربا وبيان مخاطره الاقتصادية والاجتماعية، فكان موضوعها يستدعي تغليب الترهيب والإكثار من التخويف والتهويل.

كما نجد هذا النهج التغلبي في مقام الترهيب من الكفر في سورة الملك، حيث غلب فيها أسلوب الترهيب على الترغيب؛ لأنها سيقّت في خطاب الملحدين وتحذيرهم من الكفر بخالق الموت والحياة، المالك، القادر على كل شيء على الحقيقة {وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ إِذَا أُلْفُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْفِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ فَدَجَأْنَا نَذِيرٌ ﴿٩﴾ فَكَذَّبْنَا وَفُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا

1 - سورة الإسراء، الآية: 9 - 10.
2 - سورة البقرة، الآية: 274 - 275.

كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ

﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ¹. فرجحت

الآية جانب التهيب؛ لأنه الأنسب للسياق في المنهج النقدي مراعاة لحال المخاطبين، فلا يصح بحال من الأحوال أن ترد الآية في سياق المباحات أو بيان المستحبات، ثم تجد فيها التهيب مغلبا على الترغيب، أو تأتي الآية في سياق بيان المحرمات والمحظورات، أو في سياق مخاطبة المعاندين من غير المسلمين، ثم يغلب فيها الترغيب على التهيب، فليس التعبير القرآني عبثا في استعمالاته، وإنما يغلب ويخاطب وينتقد حسب ما اقتضاه المقام، وتطلبه السياق النقدي، واستدعته أحوال المخاطبين.

الطريق الثالث: ورود أحد الأسلوبين دون قرينه:

قد ترد آيات في هذا السياق في سورة كاملة أو جملة من الآيات بأسلوب الترغيب دون التهيب أو بأسلوب التهيب دون ورود الترغيب، وذلك حسب سياق الآية وأحوال مخاطبيها. وقد اعتبر الشاطبي أن هذا المسلك قليل الوجود في القرآن، وأن القاعدة المطردة هي اقترانهما معا، وناقش القضية بقوله: "فإن قيل: هذا لا يطرد²، فقد ينفرد أحد الأمرين، فلا يؤتى معه بالآخر، فيأتي التخويف من غير ترجية، وبالعكس. ألا ترى قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ³} إلى آخرها فإنها كلها تخويف (...) فالجواب: إن ما اعترض به غير صاد عن سبيل ما تقدم، وعنه جوابان: إجمالي وتفصيلي"⁴، فأرجع ورود أحد الأسلوبين دون قرينه إلى الشذوذ والقلّة، ولا تأثير لها على القاعدة، أو إلى أن ذلك في قضية عينية أو في شخص معين، كما أول به آية {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}؛ فادعى أنها نزلت في شخص معين من الكفار ولسبب خاص، حيث همز النبي صلى الله عليه وسلم وعابه، فهو على هذا التخريج إخبار عن جزاء ذلك العمل القبيح، وليس مما نحن فيه من أسلوب التخويف والتهيب⁵.

ومهما كانت تأويلات الشاطبي لورود الترغيب أو التهيب منفردا في سياق نقدي عن قرينه، فإنه وارد مقطوع به في القرآن، كما سنتبينه في النماذج النقدية الآتية من خلال المقامين النقديين الآتيين.

– المقام الأول: ورود الترغيب منفردا عن التهيب:

1 - سورة الملك، من الآية: 6 إلى الآية: 13.
2 - يقصد اقتران الترغيب بالتهيب في القرآن كله، فلا يطرد فيه اقتران الأسلوبين على الدوام.
3 - سورة الهمزة، الآية: 1.
4 - الموافقات في أصول الشريعة، 4/ 724 إلى 729.
5 - الموافقات، للشاطبي، 4/ 729، بتحقيق الدكتور الحسين أيت سعيد.

قد يكون السياق النقدي في الآية التي سيقى للترغيب وردت في مقام خطابي لا مناسبة فيه لأسلوب التهيب، كما هو الحال في السياقات التي ترد في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته وتأيينه، فلا يناسبها أسلوب التهيب في منهج الخطاب النقدي. ومما ورد في القرآن من هذا المقام: قوله في سورة الضحى: {وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝} ¹ إلى آخر آيات السورة، وقوله في سورة الشرح: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ أَلَمْ نَقْضِ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} ² إلى آخر السورة، فإن الطريقة المناسبة في هذا المقام الخطابي هي: انفراد الترغيب عن التهيب؛ لأن هدفها تثبيت حامل الرسالة القرآنية ومواساته، وترغيبه في شكر النعم، وحثه على مواصلة عملية الإصلاح والتغيير والتبليغ³، دون أن يتأثر بما يعترضه من الصعاب في طريق دعوته. فقد ثبت في سبب نزول هذه الآيات من الضحى أنه: "احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه، فنزلت: {وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} ⁴."

- المقام الثاني: ورود التهيب منفردا عن الترغيب:

كذلك الأمر بالنسبة إلى مقام التهيب، فقد ترد الآية في سياق ذم المخاطب وإبراز نواقصه ومخارمه، فلا يناسبها أسلوب الترغيب على الإطلاق؛ لكونها جاءت في مقام خطابي لا يجدي فيه أسلوب الترغيب نفعا، وقد لا يلائم سياق الفاصلة أو الآية أصلا، فينفرد بذلك التهيب عن الترغيب، كما نجده في سورة التكاثر: {أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَفِيسِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَفِيسِ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} ⁵، وفي سورة المسد: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ

1 - سورة الضحى، الآية: 1 - 5.

2 - سورة الشرح، الآية: 1 = 4.

3 - تفسير الطبري، 486 / 24.

4 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: أبواب التهجد، باب: ترك القيام للمريض، 378 / 1، الحديث رقم: 1073.

5 - سورة التكاثر.

الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ¹، وفي سورة الهمزة أيضا: {وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ اِذْ جُمِعَ مَالًا وَعَدَدَةٌ ﴿٢﴾ يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ²، فقد وردت هذه السور كلها بأساليب التهيب والتخويف، دون أن يتخللها شيء من الترغيب، وهو ما اقتضاه المقام؛ لأنها سيقت مساق الدم، ونقض مساوئ الأخلاق، كالهمز، واللمز، والشتم، فلا يناسب السياق فيها شيء من الترغيب حتى يدرك الهمازون والأفاكون سوء صنيعهم، وخطورة مقالاتهم. ومن الآيات النقدية التي انفردت بالتهيب والتخويف دون الترغيب: آية النهي عن أكل أموال الناس بالباطل واكتناز الذهب والفضة دون أداء حقوقها ومستحقات الفقراء منها، في قوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكَّوٰى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ³، فهي أشبه بسورة التكاثر من حيث مقامهما المتحد الذي يقتضي التخويف والتهيب من اكتناز الذهب والفضة ومنع الفقراء والمساكين من حقهم فيها، وتقديم حاجة النفس على حاجة المجتمع والمصلحة الشرعية العامة، كما تكرر ذلك في آية اليتامى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا⁴، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوع القتل العمد في القرآن، فإنه سياق لا يناسبه إلا التهيب والتخويف، كما نلاحظه في الآية الكريمة: {وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مَّتَّعِمِدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَلِيدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا⁵، إلى غير ذلك من السياقات النقدية التي لا يلائمها الترغيب والتعزيز.

المطلب الثالث: الأساليب الخطابية المستعملة في تحقيق مقامات الترغيب والتهيب

في القرآن:

اعتمد النقد القرآني في تحقيق منهج الترغيب والتهيب على وسائل إقناعية وأساليب خطابية وبيانية متنوعة، يراعي كل أسلوب منها اختلاف الأحوال النفسية والتأثيرات البشرية

1 - سورة المسد.

2 - سورة الهمزة، الآيات: 1 - 4.

3 - سورة التوبة، الآية: 34 - 35.

4 - سورة النساء، الآية: 10.

5 - سورة النساء، الآية: 92.

والإنسانية للمخاطبين، فيستعمل في كل سياق أو مقام نقدي من الترغيب والترهيب ما يناسبه من الأساليب الإبلابية والإقناعية من التركيز على أسلوب الجزاء الذي ينتج عن المخالفة أو الامتثال، أو اعتماد وسيلة الحكي والقصص في تحقيق مقام الترغيب والترهيب، أو بواسطة ضرب الأمثال، أو ذكر أحوال القيامة وأهوالها. فهذه أربعة أساليب خطابية ورد بها الترغيب والترهيب في القرآن، أفصلها في الآتي.

أولاً: أسلوب الجزاء في تحقيق مقصد الترغيب والترهيب:

يعتبر الجزاء تحفيزاً أو تنفيراً من أبرز الوسائل النقدية التي يستخدمها القرآن المجيد في تحقيق مقام الترغيب والترهيب، حيث يرتب على كل عمل من الأعمال الصالحة أو الفاسدة جزاء خاصاً به، فيبين في سياق العمل الصالح ما أعده الله من جزاء وثواب، ويظهر في مقام العمل الفاسد المحذور ما أعده الله لفاعله من جزاء وعقاب، عاجلاً كان الجزاء أو آجلاً.

1 . الترغيب والترهيب بالجزاء العاجل:

من مقاصد النقد القرآني بأسلوب الترغيب والترهيب امتثال المكلفين واستجابة عامة المخاطبين، فكان مناسباً لهذا القصد أن يرتب على الأعمال جزاء دنيوياً عاجلاً، خاصاً فيما يتعلق بمقام الترغيب والتخويف من ارتكاب المحذور أو ترك المأمور. ويرد بهذا الأسلوب آيات الترغيب من الفواشش والترغيب في العفة والامتناع عنها، كما في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} ¹، وقوله في آية محق الربا والبركة في الصدقة: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ} ²، ففيها ترغيب لمنفق ماله على ذوي الحاجة بزيادة رزقه والبركة في ماله، وخوف المرابين من محق أموالهم وإهلاكها والذهب ببركتها ³، كما هو مفصل في قوله: {وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} ⁴. ومن الجزاء المادي العاجل الوارد في الترغيب على الطاعات آية الحج: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} ⁵، فقد جاءت الآية

1 - سورة النور، الآية: 19.

2 - سورة البقرة، الآية: 275.

3 - ينظر: تفسير ابن عطية، 1/ 373، وتفسير الألوسي، 2/ 50، والتحرير والتنوير، 3/ 91، وتفسير المنار، 3/ 84.

4 - سورة الروم، الآية: 38.

5 - سورة الحج، الآية: 25 - 26.

بتحفيزات دنيوية عاجلة، زيادة على التحفيزات الأخروية الآجلة، لما يجنونه فيها من المنافع الدنيوية التي تحفزهم وتقويهم على أداء مناسك الحج¹، و"إنما ذكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادات"². ومن الآيات النقدية التي تعتمد الجزاء العاجل في عقاب مرتكبي المحظورات والمخالفات، قول القرآن: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ مِّمَّا كَسَبَتْ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}³، فكان التهيب من الجزاء العاجل منها نقدياً قرآنياً فريداً لردع المخالفين الذين لا تردعهم التوعيدات الآجلة التي تستمد قوتها من الوازع الديني والإيماني عند الإنسان المؤمن، فكان هذا التوعيد العاجل أنسب بضعاف الإيمان وأليق بالمخاطبين الذين تطغى عليهم الماديات أكثر من المعنويات والروحانيات، بهدف التغيير وإصلاح المخالفات الفردية التي تهدد كيان الأمة البشرية برمتها.

2. الترغيب والترهيب بالجزاء الآجل:

الأصل في المخاطب المؤمن أن يرتدع بالترهيب، ويمتثل بالترغيب الأخروي الآجل "لأن الأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"⁴؛ ومن أجل هذا المعنى نجد جل الترغيبات والترهيبات القرآنية متعلقة بالجزاء الأخروي؛ لأنها تأتي غالباً في سياق خطاب نقدي موجه إلى جماعة المسلمين الذين لا يفرقون بين الجزاءين، ولا يشكون في وقوعهما على السواء، فجاءت آيات نقدية كثيرة في الترغيب والترهيب من الجزاء الأخروي، منها آيات المصير من سورة يونس: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَوُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْفُسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مِّمَّا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}⁵، وبيان مصير الفجار والأبرار في سورة المطففين: {إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَهِيَ سَجِّينٍ وَمَا أَذْرِيكَ مَا سَجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْفُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ

1 - ينظر: تفسير الإمام النيسابوري، 85 / 5، ونظم الدرر في تناسب الآيات والصور، للبقاعي، 195 / 5، وروح المعاني، للألوسي، 187 / 9،
2 - تفسير الرازي، 221 / 23.
3 - سورة الشورى، الآية: 28.
4 - الدعوة إلى الله على بصيرة، لعبد المنعم محمد حسين، ص: 225.
5 - سورة يونس، الآية: 4.

(..) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَمْ يَنْعَمِ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْآرَائِكِ يَنْظُرُونَ¹، فتعود القرآن هؤلاء الفجار الذين خالفوا وعد الله بسوء مصيرهم وعاقبتهم يوم القيامة، ووعد الأبرار بالنعيم ومقام المقربين.

ثانيا: إيراد مقام الترغيب والترهيب بوسيلة الحكى والقصص:

من مسالك تحقيق الهدف النقدي من الترغيب والترهيب في القرآن المجيد مسلك الحكاية والقصص، فيرد الترغيب أو الترهب في ثوب من الحكاية وقصص الأقوام السابقة بالتصريح تارة، وبالتلميح والإشارة تارة أخرى؛ ذلك لأن القصص القرآني ليس مقصودا في ذاته، وإنما هدفه النظر، والتفكر، والاتعاظ بالأقوام السالفة، كما في صريح الآية القرآنية: {فَدُ خَلْتُ مِّنْ فَبْلِكُمْ سُنَّ فِسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَافِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}². قال الغزالي رحمه الله: " فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه"³. وما أكثر الآيات التي وردت في منهج النقد بهذا الأسلوب القصصي في تأكيد مقام الترغيب والترهب، أبرزها: قول القرآن في قصة نبي الله شعيب وقومه: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرِّى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}⁴، حتى صارت هذه قاعدة قرآنية نقدية عامة، وسنة كونية ربانية لا تتبدل ولا تتخلف {قَلَّ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٤٣﴾ وَلَٰكِن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}⁵، ومن أمعن النظر في القصة القرآنية يجدها مليئة بالترغيب والترهب، سواء كان ذلك على سبيل التنصيص والتصريح أو على سبيل التلويح والتلميح، فلا نطيل بسرد آياتها.

ثالثا: أسلوب التمثيل:

يعتبر التمثيل أوضرب المثال من الوسائل المنهجية النقدية الناجعة التي تبلغ بها المعاني إلى عامة المخاطبين، ولذلك ورد به مقام الترغيب والترهب في كثير من آيات القرآن المجيد؛ لكونه أعمق في التأثير على السامعين، وأبلغ في مخاطبتهم، وأقدر على تقريب المعاني المعقولة والمعنوية، وجعلها في صورة محسوسة ملموسة، يدركها الناس بمختلف أشكالهم وطبقاتهم

1 - سورة المطففين، من الآية: 7 إلى الآية: 23.

2 - سورة آل عمران، الآية: 137.

3 - إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، 1/ 285.

4 - سورة الأعراف، الآية: 95.

5 - سورة فاطر، الآية: 43 - 44.

ومستوياتهم الإدراكية والعقلية؛ كتشبيه الذي يغتاب غيره من الخلق بآكل لحم أخيه حال موته، في مشهد تنفيري من صورة تمثيلية تمجها الطباع وتشمئز منها النفوس: {وَلَا يَغْتَبَ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} ¹، فهذا التمثيل يكون عامة المخاطبين قد أدركوا معنى الاغتياب وكرهوه ²؛ وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة ³. وانطلاقاً من هذا الأساس البياني والبلاغي جاءت أساليب الترغيب والترهيب في صورة الأمثال؛ لما لها من أثر كبير في الحث على إعمال العقل واستعمال أدوات التكفر والتدبر {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ⁴، والآيات التي وردت بهذه الصيغة التمثيلية كثيرة، منها: تشبيه الذي يحمل الوحي الرباني ولا يعمل به بالحمار، في قوله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} ⁵، وتمثيل الهداية بالنور والحياة، والكفر والضلالة بالظلام والممات، في قوله: {أَوْ مَسَّ كَانِ مَيْتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} ⁶، أو تشبيه المهتدي بالبصير والسميع، وتمثيل الضال بالأعمى والأصم، في قوله: {مَثَلُ الْفَرِيفَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا} ⁷. ومن أبلغ الآيات النقدية التي استعمل فيها القرآن المجيد أسلوب التمثيل في مقام الترغيب في الكلمة الطيبة، والترهيب من الكلمة الخبيثة، في قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِحُ أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ

1 - سورة الحجرات، الآية: 12.

2 - في ظلال القرآن، 6/ 3347.

3 - تفسير الفخر الرازي، 2/ 312.

4 - سورة إبراهيم، الآية: 27.

5 - سورة الجمعة، الآية: 5.

6 - سورة الأنعام، الآية: 123.

7 - سورة هود، الآية: 24.

رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ۖ جَثَّتْ مِمَّنْ فَوْقَ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ¹، ففي التمثيل بالشجرة إشارة بيانية إلى منافعها وثمراتها، فليست الشجرة التي تثمر الحنظل كالتى تثمر التفاح أو الرمان، وسائر المطعومات الطيبة، وليست التي يدوم ثمرها وأثرها ونفعها على الناس كالتى لا قرار لها، وينقطع أثرها سريعا.

رابعاً: أسلوب السرد والإخبار بأحوال القيامة وأحوالها:

من وسائل المنهج النقدي التي يتحقق بها مقام الترغيب والترهيب في القرآن: أسلوب التذكير بأحوال القيامة وأحوالها، والتتصيص على ما أعد للمسلمين المتقين من النعيم والجزاء بالإحسان، وما أعد للفاستقين والمشركين والعاصين من المواقف العقابية الأليمة، حتى يرتدع من في نفسه نية العصيان، ويزداد حرص المستقيم على فعل الخيرات. فجاءت آيات كثيرة على هذا المنوال، مرغبة ومنفرة، ومؤكدة ومحدرة، كما في سورة التكوير: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} ²، هذه السورة التي صورت لنا يوم القيامة بأحواله وأحواله، وكأنها أحوال مرئية محسوسة نشاهدها في عالمنا الدنيوي بأعيننا، كما في تصوير مشهد الساعة بحالها الرهيب في قول القرآن: {إِنَّ زَلْزَلَةً السَّاعَةِ شَعْنٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} ³، وذلك في تصوير بياني لقساوة المشهد الرهيب الذي تعيشه الإنسانية حين قيام الساعة، وفي رعب يذهل المرضعات، ويجعل المرء في سكر وتخدير من غيرما شرب

1 - سورة إبراهيم، الآية: 26 - 27.

2 - سورة التكوير، من الآية: 1 إلى الآية: 14.

3 - سورة الحج، الآية: 1 - 2.

مسكر أو تناول مخدر، {يَوْمَ يَعْرِى الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُخُوهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ إِمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} ¹.

فهذه مشاهد جاءت بأسلوب ترهيبى مفزع، كفيل بإبلاغ تلك الحالة إلى أذهان المستمعين، وتصويرها في نفوس كافة المخاطبين، ولتأكيد هذه الصورة النقدية سماه القرآن المجيد في غير ما موضع منه بـ "يوم الحساب" الذي توضع فيه أعمال البشرية وتعد عدا من كتاب موصوف بأنه: {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} ²، ويوم تظهر فيه النتائج: {يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴿٦﴾ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٧﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ³. ولم يتوقف التصوير القرآني لأهوال القيامة وأحوال أهلها عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى ذكر مصير أهل الجنة في جنتهم وموئل أهل النار في شقاوتهم، فرغب الصابرين المتقين بذكر حال أهل الجنة في قوله: {وَجَزَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ فَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَفْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْفَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} ⁴، وذكر المشهد المفزع الذي يعيشه أهل النار في قوله: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِفُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَبَعًا} ⁵، وقوله: {قَالِذِينَ كَبَرُوا فُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ بَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿١٩﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ

1 - سورة عبس، الآية: 42 إلى 37.

2 - سورة الكهف، الآية: 48.

3 - سورة الزلزلة، الآيات: 6، 7، 8، 9.

4 - سورة الإنسان، الآيات: 12 - 18.

5 - سورة الكهف، الآية: 29.

أَلْحَرِيْبِ¹. فهذه حالات ومشاهد تصويرية رهيبة، ومؤثرة في نفوس المستمعين، وداعية عموم المخاطبين إلى اجتناب سبيل الجحيم الذي وصف القرآن مشربه ومطعمه، وسلاسله وأغلاله، وكافة أحواله وأهواله بأسلوب بياني نقدي، يقرر من خلاله كل إنسان مكلف مآله، ومقامه، على اعتبار أن جزاء القيامة نتيجة حقيقية حتمية، فإما إلى النعيم وإما إلى السعير، وذلك بالمنطق القرآني الصريح.

المبحث الثالث: منهج التدرج:

إن الخطاب النقدي الإصلاحي الموجه إلى النفوس البشرية والعقول الإنسانية في أمس الحاجة إلى فترة زمنية معينة، تقصر أو تطول حسب المخاطب ونوع الخطاب وسياق المخاطبين، فإن لكل شيء أوانه وميقاته، و "من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه" كما تقرر في التعيد الفقهي، فيكون البدء بالأيسر فالأيسر والأقرب إلى القبول فالأقرب، دون أن يحمل الناس على التكاليف الشاقة منذ الوهلة الأولى؛ إذ البناء النقدي السليم والتغيير أو التحديث القويم لا يقع جملة واحدة، وإنما يتأسس درجة درجة، ورتبة رتبة، ومرحلة مرحلة؛ بل على النهج الذي تدرج به القرآن المجيد في تنزلاته وقوانينه الكونية والتشريعية، كما سنتبينه في الآتي.

المطلب الأول: مفهوم التدرج في القرآن المجيد، وأبعاده النقدية:

يعتبر "التدرج" من المفاهيم الإسلامية والمناهج القرآنية، حيث أخذت تشريعاته حيزاً زمنياً ليس باليسير، ابتداءً من أول البعثة إلى نزول آية التمام في قول القرآن: {إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً²، وذلك بحسب الحاجة والأوضاع، ومدى ملائمة الأحوال البشرية للتغيير وقبول النقد القرآني، فكان كل حكم من أحكام القرآن المجيد يتنزل في وقته وموضعه المناسبين له لتحقيق أهداف التدرج وأبعاده الإصلاحية وغاياته النقدية.

أولاً: مفهوم التدرج في الاستعمال القرآني:

تفيد كلمة "التدرج" المأخوذة من فعل درج يدرج (من باب دخل يدخل) معنى: السير خطوة خطوة، والرقى والصعود أو النزول والتسفل بكيفية تدريجية، يمضي فيها السائر درجة درجة ومنزلة منزلة حتى يبلغ مبتغاه ومنتهاه، دون قطع المسافة في لحظة واحدة. قال ابن فارس رحمه الله: "الدال والراء والجيم: أصل واحد يدل على مضي الشيء والمضي في الشيء"³، وفي

1 - سورة الحج، الآية: 19 - 20.

2 - سورة المائدة، جزء من الآية: 4.

3 - مقاييس اللغة، لابن فارس، 2/ 275، مادة درج.

كتاب العين: " الدَّرَجُ: جماعة عتب الدَّرَجَةِ. والدَّرَجَةُ في الرَّفْعَةِ والمنزلة، وتجمع الدَّرَجُ، ودَرَجَاتُ الجنان: منازلُ ارفع من منازل.1. وقد ورد هذا الاشتقاق لكلمة (درج) في آيات عدة من القرآن المجيد، منها: {وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا}2، ومنها: {وَقَبَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْفُلْعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}3 دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْمِرَةً وَرَحْمَةً4.

فالتدرج في أصله اللغوي دال على معنى المنازل والمقامات، و"مراتب بعضها فوق بعض"4، وعلى المشي في طريق يتطلب السير فيها خطوات ومسافات قبل بلوغ المطلوب، ومن أجل هذا المعنى: استعمل في مشية الصبي على الخصوص5؛ لأن مشيته لا تستقيم جملة واحدة، وإنما يتدرج فيها أياما وشهورا، ثم استعير هذا الأصل اللغوي المادي واستعمل في الأمور المعنوية المجازية الدالة على التمهّل والتريث والمدة الزمنية، فقليل كما في القرآن: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}6 وَأَمْلَى لَهُمْ7، بأن يجيء بهم قليلا قليلا على وجه التدرج، ولا يباغتهم8، كما يرقى الراقي درجات المعالي؛ ليتدرج شيئا بعد شيء حتى يصل إلى العلو9. قال الراغب: "معناه: نأخذهم درجة درجة"9، لا دفعة واحدة. وقد تبين من هذا العرض اللغوي أن التدرج في الأصل اللغوي يقع سلبا وإيجابا، صعودا وهبوطا، إذ يشمل الرقي والصعود في الدرجات، كما يشمل أيضا النزول والهبوط والتسفل في الدرجات على التدرج. وأما في العرف فإنما يراد به المعنى الإيجابي، والارتقاء بالمخاطب في التشريع درجة بعد درجة، ومرتبة إثر مرتبة، وتكليفه بالأخف فالأخف في التشريع، حتى اكتملت معالمه وارتسمت حدوده.

وعلى هذا المعنى بني مفهوم التدرج في الاستعمال القرآني الذي ورد فيه التصريح بألفاظ أخرى غير لفظ "التدرج" كاستعمال مفهوم "التنزل" و "المكث" الواردين في قوله تعالى: {وَفُرَّأَنَا فَرَفَنَّهُ لَتَفَرَّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}10، جوابا عن مطالبة معاصري التنزيل بنزوله جملة واحدة: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْفُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}11، ولهذا كانت آيات القرآن المجيد متدرجة في خطاب العقول وتشريع القوانين والأحكام، مراعية في ذلك

1 - كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، 6 / 77، كتاب الجيم، باب الجيم والذال والراء معهما.

2 - سورة الأحقاف، الآية: 18.

3 - سورة النساء، الآية: 94 - 95.

4 - لسان العرب، لابن منظور، 2 / 266، مادة: درج.

5 - جاء في مقاييس اللغة: "ودرج الصبي، إذا مشى مشيته". 2 / 275، مادة: درج.

6 - سورة الأعراف، الآية: 182 - 183.

7 - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 241، باب الجيم، فصل الدال، مادة: درج.

8 - التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، ص: 213، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي، نشر: دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ط 1، 1992م.

9 - غريب القرآن، للأصفهاني، 1 / 167.

10 - سورة الإسراء، الآية: 106.

11 - سورة الفرقان، الآية: 32.

الخصائص النفسية والاجتماعية للمخاطبين. وبناء على هذا الاستعمال القرآني، عرف مفهوم التدرج بأنه: "نزول الأحكام الشرعية على المسلمين شيئاً فشيئاً، طوال فترة البعثة النبوية حتى انتهى بتمام الشريعة وكمال الإسلام"¹، وبعبارة أعم، هو: "الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى متقدمة، للبلوغ إلى الغاية المنشودة بطرق مشروعة مخصوصة"²، فلم ينزل القرآن إلا متفرقاً، ولم يكن منهج الله في تنزيل آياته إلا حمل الناس على التدرج، كما نستخلصه من سنته الكونية في خلق السماوات والأرض {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}³، وقد كان بالإمكان خلقها دفعة واحدة، وكذلك آيات الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان، من تراب، فماء، فطين، فحماً مسنون، كما جاء ذلك في آيات متعددة من القرآن المجيد، منها: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَاطَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}⁴، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تشريع الأحكام العقدية والتعبدية والعملية، فإنما جاءت بالتدرج، ونزلت على مراحل وأطوار متعددة، فقد استغرقت المرحلة المكية للقرآن وحدها ثلاثة عشر عاماً، لتبتدئ مرحلة مدنية أخرى قد استغرقت بدورها عشر سنوات؛ من أجل أن يكتمل بناء التشريع .

ثانياً: الغايات النقدية لمنهج التدرج في القرآن:

إن التدرج الواقع في القرآن المجيد أسلوب تربوي وإصلاحي، لم يكن انتهاجه وسلوك درجاته المتفرقة في آياته المنجمة في خطاب الناس من قبيل الاتفاق أو العيب، وإنما كان لغايات نقدية تصحيحية، وحكم إصلاحية وتغييرية، تتجه بالإنسان المخاطب إلى تحديث نفسه وتغييرها جذرياً حسب التعبير القرآني: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}⁵، ومن أجل هذا المعنى تأسس التدرج على جملة من الغايات المذكورة، أبرزها:

- مراعاة السنن الكونية والفطرة الإنسانية:

إن سنة الله في كونه وخلقهِ قائمة على التدرج، فلا شيء فيها يتغير على سبيل الفورية والفجأة، وإنما يقع التغيير الكوني بتريث وتدرج، ويستغرق فترة زمنية معينة يستوفي فيها مقدمات التغيير وأساليب التحديث والإصلاح، كما نلاحظ ذلك في آيات القرآن التي تحدثت عن خلق

1 - ينظر: التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، للدكتور: محمد مصطفى الزحيلي، ص: 28، والدليل إلى المتون العلمية، لقاسم بن عبد العزيز بن إبراهيم، ص: 36، نشر: دار الصميعي، الرياض، ط 1، 1420 هـ .
2 - التدرج بين التشريع والدعوة، للدكتور: يوسف أبو هلاله، ص: 7، نشر: المؤلف، ط 1، 1412 هـ.
3 - سورة يونس، الآية: 3.
4 - سورة الحج، الآية: 5.
5 - سورة الرعد، جزء من الآية: 12.

الكون في ستة أيام، وخلق الإنسان عبر مراحل وأطوار متعددة، مع أن بالإمكان خلقه دفعة واحدة، لكن الفطرة الكونية والإنسانية مبنية على سنة التدرج، فهي "من قواعد الفطرة التي لا تتبدل، إن أي تغير في الحياة الاجتماعية لا يحدث إلا بالتدرج، وإلا فإن هذا التغير لا بد أن يبيء بالفشل أو الاضطراب بقدر فوريته وتطرفه"¹، وإن عددا كبيرا من آيات القرآن المجيد يشير إلى هذه السنة الكونية والفطرة الإنسانية، التي تسلك مبدأ التدرج في التربية، وفي التعليم، وفي بناء الأفراد والأسر ثم المجتمعات، والأمم والدول، كما تلمح الآية: آية البدء بالأقربين في قوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}  وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ²، فكان هذا التوجيه القرآني مجملا في قوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}³ والاستطاعة: أن يلتزم الإنسان بما كلف به شيئا فشيئا بحسب قدرته وإمكانياته لعسر التحمل دفعة واحدة "وبشكل مفاجئ، وإن تحملها فلا يستطيع الاستمرار عليها"⁴.

- التربية على التريث والتمهل، والأخذ بمبادئ الإعداد والإحكام:

فكان الأسلوب القرآني معتمدا في تشريعاته على التدرج من أجل التربية والافتداء بالنهج القرآني في البناء والنقد والإصلاح، فإن التاريخ "يشهد أن الأفراد والدول يتدرجون في سلم الكمال، ثم ينحدرون ويهبطون، وأنه تعثرهم حالات الصحة والمرض، وتتناوب عليهم فترات الصحة والغفلة، والارتقاء والسقوط، والنمو والجمود، والتقدم والتخلف، والازدهار والانكماش"⁵، فتعين على الأمة القرآنية أن تستفيد من هذه التجارب الأمامية والكونية القائمة على التدرج في البناء والإصلاح. وقد أدرك رسولنا صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن هذا المعنى فتمثله في سيرته وحياته، بدءا من فترة إعداده الرباني لتلقي الرسالة القرآنية، حيث كان يقصد غراء حراء ويتحنث فيه ليالي ذوات العدد، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ" إلى آخر الحديث⁶.

- تيسير الخطاب التشريعي على المخاطبين:

لقد تدرج القرآن المجيد في البيان والإجمال، والزمان والمكان، فكانت فترته المكية مقدمة ممهدة إلى الفترة المدنية اللاحقة، يختلف فهما الخطاب التشريعي حسب السياق الزماني

1 - القانون الإسلامي وطرق تنفيذه، لأبي يعلى المودودي، ص: 50، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، 1395هـ.

2 - سورة الشعراء، الآية: 213 - 214.

3 - سورة التغابن، جزء من الآية: 16.

4 - التدرج في التشريع والتطبيق، لمحمد مصطفى الزحيلي، ص: 38.

5 - التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، لمحمد مصطفى الزحيلي، ص: 31.

6 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 1/ 4، الحديث رقم: 3.

والمكاني وأحوال المخاطبين تيسيرا على الناس، وتوضيحا وتقريراً لأحكام الشريعة في نفوس المكلفين {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}¹، {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ}²، فجاءت آياته في ثوب من التدرج ليلقى النقد البناء محلاً في القلوب، وفيه تيسير على أفهام المخاطبين في انتزاع عقائدهم الفاسدة وإبطال عاداتهم وتقاليدهم المنحرفة، ليتم ترسيخ القضايا السليمة والفاضلة بدلها، وتزكية ما كان سليماً غير فاسد في أخلاقهم الحميدة. فلو نزل كل ذلك التغيير الجذري جملة واحدة لما استطاع المخاطبون حين نزول القرآن تحمل التكاليف كلها ابتداءً، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً"³. قال الإمام ابن حجر معلقاً على هذا المنقول: "وأشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللkāfir والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها؛ وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف"⁴.

– تهيئة النفوس إلى قبول التشريعات القرآنية وامتنالها:

كان لهذا المنهج التدرجي في القرآن المجيد بعد نقدي كبير من أجل هدف إصلاحي، له أثر عظيم في تأليف قلوب المخاطبين وتلطيف نفوسهم، وإعدادها لتقبل التكاليف والتشريعات القرآنية، فلم يكلف الناس بتعاليم الدين كله فجأة وحدة، بل جاء بذلك على سبيل التدرج والبدء بالأهم فالأهم، واعتمد في بداية الأمر على تثبيت الأحكام العقدية وتصحيح مواطن الخلل في اعتقادات عامة المخاطبين، يهوداً، نصارى، ومشركين أو ملحدين، حتى إذا أرسى القرآن المجيد معالم الإيمان بوجود الله بتبيان وحدانيته وأسمائه وصفاته، انتقل إلى مراتب إيمانية أخرى، كالإيمان بالملائكة وتصديق الرسل وغير ذلك من الأمور المندرجة ضمن الأحكام العقدية، ليتدرج بعدها في تشريع الأحكام العملية وترسيخ المبادئ التربوية والسلوكية على نهج بديع من التدرج والتلطف في الخطاب النقدي والإصلاحي، فكان هذا التهيؤ القبلي والإعداد النفسي للمخاطبين كفيلاً بنجاح الرسالة النقدية القرآنية الهادفة، كما سنتبينه في المطلبين الآتين.

1 - سورة الحج، جزء من الآية: 76.

2 - سورة البقرة، جزء من الآية: 184.

3 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، 4/ 1910. رقم الحديث: 4993.

4 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، 9/ 40، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1397هـ.

المطلب الثاني: التدرج في تقرير الأحكام العقدية والتعبدية:

لم ينزل القرآن المجيد بتقرير الأحكام العقدية أو التعبدية منذ الوهلة الأولى، وإنما مهد لها بما يسهل عرضها على عامة المخاطبين، وييسر تقبلها وامتنالها من جهة المكلفين، فاقتضت الحكمة الربانية أن تنزل هذه الأحكام على منهج تدريجي، حتى لا يمل منها المخاطبون وحديثوا العهد بالإسلام، فبدأ القرآن المجيد بعد الحث على القراءة والتعلم والوعد بالجنة والوعيد بالنار، بتقرير الأحكام العقدية، ثم التعبدية، وذلك باعتبارهما الركنين الأساسيين في الرسالة الإسلامية.

أولاً: التدرج في بناء الأحكام العقدية:

نزل القرآن المجيد في بيئة شركية يعسر فيها التغيير والإصلاح الشامل، ويستدعي فترة زمنية طويلة. ومن أجل ذلك قضى الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما يقارب ثلاثة عشر عاماً من أجل بناء الصرح العقدي فقط، حتى صح في الحديث ما يدل على ترك بعض الأمور على حالها كترك الكعبة دون تجديد مقامها؛ مراعاة لحالة المخاطبين النفسية والعرفية، وارتباطهم العاطفي بالكعبة، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بَشْرِكَ لَهَدَمْتَ الْكُعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قَرِيشًا اقْتَصَرْتَهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكُعْبَةَ"¹، فلم يكن البناء ممكناً إلا بمنهج التدرج الذي نزل به القرآن، فكان أهم شيء ينبغي البدء به في النقد من أجل البناء كما علمنا القرآن، هو: الإصلاح العقدي، كما أبرزه حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له لما بعثه إلى اليمن: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوه لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوه لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم"².

وعلى هذا النهج المتدرج تم البدء بدعوة الناس إلى التوحيد والاعتقاد السليم في القرآن المجيد، فتم ذلك على مراحل متعددة، أجملها في ثلاث درجات:

- الدرجة الأولى: الابتداء بالخطاب الوجداني والفطري، والاقتصار على دعوة

الأقربين:

لم تكن الرسالة القرآنية في بدايتها الأولى من المرحلة المكية موجهة إلى عموم المخاطبين، وإنما كانت تقتصر على دعوة المقربين من رسول القرآن، الأقرب فالأقرب، كما نصت عليه آيات عديدة، منها قول القرآن: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}³؛ لأن في

1- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، 4 / 98، الحديث رقم: 3308.

2 - متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، 2 / 505، الحديث رقم: 1331، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، 1 / 37، الحديث رقم: 130.

3 - سورة الشعراء، الآية: 213.

البداية بالأقرب فالأقرب تسهيل وتيسير¹ لنجاح العملية النقدية القرآنية، لأنهم أولى الناس بقبول دعوته، ونقده ونصيحته، وتعزيز جانبه، فيكون قوله أنفع وكلامه أنجع². فالمسلك السليم يقتضي أن يتدرج الناقد فيبدأ "بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه"³، ومن ذلك قوله: {لِتُنذِرَ إِيَّاهُ الْفُرْيَ وَمَنْ حَوْلَهَا}⁴، فاقتضت الحكمة القرآنية التدرجية أن تكون الأمة العربية أول من يتلقى الرسالة القرآنية وينشرها بين الأمم⁵؛ وقد ثبت بالتواتر الظاهر المقطوع به من دين محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعي كونه رسولا إلى كل العالمين⁶، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِفَوْحٍ مَّكَ}⁷. كما كانت الآيات العقدية تركز في بدايتها الإعدادية على الخطاب النقدي الوجداني أكثر من غيره، دون أن يكون فيها تصريح أو إلزام باعتقاد وحدانية الواحد، فكانت عبارة عن آيات فيها إشارات وتلميحات إلى البحث عن وجود الله الخالق، فكان من ضمنها الآيات الأولى التي نزلت في قوله: {إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}  خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ⁸، ففي الآيتين إشارة ضمنية إلى وجود خالق مطلق، يتصرف في الكون كيف يشاء، وعلى الإنسان المخاطب البحث عن حقيقته والإيمان به بعد العلم بوجوه، كما تفيد دلالة "اقرأ" أو "اعلم" في قوله جل وعلا: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}⁹، ووصف نفسه بقوله: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } لبيان النعمة الأولى على الوجود الإنساني، ثم مكنه من أدوات القراءة والتعلم "بالطف وجه"¹⁰، وللتدليل على أدق أوصافه الموصلة إلى اعتقاد وحدانيته والإيمان به¹¹.

– الدرجة الثانية: التمهيد لتصحيح المسار العقدي بسرد قصص الأنبياء ومعاناتهم مع أقوامهم في الدعوة إلى التوحيد:

مهد القرآن المجيد لبناء صرحه العقدي السليم بسرد قصص الأنبياء السابقين، وصراعهم المحتدم مع أقوامهم في قضية "التوحيد" والإيمان بالواحد الأحد، من أجل تهيئة السياق والظرف المناسب للتعريف بالخالق الواحد، والدعوة إلى الإيمان به وعبادة الله وحده لا شريك له، فامتلات السور والآيات القرآنية بهذه القصص، بدءا بنوح عليه الصلاة والسلام، قال سبحانه: {لَفَدَّ

1 - تفسير المنار بتصرف، 65 / 11.

2 - ينظر: تفسير الرازي، 536 / 24، والتحرير والتنوير، 19 / 200 – 201.

3 - تفسير الألوسي، 8 / 422.

4 - سورة الشورى، الآية: 5.

5 - التحرير والتنوير، 25 / 36.

6 - تفسير الفخر الرازي، 13 / 65.

7 - سورة الزخرف، الآية: 43.

8 - سورة العلق، الآية: 1 – 2.

9 - سورة محمد، الآية: 20.

10 - تفسير الألوسي، 15 / 401.

11 - التحرير والتنوير، 30 / 437.

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ قَبَالَ يَفْقُومِۢمَۥ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ} ¹،
 وختاما بنبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، قال عز وجل: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
 قَالَ فِدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِۦ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} ²، فكانت هذه
 القصص كلها تدور في فلك النقد التقويمي والإعداد والتهيئة النفسية لمشركي مكة وغيرهم من
 ذوي العقائد المنحرفة، حتى إذا صور للمخاطبين مسيرة الدعوة والإصلاح الرباني على السنة
 رسله، انتقل إلى مخاطبة الناس بوجوب الإيمان بالله الواحد وعبادته دون غيره.

- الدرجة الثالثة: الدعوة المباشرة إلى توحيد الله والإيمان به إيمانا مطلقا، عن طريق
 عرض الدلائل العقلية والكونية:

تعتبر هذه المرحلة الأخيرة في البناء العقدي مرحلة حاسمة، بسط فيها القرآن المجيد كافة
 الدلائل العقلية والبراهين الكونية الدالة على وجود الخالق ووحدانيته واختصاصه بالعبادة دون
 غيره، فجاء الخطاب النقدي في هذه المرحلة في صياغة تصريحية مفصلية {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
 الْكَافِرُونَ ۖ لَاَۤ اَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ} ^١ وَلَاَ اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ} ³، فبدأ في
 عرض الآيات والمعجزات الكونية المبرهنة على وحدانية الخالق، قائلا: {هُوَ الَّذِيۤ اَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَآءِ مَآءً لَّكُمْ مِّنۡهُ شَرَابٌۭ وَمِنۡهُ شَجَرٌۭ فِيۡهِ ثَمِيۡمُونَ} ^{١٠} يُنۡبِتُ لَكُمۡ فِيۡهِ
 الزَّرۡعَ وَالزَّيۡتُونَ وَالنَّخِيۡلَ وَالۡاَعۡنَبَ وَمِۡمۡ كُلِ الثَّمَرٰتِ ۗ اِنَّ فِيۡ ذٰلِكَ لَآيَةً
 لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوۡنَ} ⁴، وقوله: {نَحْنُ خَلَقْنٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُوۡنَ} ^{٦١} أَفَرَأَيْتُمۡ مَا
 تُمۡنُوۡنَ ۖ ءَاَنْتُمْ تَخۡلُقُوۡنَهُۥٓ اَمْ نَحْنُ الْخٰلِفُوۡنَ} ^{٦٢} نَحْنُ فَذَرۡنَا بَیۡنَكُمۡ
 الْمَوۡتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسۡبُوۡفِيۡنَ} ^{٦٣} عَلٰۤیۤ اَنۡ نُّبَدِّلَ اٰمۡثَلَكُمۡ وَنُنۡشِئَ لَكُمۡ فِیۡ مَا
 لَا تَعۡلَمُوۡنَ ۖ} ^{٦٤} وَلَفۡدٌ عَلِمۡتُمۡ النَّشَاۡةَ الْاَوۡلٰیۤیَ فَلَوْلَا تَذَكَّرُوۡنَ} ⁵، فإن هذه كلها
 أمور ومعجزات كونية تنتهي بإثبات خالق قادر، قال عز من قائل: {إِلَّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ

1 - سورة الأعراف، الآية: 58.
 2 - سورة الزخرف، الآية: 63 - 64.
 3 - سورة الكافرون، الآيات: 1 - 2 - 3.
 4 - سورة النحل، الآية: 10 - 11.
 5 - سورة الواقعة، الآيات: 60 إلى: 65.

كُلُّ نَبِيٍّ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ¹. وفي

هذه المرحلة نزلت كافة الآيات المتعلقة بوجوب الإيمان بالغيب واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسول السابقة، وذلك بعد أن ارتسخ الإيمان بالله ووحدانيته في قلوب المؤمنين، كما تفيد الآية القرآنية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ²، فقد كان إيمان الناس أول الأمر مجملاً وخاصاً بالإيمان بالله وتوحيده، ثم بسطت أركان الإيمان بعد ذلك على وجه البيان والتفصيل في الآيات والدلائل القرآنية³.

ثانياً: التدرج في تشريع الأحكام التعبدية:

ارتبطت التشريعات والأحكام التعبدية في القرآن المجيد بمنهج التدرج ارتباطاً وثيقاً، فكانت الآيات التكليفية المتعلقة بالأمور التعبدية تتدرج في التشريع عبر مرحلتين اثنتين: أولاًهما: التدرج على وجه الإجمال، وثانيهما: التدرج على سبيل البيان والتفصيل. فلم تنزل أحكام العبادة تباعاً ودفعة واحدة، وإنما كان الحكم التعبدية ينزل أول الأمر إجمالاً، ثم يتبع بعد ذلك بتفصيلات تكمله وتتمه، كما حصل في تشريع الصلاة، وشعيرة الصيام، وفرض الجهاد.

1: التدرج في تشريع الصلاة:

بعد أن تدرج القرآن المجيد في تبيان الأحكام العقدية انتقل بعدها إلى تشريع الركن الثاني من أركان الإسلام، وهو الصلاة، فقال: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُفِيمُونَ الصَّلَاةَ⁴}، وقال: {وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَأَنْ أَفِيمُوا الصَّلَاةَ⁵، فأوجب الصلاة على المكلفين بكيفية سلسلة وعلى وجه من المرونة والتدرج، كما بينت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها: "فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين، في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر"⁶، ثم شرعت الصلوات الخمس ليلة الإسراء كما في الحديث "ولكنه كان غير مثبت في التشريع المتواتر، إنما أبلغه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين"⁷، ثم نزلت بعد ذلك آية الإسراء التي عينت أوقات الصلاة، في قول القرآن: {أَفِمِ الصَّلَاةِ لِدُلُوكِ

1 - سورة الرعد، الآية: 9

2 - سورة النساء، الآية: 135.

3 - ينظر: تفسير الرازي، 11/ 242- و روح المعاني، للألوسي، 3/ 163، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، 5/ 229.

4 - سورة البقرة، الآية: 2.

5 - سورة الأنعام، الآية: 71 72.

6 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، 1/ 137، الحديث رقم: 343، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقرصها، 2/ 142، الحديث رقم: 1602.

7 - التحرير والتنوير، 15/ 181.

الشَّمْسِ إِلَى غَسَوِ اللَّيْلِ وَفُرْءَانَ الْبَجْرِ¹، وقوله: {وَأَفِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلَمًا مِّنَ اللَّيْلِ}². قال الرازي: إن الله تعالى "لما قرر أمر الإلهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الإيمان. وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة، فلهذا السبب أمر بها"³، فكان الاختصار على ركعتين أول الأمر كافياً، حتى استقر المسلمون بالمدينة، كما في رواية أخرى عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: "فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين، فلما أقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان وترك صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب؛ لأنها وتر النهار"⁴، ورجح ذلك الإمام ابن حجر بقوله: "والذي يظهر لي، وبه تجتمع الأدلة السابقة: أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة إلا الصبح"⁵، فلا يلزم إذن من قول القرآن: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ}⁶، أن تكون صلاة الخوف رخصة، وإنما هي عزيمة؛ كما هو مذهب الأحناف⁷، "فأقرت صلاة السفر باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف"⁸. ثم تتابع بعد ذلك البيان النبوي، قائلًا: "صلوا كما رأيتموني أصلي".

2: تدرج القرآن المجيد في تشريع صيام رمضان:

لم يفرض الصيام على الجملة إلا بعد الهجرة النبوية لمشقة الصيام على المكلفين منذ المرحلة الأولى. قال ابن القيم في حديثه عن التدرج في تشريع هذه الفريضة: "ولما كان فطم النفوس عن مألوفها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج"⁹، وتمهيدا لتشريع الصيام في رمضان على التفصيل وجوبا ولزوما أمر الناس بصيام عاشوراء، كما صح في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر"¹⁰، ثم نزل الحكم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، كما أورده الطبري بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل

1 - سورة الإسراء، الآية: 78.

2 - سورة هود، الآية: 114.

3 - تفسير ارازي، 21 / 382.

4 - أخرجه ابن حبان في صحيحه، وعلق عليه الأرنؤوط بقوله: إسناده حسن، كتاب الصلاة، باب المسافر، 6 / 447، الحديث رقم: 2738.

5 - فتح الباري، 1 / 464.

6 - سورة النساء، الآية: 100.

7 - ينظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني، 1 / 91، نشر: دار الكتب العلمية، ط 2، 1406 هـ / 1986م، وحاشية رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، 2 / 133، إشراف: مكتبة البحوث والدراسات، نشر: دار الفكر، بيروت، 1415 هـ / 1995م، ودرر الحكام شرح غرر الأحكام، لمحمد بن فرامرز ملا خسرو، 1 / 133، نشر: دار إحياء الكتب العربية.

8 - فتح الباري، لابن حجر، 1 / 465.

9 - زاد المعاد، للإمام ابن القيم، 2 / 29، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، ط 27، 1415 هـ / 1994م.

10 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له، في كتاب الصوم، باب: صيام يوم عاشوراء، 2 / 704، الحديث رقم: 1897، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب: صيام يوم عاشوراء، 3 / 147، الحديث رقم: 2696.

شهر، ثم أنزل الله جل وعزّ فرضَ شهر رمضان، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم}¹، فدل هذا على أن شهر رمضان لم يكن واجبا أول الأمر، فأبيح لمن يجد مشقة في صيامه أن يفطر ويخرج الفدية، كما هو مصرح به في قول القرآن: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيفُونَهِ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ}²، بمعنى: أن على من يطيق الصيام وأفطر فدية يخرجها للمساكين³، لكنه حكم لم يستمر؛ لانعقاد إجماع المسلمين على نسخه⁴ في الآية الأخرى⁵: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}⁶.

فمر تشريع الصيام بمراحل ثلاث، هي: مرحلة التهيئة والتمهيد له بفرض الصلاة والزكاة، ومرحلة تشريعه على الاختيار والاستحباب يوما واحدا أو ثلاثة أيام، ثم في المرحلة الأخيرة أوجب شهر رمضان على المستطيع القادر على الصيام، بعد أن كان فيه نوع من التخفيف على الذي يقدر على صيامه بعسر ومشقة، حتى اعتاده الناس وألفوه.

3: تدرج القرآن في فرض الجهاد:

من الواجبات التي تأخر تشريعها في القرآن المجيد: قضية الجهاد والدفاع عن الكيان والوجود الإسلامي، فقد كان في المراحل الأولى من آيات القرآن المجيد ممنوعا محرما بقول القرآن: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ فِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}⁷، فكان رد العدوان والجهاد ضد الطغيان في الفترة المكية الأولى ممنوعا رغم ما يتعرض له المسلمون من الإيذاء والضرب والقتل والتكيل، وكلما شكوا ذلك إلى رسول الله أمرهم بالصبر والإعراض؛ لأن غاية النقد القرآني في هذه الفترة ليس هو المقاومة والانفعال، ولأن المسلمين حينها لا يزالون قلة مستضعفين، فكان الهدف النقدي في هذه المرحلة يقتضي المجاهدة النفسية والبيانية، كما أمر القرآن: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}⁸، حتى نزلت آية التلميح والوعد بتشريع الجهاد والدفاع عن النفس والعرض والدين في قول القرآن المجيد: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

1 - تفسير الطبري، 3/ 414.

2 - سورة البقرة، الآية: 183.

3 - تفسير الألوسي، 1/ 455.

4 - ينظر: تفسير الطبري، 3/ 420، و أحكام القرآن، لابن العربي، 1/ 113.

5 - التحرير والتنوير، 2/ 166.

6 - سورة البقرة، الآية: 184.

7 - سورة النساء، الآية: 76.

8 - سورة الفرقان، الآية: 52.

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ¹، ورغم ذلك بقي القتال والمواجهة المسلحة لدفع الأذى أمراً ممنوعاً حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وتأسست أركان الدولة الإسلامية وقويت شوكتها، نزلت آية الإذن في القتال دفاعاً عن النفس والدين في قوله: {إِذْ لِلَّذِينَ يُفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ²، ثم أمروا بمقاتلة من بدأهم بالقتال³ في قوله: {وَفَلْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ نَكْمٌ وَلَا تَعْتَدُوا⁴، حتى إذا اشتد بأس المسلمين "وتهيأت نفوسهم بشكل كامل، فرض الله تعالى عليهم القتال فرضاً"⁵، ونزلت آية الأمر اللازم بالجهاد في قول القرآن -أواسط السنة الثانية من الهجرة-6: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ⁷، وقوله: {وَفَلْتَلَوْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ⁸، ومعناه: حتى لا يكون شرك، ويقال: لا إله إلا الله⁹.

فالباحث المتتبع للنصوص القرآنية بخصوص قضية التدرج القرآني في تشريع الجهاد يلحظ هذه المراحل الخمس التي مرت بها أحكام الجهاد وفرضه على المسلمين، بدءاً بمنعه أول الأمر، والإشارة إلى وقوعه المستقبلي في المرحلة الثانية، والإذن بالدفاع عن النفس في المرحلة الثالثة، ومقاتلة المقاتلين في الرابعة، وفرض الجهاد ضد العدو في المرحلة الأخيرة، وقد أجملها الرازي في ثلاث مراحل، قائلاً: "اعلم أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مأذون في القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أذن له في قتال من يقاقله من المشركين، ثم أذن له في قتال المشركين عامة، ثم فرض الله الجهاد"¹⁰، وقد يعتبر بعض الباحثين الفترة المكية مرحلة مستقلة من الجهاد النفسي، كما جرى عليه تعبير ابن القيم¹¹، والدكتور جمال العمري، إذ يقول: "والباحث المدقق في سياسة التشريع الإسلامي للجهاد يجد أن السمة البارزة فيه هي: التدرج، فقد شرع الله في مكة جهاد النفس والهوى والشيطان، كأساس لكل أنواع الجهاد، ثم شرع جهاد الكفار في مكة ثانياً بالصبر على أذاهم وتوضيح الحجة لهم (...) ثم لما صاروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد"¹².

-
- 1- سورة المزمل، الآية: 18.
 - 2 - سورة الحج، الآية: 37.
 - 3 - التحرير والتنوير، لابن عاشور، 2/ 319.
 - 4 - سورة البقرة، الآية: 189.
 - 5 - التدرج في التشريع والتطبيق، للدكتور محمد مصطفى الزحيلي، ص: 68.
 - 6 - ينظر: تفسير المنار، 2/ 248، والتحرير والتنوير، 2/ 319.
 - 7 - سورة البقرة، الآية: 214.
 - 8 - سورة البقرة، الآية: 192.
 - 9 - تفسير الطبري، 3/ 576.
 - 10 - تفسير الفخر الرازي، 6/ 384.
 - 11 - زاد المعاد، للإمام ابن القيم، 3/ 9.
 - 12 - أدب الحرب والسلام في سورة الأنفال لأحمد جمال العمري، ص: 124، نشر: دار المعارف، ط ذ، 989م.

المطلب الثالث: التدرج في تشريع المعاملات وترسيخ الأخلاق وقضايا التربية

والسلوك:

وكما تدرجت الآيات القرآنية في النقد التصحيحي للمسار العقدي والتعدي تدرجت كذلك في إرساء مبادئ المعاملات المالية والأخلاقية بين الناس، فكان الإصلاح القرآني يتدرج في تصحيح التعاملات المنتشرة بين الناس، وتأسيس الضوابط الأخلاقية والتربوية التي ينبغي أن تكون بارزة في تصرفات الناس وتعاملاتهم اليومية.

أولاً: التدرج في ضبط قضايا المعاملات:

إن كثيرا من التعاملات المالية وغير المالية بين الناس حين نزول القرآن كانت مشوبة مشبوهة، يحيط بها كثير من الغموض والغش والغرر، فتدرج النقد القرآني في إصلاحها وضبط مسارها. ومن أبرز ما تدرج القرآن في ضبطه وإصلاحه من التعاملات الإنسانية: قضية الربا، وقضية الاسترقاق.

1: التدرج في تحريم الربا:

مما أَلَفَهُ الناس واعتادوه في القروض التي يجرونها بينهم: أن تكون بنسبة معينة من الربح مقابل الزيادة في أجل الأداء والسداد، على غرار قولهم: "أمهلني أو أنظرني أزدك"1، أو ينقص من قيمة القرض مقابل التعجيل بسداد القرض، بناء على قولهم: "ضع وتعجل"2، وهي العملية المصطلح عليها في القرآن المجيد بـ"الربا"، لكن تحريمه مر بمراحل متعددة، ينتقل فيها القرآن بالناس من مرحلة إلى أخرى رويدا رويدا، مراعاة لطبيعة النفس البشرية التي يشق عليها ترك ما اعتادته جملة واحدة، خاصة فيما يتعلق بقضايا المال والاقتصاد. وتماشيا مع نهج التدرج مر تحريم الربا في القرآن المجيد بأربع مراحل.

- المرحلة الأولى: المفاضلة بينه وبين الزكاة والصدقة، فإن الذي يربو في حقيقة الأمر هو أموال الزكاة، لا الأموال التي اكتسبها الإنسان من الربا، فجاء في القرآن: {وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُواْ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}3، فكان هذا انتقادا وتعريضا بجشع المرابين، وإشارة إلى التنفير من الربا، حيث "وصفه بأنه لا نماء فيه ولا بركة"4، لكنه لا يزال

1 - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد، 2 / 105.

2 - بداية المجتهد، 2 / 105.

3 - سورة الروم، الآية: 38.

4 - التدرج في التشريع والتطبيق، لمحمد مصطفى الزحيلي، ص: 66.

محلا دون أن تؤثر فيه هذه الآية بأي تحريم¹، لكن الآية اكتفت برفع الثواب والجزاء عليه من الله.

- المرحلة الثانية: ذم الربا، وتقديمه في صورة بشعة ومعاملة لا إنسانية لما يتضمنه من ظلم الفقراء والضعفاء والمحتاجين، واستغلال أصحاب الثروات لحاجة الناس، ويعتبر ذلك من باب أكل أموال الناس بالباطل، وهو السبب الذي حرم لأجله على اليهود، كما انتقدت ونصت على ذلك الآية بقولها: {قَبِضْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} ². وهي إشارة إلى أن الربا مآله التحريم؛ لمخالفته للأخلاق الإنسانية ونظام التعاملات المالية في الإسلام.

- المرحلة الثالثة: التصريح بتحريم مضاعفة أرباح الدين، وأكل الربا أضعافا مضاعفة في الآية القرآنية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً} ³، فكانت هذه بداية تحريم الربا الصريح الكثير والعفو عما كان قليلا منه، ف"خص حالة الإكثار والإثراء التي تتعلق بها النفوس بالنهي"⁴.

- ليصبح الربا في المرحلة الأخيرة محرما على الإطلاق، كثيره وقليله في ذلك على السواء، وذلك بنص الآية القرآنية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُومُوا إِلَى اللَّهِ وَذَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ مِّنَ الرِّبَا إِنَّكُمْ مُّؤْمِنِينَ} ⁵، فانتقدت الآية الكريمة هذا السلوك ورادة له، حاكمة على كل ربح زاد عن رأس المال في القرض بالتحريم، لذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أن ربا الجاهلية هذا موضوع متروك⁶، فتلقى المسلمون هذا الأمر الرباني بالقبول، وقطعوا صلتهم به بعد مضي تسع سنوات من الهجرة النبوية⁷.

2: التدرج القرآني في القضاء على الاسترقاق:

جاء القرآن المجيد ناقدا على تدرج لاسترقاق الإنسان قصد تحقيق الغاية السامية من خلق الإنسان، وهي: تحريره من ربة الاسترقاق والخضوع لأخيه الإنسان، وانتقائه حتى يكون

1 - أحكام القرآن، لابن العربي، 3/ 523.

2 - سورة النساء، الآية: 159 - 160.

3 - سورة آل عمران، الآية: 130.

4 - أحكام القرآن، لابن العربي، 1/ 503.

5 - سورة البقرة، الآية: 277.

6 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب حجة النبي، 4/ 39، الحديث رقم: 3009.

7 - ينظر: التدرج في التشريع والتطبيق، للزحيلي، ص: 67.

عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً، حسب تعبير الإمام الشاطبي¹، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}²، فجاءت كافة النصوص القرآنية داعمة لهذا الأصل الذي يقضي بتكريم الإنسان على الجملة: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}³، تكريماً يتحرر به من كافة القيود التي تعرقل حريته الدينية والإنسانية، ويستعيد به من وجده القرآن عبداً - كرامته الإنسانية، مثله في ذلك مثل الأحرار والأسياد: {بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}⁴، ف"كل الناس من آدم وآدم من تراب"⁵، كما أكد ذلك رسول القرآن ومبينه بقوله: "إخونكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم"⁶، وقرر أن "العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة استعلاء واستعباد، أو تسخير وتحقير، وإنما هي علاقة القربى والمودة والأخوة. فالسادة أهل الجارية يستأذنون في زواجها، كما في الآية القرآنية: {بِمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ بَنَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ كَانُوا هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ فَاسْتَأْذِنُوا مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الرِّقَابُ}، لكن الوضع الاجتماعي حين يتنزل القرآن كان قائماً على الاسترقاق ونظام العبيد بشكل رائج ومنتشر، يعسر علاجه وضبطه منذ الوهلة الأولى، فاقتضت الحكمة القرآنية من نقد هذه الظاهرة أن يكون ذلك على التدرج لتقليص مسالك الاسترقاق وتضييق سبله أولاً، ثم فتح أبواب العتق ووسع مسالك الحرية في المجتمعات الإنسانية ثانياً. فانتهج القرآن المجيد في القضاء على الرق مسلك التدرج، حتى تهيأ تحرير الناس، عبر ثلاث وسائل.

الوسيلة الأولى: قطع الطريق عن الاسترقاق، وتقليص سبله وتقييد مسالكه حتى لم يبق من سبيل إلا الأسر في الحرب، ولم يشر القرآن المجيد إلى اتخاذ الأسرى عبيداً، بل انتهج منهاجاً آخر وهو سلوك أحد أمرين فيهم: المن، أو الافتداء، كما نصت عليه الآية القرآنية: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}⁸، وقد كان صلى الله عليه

1 - الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، 168 / 2.

2 - سورة الذاريات، الآية: 56.

3 - سورة الإسراء، جزء من الآية: 70.

4 - سورة النساء، جزء من الآية: 25.

5 - مقتبس من حديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، وقال: وهذا أصح عندنا من الحديث الأول، 735 / 5، الحديث رقم: 3956، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأنساب، 492 / 4، الحديث رقم: 5118.

6 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: العبيد إخوانكم، 899 / 2، الحديث رقم: 2407.

7 - سورة النساء، جزء من الآية: 25.

8 - سورة محمد، الآية: 4.

وسلم يشترط أحيانا في فداء من لا يجد ما يفتدي به نفسه: أن يعلم جماعة من المسلمين الكتابة¹.

الوسيلة الثانية: تشريع العتق وربطه بالكفارات، فأوجب عتق الرقبة في كفارة الصيام، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الظهار، وغيرها من الكفارات، حتى يتحقق بذلك تحرير أكبر عدد ممكن من الرقيق، كما حث على العتق تطوعا وتقربا إلى الله، وشرع التدبير² حتى يتمكن السيد عند وفاته أن يجعل عبده حرا بعد موته، توصية لله، تكفيرا للسيئات وتكثيرا للحسنات؛ فتنفذ وصيته قبل التركة، كما نص عليه القرآن بقوله: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ} ³.

- الوسيلة الثالثة: تمكين العبد من تحرير نفسه عن طريق المكاتب⁴ التي توجب على السيد الخضوع لأمر العبد بطلب المكاتبه وشراء نفسه، كما نص عليه القرآن: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} ⁵.

فهذا القرآن المجيد بهذا المنهج المتدرج كافة الأسباب والوسائل التي تيسر عملية إنهاء الرق والقضاء على استعباد الإنسان؛ لأنه -حسب الرسالة القرآنية- ينبغي أن يكون حرا لا يدين بالعبودية إلا لخالقه.

ثانيا: التدرج في ترسيخ القضايا التربوية والسلوكية:

يعتبر الإصلاح التربوي والأخلاقي من أصعب مجالات التغيير والإصلاح لتوقفه على ركن زمني طويل؛ إذ يستحيل عقلا ومنطقا أن يحمل الناس على الخلق الفاضل والسلوك الحسن دون إعداد قبلي، وتهيئة نفسية واجتماعية تستمر شهورا وأعواما، لذلك راعى النقد القرآني في الإصلاح هذا الجانب النفسي من الإنسان، فكانت آياته التربوية ملازمة لمنهج التدرج، تربي الناس بصغار الأمور قبل كبارها حتى تزكي النفس الأمانة بالسوء وتطهرها مما ألفته أو جبلت عليه من الامتناع عن الامتثال؛ ولذلك حرص القرآن المجيد على البناء التربوي والأخلاقي، فجاءت آياته تنتقد وتبني أمرة بوضع أسس هذا البناء الأخلاقي وأصوله. وأبرزها: الحلم والصبر والإعراض أو الإحسان، كما في القرآن الكريم: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} ⁶، بعد أن قص حكايات الأنبياء السابقين وما تعرضوا له من الأذى الشديد، فصبروا عليه واحتسبوا، أو كظم

1 - زاد المعاد، لابن القيم، 60 / 6.

2 - مأخوذ من قولهم: أنت حر دبر حياتي. ينظر: التعريفات، للجرجاني، ص: 265، والتوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص: 646.

3 - سورة النساء، جزء من الآية: 11.

4 - وهي عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية نظير دفعه مالا لسيد. ينظر: حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، 2 / 232، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، نشر: دار الفكر، بيروت، 1414 هـ / 1994 م.

5 - سورة النور، الآية: 33.

6 - سورة الطور، الآية: 46.

الغيظ والعفو عن المسيئين: {قَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآنْبَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي
الْأَمْرِ¹}. وهذا كله مندرج ضمن مفهوم الإحسان الواسع، الذي يعتبر من المبادئ العامة
للعملية التربوية، لما له من أثر كبير في التغيير والإصلاح. قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ²، إشارة إلى أن الإحسان والإعراض عن الجاهل
مثمر ومؤثر على تحسين سلوكه؛ فلا يتخلق الإنسان أو يتحسن سلوكه بمجرد الاستماع إلى
نص نقدي أخلاقي، وإنما يتحقق ذلك بعد عملية تربوية مستمرة، خاصة فيما يتعلق بمعالجة
السلوك السيء والعادات المستحكمة، فإن المدمن عليها لا يمكن أن يتخلى عنها إلا بشكل
تدريجي على وجه التراخي لا الفورية. ومن السلوك السيء الذي عالجه القرآن المجيد: الكذب
والغيبة والنميمة وشهادة الزور وغير ذلك من الرذائل التي وقف القرآن عندها بالنقد وأمر
بالإصلاح والتغيير، كقضية التقاتل بين الإخوة المؤمنين، حيث عالجها القرآن بالتربية
"الإصلاحية" حيث بين القرآن المجيد درجاتها في قوله: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
إِتْتَفَعَا فِي شُكْحَيْنِ فَتَلَاؤَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَعَلَيْتُمَا
التَّوْبَةَ إِلَى اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَفْسِطُوا³، فإذا وقع التخاصم والتقاتل بين الإخوة تدرج الناس في إصلاحهم تدرجا واضحا
منطقيا معقولا، فإن رفض أحد الطرفين الصلح ورأى نفسه صاحب حق، يكون المسلمون حينها
عوناً للمظلوم على الظالم إذا تعين، حتى إذا فاءت إلى الحق ورجعت إلى الصواب حكم
القاضي بينهما بالقسط والعدل دون حيف أو ظلم لأحد الطرفين، فكان هذا التدرج في الأمور
التربوية ضروريا؛ لأن النفس الإنسانية لا تتحمل فوق طاقتها كما في الآية القرآنية الواردة آخر
سورة البقرة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا⁴، فيتم الابتداء في الأمور التربوية
بالأخف فالأخف، والأيسر فالأيسر، كما تروي السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم -قائلة: "ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما
ما لم يكن إثما⁵".

1 - سورة آل عمران، الآية: 159.

2 - سورة الأعراف، الآية: 199.

3 - سورة الحجرات، الآية: 9.

4 - سورة البقرة، جزء من الآية: 285.

5 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: صفة النبي صلى الله عليه وسلم، 3/ 1306، الحديث رقم: 3367،
والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: مبادئه للأثم واختياره من المباح أسهله، 7/ 80، الحديث رقم: 6190.

وبتتبع النصوص المتعلقة بالمجال التربوي يخلص الباحث إلى أن المنهج التدريجي فيه يتم على مرحلتين اثنتين: أولاهما: البدء بالأقرب فالأقرب، وعلى مستوى الأفراد والجماعات، فيبتدئ الإنسان مبتغيا الإصلاح والتربية بنفسه أولا، ثم من يليه من أهله وذويه والمقربين إليه، كما تنص عليه الآية القرآنية: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} ¹. وثانيتهما: التربية على الرفق والالتزام المرحلي بمبادئ السلوك والأخلاق الحسنة، والتسامح وعدم الغلو والتشدد في مسايرة التربية القرآنية، بناء على الوصية النبوية: "سدّدوا وقاربوا واغدّوا وروحوا وشئ من الدلجة والقصد القصد تبلغوا" ²، والتوجيه القرآني: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} ³، فإن الأخذ بمبادئ اللين والرفق والتيسير أوقع في النفوس، كما عبر عن ذلك الشاطبي بقوله: "وهذا معنى صحيح معتبر في الاستقراء العادي، فكل ما كان أحرى بالمصلحة، وأجرى على التأنيس، وكان أكثرها على أسباب واقعة، فكان أوقع في النفوس" ⁴.

هذه هي نهاية الباب الثاني من هذا البحث، ومن جملة ما قدمه: ضوابط الحجاج والحوار في القرآن، وأهداف النقد القرآني التي تؤول على الجملة إلى ثلاثة أبعاد وغايات كبرى، هي: بناء شخصية عقدية سليمة، وتحرير العقول من خلال بناء الحس النقدي لدى الإنسان، والأمر الثالث: التشريع وتخليق الحياة العامة وسياسة الأمة، كما خلص الباب إلى أن العملية النقدية في القرآن تجري وفق مناهج منضبطة، أبرزها: منهج المحاجة الإقناعية الذي يعتمد على تقديم الأساليب الحجاجية والبرهانية الملزمة، ومنهج الترغيب والترهيب الذي يلفت النظر الإنساني إلى إمعان الفكر في كتاب الله وتشريعاته، ومنهج التدرج؛ ذلك لأن الخطاب النقدي الإصلاحي الموجه إلى النفوس البشرية والعقول الإنسانية في أمس الحاجة إلى فترة زمنية معينة، تقصر أو تطول حسب المخاطب ونوع الخطاب وسياق المخاطبين، فإن لكل شيء أوانه وميقاته. وفيما يلي: الباب الثالث، وقد تناولت في فصوله الآتية بشيء من التفصيل الحديث عن أساليب الفكر النقدي في القرآن وخصائصه وآلياته الإعجازية.

1 - سورة الشعراء، الآية: 213.

2 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، 5/ 2373. رقم الحديث: 6463.

3 - سورة البقرة، الآية: 184.

4 - الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، 2/ 94، بتحقيق: عبد الله دراز، نشر: دار المعرفة، بيروت.

الباب الثالث:

خصائص الفكر النقدي

في القرآن الكريم،

وأساليبه:

الفصل الأول: خصائص الفكر النقدي في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم كتاب كوني وعالمي لانفتاحه الواسع على الكون والتاريخ ومختلف الحضارات الإنسانية، يدعو إلى دوام النظر وإرجاع البحث إلى المجالات الكونية والإنسانية عبر تاريخها المديد، فكان من أبرز خصائصه الخطابية النقدية المتعلقة بهذا الانفتاح خاصية التصديق والهيمنة وخاصة الوسطية وخاصة الواقعية، وهذا مسنتاول الحديث عنه في المباحث الآتية ومطالبها

المبحث الأول: التصديق والهيمنة في القرآن المجيد:

إن أسلوب التصديق والهيمنة خاصة من خصائص القرآن، وذلك باعتبار القرآن المجيد هو كتاب الله الخاتم لسائر الرسالات السماوية السابقة، كما في نص الآية القرآنية: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ} ¹. وهذه ميزة قرآنية لم تكن لأي كتاب "بدءا بالوحدة البنائية من حيث الشكل، والمضمون، والكلية، ومن حيث مقارنة الموضوعات والعالمية، ومن حيث الانفتاح على الكون والإنسان" ²، وفي ذلك انسجام تام مع "كونية الرسالة الإسلامية وعالميتها" ³، كما سنتبيه من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن المجيد:

من المفاهيم النقدية في القرآن: مفهوم "التصديق والهيمنة" الذي يفيد في معناه الشامل احتواء القرآن وإحاطته بكافة الكتب السماوية السابقة، وهيمنته عليها، دون أن تربط القرآن الكريم صلة تاريخية باليهودية أو المسيحية، وإنما وقع ما وقع بينها من التشابه والتماثل في أصول المعتقدات؛ لأن مصدرها واحد، فجاء القرآن المجيد بتصحيحاته النقدية للديانات السابقة ليكون خاتمة الديانات وجامع الرسالات السماوية السابقة. وإن الدارس لآيات القرآن التي تحدثت عن موضوع التصديق والهيمنة، والباحث في مضامينها ليجد معاني أخرى يشملها مفهوم "التصديق والهيمنة". فبالرجوع إلى الدلالة اللغوية والسياقية لمفردتي التصديق والهيمنة في القرآن نجد أن التصديق: ضد التكذيب ⁴، وهو: أن تتسب باختيارك الصدق للمخبر ⁵، وأما المصدق فهو: المخبر بصدق أحد ⁶. فتصديق القرآن لما سبقه من الكتب معناه: بيان صدقها وموافقة معانيه لمعانيها ⁷، وذلك من عدة وجوه فصل القرآن الكريم بعضها في آياته، منها: الموافقة في الأصول

1 - سورة المائدة، جوء من الآية: 50.

2 - منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجا، للدكتور صابر مولاي أحمد، ص: 166 - 167، نشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط 1، 2017م.

3 - الأزمة الفكرية العالمية: نموذج معرفي قرآني، للدكتور علي صديقي، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة: 15، العدد: 59، ص: 53.

4 - لسان العرب، لابن منظور، 21 / 13، مادة (صدق).

5 - ينظر: التعريفات، للجرجاني، ص: 82، والتوقيف على مهمات التعاريف، للكنوي، ص: 178.

6 - التحرير والتنوير، 1 / 622.

7 - تفسير الطبري، 2 / 393.

التي تدعو إليها¹، كالأخلاق والفضائل والتوحيد والإقرار بالنبوات وثبوت الوحي، كما في صريح القرآن، في قوله: {إِنَّ هَذَا لَمِ الْصَّحْفِ الْأَوَّلِيِّ} ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى²، وفي قوله: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ³، فهذا تصديق لأصل الوحي ونزول الرسالات "والمعنى: أنا توافقنا على نبوة نوح وإبراهيم وإسماعيل وجميع المذكورين في هذه الآية، وعلى أن الله تعالى أوحى إليهم"⁴. ومنها: مطابقة القرآن المجيد لما وصف به رسول القرآن في الكتب السابقة⁵، من التبشير به، والاشتمال على نعوته، ووصفه بالخاتم، ونزول القرآن عليه من الله. قال ابن كثير في شرح هذا الوجه من التصديق: "أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله (...)" فكان نزوله كما أخبر به، مما زادها صدقا عند حاملها من ذوي البصائر"⁶، فيكون التصديق في المفهوم القرآني دالا على: موافقة القرآن المجيد للكتب السماوية السابقة في أصوله التشريعية والأخلاقية، ومطابقته لها في كثير من الأمور المتعلقة بأوصاف خاتم الرسالات.

وأما "الهيمنة" فإن اشتقاقها اللغوي يحيلنا على معنى الائتمان والتصديق أيضا، لأن أصلها الاشتقاقي يرجع إلى مادة: (أمن)، وإنما أبدلت همزته هاء. قال ابن فارس: "فأما المهيمن وهو الشاهد، فليس من هذا، إنما هو من باب أمن، والهاء مبدلة من همزة"⁷، وأمن له أصلان لغويان متقاربان: "أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة (...)" والآخر: التصديق"⁸، ومما ورد في القرآن من ذلك بمعنى التصديق: قوله: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ⁹}. وبتتبع معاني الهيمنة المبدل هاؤها همزة في تفاسير القرآن المجيد، نقف على عدة معان، جملتها:

– المؤتمن أو الشاهد¹⁰. قال الطبري: "وشهيدا عليها أنها حق من عند الله، أمينا عليها"¹¹، وقال الرازي: "وهو مأخوذ من الأمين، وإنما سمي به؛ لأنه من تمسك بالقرآن أمن الضرر"¹²، فالقرآن أمين ومؤتمن، وشاهد على ما سبقه من الكتب بالصحة، "أوراقها عليها من التغيير في المعنى" كما عبر صاحب البحر المديد¹³.

-
- 1 - تفسير المنار، 1 / 324.
 - 2 - سورة الأعلى، الآية: 18 – 19.
 - 3 - سورة النساء، الآية: 162.
 - 4 - تفسير الرازي، 11 / 266..
 - 5 - تفسير المنار، 1 / 324.
 - 6 - تفسير ابن كثير، 3 / 127، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420 هـ / 1999م.
 - 7 - مقاييس اللغة، لابن فارس، 6 / 63، مادة: همن.
 - 8 - مقاييس اللغة، 1 / 133، مادة: أمن.
 - 9 - سورة يوسف، الآية: 17.
 - 10 - ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 1600، مادة أمن، ولسان العرب، لابن منظور، 13 / 436، مادة همن.
 - 11 - تفسير الطبري، 10 / 377.
 - 12 - تفسير الرازي، 2 / 263.
 - 13 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للإمام ابن عجيبة، 2 / 47، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، 1419 هـ.

- معنى الحفيظ والرقيب¹. قال الطبري: "أصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة، وهو عليه مهيم²".

- المصدق والقائم على الكتب³. جاء في مفاتيح الغيب: "قال ابن الأنباري: المهيم: القائم على خلقه برزقه"⁴، فالقرآن قائم يقضي ويحكم على ما كان قبله من الكتب، ويبين ما نسوا منه وما حرفوا فيه⁵. روى الطبري عن ابن جريج عن مجاهد قال: {وَمَهِّمِنَا عَلَيْهِ} "مؤتمنا على القرآن، وشاهدا ومصدقا، وقال ابن جريج: وقال آخرون: القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر، إن كان في القرآن فصدقوا وإلا فكذبوا"⁶.

- وكون القرآن آمنا من النسخ والتحريف، حيث ينسخ ما قبله دون أن يصير منسوخا البتة. قال الفخر الرازي في بيان هذا المعنى: "إنما كان القرآن مهيمنا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، على ما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}⁷، وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبدا"⁸.

فهذه المعاني كلها متقاربة مقبولة، يتحملها أصل الهيمنة في الاستعمال اللغوي؛ لأن القرآن أمين وحاكم وشهيد على كل كتاب قبله؛ لأن الله قد جعل "هذا الكتاب العظيم آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه"⁹، وكلها معاني إيجابية تفيد شهادة القرآن على غيره من الرسائل، واحتواءه لما سبقه من الكتب المنزلة من الله دون أن تعني السيطرة وفرض السيادة على الكتب والأديان الأخرى "فهذه المعاني بعيدة كلية عن القصد الإسلامي، وهي لا تتفق ومبادئ الإسلام الخاصة بالتسامح مع الأديان الأخرى، ولا مع مبدأ حرية الاعتقاد والعبادة في الإسلام، ولهذا تتفق مصادر التفسير القرآني الأساسية على عدم إيراد معاني السيادة والسيطرة الدينية ضمن معاني الهيمنة التي فسروا بها الآية القرآنية الكريمة"¹⁰، فالهيمنة القرآنية: احتواء وإحاطة تمكن من الاستغناء عن كل ما ورد في الرسائل السابقة، وإتقان، لا فرض سيطرة وسيادة، لأنه بمثابة شاهد عدل يؤيد ما كان حقا سليما، وينتقد ما كان باطلا فاسدا، كما في خطاب القرآن للنصارى: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَ

1 - القاموس المحيط، ص: 1600، مادة أمن.

2 - تفسير الطبري، 10، 377.

3 - ينظر: القاموس المحيط، ص: 1600، مادة أمن.، واللسان، لابن منظور، 13/ 436، مادة هم.

4 - تفسير الرازي، 29/ 513.

5 - ينظر: تفسير الطبري، 10/ 379، وتفسير المنار، 5/ 116.

6 - تفسير الطبري، 10، 378.

7 - سورة الحجر، الآية: 9.

8 - تفسير الرازي، 12/ 371.

9 - تفسير ابن كثير، 3/ 128.

10 - تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، للدكتور: محمد خليفة حسن، ص: 255، نشر: دار الثقافة العربية، 2002م.

إِنْتَهُوْا خَيْرًا لَّكُمْ؛ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ¹، فهذا الجزء من الآية يتضمن الأصل السليم والتغيير الفاسد الذي طرأ عليه²، فأشار القرآن المجيد إلى فساد الطارئ المبتدع، وأثبت السليم الصحيح وأيده.

المطلب الثاني: الأهداف النقدية للتصديق والهيمنة في القرآن:

إن الغايات النقدية من التصديق والهيمنة في القرآن المجيد كثيرة ومتنوعة، تقوم في مجملها على أسس علمية متينة، تهدم ما يزعمه كثير من المستشرقين والعلمانيين في القديم والحديث من إثارة الشبهات والتشكيك في عالمية الرسالة القرآنية وهيمنتها، واستيعابها لحياة الناس الأسرية والتعاملية على الخصوص، فنزلت آيات القرآن داحضة كل ما يبعث على هذا التشكيك، كما في مطلع سورة الفرقان: {تَبَرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}³، وفي آية التصديق والهيمنة: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ}⁴؛ فهذا تقرير نقدي لما يثار من الشبهات والشكوك يؤسس للاستمرارية والاستيعاب القرآني وهيمنته؛ لكونه تصحيحاً نهائياً اختصت به الرسالة القرآنية الخاتمة، فكان من أبرز أهدافه وغاياته النقدية مجموعة من الأمور، أبرزها:

أولاً: تقرير سلامة القرآن من التحريف والتغيير والنسخ:

يعتبر التغيير والتحريف لفظين متقاربين في المعنى والدلالة، حيث يقصد بهما: تبديل الكلام والعدول به عن جهته ومعناه الحقيقي⁵، سواء كان ذلك التغيير والتحريف بتبديل ألفاظ القرآن وتغيير حروفه وكلماته بحذف أو زيادة أو تعويض أو تقديم وتأخير⁶، أو وقع التحريف بحمل ألفاظ القرآن على غير معانيها التي وضعت لها، أو أخذ كلمات من موضع الكتاب ووضعها في موضع آخر⁷، كما تشير إليه الآية القرآنية: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا}⁸. قال ابن عاشور: "فالمراد بالتحريف: إخراج الوحي والشرعية

1 - سورة النساء، جزء من الآية: 171.

2 - تاريخ الأديان، لمحمد خليفة حسن، ص: 257.

3 - سورة الفرقان، الآية: 1.

4 - سورة المائدة، جزء من الآية: 50.

5 - جاء في كتاب العين: "والتحريف في القرآن: تغيير الكلمة عن معناها وهي قريبة الشبه" 211 // 3، باب الحاء والراء والفاء معهما، وفي مقاييس اللغة، لابن فارس: "الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول: حد الشيء، والعدول، وتقدير الشيء (...) والأصل الثاني: الانحراف عن الشيء". 43 / 2، كتاب الحاء، مادة: حرف.

6 - ينظر: تفسير الإمام الرازي، 560 / 3 - 561، 10 / 93، وتفسير المنار، للشيخ رشيد رضا، 5 / 114.

7 - تفسير المنار، 5 / 114.

8 - سورة النساء، الآية: 45.

عما جاء به، إما بتبديل وهو قليل، وإما بكتمان بعض وتناسيه، وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف"1.

وأما النسخ فالمراد به هنا: النسخ العام الذي يقع بين رسالة وأخرى، لا النسخ الخاص الذي يقع داخل أحكام رسالة واحدة، وقد تقرر أن القرآن المجيد آخر رسالة منزلة من السماء، فلا يتصور بحال من الأحوال وقوع النسخ عليه برسالة أخرى لانعدامها؛ ومن أجل هذا المعنى وُصف القرآن بوصفي "التصديق، والهيمنة". قال الفخر الرازي: "إنما كان القرآن مهيمنا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، على ما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}2"3، فبقي القرآن المجيد كتابا خاتما للرسالات السماوية ومهيمننا عليها، محفوا بحفظ الله من التحريف والتغيير اللفظي أو المعنوي، سالما في كلماته ومفرداته من المسخ والتبديل، وسالما في معانيه ومضامينه ومفاهيمه من الباطل، على حد التعبير القرآني: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}4، لكن المعنى الأجدر بإثباته هنا هو: تحريف الكلمات والعبث فيها بزيادة أو نقصان أو تبديل، وأما التحريف المعنوي بتأويل آيات القرآن تأويلات فاسدة بعيدة عن المعنى الحقيقي الموضوع لمفرداته فممكن، غير أنه لا ينهض شبهة يمكنها الانتقاص من سلامة القرآن المجيد وبقائه محفوظا من التحريف والتبديل؛ ذلك لأن الشبهة المعيبة هي أن يلحق بالقرآن نقص أو زيادة أو تبديل في آياته وفواصله، ولهذا كانت جل الشبهات المزعومة حول تحريف القرآن تدور حول النقص أو الزيادة فيه أو تبديل بعض ألفاظه ومفرداته بأخرى غيرها، وتجد هذه الشبهات والمزاعم في موضوع النسخ، ومفهوم جمع القرآن الكريم مدخلا وسندا لها، حيث يعتمد مروجو هذه الشبهات إلى مفهوم "النسخ" واختلاف الروايات" ومعنى تأخر عملية التدوين والجمع، فيستغلونها في رمي القرآن باللحن والتحريف، على اعتبار أنه عمل بشري خالص، ناسين أن القرآن إنما دون في مصحف عثمانى، بعد أن كان محفوظا في الصدور والسطور معا، كما أشارت إليه رواية زيد بن ثابت رضي الله عنه في قوله: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع"5، وقد تقدم في هذا البحث دراسة هذه الشبهة وأمثالها ونقضها والرد عليها في الفصل الثاني من الباب الثاني.

1 - التحرير والتنوير، 1/ 568.

2 - سورة الحجر، الآية: 9.

3 - تفسير الفخر الرازي، 12/ 371.

4 - سورة فصلت، الآية: 40 - 41.

5 - أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: حديث صحيح، 5 / 734، الحديث رقم: 3954، وللتوسع في الموضوع يرجع إلى كتاب: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 1/ 237، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391هـ، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 1/ 99، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م.

ثانيا: بيان صحيح الكتب السابقة وباطلها:

إن من الغايات النقدية للتصديق والهيمنة في القرآن نقدا تصحيحيا لما نزل على أهل الكتاب وما بأيديهم من نُسخ التوراة والإنجيل بغرض الاسترجاع، وبيان صحيحها من سقيمها، وسليمها من فاسدها، كما في التعبير القرآني: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ¹، أو قوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} ²؛ لأن القرآن أمين عليها وشاهد على أحكامها وتشريعاتها، حتى يعرف الناس الأحكام التي بقيت منها سليمة غير محرفة، ويتبينوا ما تم تحريفه وتغييره منها، فكانت علاقة القرآن بهذه الرسائل السابقة مقسمة إلى صنفين -بحسب تحريفها أو بقائها على صورتها الحقيقية-: أولهما: صورتها الحقيقية التي لم يتم تحريفها وتبديلها، فبقيت على حالها "كما نزلت من عند الله تبارك وتعالى" ³، فجاء القرآن بتأييدها وتصديقها، كما في صريح آية الصيام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} ⁴. وثانيهما: ما نالته أيدي التحريف والتبديل منها بعد أن طال عليها الأمد، فجاء القرآن المجيد أمينا مهيمنا عليها ليبين ما هو دخیل فيها، وما حاول أهل الكتاب كتمانها وطمسه على الناس منها، كما صرحت به الآية القرآنية: {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} ⁵، وكما في التحدي الوارد في الآية القرآنية: {فَلْ قَاتُوا بِالتَّوْبَةِ قَاتِلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ⁶، فسجل القرآن ملحظ التحريف على أهل الكتاب، لأنهم كانوا يحرفون كتبهم ويبدلونها، فحذر منهم قائلا: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَفْهَمُونَ} ⁷، وقد بين علماء المسلمين المهتمين بدراسة الملل والنحل ومقارنة الأديان ⁸ أن ما بيد اليهود والنصارى مدخول مليء بعمل البشر

1 - سورة النحل، الآية: 64.

2 - سورة المائدة، الآية: 16.

3 - نظرية النسخ في الشرائع السماوية، للدكتور: شعبان محمد إسماعيل، ص: 64، نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1408 هـ / 1988 م.

4 - سورة البقرة، الآية: 182.

5 - سورة المائدة، الآية: 16.

6 - سورة آل عمران، الآية: 93.

7 - سورة المائدة، الآية: 43.

8 - ينظر على سبيل المثال: كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم، 1/ 161 وما بعدها، نشر: مكتبة الخانجي - القاهرة.

وأهوائهم¹. قال الإمام ابن القيم: "وأما التحريف فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنه في مواضع متعددة، وكذلك لِيَّ اللسان بالكتاب (..) فهذه خمسة أمور: أحدها: لبس الحق بالباطل، والثاني: كتمان الحق، والثالث: إخفاؤه وهو قريب من كتمان، والرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه، والخامس: لي اللسان به ليلتبس على السامع اللفظ المنزل بغيره². وبالرجوع إلى آيات القرآن المجيد نجدها قد سجلت ثلاثة أنواع من التحريف الواقع في الكتب السابقة، وهي على الجملة:

أ - آيات تثبت وقوع التحريف في الكتب السابقة مطلقا دون ذكر نوع التحريف وصورته ومقداره، كما في الآية القرآنية {أَقْتَطَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَفَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}³.

ب - تحريف الكتب السابقة بمحاولة إخفائها وطمس حقائقها، كما في الآية القرآنية: {فُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ فَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}⁴.

ج - الإخبار بوقوع التحريف اللفظي فيها بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير، كما في الآية القرآنية: {وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيفًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}⁵. وفي آية أخرى: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا فَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}⁶. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وقد حدثكم الله أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ، وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ"⁷، وهذا التحريف اللفظي الجزئي هو موضع الشاهد من البحث. قال ابن كثير: "والحق

1 - القرآن الكريم: هيمنته وخاتميته وعالميته وخلوده، بحث للدكتور أحمد علي الإمام، منشور في مجلة كلية القرآن الكريم، العدد الأول، السنة: 1427 هـ / 2006م، ص: 22.

2 - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام ابن القيم، ص: 312، دراسة وتحقيق: د. محمد أحمد الحاج، نشر: دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1416 هـ / 1996م.

3 - سورة البقرة، الآية: 74.

4 - سورة الأنعام، الآية: 92.

5 - سورة آل عمران، الآية: 77.

6 - سورة البقرة، الآية: 78.

7 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، 2/ 953، الحديث رقم: 2539.

أنه دخلها تبديل وتغيير، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص، كما تصرفوا في معانيها، وهذا معلوم عند التأمل"1.

ثالثا: نسخ الرسائل السابقة:

من أبر معاني الهيمنة القرآنية ومقاصدها النقدية نسخ بعض الأحكام والتشريعات الواردة في الرسائل السابقة مما يتعارض منها مع التشريعات الواردة في القرآن المجيد، وأما ما وافق منها آيات القرآن ومبادئه كأصول الإيمان بالله، وقصص الأنبياء، والقيم الأخلاقية، وبعض الأحكام التشريعية، فهو جار على أصل التصديق القرآني. فليس المراد بالنسخ هنا إبطال جميع ما ورد في الرسائل السابقة؛ لأنها متوافقة في كثير من الأمور لاتحاد مصدرها الرباني، وإنما وقع النسخ على مواطن الاختلاف فيها، فبقي القرآن المجيد كتابا ناسخا لما تقدمه من الكتب على الجملة، كما يؤكد ذلك رسول القرآن بقوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد..."2، ذلك لأن القرآن كتاب خاتم محكم لا يحتمل النسخ أبدا، كما تنص عليه الآية {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ}3 وفي سورة أخرى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}4.

رابعا: إثبات عالمية القرآن واستمرارية معانيه وتجدها:

من الغايات النقدية لمفهوم الهيمنة القرآنية إثبات عالمية القرآن، واستمرارية أحكامه، وتجدد معانيه، تبعا للمتغيرات الزمانية والمكانية، لأنه قرآن مجيد وكتاب كريم مستمر في بذله ومتجدد في عطائه، يكشف على الدوام عن مفاهيم ومعان جديدة تتقابل إشكاليات الواقع المتغير ومفاهيمه"5، وقد قال الحق سبحانه: {بَلْ هُوَ فُرْعَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْبُوظٍ}6، وقال عز من قائل: {إِنَّهُ لَفُرْعَانٌ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ}7. فليس الكتاب المجيد والقرآن الكريم كتابا جامدا لا يستطيع مسابقة الحياة، ولا كتابا خاصا بالزمن أو الرعيل الأول فحسب، بل هو كتاب عالمي لسائر الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم، كما في

1 - البداية والنهاية، لابن كثير، 2/ 179، تحقيق وتعليق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1408 هـ / 1988 م.
2 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام، 3/ 1272، الحديث رقم: 3264، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد، 1/ 93، الحديث رقم: 406.
3 - سورة الأحزاب، الآية: 40.
4 - سورة المائدة، الآية: 4.
5 - خصائص القرآن الكريم، للمفكر السوداني: محمد أبو القاسم حاج حمد، ، ص: 5، نشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية – الرباط.
6 - سورة البروج، الآية: 21 – 22.
7 - سورة الواقعة، الآية: 80 – 81.

نص الآية القرآنية: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}¹، فالهيمنة القرآنية تقتضي أن يكون كتابا لسائر العالمين، كما بينته كثير من آياته، ومنها: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ قَاتِبٌ عَودٌ}². وقد كان الواقع التاريخي الممتد شاهدا على عالمية القرآن، وبلوغه سائر الشعوب حتى قامت به حضارة إسلامية عريقة؛ لأن تعاليمه وأحكامه التشريعية تتسم بالرفق والمرونة وقابلية التجدد ومسايرة الحياة، تخاطب كل إنسان بحسب استطاعته وإدراكه، ولا يختص خطابها القرآني بشعب أو إقليم أو نوع من الناس دون آخر، بل هو رسالة إصلاحية هدفه النقد البناء والإصلاح، و"مرماه: هو إصلاح المجتمع البشري على وجه الإطلاق"³، ومما يؤكد هذا المعنى: خطاب القرآن النقدي المتنوع الذي يتوجه تارة بكلامه إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتارة إلى عامة الناس، فلو كان كتابا خاصا وقاصرا لما توجه خطابه إلى عموم الناس، كما ورد في قوله: {فُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}⁴.

المطلب الثالث: مظاهر التصديق والهيمنة في القرآن المجيد وتجلياتها:

رسم القرآن المجيد معالم الكتب والرسالات السماوية السابقة في آياته وسوره، وذلك بالحديث عن خصائصها المنهجية وتعاليمها الدينية وأحكامها التشريعية، واعتبرها بمثابة وحدة دينية للبشر، كلها تؤدي إلى خضوع الإنسان لربه، قال سبحانه: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ إِيْسَلَمٌ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا اْلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ اْلْعِلْمُ}⁵، وقال: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمِيكُمُ اْلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ اْلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}⁶، فكان القرآن المجيد تصحيحا نهائيا للمسار الدعوي الذي سبقت في سبيل تحقيقه كافة الرسالات والديانات، وقد ثبت في المسطور والمنظور صحة هذا التصديق أو الهيمنة القرآنية على ما قبله من الرسالات، ومن تجليات ذلك:

- 1 - سورة الأنعام، الآية: 91.
- 2 - سورة الأنعام، الآية: 156.
- 3 - مفاهيم القرآن، لجعفر السبحاني، ج: 3/ ص: 45.
- 4 - سورة الأعراف، الآية: 158.
- 5 - سورة آل عمران، الآية: 19.
- 6 - سورة الحج، الآية: 76.

أولاً: الاسترجاع النقدي للكتب السابقة بغرض التصحيح والتقويم:

قد وقف القرآن المجيد على ما ورد في الكتب السابقة بغرض التصحيح والتقويم أو نسخ ما سبق من التشريعات التي لم تعد صالحة لعموم الناس، حيث تم استبدالها بما يتوافق ومبادئ التيسير والرحمة والتخفيف على العامة، دخولاً إلى " عالمية الخطاب " ليكون القرآن المجيد مصدقاً لما بين يديه ومهيماً عليه، كما جاء في آية التبشير بنبي الرحمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائم على شرعة التخفيف ونسخ شرعة الأصر والأغلال، حين وفد إليه نقباء بني إسرائيل للاعتذار عن عبادة العجل. {وَإِذْ كُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} ¹. فلم يكن القرآن مجرد كتاب يسرد تفاصيل الرسائل السالفة وقصص الأنبياء السابقة قبله، بل كان كتاباً مهيمناً، يهدف إلى المعالجة بأسلوبه النقدي المتنوع لكل موروث له علاقة بالتدين الإنساني؛ ومن أجل تحقيق هذا الغرض استغرق القصص القرآني ما يقرب من نصف التنزيل العزيز، حتى يضع الفكر الإنساني على سبيل ديني قويم، ويقطع دابر كثير من الخرافات والأساطير الشائعة بين الناس من خلال التشريع العقلاني، والحث على التعقل والتدبر وإعمال الفكر النقدي من أجل البناء في الموروث الديني؛ ولذلك كان القرآن المجيد يضم "في العديد من سوره جزءاً كبيراً من المواطن التي اتصفت بهذا المعطى المنهجي، بدءاً من سورة البقرة وغيرها، فالقراءة النقدية للكتاب المقدس اليوم تقتضي النظر إلى تلك القصص كما هي في الكتاب المقدس؛ لمعرفة المواطن والمواضع والسياقات التي عمل القرآن على إظهارها واسترجاعها" ².

ثانياً: حدوث تأثير قرآني في معظم المجتمعات الدينية التي أدركها القرآن:

إن هذا التأثير القرآني ناتج عن النزعة النقدية الإصلاحية التي تنبأها القرآن المجيد واختص بها "للدلالة على هيمنته من ناحية، ولتصحيح الأوضاع الدينية للبشرية من ناحية

1 - سورة الأعراف، الآية: 156 - 157.

2 - منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم، سورة البقرة نموذجاً لصابر مولاي أحمد، ص: 116.

أخرى"1، وترجع أسباب هذا التأثير والتأثر بالقرآن إلى مجموعة من المبادئ التي ينهاجها القرآن، كمبدأ الرحمة والتخفيف، وأصل التسامح، وحرية الاعتقاد، والانفتاح على الحضارات الأخرى من خلال الدعوة إلى ضرورة التعايش بين المجتمعات الدينية من أهل الكتاب على الخصوص، بصرف النظر عن أساليبه البلاغية الأخاذة، وآياته الخطابية المعجزة، إضافة إلى انتشاره الواسع في كافة بقاع الأرض وأرجائها. ومما نتج عن هذا التأثير والتأثر والاحتكاك القرآني بأرباب الديانات الأخرى: الارتقاء بالتفكير الديني، والقضاء على الخرافة والأسطورة، واستجابة كثير من الناس إلى تعاليم القرآن المجيد واعتناق الإسلام شريعة ودينا، وقد دون التاريخ سجلات حافلة بمن اعتنق الإسلام متأثرا بالقرآن المجيد وأحكامه التشريعية والأخلاقية. وهذا "التأثير الإسلامي لم يتوقف عند حدود اليهودية والمسيحية، بل امتد إلى ديانات شبه القارة الهندية، وبخاصة الهندوسية البراهمانية والبوذية. فقد تفاعلت هذه الأديان مع النقد الإسلامي لها وللنظام الاجتماعي فيهما، فظهرت فيها حركات إصلاحية تعكس تأثرا بالنقد الإسلامي"2.

ثالثا: الاحتكام إلى آياته في القضايا التي خالفوا فيها الحق:

دعا القرآن المجيد أهل الكتاب إلى تحكيم شرع الله مما جاء به القرآن الكريم، باعتبار أنه شرع رباني المصدر لا يختلف مع ما نزل في كتبهم، إلا إذا كان أهل الكتاب قد خالفوا حقيقة ما في كتبهم وأبوا الانصياع لها. فكشف القرآن المجيد بهذا عن أباطيل أهل الكتاب وأهوائهم التي يتبعونها بدل النص التشريعي المدون في التوراة أو الإنجيل، قال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}3، فحدد بهذا نوع العلاقة التي تربطه بالكتب السابقة في تصديق ما جاء فيها، ورفض التأويلات الكاذبة التي يزعمها بعض أهل الكتاب {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}4، فكانت عملية التصديق القرآني تكشف مخالقات أهل الكتاب لشريعة التوراة والإنجيل، "وتقتضي إظهار الحق والهدى والنور الذي أخفاه أهل الكتاب، ونفي الباطل الذي ادعوه إثما وزورا"5؛ فكان القرآن في كل موضع نقدي من آياته وسوره يذكر أهل الكتاب بأنه مصدق لما في أيديهم من الكتاب، ومظهر ما يحاولونه من إبطال الحق وإظهار الباطل على حد التعبير القرآني: {نَحْنُ نَفُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ}6، بعيدا عن تلبيسات أهل الكتاب وتزويراتهم للحقائق التاريخية والدينية، "فهو كتاب مصدق للكتب التي قبله،

1 - تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، للدكتور: محمد خليفة حسن، ص: 262، نشر: دار الثقافة العربية، 2002م.

2 - المصدر السابق، ص: 265.

3 - سورة البقرة، الآية: 41.

4 - سورة آل عمران، الآية: 74.

5 - منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم، ص: 73.

6 - سورة الكهف، الآية: 13.

وللحق الذي جاءت به، متجاوزا كل الافتراءات الموضوعية والمنسوبة إليها¹. وبالعودة إلى آيات التصديق القرآني نجدها قد سجلت كثيرا من الحقائق التي حاول أهل الكتاب إخفاءها وتزويرها، "ففي جانب العقائد على سبيل المثال نفى ما صرّحت به الأنجيل من قتل عيسى عليه السلام وصلبه فقال: {وَمَا فَتَلَوْهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَٰكِنَّ شُبَّهَ لَهُمْ²، وكذب مقولة النصارى بالتثليث والوهية المسيح، فقال: {لَفَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوِيه النَّارُ³4. كما سجل القرآن على اليهود كثيرا من النقائص التي جاء بدحضها وإبطالها كتصوير الله ونعته بالبخل والإمساك، في قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْهَوْنَ كَيْفَ يَشَاءُ⁵. إلى غير ذلك من الأباطيل العديدة الموجودة في صحائف أهل الكتاب، مما تكفل القرآن بدحضه وكشفه، وإثبات الصحيح بدله.

رابعاً: بيان آيات التحريف، وكشف المسائل التي حاولوا إخفاءها:

من أبرز مظاهر الهيمنة القرآنية على ما قبله من الكتب السابقة إظهاره لآليات التحريف وحيثيات التبديل والتزوير الذي أحدثه أهل الكتاب في كتبهم، وفي هذا السياق على الخصوص ورد مفهوم "التصديق والهيمنة" في القرآن، إذ جاءت الآية الواحدة والأربعون من سورة الأنعام في سياق التوجيه الرباني للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعدم القلق والحزن على ما يصنعه بعض أهل الكتاب من الكذب على الله وتحريف كلامه وكتابه بغرض تزييف الحقائق وتضليل الناس، فجاء في بداياتها: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزِنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِسْ فُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِفَوْمٍ - آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ

1 - منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم لصابر مولاي أحمد، ص: 74.

2 - سورة النساء، الآية: 156.

3 - سورة المائدة، الآية: 74.

4 - تصديق القرآن للكتب السماوية وهيمنته عليها، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة لإبراهيم عبد الحميد سلامة، ص: 10 - 11، نشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة: الثانية عشرة - العدد السادس والأربعون، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الثانية، 1440 هـ / 1980 م.

5 - سورة المائدة، الآية: 66.

أَلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ¹. فبين القرآن آليات هذا التحريف وكيفياته في غير ما موضع من آياته وسوره. وجملتها ثلاثة أمور:

أ - الافتراء وقلب الحقائق، كما نجده في النهي القرآني الصريح: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}². وخط الحقائق وعدم إظهارها للناس تحريف وتغيير.

ب - الكتمان والنسيان المتعمد: بين القرآن المجيد أن أهل الكتاب يتسترون على الحقيقة أو على بعضها. وكثير من الآيات أوضحت كتمانهم هذا، ومنها: {وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ فَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ فَلَمَّا أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجَعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا³، كما ترتبط عملية الكتمان والإخفاء هذه بالنسيان المتعمد من طرف أهل الكتاب⁴، وقد صرحت الآية الواردة في تذكير النصارى بذلك في قول القرآن: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ⁵، ونزل في شأن بني إسرائيل قوله: {قَبِمَا نَفْضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآيِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ⁶.

ب - التحريف وتبديل الكلمات عن مواضعها، حيث أخبر القرآن بتعرض هذه الكتب للتحريف والتبديل من قبل أهلها، وأشار إلى أنها لم تعد موضع ثقة لجعلها مصدرا ربانيا تؤخذ منه الحقائق الكونية والتشريعية، بل هي مدخولة مدسوسة بلغتها أيدي التحريف والتغيير بغية تحقيق أغراض شخصية شتى، ذكر القرآن المجيد منها: اتباع الشيطان وسلطان الأهواء والشهوات، ومحاولة كسب السيطرة والتصدر بها⁷ من خلال نسبتها إلى الله، كما في صريح

1 - سورة المائدة، الآية: 43.

2 - سورة آل عمران، الآية: 70.

3 - سورة الأنعام، الآية: 92.

4 - منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم لصابر مولاي أحمد، ص: 166.

5 - سورة المائدة، الآية: 15.

6 - سورة المائدة، الآية: 14.

7 - انظر أصل هذا الكلام في "التحرير والتنوير"، 1/ 577.

الآية: {قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا فَلْيَلَّا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}¹. ومعنى ذلك: أنهم يكتبون شيئاً لم يأتهم من رسلهم "بل يضعونه ويبتكرونه، كما دل عليه قوله: {ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقاً لما في نفس الأمر"².

المبحث الثاني: خاصية الوسطية:

إن الوسطية هي استقامة واستواء في المعتقدات والعبادات والمعاملات والأخلاق، وهذه هي مبادئ الدين الإسلامي بالذات، فهو دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق، فلا جفاء فيه ولا غلو. كما أن الوسطية ليست محصورة في القرآن في جزئية من جزئياته، وإنما هي منهج متكامل وشامل لقضايا الإسلام، وللإحاطة لقضايا هذا المبحث أود تناوله في ثلاثة مطالب، المفهوم، والمظاهر، والمنهج:

المطلب الأول: مفهوم الوسطية:

المنهج الرصين في بيان المفاهيم والمصطلحات هو الذي يتناولها الباحث بمنطق العقل الحصيف ومسايرة الفطرة الإنسانية السوية، مجانبا أولاً اختلاف الأمزجة والميول والنزعات والرغائب، ومتتبعا ثانياً مصادرها في مختلف المجالات والعلوم حتى يقف على الدلالة الحقيقية للمفاهيم والمصطلحات المراد بيانها؛ علماً أن تحديد المصطلحات من أصعب العلوم التي تجهد كل باحث في مرحلة بحثه. ومن تلك المصطلحات مصطلح الوسطية، فقد تناولته أقلام الباحثين بكثرة، ومع ذلك تجد هذا المصطلح لم يسلم من هذا الاختلاف النابع من التأثيرات السياقية والتوجهات الشخصية، وهذا ما يجعلني إن شاء الله أتناول هذا المصطلح في مصادره الأصلية، لعل ذلك يقلل من تأثيرات الاختلاف، ويعيد للمصطلح معناه الوسطي.

الوسطية لغة: مصدر صناعي صاغوه من الوسط يدل على التمكن في الوسط، ومن تتبع لفظ الوَسَط في المعاجم اللغوية يجده له إطلاقات متقاربة من حيث دلالتها، يأتي بمعنى العدل والخيار، ومنه قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}³، وبمعنى الأجود بين جنسه، ومنه واسطة القلادة وهي الجوهر الذي في وسطها وهو أجودها، وجاء في الحديث "خير الأمور أوسطها"⁴. وبمعنى المعتدل إذا أطلق على ما كان طرفاه مُتقابلين:

1 - سورة البقرة، الآية: 78.

2 - التحرير والتنوير، 1/ 575.

3 - سورة البقرة، من الآية: 142.

4 - متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم الحديث: 39، وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم الحديث: 2818.

أحدهما ممدوح، والآخر مذموم، كالجيد والرديء، وبمعنى الحسب والشرف إذا استعمل فيما له طَرَفان مذمومان؛ يقال: "هذا أوسطهم حَسَبًا"، إذا كان في واسطة قومه، وأَرْفَعَهُم محلاً؛ كالجود الذي هو بين الإسراف والبخل، وهذه المعاني¹ تؤول كلها في أصل وضعها اللغوي إلى معنى واحد، وهو التوسط بين الطرفين وهو ما يعبر عنه لغة بالاقتصاد، أي موقف الوسط والالتزان، فلا إفراط ولا تفريط، وقد يكون له طرف واحد كالعدل والظلم. وقد اختزل شيخنا الدكتور الحسين أيت سعيد، هذه المعاني اللغوية للوسطية إلى إطلاقين لغويين:

- "إِطْلَاقًا مَادِّيًّا حَسِيًّا، وهو كون الشيء في وسط له طرفان، كوسط الدار، وهذا يقع بين طرفين أو أطراف مُتْقَابِلَة.

- وإِطْلَاقًا مَعْنَوِيًّا، وهو كون الشيء أفضل شيء وأخيره وأعدله وأجوده، وهذا يقع غالبًا بين ضدين مذمومين، متميزًا عنهما بأفضليته وجودته، وقد يكون له ضد واحد، كالعدل مع الظلم"².

- وأما معنى الوسطية في الاصطلاح فلا يخرج عن مقتضى المعاني اللغوية السابقة للوسطية والتي تدور حول المعنيين اللغويين السابقين "العدل والخيار" وتفسيرها بالعدالة والخيرية هو المنسجم مع معانيها في الكتاب والسنة ومأثور العرب.

وقد عرفها الدكتور محمد ويلالي تعريفًا شاملاً ومانعاً، فقال: والوسطية اصطلاحاً: "سلوك محمود - مادي أو معنوي - يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين مُتْقَابِلين - غالباً - أو مُتَفَاوِتَين، تتجاذبهما رذيلتا الإفراط والتفريط، سواء في ميدان ديني أم دنيوي"³.

وعليه، فالوسطية في معناها الاصطلاحي لا تخرج عن الاعتدال والتوازن وتجنب الإفراط والتفريط. وهذا هو العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة، كما قال ابن القيم: "وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه... فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد"⁴.

1 - تنظر معاني الوسط في المعاجم الآتية: ومنها العدل، قال ابن فارس في المقاييس: 108/6: "الواو، والسين، والطاء بناءً صحيح، يدلُّ على العدل والنَّصَف، وأعدل الشيء، أوسطه ووسطه"، ومنها الحسب والشرف والمعتدل والأجود، قال الجوهري في الصحاح (1166/3-1167): "وَسَطْتُ الْقَوْمَ أَسِطُهُمْ وَسَطًا وَسِيطَةً: تَوَسَّطْتُهُمْ، وَفَلَانٌ وَسِيطٌ فِي قَوْمِهِ، إِذَا كَانَ أَوْسَطَهُمْ نَسَبًا، وَأَرْفَعَهُمْ مَحَلًّا، وَالْوَسْطُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: أَعْدَلُهُ، قَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أَيَّ عَدْلًا. وَيُقَالُ أَيْضًا: شَيْءٌ وَسَطٌ: أَيُّ: بَيْنَ الْجَيِّدِ وَالرَّدِيِّ، وَوَسْطَةُ الْقِلَادَةِ: الْجَوْهَرُ الَّذِي فِي وَسْطِهَا، وَهُوَ أَجُودُهَا". كما أشار ابن منظور في اللسان (427/7-429) إلى الفرق بين الوسط بفتح السين، والوسط بسكونها، قال: "واعلم أنَّ الوسط قد يأتي صفةً، وإن كان أصله أن يكون اسمًا، من جهة أن أوسط الشيء أفضلُه وخيارُه، كوسط المرعى خيرٌ من طرفيه، وكوسط الدابة للركوب خيرٌ من طرفيها لتمكن الراكب، ومنه الحديث: "خير الأمور أوسطها". (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 169/5، رقم الحديث: 6229، وقال: "هذا مرسل"؛ وهو في السلسلة الضعيفة، 442/8). فَلَمَّا كَانَ وَسْطُ الشَّيْءِ أَفْضَلُهُ وَأَعْدَلُهُ، جَازَ أَنْ يَقَعَ صِفَةً؛ وَذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى وَتَقْدَسُ -: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: 143]؛ أَيُّ: عَدْلًا، وَأَمَّا الْوَسْطُ - بِسُكُونِ السَّيْنِ - فَهُوَ ظَرْفٌ لَا اسْمَ، عَلَى وَزْنِ نَظِيرِهِ فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ "بَيْنٌ"؛ تَقُولُ: جَلَسْتُ وَسْطَ الْقَوْمِ؛ أَيُّ: بَيْنَهُمْ، وَلَمَّا كَانَتْ "بَيْنَ" لَا تَكُونُ بَعْضًا مَاتَصَافٍ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الْوَسْطِ الَّذِي هُوَ بَعْضٌ مَا يُضَافُ إِلَيْهِ، كَذَلِكَ وَسْطٌ، لَا تَكُونُ بَعْضٌ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ، لَا تَرَى أَنْ وَسْطَ الدَّارِ مِنْهَا، وَوَسْطُ الْقَوْمِ غَيْرُهُمْ؛ فَقَدْ حَصَلَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى وَمِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ، وَالْوَسْطُ بِالتَّسْكِينِ: يُقَالُ فِيمَا كَانَ مُتَفَرِّقَ الْأَجْزَاءِ، غَيْرَ مُتَّصِلٍ؛ كَالنَّاسِ، وَالدَّوَابِّ، فَإِذَا كَانَ مُتَّصِلَ الْأَجْزَاءِ - كَالدَّارِ، وَالرَّأْسِ - فَهُوَ بِالْفَتْحِ، وَكُلُّ مَا يَصْلُحُ فِيهِ "بَيْنَ" فَهُوَ بِالسُّكُونِ، وَمَا لَا يَصْلُحُ فِيهِ "بَيْنَ"، فَهُوَ بِالْفَتْحِ، وَقِيلَ: كُلُّ مِنْهُمَا يَقَعُ مَوْقِعَ الْآخَرِ.

2 - المرقون حول الوسطية، ص: 29، للدكتور الفاضل الحسين أيت سعيد.

3 - الوسطية مفهومًا ودلالة، د. محمد ويلالي، بحث منشور على موقع الألوكة.

4 - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم: 464/2.

وسياتي مزيد بيان لهذا المصطلح إن شاء الله من خلال استقراءه في بعض نصوص القرآن المجيد: أن الوسطية هي استواء واستقامة في المعتقدات والعبادات والمعاملات والأخلاق، وهذا هي مبادئ الدين الإسلامي بالذات، فهو دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق، فلا جفاء فيه ولا غلو.

الوسطية في القرآن الكريم:

وردت مادة وسط في القرآن الكريم في خمس آيات، تدور معانيها حول المعاني اللغوية لهذه المادة، فاستعملها بمعنى:

1- العدل والخيار والتوسط بين الغلو والتقصير:

الآية الأولى: قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} ¹، وقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قد فسر "وسطا" بقوله: "الوسط: العدل" ². قال ابن جرير الطبري: "وأرى أن الله تعالى ذكره: إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غالوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه" ³.

وقال الزمخشري: "وقيل: للخيار: وسط، هي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، وقيل للخيار: وسط؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأغوار والأوساط محمية محوطة، ومنه قول الطائي: "كانت هي الوسط المحمي فا كتفت.. بها الحوادث حتى أصبحت طرفا" أو عدولاً؛ لأن الوسط عدل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض" ⁴، وفسرها بعض أهل العلم بـ "الخيار والأجود". ومنهم ابن كثير في تفسيره، قال: "والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبا ودارا، أي: خيرها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا في قومه، أي: أشرفهم نسبا" ⁵، وقال الزجاج: "وفي {أُمَّةً وَسَطًا} قولان: قال بعضهم: {وَسَطًا}: عدلاً، وقال بعضهم: أخياراً، واللفظان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير، والخير عدل" ⁶.

2- ما بين طرفي الشيء وحافتيه:

1 - البقرة: 142.
2 - أخرجه البخاري في صحيحه، 134/4، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب: {وكذلك جعلناكم..}، رقم الحديث: 3339.
3 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 142/3.
4 - الكشف: 99/1.
5 - تفسير القرآن العظيم: 454/1.
6 - معاني القرآن وإعرابه، 219 /2.

الآية الثانية: قوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} ¹. قال ابن

كثير عند تفسير كلمة "وسطا": "والوسط: الخيار والأجود، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسطاً في قومه؛ أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصَّلَاةُ الوسطى، التي هي أفضل الصَّلوات، وهي العصر" ²، وسميت الوسطى؛ لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ³، وذلك على اختلاف في تحديد أي الصلوات هي؟ والراجح أنها صلاة العصر لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الخندق: "حبسونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، حتى غابت الشمس" ⁴.

3- الشيء بين الجيد والردىء:

الآية الثالثة: قوله تعالى: {فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَفِيَةٍ} ⁵. قال القرطبي: تقدّم في سورة البقرة أن الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا منزلة بين المنزلتين، ونصف بين طرفين، وعن ابن عباس، قال: كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت (هذه الآية)، وهذا يدلّ على أن الوسط ما ذكرناه، وهو ما كان بين شيئين ⁶. قال سيد قطب في الظلال:

و (أوسط) تحتل من (أحسن)، أو من (متوسط)، فكلاهما من معاني اللفظ، وإن كان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد، لأنّ المتوسط هو الأحسن، فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام ⁷.

4 - الأفضل والخيار وهو الأعدل نفس المعنى الذي دلت عليه كلمة "وسطا" في آية البقرة:

الآية الرابعة: قوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَفْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} ⁸. قال ابن عباس وغيره: أي: أعدلهم وخيرهم ⁹، وقال القرطبي: "أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم" ¹⁰، وقال الألوسي: "أحسنهم وأرجحهم عقلاً ورأيًا، أو أوسطهم سنًا" ¹¹. وحسب اطلاعي على كتب التفاسير وجدت كلمة (أوسط) في آية المائدة فسرت بعدة معاني، منها: بين الجيد والردىء،

-
- 1 - سورة البقرة، الآية: 236.
 - 2 - تفسير القرآن العظيم: 647/1.
 - 3 - الدر المنثور للسيوطي: 720 / 1 - 729.
 - 4 - أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، 30/6، كتاب التفسير، سورة البقرة، رقم الحديث: 4533، ومسلم في صحيحه، 437/1، كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم الحديث: 628.
 - 5 - سورة المائدة، الآية: 91.
 - 6 - الجامع لأحكام القرآن: 276/6.
 - 7 - في ظلال القرآن 2 / 971.
 - 8 - سورة القلم، الآية: 28.
 - 9 - تفسير القرآن العظيم: 196/8.
 - 10 - الجامع لأحكام القرآن: 244/18.
 - 11 - روح المعاني: 36/15.

والأفضل، وبين القليل والكثير، أو الشدة والسعة. وأما آية "القلم" فاتفق المفسرون على تفسيرها بمعنى الأفضل والخيار وهو الأعدل.

5- التوسط بين الطرفين، وهو معنى كلمة الوسطى المذكورة في آية البقرة أيضا:

ومن ذلك قوله تعالى: {فَوَسَّطَ بِهِ جَمْعًا}¹، وقال الشوكاني: {فَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَفَلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} أي: توسطن بذلك الوقت، وتوسطن متلبسات بالنفع جمعا من جموع الأعداء، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء، يقال: وسطت المكان، أي: صرت في وسطه²، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "وسطوا الإمام وسدوا الخلل"³.

وبعد ما تتبعنا مفهوم لفظ "الوسط" في الآيات الكريمة نرى أن "الوسطية" في استعمال الشرع لم يخرج بها عن أحد المعاني اللغوية التي دلت عليها مادة "وسط"، والآن يمكن الانتقال إلى الحديث عن مظاهرها في المطلب الآتي:

المطلب الثاني: مظاهر الوسطية في القرآن:

إن الوسطية ليست محصورة في القرآن في جزئية من الجزئيات، وإنما هي منهج متكامل وشامل لقضايا الإسلام، ولذلك كانت هذه الأمة أمة الوسط: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}⁴. والذي يديم النظر في كتاب الله فلا يتلو بضع آيات إلا ويجد فيها ذلك صراحة أو إيماء. وسأتناول الحديث في هذا المطلب عن بعض تجليات ومظاهر الوسطية من خلال الآيات القرآنية التي تتجلى فيها مظاهر ترسم منهج الوسطية، مختارا أبرز الأبواب التي تصلح منطلقا للحديث عن هذا الموضوع، وهذه الأبواب هي الاعتقاد والعبادات والأخلاق والمعاملات والتشريع.

فإن المتأمل فيما جاء في كتاب الله تعالى من دعوات الرسل يجدهم مطبقون على حقيقة واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، وهي أسس الرسالات، والقاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك في الفروع والمناهج، فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يقول لقومه: {يَفْهَمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ}⁵، ابتداء من أولهم نوح عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام، وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى

1 - سورة العاديات، الآية: 5.

2 - فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني: 589 / 5.

3 - رواه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب مقام الإمام من الصف، 1 / 182، ح 681.

4 - سورة البقرة، من الآية: 142.

5 - المومنون: 23، والأعراف: 65، 73.

الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"1. قال الحافظ ابن حجر: "ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع. وقيل المراد: أن أزمنتهم مختلفة"2. وقال الحافظ ابن كثير في معنى الحديث: "أي: القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم؛ لقوله تعالى3: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}4، وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام5. وليبيان وسطية عقيدة الإسلام في القرآن لابد من الإشارة إلى عقائد أهل الكتاب:

اليهود: فإنهم أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير في هذا الباب وفي كل باب، ومن ذلك: عبادة الأصنام6، واتخاذهم العجل في زمن موسى7، وتشبيههم الخالق بالمخلوق ووصفه بالنقائص التي تختص بالمخلوق، ولقد سجل القرآن عليهم صوراً من ذلك: مثل وصفهم الله بالفقر8، وأن يده مغولة9، كما جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء10.

النصارى: لعل الذين قالوا إنا نصارى أضل أمة من الأمم في دينها وربها، حتى صارت الضلالة صفتهم المميزة، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال"11، وبذلك فسر قول الله عز وجل: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}12، وذلك أنهم جعلوا المسيح عليه السلام هو الله، قال الله عز وجل عنهم وأكفرهم بذلك: {لَفَدَّ كَبَرِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}13. وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، يقول الحق تبارك وتعالى عنهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْبَى

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} 6/ 478، رقم الحديث: 3434.

2 - فتح الباري 6/ 489.

3 - تفسير القرآن، العظيم: 183/ 7.

4 - سورة المائدة، الآية: 50.

5 - انظر مثلاً الآيات: 67، 52، من سورة آل عمران، والآيات 128، 132 من سورة البقرة، ومن سورة المائدة: آية 111، والآيات 31، 42، 44، 91، وسورة يونس: آية 84. وسطية أهل السنة بين الفرق (رسالة دكتوراة) لمحمد با كريم محمد با عبد الله، ص: 241-242.

6 - ينظر: الأعراف، الآيات: 138-140.

7 - ينظر: الأعراف، الآية: 138، والبقرة: 56، وطه: 85-88.

8 - ينظر: آل عمران: 181.

9 - المائدة: 64.

10 - انظر: التوبة: 30.

11 - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الفاتحة 5/ 204، رقم الحديث: 2954، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم 2954.

12 - سورة الفاتح، الآية: 7.

13 - سورة المائدة، الآية: 19.

يُوقَفُونَ} ¹، و تارة أخرى قالوا: إن الله ثالث ثلاثة يتكون منها الإله، وكفرهم الله بذلك أيضاً، في قوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ². بل وصفوا المسيح عليه السلام بأخص صفات الألوهية والربوبية "من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة؛ وبذلك فارقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُفَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمَى} ³، ولم يضيفوا إليها شيئاً من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك ⁴. أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن: المسيح، فهو عندهم الإله الخالق الرازق المحيي المميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا: "وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة "هكذا" بنبي ولا عبد صالح؛ بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة" ⁵، ونقل عنهم أنهم يقولون في صلواتهم ومناجاتهم: "أنت أيها المسيح اليسوع تحيينا وترزقنا وتخلق أولادنا وتقيم أجسادنا وتبعثنا" ⁶.

وهكذا يصف النصارى المسيح -عليه السلام- بصفات الربوبية المختصة برب العالمين، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكما جرؤوا على تأليه عيسى -عليه السلام-، جرؤوا على تأليه أمه مريم -عليها السلام- كما ورد في القرآن في قوله مخاطباً عيسى عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَآنتَ فُلْتُ لِلنَّاسِ ٱتِّخِذُونِي وَءِٔمَّتِي إِلٰهَينِ مِّن دُونِ إِلٰهٍ ؕ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٓ بِحَقٍّ ۖ إِن كُنتُ فُلْتُهُٖ بِفَقْدِ عِلْمَتِهِٗ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} ⁷، ومن ضلالتهم أنهم يقولون: اتخذ الله ولداً، وقد نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد في غير ما آية، وبين أن الولد لا يكون إلا من صاحبة، وهو سبحانه لا صاحبة له، فقال عز وجل: {بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ اٰبْنُ يَكُوْنُ لَهُٗ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُٗ صٰحِبَةً ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ} ⁸. قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية: "أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما

1 - سورة التوبة، الآية: 30.

2 - سورة المائدة، الآية: 75.

3 - سورة الزمر، الآية: 3.

4 - ينظر: سورة يونس: آية 31، وسورة العنكبوت: آية 61، وسورة العنكبوت أيضاً: آية 63، وسورة لقمان: آية 4.25.

- هداية الحيارى لابن القيم، ص: 269.

6 - نفس المصدر، ص: 270.

7 - سورة التوبة، الآية: 118.

8 - سورة الأنعام، الآية: 102.

يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبه له ولا ولد¹، ومن نسب إليه سبحانه الولد فقد كذبه وشتمه، كما في الحديث القدسي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: "قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً"².

المسلمون:

أما الأمة المسلمة فعقيدها هي ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة. فقد وصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات³؛ مصداقاً لقوله تعالى عن نفسه في سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ⁴، وقوله سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ⁵، ولذلك وصف الله المؤمنين بأنهم وسط، قال أبوجعفر الطبري: "وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط - يعني في قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً} - لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلو بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه. ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبيائهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"⁶. ومن أراد بيان الوسط في عقيدة أهل السنة والجماعة يرجع إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية، وهاك بعضه هنا، حيث قال: "إن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك (أي بما أخبر به رسول الله عن ربه) كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسط في باب صفات الله - تعالى - بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم. وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم. وفي باب أسماء الإيمان

1 - تفسير القرآن العظيم 3/ 302.

2 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ} 8/ 168، رقم الحديث: 4482. ورواه من حديث أبي هريرة في باب {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} 8/ 739، رقم الحديث: 4974. وانظر: تعليق مصطفى البغا على هذا الحديث: (كذبني) نسب إلي ما هو خلاف الحقيقة والواقع. (شتمني) وصفني بما لا يليق بي (فسبحاني) أنزه نفسي. (صاحبة) زوجة.

3 - منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية: 5/ 169.

4 - انظر أيضاً: سورة المؤمنون، الآية: 91. وسورة الجن، الآية: 3.

5 - سورة الشورى، الآية: 9.

6 - تفسير الطبري، 3/ 142.

والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله بين الرافضة والخارج¹.

وفي آيات بعينها نجد تلك الوسطية في العقيدة، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}²، وقال سبحانه: {فَلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}³، وقال عز من قائل: {فَلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}⁴.

إن سورة الفاتحة من أولها إلى آخرها تقرر الوسطية في المنهج القرآني ولكن أبرز آية فيها ناطقة بذلك هي قوله تعالى: {إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ⁵، ومما يبين أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، أن الله وصفه بقوله: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}⁶، فمنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، ومنهج الضالين يمثل الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء. قال ابن كثير: "غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة، لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـ"لا" ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى⁷.

فبما أننا أمة وسط مأمورون بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم، لأنه هو الصراط المستقيم، وهو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين، وهما طريقا اليهود والنصارى، وينضاف إليهما كل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم.

1 - العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة لابن تيمية، ص: 82.

2 - سورة النساء، الآية: 170.

3 - سورة المائدة، الآية: 79.

4 - سورة آل عمران، الآية: 63.

5 - سورة الفاتحة، الآية: 5 - 6.

6 - الفاتحة: 7.

7 - تفسير القرآن العظيم: 1/ 140.

الوسطية في العبادات:

إن شريعة الإسلام في مجال العبادات والمعاملات تتسم بالوسطية، فهي بين الإفراط والتفريط، والغلو والتهاون، وما الشواهد المتضافرة في القرآن وكذلك السنة على تقرير الوسطية إلا مظاهر تقرر أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل عصر ومصر. إن العبادات الإسلامية كلها من الصلاة والصوم والزكاة والحج تبدو للمكلف المنصف في أدائها قليلة المشقة والكلفة على النفس والجسد، وفي قيمتها عظيمة الأهمية في الدنيا والآخرة. وحين تزيد المشقة في العبادة أو المعاملة، تأتي آيات التخفيف والتيسير:

- في الصلاة في السفر والحرب، قال الله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكُفَّيرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا} وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} ¹.

- في الصوم في المرض والسفر، قال الله: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} ².

- في الإنفاق، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُفْتِرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَوَاقًا} ³، {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} ⁴.

- في الحج، قال سبحانه: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَّأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسُكٌ فَإِذَا أَقَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} ¹.

1 - سورة النساء، الآيتان: 100 - 101.

2 - سورة البقرة، الآية: 184.

3 - سورة الفرقان، الآية: 67.

4 - سورة الإسراء، الآية: 29.

وكانت قصة نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم النفر الثلاثة من أصحابه عن الغلو في العبادة مشهورة، وقد صحح النبي صلى الله عليه وسلم فهمهم الخاطئ ودلهم على منهج وسطية العبادة في الإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"².

وسطية الإسلام في الأخلاق والمعاملات:

ما مدح نبينا محمد عليه الصلاة والسلام بصفة الخلق والرحمة، إلا لتمييز الأخلاق في شريعتنا بالوسط والسماحة والتخفيف واليسر، وترك الغلظة والاستكبار، والتشدد والتنطع، فقال الله تعالى عنه: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُوفٍ عَظِيمٍ}³، وقال سبحانه مادحا رسالته ومهامه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}⁴، وقال جل وعلا: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلَبِ لَانْبَقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}⁵، ومن وصايا لقمان لابنه كما ذكر الله عز وجل: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلَبِ لَانْبَقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}⁶. قال ابن كثير في تفسيرها: قال ابن عباس: "لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك"⁷.

ثم إن المعاملة قرينة الأخلاق، وذلك أن معاملة الإنسان نتاج طبيعي لأخلاقه. والأخلاق هي الجانب السلوكي التطبيقي في المعاملات بين الناس. وبما في هذه الشريعة الإسلامية من أحكام معتدلة ومثل عالية ومبادئ قيمة تتلاءم مع ما يجب أن تكون عليه طبيعة الإنسان، ومع كل ما من شأنه أن يجعل هذه الأمة متوسطة خيرة مستقيمة على الصراط السوي، لامغالة لها في شيء من الأشياء، ولا جفاء لها في أمر من الأمور، -تصبح الأمة الإسلامية بذلك أمة قد مرنت على طابع الاعتدال، ولها أهلية لأن تكون أمة القيادة للبشرية، وأن تكون أحكامها ومبادئها هي الفيصل عند الاختلاف. وهذا منهج رسمه القرآن المجيد في كل آية لأن يكون عماد هذا الجانب أيضا الوسطية والاعتدال في البذل والإنفاق، وفي البيوع والتقاضي، وفي

1 - سورة البقرة، الآية: 165.
2 - أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، 2/ 7، رقم الحديث: (5063)) ومسلم في صحيحه: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه، 1020/2، رقم الحديث: 1401.
3 - سورة القلم، الآية: 4.
4 - سورة الأنبياء، الآية: 106.
5 - سورة البقرة، الآية: 159.
6 - سورة لقمان، الآية: 117 - 118.
7 - تفسير القرآن العظيم: 338/6.

القضاء والاقتضاء، وفي سائر الأمور، لهذا المعنى كانت الأمة الخاتمة خير الأمم لوسطيتها، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} ¹.

وهاكم بعض الآيات التي ترسم مظاهر الوسطية في الأخلاق والمعاملة، قال تعالى: {خُذِ الْعَقْبَ وَامْرُءًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} ²، وقال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ³، وقال - جل وعلا - واصفا عباد الرحمن وما هم عليه من خلق رفيع، ومعاملة حسنة: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ⁴، ثم قال: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} ⁵.

ومن مظاهر وسطية الأخلاق والمعاملة تمالك النفس عند الغضب، فقال سبحانه: {إِذْ بَغِىَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} ⁶، وقال في سورة فصلت: {وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ إِذْ بَغِىَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} ⁷.

ومنها ما أمر الله به الزوج عندما يطلق زوجته طلاقا رجعيًا، حيث قال: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} ⁸.

ومنها لزوم الوسط في الكيل والميزان، وقد شنع الله على أولئك الذين حادوا على هذا المنهج فقال: {وَيْلٌ لِّلْمُطَّيِّبِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} ¹.

- 1 - سورة البقرة، الآية: 142.
- 2 - سورة الأعراف، الآية: 199.
- 3 - سورة الشعراء، الآية: 214.
- 4 - سورة الفرقان، الآية: 206.
- 5 - الفرقان: 72.
- 6 - سورة المؤمنون، الآية: 97.
- 7 - سورة فصلت، الآية: 33.
- 8 - سورة البقرة، الآية: 229.

وخلاصة الأمر: أنه يمكن الاستدلال فيه بكل الآيات التي تبين ما يجب أن يكون عليه المسلم من حسن في الخلق وصدق في المعاملة، بعيداً عن الخلق الذميم، سواء كان إفراطاً أو تفريطاً، وكذلك الآيات التي تنهى عن الأخلاق الممقوتة التي لا يقرها الشرع لمخالفتها للمنهج الوسط والطريق السوي، والآيات التي تدل على رفع الحرج في هذه الأمة. قال الشاطبي²: إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع، أي اليقين، وقد سمى الله هذا الدين الحنيفية السمحة، لما فيه من التسهيل والتيسير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث تضمن خطاباً عاماً للصحابة الكرام: "يسرّوا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"³.

وهذا ما أدى بعلمائنا الأجلاء إلى استنباط القواعد الفقهية والأصولية من تشريعات الإسلام مثل قولهم: "الضرورات تبيح المحظورات"، و"الضرورة تقدر بقدرها"، وغيرها من القواعد التي تنبئ بعظمة بأن هذا الدين دين الوسطية والاعتدال. قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّفَوْمٍ يُوفُونَ}⁴.

الوسطية في الأحكام الشرعية:

إن الشرع الإسلامي وسط في أحكامه وأنظمتها القانونية والاجتماعية، وبما في ذلك المجالات الأسرية والمدنية والجنائية والدولية، من ذلك: أنه وسط في التحليل والتحرير بين اليهودية التي بالغت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات. وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يأت لينقض ناموس التوراة، بل ليكملها⁵. فالإسلام كذلك أحلّ وحرّم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق أحد من البشر كائناً من كان، بل من حق الله الواحد الأحد، ولا يُحلّ إلا الطيب النافع كما لم يُحرّم إلا الخبيث الضار، ولهذا قال الله تعالى في أوصاف الرسول - عليه الصلاة والسلام - كما وصف عند أهل الكتاب: أنه: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}⁶، ومن ذلك:

أنه وسط في شؤون الأسرة، فهو في الزواج وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير قيد ولا عدد، وبين الذين رفضوه ولو فرضته الضرورة والحاجة. واقتضته المصلحة. فقد شرع

1 - سورة المطففين، آيات: 1 - 3.

2 - الموافقات: 1 / 520.

3 - أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، (8 / 30) برقم: (6125) ومسلم في "صحيحه"، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، (5 / 141) برقم: 1734.

4 - سورة المائدة، الآية: 52.

5 - إنجيل متى 17/5.

6 - سورة الأعراف، الآية: 157.

الإسلام تعدد الزوجات بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق والعدل في النفقة والمبيت بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل في ذلك لزمه الاقتصار على واحدة، كما قال تعالى: {بِإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً¹}.
وهو في الطلاق وسط بين الذين حرّموا الطلاق ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق "كالكاثوليك.." وبين الذين تساهلوا في أمر الطلاق، فمن طلب الطلاق رجلا كان أو امرأة فله ذلك بدون قيد ولا شرط، فسهل بذلك هدم الحياة الزوجية بأدنى سبب.

أما الشرع الإسلامي فقد شرع الطلاق عند ما تستحيل الحياة الزوجية وتفشل كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح، ومع هذا فقد أعطى الفرصة للمُطلق مرة أو مرتين أن يراجع مطلقته ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد². والشرع الإسلامي - أيضا - في نظامه الاجتماعي وسط بين نظام الاشتراكيين أو الماركسيين الذين يبالغون في حقوق المجتمع ودوره على حساب حقوق الفرد ونوازع الذاتية وحريته، وبين الليبراليين أو الرأسماليين الذين يعطون للفرد الحريات المفرطة من غير ضوابط أو آداب على حساب المجتمع أو الجماعة الإنسانية³.

وأما الوسطية في جانب الفكر الإسلامي فإنها تعد من خصائص الإسلام، لأن الشريعة اليهودية غلب عليها طابع المادة الخالصة، والشريعة النصرانية غلب عليها طابع المادة الروحية، وجاءت الشريعة الإسلامية وسطاً تأخذ من جانب المادة، وتأخذ من جانب الروح، وتوازن بينهما، ومن هنا كانت وسطية الإسلام هي التي ضاعفت علاقة الدين بالدنيا، والدنيا بالآخرة، والروح بالمادة، والذات بالموضوع، فجمعت الشريعة الإسلامية بمضاعفة هذه العلاقات بين الحسنيين، فخالفت رهبة النصرانية، وقد نهى القرآن عن الترهّب منددا برهبانية بعض النصارى، فقال الله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِفُونَ⁴}. كما خالفت مادية اليهودية المنغلقة التي لا تسمح للآخرين

بالانتماء إليها، يعتقد أهلها أنهم هو الشعب الحامل للرسالة، وليس لغيرهم الحق في ذلك، قال الدكتور محمد طالب مدلول في كتابه "موقف القرآن الكريم من الفكر المادي": "ولما دخل التحريف على الديانة اليهودية فإنها حملت مفاهيم المادة الخالصة، أما النصرانية فقد غلبت

1 - سورة النساء، الآية: 3.

2 - انظر أصل هذا الكلام في: الخصائص العامة للإسلام. د يوسف القرضاوي، ص: 133 وما بعدها، وانظر له أيضا: الوسطية ودور الإعلام في إبرازها.

3 - المصدر السابق.

4 - سورة الحديد، الآية: 26.

عليها مفاهيم المادة الروحية، ثم جاء الإسلام الحنيف فجمع بين المادة والروح"1؛ ولهذا رغبتنا القرآن الكريم في الجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وذلك بأن نأخذ من متطلبات الحياة الدنيوية بقدر ما نحقق به مقاصد الخلق الإلهي من تعميرها وتقديمها وتحضرها وجعلها جسراً للآخرة. وأن نستعد بالإيمان والعمل الصالح للآخرة دار الخلود. قال الله تعالى في قصة قارون: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}2.

وقد أثار أعداء الإسلام شبهات حول المادية والروحية في الإسلام، فهذا فريق يتهم ديننا بأنه دعوة روحية بعيدة عن مطالب الحياة المادية والواقعية، وهذا ما ينعق به الوجوديون. وفريق آخر يتهم الإسلام بأنه مادي مفرط في المادية، بعيد عن السمو الروحي الذي ينبغي أن يرقى إليه الإنسان، وهذا ما يهرف به المبشرون وأنصارهم. والإسلام في حقيقة نظامه وتشريعاته وأحكامه بريء مما يقول عنه هؤلاء وما يقوله عنه أولئك. إن الإسلام متكامل الجوانب الفكرية والنفسية والروحية والمادية، ويعطي كل عنصر من هذه العناصر حقه. وبذلك يتم التطابق المثالي بين عناصر هذا الكائن الإنساني، والتطابق العجيب بين عناصر الإسلام وعناصر الإنسان الذي يبدو فيه الإسلام مفصلاً تفصيلاً رائعاً على مقدار خصائص الإنسان الفكرية والروحية والجسدية، هو الذي جعل من الإسلام صورة فذة في الوجود، وهو الدليل المادي المستمر الذي يدل على أن الإسلام شريعة ربانية منزلة من عند الله³. وحتى علماء الغرب صدرت منهم شهادات حول وسطية الشريعة الإسلامية⁴، نذكر منها على سبيل المثال:

تتحدث الباحثة ماري أوليفر⁵ عن مظهر التيسير باعتباره مظهراً من مظاهر الوسيطة لنبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم -، فتبين أن الشريعة الإسلامية التي نادى بها محمد - صلى الله عليه وسلم - هي تشريعات "بسيطة سهلة يستطيع كل إنسان أن يفهمها بكل يسر. فالإسلام يؤكد في تعاليمه أن على الناس أن يفكروا وأن يستخدموا عقولهم في الأمور الدينية"⁶. كذلك يبين جورج سارتون أن الشريعة الإسلامية تمتاز بـ «السماحة والبساطة والاعتدال» وهي - على حد قوله "يسر لأي إنسان في أي موطن"⁷.

وبين - آتين دينيه - أن الشرع الإسلامي لا يتعارض ولا يتصادم مع الطبيعة، لأنه شرع يسير، فهو "يسائر قوانينها أي الطبيعة ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة، مثل ذلك الغرض الذي تفرضه على أبنائها

1 - موقف القرآن الكريم من الفكر المادي للدكتور محمد طالب مدلول، ص: 272.

2 - سورة القصص، الآية: 77.

3 - أجنحة المكر الثلاثة (التبشير - الاستشراق - الاستعمار): عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: 498-499.

4 - انظر: مظاهر الوسيطة في التشريع الإسلامي: محمد مسعد ياقوت، بحث مصدره: المكتبة الشاملة الذهبية.

5 - ماري أوليفر: باحثة نصرانية درست البوذية والهندوسية، و انتهى بها المطاف إلى الإسلام، حيث اعتنقته مؤمنة بأنه الدين الوحيد الذي يستجيب لمطالب الإنسان.

6 - رجال ونساء أسلموا: عرفات كامل العشي: ، 4 / 144 - 145.

7 - جورج سارتون : الشرق الأدنى : مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 140.

الذين يتخذون الرهينة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء. على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها، وإنما هو يُدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح، ونظام، ورضاً ميسور مشكور، حتى لقد سمي القرآن لذلك بالهدى لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة. والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكننا نأخذ بأشهرها، وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات"¹.

فالحديث عن مظاهر الوسطية في القرآن حديث ذو شجون، لأن الوسطية هي سمة بارزة من سمات الشرائع التي أتى بها القرآن وكذلك السنة، فهي متغلغلة في جميع أبواب شرائع الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات وأحكام، وعلاقات وسياسات... إلخ، وأنا في مقام لا يتسع إلا لقدر ما تتضح به خاصية الوسطية في منهج القرآن المجيد.

كما أن صفة الوسطية من خصائص منهج السنة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فهي تزخر بكثير من النماذج الدالة على ذلك فقد ثبت عن أمنا عائشة - رضي الله عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم - "ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً"²، وقد سار على هذا المنهج من بعده خلفاؤه الراشدون، فأكملوا المسيرة ونشروا السنة، فدخل الناس في دين الله أفواجا لما لمسوا من سماحة ووسطية هذا الدين المتمثل في أخلاق ومعاملات أتباعه فيما بينهم وبين الآخرين.

ونحن إذا أردنا اللحاق بهذا الركب المبارك المرضي عنه لا بد من ضرورة جعل صفة الوسطية بمفهومها الصحيح الميزان العادل، والمعيار السائد في أنماط ومستجدات حياتنا، ومناهج أفكارنا، وأساليب تعايشنا، وتباين علاقاتنا، وكل ما من شأنه أن يضعنا في إطارنا العام، وهو الإسلام بما يحويه من الأخلاق المستوحاة من قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}³. وهذه الغاية السامية، النبيلة السامقة لا يمكن أن تؤتي أكلها بيننا إلا إذا

استوت على سوقها كما استوت عليه في طليعة هذه الأمة وجهابذتها ورواد فكرها الذين فهموا الإسلام الفهم الصحيح، وعملوا له على أساس عظمتهم ووسطيته وشموليته واعتداله. واستواء سوقها يكون بجهود مخلصة ومتكاملة لأداء كل واحد منا المسؤولية الملقاة على عاتقه، والأمانة التي تحملها على أكمل وجه وأعدله، كما يكون بعمل متزن وجاد على أسلمة العصر بوعي وفهم واقتدار، لا على عصرنة الإسلام بتفريط وتخلف وانحلال - إن صح هذا التعبير -، فالوسطية هي التي تجعل الميزان يؤدي وظيفته بنزاهة وإتقان وتستوي كفتاه بأمان، وأما الإفراط والغلو فلا يمكن بحال أن يشكل ميزاناً عادلاً، كما أن التفريط والتقصير لا يمكن أن يكونا

1 - أشعة خاصة بنور الإسلام، آتئين دينيه، ص 31.

2 - متفق عليه، أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله، 6/ 2491، الحديث رقم: 6404، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباحثته للأثام، 7/ 80، الحديث رقم: 6193.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 106.

معياراً صادقاً. قال أبوسليمان الخطابي: ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد *** كلا طرفي
قصد الأمور ذميم

بعد ذكر هذه المظاهر اتضح أن الوسطية هي السمة البارزة في جميع أبواب شرائع الإسلام التي أتى بها القرآن والسنة الشريفة، ومن خلالها أستجلى بعض معالم منهج الوسطية التي أود بيانها فيما يلي

المطلب الثالث: منهج الوسطية في القرآن:

من سنن الله الكونية أن تعيش الأمة في واقعها على اختلاف في المشارب وفي المنطلقات والغايات: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ} ¹. ولكن الذي يقض المضاجع، ويؤلم الضمائر، أن ترى بعض من الدعاة ممن يبحث عن طريق العلاج ومعرفة أسباب النجاة قد أثر واقع الأمة المرير على وضعهم: فمنهم من شرّق، ومنهم من غرّب، ومما يزيد الطين بلة أن ترى بين هؤلاء الدعاة فريقاً غالى وأفرط وعادت أفكار الخوارج القديمة، وفريقاً فرط وجفا وعادت أفكار المرجئة. وأعجب من هذا وذاك أن كل فريق منهم حرص على جمع الناس على الحق حسب نيته، ولكن دون تركيتهم وتعليمهم الكتاب والسنة، فضاعت معالم أصول الدين والعقيدة، واختفت معالم السلوك وحقيقة العبادة، ومن مشيئة الله إتماماً لنوره أن تقف دائماً فئة بين هؤلاء وأولئك تقتفي الأثر، وتصحح المنهج، وتقود الناس إلى منهج أهل السنة والجماعة، من صالحى سلف وخلف الأمة، مصداقاً لقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" ²، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس" ³؛ ولهذا اشتدت الحاجة أكثر ولا تزال تشتد وسط هذا الاضطراب في المنهج الفكري النقدي إلى إرشاد الأمة إلى ما ينقذها من دعاوى المرجفين الزائفين، وتفريط الكسالى والمرجئيين، وهو ضرورة التزام منهج الوسطية في فكرهم الذي هو السبيل الوحيد لإنقاذ هذه الأمة من مصائد المغرضين، ومصائب المنحرفين، ولجعل الحياة البشرية مزدانة بأوصاف الخير والاعتدال أو الاتزان في معالجة مشكلات الحياة.

إن القرآن الكريم يقرر منهج الوسطية في جميع جوانبه عقيدة وعبادة وخلقاً وعملاً. وفي أساليب متنوعة تصريحاً وتلميحاً، تفصيلاً وإجمالاً، وأنه وسط بين الغلو والإفراط، والتقصير والتفريط، وهو الأصل الذي ترجع إليه معاني الوسطية في هذا القرآن العظيم، وسأتناول هذا

1 - سورة هود، الآية: 118.

2 - رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الرجل من أهل الفقه يسال عن الرجل، 94/12، برقم: 20952، وصححه الألباني في المشكاة، 82/1.

3 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب: عنوانه هذا الحديث، 1545/3، رقم الحديث: 1037.

المنهج القرآني في الجانب الذي يحتاج إليه الداعية والمفكر الإسلامي في كتاباته ونقاشاته، وأقول مستعينا بالله:

إن منهج الوسطية هو أعدل المناهج في كل ما يخدم الدعوة إلى سبيل الله، وفي الحفاظ على توازن المجتمعات في أفكارها وتماسكها، لا بد أن نستشعر أولاً أن الوسطية في قضايا هذا الدين فضل ومنة من الله على هذه الأمة، وأن هذه الوسطية جانب من المنهاج الإسلامي الكامل. وقد وردت كيفية القيام بهذا الجانب المنهجي واضحة في النصوص القرآنية، وكذلك السنة النبوية، ويمكن أن نحدد بعض الملامح المهمة في هذا المنهاج الوسطي من خلال تتبعها في القرآن المجيد:

1 - ومن هذه الملامح المنهجية أن يكون المسلم في فكره منفتحاً على جميع الأطراف التي تحيط به كما يحاط الوسط بأطرافه، بأن لا يقتصر بفكره في الدعوة أو الكتابة على جنس بذاته، أو مكان بعينه بهدف هداية الله للإنسان، إذ دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - موجهة إلى الناس كافة، قال الله تعالى: {فَلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} ¹. وهذا المنهج مما يدل على أنه جانب من التشريع الإلهي، يجب أن يستهدف كل الناس مسلمين وغيرهم، فالمسلم يحتاج إليه في تنمية المعارف، أو تزكية النفس، وغير المسلم تقام به عليه الحجة، وتطلب به لهم الهداية.

2- ملمح منهجي آخر تقتضيه الوسطية، وهو منع الإكراه في الدين، بأن لا يلزم المسلم أحداً بفكره، فإن الحرية الاعتقادية متروكة لكل إنسان في شريعة القرآن، ولكن ليس المقصود إقرار الضالين على ضلالهم والكافرين على كفرهم، وإنما المقصود ترك كل محاولات الإجبار أو الإكراه على تغيير المعتقد أو المذهب، لأن ذلك لا يجدي ولا ينفع، فإنه سرعان ما يزول ظرف الإكراه ويعود الإنسان إلى ما كان عليه، ولأن هداية الناس بيد الله سبحانه، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ²، وإنما مهمة الدعاة التبليغ والبيان، قال الله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ³. فهذا منهج وسطي قرره القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ فَدَّتَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَّكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا

1 - سورة الأعراف، الآية: 158، انظر: الأنبياء: 106، وسبأ: 28.

2 - سورة القصص، الآية: 56.

3 - سورة التغابن، الآية: 12.

إِنْصَبَّامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ¹، والآية محكمة، ومعناها متقرر شرعاً دائماً كما صرح بذلك أغلب المفسرين، ومنهم الطبري² - رحمه الله - قال في نهاية تأويله لهذه الآية: "فتأويل الكلام إذا: قد وضع الحق من الباطل، واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه، فتميز من الضلالة والغواية، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ومن أبيحت لكم أخذ الجزية منه على دينكم دين الحق؛ فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانت له، فإلى ربه أمره، وهو ولي عقوبته في معاده"³. ويؤكد هذا المعنى آية أخرى: {بِمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ}⁴. قال الطاهر بن عاشور: "والأمر في قوله: {فليؤمن}، وقوله: {فليكفر} للتسوية المكنى بها عن الوعد والوعيد"⁵، بمعنى أن الأمر هنا ليس للتخير، وإنما هو للتهديد واللوم بالنسبة لمن رد الأدلة القاطعة الدالة على أحقية الإسلام بالاتباع، قال الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي: "ومع ذلك فإن المصلحة في هذا التهديد إنما هي للإنسان، ولكن دون مصادمة حريته. هذا، ولم يثبت في تاريخ الإسلام أن المسلمين مارسوا الإكراه على الدين مع غير المسلمين، كما صرح أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"⁶. إذن، فما على العارض إلا أن يبذل جهده ويحسن العرض، فإذا فعل ذلك فقد قام بالواجب وأدى الأمانة. والتوفيق من الله. وقال سبحانه في حق الرسول صلوات الله عليه وسلامه: {لَعَلَّكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}⁷، وقال جل ذكره: {أَقَانَتْ تُكْرِهِ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}⁸. واليسر ورفع الحرج ملمح من ملامح الوسطية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"⁹.

قال الحافظ: "سمي الدين يسراً مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله؛ لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم"¹⁰، وقال: "والمشادة بالتشديد: المبالغة، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متتبع في الدين ينقطع، وليس

1 - سورة البقرة، الآية: 255.
2 - جامع البيان لأحكام القرآن: 454/4.
3 - المصدر السابق: 455/4.
4 - سورة الكهف، الآية: 29.
5 - التحرير والتنوير: 307/15.
6 - وسطية الإسلام وسماحته، ل د وهبة بن مصطفى الزحيلي، بحث عدد صفحاته 39، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
7 - سورة الشعراء، الآية: 2.
8 - سورة يونس، الآية: 99.
9 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، 16/1، رقم الحديث: 39.
10 - فتح الباري لابن حجر، 93/1.

المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة أو التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته¹.

3 - مراعاة أحوال المخاطب في جانب الأمر والنهي والتصويب والتسديد، فإنها تختلف من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، فقد يكون المستهدف بالخطاب قابلاً للحق إذا عرفه، وقد يكون مشغولاً عن الحق بضده، لكن لو عرفه اتبعه، وقد يكون معارضاً معانداً. والسبب في هذا تفاوت المدارك والثقافات والنزعات، فيكون دين الإسلام لا ينكر هذا التفاوت، ولذا أرسى القرآن الكريم معالم هذا المنهج الوسطي الذي يضمن طريقة إنقاذ ونجاة لأصناف المخاطبين، وحددها في ثلاث وسائل المفيدة للنقاش الهادئ في قوله سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}². هذه الآية الكريمة

ترسم منهج الدعوة إلى وسط لا تهاون فيه ولا تفريط، ولا إكراه ولا تشديد، دعوة تقوم على الحكمة. قال الجرجاني في التعريفات: قيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، وقيل: الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو³. ونقل ابن كثير في تفسيره⁴ عن إبراهيم النخعي قوله: الحكمة: الفهم. وقال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله. وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي⁵: "الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، ثم قال: وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام." وجماع الحكمة في قول ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين⁶: "فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي". ونخلص مما ذكر أن الحكمة هي جماع العلم والمعرفة، من عناصرها سعة الإدراك وعمق الوعي، والفتنة وحسن الفهم، والتنبه والاعتدال والقصد. وبعد الحكمة تأتي الموعظة الحسنة، وهذا من قبيل ارتباط المنهج - وهو الحكمة - بالمضمون وهو الموعظة الحسنة. وليست أية موعظة، بأية طريقة من الطرق، ولا على أي نحو من الأنحاء، ولكنها موعظة حسنة مع لين في القول وتدرج في التذكير بالأوامر والنواهي ترغيباً وترهيباً.

وفي المنهج القرآني يلي في النصح الحكمة والموعظة الحسنة الجدل بالوجه الحسن، وهو أن يكون برفق ولين وحسن خطاب، فإن للجدال صوراً متعددة، والضابط في هذا: أن كل جدال بعلم، وأسلوب حسن ابتغاء معرفة الحق، وسلوك سبيل الهداية، فهو جدال محمود، فإن

1 - المصدر السابق: 94/1.

2 - النحل: 125.

3 - التعريفات، ص: 91.

4 - 100/1.

5 - في تفسيره "تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان" ص: 115.

6 - 149/2.

سقط أحد هذه الشروط صار مذموماً، مثل: أن يكون دفاعاً عن خطأ¹، أو عن باطل²، وأن يكون بغير علم³، وأن يكون في الشبهات، أو مما يثير الفتنة، أو فيما لا طائل وراءه⁴، كما أمر الله بذلك موسى وهارون - عليهما السلام - حين أرسلهما إلى الطاغية المتأله فرعون في قوله تعالى: {قِفْؤلاً لَهُ، فَوَلاً لِّيناً لِّلَّهِ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} ⁵. يقول الإمام ابن قيم الجوزية في تفسير الآية السابقة: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشغلا بضد الحق، ولكن لو عرفه أثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معاندا معارضا فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق، وإلا انتقل معه من الجدل إلى الجلال إن أمكن⁶. فكل داعية أو مناظر ينتهج هذه الخطوات التي رسمها القرآن، فلا شك أنه سيستميل بها أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والذين تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق. وإلا فعلى الأقل ينكف بها شرهم، ويتبين للناس ما معهم من الباطل. فالحال معهم في هذه المناظرة بهذا الشكل الرباني كمن أدخل يده في إناء فيه لبن وسمن، فإن لم يظفر بالسمن ظفر باللبن⁷. يقول ابن القيم: "فلمناظرة المبطل فائدتان: إحداهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق. الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل. وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرتة للطوائف، فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه. وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج، وهي طريقة أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات، فهي أقرب شيء تتاولا، وأوضح دلالة، وأقوى برهانا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك"⁸.

4 - ومن المنهج الوسط في هذا الجانب، وهو المنهج الحق، استخدام اللين تارة، والإغلاظ تارة أخرى، كل واحد منهما في محله، كما يتعين السكوت مرة، والكلام مرة أخرى، كل واحد منهما في موضعه. وتصوير ذلك أن لا يتكلم في مقام يجب فيه السكوت، وأن لا يلين القول فيما لا يجدي فيه إلا الشدة والغلظة، وهكذا. ولصعوبة التفصيل في هذا الأمر، فسأقتصر على ذكر بعض الآيات التي تبين هذا المنهج القويم الذي قد يخفى على كثير منا،

1- انظر: الآية: 107 في النساء.

2 - انظر: الآية: 56 في الكهف

3 - انظر: الآية: 03 في الحج.

4 - انظر الآية: 07 في آل عمران.

5 - سورة طه، الآية: 43.

6 - الصواعق المرسلة: 1275/4-1276.

7 - مثل أمازيغي ترجمته بالعربية.

8 - المصدر السابق، 1276/4.

قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} ¹.

ويبين هذا المنهج من خلال هذه الآية ما قاله القرطبي في تفسيره: "قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الله عز وجل فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية" ²، وقال ابن الفرس في تفسيره: "وحكمها أبداً محكم. فمتى خاف المسلم إن يسب دين الكفار وأن يسب الكافر الله عز وجل أو النبي صلى الله عليه وسلم أو الإسلام وأهله لم يجز له أن يسب دينهم ولا شيئاً من صلبانهم ولا أن يتعرض إلى ما يدعو إلى ذلك. وفي هذه الآية ما يدل على القول بسد الذرائع" ³، وقال الرازي: "وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تتفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها" ⁴.

ويفهم من هذه التفسيرات المذكورة للآية السابقة أنه لا بد في هذا المنهج من مراعاة الانتماء الطائفي أو الحزبي للمخاطبين، وذلك أن نقد أفكار الطرف الآخر والاعتراض على آرائه بشكل مباشر يؤدي غالباً إلى حدة المزاج وظهور العناد، و يتشكّل من ذلك موقف صلب لا تجدي معه عمليات الإقناع أياً كانت، فمن حنكة الناقد أو الداعي تجنباً للوصول إلى هذه المرحلة الدخول في عملية إقناع الطرف الآخر بخطاب لين لا يتصادم مع ما يحمله الطرف الآخر من أفكار وآراء خاصة، ويبدأ في الحديث عن الجانب الإيجابي، مثل الأمور المتوافق عليها بين الطرفين، تجنباً لإحداث موقف معارض، وطمعاً في الوصول إلى خطاب مثمر للتأثير والاقتراع، وهذا يدل على أنه لا يكفي في الإقناع الجانب العقلي المعرفي فقط، بل لا بد من إحداث الخبرات والانطباعات السارة المصاحبة لما يراد به إقناع الطرف الآخر، وهو ما يسمى بالاستثارة العاطفية، (الإقناع العاطفي)، وعلى الأقلّ التقليل من الخبرات والانطباعات السيئة التي قد تؤثر في سير البيان الخطابي أو تعرقل الوصول إلى النتائج المرجوة، هناك كلام يذكر عند طائفة لفهمهم له، وإمكان قبوله وتأثيره فيهم، ولا يُذكر نفس الكلام عند طائفة أخرى لسوء فهمهم كأن يفهموا منه تأييدهم، أو استغلالهم هذا الكلام واتخاذهم ذريعة لباطلهم، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَفُولُوا رَاعِنَا وَفُولُوا ۖ نَظُرْنَا وَاسْمَعُوا

1 - سورة الأنعام، الآية: 109.
2 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 61/7.
3 - أحكام القرآن: 15/3.
4 - مفاتيح الغيب: 110/13.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ¹. نهى الله تعالى عن استعمال هذه الكلمة خشية أن يفهم أن المسلمين يريدون بها ما يريده اليهود من الرعونة والغلظة.

- كما أن الوسطية في المنهج الدعوي مسألة نسبية تختلف باختلاف الظروف والملابسات المحيطة بها، فلا يجب أن يكون هذا الأمر دائما بإلانة القول، وخفض الجانب، عملا بقوله تعالى: {قِفْؤلَا لَهُ، قِفْؤلَا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}²، كما لا ينبغي أن يكون دائما بالشدة والإغلاظ في القول استدلالا بقول موسى لفرعون: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرَعُونَ مَثُورًا}³، وبقوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}⁴، وبقوله سبحانه: {فَلْتَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}⁵.

والقول الأمثل في توجيه هذه الأدلة يستدعي وجوب النظر والبحث عن مسلك يؤدي إلى إعمال كل دليل في موضعه، دون الغفلة عن إهمال دليل آخر. ويتم ذلك بالنظر في مجموع الأدلة وسياقاتها الحالية والتاريخية دون بترها عن سياقاتها وضرب بعضها ببعض - كما يفعل أصحاب الأهواء - فإن أمر الله لموسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون واستعمال الرفق معه كان في أول رسالة موسى - عليه السلام، - كما يدل عليه سياق الآيات في سورة طه، ويؤكد ذلك إتيان الأمر معللا بـ "لعل" الدالة على الرجاء في إسلامه وانقياده وإلزام الحجة وقطع المعذرة {قِفْؤلَا لَهُ، قِفْؤلَا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}⁶، وقال الحسن البصري في قوله: {لَّعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه⁷، وقال القاسمي: "وظاهر أن الرجاء في "لعله" إنما هو منهما لا من الله، فإنه لا يصح منه، ولذا قال القاضي: أي باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما، فإن الراجي مجتهد، والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما، والمبالغة عليهما في الاجتهاد - مع علمه بأنه لا يؤمن - إلزام الحجة، وقطع المعذرة، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من آيات"⁸.

1 - سورة البقرة، الآية: 103.

2 - سورة طه، الآية: 43.

3 - الإسراء: 102.

4 - التوبة، الآية: 74، والتحريم، الآية: 09.

5 - سورة التوبة، الآية: 124.

6 - سورة طه، الآية: 43.

7 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير، 5/ 295.

8 - محاسن التأويل: 127/7.

أما آية الإسراء¹: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرَعُونَ مَثُورًا}²، فإنها حسب السياق جاءت في نهاية الأمر مع فرعون بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية: {بَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَفْنَاهُ وَمِمَّن مَّعَهُ جَمِيعًا}³، ولما لم تؤثر فيه جميع الآيات التسع التي جاء بها موسى - عليه السلام - يقتضي المقام الإغلاظ له في القول.

وأما قوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}⁴، وقوله: {فَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}⁵، فإن سورة التوبة من السور التي تأخر نزولها من القرآن، وكذلك سورة التحريم متأخرة في النزول. فلا شك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خاطب الكفار والمنافقين قبل ذلك، واستعمل معهم جميع وسائل الرفق واللين، ووسائل المهادنة والوعظ، فلما استنفذ جميع ما ذكر أغلظ لهم القول وجاهدتهم كما أمره ربه عز وجل. وهو منهج فيه مرونة، يقوم على التفرقة بين حالة السعة والاختيار، وحالة العجز والاضطرار، وبين حالة القوة والاستخلاف وحالة الفرقة والاستضعاف، كمن يريد الجهاد أو الإنكار باليد وليس له قدرة على ذلك. وعليه، فإن اللين والشدّة أمران مشروعان نسبيان، ينبغي استعمال كل واحد منهما في موضعه الذي ينفع فيه، كما قال أبو الطيب المتنبّي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلّا ** مضر كوضع السيف في موضع الندى.

وهذا المنهج قد انضبط وانتظم في الآية السابقة، وهي قوله سبحانه وتعالى: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}⁶، وفي قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"⁷.

وبناء على ما سبق فالوسطية في منهج التفكير تكمن بين العقل الجامد والحماس الزائد، فالعقل مطلوب دون إلغاء الحماس، والحماس والسعي الحثيث مطلوبان أيضا في الدين وفي أي عمل إيجابي لكن دون غياب العقل السليم، "ورعاية الخطاب الشرعي من حيث روحه ومقصده الذي لا ينبغي دائما أن نحصره في ألفاظ الخطاب الشرعي، وإنما ينبغي أن نتلمسه فيما يحفها

1 - وللإشارة فإن الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 337/10.

2 - الإسراء: 102.

3- سورة الإسراء، الآية: 103.

4 - التوبة، الآية: 74، والتحريم، الآية: 09.

5 - سورة التوبة، الآية: 124.

6 - سورة النحل، الآية: 125.

7 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، 69/1، رقم الحديث: 49.

من سياقات. بالركون إليها نرتقي إلى آفاق مقاماتها. والارتقاء إلى هذه المقامات ينقذنا من سلطة الاحتمالات"¹، وهل قُتل على بن أبي طالب وغيره من بعض أتباعه -رضي الله عنهم- إلا بحماس زائد وعاطفة جامحة من عبد الرحمن بن ملجم -أجمه الله بلجام من النار-؟ وهل انحرفت الطوائف الضالة إلا بمجانبة هذه الوسطية في منهج فكرهم، فبعضهم يمنعه عقله الجامد عن الوصول إلى الوسطية، وبعضهم يتجاوزها بحماسة الزائد.

والمنهج الوسط في التفكير لا يكون مسدداً إلا إذا كان قائماً على النظر المؤصل في البدايات والمآلات، وعلى التفرقة بين الواقع الكائن، والواقع الأمثل الذي ينبغي أن يكون، وعلى الأخذ بعين الاعتبار الفرق بين التطبيق والتنظير، فهناك أمور سهلة في التنظير، ولكنها عسيرة أو مستحيلة في التطبيق، وعلى طالب المثالية² أن يطلبها في حدود المتاحات لا في خيال الطموحات، وإلا سيبقى فكر حملة الشريعة أسير الأوهام والخيالات، ولا يتعداها إلى تحقيق المأمولات. فالمصلح هو الذي يصلح الواقع لا الذي يأتي بتنظيرات يكره الناس بسببها الواقع. وبهذا المنهج الوسطي المتزن في التفكير كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوجه أمته دائماً، ويبين لهم من خلال التوجيهات القرآنية، والتصويبات النبوية أن هذا الدين دين يسر لا دين عسر، ودين رحمة وفطرة، لا دين قسوة وشقوة، فلقد قال صلى الله عليه وسلم كما في رواية لأحمد من حديث محجن بن الأدرع: "إنكم أمة أريد بكم اليسر"³.

فلماذا بعد هذا التوجيه القرآني الشافي والتصويب النبوي الوافي يأتي بعض الناس بفكر أو عبادة أو سلوك أو منهج ما يطرحه على العامة والخاصة، ويريد أن يلزمهم به زاعماً أن هذا هو الحق وما سواه باطل، وأن هذا هو النور وما سواه ظلام، وأن هذا هو الطريق إلى الجنة، وما سواه الطريق إلى الحطمة. ما هكذا تؤكل الكتف، وما هكذا يا سعد تورد الإبل، علينا أن نتقي الله في أنفسنا، وأن نعي كتاب ربنا، وسنة نبينا كما وعها صالح سلفنا، وأن نستوعب الواقع الذي نعيشه من خلال عقيدتنا وتعاليم ديننا، فنفاعل معه تفاعلاً إيجابياً نثبت من خلاله أننا قادرون على طرح الإسلام فكراً ومنهجاً وعملاً باعتدال واتزان وروح المبادرة إلى كل خير.

المبحث الثالث: خاصية الواقعية:

يعنى بالواقعية في ديننا الحنيف مطابقة منهج الإسلام لواقع الإنسان الذي هو ظروفه المحيطة به في هذا الكون، فالمنهج والإنسان كلاهما صادر عن الله تعالى، فالإنسان خلقه، والمنهج شرعه، ولا يمكن أن يتناقض شرع الله مع واقع خلقه. ولذلك فإن الواقعية منهج رسمه الله للحياة على ما فيها من خير وشر متوافقاً في الوقت نفسه وفي نظام الحياة مع طاقات الإنسان الواقعية، ومع فطرته البشرية، فهو تشريع العليم الحليم الخبير بشؤون النفس الإنسانية،

1 - الاقتراض البنكي والاضطرار الشرعي للدكتور إسماعيل الحسني، ص: 84-85.

2 - أعني بها وصف كل ما هو كامل في بابه، ويُقَدَّرُ به.

3 - أخرجه الإمام أحمد في المسند (33 / 455) عن كهمس قال: سمعت عبد الله بن شقيق قال محجن بن الأدرع، فذكر الحديث، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة 179/4: وهذا إسناد صحيح.

ولا يعزب عنه سبحانه شيء من أحوالها وخباياها، مهما غاب أو حضر، أودق أوصغر {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ¹. ولإيضاح خاصية الواقعية في القرآن كان لزاما على أن أتطرق إلى ثلاثة جوانب منها مهمة، وهي المفهوم، والمظاهر، والمنهج. كل جانب في مطلب:

المطلب الأول: مفهوم الواقعية:

الواقعية اسم مؤنث منسوب إلى واقع، أو مصدر صناعي من واقع اسم فاعل من وقع ². قال الراغب في المفردات: الوقوع ثبوت الشيء وسقوطه. وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ وقع جاء في العذاب والشدائد نحو: {إِذَا وَفَعَتِ الْوَافِعَةُ} ³ لَيْسَ لِيَوْفَعَتِهَا كَذِبَةٌ ³، وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} ⁴، وقال: {بَفَدٌ وَفَعٌ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} ⁵، واستعمال لفظة الوقوع هنا تأكيد للوجوب كاستعمال قوله تعالى: {وَكَانَ حَفًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} ⁶، وقوله عز وجل: {بَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} ⁷، فعبارة عن مبادرتهم إلى السجود ⁸. والواقعية من الكلمات المعاصرة المحدثّة، مثل: الواقع، والواقعي، وغالبا لا يقصد دلالاتها اللغوية، تناولها المعاجم الحديثة على أنها مصطلحات ومفاهيم مذهبية في الأدب والفن والفلسفة والسياسة.

وقد يختلط الأمر لدى بعض الباحثين في معنى "الواقعية" عند إطلاق لفظها لأسباب كثيرة، منها أن مصطلح "الواقعية" من المصطلحات التي جرى تداولها واستخدامها حديثا، واشتهر بمناداتها المذاهب والفلسفات الفنية لدى الغرب، حتى صار لفظ "الواقعية" بالمنظور الغربي أكثر شيوعا وهيمنة في الدراسات لهذا المفهوم، وأيضا استغلوا مناداة بعض الباحثين المسلمين بعدم وصف الإسلام وأنظمته بالواقعية حتى لا يختلط بما عناه فلاسفة الغرب، وأن شيوع الجهل بخصائص التشريع الإسلامي سبب أيضا في هذا الالتباس.

وهذا ما أتاح الفرصة لكثير من المستشرقين وغيرهم ممن يحملون العداء لهذا الدين أن يتوصلوا إلى اتهام الشريعة الإسلامية بقصر اهتمامها على بيان العقيدة والعبادات والأخلاق

1 - سورة الملك، الآية: 15.

2 - قال ابن فارس: (وقع) الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء. يقال: وقع الشيء وقوعا فهو واقع. والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم. (انظر: المقاييس: 134/6 مادة وقع).

3 - سورة الواقعة، الآية: 1 - 2.

4 - سورة المعارج، الآية: 1.

5 - سورة النساء، الآية: 99.

6 - سورة الروم، الآية: 46.

7 - سورة الحجر، الآية: 29.

8 - المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ص 530.

وتربية النفوس على ذلك، وبعدها عن واقع الحياة، وعجزها عن إدارة حياة الناس وتنظيمها في كل زمان ومكان.

وللأسباب المتقدمة وغيرها كان من الضروري إيضاح الفرق بين معنى الواقعية في المفهوم الغربي ومعنى الواقعية في المفهوم الإسلامي:

يعنى بالواقعية عند بعض الفلاسفة الغربيين: أنها: مذهب يقدم الأعيان الخارجية على المدركات الذهنية. والواقعية "في الأدب": مذهب يعتمد على الوقائع، ويُعنى بتصوير أحوال المجتمع على ما هو عليه¹. وهناك تعريف أكثر وضوحاً من هذا في المعجم الوسيط، فقال: "والواقعية في الفلسفة: مذهب يلتزم فيه التصوير الأمين لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي، وكذلك عرض الآراء والأحداث والظروف والملابسات دون نظر مثالي. ومذهب أدبي يعتمد على الوقائع ويعنى بتصوير أحوال المجتمع²."

كما أعطي للواقعية أيضاً تعريف آخر في الندوة العالمية للشباب الإسلامي فهو بمثابة شرح للمفهوم الغربي، فقول: "الواقعية: مذهب أدبي فكري مادي ملحد، إذ يقتصر في تصويره الحياة والتعبير عنها على عالم المادة، ويرفض عالم الغيب والإيمان بالله، ويصور الإنسان بالحيوان الذي تسيره غرائزه لا عقله"³. وهذا المفهوم الفلسفي لا شك أنه مصادم للوحي والعقل والفطرة لما فيه من إنكار ما تثبته هذه المصادر المعرفية، وإنكار كل ما لا يثبتته الواقع المشاهد تحت تأثير آلات الحس، "واعتبار الواقع هو الأشياء المحسنة، والمادة المتحيزة، وما عدا ذلك لا يعد واقعا موجودا، فلا إله عندهم للكون، ولا روح للإنسان، وليس وراء هذا العالم المشهود غيب أو عالم منظور، ولا بعد هذه الحياة الدنيا حياة"⁴.

لقد عمل دعاة الواقعية من خلال هذه النظرية الفلسفية والفكرة الشيطانية على تحقيق أمور:

- ربط الإنسان الغربي بغرائزه وشهواته وإغراقه في ماديته حتى يتمكنوا من مواجهة الفكر الكنسي والتيار المثالي اللذين ظلا مرتكزين على الأمور الروحية والعقلية، بعيدين عن الأمور الحسية والواقعية حسب زعمهم.

- "قبول الواقع على علته، والخضوع له، على ما فيه من قذارة وهبوط دون محاولة للارتفاع به، وبذل الجهد في تنظيفه وترقيته"⁵.

1 - المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية- نبيل عبد السلام هارون، ص 678.
2 - المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1051/2: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، الناشر: دار الدعوة
3 - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: 874/2، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
4 - الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص: 178.
5 - المصدر السابق. ص 178 وما بعدها.

- بناء مفهوم "الواقعية" التي يروجون لها على أساس المذاهب الفلسفية المادية التي تحتفي بالمادة، وترفع كل ما من شأنه قبول المشاهدة والتجربة، وترفض كل ما هو غيبي مما لا تدركه حواسهم، ولا تطبق تجربته أدواتهم، كما تتكر كل ما يمت إلى الروح بصلة. وما يخطر من الأمور الروحية والعقلية في مذهبهم يعد أمراً طارئاً بالنسبة لهم، وهو الأمر الذي دفع "أرسطو" إلى القول: "إن المبدأ الحق في كل الأشياء إنما هو الواقع، وإذا كان الواقع نفسه معروفاً دائماً بالوضوح الكافي، يكاد لا يكون ثمة حاجة للصعود إلى علته¹.

وبعد هذه النظرة السريعة في معنى الواقعية بالمنظور الغربي، يمكن بيان معنى "الواقعية" بالمنظور الإسلامي، بعد ما تناول المسلمون هذا المصطلح، فقد تغير مفهومه تبعاً لتغير الفكر المتناول فيه؛ إذ الإسلام يختلف عن جميع التيارات في رؤيته للحقائق، وإقراره لها، وهذا ما سنلاحظه بعد عرض بعض التعريفات للباحثين المسلمين:

يرى فضيلة الدكتور القرضاوي أن الواقعية في الإسلام تعني: "مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود شاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً"²، ويقول عدنان محمد آل عرعر: يقصد بالواقعية في الإسلام: "فهم الواقع على حقيقته، ومعالجة ذلك معالجة شرعية متوافقة مع كل ظرف، ومتجانسة مع كل حدث، ومتلائمة مع كل حال وواقع"³. ويقول الدكتور جمعة علي الخولي مبيناً "الواقعية" المرادة في الإسلام: "نعني بها مراعاة ظروف الإنسان وفطرته وحدود طاقته، وطبيعة تكوينه، وواقع حياته" وزاد موضحاً أسباب مراعاة هذه الجوانب، فقال: "وذلك من حيث إنه مخلوق من مادة وروح، وللروح أشواقها، وللمادة مطالبها. ومن حيث إنه يعيش على الأرض، ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتناسل، ويحب ويكره، ويصح ويمرض. ومن حيث إنه ذكر وأنثى تختلف حاجات وميول كل منها وطبيعته الفسيولوجية. ومن حيث إنه فرد مستقل في نفسه، أو فرد مشترك مع غيره. كل هذه الأمور - وكثير غيرها - راعاها الإسلام وكيف أحكامه الفرعية تبعاً لها؟ حتى تتطرق مسيرة الحياة في توازن مستقر، ولا تتعطل أو تتهدد مصالح العباد"⁴.

يبدو من خلال تعريفات الباحثين المسلمين أن هذا المصطلح يطلق على ما يلاحظه الإسلام من واقع الأشياء الحسية، وما يقرره من حقيقة الأمور الغيبية، وأن الأشياء المادية كما لها واقع يتناسب مع مجاله الدائر فيه، فكذلك الحقائق الغيبية لها واقع يتناسب مع وضعها وحالتها؛ ولهذا نجد القرآن الكريم يراعي في شرائعه وحدوده واقع الحياة من حيث إن الحياة معبر

1 - علم الأخلاق لأرسطو طاليس، 177/1، ترجمة أحمد لطفي السيد.

2 - الخصائص العامة للإسلام: 178.

3 - منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، ص 47.

4 - مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، كلمة البحث: المثالية والواقعية في الإسلام لفضيلة الدكتور جمعة علي الخولي، العدد 44، ص 159-160.

للاخرة، ومزرعة لها، وهي حافلة بالخير والشر، فما يزرعه المرء هنا يحصده هناك، قال تعالى:
{فَفَعُوا لَهُ سَجْدِينَ} ¹.

ومن حيث ازدواجية طبيعة الإنسان، فهو من مادة وروح، وقد يرتقي هذا الإنسان حسب طبيعته إلى أسنى درجات المثالية، وقد يهبط إلى أدنى مستوى من سوء الخلق والشر، قال تعالى: {بِأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} ²، كما راعى القرآن الكريم قدرات الإنسان وإمكاناته النفسية والمادية، فلم يفرض عليه من التكاليف ما لا يطيق، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ³.

وهذه هي الواقعية الحقة، لأن الوحي قرآنا وسنة لم يأت ليساير الناس على مطلق شهواتهم وأنظمتهم. أو ليرضى بتقاليدهم المنحطة، وأوضاعهم المختلة، وإنما أتى ليلغي كل أشكال الجاهلية ونظمها المنحرفة، ولينشئ من ذات نفسه نظاما ربانيا خاصا به، فيه تكريم لبني آدم في حياته، قال سبحانه: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} ⁴. وهو الذي يشرع ويقنن، يحل ما فيه مصلحة، ويحرم ما فيه مفسدة. "وليس في التشريع الإسلامي ما يمنع الإنسان من التأثير والتغيير في حياته والمجتمع الذي يعيش فيه. وقد كرم الإسلام الإنسان ولم يضعه في مصاف القرد، واهتم بجانبه الروحي باعتباره - أي الإنسان - جسداً وروحاً، ولكل مطالبه التي لا يجوز إغفالها ولا الاقتصار على أحدها دون الآخر. ويرفض الشرع الإسلامي النظر بتشائم إلى تصارييف القدر، كما يرفض النظرية الفلسفية التي تقول: "إن الحياة قد بنيت على الشر" والأديان عموماً جاءت للقضاء على الشر، والنهوض بالنفس البشرية ⁵.

أما الأنظمة الأخرى فهي تقوم على أساس أن البشر هم الذين يشرعون لأنفسهم بمعزل عن شرع الله ووحيه، وتوجيهه وأمره، وهو الأمر الذي جعل الواقعية عندهم عبارة عن الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس فقط، ونبتذ كل ما لا تؤيده التجربة مع تطويع الإنسان مبادئه لتوافق الحياة على أي وضع وجد، أو لتساير الواقع على أي شكل كان، وبعد عرض تعريفات "الواقعية" من كلا الجانبين تبين أن "الواقعية" الإسلامية تختلف تمام الاختلاف عن "الواقعية"

1 - سورة الأنبياء، الآية: 35.

2 - سورة الشمس، الآية: 8 - 10.

3 - سورة البقرة، الآية: 285.

4 - سورة الإسراء، الآية: 70.

5 - الموسوعة الميسرة في الأديان والأحزاب والمذاهب المعاصرة بتصرف: 876/2.

الغربية، ولا تتفق معها في أي شيء سوى الاسم. ولمزيد بيان للواقعية الإسلامية أذكر بعض مظاهرها في المطلب الآتي:

المطلب الثاني: مظاهر الواقعية في القرآن:

إن الشريعة الإسلامية في كل قسم من أقسامها تتسم بالواقعية، فلا تحليق في فضاء الخيالات، ولا غوص في أعماق المثاليات، بل "الإسلام لا يغفل عن طبيعة الناس وتفاوتهم في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، وفي ضوء هذا النظر الواقعي جعل الإسلام مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول؛ ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين؛ ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع بها، وهي المسماة بالفرائض، كما يشمل جملة معان يجب هجرها، وهي المسماة بالمحرمات. وهذا المستوى يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاه، ولا يعذر في النزول عنه، ولكن بجانب هذا المستوى الإلزامي وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع، وحببت إلى الناس بلوغ هذا المستوى العالي، فالإسلام به إرهاب لهم وحرص شديد، والحرص في شرع الإسلام مرفوع؛ لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية، قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} ¹، وقال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ². وهذا المستوى العالي يشمل المندوبات التي ترغب الشريعة في القيام بها، والمكروهات التي ترغب الشريعة في ترك المسلم لها ³، ونذكر للمستويين الأدنى والأعلى نماذج على سبيل المثال لا الحصر، منها ما يأتي:

- في العبادات: - الصلاة: منها ما هو فرض كالصلوات الخمس، ومنها ما هو نفل كغير الفرائض، يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَفِيْمًا} ⁴، وفي ذلك جاء قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "ما من رجل يصلي لله تعالى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير الفريضة إلا بنى الله له بيتًا في الجنة" ⁵.

- الصيام: منه الفرض، وهو صيام شهر رمضان، ومنه النفل لمن كانت له طاقات أخرى تطيق أكثر من ذلك، ولذلك دعا الإسلام إلى التقرب إلى الله بمزيد من الصيام في غير شهر رمضان، قال تعالى: {بِمَسِّ تَطَوُّعٍ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ

1 - سورة الحج، الآية: 76.

2 - البقرة: 285.

3 - أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان، ص: 74.

4 - سورة الفرقان، الآية: 64.

5 - أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن: 2 / 161، برقم: 728.

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ¹. ومن ذلك: صيام ست من شوال، وأيام البيض من كل شهر، وصوم الاثنين والخميس.

- الحج: منه الفرض، وهو أداء مناسكه مرة في العمر، وما زاد فتطوع.

- فريضة الزكاة: قال تعالى: {وَأَفِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}²، وفي صدقة التطوع يقول الله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَبْصِ كُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}³. فالفرض دائما يدخل في معاني المستوى الأدنى، ولا يجوز النزول عنه، والنفل يدخل في معاني المستوى الأعلى.

ومن واقعية العبادات في الإسلام أنه راعى طبيعة الملل في الإنسان، فغاير بين أنواع العبادات وأشكالها من حيث الأداء، فهي "ما بين عبادة بدنية كالصلاة والصيام، وأخرى مالية كالزكوات والصدقات وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة"⁴، حتى لا يسأم الإنسان من عبادة واحدة قارة لا تتغير. ونوعها أيضا من حيث الزمان، فجعل بعضها عبادة يومية كالصلاة تؤدي خمس مرات كل يوم، وتتراوح بين طرفي النهار وزلفا من الليل، وجعل بعضها عبادة سنوية كالصوم والزكاة، وبعضها مرة في العمر كالحج، وهكذا شرع للمسلم من العبادات ما يكفي لتهديب خلقه، وسمو روحه وسلوكه، بحيث يكون دائم الاتصال بالله، وفي الوقت نفسه لم يكن ارتباط الإنسان بالعبادة ارتباطا خفيفا على ندرة حتى لا يتبلد حسه، ولا تهبط روحه.

- المعاملات: وفي البيوع قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}⁵، وقال: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}⁶، وهذا مستوى أدنى. وقد حَبَّب الإسلام للمسلم أن يكون سهلاً في بيعه وشرائه ومقاضاته {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}⁷، وهذا من معاني المستوى الأعلى، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"⁸.

1 - سورة البقرة، الآية: 183.

2 - سورة المزمل، من الآية: 18.

3 - سورة البقرة، الآية: 271.

4 - الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي: ص 186.

5 - سورة المائدة، الآية: 1.

6 - سورة البقرة، الآية: 274.

7 - سورة البقرة، الآية: 279.

8 - أخرجه البخاري في "صحيحه" 3 / 57، برقم: (2076) كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع.

- الأخلاق: ومن معاني المستوى الأدنى وجوب ترك الكلام بالباطل كالغيبة والنميمة والكذب... والأدلة معروفة في القرآن والسنة، ومن معاني المستوى الأعلى كراهة الثرثرة وكثرة الكلام غير الحرام بما لا يفيد ولا ينفع، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} ¹، وفي الحديث الشريف: "إن الله يكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" ². وإليك مثلاً آخر "مقارناً ودالاً على واقعية الأخلاق في الإسلام، وملاءمتها لفطرة الإنسان وعدم تحليقها في عالم الخيال، جاء على لسان المسيح عليه السلام في بعض الأناجيل: (أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.. من سخرك ميلاً فاذهب معه ميلين من سرق قميصك فأعطه إزارك.) هذه دعوة حارة للعفو والسماحة التي اشتهرت بهما المسيحية ³. لكن إذا جاز ذلك في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، فإنه لا يصلح أن يكون توجيهاً عاماً خالداً لكل الناس في كل العصور والبيئات، فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه، ومباركة لاعنيه قد يكون شيئاً فوق ما يتحملة، ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا۟ ۖ اِعْدِلُوْا۟ هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى} ⁴، كما أن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب على الخد الأيمن أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرأ الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار. وقد يتعين في بعض الأحوال، ومع بعض الناس أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغياً وطغياناً، ولهذا تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها، لا فريضة يلزم بها" ⁵، وهو واضح في مثل قوله تعالى: {وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَٰبَا وَاصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ⁶، وقال سبحانه: {وَإِنْ عَافَيْتُمْ فَعَافِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوفِيْتُمْ بِهِۦٓ وَلَٰٓئِذَا صَبَرْتُمْ لَهٗوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ} ⁷.

- الحدود: من معاني المستوى الأدنى في الحدود شرعية القصاص في القتل العمد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ} ⁸، فلاهل القتل المطالبة به وهذا حقهم، ولا تثريب عليهم فيه، ومن معاني المستوى الأعلى أن الإسلام

1 - سورة المؤمنون، الآية: 3.
2 - أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، 2 / 124، برقم: 1477.
3 - مجلة تصدرها الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، (172/18-173) الناشر: موقع الجامعة على الإنترنت، عدد الأجزاء: 120 عددًا، أعدده للشاملة: أسامة بن الزهراء.
4 - سورة المائدة، الآية: 9.
5 - الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي 184.
6 - سورة الشورى، الآية: 37.
7 - سورة النحل، الآية: 126.
8 - سورة البقرة، الآية: 177.

ندب إلى العفو، قال تعالى في نفس الآية: {فَمَنْ عَمِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَعْنٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ}.

- حفظ النفس: يسوغ الإسلام للمكره على الكفر بالتهديد بالقتل أن يقول كلمة الكفر بشرط اطمئنان القلب بالإيمان، وهو من معاني الحد الأدنى، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ} ¹.

ومن معاني المستوى الأعلى عدم قول الكفر وإن أدى ذلك إلى القتل، "كمن قال كلمة حق عند حاكم ظالم طاغية لا يتسع صدره لسماع النصيحة، ويقتل من يأمره أو ينهاه، يدل على ذلك الحديث النبوي: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" ². وإن قيل: لا يجوز إلقاء الإنسان نفسه في التهلكة، وهذه تهلكة، لقوله تعالى: {وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} ³، قلنا: إن الاستشهاد في سبيل الله مكرمة لا تهلكة. وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو باللسان ضرب من ضروب الجهاد المشروع؛ لما يترتب عليه من تقوية نفوس المحقين، وخذلان المبطلين، وإيقاف الظالمين عند حدهم ⁴. وهكذا يفتح الإسلام باب التطوع، والارتقاء إلى المثالية، ولكن ليس على سبيل الإلزام وإنما على سبيل الاختيار، فذلك أفعال في تربية النفس، وأدعى إلى تحقيق الغاية.

وأما المحرمات ف"من واقعية الشريعة: أنها (أي: الشريعة) عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات فسدت الباب إليها بالكلية، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها، كما في الخمر، لأن القليل يجر إلى الكثير، كما أنها عدت ما يوصل إلى الحرام حراماً سدا للذريعة، وإقراراً بواقع الكثير من البشر الذين لا يملكون أنفسهم إذا فتح لهم طريق إلى الحرام . ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية إغلاقاً لباب قد تهب منه رياح الشر، فلا يستطيع صدها، ومثل ذلك النظر بشهوة إلى الجنس الآخر، فإن العين رسول القلب، والنظرة المتشبهة بريد الفتنة، وقديماً قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر *** ومُعْظَمُ النار من مُسْتَصْعَرِ الشرِّ
وحديثاً قال شوقي: نظرة، فابتسامة، فسلام *** فكلام، فموعد، فلقاء" ⁵.

1 - سورة النحل، الآية: 106.
2 - أخرجه الحاكم في "مستدركه"، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كتاب الجهاد، قصة شهادة حمزة والصلاة عليه والشهداء كلهم وإحياء والد جابر، 3 / 195، برقم: 4912.
3 - سورة البقرة، من الآية: 194.
4 - أصول الدعوة المؤلف: عبد الكريم زيدان، ص: 56-75.
5 - الخصائص العامة للإسلام: ص 194.

- وأما المباحات: فالشرع الإسلامي يبيح للناس الاستمتاع بطيبات الحياة، ولكنه يحجب لهم أخذ ما يسدون به رمقهم، ويروحون به عن أنفسهم، ويتجهون إلى نعيم الروح، قال تعالى: {رُزِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْفَنَاطِيرِ الْمُفَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْهَيْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ قُلْ أَوْنَبِيَّكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمٌ لِلَّذِينَ إِتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ }¹، كما أن واقعية الإسلام لا تقف عند الحد المذكور المتمثل في وضع مستويين الأدنى والأعلى، ولكن تظهر واقعيته في لون آخر، وهو مراعاة الظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فلا تلزمه بما يجب أو يحرم عليه في الأوقات العادية، لأن النفوس قد تعجز عن الاستمرار على الإتيان بالعزائم في الظروف القاسية والأحوال الاضطرارية، فخفف الإسلام عنها بما شرعه من رخص وتخفيفات، ومنها: إباحة أكل الميتة عند الضرورة الشرعية، وإباحة ترك الواجب مثل الفطر في رمضان للمريض والمسافر، وكذلك الحامل والمرضع والشيخ الكبير والمرأة العجوز بالتفصيل المذكور في السنة، وإباحة الصلاة للمريض وهو قاعد إذا كان لا يقوى على الوقوف. وإباحة قصر الصلاة الرباعية للمسافر، والجمع بين صلاتي الظهر والعصر، أو بين المغرب والعشاء تقديمًا أو تأخيرًا، وهذه هي الواقعية الحقة التي تراعي واقع الناس بتقدير ظروفهم المتغيرة {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}².

هذه بعض مظاهر السماحة واليسر في الشريعة الإسلامية، ومراعاتها لواقع الإنسان وما يطرأ عليه من ظروف. ولكن ليس معنى التخفيف ما قد يفهمه من تستهويه أغراض، وتميل به أفهام، وهو أن هذا الدين يحمل أتباعه دائماً على السهل الخفيف، فيقتل في نفوسهم روح الجد والإقدام، ويعودهم الرضا بالدون والمستويات الدنيا، بل إن هذا الدين يأخذ أتباعه بالتكاليف التي تغرس فيهم الفضائل، وتصعد بهم إلى الكمال، وتتيح للخصائص العليا في الإنسان أن تتطلق وتعمل. لذلك يأخذهم بالشجاعة في ميدان الجهاد، والمروءة في باب المعاملات، والكثرة في مجال العبادات، والتهذيب في ميدان الأخلاق.. لكن بسبب ما يعتور الإنسان من ضعف وعجز في كثير من المواطن يراعي هذا الدين هذه الظروف ويشرع ما يناسبها خفة وتيسيراً على الناس. إذن، التخفيفات والرخص من باب تقدير الظروف لا من باب التعويد على السهل الخفيف. ومع ذلك فهو يعلق أنظارهم إلى أعلى دائماً فيقول سبحانه: {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}³.

1 - سورة آل عمران، الآيتان: 14 - 15.

2 - سورة البقرة، الآية: 184.

3 - سورة البقرة، الآية: 183.

ومما يؤكد على واقعية الإسلام ماكان في الأمم الماضية من بعض الأصر والمشقات، فجاء هذا الدين الإسلامي فرفع بواقعيته عن المسلمين الإصر وكل المشقات الخارجة عن طاقة الإنسان وقوة احتماله كالوصال في الصوم، وفرض التهجد ليلا، {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا}¹، وتشير هذه الآية إلى أن الأمم السابقة كان فيها بعض الإصر والمشقات، ومن ذلك ما يلي:

- "الجزء النجس من الثوب يجب قرضه.

- تحريم الانتفاع بغنائم الحرب.

- تحريم العمل يوم السبت.

- عدم قبول الدية بدل القصاص..

- الأمر بقتل أنفسهم على التوبة {فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}².

- تحريم بعض لحوم الحيوانات وشحوم بعض آخر.

ومما تتبغي ملاحظته هنا: أن الله أحل لكل الأمم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، لكن بني إسرائيل لما بغوا وظلموا حرم الله عليهم بعض الحلال عقابا لهم كما قال سبحانه: {بِظُلْمِ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ}³، وفي آية أخرى بعد ذكر بعض المحرمات قال سبحانه: {ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُم بِبَغْيِهِمْ}⁴.

ومن هذه الأمور المتشدة أيضا ما جاء في سفر الخروج "من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا (...) من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا (...) إذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرحم الثور، ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئا ولكن إذا كان الثور نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرحم وصاحبه يقتل" وفي سفر العدد "من مس ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام ... وإذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام" "وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس" وفي سفر التثنية "إذا كان ابن معاندا وماردا ولا يسمع لقول والديه يرحم بالحجارة حتى يموت"⁵، وفي سفر

1 - سورة البقرة، الآية: 285.

2 - سورة البقرة، الآية: 53.

3 - سورة النساء، الآية: 159.

4 - سورة الأنعام، الآية: 147.

5 - الإصحاح 21.

اللاويين¹ أحكام عن الحائض: "وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمئتها يكون نجسا، وكل ما تجلس عليه يكون نجسا"².

أوردت هذه الأمور لندرك بتأملها فضل الله على هذه الأمة الإسلامية ورحمته بها، ولعلني بعد هذا البيان ذكرت من المظاهر ما يطمئن ويبرهن على واقعية الشرائع الإسلامية وملاءمتها لفطرة الإنسان وتكوينه وواقعه، وأنها لم تكلفه شططا، ولم تجنح به إلى خيال. فيستطيع المرء أن يحقق لنفسه الكمال المقدر له في حياته الدينية والدنيوية بيسر واعتدال وشمول، وبما يوافق الفطرة دون إرهاق ولا حرج ولا انعزال عن الحياة وأهلها.

المطلب الثالث: منهج الواقعية في القرآن المجيد:

إن القرآن جاء لإصلاح الناس جميعهم ولم يجرى لفئة معينة منهم، فافتضت داعية الإصلاحية الشاملة أن يشتمل على أنواع وسائل الإصلاح والتقويم حسب كل صنف من الناس. والتالي للقرآن الكريم بتدبر يشد انتباهه الكم الهائل من الآيات التي تعالج أعقد المشاكل في الحياة على المستويات الفكرية والنفسية والفردية والاجتماعية بطريقة نقدية واقعية تتأى بالإنسان عن الأنانية المزيفة، والنوايا المضللة التي يسعى جل الناس وراءها لتحصيل شيء من الكسب الدنيوي.

ومن واقعية القرآن الكريم في هذا المجال سعيه لتأصيل النقاش والحوار مع الصديق والعدو والإنس والجن وحتى مع الشيطان، وفي السلم والحرب، ومع كل المستويات الفكرية العليا والوسطى والدنيا.

ومنها أيضا تنويعه في تقديمه للبيانات التعليمية والتربوية، ولمبادئ النقاش والحوار، فتارة ينتقد ويحاور ويعلم بطريقة راقية نامية عن تحضر يعجز أدعياء الحضارة عن تقييمه، وتارة بطريقة فيها تصعيد اللهجة مع الآخر حتى تظن أنه ليس في قوس الحوار من منزع، وتارة أخرى بطريقة فيها تهاد مع الخصم حتى يخيل لك أن المسلم في موقف ضعف، وفي هذا المطلب سوف أشير إلى نماذج لواقعية القرآن في التعامل مع الآخر بمبادئ سلوكية وفكرية وفي سياقات مختلفة، وأقول بتوفيق الله تعالى:

1- طلب الحق وانتفاء النفع فيه:

قد يكون البعض يريد من عرضه التزلف أو التقرب أو الحصول على مكسب مادي من وراء عرضه، وهو مطمع بشري طالما عمل له المهرة من الناس في منازلهم الفكرية وغيرها، مثل سحرة فرعون في قوله تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا

1 - الإصحاح 15.

2 - ينظر أصل هذا الكلام في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد: 44، 170/8-172.

نَحْرُ الْغَلِيْبِ ﴿١١٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ¹. قال ابن القيم عند حديثه في أواخر سورة الحديد عن أصحاب المراتب والمنازل في كتابه الوابل الصيب: "والمقصود أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجر والمرتب، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى - عليه الصلاة والسلام-، فقالوا: {إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْرُ الْغَلِيْبِ ﴿١١٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ} أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب مني. فالعمال عملوا على الأجر، والعارفون عملوا على المرتب والمنزلة والزلفى عند الله².

غير أن القرآن المجيد يؤصل لمسألة في أذهان الناقدین المحاورين والمحاضرين، وهي طلب الحق وبيانه لذاته في حواراتهم ومحاضراتهم، لا لشيء آخر من وراء ذلك. وأجرهم على الله، لذلك ورد في أغلب محاورات الأنبياء مع أقوامهم القول بانتفاء أي غاية نفعية مادية من وراء دعوتهم سوى بيان الحق، كما في قوله تعالى على لسانهم: {فُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}³، وقوله تعالى: {فُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}⁴. قال ابن كثير: وقوله: {فُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن {أجرا} أي: أجره، ولا أريد منكم شيئا⁵، وقال رشيد رضا في تفسيره: "وقد قيل إن هذا مما أمر أن يقتدى بهم فيه، والتحقيق أن ما أمره الله تعالى به استقلالاً لا يدخل فيما أمر بفعله اقتداءً كما تقدم بيانه⁶، فتحصل مما تقدم أهمية التجرد لله تعالى في طلب الحق وبيانه وانتفاء النفعية المادية فيه.

2- النزاهة في سماع ونقل حجج الآخر:

من المفروض في النقاشات والحوارات التفاعل مع الآخر فيما يطرحه من حجج وأدلة وأفكار، وكثيراً ما نسمع أو نرى سجالات فكرية يحاول أطرافها أو طرف منها طمس حجج الطرف الآخر إذا رآها قوية أو يصعب عليه ردها. وأما القرآن المجيد في بياناته فلا يسعى لذلك، بل يستمع إلى حجج الطرف الآخر وإن كان إبليس، ويستعرض آراءه كاملة إذا أراد الرد عليها رغم أنها ضلال وباطل، لا تملك أي حظ من الصواب، وهذه واقعية أمينة قل من يقتدي بالقرآن فيها.

ومن الحقائق المرة أننا أحياناً نقف من الطرف الآخر موقفاً سلبياً معتبرين آراءه باطلة، وآراءنا صحيحة بحكم انطلاق آرائنا من الوحي، مع العلم بأن آراءنا وإن كان انطلاقها من

1 - سورة الأعراف، الآية: 112 - 113.

2 - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، ص 69.

3 - سورة الأنعام، الآية: 91.

4 - سورة سبأ، الآية: 47.

5 - القرآن العظيم، 299/3.

6 - تفسير المنار، 507/7.

الوحي فهي تدور في دائرة الصواب والخطأ حسب الاستدلال بها لا أصلها، كما أن آراء غيرنا تدور في دائرة الحق والباطل، ولا يجمل بنا أن "نتخندق في خندق الحق، ونجعل الآخر في جانب الباطل، رغم أن الله - عز وجل وكلامه كله حق - عندما يتكلم يستحضر الآخر. فتجد القرآن يحكي كلام الملحدّين الذين ينكرون وجود الله أصلاً {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} ¹، وكلام اليهود: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} ²، وكلام النصارى {إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} ³، وكلام المنافقين المغرضين الذين يتفننون في أقوالهم بشكل خطير، مما يمكن أن تتطلي شبهتهم على الضعاف {وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ وَأَنْبِئُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَسْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} ⁴. هذه شبهة خطيرة يمكن أن تؤثر، ومع ذلك يوردها القرآن دون أن يستحضر أنها يجب أن تباد وتمحى وتقصى، لأنها قد تفسد على المسلمين خلق الكرم والاستجابة لأمر الله بالإنفاق وإعطاء الزكاة بناء على حيثية تحايلية تأويلية فاسدة، لأن الله هو الذي يغني ويفقر، ويرفع ويضع، ويوسر ويعسر، كما أننا نجد كل الطوائف الفاسدة والآراء الأخرى موجودة داخل النص القرآني وبهذا الحضور ⁵.

وهكذا يستحضر كلام الله المتعالي الرأي الآخر وبقوة ولا يبتريه، بل يزيده جمالا وخلودا بلغة القرآن، يخلده ولا يرد عليه. ثم قد يحكم عليه إن احتاج الأمر إلى ذلك، كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيبًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ⁶، ومثل قوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيبًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ⁷، إلا أن من تتبع السياقات القرآنية يلمس في أغلب الأحيان أن القرآن يهمل الجواب بعد عرضه لحجة الآخر، وقد يكون ذلك - والله أعلم - لأسباب ترجع: إما لتفاهة الرأي المقابل فلا يعطيه الفرصة الكاملة للاستمرار فيكون السكوت أبلغ من الرد عليه، وإما لأنه يريد أن يترك المجال واسعا لاجتهاد العلماء المسلمين المحصنين بالعقيدة الصافية والرؤية الكاملة والمنهج السليم فيتمكنوا من الإبداع في الرد بالبرهنة في كل زمان، كل حسب ما يعتقد.

1 - سورة الجاثية، الآية: 23.

2 - سورة المائدة، الآية: 66.

3 - سورة المائدة، من الآية: 75.

4 - سورة يس، الآية: 46.

5 - منقول بتصرف من مقال نشره أبوزيد الإدريسي في موقع الملتقى الفكري للإبداع بعنوان: منهج الحوار في القرآن الكريم 2008-10-15.

6 - سورة البقرة، الآية: 134.

7 - سورة آل عمران، الآية: 66.

3- التمييز بين أصناف الناس في البيانات التعليمية والتربوية:

من الواقعية الحقّة في هذا المجال مراعاة واقع أحوال المجتمعات الإنسانية التي تختلف أفرادها في خصائصهم و استعداداتهم من حيث القدرة على التلقي، ولذا اقتضت الواقعية القرآنية في تقديم البيانات التعليمية، والأساليب التربوية مراعاة كل صنف من أصناف الناس بإعطاء كل منهم ما يناسبه من ذلك. وهذا ما دعا القرآن إليه الدعاة والمعلمين والمربين، بأن تكون خطاباتهم ضمن أسس الواقعية التي التزم بها.

أولاً: الواقعية في التعليم:

ولما كان الناس منهم فئة الأذكياء، ومنهم فئة متوسطي الذكاء، ومنهم الفئة الدنيا من الناس، وكانت الواقعية تقتضي مخاطبة كل صنف من هؤلاء بالأساليب والمستويات العلمية المناسبة له. و معظم الآيات القرآنية التعليمية تمتاز بأنها مصوغة بأسلوب يصلح لكل المستويات الفكرية من الناس، ثم يتوسع كل صاحب مستوى في إدراك الحقائق العلمية واستنباط الأحكام الشرعية على حسب مستواه من حيث الفكر والخبرة والتجربة.

وينتظم كل ذلك في قول الله تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَفْوَهمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} ٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}، فالفئة الممتازة من الناس الذين تكفيهم الهداية للتي هي أفوم في الحقائق العلمية، والأحكام الشرعية، يجدون هذه الهداية في القرآن، والفئة الأخرى من الناس المحكومة لسلطان المطامع يجدون البشريات بالأجر العظيم في القرآن تجذبهم إلى سبيل الرشاد، والفئة الثالثة من الناس المحكومة لسلطان المخاوف يجدون في القرآن المنذرات بالعذاب الأليم تردهم عن سبل الضلالة"2. وفي لفت أنظار فئة الأذكياء من الناس - وهي فئة العلماء الباحثين عن دقائق الأمور التي تحتاج إلى بحث عميق، وجهد فكري وتتبع دقيق- وضع القرآن أدلة يحتاج استقصاؤها واستيعاب دقائقها إلى نسب عالية من القدرات الفكرية. ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ

الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحِينَ إِنْشَاءً يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، "فمستوى البحث في الأرض وكيفية تكوينها، وفي الجبال وسر وجودها، وفي الأنهار ومسالك ينابيعها ومصادرها ومواردها، وفي الثمرات وكون كل منها مؤلفاً من زوجين اثنين مذكر ومؤنث، وفي

1 - سورة الإسراء، الآيةان: 9 - 10.

2 - الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّة الميداني الدمشقي، ص: 233.

3 - سورة الرعد، الآية: 3.

النظام الدقيق الذي يغشي الله فيه الليل النهار - مستوى دقيق لا يحسنه ولا يستطيعه إلا الباحثون العلميون الذين يتابعون البحث والتفكر والاستنباط، ولذلك ذيل الله الآية بقوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**¹. وفي لفت أنظار فئة متوسطة الذكاء من الناس، وهم المتعقلون، الذين لهم خبرة في تصيد الأدلة وعقلها وربطها بما تدل عليه من حقائق- عرض القرآن أمامهم أدلة تحتاج إلى شيء من التعقل والتأمل، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: **﴿وَفِي الْأَرْضِ فِطْعٌ مُّتَجَوِّراتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُبْضٌ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**²، فمستوى إدراك القطع المتجاورات من الأرض، والجنان وما فيها من أشجار مختلفة الصفات، ومختلفة الثمرات؛ إذ بعضها أفضل من بعض في الأكل، مع أنها تستقي بماء واحد أمر يحتاج إلى تأمل وراء البديهية، وإلى تعقل مناسب، ولا يكفي فيه مجرد لفت النظر إليه بالقول، بل لا بد فيه من التأمل والتعقل بضبط شroud النفس مع الأهواء، ولذلك ذيل الله الآية بقوله **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**³.

وفي لفت أنظار الفئة الدنيا من الناس في الذكاء، -ويسمون بالدهماء من الناس، وهم الذين لهم حالة فكرية لا تعمل في تصيد الدلائل وعقلها، وإدراك الحقائق بها- عرض القرآن أمامهم أدلة واضحة لا تحتاج إلى جهد فكري، ولذلك ينبههم الله ويذكرهم عن طريق أسماعهم، ويكشف لهم اقتران الحقائق الدينية بأدلتها الكونية التي يشاهدونها في أنفسهم وفيما حولهم من الأدلة الحسية التي تتناسب مع قدرتهم المعتادة. فمن أمثلة ذلك قول الله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾**⁴ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ⁵، وقول الله سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ⁵، فنوم الناس بالليل والنهار وحاجتهم إليه وعمل الناس لاكتساب الرزق يبتغونه من فضل الله وحاجتهم إليه من الأمور البديهية التي يشترك في إدراكها الناس جميعاً مهما تنازلت مستوياتهم الفكرية، فلا يحتاج التبصر فيها إلى أكثر من لفت النظر بالقول، وذلك كاف في أن يشعروا بعجزهم، ويشعروا بقدرة الله وحكمته الذي خلق فيهم الحاجة، ويسر لهم وسائل قضائها.

1 - الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها... لحبنة، ص: 236.

2 - الرعد: 4.

3 - المصدر السابق، ص: 235.

4 - سورة الروم، الآية: 22.

5- سورة يونس، الآية: 67.

وكون الليل نعمة من الله ليسكن الناس فيه، وكون النهار مضيئاً ليعمل الناس فيه، ويعملوا في كسب أرزاقهم أمران واضحان بدهيان، لا يحتاج إدراكهما إلا إلى لفت النظر إليهما بالقول. فالذين يسمعون ممن توافرت فيهم شروط التكليف سيدركون ذلك دون إجهاد عقلي، ولذلك ذيل الله الآيتين السابقتين بقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}¹. وفي سورة النحل آيات كريمات جمع الله فيها طائفة من الأدلة الكونية، فيها مراعاة للمستويات الفكرية الثلاث، ويختتم لكل مستوى بما يناسبه من السمع لفئة الدهماء، والعقل لفئة المتعلقين، والفكر لفئة المتفكرين².

وعلى أساس حرص القرآن على أن يكون الجدل مع أصناف الناس، كل بحسب حاله، فقد أوصى أن يكون بالحسنى مع أهل الكتاب لما لهم من معرفة بالله وبأنبيائه مما يقتضي مجادلتهم بالحسنى والمعرفة، فربما كانوا قادة للناس بسبب ما عندهم من معرفة لذلك، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَفُولُوا بِأَمْنًا بِالَّذِي نَزَّلَ إِلَيْنَا وَنَزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}³.

يقول ابن ناصر السعدي في تفسيره: "ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع"⁴، ويقول الطبري رحمه الله: " لا معنى لقول من قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال وزعم أنها منسوخة، لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل، وقد بينا في غير موضع من كتابنا أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل⁵، فالآية تحت على ضرورة أن تكون مجادلتنا لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بأن الله واحد وعلى الإيمان بالأنبياء والرسول وما جاؤوا به، ولا نناظرهم بشيء يحصل به القدح في شيء مما معهم من الحق، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل بحسن الحوار والأدب الرفيع، ويقبل ما معه من الحق، وليس من الواقعية في المناظرة القدح في جميع ما مع الخصوم من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن آداب المناظرة.

1 - الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها... لحبنة، 235.

2 - ينظر في سورة النحل آيات، 65، 66، 67، 68، 69.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 46.

4 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ص: 632.

5 - جامع البيان في تأويل القرآن، 48/20.

ثانيا: الواقعية في التربية:

تهدف التربية الإسلامية في وسائلها إلى تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك، ومن واقعية هذه الوسائل أن تكون ملائمة للجوانب الإنسانية المختلفة بالنظر إلى الأفراد، وهي الجوانب الفكرية والنفسية، وملائمة للأحوال والطبائع المتفاوتة بالنظر إلى الجماعات. والوسائل التربوية في الإسلام كثيرة، ومن كبريات عناصرها الترغيب والترهيب والتدرج والهداية للتي هي أقوم، وتحت كل عنصر من هذه العناصر فروع. وأنا أثرت الحديث عن فرع من فروع الوسيلة الأخيرة (الهداية للتي هي أقوم) لما له من اتصال مباشر بالبحث، وهو وسيلة :

وذلك الفرع هو: الإقناع الفكري: وله طرق شتى. والمربي الحكيم هو الذي يحسن معرفة خصائص الفرد الفكرية والنفسية، فيستعمل معه طرق الإقناع المناسبة له. ولنزول القرآن هداية شاملة للناس كان مشتملا على كل الطرق الموصلة إلى قناعة فكرية بكمال ما يدعو إليه من خير، ويضاف إلى هذا أنه كان إبان نزوله منجماً على رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قد كان ينزل موافقاً للحكمة التربوية التي تقتضيها مناسبة النزول لطائفة الآيات المنزلة، سواء كانت التربية للرسول، أم للمؤمنين، أم للمنافقين، أم للمشركين، أم لأهل الكتاب، أم للناس بشكل عام. وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل في كتابه مثلاً من كل وسيلة من وسائل التربية ذات الأثر الحسن، قال الله تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا¹. "اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور. هذا هو الأصل في اللغة، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبیین، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر، ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوي البيان"². إذن، التصريف: يعني التحويل في سائر وسائل الهداية، والتنويع في أساليب الإقناع ووسائله من وجه إلى وجه آخر بحسب ما يقتضيه أحوال المخاطبين، الفكرية والنفسية، الفردية أو الاجتماعية.

ومن واقعية القرآن الكريم أنه نوع في استعمال الطرق التربوية للوصول إلى الإقناع الفكري. ومن ذلك الحجج العقلية والأدلة الحسية والوجدانية، والمؤثرات النفسية، مثل الخطابة، والأمثال، والتشبيه والتمثيل، والقصص التاريخية ونحو ذلك.

ومن أمثلة الإقناع بالأدلة العقلية الآيات القرآنية التي تبرهن على وحدانية الله تعالى، منها قول الله تعالى: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }³. وقد تضمنت هذه الآية في استدلالها برهاناً قاطعاً على نفي

1 - سورة الكهف، الآية: 53 وانظر أيضاً: آية 41 و89 في سورة الإسراء.

2 - مفاتيح الغيب 345/20.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 23.

فكرة تعدد الآلهة الأرباب، وهذا البرهان هو ما يسمى ببرهان التمانع، كما يعرف ذلك المنطقيون.

ومنها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذَا

لَا بُتْغَوْا إِلَىٰ ذِهِ الْعَرْشِ سَبِيلًا ۖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُفُولُونَ عُلُوًّا

كَبِيرًا﴾¹. قال القرطبي في تفسيره: "وقال قتادة : المعنى إذا لا ابتغت الآلهة القرية إلى

ذي العرش سبيلا ، والتمست الزلفة عنده لأنهم دونه، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله - سبحانه وتعالى - فقد بطل أنها آلهة، نزه سبحانه نفسه وقده ومجده عما لا يليق به"².

ومنها: قول الله عز من قائل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ

إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا

يَصِفُونَ﴾³. قال القرطبي: "والتقدير : ما اتخذ الله ولدا كما زعمتم، ولا كان معه إله فيما

خلق. وفي الكلام حذف؛ والمعنى : لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه. ﴿وَلَعَلَّ

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي ولغالب وطلب القوي الضعيف كالعادة بين الملوك، وكان

الضعيف المغلوب لا يستحق الإلهية. وهذا الذي يدل على نفي الشريك يدل على نفي الولد أيضا؛ لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك. {سبحان الله عما يصفون} تنزيها له عن الولد والشريك"⁴. وعلى هذا النسق يوجه القرآن الكريم لفئتي الباحثين المتعقلين، والباحثين العلميين المفكرين من أجل المناقشة.

ومن أمثلة الإقناع بالأدلة الكونية الحسية قصة عزيز؛ إذ مر على قرية أموات، فقال كما حكى عنه القرآن: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه} وبعث حمارة وهو يشاهد بعثه بكل التفاصيل المذكورة في الآية، فبين له بالدليل الحسي كيفية إحياء الموتى وقدرته على ذلك، قال الله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ غُرُوشِهَا قَالَ أَبَىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ

فَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَالَ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ بَانْظِرْ إِلَىٰ

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

1 - سورة الإسراء، الآية: 42 - 43.

2 - الجامع لأحكام القرآن: 266 / 10.

3 - سورة المؤمنون، الآية: 92.

4 - تفسير القرطبي 146/12.

وَانْظُرِ إِلَى الْعِظَمِ كَيْفَ نُنَشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ
أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ¹، وكل الآيات الكونية وآيات الأنفس من قبيل الأدلة
الحسية.

وهكذا يعرض القرآن أمام الفئة الدنيا من الناس في الذكاء أدلة واضحة لا تحتاج إلى
جهد فكري تكشف لهم اقتران الحقائق الدينية بأدلتها الكونية التي يشاهدونها في أنفسهم
وفيما حولهم من الأدلة الحسية التي تتناسب مع قدرتهم المعتادة.

ح- ومن أمثلة الإقناع بالأساليب الخطابية المؤثرة في النفوس لما فيها من روائع أدبية، وهذا
الإقناع يأتي على صورة خطابية بيانية جميلة ذات روائع أدبية التي تعشقها الأنفس بطبعها
لما لها من وقع شديد على المشاعر، ومن ذلك قول الله عز وجل: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا تُوَفَّدُونَ عَلَيْهِ مِنْ
النَّارِ آبُغَاءٌ حَلِيَّةٌ أَوْ مَتَّعَ زَبَدٌ مِثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ
فَإِذَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ². "هذا مثل ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله

بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية، وينتفع به أهل الأرض، وبالذهب والفضة والحديد
والصفر وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله بالزبد
الذي يرمى به السيل ويزيد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيت، وليس في الزبد منفعة، وليس
له دوام...الزبد: ما يحمله السيل من غثاء ونحوه. والرابي: المنتفخ الذي ربا ومنه الربوة، والمتاع: ما
يستمتع الناس به في مرافقهم وحوائجهم {يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} أي يضرب أمثال

الحق والباطل جُفَاءً يجفاه السيل، أي يرمي به {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي الْأَرْضِ} يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار³.

تأمل معي هذا المثل الرائع الذي ضربه الله تعالى ليملاً الأنفس قناعة فكرية إيمانية
بأن الظفر والبقاء في آخر الصراع للحق، وأما الباطل فيتلاشى ويزهق مهما طفا على
السطوح وظهر أمره، كما أن الظفر أيضاً لأهل الحق على أهل الباطل مهما أجفل
المبطلون وأزبدوا، "لأن المقام ليس بحاجة إلى حجج عقلية جدلية، ولكن يتطلب مثيرات
مشاعر الشجاعة والإقدام في قلوب المؤمنين لمصارعة المبطلين، والثبات على ما هم
عليه من حق، ويتطلب أيضاً مثيرات مشاعر الجبن والإحساس بالخيبة والفشل في قلوب
الكافرين الذين يتخذون الحق بالمظاهر التي لا وزن لها، ولا استقرار ولا ثبات"⁴.

1 - سورة البقرة، الآية: 258.

2 - سورة الرعد، الآية: 19.

3 - التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ) 403/1.

4 - الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني، ص: 247.

خ- ومن أمثلة الإقناع عن طريق عرض الحقائق المقرونة بحججها قول الله تعالى لرسوله

سيدنا وحبينا محمد صلوات الله عليه في سورة الأعراف: {قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً أَلَيْسَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ يُحْيِي ۚ وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} ¹. أما قوله تعالى: {الَّذِي لَهُ

مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلى قوله: {وَاتَّبِعُوهُ} "فاعلم أنه - تعالى - لما أمر

رسوله بأن يقول للناس كلهم إني رسول الله إليكم أردفه بذكر ما يدل على صحة هذه الدعوى. واعلم أن هذه الدعوى لا تتم ولا تظهر فائدتها إلا بتقرير أصول ثلاثة:

الأصل الأول: إثبات أن للعالم إلها حيا عالما قادرا. والذي يدل عليه ما ذكره في

قوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} وذلك لأن أجسام السموات

والأرض تدل على افتقارها إلى الصانع الحي العالم القادر.

والأصل الثاني: إثبات أن إله العالم واحد منزّه عن الشريك والضد والند، وإليه الإشارة

بقوله: لا إله إلا هو وإنما افتقرنا في حسن التكليف وجواز بعثة الرسل إلى تقرير هذا

الأصل، لأن بتقدير أن يكون للعالم إلهان، وأرسل أحد الإلهين نبيا إلى الخلق فلعل هذا

الإنسان الذي يدعوه الرسول إلى عبادة هذا الإله ما كان مخلوقا له، بل كان مخلوقا للإله

الثاني، وعلى هذا التقدير فإنه يجب على هذا الإنسان عبادة هذا الإله وطاعته، فكان

بعثة الرسول إليه، وإيجاب الطاعة عليه ظلما وباطلا.

والأصل الثالث: إثبات أنه تعالى قادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة،

لأن بتقدير أن لا يثبت ذلك، كان الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية عبثا ولغوا،

وإلى تقدير هذا الأصل الإشارة بقوله: يحيي ويميت لأنه لما أحيا أولا، ثبت كونه قادرا

على الإحياء ثانيا، فيكون قادرا على الإعادة والحشر والنشر، واعلم أنه لما ثبت القول

بصحة هذه الأصول الثلاثة. ثبت أنه يصح من الله تعالى إرسال الرسل ومطالبة الخلق

بالتكاليف، لأن على هذا التقدير الخلق كلهم عبيده ولا مولى لهم سواه" ².

انظر إلى الأسلوب المتبع في هذه الآية الكريمة، ففيه منتهى الأناة والهدوء، وقد

قرنت الدعوة إلى توحيد الألوهية بالدليل عليها، ألا وهو انفراد الله بالربوبية، فهو الذي له

ملك السماوات والأرض، وهو الذي يحيي ويميت. فآمنوا بالله ورسوله وهذا الترتيب في

غاية الحسن، وأيضا أن من حاول إثبات مطلوب وجب عليه بيانه بصفات مؤهلة لقبوله،

1 - سورة الأعراف، الآية: 158.

2 - مفاتيح الغيب للرازي، (15/384-385).

فالمطلوب هنا توحيد الله بالعبادة، والربوبية. وصفات الربوبية: الملك والتدبير والإحياء والإماتة، فثبت أنه يصح من إله متصف بهذه الصفاته إرسال الرسل ومطالبة الخلق كلهم أن يكونوا عبيده ولا مولى لهم سواه.

هذه نماذج قدمتها للتدليل على منهج واقعية القرآن المجيد في التعليم والتربية، وإلا فالقرآن الكريم كله واقعي في بياناته التعليمية والتربوية. فما ذكرت من الوسائل يكون منبأ عما لم أذكر إن شاء الله. ولعلني قدأبدت في مباحث هذا الفصل أن من أبرز خصائص القرآن الخطابية النقدية خاصة التصديق والهيمنة باعتبار القرآن كتابا خاتما لسائر الرسالات السماوية، وخاصة الوسطية باعتباره ديننا معتدلا، لاجفاء فيه ولاغلو، وخاصة الواقعية باعتبار مطابقة ديننا الإسلامي لواقع الإنسان، وأما الفصل التالي فسأتناول في مباحثه بإذن الله نماذج من أساليب الفكر النقدي في القرآن المجيد، مقتصرًا على ذكر أسلوب التقرير وأسلوب المثل وأسلوب القصص.

الفصل الثاني: أساليب الفكر النقدي في القرآن الكريم:

منذ نزول القرآن المجيد أخذ أسلوب خطابه اهتمام العرب، فاندھش أساطين البيان أمام بلاغته؛ لأنه كلام الله المعجز، الذي اكتملت معانيه الإعجازية من كافة الجوانب، فهو أس أساليب الفنون العربية، تجد بين الحرفين مناسبة وحكا، وبين كلماته ملاءمة وتشاكلا، وبين عباراته ترابطا وتكاملا. "الكلام يقوم بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، وربط لهما ناظم، ثم إن القرآن هو الذي جمع نهايات الفضل في هذه العناصر الثلاثة، فإذا تأملته وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه. وأما المعاني فلا يخفى على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها وصفاتها"¹، ويشير ابن منظور في اللسان إلى أن الأسلوب² العربي فيه قسم حسي يمثل الوضع الأسبق للفظ، كسطر النخيل والطريق المسلوك، والأسلوب بمثابة خطة عليه يسلكها السائر، وفيه قسم معنوي يمثل الوضع اللغوي حين تنتقل المفردات من معانيها الحسية إلى المعاني العقلية أو النفسية أو الأدبية، وعلى هذا المعنى يقال للأسلوب هو الفن من القول، أو الطريق، أو الوجه، أو المذهب. وبعبارة أخرى فالأسلوب هو فن من الكلام يكون تقريرا أو حكما أو أمثالا أو حوارا أو قصصا أو تشبيها أو مجازا أو كناية. ونقصد من الأسلوب معناه الأوسع المتجاوز الوضع اللفظي إلى كل المعاني التي تتخذ وسيلة للتأثير أو الإقناع.

والذي يعنينا هنا في الأساليب طريقة عرض القرآن للألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، وأود أن أتناول في هذا الفصل ثلاثة مباحث: أسلوب التقرير - والمثل - والقصص، وفي كل مبحث ثلاثة مطالب:

المبحث الأول: أسلوب التقرير:

المراد بالتقرير: هو "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ويجب أن يليها الشيء الذي تقرر به تقول في التقرير بالفعل أضربت زيدا وبالفعل أنت ضربت زيدا وبالمفعول أريدا ضربت"³، والأسلوب التقريري هو أسلوب علمي هدفه عرض الأخبار والمعلومات المباشرة البعيدة عن الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والمجاز، ومحاولة تقريرها كحقائق وتأكيدا في ذهن المتلقي بهدف إقناعه بها، وذلك عن طريق الأسلوب الإنشائي أو الخبري أو التفسيري أو الحجاجي، وسيكون

1 - الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. محمد محمد أبو موسى، ص: 53.
2 - يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب. يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوب الضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، 473/1.
3 - انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، 26/1.

حديثي في هذا المبحث حول أسلوب الاستفهام من الإنشائي وأسلوب التوكيد وأسلوب التكرار من الخبري :

المطلب الأول: أسلوب الاستفهام:

إن الاستفهام في كلام العرب يكون في الأصل للسؤال عن أمر مجهول لدى السائل، وهو طلب الفهم¹. وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى يذكرها البلاغيون، قال القزويني: "ثم هذه الألفاظ (أي أدوات الاستفهام) كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام"². قال أبو عبيدة -في قوله تعالى: {ءَأَنْتَ فُلْتِ لِلنَّاسِ إِتَّخِذُونِي وَاءُمَّيَ إِلَهَيْهِمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ}³ -: هذا باب تفهيم وليس باستفهام عن جهل ليعلمه. وهو يخرج مخرج الاستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك ويتهدد به، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن؟ ويقول الرجل لعبده: أفعلت كذا؟ وهو يعلم أنه لم يفعله ولكن يحذره وقال جرير:

أستم خير من ركب المطايا *** وأندى العالمين بطون راح

ولم يستفهم، ولو كان استفهاماً ما أعطاه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي مائة من الإبل برعاتها⁴. وورد الاستفهام في القرآن المجيد أيضاً على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، كما في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا}⁵، وقوله: {فَالْإِنشَاءُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}⁶. وهذا الاستعمال في القرآن كثير في الأسئلة التي يحكيها، وأكثر منه أن يخرج أسلوب الاستفهام في القرآن عن أصل وضعه، لأن الاستفهام هو طلب الفهم، وذلك محال على الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وإنما يستفهم خلقه ليذكرهم ويقررهم على ما كانوا على علم به. وهذا أسلوب قرآني بديع. ولذا وجدنا الاستفهام في القرآن واردا لمعان أخرى، أذكر منها:

- الاستفهام الإنكاري والتقريبي:

الاستفهام قسمان، أحدهما: يأتي بمعنى الإنشاء، وهو ما يذكره البلاغيون من معان يدل عليها سياق الكلام. وثانيهما: يكون بمعنى الخبر، وهو قسمان، أحدهما: نفي ويسمى

1 - الاستفهام لغة، يقال: أفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه. واستفهمه: سأله أن يفهمه. وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً. انظر: اللسان 459/12. وَفَهُمَ الشَّيْءَ بِالْكَسْرِ فَهُمًا وَفَهَامَةً أَيْ عَلِمَهُ. وَقُلَانٌ فَهِمٌ. انظر: مختار الصحاح، ص 244. واصطلاحاً، جاء في التعريفات للرجزاني أن الاستفهام: استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور.

2 - الإيضاح في علوم البلاغة، 68/3.

3 - سورة المائدة، الآية: 118.

4 - مجاز القرآن: 183/1-184.

5 - سورة النازعات، الآية: 41.

6 - سورة الشعراء، الآية: 22.

استفهام إنكار؛ لأنه يطلب به إنكار المخاطب، والثاني: إثبات، ويسمى استفهام تقرير؛ لأنه يطلب به إقرار المخاطب به.

الأول- الاستفهام الإنكاري: ومعناه: "الجود والاستنكار: استفهامك أمرا تتكره"¹، و "المعنى فيه على أن ما بعد الأداة منفي، ولذلك تصحبه إلا، كقوله تعالى: {بَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْفَوْمُ الْبَسْفُونَ}²، وقوله تعالى: {وَهْلُ يُجَزَى إِلَّا الْكَفُورُ}³، ويعطف عليه المنفي كقوله تعالى: {بِمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ}⁴، أي: لا يهدي، وهو كثير، ومنه: {أَبَانتَ تُنْفِذُ مَن فِي النَّارِ}⁵، أي: لست تنفذ من في النار، {أَبَانتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}⁶، أي لا تكره، ويأتي الاستفهام الإنكاري على وجهين:

1 - الإنكار التكذيبي⁷: "وهو ما اقتضى أن ما بعده غير واقع، وأن مدعيه كاذب، نحو {أَبَاصْبِيكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلِكَةِ إِنثًا}⁸"⁹، وذلك "للتعريض بأن المخاطب ادعاه وقصد تكذيبه، كقوله تعالى: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}¹⁰، ويكون في الماضي بمعنى: لم يكن، كقوله: {أَبَاصْبِيكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلِكَةِ إِنثًا}¹¹، ويكون في المضارع بمعنى لا يكون، نحو قوله تعالى: {أَنْلِزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ}¹²"¹³، "وقديكون لشيء لم يحدث في الماضي ولن يحدث في المستقبل"¹⁴، ومنه الآية السابقة، أي ليس صحيحا ما تدعون أننا سنلزمكم ونرغمكم على الإيمان بالرسالة مع كراهيتكم لها، فهو إنكار أن يحدث هذا الإلزام ويقع.

1 - لسان العرب مادة نكر: 232/5.

2 - سورة الأحقاف، الآية: 34

3 - سورة سبأ، الآية: 17.

4 - سورة الروم، الآية: 28.

5 - سورة الزمر، الآية: 18

6 - سورة هود، الآية: 99.

7 - البرهان في علوم القرآن للزكشي، 328/2

8 - سورة الإسراء، الآية: 40.

9 - حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون لأحمد الدمنهوري، ص: 43.

10 - سورة الصافات، الآية: 153.

11 - سورة الإسراء، الآية: 40.

12 - سورة هود، جزء من الآية: 28.

13 - ينظر: البرهان في علوم القرآن للزكشي، 328/2- 331

14 - البلاغة فنونها وأفنانها ل فضل حسن عباس، ص: 195-196.

3- الإنكار التوبيخي: التوبيخ هو التعبير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي أو على أمر يخاف المرء أن يقع في المستقبل، فهو بمعنى: ما كان ينبغي أن يكون هذا، نحو: أعصيت ربك، أو بمعنى: لا ينبغي أن يكون، نحو: أتعصي ربك، فالغرض منه الذم على ماضٍ والارتداع عن مستقبل¹، "وهو الذي يقتضي أن ما بعده واقع وأن فاعله ملوم، نحو قوله تعالى: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}²،³ فهو سبحانه يوبخهم على أن يقع منهم ذلك، وهو يكون لشيء حدث بالفعل، أو يمكن أن يحدث، وهذا هو الفرق بينه والتكذبي، فقد عرفت أن التكذبي هو ما لم يحدث في الماضي، ولن يحدث في المستقبل. ومن هذا الغرض قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا}⁴، فالاستفهام في هذه الآية الكريمة "على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض، أي ويحكم كيف تكفرون⁵."

وأسرار التعبير بأسلوب الاستفهام الإنكاري بنوعيه في الخطاب النقدي أو الحوارية كثيرة، منها:

- الدلالة على أن المستفهم عنه في الاستفهام الإنكاري أمر منكر سواء أكان عرفاً أو شريعاً، ولذلك كان من أهم الأغراض البلاغية وأكثرها شيوعاً، وله مساحة واسعة في بنية الاستفهام في القرآن، وذلك أن الاستفهام جملة من الانفعالات تتازع النفس.

- تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: فافعل فيفضحه ذلك. وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله⁶.

- التعبير بالاستفهام مكان التوبيخ من لغتهم، ومن أجل إثارة انتباه السامعين وطلب الجواب منهم لعلهم يفكرون بجدية في حالهم، ويصلون بأنفسهم إلى ما يصلح مستقبلهم⁷. من أهم المعاني الثانية التي يخرج إليها الاستفهام أنك لا تقرر المخاطب في شيء وإنما تتكر عليه، وتستهن منه ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل⁸.

- أن الإنكار قد يجيء لتعريف المخاطب أن ذلك المدعى ممتنع عليه وليس من قدرته، كقوله تعالى: {أَبَاقَاتٌ تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ

1 - شروح التلخيص، مواهب الفتاح: 296/2.

2 - سورة الصافات، الآية: 95.

3 - حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون لأحمد الدمنهوري، ص: 43.

4 - سورة البقرة، الآية: 27.

5 - معاني القرآن للفراء، 23/1.

6 - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: 151.

7 - من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة: 117/2.

8 - البلاغة فنونها وافنانها ل فضل حسن عباس، ص 138.

مُبِينٍ¹، لأن إسماع الصم لا يدعيه أحد، بل المعنى: أن إسماعهم لا يمكن لأنهم بمنزلة الصم والعمي، وهذا أبلغ من إنكار الفعل نفسه.

الثاني: الاستفهام التقريري تعريفه وأدواته ومسائله:

- تعريفه: "قيل: المراد به: الحكم بثبوت، فهو خبر بأن المذكور عقب الأداة واقع، أو طلب إقرار المخاطب به من كون السائل يعلم، فهو استفهام يقرر المخاطب: أي يطلب منه أن يكون مقرا به. وفي كلام أهل الفن ما يقتضي الاحتمالين. والثاني أظهر وفي الإيضاح تصريح به"².

- أدواته: له أداتان:

1- "الهمزة" وهي قد تخرج عن دلالتها على معنى الاستفهام الحقيقي لتدل على معانٍ آخر، منها معنى التقرير، ويجب أن يلي الأداة الشيء الذي تقرر بها، فتقول في تقرير الفعل: "أضربت زيدا" والفاعل نحو: "أأنت ضربت" أو المفعول "أزيدا ضربت" كما يجب في الاستفهام الحقيقي. وقوله تعالى: {ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا يَبْرَاهِيمُ}،³

يحتمل الاستفهام الحقيقي بأن يكونوا لم يعلموا أنه الفاعل. والتقرير بأن يكونوا علموا ولا يكون استفهاما عن الفعل ولا تقريراً له لأنه لم يله؛ ولأنه أجاب بالفاعل بقوله: {بَلْ فَعَلَهُ

كَبِيرُهُمْ}،⁴ يعني أن الآية الكريمة محتملة لوجهين: الأول: الاستفهام الحقيقي، إذا كان قوم إبراهيم - عليه السلام - يجهلون الفاعل الحقيقي. الثاني: التقرير، إذا علموا أنه الفاعل، وكان مرادهم حمل النبي إبراهيم عليه السلام على الإقرار بأنه الفاعل.

2- "هل": من المعاني التي ساقها ابن هشام في المغني لـ "هل" معنى التقرير مستدلاً بتفسير ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى: {هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ

الدَّهْرِ}،⁵ فقال: "ولعله أراد الاستفهام في الآية للتقرير، وليس باستفهام حقيقي، وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين، فقال بعضهم: {هَلْ} هنا للاستفهام التقريري، والمقرر به من أنكر البعث، وقد علم أنهم يقولون: نعم، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه، فيقال لهم: فالذي أحدث الناس بعد أن لم يكونوا، كيف يمتنع عليه إحيائهم بعد موتهم؟... وقال

1 - الزخرف، الآية: 39.

2 - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، 275/3.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 62.

4 - سورة الأنبياء، الآية: 63. ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، 333/2، دلائل الإعجاز للجرجاني: 142-145.

5 - سورة الإنسان، الآية: 1.

بعضهم: لا تكون "هل" للاستفهام التقريري، وإنما ذلك من خصائص الهمزة¹، وليس كما قال²، ثم نقل عن بعضهم أن "هل" تأتي تقريراً في قوله تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ فَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ}³. والاستفهام التقريري له معنيان: هما التحقيق، والتثبيت، فيكون حينئذٍ خبراً، والآخر: طلب إقرار المخاطب بأمر يعلمه⁴.

1- التحقيق والتثبيت، كقولك لإنسان وقد نهيته عن فعل ما، ولكنه فعله: أفعلت هذا؟ أنت لا تستفهم أفعَل أم لم يفعل؟ لذلك أنت لا تريد جواباً، بل تريد أن تخبره بأنه فعل، وأن تنتزع اعترافه بذلك. وهذا كثير في التنزيل، يقول العبد الصالح لموسى عليه الصلاة والسلام {أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}⁵، فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، ومنه قوله سبحانه في شأن إخوة يوسف عليه السلام: {أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ}⁶، وهم لا ينكرون ذلك، فهو يريد تثبيت أخذ الميثاق وتحقيقه. والمعنى: قد علمتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله.

ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِمَّنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}⁷، فإن موسى لا ينكر ذلك، وإنما يريد فرعون تثبيت هذا الأمر، أي: قدريناك فينا وليداً.

وهذا القسم من الاستفهام التقريري: هو إنشاء من حيث اللفظ، لأن صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء - كما عرفت-، خبر من حيث المعنى، لأن معناه -كما رأيت- تثبيت الخبر وتحقيقه. وهذه الجمل ألم نربك، ألم تعلموا، ألم نشرح لك صدرك، لفظها إنشاء ومعانيها أخبار. وهذا القسم كذلك لا يطلب المتكلم له جواباً؛ لأنه يريد تحقيق الخبر فقط، فهو لا يحتاج إلى جواب من المخاطب.

1 - ولعل ابن هشام يقصد أبا حيان، فقد قال جلال الدين السيوطي في همع الهوامع في شرح جمع الجوامع مانعاً أن يكون "هل" للتقرير: قال أبو حيان: والمعروف أنَّ ذلك (أي التقرير) للهمزة دون "هل"، وقد أنكر سيبويه قبل أبي حيان في الكتاب مجيء "هل" للتقرير، قائلاً: "ومما يدلُّك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة "هل" أنك تقول للرجل: أطربا! وأنت تعلم أنه قد طرب، لتوبخه وتقرره. ولا تقول هذا بعد "هل". انظر: كتاب سيبويه (المتوفى: 180 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م.

2 - مغني اللبیبین کتب الأعراب: 461.

3 - سورة الفجر، الآية: 4.

4 - شروح التلخیص: وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، 307/2، نشر: دار أدب الحوزة دون ط، ت.

5 - سورة الكهف، الآية: 74.

6 - يوسف، الآية: 80.

7 - سورة الشعراء، الآية: 17.

2 - طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم: وهذا كثير في التنزيل كذلك. قال تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} ¹، وقال سبحانه: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} ². ويختلف هذا القسم عن سابقه بما يلي:

أ- هو إنشاء لفظا ومعنى، - لفظا، لأنها على صورة الاستفهام، والاستفهام من أقسام الإنشاء،

- معنى، لأن المقصود من العبارة حمل المخاطب على أن يقر بذلك كما في الآيات الكريمة.

ب- أن هذا القسم يحتاج إلى جواب، ألا ترى أنه قد جاء في كثير من الآيات الكريمة جواب على هذا الاستفهام، مثل قوله- سبحانه-: {بلى} في الآيات الكريمة المذكورة، وهكذا حين تقول لتلميذك: ألسنت بأستاذك؟ فإنك تنتظر منه جوابا. ومنها:

- أن همزة التقرير تنقل النفي إلى الإثبات، والإثبات إلى النفي، ويمثل له البلاغيون بقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا *** وأندى العالمين بطون راح³، أي: "أنتم كذاكم" وكقول الله - عز وجل: {ءَأَنْتَ فُلْتِ لِلنَّاسِ إِتَّخِذُونِي وَءِئِمِّي إِلَٰهِيں مِّن دُونِ إِلَٰهٍ} ⁴، أي: لم يأذن لكم، ولم تقل للناس: اتخذوني وأمي إلهين، ولو كانت استفهاما محضاً لأقرت الإثبات على إثباته والنفي على نفيه. فإذا دخلت (أي: همزة التقرير) على الموجب نفته، وإذا دخلت على النفي نفته. ونفي النفي عائد به إلى الإثبات⁵، ويدل هذا على أن الكلام مع التقرير موجب كما تقدم، وبيان ذلك أن "الاستفهام في التقرير للنفي فإذا دخل على النفي صار الكلام موجبا، ولذلك يعطف عليه الموجب الصريح، ويعطف هو على الموجب الصريح"⁶.

فالأول: كقوله تعالى: {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} ⁷، وقوله سبحانه: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَءَاوَىٰ} ¹، وقوله: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} ². والثاني: كقوله تعالى: {أَكْذَبْتُمْ بِءَايَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا} ³.

1 - سورة الأعراف، الآية: 172.

2 - الزمر، الآية: 35.

3 - من قصيدته في مدح عبد الملك بن مروان ومطلعها: أتصحو بل فؤادك غير صاح *** عشية هم صحبتك بالرواح.

4 - سورة المائدة، الآية: 118.

5 - الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، 466/2.

6 - من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، ص: 127، نشر: نهضة مصر: 2005م.

7 - سورة الفيل، الآية: 2.

- الفرق بين الاستفهام الحقيقي والاستفهام التقريري، أشار أحمد بن عبد النور المالقي إلى هذا في كتابه: "رصف المباني في شرح حروف المعاني" فقال: "والفرق بينه - يقصد الاستفهام التقريري - وبين الاستفهام - يقصد الاستفهام الحقيقي - أنَّ الاستفهام ممَّن لا يَعْلَم لمن يَعْلَم، أو يُتَوَهَّم منه العِلْمُ ليعْلَم، والتقرير ممَّن يَعْلَم لمن يَعْلَم لِثُبُوتِهِ على فعله فيكون جزاءً، أو يتحقق أنه فعله عن قصدٍ...، ومن هنا لا يراد بهذا النوع من الاستفهام طلب العلم؛ لأنه استفهام صادر ممن يعلم إلى شخص آخر يعلم، لكن المراد به هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بما يعرف⁴، ومنها:

- ذكر بعض النحويين أن التقرير هو المعنى الملازم للهمزة في غالب هذه المواضع المذكورة، وأن غيره من المعاني كالتوبيخ والتحقيق والتذكير... ينجر مع التقرير⁵، بمعنى أنه قد يجتمع مع التقرير التوبيخ كما في قوله تعالى: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}⁶، أو التحقيق كما تقدم في قوله: {ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يٰأَبْرَاهِيمُ}⁷، أو التذكير كما في قوله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}⁸9.

- قد يجتمع الاستفهام الواحد للإنكار والتقرير، وهو ما يسمى بالاستفهام الإنكاري التقريري كقوله: {قَبَّأَى الْبَرِيفَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}¹⁰، أي: ليس الكفار آمنين والذين آمنوا أحق بالأمن ولما كان أكثر مواقع التقرير دون الإنكار قال: {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}¹¹، وقد يحتملها قوله أيضا: {أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}¹². ويحتمل أنه استفهام تقرير وأنه طلب منهم أن يقرؤا بما عندهم تقرير ذلك، ولهذا قال مجاهد: التقدير "لا" فإنهم لما استفهموا استفهام تقرير بما لا

1 - سورة الضحى، الآية: 6.

2 - سورة الشرح، الآية: 1.

3 - النمل، الآية: 86.

4 - رصف المباني في شرح حروف المعاني؛ أحمد بن عبد النور المالقي، ص: 136.

5 - الجنى الداني في حروف المعاني المؤلف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: 749هـ) ص: 34، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1992 م.

6 - سورة الشعراء، الآية: 17.

7 - سورة الأنبياء، الآية: 62.

8 - الضحى، الآية: 6.

9 - تنظر هذه الأمثلة وغيرها في البرهان في علوم القرآن للزركشي، 335/2-336.

10 - سورة الأنعام، الآية: 82.

11 - سورة الأنعام، الآية: 83.

12 - سورة الحجرات، الآية: 12.

جواب له إلا أن يقولوا: "لا" جعلوا كأنهم قالوا، وهو قول الفارسي والزمخشري، ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التوبيخ على محبتهم لأكل لحم أخيه، فيكون ميتة. والمراد محبتهم له غيبته على سبيل المجاز و{فكرهتموه} بمعنى الأمر أي اكرهوه، ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التكذيب؛ أنهم لما كانت حالهم حال من يدعي محبة أكل لحم أخيه نسب ذلك إليهم، وكذبوا فيه فيكون فكرهتموه¹.

- من تتبع الاستفهام التقريري في القرآن يجده لا يكون بالهمزة وحدها مثل {آلَمْ نَشْرَحْ}، أو بها وب "ليس" مثل {أَلَيْسَ اللَّهُ} فقد يكون بالهمزة مع "لم" أو مع "ليس" كما سبق، وقد يكون بالهمزة وحدها من غير مصاحبة نفي، كما سبق في قوله تعالى: {ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِنَالِهَتِنَا يَا بُرْهِيمُ} وهذا على أنهم كانوا يعلمون أن إبراهيم - عليه السلام - هو الفاعل الحقيقي، وأرادوا أن يقرروه بما كان منه ليكون ذلك أدعى لتقريبه وإقامة الحجة عليه.

وقد يكون الاستفهام التقريري بغير الهمزة كذلك كما سبق في قوله تعالى: {هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً}²، فهذا الاستفهام تقرير، معناه التحقيق، لذلك ذهب كثير من العلماء إلى أن معنى "هل" في الآية الكريمة (قد) أي قد أتى على الإنسان حين من الدهر. ومما رجح فيه دلالة التقرير على الإنكار قوله تعالى: {هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً}، قال القرطبي: "هل" يراد بها "قد"، أنها بمعنى الاستفهام التقريري، أو الإنكاري، ولكن الظاهر فيها الاستفهام التقريري، فيكون معنى الجملة: أليس قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً³. والظاهر أن الزمخشري جعل "هل" بمعنى "قد". والاستفهام يستفاد من همزة مقدرة سبقتها، حتى ذهب ابن هشام إلى القول: "وبالغ الزمخشري فزعم أنها أبداً بمعنى "قد" وإنما الاستفهام مستفاد مع همزة مقدرة معها"⁴.

ثانياً: غايات أسلوب التقرير البلاغية والنقدية:

بعد هذا العرض وجدنا القرآن المجيد يستعمل أسلوب الاستفهام المجازي، لأنه يعطي المعاني "طبيعة تختلف عما هي عليه في صورتها الخبرية، فتجعلها أكثر حيوية، وتزيد من الإقناع والتأثير بها، وذلك لما في هذا الاستعمال من إثارة للسامع، وجذب

1 - البرهان في علوم القرآن، 344/2.

2 - سورة الإنسان، الآية: 1.

3 - الجامع لأحكام القرآن: 174/19.

4 - مغني اللبيب: 405/2، 406.

لانتباهه، ومن إشراكه في التفكير ليصل بنفسه إلى الجواب من دون أن يُملَى عليه¹، وهو الأمر الذي يدعو المفكرين النقاد والمحاورين إلى استعمال هذا الأسلوب لما في إيراد المعاني بأسلوب الاستفهام في المخاطبات والنقاشات من تشويق وإثارة للتفكير للاهتمام إلى معرفة وجه الصواب، يذكر البلاغيون أن "الغرض البياني من الاستفهام التقريري إلزام المخاطب بالحجة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريد المتكلم، وفي ذلك غرض نفسي، وذلك لأن البيان والبلاغة لهما صلة وثيقة بقضايا النفس، وبعلم النفس كذلك"²، كما أن "السر في جمال أسلوب الاستفهام هنا (أعني الإنكاري) والعدول إليه عن أسلوب النفي، هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً"³.

و مع كل هذا فالأسرار والفوائد البلاغية من الاستفهام الدال على الإنكار لا يبينها جل العلماء المهتمين بشأن البلاغة، إلا أن عبد القاهر الجرجاني ببصيرته الواعية، ونظرة الثاقب، وحسه الجمالي يفتح الباب على مصراعيه للخوض فيما وراء هذه الأغراض، ليؤكد أن الاستفهام الإنكاري يأتي "لِيَتَنَبَّه السامعُ حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إمّا لأنه قد ادّعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دَعَوَاه قيل له: "فافْعَلْ"، فيَفْضُحُه ذلك، وإمّا لأنه هم بأن يفعل ما لا يَسْتَصِوب فِعْلُه، فإذا رُوجع فيه تنبّه وعرف الخطأ، وإمّا لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله"⁴. وقد بين ابن جني قبله في الخصائص بعض أسرار الاستفهام المجازي عموماً، فقال: وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء، منها: أن يرى المسؤول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، ومنها: أن يتعرف حال المسؤول هل هو عارف بما السائل عارف به، ومنها: أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض، ومنها: أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها⁵.

الاستفهام في القرآن المجيد يشكل أداة توصيل لمختلف المعاني والأهداف التي لا يجهر بها التعبير القرآني، وإنما يدل عليها سياق الكلام، ويعطي المعاني قيمة كبيرة بلاغية باعتباره وسيلة مهمة تعالج جملة من الانفعالات التي تتنازع داخل النفس، والمواقف التي يمر بها الإنسان، وعليه، فإن أسلوب الاستفهام عنصر مهم يحمل من المعاني والدلالات ما يضيفي الحركة الحيوية على المشاهد القرآنية وغيرها من الخطابات

1 - من بلاغة النظم العربي: 103/2.

2 - البلاغة فنونها وأفنانها ص 193.

3 - من بلاغة القرآن، ص: 126.

4 - دلائل الإعجاز: 120.

5 - الخصائص: 467-66/2.

الفكرية. وموضوع الاستفهام موضوع دسم ولبق وشيق، ومن أراد التضلع في هذا الموضوع فليرجع إلى كتب علماء علم المعاني وهو ضمن علوم البلاغة، سيجد فيها دراسات حول موضوع الاستفهام.

المطلب الثاني: أسلوب التوكيد:

أسلوب التوكيد يهتم بدراسته علماء النحو والبلاغة، ويبحثون من خلاله المعاني والأغراض التي تتعلق بقصد المتكلم وفهم المتلقي الذي تختلف أحواله في تقبله للخطاب تصديقاً أو تكذيباً، إنكاراً أو تردداً، مما يقتضي من المتكلم بناء كلامه وفق هذه الحالات العامة لتلقي خطابه، وهو ما يمكن تطبيقه في أسلوب التوكيد الذي تمثل فيه الزيادة في المبنى الشيء الأساسي للتعبير فيه، سواء كانت الزيادة بتكرار المعنى بلفظه أو بمفهومه، لأن كل تغيير في المبنى يؤدي إلى تغيير في المعنى.

وسأذكر موضوع التوكيد من ناحية الجمل والمفردات ومن ناحية الأغراض البلاغية مدعمة بالأمثلة في القرآن الكريم كما سيتم ذكر مواضعه على الترتيب الموالي: التوكيد بالتكرار وأنواعه من لفظي ومعنوي، وأنواع ملحقة بهما، والتوكيد بالأدوات في الجملة الاسمية وفي الجملة الفعلية، وبالحروف المزيدة للتوكيد، والتوكيد بغير أداة كالتوكيد بالقسم والتوكيد بالتقديم والتأخير.

التوكيد والتأكيد لغتان¹، والواو أفصح، وبها جاء القرآن، قال تعالى: {وَلَا تَنْفُضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَافِلًا²، وممن عرفه في الاصطلاح عبد القاهر الجرجاني، قائلاً: "التأكيد تابع يقرر أمر المتبوع في النسبة أو الشمول، وقيل: عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله³". ومفهوم التوكيد عند الرضي الاسترأبادي: أنه كل ما يدفع التجوز والغفلة والغلط⁴.

وقد عرّفه أحد المُحدثين بتعريف مفصّل؛ إذ يقول: "التوكيد هو الاسم التابع الذي يُذكر لتأكيد اسم آخر قبله، ويراد به: إثبات الحقيقة أو الإحاطة والشمول، أمّا إثبات الحقيقة: فتكون بلفظين، هما: النفس، والعَيْنُ ... أمّا الإحاطة والشمول: فتكون بالألفاظ المُتبقية التي ذكرها المُصنّف، وهي: كُلُّ، وَجَمِيعُ، وَأَجْمَعُ، وَأَكْتَعُ، وَأَبْصَعُ⁵."

يبدو أن التوكيد بمعانيه الاصطلاحية هو أسلوب مهم في النقد والحوار، لأنه يكسب المعاني قوة وثباتاً، ويزيدها تمكناً في النفوس مما ذكره علماء النحو متفرقا في أبوابه، ومما

1 - التوكيد لغة: وكد: وكد العقد والعهد: أوثقه، والهمز فيه لغة. يقال: أوكدته وأكدته وإكاداه، وبالواو أفصح، أي شددته، وتؤكد الأمر وتأكد بمعنى. ويقال: وكدت اليمين، والهمز في العقد أجود، وتقول: إذا عقدت فأكد، وإذا حلفت فوكد. وقال أبو العباس: التوكيد دخل في الكلام لإخراج الشك وفي الأعداد لإحاطة الأجزاء، ومن ذلك أن تقول: كلمني أخوك، فيجوز أن يكون كلمك هو أو أمر غلامه بأن يكلمك، فإذا قلت كلمني أخوك تكليماً لم يجز أن يكون المكلم لك إلا هو. وكد الرجل والسرّج توكيداً: شده. انظر: اللسان لابن منظور. 466/3.

2 - النحل، الآية: 91.

3 - التعريفات، ص 71.

4 - شرح الكافية، للرضي الأسترأبادي، 328-329/1.

5 - الكافية الكبرى في علم النحو: خليل بن الملا حسين المسعودي، ص 167.

قصده علماء البلاغة في استجلائهم للخطاب اللغوي وما يربطه بالمقامات والمقاصد المناسبة له.

أولاً: - التوكيد بالتكرار وأنواعه من لفظي ومعنوي:

- التوكيد اللفظي:

أما التكرار عند النحويين، وهو القسم الأول من قسمي التوكيد التابع¹. ولا بأس أن يدخل على هذا التصنيف بعض التغيير كقوله تعالى: {بِمَهْلٍ الْكَبِيرِ أَمْهَلُهُمْ رَوَيْدًا}²، فكلمة "مَهْلٍ" المؤكد و"أَمْهَلٍ" المؤكد جرى بينهما بعض التغيير، والضمير "هم" العائد على "الْكَافِرِينَ" لا محل له من الإعراب، ويجوز أن يكون التوكيد اللفظي بلفظ مرادف للمؤكد، أي لفظ يؤدي معنى المؤكد ويخالفه في حروفه، ومنه "الفضة واللجين" "الذهب والتبر"، كقوله تعالى: {فَجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}³، لأن معنى الفجاج والسبل واحد وإن اختلفا في اللفظ، وسمى النحويون مثل هذا إتباعاً، ومن شرطه أن لا يكون مع العطف لأنه نوع من التوكيد⁴. والمؤكد والمتبوع قد يكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً أو جملة:

- مثال توكيد الاسم: "واللفظي يكون في الاسم النكرة بالإجماع نحو: {فَوَارِيراً ۝١٥}

فَوَارِيراً}⁵، وقد ذكر ابن جني في قوله تعالى: {إِذَا وَفَعَتِ الْوَافِعَةُ}⁶، {إِذَا

رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا}⁷، أن {رُجَّبَ} بدل من {وَفَعَتِ}، وكررت "إذا" تأكيداً لشدة

امتزاج المضاف بالمضاف إليه⁸.

أما توكيد الفعل فلم ير د في القرآن⁹، وقد جعل ابن خالويه منه قوله تعالى:

{بِمَهْلٍ الْكَبِيرِ أَمْهَلُهُمْ رَوَيْدًا}¹⁰، فقال: "أمهلهم تأكيداً للأول"¹¹.

أما وروده في الشعر والنثر فكثير، ومنه قول الشاعر¹²:

فأين إلى أين النجاة ببغلتني *** أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس.

حيث أكد الفعل أتاك بالفعل أتاك، وأيضاً أكد الفعل احبس بالفعل احبس.

1 - أسلوب التوكيد في القرآن الكريم: أبو الفتوح محمد حسين، ص 21.

2 - سورة الطارق، الآية: 17.

3 - الأنبياء، الآية: 31.

4 - الكواكب الدرية: الشيخ محمد بن محمد الرعيني، 343/1 .

5 - سورة الإنسان، الآية: 15 - 16.

6 - الواقعة: 1.

7 - سورة الواقعة، الآية: 4.

8 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، 386/2.

9 - أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، لأبي الفتوح، ص 37 .

10 - سورة الطارق، الآية: 17.

11 - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ابن خالويه، ص 53 .

12 - همع الهوامع: السيوطي، 5/ 207 .

- ويكون في اسم الفعل، وقد يكون الغرض منه التوكيد على الاستحالة وبعد الاحتمال،
ومنه قوله تعالى: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ}¹. فذهب جمهور النحاة
والمحدثون إلى أن "هيهات" هنا اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد. وقد كررت للتوكيد، وهي
توكيد لفظي لاسم الفعل²، فذهب الزجاج³، ومكي ابن طالب⁴، والسمين الحلبي⁵ إلى أنها
اسم المصدر بمعنى البعد البعد، أو بعدا بعدا لما توعدون.

- و يكون في الجملة اسمية كانت أوفعلية، فتوكيدها يكون بإعادتها كلها مع حرف
عطف أو بدون عطف، "والأكثر فصل الجملتين بثم، كقوله: {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ }⁶، ونحو: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٤﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا }⁷.

- ويكون في الحروف كقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَبِعِ الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ
فِيهَا }⁸، بشرط أن يكون حرفا غير جوابي. يقول ابن مالك في ألفيته:
كذا الحروف غير ما تحصلا *** به جواب كنعم وكبلى.
ومعنى البيت: إذا أريد توكيد الحرف الذي ليس للجواب، يجب أن يعاد مع حروف
المؤكد ما يتصل بالمؤكد نحو: "إن زيدا إن زيدا قائم" وفي الدار زيد في الدار زيد"، ولا
يجوز "إن زيدا قائم ولا" في في الدار زيد" فإن كان الحرف جوابا ك " :
نعم" و"بلى" و"جيز" و"أجل" جاز إعادته وحده، فيقال لك: "أقام زيد؟": نعم نعم" أو "لا لا" و"
ألم يقم زيد؟" فنقول " :بلى بلى"⁹.

التوكيد المعنوي:

يكون بذكر ألفاظ تناسب المؤكد في المعنى، ويمكن حصرها في النفس والعين وكلا
وكلتا وكل وجميع وعامة وأجمع وتوابع أجمع.

- وفائدته: رفع توهم المجاز وعدم الشمول. وبيان ذلك إذا قلت: قرأت كتاب الفقه احتمل
الكلام أن تكون قرأت معظمه لا كله، أما إذا قلت: قرأت كتاب الفقه كله زال ذلك
الاحتمال¹⁰.

1 - سورة المؤمنون، الآية: 36.

2 - أسلوب التوكيد في كتب إعراب القرآن: أسماء موسى الليمون، ص 28.

3 - معاني القرآن وإعرابه، 2 / 12-13.

4 - مشكل إعراب القرآن، 502/2.

5 - الدر المصون: السمين الحلبي، 5183 /.

6 - سورة التكاثر، الآية: 3 - 4.

7 - سورة الشرح، الآية: 5 - 6.

8 - سورة هود، الآية: 108.

9 - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 56/2.

10 - النحو الأساسي، لمحمد حماسة عبد اللطيف، ص 381 .

- النفس والعين يؤكد بهما لرفع المجاز عن المتبوع، تقول: جاء الخليفة، فيحتمل أن الجائي خبره أوردوله، فإذا أكدت بالنفس أو العين أوبهما ارتفع الاحتمال. ويجب اتصالهما بضمير مطابق للمؤكد، وأن يكون لفظهما مطابق للمؤكد في الأفراد والجمع، وأما في التثنية فالأصح جمعهما على أفعل، نحو شاهدت المخترعين أعينهم¹، كما "يجوز جر النفس والعين بباء زائدة، نحو جاء زيد بنفسه، ورأيت عمرا بعينه، ولا يجوز ذلك في غيرهما من ألفاظ التوكيد، ويجوز أن يؤكد بهما معا نحو جاء زيد نفسه عينه"²، ولم يرد التأكيد بهما في القرآن.

- كل وكلا وجميع وعامة يؤكد بها لإفادة "الدلالة على الإحاطة والشمول، فإذا قلت: جاء القوم، فربما يوهم السامع أن بعضهم قد جاء، والبعض الآخر قد يخلف عن المجيء، فتقول: جاء القوم كلهم دفعا للتوهم"³.

فإن "قلت: "جاءني القوم كلهم أجمعون"؛ جئت بالتأكيد لئلا يفهم غير المراد، ولك أن تأتي بـ "كل" وحدها، وبـ "أجمع" وحدها، لأن معناهما واحد في التأكيد من جهة الإحاطة والعموم، فإن جمعت بينهما، فللمبالغة في التأكيد⁴. ومنه قوله تعالى: {بَسَجَدَ الْمَلَكُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}⁵، وقوله تعالى: {فَلِإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}⁶، وقرأ جمهور القراء "كله" بالنصب على تأكيد الأمر، لأن "كله" بمعنى أجمع... ورجح الناس قراءة الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة "كل"⁷.

- وكل وكلا لا تستعمل في التوكيد إلا مضافة، ويؤكد بها الضمير والظاهر، وتستخدم للإحاطة والعموم. وابن جني يعتبر "كلا وكلتا" مفردين غير مثنيين، وإن أفادا معنى التثنية مستدلا على ذلك بقوله تعالى: {كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ كُلَّهَا}⁸، ولم يقل: آتتا.

ولم ترد "كل" توكيدا في القرآن الكريم في كل الحالات، فقد وردت مبتدأ، كقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}⁹، ومنها ما أتى نعتا أو فاعلا أو نائبه أو مفعولا به أو مجرورا، ولكنها كما نرى في كل الحالات أفادت معنى تأكيد الإحاطة والعموم، ومنها ما يكون توكيدا كما في الآية السابقة: {بَسَجَدَ الْمَلَكُ كُلُّهُمْ}

1 - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، ص 293.

2 - شرح التسهيل لابن مالك، ص 290.

3 - جامع الدروس العربية: مصطفى الغلاييني، ص 133.

4 - شرح المفصل للزمخشري المؤلف: ابن يعيش (المتوفى: 643هـ) 222/2.

5 - سورة الحجر، الآية: 30.

6 - سورة آل عمران، جزء من الآية: 54.

7 - المحرر الوجيز لابن عطية، 528/1.

8 - سورة الكهف، الآية: 33.

9 - سورة آل عمران، الآية: 185.

أَجْمَعُونَ}. وموضع الشاهد في هذه الآية هو "كلهم أجمعون" وقد جاءت هنا تأكيداً

للملائكة، ومن اطلع على كتب إعراب القرآن يجد مؤلفيها من قدماء ومحدثين لم يختلفوا في إعراب "كلهم أجمعون" على أن "كلهم" تأكيد للملائكة، و"أجمعون" تأكيد يتبع تأكيداً، فمن المتقدمين الزجاج وهو قول سيبويه والخليل¹، ومن المتأخرين محيي الدين درويش²، أضاف أن "أجمعون" تأكيد ثانٍ ولا يفيد الاجتماع في الوقت خلافاً لبعضهم، ف "كلهم أجمعون" تأكيدان لزيادة المعنى وترسيخه في ذهن، وأما ما ذكره من خلاف في إعراب "أجمعون" فلا طائل في نقاشه.

- أنواع ملحقه بهما: ويلتحق بالتأكيد بال تكرار:

- تأكيد الفعل بمصدره، ويكون ذلك في الأشياء التي يتوهم فيها المجاز، فيأتي المصدر لرفع هذا التوهم، وتأمل ذلك في قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}³، فقد

يطلق الكلام على الإيحاء، وينصرف ذهن إليه، فجاء المصدر لإزالة هذا التوهم. ومن ثم رد بعض أهل السنة على بعض المعتزلة في دعواه نفي التكليم حقيقة. وقوله تعالى:

{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٨﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}⁴، ألا ترى أن اضطراب

السماء، وسير الجبال مما قد تتردد النفس في قبوله، فجاء بالمصدر تأكيداً لوقوعه. وقد يؤكد الفعل بمصدر فعل آخر نيابة عن المصدر، كما في قوله تعالى: {وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ

تَبَتُّلًا}⁵.

- الحال المؤكدة: وهي الآتية على حال واحدة عكس المبينة، فإنها لا تكون إلا منتقلة،

وقد تكون لازمة كما سيظهر من خلال الأمثلة، وهي لتأكيد الفعل كما سبق في المصدر المؤكد لنفسه وسميت مؤكدة، لأنها تعلم قبل ذكرها فيكون ذكرها تأكيداً، لأنها معلومة من ذكر صاحبها، وتأتي في الغالب موافقة لعاملها في المعنى مغايرة له في اللفظ، كقوله

تعالى: {وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}⁶. قال بهجت عبد الواحد: "إن "حيًّا" مؤكدة للبعث، لأن

ما يبعث لا بد أن يكون حيًّا"⁷، وقوله: {فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا}⁸، لأن معنى تبسم:

ضحك مسرورا. وهذه أكثر شيوعا في كلام العرب عامة، وكذلك في القرآن الكريم. ومن

1 - معاني القرآن وإعرابه للزجاج، 179/3.

2 - في كتابه: إعراب القرآن وبيانه، 237/5.

3 - سورة النساء، الآية/ 163.

4 - سورة الطور، الآية: 5 - 6.

5 - المزمّل، الآية: 7.

6 - سورة مريم، من الآية: 32.

7 - الإعراب المفصل، 28/7.

8 - سورة النمل، من الآية: 19.

ذلك قوله تعالى: { اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ

فَإِيمًا بِالْفِطْرِ }¹، وقد شهد الله سبحانه وتعالى ببيانه للناس أن هذا الكون بما فيه من

معجزات و دلائل، وما فيه من عظمة الخلق وآياتٍ عظام أنه لا يستحق العبادة إلا هو، وشهدت الملائكة وكل صاحب عقل وعلم من خلقه من المؤمنين بذلك. وقد كثرت الآراء حول تحديد صاحب الحال والعامل فيها في الآية الكريمة، ولعلّ الرأي الراجح هو ما ذهب إليه العكبري في التبيان، يقول: "قائماً" حال من هو والعامل فيه معنى الجملة، أي تفرد قائماً. وقيل: هو حال من اسم الله، أي شهد لنفسه بالوحدانية، وهي حال مؤكدة على الوجهين²، وهو رأي الهمداني في الكتاب الفريد، قائلاً: "قائماً" منصوب على الحال إما من اسم الله تعالى، أي: علّم الله مقيماً للعدل في جميع ما يفعل، وإما من المستكن في الخبر المحذوف، والعامل فيها الاستقرار، وإما من "هو" الواقع بعد حرف الإيجاب، والعامل فيها معنى الجملة، أي: تفرد قائماً³، أي أن الله سبحانه تفرد بتدبير شؤون الكون بالعدل فهذا شيء لا يستطيع العقل السليم رده، فاستحق الله سبحانه وتعالى بذلك العبادة والطاعة.

ولعل هذه النماذج تكفي في بيان الحال المؤكدة، ويستفاد من هذه النماذج أن الحال المؤكدة هي التي يدرك معناها بدونها، بمعنى أنها لا تفيد جديداً في وصف الهيئة، فلذلك يكون ذكرها تأكيداً لما قبلها، لأن الهيئة ظاهرة من الكلام السابق لها أو من مفهوم الفعل أو من الصاحب. وهذا نوع اهتمام بجانب التراكيب، أشار إليه النحاة وبينوه، وضرب من ضروب المعاني والبلاغة اهتم به البلاغيون وأبرزوه.

وقد أكدت الجملة الاسمية في القرآن الكريم بمؤكدات كثيرة نذكر من بينها:

أولاً: التوكيد باستخدام "إِنَّ" و"أَنَّ" المشددتين: وهما لتوكيد النسبة؛ أي نسبة الاسم إلى الخبر، ونفي الشكّ عنهما والإنكار لهما⁴.

وقد ورد هذا النوع في مواضيع كثيرة من القرآن الكريم من بينها ما يلي:

- إن المشددة المكسورة:

وقد ورد هذا النوع في مواضيع كثيرة من القرآن الكريم، من بينها ما يلي: {إِنَّ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} ⁵، "وأكد إثبات

الخبر بحرف توكيد الإثبات وهو (إن) ، وأكد ما فيه من النفي بحرف توكيد النفي (لن) لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر، لأن جعلهم الأصنام آلهة يقتضي إثباتهم الخلق إليها، وقد نفي عنها الخلق في المستقبل، لأنه أظهر في إقحام الذين ادعوا

1 - سورة آل عمران، الآية: 18.

2 - التبيان في إعراب القرآن، 247/1.

3 - الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، 26/2.

4 - ضياء السالك إلى أوضح المسالك، 296/1.

5 - سورة الحج، الآية: 71.

لها الإلهية، لأن نفي أن تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى، لأن الذي يفعل شيئاً يكون فعله من بعد أيسر عليه"¹.

- أن المفتوحة المشددة

ومن ذلك قوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَفْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تَرْجِعُونَ}²، أي أظننتم - أيها الناس إنما خلقناكم باطلا وهملا بلا ثواب ولا عقاب كما

خلقت البهائم وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء، وقد أكد هذا الخبر بالأداة "أن"³.

- التوكيد باستخدام "إن" و"أن" المخففتين: من ذلك قوله تعالى: {وَإِنْ كُلُّ لَمَّا

جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}⁴، فقد أكد سبحانه وتعالى بعث المنكرين وإحضارهم

جميعهم بين يديه للحساب، وأكد ذلك ب "إن" الخفيفة التي هي بمنزلة ذكر الفعل مرتين⁵.

ومن ذلك التوكيد ب "لكن" كقوله تعالى: {وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}⁶. قال أبوحيان في

البحر المحيط: "وجه الاستدراك هنا هو أنه لما قسم الناس إلى مدفوع به ومدفوع، وأنه

بدفعه بعضهم ببعض امتنع فساد الأرض، فيهجس في نفس من غلب وقهر عن ما يريد

من الفساد في الأرض أن الله تعالى غير متفضل عليه، إذ لم يبلغه مقاصده ومآربه،

فاستدرك أنه وإن لم يبلغ مقاصده هذا الطالب للفساد أن الله لذو فضل عليه، ويحسن إليه،

واندرج في عموم العالمين، (...) وهذا الذي أبدناه من فائدة الاستدراك هو على ما قرره

أهل العلم باللسان من أن "لكن" تكون بين متنافيين بوجه ما"⁷. ولكن خفيفة النون أو

ثقلتها: هي حرف استدراك، ويعني به تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم ثبوته أو إثبات ما

يتوهم نفيه، تأتي للتوكيد. ومعنى الاستدراك: أيضا: "أن تتسب حكما لاسمها يُخالف

المحكوم عليه قبلها، كأنك عندما أخبرت عن الأول بخبر خفت أن يتوهم من الثاني مثل

ذلك، فقد أوكدت بخبره سلبياً كان أو إيجابياً، ولذلك لا يكون إلا بعد كلام ملفوظ به أو

مقدّر⁸.

- التوكيد بلفظ "كأن":

1 - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر عاشور، 441/ 17.

2 - سورة المؤمنون، الآية: 116.

3 - صفوة التفسير للصابوني، 294/2.

4 - سورة يس، الآية: 31.

5 - من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث: بدرية بنت محمد الحسن العثمان، ص 272.

6 - سورة البقرة، الآية: 249.

7 - البحر المحيط في التفسير، 595/2.

8 - الجنى الداني، 615/1.

ورد التوكيد ب"كأن" في القرآن الكريم في العديد من الآيات نذكر منها: قوله تعالى: {قَلَمًا جَاءَتْ فِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ فَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ} ¹، قالت كأنه هو، ولم تقل: إنه عرشها، ولا قالت: ليس هو بعرشها، شبهته به لأنه منكر، يروى أنه جعل أسفله أعلاه". وموضع الشاهد في قوله تعالى: {كَأَنَّهُ هُوَ} وهي من أخوات "إن" تنصب الأول وترفع الثاني فهي حرف نصب وتوكيد، وتفيد التشبيه.

- ضمير الفصل

وهو ضمير رفع منفصل يؤتى به بين المبتدأ والخبر المعرفتين لتمييز الخبر من التابع، ويشترط في ضمير الفصل أن يطابق ما قبله في التذكير والتأنيث والإفراد والتنثية والجمع ². وهو كثير في القرآن الكريم، ومن أمثلته في سورة الزخرف: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ وَرَبُّكُمْ بِأَعْبُدُوهُ} ³، ويأتي حيث يتوهم الشركة ⁴، وضمير الفصل (هو) أفاد القصر؛ أي: الله ربّي لا غير، وهذا إعلان الوجدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحدون لكن ظهرت بدعة في بعض فرقهم: عزيز ابن الله ⁵.

- توكيد الجملة الفعلية

جاء التوكيد للجملة الفعلية في القرآن الكريم بحروف كثيرة، أهمها ما يلي:

1- نونا التوكيد: وتدخل نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة على فعلي الأمر والمضارع، أمّا الفعل الماضي فلا يجوز توكيده مطلقاً. والنون الشديدة وهي بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مرات وبالخفيفة فهي بمنزلة ذكره مرتين، قيل: وهذان النونان لتأكيد الفعل في مقابلة تأكيد الاسم بأن واللام، ولم يقع في القرآن التأكيد بالخفيفة إلا في موضعين: قوله تعالى: {وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ} ⁶، وقوله تعالى: {لَنَسْبَحَنَّ بِالنَّاصِيَةِ} ⁷.

2- السين التي للتنفيس، قال سيبويه -في قوله تعالى: {فَسَيَكْمِيكُهُمُ اللَّهُ} ⁸- معنى السين: أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين، وجرى عليه الزمخشري، فقال في قوله تعالى: {إِنَّكَ سَيَرَحْمُهُمُ اللَّهُ} ⁹ السين تفيد وجود الرحمة لا محالة فهي

1 - سورة النمل، الآية: 43.

2 - علم النحو: راجي الأسمر، ص 155.

3 - سورة الزخرف، الآية: 64.

4 - بلاغة القرآن: أحمد البيلي، ص 118.

5 - التحرير والتنوير، 248/25.

6 - سورة يوسف، الآية: 32.

7 - العلق: 16.

8 - سورة البقرة، من الآية: 136.

9 - سورة التوبة، من الآية: 72.

تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك: "سأنتقم منك يوما" يعني: أنك لا تفوتني وإن تبطأت¹.

3- "قد" فإنها حرف تحقيق، وهو معنى التأكيد، كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَّعْتَصِمِ بِاللَّهِ بِقَدْرٍ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}².

4- التوكيد ب"لقد"

" قال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}³، وتأکید الخبر بلام القسم و (قد) لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للآزمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تتقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى: {فَالْقَدُّ أُوتِيَ سَوْءَ لَكَ يَمُوسَى}⁴⁵.

5- لن: تفيد استمرار نفي الفعل المضارع في المستقبل إلى حين⁶. ففي قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}⁷، حكاية حال يُقال لهم يوم القيامة، وهو موقف موحش حرّمهم روح التآسي، لأن وقعهم بها لا ينفعهم التآسي لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدّته، فلن ينفعكم اليوم تمنّيكم شيئا بعد أن تبين لكم أنّكم كنتم ظالمين مصرّين على الكفر والضلال. ووقوع الفعل (ينفعكم) في سياق النفي يدلّ على نفي أن يكون الاشتراك في العذاب نافعا بحال، لأنّه لا يخفف عن الشريك في عذابه⁸.

6- التوكيد بلفظ "لام الجحود":

قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}⁹، ف"اللام" لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة، لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم¹⁰.

1 - البرهان في علوم القرآن، 419/2-420.

2 - سورة آل عمران، الآية: 101.

3 - سورة طه، الآية: 39.

4 - سورة طه، الآية: 35.

5 - التحرير والتنوير، 215/16.

6 - أسلوب التوكيد في القرآن الكريم 74 - 73 - 72.

7 - سورة الزخرف، الآية: 38.

8 - مفاتيح الغيب، للرازي، 63327، والبحر المحيط، 18/8 - 17، والتحرير والتنوير، 214/25.

9 - سورة الأنفال، الآية: 33.

10 - الكشف، 217/2.

لما ذكرنا الأدوات التي تدخل على الجمل الاسمية وتفيد توكيدها والأدوات التي تدخل على الجمل الفعلية وتفيد توكيدها، وسنذكر هنا الأدوات التي تشترك في الدخول على الجمل الاسمية والفعلية، وهي:

7- أسلوب القصر:

يستخدم القرآن ألوانا من القصر¹، عند ما يراد إثبات الحكم لمذكور ونفيه عما عداه، فقد يقصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا، بحيث لا يتصف بهذه الصفة إلا ذلك الموصوف وحده، كما تجده في قوله سبحانه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}²، وقوله سبحانه: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}³. واستخدام القرآن من طرق القصر (إن وإلا، و ما وإلا)، وهي أقوى أدواته لما فيها من وضوح معنى القصر، ولذا تستخدم في الأمور التي هي مجال الشك والإنكار، كما نجد ذلك في قوله سبحانه: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الْمُلُومُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا}⁴.

واستخدم إنما، والأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدعى أنها من الوضوح بمكان، قال تعالى حكاية عن اليهود: {وَإِذَا فِئْلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}⁵، فقد ادعوا أن إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولذا احتوى الرد عليهم فنونا من التوكيد، إذ قال سبحانه: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}⁶.

8- التوكيد بطريقة العطف

ومن طرق القصر العطف ب "لا، أو بل أو لكن" وسأقتصر على الكلام عن "بل" ومعناها الإضراب، فإن كانت بعد أمر أو إيجاب نقلت حكم ما قبلها لتاليها المفرد، وصار ما قبلها مسكوتا عنه لا يُحكم له بشيء، أما إذا كان قبلها نهي أو نفي قرّرت، فإذا تلاها جملة فالإبطال للمعنى الأول وإثباته لما بعده، وكذلك لتوكيد تقرير ما قبلها⁷. ففي سورة

1 - انظر: من بلاغة القرآن، المؤلف: أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: 1384هـ) ص 121-124.

2 - سورة محمد، الآية: 20.

3 - سورة الفاتحة، الآية: 4.

4 - سورة الإسراء، الآية: 47.

5 - سورة البقرة، الآية: 11.

6 - سورة البقرة، الآية: 12.

7 - البلاغة الواضحة، ص: 179، وأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 184.

الزخرف قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ ائِمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْتَدُونَ} ¹، وقوله تعالى: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ} ²، ففي الآيتين إضراب عن كلام سابق وإثباته لكلام لاحق، فينفي في الآية الأولى إعطاءهم كتاباً من قبل القرآن، بأن يعبدوا غير الله عز وجل، وفي الآية إثبات لهم على عدم اتباعهم الحجة العقلية ولا النقلية، بل اعترفوا بأن لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم. وفي الآية الثانية إضراب عن الكلام الأول إلى ذكر ما متعهم به من الأنفس والأهل والأموال وأنواع النعم وما متع به آباءهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ³.

9- التوكيد بأحرف الزيادة، ومنها:

- الباء والكاف، فإن "أهل الصناعة يطلقون الزائد على وجوه: منها ما يتعلق به هنا وهو ما أقحم تأكيداً نحو قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ⁴. ومعنى كونه زائداً أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيد، فبوجوده حصل فائدة التأكيد. والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة" ⁵.

- زيادة "إن" الخفيفة، فتطرد زيادتها مع ما النافية، قال الفراء: إن الخفيفة زائدة فجمعوا بينها وبين "ما" النافية تأكيداً للنفي فهو بمنزلة تكرارها، فهو عند الفراء من التأكيد اللفظي، وعند سيبويه من التأكيد المعنوي ⁶. ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً} ⁷.

- زيادة "أن" الخفيفة المفتوحة، فتزاد بعد لما الظرفية، كقوله تعالى: {وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَخَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} ⁸، وإنما حكموا بزيادتها لأن "لما" ظرف زمان، ومعناها وجود الشيء لوجود غيره، وظروف الزمان غير المتمكنة لا تضاف إلى المفرد، و"أن" المفتوحة تجعل الفعل بعدها في تأويل المفرد فلم تبق "لما" مضافة إلى الجمل، فلذلك حكم بزيادتها ⁹.

1 - الزخرف، الآية: 21.

2 - سورة الزخرف، الآية: 28.

3 - فتح القدير: الشوكاني، 634/4 وتفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: محمد علي طه الدرة، 585/8.

4 - سورة الشورى، الآية: 9.

5 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، 74/3.

6 - المصدر السابق: 73/3.

7 - سورة الأحقاف، الآية: 25.

8 - سورة العنكبوت، الآية: 32.

9 - المصدر السابق، 76/3.

- زيادة "ما" ومن معانيها النفي والمصدرية، وتدخل على "أن" المشددة بفتح الهمزة وكسرهما فتكون كافة لها عن عملها، فخصصت لهذا العمل، وقد تأتي زائدة، وهي التي تفيد التوكيد، بحيث لو حذفت من الجملة لا يخل المعنى، ومن أمثلة إتيانها زائدة بعد "إذا" الشرطية، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْضَبُونَ} ¹، وتفسير الآية: إذا ما غضبوا في أمر دنيوي أو شخصي فسجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، فليس من سجيتهم الانتقام من الناس ².

- زيادة "الباء" ومن معانيها الإلصاق أو التعدية، وقد يخرج عن هذه المعاني الأصلية إلى معانٍ أخرى، فيأتي زائداً لإفادة التوكيد.

وقد تحدث البلاغيون طويلاً فيما تفيد الباء الزائدة في خبر "ما" وليس "من تأكيد في الجملة. "منشؤه ما للباء الزائدة من معان، منها المصاحبة، ففي قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَاجِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} ³، وقوله تعالى: {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً} ⁴، ترى هذه الباء قد نفت كل صلة تربط بين الله والغفلة في الآية الأولى، وبين السحر والضير في الآية الثانية، فلا صحبة بينهما ولا تلاق ⁵.

- زياد "من" الجارة:

وقد اشترطوا أن يسبقها نفي أو شبهة، لأن من معانيها التبعيضية، والمراد من زيادتها نفي التبعيض، فتسلط النفي على معنى التبعيض، وهذا كما ورد في قوله تعالى: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} ⁶، فلو أزيل (من) يصير الكلام ما لهم بذلك علم، وبهذا الكلام قد يشك السامع فعندئذ تأتي (من) لإزالة الشك وهذا التوهم، فتفيد معنى العموم؛ أي: ليس لديهم أي علم فيما يقولون، فأفادت (من) هنا استغراق الجميع ⁷. وليس المراد حصر الزوائد فيما ذكرت، بل المراد أن الأكثر في الزيادة أن تكون بما ذكرت. وإلا فقد زادوا حروفا كثيرة يحتاج تتبعها في القرآن إلى مؤلف خاص.

التوكيد بغير أداة

لقد تطرقنا فيما سبق للتوكيد بالأداة، والتوكيد بالأداة يقوم مقام التوكيد بال تكرار، وهنا سنتطرق لنوع آخر من التوكيد، هو التوكيد بغير أداة، ولهذا التوكيد في القرآن صيغ منها:

1 - سورة الشورى، الآية: 34.

2 - الأساس في التفسير: حوى سعيد، 5089/9.

3 - سورة البقرة، الآية: 143.

4 - سورة المجادلة، الآية: 10.

5 - من بلاغة القرآن لأحمد البيلي، ص 119.

6 - سورة الزخرف، الآية: 19.

7 - ينظر: أسلوب التوكيد في القرآن الكريم ص 213، وينظر: تفسير البحر المحيط، 12/8.

- التوكيد بالقسم:

القسم: هو أسلوب من أساليب القرآن الكريم والعربية، والغرض من القسم توكيد ما يُقسم عليه لإزالة الشك عند المُخاطب في إخباره عن المقسم عليه، يؤكد له الخبر ليكون أوقع في النفس، وأرجى للإقناع والقبول، وبيان أهمية المقسم به وعظمة خلقه وإبداعه، وجاء القسم في القرآن الكريم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك لأنَّ كلَّ حكم وخبر به حاجة إلى أحد اثنين إمَّا الشهادة وإمَّا القسم¹. ورد القسم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: {جَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

تَعْفِلُونَ} ²، "حم" الحروف المتقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، والكتاب المبين: قسم،

أقسم الله به، أي أقسم بالقرآن المبين، والواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبين للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية "إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون" هذا هو المقسم عليه، أي أنزلناه بلغة العرب مشتملا على كمال الفصاحة والبلاغة بأسلوب محكم، وبيان معجز³. وقد جاء القسم هنا لتأكيد الخبر.

إنَّ أسلوب القسم مكون من جملتين؛ جملة القسم، والجملة الثانية جوابه، امتزجت الجملتان حتى صارتا كالجملة الواحدة مثل الجملة المكوّنة من مبتدأ وخبر، فجملة القسم بمثابة المبتدأ، وجملة الجواب بمثابة الخبر، ولذلك فإنَّ جملة القسم وحدها لا تفيد، وإنَّما تُفِيد إذا انضمت إليها جملة الجواب. فالقسم إذن هو جملة تؤكد بها أخرى خبرية تفيد الإخبار، أي: يحتمل الصدق والكذب. وجملة القسم أطلق عليها النحويون جملة قسمية جاءت توكيدا وتثبيتا لمعنى الجملة التي بعدها وسميت قسما⁴، وأمثله في القرآن كثيرة، وكذلك أنواعه بأدواته المختلفة. وبابه طويل.

- التأكيد بالتقديم والتأخير:

ومن أشكال التوكيد بغير أداة التوكيد عن طريق التقديم والتأخير، فنحن نعلم أن لكل كلمة في اللغة العربية مكانها الأصلي، ولكن قد يقوم المتكلم بالتقديم والتأخير في الكلام من أجل الإشارة إلى معنى مقصود في التركيب كبيان أهميتها وتأكيدها بين الكلام. "وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض⁵، فقد حرصت الجملة في القرآن على أن يكون هذا التقديم مشيرا إلى مغزى دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسي يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور عليه الحديث والمعنى المقصود. والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة كما تقدم في النفس.

1 - الواضح في علوم القرآن: مصطفى ديب، 211/1، وأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ص 239.

2 - سورة الزخرف، الآية: 1 - 2.

3 - صفوة التفاسير للصابوني، 140/3.

4 - التذييل والتكميل في شرح كتاب ال تسهيل 329 / 11 :، وأسلوب التوكيد في القرآن الكريم 239 .

5 - أصل هذا الكلام من بلاغة القرآن لأحمد البيلي، ص 90-91.

ويدعو البلاغيون مثل هذا التقديم بالاختصاص، ومن أمثله قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}¹، فالله هنا وحده أهل العبادة، ومنه وحده نستمد المعونة. قال عبد القاهر: "ومن أجل ذلك قدم {غير} في قوله تعالى: {فَلْ أَعِيزَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا}²، وقوله عز وجل: {أَعِيزَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}³، وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو آخر، فقيل: قل أأخذ غير الله وليا، وأتدعون غير الله، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك أكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا، وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك، أو يكون جهل أجهل، وعمى أعمى من ذلك؟! ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأخذ غير الله وليا، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك فاعرفه. وكذلك الحكم في قوله تعالى: {أَبَشِّرْ مَنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ} إِنَّا إِذَا لَّهِ ضَلَلٍ وَسُعْرِ⁴، وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، وينتهي إلى أن يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته⁵. وللتقديم أسباب متعددة كالتبرك والتعظيم والعناية والاهتمام... ولكن الغاية الأساسية من التقديم هي التوكيد. فباب التقديم والتأخير باب كبير ومتشعب، وكان البلاغيون أكثر اهتماما من النحاة بهذا الموضوع في إبراز معانيه وأغراضه.

دلالات أسلوب التوكيد (البلاغية والنقدية):

من خلال ما ذكرت في هذا المطلب من درجات التوكيد وأشكاله تبين أن علماء النحو والبلاغة ومن هذا حذوهم من الأصوليين وغيرهم قاموا بتصنيف أشكال المؤكدات وربطها بسياقاتها المختلفة، مع مراعاة ما يختص بالجملة الاسمية- حتى اعتبروها بنفسها جملة مؤكدة-، وما يختص بالجملة الفعلية التي لا يلاحظ فيها التوكيد إلا بتقديم أحد عناصرها أو باقترانها بإحدى أدوات التوكيد كما يقول الزركشي في البرهان: "إذا قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكدوا فبالاسمية، ثم إن ثم بها وباللام، وقد تؤكد الفعلية بقـ، وإن احتيج بأكثر جـء بالقسم مع كل من الجملتين، وقد تؤكد الاسمية باللام فقط، نحو: لزيد قائم، وقد تجيء مع الفعلية مضمرة بعد اللام. وحاصله أن الخطاب على درجات قام زيد ثم لقد قام -فإنه جعل الفعلية كأنها دون الاسمية- ثم إن زيدا قائم ولزيد

1 - سورة الفاتحة، الآية: 4.

2 - سورة الأنعام، الآية: 15.

3 - سورة الأنعام، الآية: 41.

4 - سورة القمر، الآية: 24.

5 - دلالات الإعجاز: 121-122.

قائم1. ومن هنا يظهر أن دور الأسلوب التوكيدي الوظيفي هو القيام بتمييز صواب الأفكار من خطأها، وتقدير المراد منها، وإصدار الحكم عن الشيء المميز والمقرر حسب أحوال المخاطب ترددا وإنكارا عن طريق التكرار اللفظي أو المعنوي أو استعمال الأداة أو الأسلوب الخاص من كل ما يستخدم في هذا الباب من طرف العلماء القدامى والجدد الذين يتحرون البحث عن فوائد وأسرار التوكيد في مواقعه، وفيما يلي عرض لأهم أسرار وفوائد بعض أشكال التوكيد اللفظي والمعنوي، وبعض الأشكال الأخرى على سبيل المثال لا الحصر، لأن المقام لا يسع لذكرها جميعا لكثرتها، من أهمها:

دلالة التوكيد اللفظي:

للتوكيد اللفظي دلالات عديدة، منها:

- تقرير المؤكد في نفس السامع وتمكينه في قلبه، وإزالة ما في نفسه من الشبهة فيه، فيكرر لفظ المؤكد إن أنكر السامع الحكم أو ظهرت عليه دلائل الإنكار دفعا لإنكاره، أو إزالة للشبهة التي عرضت له"2.

- تمكين السامع من تدارك لفظ لم يسمعه، أو سمعه ولكن لم ينتبه. وقد يكون الغرض التهديد؛ كقوله تعالى في خطاب المعاندين بالباطل: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}3، وقد يكون التهويل: كقوله تعالى: {وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّيسِ}4،5.

دلالة التوكيد المعنوي6:

الغرض منه هو إبعاد ذلك الاحتمال وإزالته، إما عن ذات المتبوع، وإما عن إفادته التعميم الشامل المناسب لمدلوله، فإن لم يوجد الاحتمال لم يكن من بلاغة التوكيد. ويقصد بالعموم المناسب للمدلول هنا ما يشمل إزالة الاحتمال عن التثنية المقصودة حقيقة، لا مجازاً، كما يشمل إزالة الاحتمال عن الجمع المقصود حقيقة، لا مجازاً. ويمكن تصنيف الأغراض التي يؤديها التوكيد المعنوي إلى ثلاثة أصناف، وذلك حسب معاني ألفاظه الأصلية:

الأول: نوع يراد منه إزالة الاحتمال عن الذات في صميمها، وإبعاد الشك المعنوي عنها. وأشهر ألفاظه الأصلية: النفس، والعين مراداً بهما جملة الشيء وحقيقته، وإن لم

1 - البرهان للزركشي، 391/2.

2 - جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني، 232/3.

3 - التكاثر، الآية: 3 - 4.

4 - سورة الانفطار، الآية: 17 - 18.

5 - النحو الوافي المؤلف: عباس حسن (المتوفى: 1398هـ) 526/3.

6 - المصدر السابق، 503/3-509.

يكن له نفس ولا عين حقيقة. فإن أريد بالنفس: "الدم"، وبالعين: "الجراحة، كسفتك زيداً نفسه، وفقأت زيداً عينه، لم يكونا تأكيداً؛ فهما في المثال بدل بعض. فكلمة: "نفس" تزيل الشك والمجاز عن الذات، فلا تترك مجالاً لتوهم أن المقصود شيء سواها. وكذلك كلمة: "عين" فإنها تفيد النص على الذات، وتبعد عنها -في الأغلب- كل احتمال يقوم على تلك المبالغة أو المجاز، وهذا معنى قولهم: إن التوكيد بالنفس أو بالعين يَقْصِرُ المعنى الحقيقي على الذات وحدها، ويُركّزه فيها، ويزيل -في الأغلب- كل احتمال عنها آخر.

الثاني: نوع يراد به إزالة الاحتمال والمجاز عن التثنية، وإثبات أنها هي -وحدها- المقصودة حقيقة. وله لفظان: "كلاً" للمثنى المذكر وكلتا للمثنى المؤنث، نحو: أفاد الخبيران كلاهما، ونفعت الخبيرتان كلاهما. فلو لم تُذكر "كلا" و"كلتا" لكان من المحتمل اعتبار التثنية غير حقيقية، وأن المقصود بالخبيرين أحدهما، وبالخبيرتين إحداهما.

الثالث: نوع يراد منه إفادة التعميم الحقيقي المناسب لمدلوله المقصود، وإزالة الاحتمال عن الشمول الكامل. وقد ذكرنا سابقاً ألفاظه، وحين لا يكون في الكلام ما يدل على الإحاطة الكاملة، والشمول الوافي. فمجيء لفظ: "كل أو أجمع" يمنع -في الأغلب- الاحتمالات، وأفاد الإحاطة والشمول بغير مبالغة ولا مجاز، وكما سبق معنا في قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَكِيَّةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} ¹، أن فائدة هذا اللون من التوكيد رفع ما يتوهم من عدم الشمول. وهذا ما يمكن لي إيراده من دلالات التوكيد اللفظي والمعنوي، وكلها دلالات تسعى لدفع الاحتمالات وتقدير المعاني المرادة. وبعدها نذكر بعض الدلالات والفوائد التي تستفاد من عناصر التوكيد في الجملة العربية، وهي الثمرة المعنوية المتحصل عليها في ذلك.

دلالات أنواع ملحقة بالتوكيد اللفظي والمعنوي:

- دلالة المصدر المؤكد:

وقد ذكرت فائدته عند الكلام عن أدوات الجملة الفعلية، وله فائدة أخرى أن مصدر الفعل الذي يعمل فعله فيه يذكر توكيداً للفعل، نحو قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ²، أو بيانا لنوعه إذا وصف، نحو قوله: {وسرحوهن سراحاً جميلاً} أو بيانا للعدد، مثل قولك: "ضربته ضربتين وضربات" وفي هذا المعنى يقول ابن مالك:

توكيدا أو نوعا يبين أو عدد *** كسرت سيرتين سير ذي رشد.

¹ - الحجر: 30.

² - النساء: 163.

دلالة الحال المؤكدة: يؤتى بالحال المؤكدة بأشكالها المختلفة في القرآن الكريم لإضفاء معان سياقية ما كانت لتستفاد لولا مجيء هذا النوع من الأحوال، وذلك أن الجملة قد تحتاج في بعض الأحيان إلى ذكر الهيئة الملازمة للحدث أثناء وقوعه، فتأتي الحال المؤكدة لتأدية معنى الملازمة وهو نوع من أنواع تخصيص الحدث أو تقييده، أو لاحتمال الحدث لعدة معان، فتأتي لتخصيص أحدها ويكون هو المقصود، وهذا يدركه من تتبع أسرار استخدامها في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: {وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} ¹. يقول المفسرون: البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال، والآخر: الإحياء من الله للموتى، وفي ضوء هذه المعاني التي يفصل بينها السياق، خرج قوله تعالى: {حيا} على أنه حال مؤكدة، لأنَّ من لازم خروجه أن يكون حيا (...) فيكون الوجه الثالث بعثه، والبعث إحياء، ومن ثم كانت فائدة هذه الحال التأكيد ².

دلالات في عناصر الجملة:

- دلالة "ألا" و "ها" التنبهية أو الاستفتاحية: ومن أمثلة "ألا" قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّبَّهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ} ³. ومن أمثلة "ها" التنبهية، وهي لم ترد في القرآن إلا داخلة على ضمير المخاطبين المخبر عنه باسم الإشارة: قوله تعالى: {هَآأَنْتُمْ وَآؤُلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} ⁴، يبدو أن منشأ التوكيد في البدء بهاتين الأداتين يعود إلى ما فيهما من تنبيه السامع إلى ما سيرد بعدهما من أخبار، وتهيئته لسماعها، وذلك لا يكون إلا حيث يعتنى بهذه الأخبار، لتستقر في النفس وتثبت بها.

- دلالة ضمير الفصل: ومن فوائد التوكيد به ما ذكره الزمخشري في تفسير قوله تعالى: {وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ⁵، فقال: فائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره ⁶. ويقوى التوكيد في ضمير الفصل ⁷، حتى يدل على القصر والاختصاص، فهو كثير في القرآن، ويؤتى به حيث تتوهم الشبهة، ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ

1 - سورة مريم، الآية: 32.

2 - دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، د. عائشة عبيزة، ص 331.

3 - سورة البقرة، الآية: 12.

4 - سورة آل عمران، الآية: 119.

5 - سورة البقرة، الآية: 4.

6 - الكشف، 46/1.

7 - انظر: بلاغة القرآن لأحمد البيلي ص 118.

وَأَحْيَا¹، (...) تأمل جيدا قد استخدم القرآن هنا ضمير الفصل في الأفعال التي هي مظنة الاشتراك، كما ترى ذلك في جملة الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء والإغناء والإقناء، أما حيث لا تدعى الشركة فلا حاجة إلى هذا الضمير، كما ترى في جمل: خلق الزوجين، والنشأة الأخرى، وإهلاك عاد الأولى².

- دلالة ضمير الشأن³:

ويفيد التوكيد به من ناحية أنه يثير النفس، ويدفعها إلى معرفة المراد منه، فإذا جاء تفسيره استقر هذا التفسير في النفس، وتأكد فيها، وليس بكثير استخدام هذا الضمير في القرآن، وإنما يكون في المواضع التي يراد بها تعظيم أمر وتقديره عن طريق إبهامه ثم إيضاحه. ومن أمثله قوله تعالى: {فُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ⁴، وقوله سبحانه: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْأَفْئِدَةُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ⁵، وجاءت الإشارة في "الكليات للكفوي" أيضا إلى أن دلالة التوكيد في هذا الضمير، هي: "ذكر الشيء مبهما وتفسيره يفيد تقريره وتأكيده"⁶.

- دلالة التأكيد بأن بتشديد النون: وتظهر دلالتها في إعرابها على أنها حرف نصب وتوكيد، ولكن لها دلالات وأسرار ولطائف لا يمكن أن نجد لها إلا عند تعدد التراكيب وتعدد المعاني، وقد رد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز على الكندي الذي يرى في الكلام تعددا للتراكيب والمعنى واحد⁷. ومن فوائدها أيضا فضلا عن تأكيدها لمعنى الجملة أنها تربط ما بعدها بما قبلها في الكلام. كما قال عبد القاهر: "هل شيء أبين في الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وألا تدخل من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأنلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا وكأن أحدهم قد سبك في الآخر (...) وهذا الضرب كثير من التنزيل جدا، من ذلك قوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّاسُ بِتَفُؤٍ رَبَّكُمْ وَإِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَعْنٌ عَظِيمٌ⁸ (...) وقد يتكرر في الآية الواحدة، كقوله عز اسمه: {وَمَا أَكْبَرُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ

1 - سورة النجم، الآية: 42 - 43 وما بعدهما.
2 - انظر: أمثال هذه الآيات في الشعراء، الآيات: 75-82، فقدجيء بضمير الفصل حيث يتوهم في الفعل شركة، كما في الهداية والإطعام والشفاء، أما حيث لا تتوهم تلك الشركة فلا يأتي ضمير الفصل كما في الخلق والإماتة والإحياء.
3 - بلاغة القرآن لأحمد البيلي ص 118.
4 - الإخلاص: 1.
5 - سورة الحج، الآية: 44.
6 - الكليات للكفوي، 1081.
7 - دلائل الإعجاز، ص 351.
8 - سورة الحج، الآية: 1.

بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹، وهي على الجملة من الكثرة، بحيث لا يدركها الإحصاء².

ومن فوائدها: لفت النظر والتفكير إلى ما يتطلبه الأمر للقيام به، وتأمل قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْفَيْلَمَةِ تُبْعَثُونَ} ³، فلما كان تماديهم في الضلال "يصرفهم عن التفكير المستقيم المؤدى إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وكانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير في مصيرهم، فكأنهم مخذون لا يصيبهم موت ولا فناء - أكد نزول الموت بهم تأكيداً ليفكروا فيه، وفيما يتطلبه نزوله بهم من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت"⁴.

- دلالة حروف الزيادة المفيدة للتوكيد: يوضح لنا الزركشي -رحمه الله- في البرهان معنى ما اصطلح عليه بالزيادة، مما يطلق عادة على بعض حروف المعاني التي جاءت في النص القرآني خصوصاً - وفي كلام العرب عموماً - مفرقاً بين الزيادة في معناها اللغوي، والزيادة التي توصف بها هذه الحروف لتأدية معنى التوكيد في الجمل، فيقول: "ومعنى كونه زائداً أن أصل المعنى حاصل بدونه دون تأكيد، فبوجوده حصلت فائدة التأكيد، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة. وسئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف وما معناه؛ إذ إسقاط الحرف لا يخل بالمعنى، فقال هذا يعرفه أهل الطباع؛ إذ يجدون أنفسهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف، قال: ومثال ذلك مثال العارف بوزن الشعر طبعاً، فإذا تغير البيت بزيادة أو نقص أنكره، وقال: أجد نفسي على خلاف ما أجده بإقامة الوزن، فكذا هذه الحروف تتغير نفس المطبوع عند نقصانها ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها⁵. ونشير إلى قضية أساسية تتعلق بحروف الزيادة الدالة على التوكيد، وهي أن النحاة لا يذكرون -حسب ما قاله بعض الباحثين المعاصرين- وظيفة أخرى لهذه الحروف غير دلالة التوكيد، والباحث المتتبع لمواضعها في القرآن المجيد يلاحظ أن لكل حرف معنى زائداً على دلالة التوكيد يلائم السياق القرآني الذي وجد فيه، و يختلف المعنى باختلاف المقام، وهو ما تفتن إليه الاسترأبادي في شرح كافية ابن الحاجب؛ إذ يربط فكرة الزيادة بمبدأ الفائدة، يقول في ذلك "الحروف الزائدة في كلام العرب إما معنوية وإما لفظية، فالمعنوية تأكيد المعنى كما في "من" الاستغراقية و"الباء" في خبر "ليس" و"ما"، فإن قيل: فيجب ألا تكون زائدة إذا أفادت فائدة معنوية، قيل: إنما سميت زائدة، لأنه لا يتغير أصل المعنى، بل لا يزيد

1 - سورة يوسف، الآية: 53.

2 - دلائل الإعجاز: 316-317.

3 - سورة المؤمنون، الآية: 15 - 16.

4 - من بلاغة القرآن لأحمد البيلي: 115.

5 - البرهان في علوم القرآن، 74/3.

بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته، فكأنها لم تفد شيئاً لما لم تغاير فائدتها العارضة الفائدة الحاصلة قبلها، ويلزمهم أن يعدوا على هذا، "إن"، و"لام الابتداء"، وألفاظ التأكيد أسماء كانت أولاً زوائد، ولم يقولوا به¹. ألا يمكن أن يكون التوكيد هو نفسه الفائدة التي تجنى من الزائد؟ فدلالة التوكيد لا تقل فائدة عن المعاني التأسيسية في المعاني المقامية، إذ سقوطها من الكلام يؤدي إلى ذهاب المعنى المقصود مقامياً.

هذا، ولأجل إظهار القيمة المنهجية النقدية الوظيفية للتوكيد في النص القرآني الذي اطرده فيه هذا الأسلوب، وتتوعد استخداماته فيه - لا يكفي الوقوف عند مفهوم تكرار اللفظ بإعادة اللفظ بعينه أو مرادفه أو بمعناه أو عند فكرة الشك أو التردد أو توهم المجاز أو الإنكار مثلاً ورد في أقوال كثير من العلماء، كقول الزمخشري: "وجدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد وما علق به في نفس السامع، ومكنته في قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجه، أو توهمت غفلة وذهاباً عما أنت بصده فأزلته. وكذلك إذا جئت بـ "النفس" و "العين"، فإن لظان أن يظن حين قلت: "فعل زيد" أن إسناد الفعل إليه تجوز، أو سهو، أو نسيان. و"كل" و"أجمعون" يجديان الشمول والإحاطة"².

ولهذا من أراد استيفاء أشكال ودلالات أسلوب التوكيد كما وظفت في النص القرآني ينبغي له الاستفادة من وجوه أخرى يجدها ماثلة في كتب النحو والبلاغة والأصول والتفسير، فلا يقتصر الأمر على فائدة إزالة الشك ونفي الإنكار مع المخاطب فقط مثلاً، بل الأمر يتعدى ما ذكر إلى فوئد أخرى كصدق الرغبة وكمال النشاط من المتكلم، ونيل القبول من المخاطب واستمالته والترغيب والتذكير والتنبيه والتحذير وهلم جرا.

وتتنوع هذه الدلالات حسب تنوع أفكار الدارسين والباحثين في متطلبات استعمال هذا الأسلوب، وحسب اختلاف مناهجهم وتخصصاتهم، كما تزداد هذه الدلالات كثرة بزيادة العناصر الثلاثة للخطاب، وهي: المتكلم، والمخاطب، والرسالة الخطابية المقصود تبليغها. وكل عنصر يتعلق بدلالات معينة لها ارتباط بالمعنى من حيث العلم به أو الجهل به أو الشك فيه أو إنكاره، وقد أشار الشيخ أحمد الدمنهوري - رحمه الله - إلى أغلب هذه العناصر في تقسيم أشكال توكيد المسند إليه وما تدل عليه من معنى رابطاً بذلك بما يناسبه من السياق، قائلاً: "أما توكيده (أي المسند إليه) فلا أمور: منها التقرير أي تقرير المسند إليه، وتحقيق مفهومه بحيث لا يظن به غيره نحو جاءني زيد. ومنها دفع توهم السهو إذا خاف المتكلم أن السامع ظن به السهو فأسند الحكم إلى غير من هو له نحو المثال المتقدم. ومنها دفع توهم المجاز نحو جاء الأمير نفسه دفعا لتوهم أن إسناد المجيء إلى الأمير مجاز، وإنما الجائي بعض خدمه. ومنها دفع توهم التخصيص وعدم الشمول نحو

1 - شرح الكافية، لرضي الدين الاسترأبادي، 433/4.

2 - شرح المفصل، لابن يعيش، 221/2.

جاء القوم كلهم، دفعا لتوهم أن الجائي البعض، وعبر عنه باللفظ الدال على الكل، وذلك عند شرحه لقول الأخضري في الجوهر المكنون:

وأكدوا تقريراً أو قصد الخلوص *** مِنْ ظَنٍّ سَهْوٍ أَوْ مجازٍ أَوْ خُصُوصٍ¹

ثم إن من بلاغة المتكلم الاقتصار في استخدام أساليب التوكيد على مادعت إليه الحاجة للتحرز عن ذكر مالا فائدة له، فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم والتردد فيه ألقى إليه الكلام خالياً عن التأكيد، وإن كان متردداً في الكلام طالبا له حسن تقويته بمؤكد واحد، وإن كان منكراً وجب توكيده بحسب الإنكار، فكلما زاد الإنكار زاد في التوكيد، "كما في قوله تعالى عن رسل عيسى إذ كذبوا في المرة الأولى: {فَالَوْ مَا أَنْتُمْ

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ}²، فأكد

بان الخفيفة واسمية الجملة، وفي المرة الثانية، قال: {قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} 

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَلْبَغُ الْمُبِينِ}³، وذلك أن الكفار نفوا رسالتهم بثلاثة أشياء، أحدها:

قولهم: {مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} والثاني قولهم: {مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ

شَيْءٍ}، والثالث قولهم: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ}، فقبلوا على نظيره بثلاثة أشياء

أحدها قولهم: {رَبُّنَا يَعْلَمُ} ووجه التأكيد فيه أنه في معنى قسم، والثاني قوله: {إِنَّا إِلَيْكُمْ

لَمُرْسَلُونَ} والثالث قوله تعالى: {وَعَلَيْنَا إِلَّا أَلْبَغُ الْمُبِينِ}⁴، ويسمى إخراج الكلام

على هذه الوجوه المتقدمة إخراجاً على مقتضى الظاهر، أي الخلو عن التوكيد في الأول

والتقوية بمؤكد استحساناً في الثاني، ووجوب التوكيد بحسب الإنكار في الثالث، وقد يخرج

الكلام على خلافه، ف"ينزل المنكر كغير المنكر وعكسه، وقد اجتمعا في قوله تعالى:

{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ}  ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْفَيْمَةِ تُبْعَثُونَ}⁵،

أكدت الإمامة تأكيداً وإن لم ينكروا لتنزيل المخاطبين لتماديهم في الغفلة منزلة من ينكر

الموت، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان أكثر، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان

جديراً ألا يتكرر ويتردد فيه حثاً لهم على النظر في أدلته الواضحة"⁶.

1 - حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، الشيخ أحمد الدمنهوري، وهو بهامش: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي، ص 64، نشر: دار الفكر، بيروت- لبنان. دون ط.

2 - سورة يس، الآية: 14.

3 - سورة يس، الآية: 15 - 16.

4 - البرهان في علوم القرآن، 390/2.

5 - سورة المؤمنون، الآية: 15 - 16.

6 - البرهن في علوم القرآن، 91/3.

وباقى الدلالات ذكرتها عند الحديث عن أساليبها مثل أسلوب القصر وجملة القسم والتقديم والتأخير. فلا داعي لإطالة الحديث بإعادتها. وعموما فإن أشكال أسلوب التوكيد منهج لغوي قرآني يقوم على استحضار مقاماته السياقية والحالية، وأحوال مستعملها لتتجلى دلالاته وفوائده في الخطاب النقدي والحواري.

المطلب الثالث: أسلوب التكرار في القرآن:

وهذا النوع ليس من أقسام أسلوب التوكيد الذي قبله وإن كان يجمعه في أشياء فهو يفارقه في أشياء، وهذا ما بينه السيوطي في "الإتقان" قائلا: "فإن قلت: هذا النوع أحد أقسام النوع الذي قبله، فإن منها التأكيد بتكرار اللفظ فلا يحسن عده نوعا مستقلا، قلت: هو يجمعه ويفارقه ويزيد عليه وينقص عنه، فصار أصلا برأسه، فإنه قد يكون التأكيد تكرارا كما تقدم في أمثله، وقد لا يكون تكرارا كما تقدم أيضا، وقد يكون التكرير غير تأكيد صناعة وإن كان مفيدا للتأكيد معنى، ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده..."

ومنه ما كان لتعدد المتعلق بأن يكون المكرر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الأول وهذا القسم يسمى بالترديد¹، وسنتناول هذا المطلب في ثلاثة فروع:

الفرع الأول: مفهوم التكرار وآراء العلماء فيه:

- مفهوم التكرار:

الكَر في معانيه اللغوية يعني الرجوع على الشيء، ومنه التَّكْرَارُ، وهو "مصدر كرر إذا ردد وأعاد، هو تفعال بفتح التاء وليس بقياس بخلاف التفعيل"².

والتكرار في الاصطلاح: تكرار كلمة أو لفظ أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة ما كالتوكيد أو الانتباه أو التهويل أو التعظيم³، وهذا التعريف يتفق مع ما عرفه به الإمام الزركشي حيث قال: "وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به. فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه"⁴. ومن أمثلة ما يظن تكرارا وليس منه {فَلْ يَأْتِيَهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} ⁵، إلى آخرها فإن "لا أعبد ما تعبدون" أي في المستقبل "ولا أنتم عابدون" أي في الحال "ما أعبد" في المستقبل "ولا أنا عابد" أي في الحال "ما عبدتم" في الماضي "ولا أنتم عابدون" أي في

1 - 225-226/3.

2 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، 08/3. وقال ابن منظور في اللسان (5 / 135): الكَرُ: الرجوع، يقال: كَرَّه وكَرَّه بنفسه، يتعدى ولا يتعدى، والكُرُّ مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كَرًّا وكرورا وتكرارا... والكُرُّ: الرجوع على الشيء.

3 - راجع أسرار التكرار في لغة القرآن د شيخون ص11 وبعدها.

4 - البرهان في علوم القرآن 10/3.

5 - سورة الكافرون، الآية 1-2.

المستقبل "ما أعبد" أي في الحال. فالحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة." ومن العلماء من يقول: إنه تكرار.

- آراء العلماء في التكرار في القرآن:

إن العلماء إزاء قضية التكرار في القرآن الكريم على أقوال:

1- اعترضت فئة حاكمة أعمى الحنق والغل بصيرتها، وهي لا تفقه لغة العرب ففطفت تطعن في القرآن بالتكرار الوارد فيه؛ علما أن هذه الفئة لم يكن لها وجود في زمن نزول القرآن الكريم، ولا العصر الذي تبعه، مع أن الأعداء في ذلك العصر كانوا للقرآن بالمرصاد، ولم يتركوا شيئا يعاب به القرآن - في زعمهم - إلا سجلوه وتناقلوه، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، لأن أعداء القرآن في ذلك العصر كانوا أعلم الناس ببلاغة القرآن وقوته وشهدوا بذلك، وهذا هو الوليد بن المغيرة زعيم المشركين سجل عليه التاريخ كلمات صارت شهادة للقرآن من أعدائه، والحق ما شهدت به الأعداء، حيث قال: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليعظم ما تحته"¹، هذا كله بعد أن نزّهه عن السحر وشعر الكهان.

فالملاحظ أن هذه الشبهة الناشئة عن الحقد والحسد لم تظهر مبكرا ولكنها ظهرت بعد فترة من الزمن، وأن هذه الفئة لديها فساد في الذوق البلاغي والبياني، وضعف في العلم باللغة العربية، وأكثر من هذا لم يصلوا بحال من الأحوال إلى درجة فصاحة ولا بلاغة العلماء الذين سكتوا عنها قديما.

2 - وفئة من العلماء لم ينكروا وجود ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ولكنهم امتنعوا أن يطلقوا عليها لفظ "التكرار" فأخذوا يسمونها تارة بالتنوع وتارة بالتكامل. وقصدهم تنزيه القرآن عن هذا اللفظ الذي اعتقدوه نقصا في الكلام، وردة فعل لشبه تثار حول القرآن مما تقوله المستشرقون على كتاب الله، وإن كان هذا عذرا مقبولا، ولكن عليهم أن يوطنوا أنفسهم على الحق ولو كره المجرمون. فالتكرار أسلوب بلاغي، وقد أجاد القرآن الكريم في توظيفه وعرضه، وعظمة القرآن لن يضرها ولن يرفعها قول المتقولين عليه، وذلك أنها عظمة مستمدة من عظمة منزله وهو الله تعالى.

3- وفئة أخرى من العلماء، وهم يختلفون عن الفئة المذكورة قبلهم في أنهم لم يسموه بغير اسمه، ولكنهم رفضوا أن يعترفوا بالتكرار في القرآن الكريم، واجتهدوا في تخريج كل ما جاء في القرآن الكريم مما يوهم التكرار، ولقد أبدع الإمام الزمخشري في هذا المجال متأثرا بالقاضي عبد الجبار وشيخه أبي علي الجبائي، حيث يقول في قوله تعالى من سورة

¹ - السيرة النبوية لابن كثير 1/ 499، وانظر دلائل النبوة للبيهقي 75/2 برقم 505.

الشعراء {وَإِنْ رَبَّكَ لَهْوٌ أَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ¹، حيث تكررت هذه الفاصلة ثمان مرات: "فإن قلت: كيف كرّر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرّر؟ قلت: كل قصة منها كتّزِيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به" ². وفي قوله تعالى: {فَالَوْ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} ³. يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم كرّر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون؟ والثانية: ذمّ لهم، وتخطئة لرأيهم، ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر" ⁴. وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافُونَ} ⁵، يقول: "فإن قلت: كيف كرّر ذكر الصلاة أولاً وآخرًا؟ قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخرًا بالمحافظة عليها".

4 - ومن العلماء، وهم الكثرة الكثيرة من يقولون بظاهرة التكرار في القرآن، ويرون أن في هذا التكرار ضروباً من أسرار البلاغة وتثبيت البنيان، ومن الإعجاز وسحر البيان، كما وجدوا فيه منهجاً قوياً يحقق أهدافاً عظيمة من أهداف التربية، ومن هؤلاء العلماء الإمام القرطبي في تفسيره، حيث قال رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: {فَلْيَأْذَنُوا بِالْقُرْآنِ يَنْفَعُ الْكَاثِرِينَ} ⁶ "وَأما وجه التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قطع أطماعهم، قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز، لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد، كل هذا على سبيل التأكيد" ⁷، ولم يكتف القرطبي في هذا المقام بذكر كلام أهل المعاني، ولكنه استدل على وجود التكرار في السنة وفي أشعار العرب وكلامهم. ومنهم الإمام البغوي ⁸، والكرماني ⁹، وغيرهم.

1 - سورة الشعراء، الآية: 8.

2 - الكشف، للزمخشري 142/3.

3 - سورة الأنعام، الآية: 131.

4 - الكشف، 174/2.

5 - سورة المؤمنون، الآية: 9.

6 - الكشف، 67/3.

7 - تفسير القرطبي 10 / 387.

8 - معالم التنزيل، 442/7 في تفسير قوله تعالى {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان}.

9 - أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لمفاهيم الحجة والبيان، لمحمود بن حمزة الكرماني، ص 74 في مقارنته بين آيتين إحداها في البقرة: 58، والأخرى في الأعراف: 161.

فالتكرار الوارد في القرآن المجيد ليس من التكرار الممقوت الذي لا وزن له كالذي يرد في تعبير من لا يحسن اللغة. قال الزركشي في البرهان: "وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لاسيما إذا تعلق بعبئه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتهما إذ أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته تأكيداً... وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة. وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة. وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقيم ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، قال تعالى: {وَلَفَدُ يَسِّرْنَا أَلْفُرَّءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِسْ مَدَّكِرٍ} ²¹.

الفرع الثاني: أنواع التكرار:

وجد العلماء المهتمون بالدراسات القرآنية التكرار الوارد في القرآن ينتوع إلى نوعين: أحدهما: تكرار اللفظ والمعنى: وهو تكرار اللفظ دون اختلاف في المعنى، وهو على وجهين: موصول، ومفصول. أما الموصول: فقد ورد على وجوه متعددة: إما تكرار كلمات في سياق الآية، مثل قوله تعالى: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ} ³، وإما في آخر الآية وأول التي بعدها، مثل قوله تعالى: {وَيُؤْتِيكَ مَا تَبْتَغِيهِمْ بِئَانِيَةِ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا} ⁴، وإما تكرر الآية بعد الآية مباشرة، مثل قوله تعالى: {فَبِإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ⁵، إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ⁵، ومن ذلك تكرير حرف الإضراب في قوله تعالى: {بَلْ قَالُواْ أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلْ إِبْتَرِيهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} ⁷.

وأما المفصول فيأتي على وجهين: إما تكرار في نفس السورة، وإما تكرار في القرآن كله.

- مثال التكرار في السورة نفسها: تكرر قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

1 - سورة القمر، الآية: 17.

2 - البرهان، 09/3.

3 - سورة المؤمنون، الآية: 36.

4 - سورة الإنسان، الآية: 15 - 16.

5 - سورة الشرح، الآية: 5 - 6.

6 - الإتيان في علوم القرآن، 229/3.

7 - سورة الأنبياء، الآية: 5.

الرَّحِيمِ} ¹، في سورة الشعراء ثمانى مرات، وتكرر قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} ²، في سورة " المرسلات " عشر مرات، وتكرر قوله تعالى {قَبَائِيءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ³، في سورة الرحمن نيفا وثلاثين مرة.

- ومثال التكرار في القرآن كله: تكرر قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} ⁴، في سورتي التوبة والتحريم.

والثاني: التكرار في المعنى دون اللفظ، وذلك مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر الجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ⁵. قال الزركشي: "ومن ذلك تكرير القصص كقصة آدم وموسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه، وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية وقصة موسى في تسعين آية" ⁶.

ومن ذلك تكرير الأمثال كقوله: {وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} ⁷، وكذلك ضرب مثل المنافقين أول البقرة بالمستوقد نارا ثم ضربه بأصحاب الصيب قال الزمخشري: والثاني أبلغ من الأول لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، قال: ولذلك أخر وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ ⁸.

الفرع الثالث: دلالات وفوائد التكرار وغاياته النقدية:

أسلوب التكرار نوع من التأكيد يضاف إلى التوكيد الصناعي (اللفظي والمعنوي) ولكنه مستقل بنفسه كما ذكرنا أول هذا لمطلب، وهو ما يذكره البلاغيون من صور الإطناب، وله دلالات منهجية وأغراض نقدية وتربوية كثيرة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه

1 - الشعراء: 8.

2 - سورة المرسلات، الآية: 15.

3 - سورة الرحمن، الآية: 11.

4 - سورة التوبة: الآية: 74، وسورة التحريم، الآية: 9.

5 - تفاصيل أنواع التكرار في القرآن في كتاب " ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، د. عبد الشافي أحمد على الشيخ ص: 30 وما بعدها.

6 - البرهان، 25/3.

7 - سورة فاطر، الآية: 19 - 20.

8 - الإتيان في علوم القرآن، 229/3.

الله:- "وليس في القرآن تكرار محض، بل لابد من فوائد في كل خطاب"¹. ومن تلك الفوائد والدلالات²:

- "إبراز المعنى وتقريره في النفس، كما في قول الله تعالى: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} ﴿٣٨﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ"³، فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيراً وأشدّ تخويفاً.

- ومنها: استمالة المخاطب وترغيبه في قبول النصح والإرشاد، كما في قول الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَفْقَهُمْ إِيَّاهُمْ بِتَبَعٍ أَهْدِي سَبِيلَ الرَّشَادِ} ﴿٣٨﴾ يَفْقَهُمْ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ"⁴، ففي تكرار {يَا قَوْمِ} استمالة لأنفسهم، وترغيب لهم في قبول الحق والاهتداء.

- منها: التذكير بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد، كما في قوله تعالى: {قَبَائِلُ آلِ رِبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ}"⁵، فقد ذكر -جل وعلا- نعمة بعد نعمة في هذه السورة وعقّب كل نعمة بهذا الاستفهام الذي يفيد التنبيه إلى نعمه الكثيرة والتذكير بها. قال ابن قتيبة: فلما عدّد الله تعالى في هذه السورة نعماءه، وأذكّر عباده آلاءه، ونبّههم على قدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين، ليفهّمهم النعم ويقرّره بها، كقولك للرجل: ألم أبوءك منزلاً وكنّت طريداً؟ أفنتكر هذا؟ ألم أحجّ بك وأنت صرورة (هو من لم يحج قط)؟ أفنتكر هذا؟⁶

- من أغراض التكرار⁷: المبالغة في التحذير والتنفير، كما في قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}"⁸، التي تكررت في سورة المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى؛ حيث أعقب كل قصة بهذا الوعيد.

- ومنها: الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة، كما في قوله: {وَلَفْدُ يَسْرُنَا الْفُرْعَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}"⁹. قال الزمخشري في فائدة تكرار هذه الآية

1 - مجموع الفتاوى، 14 / 408.

2 - انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، الخطيب جلال الدين القزويني (المتوفى: 739هـ) 200/3-201.

3 - سورة التكاثر، الآية: 3 - 4.

4 - سورة غافر، الآية: 38 - 39.

5 - سورة الرحمن، الآية: 11.

6 - زاد المسير، 4 / 208.

7 - البلاغة 2 - المعاني:- مناهج جامعة المدينة العالمية، ص 516.

8 - سورة المرسلات، الآية: 15.

9 - القمر: 17.

ومثلها: "فائدته ليجددوا عند سماع كل نبي منها اتعاضا وتنبئها وأن كلا من تلك الأنبياء مستحق لاعتبار يختص به وأن يتنبهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة"¹. قال السيوطي - رحمه الله -: "وله - أي التكرار - فوائد: منها : التقرير ، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر الأفاصيص والإنذار في القرآن بقوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}²، ومنها: إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيها تطرية له وتجديداً لعده، ومنه: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}³ (...) ومنها : التعظيم والتهويل نحو {الْحَافَّةُ مَا الْحَافَّةُ}⁴، {الْفَارِعَةُ مَا الْفَارِعَةُ}⁵6.

ولتكرار بعض القصص والأمثال دلالات وفوائد تحمل عدة منهجية مفيدة في التربية والحوار والنقد:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في التعليق على تكرار قصة موسى مع قومه: "وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعا غير النوع الآخر كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر وليس في هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات... وكذلك القرآن فكل اسم (من أسمائه) يدل على معنى ليس هو المعنى الآخر... فهذا في الأسماء المفردة. وكذلك في الجمل التامة يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخرى وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة، فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الآخر⁷.

- ومن فوائد تكرار القصص: "أن في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة.

- ومنها أن القصة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وأنت على أسلوب غير أسلوب الأخرى، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في

1 - الكشف، 439/4.

2 - سورة طه، الآية: 110.

3 - سورة النحل، الآية: 119.

4 - سورة الحاقة، الآية: 1.

5 - سورة القارعة، الآية: 1.

6 - الإتيان في علوم القرآن، 3 / 281، 282.

7 - مجموع الفتاوى، 19 / 167، 168.

إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم، وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة، واستلذاذها بها، وإظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة في اللفظ، ولا ملل عند سماعه فباين ذلك كلام المخلوقين"1.

اتضح مما سبق أن التكرار منهج وأسلوب يستخدمه العرب منذ القدم، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، فبما أن أسلوب التكرار منهج قرآني فلا يمكن لأحد أن يعيب على من يستخدمه عند الحاجة إليه في النقد والحوار كإرادة تقرير الكلام وتأكيد، ولا ريب في أن الكلام إذا تكرر تقرر؛ إذ إن التكرار لم يكن في الأصل إلا وسيلة لإعطاء العبارة زيادة في القوة حسب المعاني والدلالات التي يراد تقريرها وتأكيدا كتأكيد الردع والإنذار والزجر في مقام التهديد والوعيد، كما في آيات {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} ٢ ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}2، ومثيلاتها. وزيادة التعظيم والتنبيه والتشريف في مقام يقتضي ذلك.

وكالإبلاغ بحسب العناية بالأمر أو التشوق والاستعذاب. - وقد كرر القرآن كلمة البلد الحرام في أول سورة "البلد" والبلد الحرام لم يزل معظما عند المسلمين، وزاد في تعظيمه وتشويقه وتشريفه شرف من حل به، وهو الرسول الكريم سيد الخلق محمد - صلى الله عليه وسلم - وكنا نكرر الكلام ونردد القراءة من أجل التعليم والتعلم والتعود، لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وقد جاء في القرآن الكريم تكرار الأمر بالقراءة (اقرأ) لرسولنا الكريم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن ضمن ذلك أمره بترداد القراءة كي تصبح ملكة وسلوكا وعادة للنبي صلى الله عليه وسلم3.

- وقد أرشدنا القرآن المجيد إلى أن تكرار النداء في الخطاب مما يو قظ الحضور من سنة الغفلة، ويدعو إلى تلقي الكلام بالقبول. ويزيد في التنبيه على إبعاد التهم عن المتكلم باستعطافهم بنداءات مؤثرة، مثل: أعزائي وأحبابي أيها الحضور الكرام...وقد جاء تكرار النداء في القرآن على السنة الأنبياء والصالحين، من ذلك قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ

ءَامَنَ يَفْعَلُونَ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} ٣٨ يَفْعَلُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}4، ومن ذلك تكرير إبراهيم

1 - الإتيان، 230، 3-231 ومن أراد الاستزادة في فوائد القصص فليرجع إلى الإتيان في علوم القرآن للسيوطي والبرهان في علوم القرآن للزركشي، 25/3 وما بعدها. وقد ألف البدر بن جماعة كتابا سماه "المقتنص في فوائد تكرار القصص" وذكر فيه الكثير من فوائد تكرير القصص في القرآن.

2 - التكاثر: 3-4.

3 - تفسير المراغي: 30 / 199.

4 - سورة غافر، الآية: 38 - 39.

عليه السلام في نصيحة أبيه : {يا أبت} ومثل هذا في القرآن الكريم كثير، وهو من الحنكة في الدعوة إلى الله.

- وقد يكون التكرار على عكس ما ذكر ويكون للتفجير والتشنيع والتعجب والتعجيب من أمر يعارض ما تدعو وترشد إليه، وتدافع وتكابد من أجله، مثل الذي يتعرض للعبد المؤمن وينهاه إذا صلى معتقدا أنه يجب طاعته، كما في قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ أَلِذِي يَنْهَى ۖ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۖ} ١ {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۖ} ٢ {أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۖ} ٣ {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ} ٤ {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۖ} ٥، كرر (أرأيت) ثلاث مرات، والخطاب مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - "فإن أمره لعجب، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد أن ينهى عبدا من عبيد الله عن صلاته، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته" ٦.

- وقد أكد لنا القرآن أن التكرار أسلوب مفيد في استخدامه لتبكيك منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه، وتوبيخ المكذبين بها، وتقريع الغافلين وتنبية المؤمنين في التذكير بها، وهذا ما يرشد إليه تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن {قَبَائِي ۖ ءَآلَآءِ رَبِّكُمْ أَتُكَذِّبُونَ} وذكرت سابقا آراء المفسرين في شأن تكرار هذه الآية، وبلغ تكرار الآية الكريمة إحدى وثلاثين مرة، "ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم. وحسن ذكر الآلاء عقبها، لأن في صرفها ودفعها نعمة توازي النعم المذكورة.. وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة. ثمانية بعدها للتين دونهما. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووفاه السبعة السابقة والله تعالى اعلم" ٣، "فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها قرر عليها ووبخ على التكذيب بها" ٤، وبكت "كما يبكّت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه" ٥. وأيضا إذا كان الموضوع مهما وعظيما وبلغ الغاية في الفخامة أو الهول فمقام الموعظة فيه يقتضى الإطناب في تعداد ما يقع فيه، لأن التكرار أو الزيادة في الموعظة وخاصة في الأمور العظيمة لا يمل عندها المتكلم ولا السامع، ولذا كثيرا ما يذكرنا القرآن في مواطن مختلفة، وبأساليب متنوعة بيوم القيامة وأهواله والجنة ونعيمها نظرا لأهمية الموضوع، فيكرر الحديث عنه باعتبار تعدد ما يقع فيه، وقد أشار السيوطي

١ - سورة العلق، الآية: ٩ وما بعدها.

٢ - تفسير المراغي: 203 / 30.

٣ - أسرار التكرار في القرآن لمحمود بن جمزة الكرمانى: 198.

٤ - مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي على الفضل بن الحسن الطبرسي، 9 / 199.

٥ - خزانة الأدب للحموي : 1 / 362.

لهذا الغرض من التكرار من خلال قول الله تعالى : {الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ}،
 {الْفَارِعَةُ مَا الْفَارِعَةُ}، حيث أكد رحمه الله على أن التكرار هنا يفيد التعظيم في
 مقام الموعظة¹.

إن إتيان التكرار للتفخيم والتهويل كثير في القرآن الكريم، ولا سيما في السور المكية.
 ودلنا الاستقراء على أن اقتران التكرار بـ (ما أدراك) للدلالة على عظم أمر المكرر وهوله
 وجلالة قدره. وجاء في طائفة من الآيات توزعت على عشر سور مكية². وهذا أسلوب من
 أساليب التفخيم والتهويل، وهو مألوف في التعبير القرآني لتفخيم ذلك الأمر أو تهويله
 ليوقع في الحس أن الأمر أعظم جداً، وأهول جداً من أن يحيط به إدراك البشر، فهو فوق
 كل التصور، وفوق كل توقع، وفوق كل مألوف، وتكرار السؤال يزيد في الاستهوال
 والتفخيم. "والمعنى لا تحيط علماً بحقيقة يوم الدين، وهذا التعبير كناية عن فخامة أمر
 الشيء وعلوه من أن يناله وصف الواصف، وفي إظهار اليوم- والمحل محل
 الضمير- تأكيد لأمر التفخيم"³، من الحكمة أن تتكرر آيات العذاب والنعيم- على سبيل
 المثال - في القرآن الكريم كي يصادفها الإنسان كلما قرأ القرآن الكريم فيخشع قلبه،
 ويطمع في الجنة فيعمل لها.

ويستخدم التكرار أيضاً عند إرادة التوضيح والتعيين إذا كان الشيء مبهماً، كما في
 قوله تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَلَهُمَا مَنْ يَئِسَ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} ﴿٦٦﴾
 أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ بِأَطْلَعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِباً⁴، كرر (أسباب)
 للتوضيح و التعيين؛ إذ كانت مبهمة في قوله (لعلني أبلغ الأسباب) فعندما
 كررها أوضحها وبينها وعينها بإضافتها إلى السماوات في قوله تعالى: {أسباب
 السماوات}⁵؛ إذ "في الإبهام تشويق للمراد وتعجب من المقصود، ثم بالتوضيح يحصل
 المقصود ويتعين"⁶. ونفس الشيء في قوله تعالى: {إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ﴿٦٠﴾

1 - الإتيان، 282/3.

2 - انظر: في سورة الحاقة: (1 - 3) في قوله تعالى ((الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)) و في سورة المدثر (26 - 27) في قوله تعالى ((سَاطُئِهِ سَقَرٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ)) وفي سورة المرسلات (13 - 14) في قوله تعالى ((لَيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمِ الْفَصْلِ)) وفي سورة الانفطار (15 - 18) في قوله تعالى ((يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ مَرْفُومٍ)) وفي سورة المطففين (7 - 9) و (18 - 20) في قوله تعالى ((كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ * كِتَابٌ مَرْفُومٌ)) وفي سورة الطارق (1 - 3) في قوله تعالى ((وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجْمُ الثَّاقِبُ)) وفي سورة البلد (11 - 13) في قوله تعالى ((فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً)) وفي سورة القدر (1 - 3) في قوله تعالى ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)) وفي سورة الفارعة (1 - 3) و (8 - 11) في قوله تعالى ((الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)) وفي قوله تعالى ((وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارٌ حَامِيَةٌ)) وفي سورة الهمزة (4 - 6) في قوله تعالى ((كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ)).

3 - ينظر تفسير الميزان: الطباطبائي، 227/20.

4 - سورة غافر، الآية: 36 - 37.

5 - ينظر دلالة التكرار في القرآن، د. هاتف بريهي شياح الثويني: 09.

6 - البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (المتوفى: 745هـ) 258/9.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، فقد كرر الصراط على البدلية للتوضيح والتبيين والتفسير بعدما أبهم "لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه"¹، فضلا عن توضيحه.

والتكرار مرة أخرى يؤتى به لشرف الشيء المكرر ولتشریفه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره وهذا ما نستجليه من تكرار لفظ (الناس) خمس مرات تبجيلا لهم وتشريفا في سورة الناس، قال تعالى: {فَلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ الْمَالِكِ}،² والسبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات، لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد من الإظهار، ولأن هذا التكرير يقتضي مزيد شرف للناس، لأنه سبحانه كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس، ملكا للناس، وإلهها للناس، ولولا أن الناس أشر مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه ربا وملكها لهم"³، وفي إسناد الناس وإضافتهم إلى الذات الإلهية المقدسة لأنه جل وعلا هو مربيهم ومنشئهم وخالقهم، وهو مالِكهم، وهو إلههم ومعبودهم، شرف للناس ما بعده شرف، وتشریف لا مثيل له ولا نظير. وهناك وجه آخر ذكره الزمخشري في الكشف أن "اله الناس عطف بيان لملك أو كلاهما عطف بيان للأول والثاني أبين لأن ملك الناس قد يطلق لغير الله تعالى، وأما اله الناس فلا يطلق إلا له عز وجل، فجعل غاية للبيان وزيد البيان بتكرار ظاهر غير مضمّر"⁴.

وهكذا يعلمنا القرآن المجيد أن التعابير المفيدة في التربية والتعليم تحتاج إلى التذكير بها مرة تلو الأخرى، حتى يستقيم الأمر على الوجه المطلوب، لأن التربية والتعليم، وهما غاية القرآن الكريم لا يحصلان بقولة ترمى مرة واحدة وتترك هملا بعدها، فكل من يمارس التربية والتعليم في أي مجال فكري يدرك مدى نجاعة تكرار التذكير في ذلك، ويؤكد العلم الحديث هذا الأمر، حيث يثبت ما معناه: أن القناعة العقلية الأولية لا تكفي لتقويم الإنسان، بل يجب أن تدخل هذه القناعة إلى العقل الباطن، ودخولها بحاجة إلى تكرارها كي تترسخ فيه وتصبح جزءا منه .

وبالجملة يمكننا القول بأن ما ذكرناه من فوائد التكرار في القرآن المجيد، يرجع إلى فائدتين: الأولى: فائدة دينية باعتبار أن كتاب الله كتاب رشاد وهداية وتشريع لا يخلو منها خطاب من خطابه. وأهم ما يفيد التكرار من الناحية الدينية: هو تقرير المكرر وتوكيده وإبراز العناية به، ليكون للاعتقاد أبين وفي السلوك أمثل. والثانية: فائدة أدبية: وأهم ما

1 - حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد، 255/1.

2 - سورة الناس، الآية: 1 - 3.

3 - مفاتيح الغيب للرازي، 32 / 377.

4 - الكشف، 823/4.

يؤدي التكرار من الناحية الأدبية، وإن كان دوره فيها متعددًا تقرير المعاني وإظهارها في معرض الوضوح والبيان، والعناية والاهتمام.

وليس هذا حصراً لجميع فوائد التكرار، وإنما هو غيض من فيض، ويفيض الله على من يشاء من عباده بحكمه وأسراره.

المبحث الثاني: أسلوب المثل:

الأمثال في القرآن طريقة من جملة الطرائق الأسلوبية التعبيرية التقريرية التي تعالج بها الآيات القرآنية الحقائق في منازعها المختلفة، وللمفكر الناقد أسوة في استخدامها كذلك. كما تحمل الأمثال في ذاتها حكمة تحكم طبائع البشر، وتعبّر عنها أصدق تعبير، فتدعو إلى ما يلائمها، وتنفر عن كل ما يتنافى مع واقعها. وسأتناول المثل القرآني من حيث التعريف والخصائص والأنواع والغايات:

المطلب الأول: مفهوم المثل في القرآن المجيد

إن مادة "مثل" تتوزع معانيها في معاجم اللغة بين المفاهيم التالية التي يختلط فيها المحسوس والمجرد: "التسوية والمماثلة، الشبه والنظير، والحديث، والصفة، والخبر، والحدو، والحجة، والند، والعبرة، والآية، والمقدار، والقالب، والانتصاب، نصب الهدف، الفضيلة، التصوير، الالتصاق بالأرض، الذهاب، الزوال، التنكيل، العقوبة، القصاص، الجهد، الفراش، النمط، الحجر المنقور، الوصف والإبانة¹. وسأتبع معاني هذه المادة (مثل) في "لسان العرب" لابن منظور؛ لأنه يدعمها بالأمثلة في القرآن، وهي كالاتي: "مثل: كلمة تسوية، يقال هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه... والمثل: الحديث نفسه... ومثل الشيء أيضا صفته... وقوله عز من قائل: {مَثَلُ الْجَنَّةِ إِلَيَّ وَوَعْدَ

الْمُتَّقِينَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} ². والمثل مأخوذ

من المثل والحدو، وفي التنزيل العزيز: {يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا

لَهُ} ³، وذلك أنهم عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر وما لم ينزل به حجة، فأعلم

الله الجواب مما جعلوه له مثلاً ونداء، وقد يكون المثل بمعنى العبرة، ومنه قوله عز

وجل: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْباً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ} ⁴، ومعنى قوله مثلاً: أي عبرة يعتبر بها

المتأخرون، والمثال: المقدار، وهو من الشبه، والمثل ما جعل مثلاً أي مقدارا لغيره يحذى

عليه. والمثال: القالب الذي يقدر على مثله... المثال قالب يدخل عين النصل في خرق

1 - الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، لأبي علي محمد توفيق، ص 32.

2 - سورة الرعد، الآية: 36.

3 - سورة الحج، الآية: 71.

4 - سورة الزخرف، الآية: 59.

في وسطه ثم يطرق غراره حتى ينبسطا، والجمع أمثلة. وتماثل العليل: قارب البرء فصار أشبه بالصحيح من العليل المنهوك، وقيل: إن قولهم تماثل المريض من المثل والانتصاب كأنه هم بالنهوض والانتصاب. وامتثلوه غرضا أي نصبوه هدفا، وقد مثل الرجل، الضم، مثالة أي صار فاضلا. والأمثل: الأفضل، والطريقة المثلى: التي هي أشبه بالحق، وعلى هذا قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيفَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} ¹، وقوله: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيفَتِكُمُ الْمُثْلَى} ²، والتمثال: الصورة، وتمثل كذا تصوّر. قال تعالى: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} ³. وقال بعضهم: المثل بالكسر والمثل بالفتح: شيء واحد، كابن منظور في قوله المتقدم: "مثل كلمة تسوية، يقال: هذا مثله، ومثله، كما يقال: شبهه وشبهه بمعنى"، وقال آخرون -كما نقل الزركشي عن بعض العلماء في تعليل الفرق بين المثل والمثل: "لو كان المثل والمثل سيان للزم التنافي بين قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ⁴، وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} ⁵، فإن الأولى نافية، والثانية مثبتة له" ⁶.

وأما المثل القرآني فلا يخضع لتعريف اللغويين والأدباء ⁷، أو البلاغيين ⁸، فهو أعم في مفهومه منها جميعًا. وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح، أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو التشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالًا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى.

1 - سورة طه، الآية: 102.

2 - سورة طه، الآية: 62.

3 - سورة مريم، الآية: 16.

4 - سورة الشورى، الآية: 9.

5 - سورة النحل، الآية: 60.

6 - البرهان 490/1.

7 - ويعرّف بعضهم المثل عند الأدباء بأنه: قول محكي سائر، يُقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي مثل لأجله، بأن يُشبهه مضربه بمورده. انظر: التعبير الفني في القرآن ص 227 للدكتور بكرى شيخ أمين. وبصوره، نحو قولهم: الصيف ضيعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك.

8 - أما تعريفه عند علماء البيان فهو: أن المثل من قبيل الاستعارة التمثيلية فإذا فشت وشاع استعمالها أضحت مثلًا يضرب، ويراعى في المثل المعنى الذي ورد فيه أولاً، فيخاطب به المفرد، والمثنى، والجمع مذكراً أو مؤنثاً، من غير تغيير في العبارة الواردة. كقولهم: "تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن" لمن يعرض له أمر لا يشتهي تشبيهاً له بربان السفينة تزجيها الرياح إلى غير الوجهة التي يريد. ينظر: المنهاج الواضح للشيخ حامد عوني، 3/ 310.

ولهذا كان الضابط الأخير¹ أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو "إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء أكانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا"²، ويقول ابن القيم في أمثال القرآن هي: "تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر"³.

توحي هذه التعاريف إلى أن الأمثال القرآنية منها ما يأتي على طريقة التشبيه الصريح وهو أكثرها، ومنها ما يأتي على طريقة التشبيه الضمني، وهو ما ليس فيه تشبيه صريح، كقوله تعالى: {وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}⁴، ومنها ما لا يكون تشبيها ولا استعارة، وقد سماه الله مثلاً، كقوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ}⁵. وهكذا تنوعت تعريفات العلماء للمثل في القرآن بسبب تنوع آرائهم، ومن تعريفات المعاصرين، وهي تفيد أيضاً أن المثل القرآني أعم في مفهومه من غيره، من ذلك ما قاله محمد بكر إسماعيل: إن "الأمثال القرآنية مقاييس عقلية تخلص من التكلف والاعتساف، وقواعد كلية للمبادئ الخلقية الصالحة لكل زمان ومكان. والمثل القرآني: أسلوب بياني يجمع في طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد، لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة، أو الأعمال المجربة، أو الأمور التي لا تقع تحت الحس والإدراك في الدنيا، والتي يترتب عليها أحكام شمولية، ويبنى عليها صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة"، و بهذا الإطلاق العام لمعنى "المثل" في القرآن الكريم نفهم معنى قوله تعالى في سورة الإسراء: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}⁶⁷، وردت في التعريف كلمة "الأقيسة" جمع قياس، و"نماذج"، والقياس في الأمثال يكون بطريقتين:

أحدهما: التشبيه كقوله تعالى: {بِمَثَلِهِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}⁸، وهذا النوع يكون فيه الكلام بإجراء القياس بتشبيه الفرع

1 - وهو قول "مناع بن خليل القطان" في كتابه "مباحث في علوم القرآن" ص 292: وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

2 - مباحث في علوم القرآن، المؤلف: مناع بن خليل القطان، ص: 292، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الطبعة: الطبعة الثالثة 1421هـ-2000م.

3 - الأمثال في القرآن لابن قيم الجوزية، ص 9.

4 - سورة الحجرات، الآية: 12.

5 - سورة الحج، الآية: 71.

6 - سورة الإسراء، الآية: 89.

7 - دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل، ص، 300.

8 - سورة الأعراف، الآية: 176.

بالأصل وبيان وجه المشابهة، وغالباً ما يوجد فيه أداة من أدوات التشبيه، وهو ما يسمى بقياس التمثيل، ويقوم على التشبيه حيث يدل على القياس أسلوب المثل التشبيهي. فيتضمن المثل القياس من حيث وضعه اللغوي وأسلوبه الذي يقوم على التشبيه كما في الأمثال التمثيلية،

الثاني: إبراز النموذج - الذي يراد أن يُحتذى - والشاهد والحجة، ليقاس عليها ويعمم حكمها لكل من تحقق فيه وصفها، فيستلزم هذا النوع القياس حيث لا يتم قصد المتكلم ولا اعتبار المخاطب إلا بإجراء القياس، كما في الأمثال الأنموذجية. كقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ لِئْسَ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} ¹. فامرأة فرعون: جعلت أنموذجاً ومعنى كلياً يشترك في حكمها كل من كانت حالها كحالها من المؤمنات. وهو ما يسمى بقياس الشمول و"هو انتقال الذهن من المعين إلى المعنى العام المشترك الكلي المتناول له ولغيره، والحكم عليه بما يلزم المشترك الكلي" ²، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى هذين النوعين من الأمثال حيث قال: "وَضَرَبَ الأمثال في المعاني نوعان، هما نوعا القياس: أحدهما: الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر، وثانيهما: الأمثال الكلية" ³، وقد تقدم الكلام على هذا النوع من الأقيسة في مبحث الأصل العقلي. فالتعميم هنا في لفظ المثل في الآية يرجح أن يكون المثل القرآني هو "ما استعير لكل شأن مهم أو حدث غريب أو قصة أريد بها العظة والعبرة، أو لكل وصف لم يعرفه العرب من قبل، أو لكل معنى لم يدرك فحواه إلا بتقريبه عن طريق الشبيه والنظير له" ⁴.

المطلب الثاني: خصائص المثل القرآني:

يتميز "المثل" في أسلوبه عن الأساليب التعبيرية بخصائص فنية، وميزات بلاغية كثيرة، جمعتها الأمثال القرآنية، فكان لها شأن عظيم في تصوير الوقائع، وتأثير بالغ في تقبل القلوب والعقول الحقائق. أما خصائص "المثل" وسماته على وجه العموم فإنها ترجع في جملتها إلى أربعة أمور:

الأول: الإيجاز البليغ: وهو تأدية المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة محكمة.

الثاني: إصابة المعنى: بأن يكون المثل مؤدياً للغرض الذي ضُربَ له أو قيل فيه، بحيث إذا أُلقي على المخاطب وقع من نفسه موقعه، وأصاب مرماه، وسَلَّم به تسليماً لا يقبل التردد.

1 - سورة التحريم، الآية: 11.

2 - مجموع الفتاوى لابن تيمية، 9/ 119.

3 - المصدر السابق (56/14، 58).

4 - البنية الأسلوبية للأمثال القرآنية للدكتور عبد السلام الراغب، ص3.

الثالث: حسن التشبيه، وذلك بأن يكون وجه الشبه بين المشبَّه والمشبَّه به قوياً، يدركه الذهن من غير تكلف في التأويل، وأن يكون في التشبيه جدّة وطرافة وابتكار، حتى يكون التأثير به أقوى وأقدر على إبراز المعاني المعقولة في صور محسّنة.

الرابع: جودة الكناية: وذلك إذا كان المثل من باب الكنايات، بأن يعبر عن حكمة دلت على صدقها التجربة، وشهد لها الواقع بالسلامة والصحة.

وأمثال القرآن الكريم مستوفية لهذه الخصائص إلى حدّ الإعجاز -ولا شك- فالإيجاز فيه من الدقة بحيث يسع اللفظ الواحد من المعاني المرادة ما لا تسعه المجلدات الضخام¹. وقد أشار إبراهيم النظام إلى هذه الشروط مجتمعة، فقال: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة"²، وتمتاز الأمثال القرآنية عن غيرها من الأمثال الأدبية السائرة بخصائص عديدة، من أبرزها:

1- أنها لم تستق من موارد معينة أو متخيلة سابقة عليها، كما هو معروف في الأمثال العربية، وإنما هي أسلوب قرآني لا يحذو حذو غيره في أدائه وطريقته وغايته، فهي كما يقول منير القاضي: "نوع آخر أسماء القرآن مثلاً من قبل أن تعرف علوم الأدب المثل، ومن قبل أن تسمي به نوعاً من الكلام المنثور، وتضعه مصطلحاً له، بل من قبل أن يعرف الأدباء المثل بتعريفهم"³.

2- أن المثل القرآني في كتاب الله المبين قد يكون حقيقياً، وقد يكون فرضياً. ففي حال كون المثل حقيقياً، أو يعبر عن حقيقة، فإنه يطلق على ذات الشيء كما في قول الله تعالى: {أَوْ مَسَّ كَان مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَثَلِ نُورٍ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}⁴، أي كمن هو في الظلمات. أما في حال كون المثل القرآني فرضياً، فإنه يأتي على صورة التشبيه، كما في قول الله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْبَاراً}⁵. أما الأسفار فهي الكتب القيمة والنادرة، والتوراة هي سفر، لأن فيها صحف موسى -عليه السلام- التي أنزلها الله تعالى عليه لتكون شرعة ومنهاجاً لبني إسرائيل... إلا أنهم تركوا أحكامها وراء ظهورهم، وحملوها في الظاهر، يأخذون ببعضها ويتركون

1 - دراسات في علوم القرآن، المؤلف: محمد بكر إسماعيل، 305-306.

2 - مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: 518هـ) 06/1.

3 - الصورة الفنية في المثل القرآني: الدكتور محمد حسين علي الصغير. ص 68.

4 - سورة الأنعام، الآية: 123.

5 - سورة الجمعة، الآية: 5.

بعضها الآخر، مما أدى بهم إلى عدم الانتفاع بها، فصار مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب القيمة دون أن يعرف ماذا يحمل، ودون أن ينتفع بما يحمل.

3- أن من مضامين المثل القرآني: القياس التمثيلي. ولعل هذه الخصيصة من أهم خصائص الأمثال في القرآن الكريم التي تحتوي على القياس التمثيلي كما في قول الله تعالى: {وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} ¹، فمن حيث المبنى نجد أن هذه الآية الكريمة هي من أحسن وأظهر القياس التمثيلي، لأنها تُشَبِّه النيل من عرض الإنسان المغتاب، أو من شرفه وكرامته، بالتمزيق في لحمه وأكله... فكأنَّ المسلم الذي يغتاب مسلماً إنما يقطع لحم أخ له تقطيعاً ويأكله، وهو أكره شيء يمكن أن يتصوره الإنسان المؤمن، أو الإنسان الذي يشعر بإنسانيته.

وأما من حيث المعنى فإن هذا المثل يبيِّن لنا إحدى أبرز المساوئ والمفاسد التي يتعرض لها الناس في حياتهم. إنها الغيبة، وما أدراك ما الغيبة؟ إنها الداء الوبيل.

- ومن روعة الأمثال في القرآن الكريم أن بعض أجزاء آياته قد جرت مجرى المثل الذي يعرف بالمثل السائر، كما في قول الله تعالى: {إِن لَّسَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} ²، أي ظهر وبان، ويمكن أن يضرب في كل وقت يظهر فيه الحق الصراح. ومنه أيضاً قوله تعالى: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} ³، أي أن كل جماعة تكون - عادةً - معتدَّةً برأيها ومسرورة به... فالحزب سياسياً كان أو غير سياسيٍّ يعتقد أن مبدأه هو الصحيح، وأنه هو الذي يجب أن يهيمن على المبادئ الأخرى التي تنادي بها سائر الأحزاب من دونه.

4 - أن أمثال القرآن الكريم مطلقة تتناول الأمور بصورة كلية وشمولية، يقول الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ} ⁴، فقوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} هو تعبير عن الحياة الدنيا كلها، دون ذكر تفاصيلها وأجزائها. والأمر كذلك بالنسبة لكل ما تتناوله أمثال القرآن. فالله - سبحانه وتعالى - يضرب مثلاً لحالة بحالة، دون تفصيل كل حالة على حدة. وهذا ما يضيفي

1 - سورة الحجرات، الآية: 12.

2 - سورة يوسف، الآية: 51.

3 - سورة المؤمنون، الآية: 54.

4 - سورة الكهف، الآية: 44.

على المثل القرآني صفة الإطلاق، لأن معانيه ومدلولاته لا تنحصر بالحالة التي يتناولها نص هذا المثل، بل تتسع لتشمل جميع الحالات المماثلة لها في أي زمان ومكان وجدت فيه هذه الحالات¹.

5- أن القرآن الكريم يعتمد في تصوير الأمثال على التصريح بلفظ "المثل" مفرداً أو مجموعاً، وبكلمة "ضرب" بصيغ مختلفة، وهو الاستعمال الشائع في أسلوبه.

ومن مجمل الخصائص المذكورة يتبين أن الأمثال القرآنية وإن كانت جارية على طريقة العرب التعبيرية، فإنها تفوق الأمثال السائرة على السنة الناس، لأنها قد تنقصها الطلاوة أو الدقة في التعبير، أو حسن الحبكة في التركيب. كما أن كثيراً منها ينسى فلا يكتب له صفة الثبات والخلود، فتتلاشى وتتبعثر مع مرّ العصور.

أما أمثال القرآن الكريم فهي خالدة على مرّ الزمان، صالحة لكل عصر ومكان، يجد فيها أصحاب الحس المرهف كمالات في رسم صور المعاني المرادة، وجلالات تشعر بوقعه القلوب المؤمنة، وجمالاً تستشفه الأذواق المعتدلة، فهي بمثابة قواعد تتفرع عنها حقائق كثيرة ومتنوعة، فلا تقتصر على نمط واحد أو مفهوم واحد من حيث التشخيص والتصوير والتمثيل، بل ربما تندرج تحت كل مثل مفاهيم لا تعد ولا تحصى، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}²، وتبقى لا محالة بعض الخصائص مجهولة لدينا، لأن القرآن الكريم كون واسع فسيح لا يدرك مداه، ولا يحيط بمعانيه وخصائصه ودقائقه إلا الله تعالى.

أنواع الأمثال في القرآن:

يرى بعض الباحثين³، أن الأمثال القرآنية تنقسم من حيث هي إلى ثلاثة أقسام:

النوع الأول: الأمثال المصروفة أو القياسية، وهي التي صرح فيها بلفظ المثل مفرداً أو مجموعاً، وهو الاستعمال الشائع في الأسلوب القرآني أو ما يدل على التشبيه، نورد منها ما يأتي:

قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ}⁴، وقوله: {مَثَلُ

1 - انظر أصل هذا الكلام بتصرف في معجم الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، ص 43-53، نشر: دار الكتب المصري-القاهرة ودار الكتب اللبناني-بيروت، الطبعة الثانية: 1430 هـ _ 2009 م.

2 - سورة الزمر، الآية: 26.

3 - ومن بينهم مناع القطان.

4 - سورة البقرة، الآية: 16.

الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا¹، وقوله: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}²، وقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الْمُتَمَنَّانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّيْهِ حِسَابَهُ}³، وقوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي لُمْتِ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْفِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْفِهِ سَحَابٌ}⁴.

النوع الثاني: ما يُسمَّى بالأمثال الكامنة، ذكر هذا القسم فريق من العلماء، منهم بدر الدين الزركشي⁵، وجلال الدين السيوطي⁶، وأحمد الهاشمي⁷، والمعروف عنهم أن الأمثال الكامنة هي ما أشبه الأمثال السائرة لا ما أشبه الأمثال القرآنية، وأنهم كثيرا ما يقولون: إن في القرآن الكريم ما للعرب والعجم والخاصة والعامة من أمثال سائرة، وأن ما في القرآن لا تشبه أمثال هؤلاء فحسب، وإنما تفضلها جميعا. وقد صنف فيه من المتقدمين الحسن بن الفضل (ت 282هـ) وغيره كما ذكره الزركشي في البرهان⁸، وسمى كتابه: "الأمثال الكامنة في القرآن الكريم" وهي أمثال لم تضرب لبيان حال خاصة، ولا لصفة معينة، ولا لتلخيص حادثة وقعت في زمن من الأزمان، ولم يصرَّح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد، ولكن يدل في مضمونها على معنى يشبه مثلا من أمثال العرب المعروفة، أي: أنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها، فالتمثيل فيها كامن غير ظاهر، لهذا أسموها بالأمثال الكامنة.

وقد نقل السيوطي في الإتيان ما مجموعه ثلاثة عشر مثلا، فقال: "وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: (خير الأمور أوسطها) ؟ قال: نعم في أربعة مواضع: قوله تعالى: {لَّا يَرْضَى وَلَا يَكْرَهُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ}⁹، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْبَغُوا لَمْ يَسْرِفُوا

1 - الرعد: 36.
2 - سورة النور، الآية: 25.
3 - سورة النور، الآية: 38.
4 - سورة النور، الآية: 39.
5 - البرهان، 486/1.
6 - الإتيان، 132/2.
7 - جواهر الأدب، 288/1.
8 - انظر: 186/1.
9 - سورة البقرة، الآية: 67.

وَلَمْ يُفْتَرَوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَوَآمًا¹، {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنْفِكَ وَلَا تَبْسُـِّهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا²، {وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا³ (...)} هكذا سئل الحسن بن القاضي عن خمسة وثلاثين مثلاً فأجاب بما يقابلها في القرآن الكريم. وقد جمع في كتابه ما يقارب الخمسين أو سبعة وأربعين مثلاً فهو كتاب صغير⁴.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن كثيراً من الباحثين المعاصرين قد استبعدوا أن يكون ما أطلق عليه السيوطي ومن سبقه كالزركشي وغيره اسم الأمثال الكامنة من أمثال القرآن، لجملة أمور:

- أنه لا يكفي في تسمية تلك الآيات "أمثالا كامنة" تضمنها لمعنى ورد في مثل من الأمثال، قال عبد المجيد بن عابدين: "ولكن من الواضح أن هذه العبارات لا تدخل في باب الأمثال، فإن اشتمال العبارة على معنى ورد في مثل من الأمثال لا يكفي لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة. فالصيغة الموروثة ركن أساسي في المثل، لذلك نرى أن اصطلاح العلماء على تسمية هذه العبارة القرآنية "أمثالا كامنة" محاولة لا تستند على دليل نصي ولا تاريخي. والقرآن الكريم لم يصرح في هذه الآيات بأنها مثل⁵.

- أن تلك الآيات التي التي يسمونها الأمثال الكامنة هي آيات يمكن التنظير بينها وبين بعض أمثال العرب السائرة، من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة. وليست أمثالا قرآنية، قال محمد بكر إسماعيل: "وما ذكره السيوطي وغيره عن الحسين بن الفضل ضرب من تدريب القريحة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تمثل به العرب في عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التي أوجزت حادثة من الحوادث، أو دلت على معنى من المعاني المعقولة. وأن النوع الثاني من قبيل التشبيهات الضمنية التي تؤكد المعاني، وتبرزها إبرازاً يجعلها متميزة في النفس أكمل تمييز، أو هي من قبيل الكنايات التي تأتي بالمعنى مصحوباً بدليله، فتجري مجرى الحكم. وهو كثير في القرآن الكريم لا يكاد ينحصر⁶.

- أن القرآن المجيد نفسه لم يصرح بمثليتها وما أشبهها، وأن تسميتها بذلك سيؤدي إلى إخضاع الأسلوب القرآني لأساليب خارجة عنه، قال محمد جابر الفياض: "فإذا كان

1 - الفرقان، الآية: 67.

2 - الإسراء: 29.

3 - سورة الإسراء، الآية: 109.

4 - الإتقان 48/4.

5 - الأمثال في القرآن الكريم وأثرها: 56-157.

6 - دراسات في علوم القرآن المؤلف: محمد بكر إسماعيل (المتوفى: 1426هـ) ص 304، الناشر: دار المنار للطباعة: الثانية 1419هـ- 1999م.

الزركشي قد قصد بالمثل الكامن ما أشبه الأمثال السائرة، شأنه في ذلك شأن الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده، فإننا لا نعدده من أمثال القرآن، لأننا نرى أن أمثال القرآن: ما صرح القرآن نفسه بمثلتها وما أشبهها وأمكن قياسه عليها، أما ما سوى ذلك فليس من المثل القرآني في شيء وإن أشبه الأمثال السائرة. وفي القول بمثلتيه ما أشبه الأمثال السائرة إخضاع للأسلوب القرآني لأساليب ومقاييس خارجة عنه، نأباه الإباء كله، لأن الأخذ به يدخل في أمثال القرآن ما ليس منها، ويقصي عنها ما هو منها في الصميم"¹.

وعلى أية حال فإن الزركشي والعلماء الذين سبقوه أو جاؤوا من بعده لم يذهب أي واحد منهم إلى القول بأن "المثل الكامن" هو ما أشبه المثل القرآني الظاهر، وإنما قصدوا به ما أشبه المثل السائر. والذي يعنينا هنا أن ما سمي بالمثل الكامن في القرآن ليس مثلاً قرآنياً بالمفهوم القرآني.

النوع الثالث: ما يُسمَّى بالأمثال المرسلة في القرآن، فهي آيات جارية مجرى الأمثال، ولا يسمونها أمثالا قرآنية ظاهرة، وقال عنها بكر محمد إسماعيل: "وهي جمل قد أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، وكثر التمثيل بها لما فيها من العظة والعبرة والإقناع. وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها في المسلمين، ولم تكن أمثالا في وقت نزوله، وهي في جملتها مبادئ خلقية ودينية مركزة"²، كقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}³، وهذه الآية قد يستخدمها بعضهم في المتاركة عند الاختلاف مع أحد في أمر ما، ولا يمكن أن يلتقي معه، فيأخذ هذه الآية من موضعها ويجريها مجرى المثل. بعض علماء البيان أو علماء البلاغة يقولون "وهذه خرجت مخرج المثل أو جرت مجرى المثل". وقوله: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْفًا}⁴، قد يجريها بعضهم مجرى المثل عند ما ينصر الله الحق، ويهزم

الباطل، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل الكعبة ويهدم الأصنام ويستشهد بهذه الآية، وهي قد نزلت من قبل ذلك، وقد ذكر السيوطي⁵ -رحمه الله- بأن جعفر بن شمس الخلافة عقد في كتاب له سماه "الآداب" بابا في ألفاظ القرآن جارية مجرى المثل، وقد أدخل علماء البديع هذه الآيات وأمثالها في النوع الذي يسمونه إرسال المثل وليست أمثالا قرآنية، وهو أن يأتي المتكلم بما يجري مجرى المثل من حكمة أو غيرها فيما يحسن التمثل به. ويسمى إرسال المثل، لأنه لا يمكن دخوله في الأمثال على

1 - الأمثال في القرآن الكريم، ص 209-210.

2 - دراسات في علوم القرآن، المؤلف: محمد بكر إسماعيل، ص 301.

3 - سورة الكافرون، الآية: 6.

4 - سورة الإسراء، الآية: 81.

5 - الإتقان، 50/4-52.

أي شكل من الأشكال، لخلوه من وجه المشابهة بين المثل والممثل له. ولمخالفته للمثل في حقيقته ومفهومه في اللغة.

اختلف العلماء في هذا النوع من الآيات التي تجري مجرى الأمثال ما حكم إجرائها مجرى الأمثال؟ فرأى بعض أهل العلم عدم الجواز، حيث يعد ذلك خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي عند تفسير قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}¹، فقد جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه²، ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}³، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح⁴. ولعل الراجح -إن شاء الله- الجواز، ولذلك أدخل علماء البديع -وهو فن من فنون البلاغة- هذه الآيات وأمثالها في النوع الذي يُسمونه إرسال المثل، أي ليست أمثالا حقيقية، وقد سبق معنا قول السيوطي رحمه الله في الإتيان: "عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب بابا في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل، وإرسال المثل: هو أن يأتي المتكلم بما يجري مجرى المثل من حكمة أو غيرها فيما يحسن التمثيل به كما تقدم، وكذلك من المفسرين من يقول في مثل هذه الآيات: أرسل هذا الكلام إرسال المثل، يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير عند قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}⁵: "تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات، وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل وهو أجمع وأوجز من قول قيس بن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف.

وقال ردا على الرازي: ووقع في "تفسير الفخر" هنا: "جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ثم يعمل بموجبه" اهـ. وهذا كلام غير محرر، لأن التمثيل به لا ينافي العمل بموجبه، وما التمثيل به إلا من تمام بلاغته واستعداد للعمل به. وهذا المقدار من التفسير تركه الفخر في المسودة⁶. وأيضا إذا أرسلت هذه الآيات ووقعت موقعها الصحيح تجد فيها من

1 - الكافرون: 6.

2 - مفاتيح الغيب، 32 / 333.

- النجم: 57.

4 - مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص 297.

5 - الكافرون: 6.

6 - التحرير والتنوير، 584/30.

الأسرار البديعة المعجزة، واللطائف الدقيقة، وحسن الحبكة التي تشهد أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، وأنه الأعلى في الفصاحة والبيان، والبلاغة وإقامة البرهان، - ما يغنيك عن استخدام التشبيهات الضمنية، والكنايات التي تصاغ في جمل مستقلة مضمنة المعنى المراد، قصد النصح والإرشاد، أو اللطافة والظرافة، أو إزالة الغموض والغرابة. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة عندما دخل الكعبة ويهدم الأصنام ويردد هذه الآية ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْفًا﴾¹، وهي قد نزلت من قبل ذلك. والله أعلم.

المطلب الثالث: أهداف المثل القرآني وغاياته النقدية:

بعد الحديث عن المثل من عدة جوانب تحقق لدينا أن أمثال القرآن الكريم في الذروة العليا من الإعجاز البياني، وكشف المعاني، وإبراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق. وأنها تنبعث منها مجتمعة كوامن العظة والعبرة، وتتفجر منها ينابيع العلم والحكمة. قال عبد الرحمن حبنكة الميداني: "ولما كانت الأمثال من الأساليب البيانية غير المباشرة للتعريف بما يُراد التعريف به، وكانت من أساليب الكلام البليغ التي يلجأ إليها كبار البلغاء، ولما كانت تصاريف الرب الحكيم منزهة عن العبث -كان اللجوء إلى ضرب الأمثال في القرآن لا يخلو عن غرض يدعو إليه"²، وإذا كانت هذه الأهداف لا تنحصر، فإنه يمكن أن نذكر بعضها منها ينبئ عن البعض الآخر:

الهدف الأول: تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب، وذلك بأن يكون المخاطب جاهلاً بحقيقة الشيء الممثل له جهلاً مطبقاً، أو لديه نوع جهالة به، فيأتي المثل القرآني لرفع هذه الجهالة وإزالة هذا الغموض، فلا يقع المخاطب بعد فهمه لهذا المثل تحت الشك أو الخيال المفرط، فلا يسعه إلا الإيمان به والتسليم بنتائجه. ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن الحور العين في مثل قوله -جل شأنه-: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ﴾³، فالحور العين ذوات صور يمكن أن تدرك بالحس الظاهر، ولكنهن مجهولات لنا، بعيدات الآن عن إدراكنا الحسي وعن تصوراتنا الخيالية، فيقرب الله لنا طرفاً من صورة لون بشرتهن ونعومتها، وغير ذلك من نعوتهن، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى⁴: ﴿بِمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَبْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ

1 - سورة الإسراء، الآية: 81.

2 - الأمثال القرآنية، ص 39 ط. دار القلم، دمشق، بيروت.

3 - الواقعة، الآية: 25.

4 - ينظر: دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل: 310-311، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان: 297-298.

صَلْدًا¹، وهذه الأمثال وأشباهها أمثال تقريبية تقرب فهم الحقيقة، ولا تعبر عن ذاتها؛ إذ هي أعظم من ذلك بكثير.

الهدف الثاني: الإقناع بأمر من الأمور، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية، وهي الملزمة التي تفيد اليقين، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وهي حجة إقناعية ظنية تفيد الظن الراجح. وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة. فمن البراهين العقلية المقنعة ما ورد من الأمثال في بدء الخلق وإعادته، لأن القادر على البدء والإيجاد من العدم قادر على الإعادة لا محالة، كقوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ قَالَ مَنْ يُخَيِّ إِلَهُ لَمْ وَهِيَ رَمِيمٌ} (٧٧) فَلْ يُخَيِّهَا أَلَدِمْ أَنَشَاءَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلِيٍّ عَلِيمٌ²، ونحوها من الآيات³. وهذه الحجة الإقناعية هي التي سار عليها المثل القرآني، في الإقناع بفكرة اليوم الآخر، يقول الله تعالى: {وَهُوَ أَلَدِمْ يَبْدُوْا أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ أَلْمَثَلُ أَلْأَعْلَى فِي أَلْسَمَوَاتِ وَأَلْأَرْضِ⁴، فإننا نعتقد أن هذا التصوير لمجرد تقريب فكرة البعث بعد الموت من الأذهان، أمّا في حق الله سبحانه فإن البدء والإعادة سيان مرتبطان بإرادة المشيئة "كن فيكون".

الهدف الثالث: الترغيب بأمر محمود عن طريق تزيينه وتحسينه، أو الترهيب بأمر مذموم عن طريق تقبيحه وذمه كما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ أَللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي أَلْسَمَاءِ} (٢٦) تُؤْتِي أَلْأَعْلَى كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ أَللَّهُ أَلْأَمَثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁵. "يرغب الله بالكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد، ويجسمها في صورة الشجرة الطيبة القوية الجذور في الأرض، والباسقة الفروع في السماء، والدانية الثمار والعطاء، تقابلها صورة أخرى للكلمة الخبيثة، التي هي كلمة الكفر، يجسمها في صورة شجرة خبيثة مجتثة من فوق الأرض، فليس لها جذور ثابتة، ولا فروع باسقة ولا ثمار

1 - سورة البقرة، الآية: 263.

2 - سورة يس، الآية: 77 - 78.

3 - دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل: 312.

4 - سورة الروم، الآية: 26.

5 - سورة إبراهيم، الآية: 26 - 27.

يانعة، والفوارق كبيرة بين الصورتين المتقابلتين، كالفوارق الجوهرية بين الكلمة الطيبة والخبيثة¹.

الهدف الرابع²: إثارة محور الطمع والرغبة لدى المخاطب الذي يتجه فيه الإنسان بمحرّض ذاتي إلى ما يراد توجيهه له، أو إثارة محور الخوف والحذر لديه الذي يبتعد فيه الإنسان بمحرّض ذاتي عمّا يراد إبعاده عنه. فمن الأول قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ³}، فالغرض من التمثيل في هذا النصّ مع بيان حقيقة مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله إلى أضعاف كثيرة عن طريق تمثيل بذل المال في سبيل الله ببذر الحب في الأرض الخصبة الطيبة المقبلة على زارعها بالعطاء -إثارة محور الطمع في فضل الله في نفس المخاطبين، ليكون هذا الطمع محرّضاً ذاتياً في الأنفس على بذل الأموال في سبيل الله.

ومن الثاني (إثارة محور الخوف) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْـَٔلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ⁴}، قال الرازي في تفسيره: "واعلم أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المان المؤذي ولعمل المنافق، فإن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل، لأنه تبين أن تلك الأعمال ما كانت لله تعالى، كما أذهب الوايل ما كان على الصفوان من التراب⁵.

ومن الواضح أن في المثل الأول إثارة لمحور الطمع والرغبة وفي الثاني إثارة لمحور الخوف والحذر، وذلك بأبلغ أسلوب، وأعذب بيان. وهذا من الغايات المهمة التربوية التي يقدمها القرآن الكريم بكثرة في بياناته من خلال أساليبه التي تشخص المعاني في صور حسية ومشاهدة في الواقع الخارجي، ومن خلال المشاهد الكونية.

الهدف الخامس: مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم، وذلك بقصد التمييز بين المصلح والمفسد، والمحسن والمسيء ليزداد المحسن إحساناً، ويرعوي المسيء عن إساءته. والأمثلة في ذلك كثيرة، منها ما ضربه الله في شأن النبي -صلى الله عليه وسلم-

1 - وظيفة الصورة الفنية في القرآن لعبد السلام أحمد الراغب، ص 173.
2 - التأصيل الإسلامي للتربية: جهود الدكتور سعيد إسماعيل علي أنموذجاً للدكتور سلامه مطر المزودة، ص 114، نشر دار المعتز-عمان، الطبعة الأولى: 1437هـ-2016م.
3 - سورة البقرة، الآية: 260.
4 - سورة البقرة، الآية: 63.
5 - مفاتيح الغيب، 47/7.

وأصحابه في سورة الفتح من قوله -جل شأنه-: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرِيَهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَإِذَا زُرَّهٗ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوفِهِ ۖ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} ¹،

فدلالة المثل في الآية الكريم: المدح لحسن التربية " ووجه ضرب المثل بهذا الزرع الذي أخرج شطأه هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين بدأ بالدعاء إلى دينه كان ضعيفاً، فأجابه الواحد حتى كثر جمعه وقوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه وأفراخه. وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم، وامتألت القلوب إعجاباً بعظمتهم، فكان هذا من أصح مثل وأوضح بيان، والله أعلم ². ومن ذلك ما ورد في ذم اليهود من سورة الجمعة: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} ³.

وقد اعتمد التمثيل هنا على صورة الحمار دون غيره تحقيراً لشأن اليهود وذمّاً لهم، لأن صورته تنطبق عليهم. فاليهود حملوا التوراة في صدورهم وعقولهم ولكنهم لم يستفيدوا بما جاء فيها من أحكام وأفكار، فكان مثلهم كمثل الحمار، قال الزركشي: "إن الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار الذي يحمل أسفار الحكمة، وليس له من حملها إلا الثقل والتعب من غير فائدة" ⁴.

الهدف السادس: توجيه عناية المتلقي لاستحضار ذكائه واستخدام طاقاته الفكرية حتى يصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير. وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن لذلك، ومنها قول الله تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْفُرْعَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ⁵، فإن إنزال القرآن على جبل من الجبال ليس من خبرات الناس حتى

1 - سورة الفتح، الآية: 29.

2 - ينظر: النكت والعيون = تفسير الماوردى، 324/5.

3 - الجمعة: 5.

4 - البرهان في علوم القرآن، 493/1.

5 - سورة الحشر، الآية: 21.

يُضْرَبُ المثلُ به للإقناع أو للتقريب أو لغير ذلك من الأغراض التي سبق شرحها، لكنه مثل يحرك في الأذكياء طاقاتهم الفكرية، ويوجّه عنايتهم حتى يتأملوا ويتفكروا ويدرسوا ويتابعوا البحث؛ إذ من المعلوم أن هذه الإشارة {تِلْكَ} تستعمل فيما هو بعيد حساً أو معنى أو منزلة. ودلالة المثل في الآية الكريمة: التوبيخ لترك التفكير، يقول أبو السعود قي تفسيره: "أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه"¹، كما أن من حكمة ضرب الأمثال التعقل، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}². قال ابن كثير في تفسيره: "أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه... عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: {وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}³".

فهذه أهم الأهداف والغايات التي اشتملت عليها الأمثال القرآنية، فهي بمثابة قواعد عامة يندرج تحتها من المسائل الجزئية ما لا ينحصر. هذا، ولا يزال الباحثون المدققون يبرزونها كلما نقبوا عنها في الأمثال القرآنية. وما ذكرناه من الفوائد فهو مشترك بين التمثيل الذي شاع في القرآن المجيد الذي هو موضوع كلامنا والمثل السائر، إلا أن التمثيل القرآني له ميزات وخصائص وقد ذكرنا بعضها سابقاً. وليتضح هذا الأمر أكثر أوافيكم بما ذكره غير واحد من الأدباء من فوائد جمة للمثل السائر، قال ابن المقفع (ت143 هـ): إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث⁴، وقد نقل ابن قيم الجوزية كلاماً للنظام في أعلام الموقعين، وقال: "وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس لتقريب المراد وتفهم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مثّل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتتفر من الغربة والوحدة وعدم النظير. ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبّه وثمرته"⁵.

وقال الجرجاني: اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته

1 - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) 233/8، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

2 - سورة العنكبوت، الآية: 43.

3 - تفسير القرآن العظيم، 279/6.

4 - مجمع الأمثال، 1 / 6.

5 - إعلام الموقعين، 1 / 182-183.

كساها أُبَّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصى الأفئدة صباية وكلفاً، وقسر الطِّباع على أن تُعطِيها محبة وشغفا. فإن كان ذمّاً: كان مسه أوجع، وميسمه أذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحد. وإن كان حجاجاً: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. وإن كان افتخاراً: كان شأوه أمدّ، وشرفه أجد1، ولسانه ألد، وإن كان اعتذاراً: كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولعزْب الغضب أفلّ، وفي عُقد العقود أنفت، وحسن الرجوع أبعث. وإن كان وعظاً: كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلى الغياية2، ويُبصّر الغاية، ويبري العليل، ويشفي الغليل3. وقال أبو السعود في تفسيره: إنّ التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس، لاستمالة الوهم واستنزاهه عن معارضته للعقل واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبيّة، كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء.

إن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاهه من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ، وقمع سورة الجامح الأبيّ، كيف لا؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازها لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف4.

ولا يخفى بعد هذا العرض أن أسلوب المثل وسيلة تربوية فعالة يحقق المربون والمفكرون النقاد بأسلوبه المتميز الفعال غايات نقدية وحوارية، ويستخدمونه في خطاباتهم ونقاشاتهم لأجل التعلم والتعليم والإقناع وتشخيص الحقائق، وتوير البصائر، وصقل الضمائر، وتصحيح العقائد وتوجيهها وجهة صحيحة، وتهذيب الأخلاق وغرسها في ميادينها واتجاهاتها المختلفة، والتنبيه إلى المساوئ لتجتنب، وإلى المحاسن لتطلب وتقريب البعيد، وتوضيح الغريب وتشبيه الأمر المعقول بالأمر المحسوس، حتى يرسخ في العقول.

ولعل في هذه الكلمات غنى وكفاية في بيان ما لأسلوب المثل من دور بارز في الإقناع، وإزالة الإشكال، وسرعة التفهيم. وأحسن الأمثال هي أمثال القرآن الكريم لما حوته من المعاني العميقة، والدلائل الحسنة، المتضمنة للحكمة، ودلائل الحق في المطالب

1 - من الجد : الحظ ، يقال : هو أجدّ منك ، أي أحظ.

2 - وهي: كل ما أظلك من فوق رأسك.

3- أسرار البلاغة: 115-116.

4 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، 50/1، 71.

العالية. والقرآن المجيد كتاب وافٍ بمطالب الخلق على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم وعصورهم، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج إليه الناس إلا شملها تشريعه، ووسعها بيانه، فهو كتاب هداية، ومنهج حياة.

المبحث الثالث: أسلوب القصص:

يعتبر القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي الذي يستند إليه في عقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه وقصصه وأمثاله ومواعظه وعلومه: {ذَلِكَ أَلِكْتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} ¹، وهو الوسيلة الوحيدة الضامنة لإصلاح المجتمعات الإنسانية إذا ساروا على نهجه، وأخذوا بشرائعه وسننه، ولم يميلوا عن أحكامه وتعاليمه.

فقد تحدثنا في القول السابق أن القرآن الكريم قد اتخذ في منهجه أساليب متنوعة لتقديم بياناته، وإفهام مقاصده، وينضاف إلى تلك الأساليب أسلوب القصص لما فيه من آيات مكتنزة بالمعاني تحمل في طياتها إشارات تمكن النقاد والدعاة من إنجاح المحاضرات والمحاورات، كما تمكن الفقهاء من استنباط الأحكام، وتأصيل العقائد، واستخراج الكثير من الدروس والعبر، كما ينبئ القصص القرآني بكل صدق وحقيقة واقعية عما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور، وملأوا الدنيا بالفسوق والفجور، وعن الجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.

هذا، وإن في القصص القرآني تثبيتاً لفؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وإيناساً له بأخبار إخوانه من الأنبياء والمرسلين المصطفين الأخيار، والأولياء والصالحين وعباد الله المخلصين الأبرار. وسيكون حديثي في مطالب هذا المبحث عن تعريف وخصائص القصص وأنواعه وأغراضه:

المطلب الأول: التعريف، والأنواع:

أولاً: مفهوم القصص:

قال الراغب في المفردات²: القص في اللغة: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره. والمعاني التي وقف عندها اللغويون في حديثهم عن مادة (قصص) ترجع في جملتها إلى معنى تتبع الأثر³. وأما القِصَّةُ في الاصطلاح: فقد اعتمد علماء التفسير على اعتبارين:

- سورة البقرة، الآية: 1.1

- 671/1. ²

³ - يقال: قص الخبر: أعلمه، والحديث رواه على وجهه، والقَصُّ فعل القاص إذا قَصَّ القَصَصَ. والقِصَّةُ بالكسر: الأمر، والتي تُكْتَبُ. والقَصُّ أيضاً: إتباع الأثر، ويقال خرَجَ فلاناً في أثر فلان وقصا، وذلك إذا اقتصَّ أثره، وقيل: القاصُّ يَقْصُ القِصَصَ لإتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً³. انظر: لسان العرب: ابن منظور 75/7 (مادة قصص) والقاموس المحيط: الفيروز آبادي 628-627/1.

الأول: الاعتبار اللغوي، حيث اعتمدوا على نفس المعاني التي أوردها اللغويون في معاجمهم، وقد ذكرنا جانباً منها.

والثاني: الاعتبار الديني، حيث تناولوه من وجهة دينية، وهي ما يرمي إليه القصص القرآني من أهداف وغايات. ومن المفسرين الذين يمثلون الاعتبارين الفخر الرازي، قال - في تفسير قوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} ¹-: "المسألة الثانية: القصص: إتباع الخبر بعضه بعضاً. وأصله في اللغة المتابعة، قال تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه} ²، أي اتبعي أثره، وقال تعالى: {فَبَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} ³، أي إتباعاً وإنما سميت الحكاية قصصاً لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً" ⁴. يقول محمد خلف الله في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم" معلقاً على تعريف الرازي: "وهو قول يدل على أن الرازي يحاول التقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي الأدبي، وذلك حين يربط بين الاثنين باستعمال لفظ الحكاية وإطلاقه لفظ القصة عليها" ⁵، وهذا في الاعتبار اللغوي، وأما في الاعتبار الديني فيقول الرازي: "والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة" ⁶. وهو في هذا القول يعطي القصص معنى دينياً، ويوضحُ معناه الاصطلاحي. ولونتبع المعنى الاصطلاحي للقصة في المعاجم والتفاسير لوجدته يرجع إلى معنى الأمر المطلوب بيانه لتصوير الأحداث والوقائع والأشخاص، فإن كانت بمعنى تتبع الأثر لكون القصة أصلاً من الأخبار المتتبعة فهي من الأخبار المطلوب بيانها. وإن كانت مأخوذة من القصص وهو الخبر، فهي من الكلام الذي في النفس المطلوب بيانه. وإن كانت مأخوذة من القص وهو القطع فهي على اعتبار أنها قطعة من البيان المطلوب. يقول مناع القطان: "وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه" ⁷.

- سرّة يوسف، الآية: 3.1

- سورة القصص، الآية: 10.2

- سورة الكهف، الآية: 63.3

4 - مفاتيح الغيب، 18 / 417.

- ص: 151⁵

- المصدر السابق، 250/8 ⁶

7 - مباحث في علوم القرآن: 316-317.

ثانيا: أنواع القصص القرآني في القرآن الكريم:

اختلفت تقسيمات العلماء للقصص القرآني، فمنهم من قسمها باعتبار الطول والقصر ومنهم من قسمها باعتبار شخصيات القصة من أنبياء وغيرهم، فجاء تقسيم القصص عندهم على النحو الآتي:

1- قصة طويلة ترد مجزأة ثم تتجمع في موضع واحد مثل قصة نوح عليه السلام، أو ترد مرة واحدة في مكان واحد كقصة يوسف عليه السلام.

2- قصة قصيرة محتوية على بعض العناصر كقصة النمل والهدد، أو مشتملة على كل عناصر القصة إلا أنها قصيرة¹.

وهكذا تجد القصة القرآنية قد وردت مجزأة في مواضع مختلفة من السور، وذلك من أجل تحقيق الغرض الذي سيقى من أجله في تلك المواضع إلا قصة يوسف -عليه السلام- فقد ذكرت كاملة غير منقوصة في سورة سميت باسمه عليه السلام، وفي هذا المنهج حكمة ربانية قد نعلمها وقد لا نعلمها. فإن الله سبحانه وتعالى يقص علينا من كل قصة ما يستوفى الفائدة المرجوة من القصة على الصورة التي وردت من غير زيادة ولا نقص، ولو كان هناك شيء يفيدنا في زيادة أكثر مما هو مذكور لقصه علينا، فانظر مثلا في قصة أهل الكهف لم يذكر الله لنا أشياء وإن كانت النفوس البشرية تتشوق لمثل ذلك لما جبلت عليه من حب الاستطلاع، فلم يصف لنا حالهم في نومهم ويقظتهم، ولم يذكر أسماءهم ولا اسم ملكهم في زمنهم ولا اسم كلبهم ولا مكان كهفهم، ولو كان ذكر ذلك مفيدا لذكره الله لنا، فإن الله منزه عن إهمال ذكر شيء ينفعا علمه، فهو من باب قولهم: "شيء لا ينفع علمه ولا يضر جهله". ولو كان ينفعا أو يضرنا لذكره الله لنا. وكل ما لم يذكره الله في القصة، فاعلم أنها لم تسق لتحقيق شيء من ذلك.

أما تقسيمها باعتبار الأحداث وشخصيات القصة من أنبياء وغيرهم، فقد قال الدكتور مناع القطان تنتوع إلى ثلاثة أنواع²:

1- قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

¹ - القصة في القرآن الكريم ل مريم عباس، ص: 30.

² - مباحث في علوم القرآن: 317.

2- قصص قرآني يتعلق بحوادث مضت، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، ومن ذلك قصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

3- قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء ونحو ذلك.

وتركيز مناع القطان في التقسيم على الأحداث والشخصيات مما يدل على أنهما عنصران بارزان من عناصر كل قصة، لأنهما مرتبط ببعضهما ببعض؛ إذ لا يمكن أن نتصور أشخاصا بلا أحداث، ولا أحداثا بلا أشخاص، ولكن القصة القرآنية يلاحظ فيها أحيانا غلبة أحد العنصرين على الآخر. فقد يشتد التركيز على عنصر الأحداث حتى يكون هو البارز في القصة، لأن الأحداث هي موضع العظة والأسرار، والتفكير والاعتبار، ولكن هذا لا يعني خلوها من العنصر الآخر مهما كان.

ودور الأحداث في القصة القرآنية هو عرض قضايا الإيمان والكفر، والبداية والنهاية، وطمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتخويف المنافقين والمكذابين. والبرهنة على قدرة الله سبحانه.

ودور الشخصيات فيها المتبانية هو إظهار المنافسة والصراع والتعابير القصصية المحبوبة التي تنمي الأحداث حتى تصل إلى قمة التعقيد، ثم في اتجاه انفراج الأحداث نحو الحل، بالإضافة إلى الخيط الرابط بين العنصرين وهو عنصر الحوار ودوره في الإثارة الأسلوبية، والمحافظة على عنصر التشويق والمفاجأة، وفي تصوير الشخصيات، وإظهار العواطف البشرية.

المطلب الثاني: خصائص القصص القرآني:

اتصفت القصة في القرآن الكريم بخصائص عالية المستوى لا يشتركها فيها سائر القصص الأخرى لما لها من قدسية وجلالة القرآن العظيم، ومن سر الإعجاز وبلاغة القرآن التي لا تساميهها بلاغة في الوجود، كما أن أسلوبها جاء متناغماً مع الغرض الذي سيقت القصة لأجله، وهو غرض ديني محدد. وقد قسم العلماء خصائص القصص القرآني إلى قسمين: خصائص ذاتية وخصائص فنية.

أما الذاتية فمنها:

- القصص القرآني جزء من كتاب الله تعالى، وهو الحق الذي قال الله تعالى فيه:
{نَحْنُ نَفُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا
الْفُرْعَانُ} ¹.

- القصص القرآني تعبير صادق، قائم على الواقعية، فهو يتفق مع الإنسان في حقيقته وواقعه.

- التسامي في الهدف، حيث لا يدعى في القصص القرآني إلى شيء إلا ويقصد من ورائه هدف نبيل في غايته، ولا ينهى عن شيء إلا وكان للنهي عنه حكمة جليلة ².

- موضوع القصص هو الإنسان المستخلف في الأرض بما يدور حوله في الكون وما يحدث له وما ينبغي أن يكون عليه حاله، فهو قطب الرchy في القصة القرآنية مثلما هو قطب الرchy في الكون الذي استخلف فيه.

- القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه، كما هو شأن القصة العادية، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن إلى إبراز الأغراض الدينية التي تكفل للإنسان السعادتين ³.

وأما الخصائص الفنية للقصص القرآني فجل من كتب فيها اقتبس من كتاب "التصوير الفني في القرآن الكريم" لسيد قطب، إلا أنني نهجت في عرضها منهج الدكتور مصطفى ديب البغا في كتابه "الواضح في علوم القرآن" بالرغم من كونه من جملة من نقل عن سيد قطب إلا أنه تفرد في تقسيمه لهذه الخصائص بتقسيم فريد مفيد، وقد أجمل أبرزها قائلاً ⁴: إن القصة في القرآن تقوم على أسس وخصائص فنية رائعة، فهي تحقق الغرض الديني عن طريق جمالها الفني، الذي يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق. وأهم هذه الخصائص ما يلي:

أ- العرض التصويري: إن القرآن الكريم عند ما يأتي بالقصة لا يخبر بها إخباراً مجرداً، بل يعرضها بأسلوب تصويري، يتناول جميع المشاهد والمناظر المعروضة، فإذا بالقصة حادث يقع ومشهد يجري، لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى.

ألوانه وأمثلته:

1 - سورة يوسف، الآية: 3.

2 - القصة في القرآن الكريم، د. مريم السباعي، ص 39-57.

3 - القصة في القرآن، لمحمد قطب، ص 25.

4 - الواضح في علوم القرآن: مصطفى ديب البغا، ص: 190-196، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ - 1998 م.

إن التصوير في مشاهد القصة القرآنية ألوان تبدو في قوة العرض والإحياء، وفي تخييل العواطف والانفعالات، كما تبدو في رسم الشخصيات. وهذه الألوان ظاهرة في مشاهد القصص القرآني جميعاً، لا ينفصل بعضها عن بعض، وقد يبرز أحدها في بعض المواقف عن بعض، فيطبع المشهد باسمه.

فمن أمثلة القصص التي برزت فيها قوة العرض والإحياء: قصة أصحاب الجنة، ومشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء الكعبة، ومشهد نوح عليه السلام وابنه في الطوفان، وقصة أصحاب الكهف.

ومن أمثلة ما برز فيه تصوير العواطف والانفعالات: قصة صاحب الجنتين وصاحبه الذي يحاوره، وقصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح، وقصة مريم عند ميلادها عيسى عليهما السلام.

وأما أمثلة اللون الثالث وهو: رسم الشخصيات وبروزها في القصة القرآنية: فهو القصص القرآني كله، وقرأ على سبيل المثال: قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وقصة يوسف عليه السلام، وقصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، فكلها قصص يبرز فيها تصوير الشخصيات ورسمها على أدق ما يكون الرسم وأبرع ما يكون التصوير. وإليك نموذجاً تحليلياً موجزاً للعرض التصويري الذي عرضت فيه مشاهد قصة أصحاب الكهف:

المشهد الأول: يصور لنا أصحاب الكهف وهم فتية يتشاورون في أمرهم بعد ما اهتدوا إلى الله عز وجل بين قوم كافرين. {نَحْنُ نَفُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (...)} فَأَوْوَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفِئاً¹. والمشهد الثاني: مشهد مليء بالحركة التصويرية العجيبة، يعرض لنا حالهم وقد نفذوا ما عزموا عليه وكأننا نراهم يقينا رأي العين، {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ (...)} لَوْ إِطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمْلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً². وأما المشهد الثالث: فإنه يعطي الصورة الحية بكل ما فيها من خلجات نفسية

1 - سورة الكهف، الآية: 13 إلى 16.

2 - سورة الكهف، الآية: 17 - 18.

ومخاوف، وإيمان وثقة، وأخذ بالأسباب للنجاة: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ} (...) وَلَسْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا}، ثم يأتي المشهد الرابع: ليصور لنا كيف اكتشف حالهم، والناس قد تحولوا من كفر إلى إيمان، فإذا بهم يصبحون حديث الناس، وموضع اهتمامهم، ومثار جدلهم على مر الأزمان: {وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} (...) فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} ¹، ثم تأتي المناسبة للتوجيهات في ثنايا القصة وأعقابها على طريقة القرآن في قصصه: {وَلَا تَقُولْ لِشَأْنِي إِنَّي قَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} (...) وَلَسْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} ².

ب- التنويع في الاستهلال بالقصة ووضع المدخل إليها:

من أبرز الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض في ابتداء القصة، وذلك أن عنصر التشويق أمر أساسي في القصة، فينبغي أن يتجلى بأبهى مظاهره في مطلعها، حتى ينشد القارئ إلى متابعة حلقاتها، ويفتح آفاق ذهنه وجوانب نفسه إلى استطلاع أغراضها ومقاصدها. وأهم مظاهر براعة الاستهلال في القصة القرآنية هي:

1- البدأة بأغرب مشهد يلفت النظر فيها؛ حتى لو كان هذا المشهد متأخراً في سلسلة الحوادث؛ لأن المشهد الغريب من شأنه أن يثير الانتباه أكثر من غيره، حتى إذا تفتح الذهن وأقبل على القصة عمد البيان إلى استدراك ما فات من المشاهد، وتحين المناسبة لعرضه بشكل متناسق ومتساو مع جمال العرض وأداء الغرض. وخذ مثلاً على ذلك قصة موسى عليه السلام في سورة (طه) حيث افتتحت بهذا المشهد: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى الْبَارِ هُدًى} ³، ثم يعود السياق بعد هذه البدأة ليستدرك جوانب القصة ومشاهدها.

2- التقديم للقصة بخلاصة عنها، وذلك بأن ينتزع من مشاهد القصة أهم مظاهر العبرة فيها، فتصاغ بشكل خلاصة تجعل مدخلاً للقصة وبداية لها، ثم تعرض التفاصيل بعد هذا المدخل. وهذا مظهر من مظاهر التشويق، التي تضع في مخيلة القارئ صورة

1 - سورة الكهف، الآية: 21 - 23.

2 - سورة الكهف، الآية: 24 - 27.

3 - سورة طه، الآية: 8 - 9.

مختصرة عن القصة، تبعث فيه الرغبة إلى التوسع في معرفة جوانبها. وخير مثال على ذلك قصة أصحاب الكهف إذ بدئت بتلك الخلاصة: {آمَ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (...)} لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا¹، ثم يبدأ التفصيل بقوله تعالى: {نَحْنُ نَفُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ}².

3 - الاستهلال بذكر الأسباب والنتائج، وما يكشف عن مغزى القصة وحكمة أحداثها؛ فنتجسد العبرة التي ينبغي أن تؤخذ منها، وتتشوق النفس لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة، حتى إذا بدأ سرد القصة كان فكر القارئ متبها لمواطن العبرة فيها. وخذ مثالا على ذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون في سورة القصص، إذ استهلّت بهذه الآيات: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (...)} وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّآ كَانُوا يَحْذَرُونَ³.

4 - ذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكتفى بما في ثناياها من مفاجآت خاصة بها، وذلك مثل قصة مريم عند ولادتها عيسى عليهما السلام، وقصة سليمان عليه السلام مع بلقيس وغيرهما من القصص.

5 - العرض التمثيلي: وهو العرض الذي يقوم على إبراز المشاهد الرئيسية، والحلقات الأساسية من القصة، بشكل واضح وجلي أمام الناظر أو المتخيل، بينما يترك له بين كل مشهد وآخر من هذه المشاهد أو الحلقات فجوات يطوي فيها ما بين المشاهد من الروابط البديهية، ويفسح المجال للخيال حتى يملأها، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق.

وهذه الطريقة من العرض سمة بارزة في القصص القرآني، إذ من شأنها أن تعطي القيمة الفنية للقصة، وتضفي عليها الحيوية وتبعث فيها الحياة، بينما تقل هذه القيمة وتضعف أكثر فأكثر كلما شغل الذهن بعرض تلك الروابط البديهية، وذكر تلك التفاصيل التي غالبا ما تمل النفوس سماع الحديث عنها، ومن أمثلة هذه الخاصة الهامة:

1 - سورة الكهف، الآية: 9 - 12.

2 - سورة الكهف، الآية: 13.

3 - سورة القصص، الآية: 3 - 5.

1- قصة نوح التي وردت في سورة هود- عليهما السلام- بقوله تعالى: {وَأَوْحَىٰ

إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ - أَمَسَ (...). قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} ¹، فالقصة تضع أمامنا مشهد نوح عليه السلام وهو يتلقى الوحي الإلهي الذي يفقده الأمل من إيمان قومه، ويخبره بحلول العقاب فيهم، ويأمره بصنع السفينة التي ستكون سبب نجاته ومن معه من المؤمنين، ثم يسدل الستار ليرتفع ثانية عن مشهد نوح عليه السلام وهو يقوم بصنع السفينة، مقبلاً على ذلك بكليته، تنفيذاً لأمر الله عز وجل، بينما قومه الهلكى من حوله يهزءون ويسخرون. والفجوة التي تركها العرض بين المشهدين ليملاًها الخيال: هي تلك الأحداث التي لا بد منها، من العزم على الصنع، وإحضار المواد الأولية، وإنما طويت حتى لا تفسد بذكرها العرض الفني للقصة.

3- قصة مريم عليها السلام: التي تضعنا أمام مشهد يصور لنا تلك العذراء البتول، وقد أتاها الروح القدس في هيئة إنسان ليقول لها: {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} ²، وتجيبه مستغربة دهشة: {أَبْنَىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} ⁴، فيخبرها بأنه فعل الذي لا يعجزه شيء، ويطلعها على الحكمة من ذلك: {قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا} ⁵، ثم يسدل الستار ليرتفع عن مشهد هذه العذراء وقد أثقلها حملها، فتتحت جانباً من القوم وهي قلقة خائفة، وإذا بالمخاض يلجئها إلى جذع نخلة تستقر تحتها لتلد النور والهداية لتلك البشرية الضائعة في ذلك الجيل: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} ⁶ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ فَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا مَّنْسِيًّا} ⁶. ويلاحظ بين المشهدين فجوة فنية كبرى، تترك للخيال أن يتصورها كما يشاء له التصور.

-4

1 - سورة هود، الآية: 36 - 38.

2 - سورة مريم، الآية: 18.

3 - سورة مريم، الآية: 19.

4 - سورة مريم، الآية: 19.

5 - مريم: 20.

6 - سورة مريم، الآية: 21 - 22.

المطلب الثالث: المقاصد والغايات النقدية في القصص القرآني:

إن الحديث عن المقاصد والغايات النقدية المستجلاة من القصة القرآنية هو جزء من الحديث عن المقاصد والغايات المتوخاة في أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم، غير أن للقصة تأثيراً وجدانياً ونفسياً وفكرياً؛ لما في القصة القرآنية من عرض للأشخاص وتصوير للأحداث أمام المتلقي كما لو كانت ماثلة أمامه، وإن كانت تتحدث عن سالف القوم، ومن غايات ومرامي القصة القرآنية التي ذكرها القرآن الكريم بشكل صريح ما يلي:

1- الدعوة إلى التفكير: قال تعالى: {بِأَفْضُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ¹،

أي اقصص هذه القصة وغيرها، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكراً وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم، لأن للأمثال واستحضار النظائر شأناً عظيماً في اهتداء النفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس ².

يتضح مما ذكر أن إيراد القصص في الخطاب والنقاش منهج قرآني يعد مثار نصح وإرشاد، وموطن تذكير لأولي الألباب، ومدعاة لتقوية الهمة والعزيمة وتوجيه العقول نحو النظر في سنن الله في أرضه، وأحوال الأمم السابقة للوصول إلى الحق. وعليه، فالتفكير والاتعاظ بما جرى للسابقين واجب قرآني وفريضة إسلامية يؤدي تعطيله إلى غباء العقل وعمى القلب والبصيرة.

2- تحقيق الاعتبار والاتعاظ:

أسلوب القصص يساعد على تفسير الأحداث للاعتبار والاتعاظ والانتفاع بها في معالجة حاضر الأمة ومستقبلها، ولكن بعد تحليل القصة لفهم ما فيها من دروس ومفاهيم تعين على تفادي ما وقع فيه السابقون من فلتات وعثرات وضياع فرص. وهذه الغاية عامة في القصص القرآني، قال تعالى في الآية الأخيرة من قصة يوسف: {لَفَدَّ كَانَ فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} ³، وأو لو الألباب هم الذين يتحقق لهم الاعتبار بما جرى للسابقين والإفادة من ذلك، يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكير، وقد جاء في أول السورة {نَحْنُ نَفْصُكَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} ⁴، ثم ذكر في

1 - سورة الأعراف، الآية: 176.

2 - التحرير والتنوير لابن عاشور، 179/9.

3 - سورة يوسف، الآية: 111.

4 - سورة يوسف، الآية: 3.

آخرها {لَفَدَّ كَانَ فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} تنبيهها على أن حسن هذه القصة وغيرها إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة¹، فالقرآن الكريم يريد من ذكر أحداث القصة إعادة قراءة التاريخ الإنساني والقضايا الإنسانية التي عاشتها الأمم والرسالات الإلهية سلفاً، كما يريد متابعة هذه القراءة للاستفادة منها والاعتبار بها في الحاضر المعيش للإنسان في حياته وفي مواقفه وتطلعاته نحو المستقبل والكمالات الإلهية. ولا يريد أن تكون القصة فقط عبارة عن التعبير عن الأماني أو الرغبات التي يطمح إليها الإنسان، أو الخيالات التي يتخيلها الإنسان في حياته كما هو شأن القصة الحرة.

3- تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين:

من غايات القصص القرآن، تثبيت فؤاد نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في مجال الدعوة وحثه على الصبر على ما يلاقه من الأذى. قال الله تعالى: {وَكَلَّا نَفُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ} ²، فالقصص القرآني فيه تسليّة لقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - وتثبيت له وزيادة في يقينه أنه على الحق ببيان أنه ليس وحده من واجه ما واجه في طريق الدعوة إلى الله، بل أودى أنبياء الله قبله في سبيل الدعوة وصبروا حتى جاءهم النصر والفتح، قال الله تعالى: {وَلَفَدَّ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَتَيْهِمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَفَدَّ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ} ³.

وهذه الغاية تؤكد أن من أهم مقاصد القصص القرآني تخفيف الضغط النفسي عما في قلوب الدعاة إلى الله، فهي تزيد من ثقتهم ويقينهم بالله حتى لا تتزلزل النفوس، وتترك الدعوة الإسلامية، ولو حدث هذا -ولكن لم يحدث بقدرة الله- لما قامت لها قائمة، ولأهمية هذه الغاية نجد مفكري الإسلام والدعاة إلى الله يعتمدون على عملية استخدام أسلوب القصص في المحاضرات والندوات والكتابات، لما في ذلك من نفع في تثبيت للقلوب، ومنع تسريب اليأس إلى العقول، ورد الثقة وبث الطمأنينة في النفوس، وجلب للصبر والثبات وكل ما يؤدي في النهاية إلى النصر والفتح المبين.

4- الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتمكين حقائق الإيمان والتوحيد والبعث في عقل وقلب المتلقي، وذلك من خلال أحداث بعض القصص وما فيها من حوار هادف مقنع،

1 - مفاتيح الغيب، 522/18.

2 - سورة هود، الآية: 119.

3 - سورة الأنعام، الآية: 35.

كما أن تكرار هذا الإقناع وذلك التأثير بهذه الحقائق في قصص متعددة، أوفي قصة واحدة تعرض بأكثر من قالب أو من أكثر من زاوية - هذا يسهم في تمكين هذه الحقائق في القلب والوجدان، كما يسهم في استخلاص دروس وعبر جديدة في كل عرض جدي¹؛ إذ تركيب القصص يمثل في حد ذاته إقناعاً، يقول الباقلاني - رحمه الله - في كتابه "إعجاز القرآن" إن إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتبين به البلاغة. وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً². فلا شك أن كل مرب أو مفكر أو داعية يحاول التأثير على الآخر، ويسعى لإقناعه. وحكاية القصص الهادف بكفاءة وسلاسة وحسن استثمار مهاراته يمكن من اختراق الحاجز النفسي لدى المتلقين، فيسهل التأثير فيهم، وتحول مواقفهم السلبية إلى أخرى إيجابية بإذن الله. فالقصة بدلالة قصص القرآن من آليات الإقناع المنتهجة في استمالة الآخرين واستنفارهم بغية استنهاض ملكتهم، وجعلهم ينسجمون معك في الحركة الفكرية الموجودة في الخطاب.

5- الترغيب بالوعد بالنصر والتأييد في الدنيا وبال فوز بالنعيم المقيم في الآخرة للمؤمنين المصدقين، والترهيب بسخط الله وعقابه في الدارين للجاحدين المكذبين، كقصة إنجاء الله موسى والمؤمنين معه من فتك فرعون وجنوده، وإغراق فرعون وجنوده في البحر، وقصة إنجاء الله لوطاً وأهله إلا امرأته وإهلاك قومه.

6- تعليم الأخلاق الفاضلة عن طريق الحث على القدوة الحسنة الماثلة في القصص القرآني، والنهي عن الخصال السافلة عن طريق الحث عن البعد عن القدوة السيئة، وذلك بذكر نماذج لشخصيات تمثل الجانب الإيجابي، مثل نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- في صبره وحلمه وعفوه، وأيوب عليه السلام في صبره وثباته وأوبته، ويوسف عليه السلام في صبره وعفته وصفحه، وامرأة فرعون في صبرها وعفافها. وكل من يبحث القرآن المجيد من خلال عرض قصصهم على سلوك مسلكتهم الحسن العاقبة دنيا وأخرى. ونماذج أخرى تمثل الجانب السيئ مثل فرعون في طغيانه وتأله وتعالیه، وقارون في بغيه واغتراره بماله، وقوم لوط في تماديهم في الشذوذ الجنسي وغيرهم ممن حذر الله من سلوك مسلكتهم الوخيم العاقبة في الأولى والآخرة، يقول الله في أصحاب الجانب السيئ: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَفْنَا وَمَا

¹ - قصص القرآن الكريم للدكتور فضل حسن عباس، ص 45.

² - إعجاز القرآن: 61.

كَانَ اللَّهُ لِيَلْمَهُمْ وَلَئِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَٰلْمُونَ¹، وهكذا يعلمنا القرآن الكريم أن القصص المعبر يمكن أن يكون عملاً تربوياً في ترسيخ كليات الأخلاق، ونشر القيم والاتجاهات التي تسهم في الإصلاح، لأن "القصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس: {لَفَدَّ كَانَ فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ^{2,3} }

ومن أمعن النظر كثيراً في القصص القرآني يجدها تخاطب الواقع والمستقبل أكثر مما تسرد الماضي، وتذكر من أحداث التاريخ كل ما له نفع وأثر جميل في هداية الإنسان وبناء شخصيته. لذا اختلف منهج القرآن في موضوع القصة عن منهج القصص والأدباء، وذلك ليحقق المرامي والغايات التي يريدها، فقصصه كما يبين الشاطبي في قوله:

ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس، كما قال تعالى في سورة هود بعد ما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم: {وَكَأَلَّا نَفْصَ عَلِيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُسَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ⁴ }، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ، ويؤتى فيها بالذرة وأذن الجرة... وفي تلك القصص فوائد عظيمة، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية... وليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخاً، أنّ التاريخ شيء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه، كلا. إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ⁵.

بناء على كل ما سبق، فإن أسلوب القصص لا يقل أهمية عن أسلوب المثل في كونه أبلغ في البيان، وأكثر تأثيراً في النفس في الوعظ والترغيب، وآلم لها في التنفير والترهيب، وأكثر إقناعاً لها في الدعوة إلى الفعل أو الترك أو المدح والذم، وأكثر تحريكا للنفوس في التشجيع والإقدام، وأكثر تسكيناً لها في التثبيط والإحجام، فلا يستغني عن توظيفه متكلم ولا محاضر، ولا ناقد ولا مناظر.

ونفس الأمر يصدق على القصص النبوي، فقد جاء في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لتحقيق غايات كثيرة، منها: بيان للقصص القرآني وتفصيل لمجمله وتوظيف له في

1 - سورة العنكبوت، الآية: 40.

2 - سورة يوسف، الآية: 111.

3 - مباحث في علوم القرآن للقطان: 318.

4 - سورة يوسف، الآية: 119.

5 - محاسن التأويل للقاسمي، 74/1.

الدعوة والبلاغ، ومنها: التربية على قيم الصبر والثبات وقول الحق مثل قصة الملك والساحر والغلام. ومنها: الحث على العمل الصالح مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا في الغار وانسد عليهم بصخرة، ومنها: التربية على شكر النعمة ومعرفة الفضل لذويه مثل قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وغير ذلك من القصص التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستثمرها لتقوية عزائم المؤمنين وتثبيتهم وحثهم على التزام الأخلاق الفاضلة والعمل بقيم الصدق والصبر.

وبالجملة فكما ترتضي النفس البشرية العقلية الموزونة بميزان العقل المنصف، وميزان الشرع المقسط، فإنها ترتضي من الأقوال ما كان جميلا في السبك ممتعا للعقل بمعانيه ومرامييه، قصصا كان أو أمثالا أو حكما، إذ يشعر المستمع من خلال إيرادها والاستماع إليها أن المتحدث يستند في حديثه إلى عصارة عقل أمة، وخلاصة تجربة الأجيال في الحياة، وخاصة إذا صادفت محلها، وكانت وفق الحاجة والمقدار، إذ "المهم في هذا حسن الاختيار والتعمق في فهم مدلول ما يستشهد به، ومدى مطابقته لما يستشهد له"¹.

ومن شأن هذا كله أن يحفز كل مفكر ومتقف وداعية لأن يكون ريانا من القصص والأمثال المستعملة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية ومرامي ذلك، ومطلعا على الكتب والرسائل التي عنيت بالقصص والأمثال في الوحيين، وفي التراث العربي وغيره مما يمكن أن يفيد. وبما سبق يتضح أن الأسلوب فن من فنون الكلام يكون تقريراً لمحاولة تقرير الأخبار المباشرة البعيدة عن الصور البيانية في ذهن المتلقي بهدف إقناعه بها، أو أمثالا لمعالجة الحقائق في منازعها المختلفة، وحملها في ذاتها حكمة تحكم طبائع البشر، أوقصصا تحمل في طياتها إشارات تمكن الدعاة والنقاد والفقهاء من إنجاح مبتغاهم واستنباط الأحكام واستخراج الدروس والعبر، ثم يكون خاتمة فصول هذا البحث فصلا تناولت في ثانيا مباحثه نماذج من آليات الفكر النقدي في القرآن المجيد الإعجازية المتمثلة في الإعجاز العلمي والتركيبى والبياني.

الفصل الثالث: آليات الفكر النقدي الإعجازية في القرآن الكريم:

يعتبر القرآن المجيد معجزة الأزمنة والدهور التي تحدى الله بها العالم الكوني كله، وجعله آماراً وجوده ووحدانيته، وآية دالة على صدق رسول القرآن محمد في نبوته ورسالته، حتى يعرف كل من قرأ القرآن ودرسه أوجه الإعجاز فيه. وقد خصصت هذا الفصل للحديث عن أوجه الإعجازية العامة في النقد القرآني، مع أنه "لا نهاية لوجوه إعجازه"²، حتى إن بعض الباحثين قد كتب في موضوع الإعجاز الموسيقي. ولأن هذا البحث إنما

1 - المتحدث الجيد: مفاهيم وآليات: عبد الكريم بكار، ص 96.

2 - معترك القرآن في إعجاز القرآن، للسيوطي، 1/ 3، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

وضع لمناهج الفكر النقدي في القرآن، فقد اقتصرت فيه على أبرز ما يحقق هذه الغاية النقدية من خلال الوقوف عند ثلاثة أوجه من الإعجاز القرآني، وهي: الإعجاز العلمي، والإعجاز البياني، والإعجاز التشريعي.

المبحث الأول: الإعجاز العلمي في القرآن المجيد:

إن القرآن المجيد كتاب علم ومعرفة، دعا إلى القراءة والنبوغ في التعرف على أسرار الكون وخبائاه من أجل استثمارها في الحياة اليومية العامة، كما تفيد الإشارة القرآنية: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِجًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرِيَهُ مُضْبَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ¹، فإن الآية تضمنت من العلوم الطبيعية أسراراً كبيرة، تدل على مدى اهتمام القرآن المجيد بالعلم ودعوة العقل الإنساني إلى توحيد الله من خلال الإعجاز العلمي، كما سنتبينه من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز العلمي في القرآن، وغاياته النقدية:

أولاً: مفهوم الإعجاز العلمي:

الإعجاز مصدر مشتق من الفعل الرباعي (أعجز)، وأصله اللغوي ثلاثي مشتق من (عجز) يرجع معناه اللغوي إلى أصلين صحيحين، هما: الضعف، ومؤخر الشيء ². يقول ابن فارس: "فالأول عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز، أي ضعيف (...) وأما الأصل الآخر فالعجز: مؤخر الشيء، والجمع أعجاز" ³. والأصل اللغوي الذي له علاقة بمفهوم الإعجاز هو الأول الذي يتضمن معنى الضعف وعدم القدرة على المحاكاة والمسايرة، فالإعجاز أو المعجز والمعجزة: ما أوقع الطرف الآخر في العجز ⁴ عن المسايرة وعدم القدرة على فعل عمل ما، كما في الآية القرآنية: {وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} ⁵، ثم استعمل هذا اللفظ في المعجزات التي أيد بها أنبياء الله رسالاتهم، فكان القرآن من بين هذه المعجزات التي صيرت الخصم عاجزاً عن إدراكه لحاقتها به، أو سباقاً له، لما تضمنته آياته الكريمة من أوجه إعجازية كثيرة، منها: الإعجاز العلمي، فألف كثير من علماء المسلمين ⁶ مؤلفات بعنوان "إعجاز القرآن" ¹،

1 - سورة الزمر، الآية: 10.

2 - مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة عجز، 4/ 189.

3 - معجم مقاييس اللغة، مادة عجز، 4/ 189 - 190.

4 - ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة عجز، ص: 633، ولسان العرب، لابن منظور، مادة (عجز) 5/ 369.

5 - سورة الأنفال، الآية: 3.

6 - كالإمام الباقلاني وغيره.

لأنه معجز في أساليبه العلمية والتربوية، ومعجز في إشاراته العديدة إلى الحقائق الكونية والإنسانية ومراحله الجنينية. من هذا المنطلق فإن المراد بالإعجاز العلمي القرآني: هو "سبق الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم"².

فكان الإعجاز العلمي من بين الأساليب النقدية والإصلاحية التي سلكها القرآن المجيد في سبيل التبليغ والدعوة إلى دين الله ورسالاته الجديدة بلغة مناسبة توافق كل عصر ودهر {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ۚ وَلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} ³، فتعددت هذه الآيات العلمية النقدية، وتنوعت لتستوعب كافة الأجناس، وتستقطب عامة الناس {سَنُرِيهِمْ ۖ آيَاتِنَا فِي الْآبَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ۖ أَنَّهُ الْحَقُّ} ⁴.

ثانيا: أهداف الإعجاز العلمي في القرآن وغاياته النقدية:

تعددت الغايات النقدية من أسلوب "الإعجاز العلمي" الذي سلكه القرآن المجيد؛ باعتباره سبيلا منهجيا فريدا في الدعوة إلى توحيد خالق الكون واتباع دينه ورسالته. وهذه الغاية النقدية والإصلاحية يمكن إجمالها في ثلاثة أمور:

1 - تثبيت مبدأ الوحدانية وإبراز القدرة الربانية على الخلق والتدبير

قد اكتشف العلم الحديث كثيرا من الأسرار الكونية والحقائق الإنسانية التي تحدث عنها القرآن المجيد، دون أن يعرفها الناس الذين عاشوا نزوله وسايروا تشريعاته، حتى أدرك الناس بعضها في واقعنا المعاصر؛ بغرض التعرف على قدرة الله والإقرار بوحدانيته وإخلاص العبودية له، كما أشار إلى بعض ذلك في أول آية نزلت من القرآن: {إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْيٍ ﴿٢﴾ إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ⁵، فقد أشار القرآن إلى أصل الخلق الانساني، وأنه خلق من علق، في وقت لم تكن فيه المعارف البشرية قادرة على

1 - وأول كتاب ألف في هذا الموضوع هو كتاب إعجاز القرآن، لمحمد بن يزيد الواسطي (ت: 306هـ)
2 - مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، للدكتور: زغلول راغب محمد النجار، ص: 145، نشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 1، 1430 هـ / 2009م.
3 - سورة سبأ، الآية: 5-5.
4 - سورة فصلت، الآية: 52.
5 - سورة العلق، الآيات: 1-5.

تصور كيفية خلقه وتكوينه في رحم أمه، فجاء القرآن المجيد ليتحدث باستفاضة عن الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان من أجل إبراز قدرة الخالق وإثبات وحدانيته وصدق رسالاته {وَوَجَّ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ¹. ومما يدل على أن القرآن حدد هذه الغاية الإصلاحية والدعوية من خلال الإعجاز الكوني في القرآن، قوله: {أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا فَبَتَفْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} ²؛ ليبين للناظرين أن هنالك قوة إلهية كبيرة تدبر هذا الكون وتسيره بحكمة ونظام، فالهدف الاساسي من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو إثبات وحدانية الله واستقلاله بالعبودية دون غيره، وإظهار عظمته وقدرته على كل شيء.

2 - بناء المعرفة البشرية، وتحرير العقل الإنساني:

من أبرز الغايات النقدية من أسلوب الإعجاز العلمي في القرآن المجيد: إثراء المعارف الإنسانية، وبناء العقل المسلم البناء الصحيح، حتى يستطيع التعامل مع محيطه الكوني تعاملًا سليمًا؛ ومن أجل تحقيق هذه الغاية جاء القرن بالحث على القراءة، وسرد كثير من أسرار الكون وحقائقه الغريبة من خلال إثبات قانون السببية، الذي يتأسس عليه الكون الإنساني بأسره، حتى ينتقل الإنسان من العقلية الخرافية إلى العقلية العلمية، ويتحرر من اتباع العاطفة والخرافة إلى الاستنارة بالعلم والبينة والبرهان، كما في الآية التي تبين مسار تكون المطر والرياح: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِفَالًا سَفَّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ³. فالأسلوب العلمي القرآني هنا قد بين أن الرياح هي السبب في تكوين السحب، وأن انتشارها بهذه الكيفية سبب في نزول الماء، وأن نزول الماء سبب لإحياء النبات والأرض الموتى، حتى يستوعب الإنسان ظاهرة السببية، ويتحرى اتباع الأدلة العقلية والعقلية من أجل الوقوف على المعارف والحقائق الكونية والإنسانية، والبحث

1 - سورة الذاريات، الآية: 21.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 30.

3 - سورة الأعراف، الآية: 56.

عن أسرره وأسبابه؛ لأن كل شيء خلق بسبب لحكمة وهدف {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} ¹.

3- التحدي وإظهار العجز البشري:

اقتضت الطبيعة البشرية والسنة الكونية أن يختلف الناس في كل شيء - سواء كان حقا أم كان باطلا- وحتى يقرر القرآن المجيد مصداقيته ويقيم الحجة على سلامته وصدق رسالته كان لزاما -من الناحية الحجاجية- أن يبرهن على ذلك بأساليبه الخاصة، وأبرزها: أسلوب التحدي بالإعجاز العلمي {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ²، فكان إثبات الإعجاز العلمي للقرآن خاصة "في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه من مواقف التحدي للناس كافة - مسلمين وغير مسلمين- بأن كتابا أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي، وفي أمة أمية كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون ما لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وبعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل" ³، حتى يكون الإعجاز الكوني بمثابة التحدي للعقول البشرية الطاغية المستكبرة {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ} ⁴، على غرار التحدي البياني الموجه إلى فصحاء العرب وعامة الإنس والجن {فَلَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} ⁵. ويتجلى هذا التحدي العلمي في أمور كثيرة، أبرزها:

- أن القرآن المجيد سبق الكشوفات العلمية الحديثة بقرون، فقد ذكر حقائق قطعية لم يتعرف عليها الإنسان إلا بعد مضي قرون من الزمن على نزول القرآن.
- ومن ذلك: خلو القرآن من ذكر أي قضية تخالف ما توصلت إليه العلوم الحديثة رغم كثرة الإشارات العلمية التي تتحدث عن السماء والأرض والجبال والبحار وغيرها.

1 - سورة الطارق، الآية: 5.

2 - سورة فصلت، الآية: 52.

3 - مدخل إلى دراسة الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية، لزغلول النجار، ص: 147.

4 - سورة الأنفال، الآية: 43.

5 - سورة الإسراء، الآية: 88.

- تصحيح المسارات الإنسانية ونظرياته العلمية الخاطئة، فإن القرآن المجيد قد صحح كثيرا من الأخطاء العلمية التي وقع فيها العقل البشري قديما وحديثا.

على هذا النهج القرآني تم التحدي بالإعجاز العلمي الذي لا يقتصر على ذكر الحقائق الكونية التي سبق بها الكشوفات الحديثة فحسب، وإنما يتعداه إلى خلوه من أي خطأ علمي يهدم إعجازه ويرجع على مبدأ التحدي بالنقض والبطلان، كما تشير إليه الآية القرآنية {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إختِلَافًا كَثِيرًا} ¹، ولما لم يرد فيه أي اختلاف أو تناقض دل ذلك على أن القرآن لا يمكن بحال من الأحوال - أن يكون من وضع البشر؛ لأنه فوق الطاقة البشرية، وفوق إرادة الإنسان وقدرته "وذلك لأن كلام البشر إذا طال لم يخل - بحكم العادة - من التناقض" ². فوقع التحدي بالإعجاز العلمي في القرآن المجيد، كما سنتبينه في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: وقوع التحدي بالإعجاز العلمي في القرآن المجيد

لم تنزل الآيات العلمية والكونية على خلاف ما عهده الأميون الذين عايشوا نزول القرآن المجيد عبثا أو لمجرد استعراض المعارف والعلوم، بل كانت خطابا نقديا موجها إلى عامة الناس ممن يأتون بعد القرون الأولى، لسببين اثنين: أولهما: إثراء المعرفة الإنسانية وبناء الشخصية العلمية، وتنبيه العقل البشري إلى التعلم والتدبر في أسرار الكون واستخراج كنوزه {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ³.

وثانيهما: التحدي الذي يهدف بالأساس إلى إصلاح عقدي شامل، ودعوة غير المسلم إلى الوقوف على ما قرره القرآن المجيد من الحقائق العلمية التي كانت السبب في كثير من الكشوفات والتعرف على الظواهر الكونية الحديثة. وخاصة الآيات العلمية التي ورد فيها الخطاب موجها إلى الناس جميعا، فإن التحدي فيها كان عاما لا يقف عند حد البيان وحده ⁴، ومن أجل ذلك اعتبر إثبات الإعجاز العلمي للقرآن المجيد "في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة" ⁵؛ حتى يكون الإصلاح القرآني شاملا لكافة الأمم غير مقتصر على العرب الأوائل وحدهم، فلزم أن يشتمل القرآن المجيد على جوانب أخرى من أصناف التحدي وأوجه الإعجاز كي يعايشوا المعجزة القرآنية بحسب إدراكهم وفهمهم، إضافة إلى أن التفكير الإنساني بحد ذاته لا يظل جامدا على نسق واحد أوقاصرا

1 - سورة النساء، الآية: 81.

2 - روح المعاني، للألوسي، 3/ 89.

3 - سورة النحل، الآية: 78.

4 - الإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور السيد الجميلي ص: 48.

5 - مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، د. زغول النجار، ص: 146.

على الدوام ثابتا غير متحرك، بل التفكير الإنساني متغير ومندمج في حركة الكون الزمانية والمكانية، يدور معها حيثما دارت، فليس من المعقول إذن أن يظل الخطاب القرآني مقصورا على عرب القرن الأول، كما لا يمكن اعتباره مقصورا على أمة القرن الواحد والعشرين¹؛ لأنه أنزل للنظر والتدبر {أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلُفْرَاءَ أَمْ عَلَىٰ فُلُوبٍ أَفْبَالُهَا} ².

فالإنسان في العصر الحديث بحاجة ماسة إلى حقائق قطعية من أجل التمسك برسالته القرآنية والدينية، ولا شيء يمكنه من هذا اليقين أكثر من القناعة القائمة على الحقيقة العلمية والإعجاز الكوني الذي يتضمنه القرآن المجيد؛ لأنه كتاب رباني حافل بالإشارات العلمية والكونية، ونزل على رجل أُمي لم يكن يقرأ أو يكتب لتحقيق غاية التحدي والإعجاز {وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ

أَلْمُبْطِلُونَ} ³. وقد تقرر بالفعل أن آيات القرآن العلمية والكونية لا تعارض أية حقيقة أثبتتها العلم الحديث أو اكتشفها العلماء بعد إشارة القرآن إليها بقرون. يقول الباحث الفرنسي موريس بوكاي أثناء حديثه عن النص القرآني: "والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الأولى هو غزارة الموضوعات المطروحة مثل الخلق، والفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وجنس الحيوان والنبات، وتكاثر الإنسان، وتلك الأمور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن أخطاء علمية كبيرة تحملني على التساؤل: إذا كان كاتب القرآن بشرا فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق المعارف العلمية الحديثة؟ وليس ثمة أي شك في أن النص الذي بين أيدينا للقرآن هو نص ذلك العصر" ⁴. قال هذا الكلام بعد بحث طويل وإمعان شديد، كما في مقدمة كتابه: "ولكن بعد تدقيق النص العربي بإمعان شديد قمت بجدرة شاملة استبان لي منها أنه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث" ⁵. فتمكن القرآن المجيد من خطاب العقل الإنساني المعاصر بما يلائم واقعه ومحيطه، فاشتمل على حقائق علمية ناصعة "أوردها الله؛ ليدل الناس على وجوده ووحدانيته وقدرته وعظمته، وعلى الرغم من تقدم العلم في زماننا هذا فإنه لا توجد حقيقة علمية منافية لما ورد في القرآن الكريم مطلقا" ⁶.

هكذا كان القرآن المجيد قائما على منهج التدرج في الإعجاز ومراحل التحدي، بيد أن مصطلح "الإعجاز العلمي" لم يكن يعبر عنه قديما بهذا الاصطلاح، لاكتفاء الناس حينها

1 - الإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور السيد الجميلي، ص: 9، نشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، - دار الوسام، بيروت، لبنان، ط 2، 1992م.

2 - سورة محمد، الآية: 25.

3 - سورة العنكبوت، الآية: 48.

4 - التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص: 149، ترجمة الشيخ حسن خالد، مفتي جمهورية لبنان، نشر: المكتب الإسلامي، ط 3، 1411 هـ / 1990م.

5 - المرجع نفسه، ص: 13.

6 - بينات المعجزة الخالدة، لحسن ضياء الدين عتر، ص: 278، نشر: دار النصر، سورية - حلب.

بعبارة الإعجاز أو التحدي بوجه عام، وإلا فقد كان القدماء يستعملون عبارات تتضمن معنى الإعجاز العلمي، كما ورد في تعبير القاضي عياض رحمه الله: "ومنها: (أي من وجوه إعجازه): جمعه لعلوم العرب عامة، ولا محمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم"¹. وعلى هذا لم يختلف علماء الناس إذن في وقوع التحدي بالإعجاز العلمي في القرآن، وإنما اختلفوا في طريقة إثبات الإعجاز، أو في التفسير العلمي للآيات الكونية والعلمية التي يتضمنها القرآن المجيد، ففرقوا في ذلك فرقا ثلاثا:

أولاً: نفاة الإعجاز العلمي في القرآن:

ذهب بعض علماء المقاصد والمهتمين بالدراسات القرآنية من المسلمين إلى إنكار هذا الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي للقرآن؛ باعتباره مخالفا لما عهده العرب وهم أمة أمية. ومن هؤلاء الإمام الشاطبي رحمه الله، واستدل على ذلك بأمر، أبرزها:

- أن القرآن المجيد وشريعته الإسلامية نزلت على أمة أمية، ولذلك لا دخل لهذه الشريعة بالعلوم، فأبي دعوة تقوم على ذلك فهي باطلة، لأن الشريعة موضوعة على وصف الأمية². قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}³.

- أن الشريعة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى العرب خصوصا وإلى من سواهم عموما إما أن تكون على نسبة ما عليه العرب من الأمية، فتكون شريعة أمية أو لا تكون كذلك وعندها لا تنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وهذا على خلاف ما وضع الأمر فيها، إذا فلا بد أن تكون على ما يعهدون، والعرب لا تعهد إلا ما وصفها الله من الأمية، فالشريعة أمية⁴.

- لو لم يكن القرآن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزا، ولخرجوا عن مقتضى الإعجاز بقولهم: هذا على غير ما عهدنا "إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام، من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به (...). ولكنهم أذعنوا لظهور الحجة، فدل على أن ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله، مع العجز عن مماثلته"⁵.

- أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد في شيء من هذا المدعى سوى ما كان معروفا عندهم فقط، ولو كان عندهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن

1 - نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، لأحمد شهاب الدين خفاجي، 2/ 583 - 584، نشر: درسدات، المطبعة العثمانية، 1312هـ.

2 - الموافقات، للشاطبي، 3/ 155 - 157، بتحقيق فضيلة الدكتور الحسين أيت سعيد.

3 - سورة الجمعة، الآية: 2.

4 - الموافقات في أصول الشريعة، 3/ 157.

5 - الموافقات، 3/ 160.

ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا¹.

- لكن جماهير العلماء والمفسرين قد ردوا على كلام الشاطبي، ومن بينهم: الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله، فقد رد على استدلالات الشاطبي هذه في المقدمة الرابعة من تفسيره "التحرير والتنوير" وأبرز ما ورد فيها: أن ما ادعاه الشاطبي يقتضي أن القرآن قاصر، لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال، وهذا باطل، لقوله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا فَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا}^{2،3}. كما يعتبر القرآن المجيد حملاً للمعاني الكثيرة، فإن مقدار أفهام المخاطبين به

ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوماً لديهم، وأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهياً لفهمه أقوام وتحجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وقد قال السلف: إن القرآن لا تتقضي عجائبه⁴. وأما عدم تكلم السلف في الموضوع فإن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نسلم بذلك، وإن كان فيما يرجع إليها، فلا نسلم وقوفهم عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقف على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية⁵.

- ثانياً: التوسع والغلو في إثبات الإعجاز العلمي

- لجأت طائفة من العلماء والباحثين إلى فتح الباب على مصراعيه أمام إثبات الإعجاز العلمي للقرآن، حتى نسبوا كل جزئية من جزئيات العلوم المعاصرة إلى القرآن المجيد، وأضافوا إليه كل علم بما فيه من تفريعات ومباحث جزئية، وأبرز هؤلاء: الفخر الرازي، والسيوطي، والشيخ طنطاوي جوهرى، وغيرهم، مستندين في ذلك إلى عموم النصوص الواردة في هذا الخصوص من قبيل الآية القرآنية: {مَا قَرَّرْنَا بِكِ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}⁶،

وقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ}⁷. فتوسعوا في التفسير

العلمي والتطبيق العملي لهذا الإعجاز العلمي القرآني، حتى خصص الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" فصلاً خاصاً بذلك، سماه "كيفية انشعاب سائر العلوم مطلقاً من القرآن"⁸.

وتبعه السيوطي قائلاً: "وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم

1 - الموافقات، 3/ 181 وما بعدها.

2 - سورة هود، الآية: 49.

3 - التحرير والتنوير، 1/ 44.

4 - التحرير والتنوير، 1/ 45.

5 - التحرير والتنوير، 1/ 44.

6 - سورة الأنعام، الآية: 39.

7 - سورة النحل، الآية: 89.

8 - جواهر القرآن، للغزالي، ص: 25، نشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1979م.

فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها"¹. وأما الشيخ الطنطاوي فقد سمى تفسيره ب (الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب المكنونات وغرائب الآيات الباهرات) واستطرد فيه من علم إلى علم ومن موضوع إلى آخر، فبنى علم التفسير والكيمياء... على آية الكرسي وما وليها من الآيات القرآنية².

ولعل هذا التوسع في التفسير العلمي للقرآن هو السبب في إنكار الشاطبي وغيره من الباحثين المعاصرين لهذا الموضوع أصلاً وفصلاً، كما أشار إليه الدكتور عماد الدين خليل بقوله: "صحيح أن إلحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معان وتفسير علمية لم تقصد إليها البتة، قد دفع بعضهم، الآخر، وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه إلى نفي أن تكون للقرآن أية صلة بأيما حقيقة علمية (...). إن الفعل الخاطيء كما هو معروف يولد رد فعل خاطيء يساويه في المقدار ويخالفه في الاتجاه"³، وهذا ما يتضح من كلام الشاطبي نفسه، إذ قال: "إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى في القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات، والتعاليم، (الرياضيات من الهندسة وغيرها.) والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح"⁴.

ثالثاً: الاعتدال في إثبات الإعجاز العلمي

وقف جمهور علماء التفسير والباحثين في الدراسات القرآنية⁵ -في مسألة التفسير العلمي وإثبات الإعجاز العلمي للقرآن- موقفاً وسطاً، فما أفرطوا في إثبات الإعجاز العلمي ولا فرطوا في بيان بعض أوجهه في القرآن المجيد، فكانت لهم ضوابط يحتكمون إليها حتى لا يخرجوا عن الحد الإعجازي الذي تغياه القرآن؛ لأنه لا مانع من إثبات الإعجاز العلمي عقلاً وشرعاً إذا كانت الحقيقة العلمية تتفق مع نص الآية القرآنية، سيما إن كان الناس في عصر طغت فيه النظريات المادية، فلا يؤمن إلا بلغة العلم والتجربة. وإنما الممنوع هو الغلو واعتبار القرآن المجيد مصدر العلوم الطبية والهندسية والفلسفة والفلكية وغيرها. والأدلة على هذا الموقف الوسطي من إثبات الإعجاز العلمي للقرآن كثيرة، جملتها:

- 1 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي وبهامشه إعجاز القرآني للباقلاني، 2/ 129، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- 2 - الجواهر في تفسير القرآن الكريم، للشيخ طنطاوي جوهري، 1/ 237 - 238، نشر: المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط 2، 1350 - 1394 هـ/ 1974 م.
- 3 - مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، للدكتور عماد الدين خليل، ص: 18 - 19، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1400 هـ / 1983 م.
- 4 - الموافقات، 3/ 181.
- 5 - وأبرزهم: الإمام الطاهر بن عاشور في تحريره، والإمام محمد عبده في تفسير جزء عم، والشهيد سيد قطب في ظلاله، ومحمد جمال الدين القاسمي في كتابه "محاسن التأويل"، وعبد الرحمان الكواكبي، ومصطفى صادق الرافعي في مؤلفه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" وغيرهم كثير.

- أن القرآن المجيد قد تضمن على وجه التصريح مسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة في زمن نزول الوحي، وإنما كشف عنها العلم الحديث، وما زال يكشف عن بعض حقائقها ودقائقها دهرًا إثر دهر، مما يجعل القرآن المجيد كتاب إعجاز علمي يتحدى¹.

- دلت الآية القرآنية {سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَابِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}²، على أن القرآن معجز في معانيه وحقائقه العلمية، فإن لم يكن هذا من باب التحدي والإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الأفهام شيء³.

- إن القرآن المجيد كتاب كوني وإنساني نزل إلى العالمين، فلا يمكن أن يكون إعجازه موقوفًا على فصحاء العرب ومن عايش نزوله؛ لأن الإنسانية كلها على امتداد الزمن مخاطبة به، ومطالبة بالتسليم له، فلا بد من وجود أوجه إعجازية أخرى تتجاوز اللغة إلى ما يلائم كل عصر ومصر، ومن بينها: الإعجاز العلمي⁴. فكون المعاني القرآنية متسمة بالحيوية والمرونة والتجدد ومسايرة الحياة الإنسانية يقتضي أن تكون آيات القرآن معجزة متجددة كذلك "يتبين للناس منه على مر الدهور وجه لم يكن تبين، وناحية لم يكن أحد يعرفها، فكأن هذا التجدد في الإعجاز العلمي هو تجديد للرسالة الإسلامية كأنما رسول الإسلام قائم في كل عصر ويريهام دليلًا على صدقه"⁵.

إلى غير ذلك من الأدلة المعقولة التي تؤكد وقوع التحدي بالإعجاز العلمي في القرآن المجيد، باعتباره معجزة خالدة يظهر في كل عصر ما يُثبت إعجازه، فلا يجوز الوقوف به عند حد لا يتجاوزه إلى سواه⁶، ما لم تصرف دلالاته عن معانيها الأصلية لتوافق حقيقة علمية، فإن ذلك أمر مرفوض لا تتحمله ألفاظ القرآن المجيد، لأنه من باب التأويل الفاسد الذي لا يعتد به في ميزان علم التفسير الذي لا تحمل فيه الألفاظ فوق ما تطيق⁷.

المطلب الثالث: مجالات الإعجاز العلمي في القرآن المجيد

إن آيات القرآن المجيد قد انطوت على إشارات علمية هي أكثر مما وصلت إليه الكشوفات الحديثة، سواء فيما يتعلق بالمجال الإنساني، أو المجال الكوني، أو بمجال الحيوانات والنباتات وغيرها من الكائنات؛ حتى يتيقن العقل البشري أن القرآن حق نزل من خالق الكون بأسره، والعالم بخباياه وأسراره. وليس غرضنا في هذا البحث تتبع موضوع

1 - محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، 1/ 332، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 2، 1398 هـ / 1978م.

2 - سورة فصلت، الآية: 52.

3 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 128، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط 9، 1393 هـ / 1973م.

4 - ينظر: الإسلام في عصر العلم، للدكتور محمد أحمد الغمراوي، ص: 221، نشر: مطبعة السعادة، ط 1، 1392 هـ / 1973م، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، للشعراوي، ص: 16، نشر: دار العودة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

5 - ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن، ص: 157، والإسلام والعلم للغمراوي، ص: 222.

6 - الإعجاز العلمي في القرآن، ص: 164.

7 - الإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور السيد الجميلي، ص: 13.

الإعجاز العلمي في كافة مجالاته وتخصصاته، وإنما غرضنا الإشارة إلى ما يتحقق به المنهج النقدي من الإعجاز القرآني، كما سنتبينه من خلال الوقوف عند النماذج الآتية.

أولاً: المجال الكوني:

من أبرز المجالات العلمية التي أشار القرآن المجيد إلى بعض حقائقها وأسرارها: عالم الكون الذي يعتبر "كتاباً مفتوحاً يقرؤه كل من يتأمله بعين العقل والفكر والوجدان"¹، فتناولت آيات القرآن جوانب متعددة من المجال الكوني كجانب البحار والمحيطات، والجبال الراسيات، والفيافي الشاسعات، وخلق الأرض والسموات، كما سيتضح في النماذج الآتية:

1 - حديث القرآن عن البحار والمحيطات:

مما يدل على بديع صنع الخالق وقدرته العجيبة في تسيير الكون وتدبير هذه المحيطات والبحار الشاسعة التي تشغل حيزاً كبيراً جداً من سطح الأرض، يقدر بثلاثة أرباعها². وقد تحدث القرآن المجيد عن بعض الدقائق العلمية المتعلقة بهذا المجال، كما في الآية القرآنية: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ بَضَائِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}³، فإن مما يؤيد هذا التسخير أن لا يتجمد من البحار والأنهار في فصل الشتاء إلا سطحها مما يلي الشواطئ، ولا يمتد إلى قاعها؛ حتى لا تهلك الحيوانات المائية التي سخرها الله للإنسان، وليبقى البحر صالحاً لجريان الفلك فيه "تحقيقاً لذلك التسخير الذي من الله به على عباده في أكثر من آية"⁴. ومن أبرز الآيات التي تناولت بعض دقائق البحار: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَفِيَسَ ۖ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَسَ ۚ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ١٨ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الطُّوْلُ وَالْمَرْجَانُ⁵. فقد ثبت أن عدم اختلاط مياه الأنهار بمياه البحار نعمة من نعم الخالق على الإنسان، حيث يحتفظ ماء النهر بعذوبته، وماء البحر بملوحته⁶. وهذا الإعجاز القرآني "لم يكتشفه العلم إلا عام 1942، حيث عرف قانوناً ضابطاً للسوائل، وهو

1 - الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لعبد السلام حمدان اللوح، ص: 167، دراسة أكاديمية محكمة، نشرتها مطبعة الآفاق، غزة.

2 - القرآن وعالم الحيوان، للدكتور عبد الرحمن محمد حامد، ص: 132، نشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم.

3 - سورة النحل، الآية: 14.

4 - نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن، للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، ص: 49 - 50، نشر: مطبوعات الشعب، 1975م.

5 - سورة الرحمن، من الآية: 17 إلى الآية: 20.

6 - الإعجاز العلمي في القرآن، د. الجميلي، ص: 27.

قانون الغشاء السطحي الذي يحول دون اختلاط الماء العذب والمالح والذي يفصل بين سائلين فلا يختلطان¹.

2 - حديث القرآن عن عالم الفضاء والكواكب:

تناول القرآن المجيد بحديثه المعجز موضوع الكواكب والنجوم التي يهتدي بها السائرون، وعلم الفلك والمجرات بشكل عام، فأشار إلى سير القمر وتعاقبه مع الشمس، كما أشار إلى انفصال كوكب الأرض عن السماء في قوله: {الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى²، فالآية صريحة في أن الكواكب متحركة غير ثابتة، كما يتخيله الإنسان، فهي سابحة في أفلاكها طبقاً لنظام إلهي بديع لا يتخلف {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٧﴾ وَالْقَمَرَ فَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ³، كما تضمنت الآية إشارة علمية إلى انفصال السماء عن الأرض، حسبما فصل في آية أخرى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا فَتَفْتَنَهُمَا⁴}. فقد ثبت في علم الفلك الحديث أن السماوات ولارض كانتا متصلتين كتلة واحدة، ثم وقع الانفصال بينهما، فتكونت السماوات التي تظلنا، والأرض التي نلقاها، كما بينته الآية الأخرى: {ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فالتتا أتينا طائعين ﴿١٠﴾ فَفَضَّلْنَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأُوحِيَ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ⁵}. ولذلك نجد الكون في توسع مستمر، وهي حقيقة علمية ثابتة (...). ويشبه العلماء هذا التمدد بالبالون الذي يزداد حجماً كلما

1 - الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن، للدكتور فهد خليل زايد، ص: 42، نشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط 1، 1428 هـ / 2008 م.
2 - سورة الرعد، الآية: 2.
3 - سورة يس، الآية: 37 - 38.
4 - سورة الأنبياء، الآية: 30.
5 - سورة فصلت، الآية: 10 - 11.

ازداد هواء"1، كما أشارت إليه الآية القرآنية: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}2.

3 - حديث القرآن عن الجبال:

من عجائب الإعجاز القرآني حديثه عن حركية الجبال في قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ ذَلِكَ أَتَفَسَّرُ كُلُّ شَيْءٍ}3، وحركيتها تابعة لحركة الأرض التي تدور حول نفسها، فهي إذن تدور "بواسطة الأرض التي تحملها، أي أن الآية تثبت حركة انتقالية عن طريق إثبات حركة للجبال تشبه حركة السحاب، وهي معجزة علمية قرآنية لا شك فيها"4. كما تحدث القرآن المجيد عن أهداف الجبال ومهمتها الرئيسية، حتى لا يظن ظان أنها وضعت على الأرض عبثاً، فاعتبرها القرآن المجيد رواسي وأوتادا في قوله: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}5، {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ}6، والأوتاد جمع وتد بمعنى الأعمدة أو ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب7، فهي بمثابة أعمدة وأوتاد في تثبيت الأرض، والمراد: "أرسينا الأرض بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد"8، حتى لا تميد بأهلها، فيكمل كون الأرض مهادا بسبب ذلك9، كما في الآية الأخرى: {وَأَلْفَيْ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَآ وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}10.

ثانيا: المجال الإنساني:

كما أطنب الإعجاز القرآني في سرد الحقائق الكونية وبيان دقائقها الخفية استرسل كذلك في الإشارة إلى الحقائق التي تهم المجال الإنساني، من بدء خلقه وتكونه إلى الحديث عن الطب وقوانين التغذية المتعلقة بالأكل والشراب، حماية للصحة الإنسانية.

1 - الإعجاز العلمي في القرآن، لعبد السلام حمدان، ص: 168.

2 - سورة الذاريات، الآية: 47.

3 - سورة النمل، الآية: 90.

4 - ينظر: الإسلام في عصر العلم، للغمراوي، ص: 273 وما بعدها، والإعجاز العلمي في القرآن، ص: 175.

5 - سورة النبأ، الآية: 6 - 7.

6 - سورة ق، الآية: 7.

7 - ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 413، مادة وتد، ولسان العرب، لابن منظور، 3/ 444، مادة (وتد).

8 - روح المعاني، للألوسي، 15/ 205.

9 - تفسير الفخر الرازي، 31/ 8.

10 - سورة النحل، الآية: 15 - 16.

1 - خلق الإنسان:

نجد الحديث عن خلق الإنسان مفصلاً مبثوثاً في آيات القرآن المجيد، بدءاً بتحديد جنسه ومراحل تكونه إلى أن يصبح طفلاً رضيعاً بين يدي أبويه. ومن هذه الآيات: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِيٍّ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ }¹، فهذه حقيقة علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث، حيث أدرك الناس أن مني الرجل إنما يتكون من صلبه وظهره، وأن بويضات النساء تتكون من عظام صدرها وترائبها، إذ الصلب هو: العمود العظمي الكائن في وسط الظهر²، ويسمى ذا الفقرات³. والترائب: عظام الصدر⁴، وموضع القلادة من بين ثدي المرأة⁵. ثم يبين القرآن كيفية التكوين الإنساني في سورة الإنسان، بقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }⁶، ليبين أن الإنسان لا يخلق من نطفة واحدة وإنما يتكون من نطف متنوعة، هي خليط وأمشاج⁷. ثم يذكر القرآن مراحل الخلق الأولية وأطواره النهائية في قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي فَرْارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْقَةَ عَلْفَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْفَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْفًا - آخَرَ فَتَبَرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِفِينَ }⁸. فبينت الآية أن أصله من الطين، لأن الطين من تراب وماء، كما برهنت عليه التحاليل العلمية الحديثة. يقول أحد الباحثين الفرنسيين: "إن وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك، وهو لا يحتوي أية عبارة ينقدها العلم الحديث"⁹. ومجرد ذكر هذه المراحل بتتابع وتناسق يعتبر معجزة قرآنية "لا يستطيع أن يراها غير الطبيب الذي درس علم الأجنة وتفقه فيه، وإن الطب الذي صرف جهده وبذل مكنته وعمل أبحاثه، واستنفد وسعه جيلاً بعد جيلاً، ما عاد بعد ذلك إلا ليسير خلف القرآن الكريم"¹⁰، فاتضح

1 - سورة الطارق، الآيات: 4 - 7.

2 - القاموس المحيط، ص: 135، مادة (صلب).

3 - ينظر: التحرير والتنوير، 30 / 262، وتفسير الألوسي،

4 - ينظر: لسان العرب، لابن منظور، 1 / 227، والقاموس المحيط، 2: 276، مادة ترب.

5 - ينظر: تفسير الطبري، 24 / 354، وتفسير الرازي، 31 / 119.

6 - سورة الإنسان، الآية: 2.

7 - ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، 29 / 374، والإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور السيد الجميلي، 184.

8 - سورة المؤمنون، الآيات: 12 - 14.

9 - التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص: 243.

10 - بين الطب والإسلام، للدكتور حامد الغوابي، ص: 12.

أن القرآن المجيد رسالة ربانية معجزة، لأن رسول القرآن لم يكن يتوفر على المجاهر وآلات التشريح حتى يتعرف إلى مراحل التكوين الإنساني.

2 - الصحة الإنسانية:

إن من المقاصد الكبرى للرسالة القرآنية: حفظ الصحة الإنسانية، وحمايتها من الأمراض المعدية، والأوبئة الفتاكة، ومن أجل ذلك وضعت أساسيات عامة في الطب الوقائي، تاركة المجال للعقل الإنساني أن يتدبر في حقائقها ودقائقها، فنظمت الحياة الإنسانية من بداية تكونه في بطن أمه إلى مرحلة شبابه وزواجه، وفي كل مرحلة من هذه المراحل تحت على: نظافة البيئة وتجرىم تلوثها وتلويثها، وتؤكد على النظافة الشخصية لمنع الأمراض الجرثومية، وتنظيم التغذية، والنهي عن الإسراف في المآكل والمشرب. وما أكثر آيات الطهارة في القرآن، وأبرزها: {وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ} وَالرَّجَزَ بَاهْجَرْ¹.

كما اهتم القرآن المجيد بتنظيم الغذاء الإنساني، قائلا: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}². فهذه الآية تعتبر قاعدة أساسية في النظام الغذائي الوقائي، لأن الإسراف في الأكل والشراب يفسد المعدة، ويضر بالصحة الإنسانية على العموم "والإسراف في الأكل يؤدي حتما إلى السمنة، وكل ما زاد على الوزن الطبيعي فهو حمل ثقيل على الأعضاء الرئيسية، وإن من أخطار السمنة الإعداد للأمراض المعدية والحادة والإنذار السيء للعمليات الجراحية"³. ومما يدخل في الإسراف: تعدي المأكولات المباحة، وتجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث، كما نبهت إليه الآية القرآنية: {وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}⁴، وقد فصل القرآن في المطعومات المحرمة، وبين أسبابها، وذكر من ذلك: الميتة، والدم المسفوح، والنطيحة، والخمر، والخنزير، وغير ذلك من الأمور التي ثبت في العلم الحديث خبثه وإضراره بالصحة الإنسانية. فإن الخمر -على سبيل المثال- مضر بالصحة الإنسانية، له تأثير كبير على "الجهاز الهضمي، وتأثير على الجهاز الدموي، وعلى الجهاز العصبي، وعلى حرارة الجسم، والكبد، وإضعافه لمقاومة الجسم للمرض، وتسببه لكثير من الحوادث وما يترتب عليه من الفقر وسوء الأخلاق وتشويهات النسل، إلى غير ذلك من الأضرار الكثيرة"⁵.

1 - سورة المدثر، الآية: 4 - 5.

2 - سورة الأعراف، جزء من الآية: 29.

3 - ينظر: الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، ص: 204 - 205، نشر: دار مصر للطباعة، ط 2، طبعة دار القاهرة، والوجيز في الطب الإسلامي، للدكتور: هشام إبراهيم الخطيب، ص: 84 - 85، نشر: دار الأرقم، عمان، ط 1، 1405 هـ / 1985 م.

4 - سورة الأعراف، الآية: 157.

5 - ينظر: بين الطب والإسلام، د. حامد الغوايبي، ص: 121 - 126، نشر: دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة 1967 م، والإعجاز الطبي في القرآن، للسيد الجميلي، ص: 119 - 122، نشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 3، 1402 هـ / 1982 م.

ثالثاً: مجال الحيوانات والنباتات:

يعتبر عالم الطبيعة البرية بما يحمله من الكائنات الحية والحشرات والنباتات بحد ذاته معجزة إلهية صارخة بوجود الخالق المدبر، وحتى يبرز القرآن المجيد ذلك للعقل البشري من أجل تدبره والتفكير فيه وقف عند جملة من الحيوانات والنباتات، كالعنكبوت، والنمل، والنحل، والنخيل، وأنواع الثمرات، فبين أصنافها بقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ¹، ودعى إلى إمعان النظر في خلق الإبل بقوله: {أَوَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِفَتْ} ²، كما تحدى القرآن المجيد العقل الإنساني الجاحد بالذبابة الضئيلة في قوله: {يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلِفُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} ³. فالعالم الحيواني والنباتي كيان مستقل قائم بذاته، حتى إن لكل بيئة نباتات مستقلة، تختلف عن غيرها اختلافاً كبيراً، وقد نبه القرآن النظر الإنساني إلى هذا الأمر بقوله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} ^{٢٤} إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ^{٢٥} ثُمَّ شَفَفْنَا الْأَرْضَ شَفّاً ^{٢٦} فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ^{٢٧} وَعِنَباً وَقَضْباً ^{٢٨} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ^{٢٩} وَحَدَاقٍ غُلْباً ^{٣٠} وَفَكْهَةً وَأَبّاً ^{٣١} مَّتَعاً لَّكُمْ وَلِيُنَعِّمَ لَكُمْ} ⁴. فهذا الإعجاز القرآني يتضمن بالإضافة إلى الحقائق العلمية استدلالاً منطقياً على الإنسان، يقرب له كيفية البعث بواسطة الاستشهاد له بأحوال موجودة في الكائنات القريبة منه ⁵ مما يستمتع به في عالم الطبيعة، بغرض "التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع

1 - سورة النور، الآية: 43.

2 - سورة الغاشية، الآية: 17.

3 - سورة الحج، الآية: 71.

4 - سورة عبس، الآيات: 25 - 32.

5 - التحرير والتنوير، 129 / 30.

أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به¹.

هكذا يشير القرآن المجيد إلى أن العالم الإنساني لا يختلف كثيرا عن عالم الطبيعة النباتية والبهيمية. فكل شيء خلق في هذا الوجود خلق من الماء، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}²، حتى أعضاء النباتات والأشجار منقسمة إلى ذكر وتأنث، كما عبرت عنه آية أخرى: {سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}³. فهذه إشارات علمية دقيقة، لا يمكن أن تنزل إلا من خالق العالم بأسره، وما كان لرسول القرآن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يعرف كل هذه التفاصيل العلمية الدقيقة، وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب.

المبحث الثاني: الإعجاز البلاغي في القرآن المجيد

من أوجه الإعجاز القرآنية التي لها علاقة بمنهج النقد وعملية الإصلاح والتغيير إعجازه من الناحية البلاغية والتركيبية، فإن كلام الله أرفع كلام وأسماء براعة ودقة وبيان، ما من لفظة أو حرف فيه إلا وقد وضع في محله وموضعه، وبذلك تحدى اللسان العربي في غير ما سورة منه، كما سنتبينه في المطالب الآتية.

المطلب الأول: دلالة الإعجاز البلاغي في القرآن، وغاياته النقدية:

أولاً: دلالة الإعجاز البلاغي في القرآن:

تعتبر البلاغة العربية مرمى كل متحدث باللسان العربي، إلى أن جاء القرآن المجيد فخرق كل ما ألفته العرب من بلاغة المنطق وفصاحة الكلام، فكان معجزة خارقة لعاداتهم البيانية، رغم أنه في مستوى فهمهم وإدراكهم، غير أنه فوق طاقتهم التعبيرية والبيانية، حتى سجل القرآن آراءهم ومواقفهم المختلفة إزاءه، قائلا: {بَلْ فَالَوْ أَمْضَتْ أَمْثَلُ بَلْ إِفْتَرِيَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ}⁴، لما يتميز به القرآن المجيد من قوة بلاغية في تأسيس الأحكام وإيصال المعاني؛ إذ البلاغة في اللسان العربي مأخوذة من البلوغ، بمعنى: الوصول والانتهاء إلى حدٍّ ما يمكن تبليغه من المعاني. قال ابن فارس: "الباء

1 - التحرير والتنوير، 30 / 129.

2 - سورة الطور، الآية: 49.

3 - سورة يس، الآية: 35.

4 - سورة الأنبياء، الآية: 5.

واللام والغين أصل واحد، وهو الوصول إلى الشيء، تقول: بلغت المكان، إذا وصلت إليه"1، ومنه أخذ مفهوم "البلاغة" لأن به يبلغ الإنسان ويدرك ما يقصده من المعاني2. بهذا الاشتقاق اللغوي ندرك أن مفهوم البلاغة يتأسس على معنى الوصول والانتهاج والبلوغ، وبه وردت التعابير القرآنية، كما في قوله: {بَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}3، أي "قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم"4، فالجودة في البلاغة وإيصال المعنى هي مبعث التأثير القرآني، ولا تأثير للكلام الركيك في لفظه والرديء في معناه؛ ومن أجل ذلك جاءت تعاريف الناس لمفهوم البلاغة متواطئة على هذا القدر، فقالوا: إن البلاغة هي "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"5، لأن مقامات الكلام تختلف باختلاف أحوال المخاطبين. فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام التأخير يبين مقام التقديم، ومقام الإطناب يبين مقام الإيجاز، فكان هذا تعريفا مختصرا جامعاً، صاغه بعض المعاصرين بعبارات توضيحية، فقالوا: "مطابقة الكلام لمقتضى حال من يخاطب به مع فصاحة مفرداته وجمله"6، أو هي: "وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداء واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه وللمخاطبين"7.

عرفنا إذن أن البلاغة مطلب إنساني ومرمى بياني يطلبه سائر الناس، خاصة فصحاء العرب الذين كانوا يتناظرون فيما بينهم بالكلام الموزون والمنثور، ويتبحرون بفصاحة ألسنتهم وبلاغة كلماتهم، حتى نزلت آيات القرآن المعجزة، فلم يستطع أحد مبارزتها وملاسناتها، فظهر معنى "الإعجاز" قائماً "على تراخي الزمن وتقدمه"8. فكانت بلاغة القرآن وفصاحته هي سر الإعجاز القرآني ومكمنه، وليس "الصِّرفة"9 كما يدعيه بعض علماء المعتزلة والظاهرية، ولا "النظم"10. فإعجاز القرآن البلاغي راجع إلى بيانه وفصاحته الفائقة بحد ذاتها، لا غير، فالأساس في عجزهم هو ما فيه من بلاغة ورنه قول، ونغمة بيان، أدركوها بذوقهم البياني، وهم الذين يذوقون بأسماعهم، كما يذوقون

-
- 1 - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (بلغ) 1/ 280.
 - 2 - ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 1/ 282، ولسان العرب، لابن منظور، 8/ 419، مادة (بلغ).
 - 3 - سورة النساء، الآية: 62.
 - 4 - الكشف، للزمخشري، 1/ 537.
 - 5 - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص: 20، تعليق: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1424 هـ / 2003 م.
 - 6 - البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن الميداني، ص: 103.
 - 7 - ينظر: البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص: 10، ودروس في علم العربية، لسيمح أبو معلي وآخرون، ص: 115، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر، عمان - الأردن، ط 1، 2000 م.
 - 8 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 139.
 - 9 - ومعنى الصرفة: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف الإلهي للإنسان خارقاً للعادة. ينظر: إعجاز القرآن، للبالقاني، ص: 30، تحقيق: السيد أحمد صقر، نشر: دار المعارف، القاهرة، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 144.
 - 10 - ومعنى هذه النظرية: أن الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب في كلامهم ونثرهم، سواء في مطالعه وفواصله، فكأنه بدع من ترتيب الكلام، لا أكثر. ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 147. وقد حكاه الأشعري عن النظام في كتابه مقالات الإسلاميين، 1/ 225.

الطعام بأفواههم¹. قال الإمام الخطابي رحمه الله: "إن إعجاز القرآن ليس مرجعه إلى أن الله صرف العرب عن معارضته، ولا إلى تضمنه للأخبار المستقبلية، ولكنه يرجع إلى بلاغته الفائقة"²؛ ذلك لأن القول بالصرفة ينافي الإعجاز "فمن سلب القدرة على شيء بانصراف وهمة عنه، وهو بعد قادر عليه، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة، ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب، والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزاً، وقد يعتريه السأم ويتخونه الملل، فينصرف عن الشيء وهو له مطيق، وذلك ليس أحق بأن يسمى عجزاً من أن يسمى تهاونا"³. فتقرر أن القرآن المجيد معجز بأساليبه البلاغية التي خضع لسطوتها أساطين العربية في قريش، كما روي عن عتبة بن ربيعة حين سماعه للقرآن، فقال عاجزاً: "والله لقد سمعتُ من محمد قولاً ما سمعتُ مثله قطُّ، والله! ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... والله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتهُ نبأً عظيم"⁴؛ لأنه أسلوب خالق الكون والإنسان، العالم بخبايا اللغة وأسرار الفصاحة والبيان.

ثانياً: غايات الإعجاز البلاغي في القرآن وأهدافه النقدية:

تعددت الغايات النقدية والإصلاحية من الإعجاز البياني في القرآن، لكن مردها إلى غايتين كبيرتين، هما: غاية الإصلاح والتغيير الفكري والعملي، وغاية التحدي والبرهنة على صدق الرسالة القرآنية.

1 - الإصلاح الديني والدنيوي:

نزل القرآن المجيد ومساوئ العرب بادية للعيان، لم يكونوا أمة علم ولا هداية، وإنما كانوا منشغلين -على المستوى الاجتماعي- بالحروب والخصومات الأدبية الشعرية والنثرية حتى ملكوا أسرار البلاغة وسحر البيان، ومنهمكين -على المستوى الفكري والثقافي- في الخرافات وعبادة الأصنام والأوثان التي صنعوها بأيديهم؛ ولأن الإنسان ميال بفطرته إلى لغته الأم نزل القرآن المجيد على لسانهم، حتى يعدهم نفسياً إلى قبول الحقيقة القرآنية التي نزل بها رسول القرآن محمد صلى الله عليه وسلم {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ فَلْيَكْ لِتَكُونَ مِّنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} ⁵، فخطبهم القرآن بلغتهم التي يحسنونها،

1 - المعجزة الكبرى: القرآن، للإمام أبي زهرة، ص: 77.

2 - بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي، المطبوع ضمن كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" ص: 22 وما بعدها.

3 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 145.

4 - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، كتاب جماع أبواب المبعث، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله من الأعجاز، 2 / 204، تحقيق: د. عبد المعطي قلججي، نشر: دار الطب العلمية، ط 1، 1408 هـ / 1988م، وانظر: سيرة ابن إسحاق، ص: 187، والسيرة النبوية، لابن كثير، 1 / 504 - 505.

5 - سورة الشعراء، الآيات: 192، 193، 194، 195.

حتى رأوه أجمل أسلوب، وأرقى كلام، لا يمكن أن ينزل إلا وحيا من رب السماء، آمن به بعضهم في الوهلة الأولى وفنده آخرون عنادا ومكابرة، كما أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتي محمدا لتعرض لما قاله. قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وما ذا أقول: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر -يأثره عن غيره-"¹، وقد أشار القرآن المجيد إلى هذه الواقعة بقوله: {إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَفَتَلَّ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ فُتِلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُوثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا فَوَلُّ الْبَشَرِ} ². فلما تأثرت نفوس المستمعين بالإصلاح القرآني لبوا نداءه وسلموا لفصاحته، وآمنوا بأحكامه، وطبقوا تشريعاته، على الرغم من الأذى الشديد الذي يجدونه من كبار المعاندين والمكابرين في قريش الذين لم يفتؤوا يرددون: {مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّبْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} ³، لكن التأثير القرآني في الفطرة الإنسانية السوية له وقع آخر في نفوس المخاطبين، كما قررته الآية القرآنية: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْفُرْعَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ⁴. فكانت البداية الأولى من نزول القرآن المجيد خالية من دعوى التحدي والمعارضة، لأن مقصده الأساسي هو الإصلاح والتحديث. والحقيقة الثابتة أن

1 - أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب التفسیر، باب تفسیر سورة المدثر، 2 / 550، الحديث رقم: 3872، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1411 هـ / 1990 م.

2 - سورة المدثر، الآية: 18 - 25.

3 - سورة سبأ، الآية: 43.

4 - سورة الحشر، الآية: 20.

القرآن قد بلغ هذه الغاية الإصلاحية، وجذب العرب إلى الإيمان بدعوته والتصديق بمقتضاه، بما فيه من روعة وقوة بيان " وإيجاز معجز وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصّر، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها"¹.

2 - التحدي والبرهنة على صدق الرسالة القرآنية:

قد وقف معاندو العرب عائقاً أمام الإصلاح القرآني والتغيير الفكري والأخلاقي الذي جاءت به آياته، فلم يبق من سبيل يمهّد لتأسيس الرسالة القرآنية إلا سبيل الإعجاز البلاغي، والتحدي البياني، والقوة الاستدلالية والبرهنة المنطقية على أن القرآن وحي من خالق الكون والإنسان، لا من وضع البشر، خاصة وأن العرب "كانوا من الحمية والأنفة بحيث لا يقبلون مثل هذا التحدي، وأن أسبابهم من حيث الفصاحة والبيان والرغبة لمناهضته كانت كافية لأن يجدوا في القول سعة لو استطاعوا"²، وقد حاول بعض زعمائهم محاكاة النسيج القرآني، فباعت كل محاولاتهم بالفشل، ولم يستطيعوا مجاراة البيان القرآني المعجز، ومن هؤلاء مسيلمة بن حبيب الكذاب، وطلحة بن خويلد الأسدي³، الذي تنبأ زمن النبي صلى الله عليه وسلم وادعى أن له كلمات نزلت عليه. قال الرافعي: "ولم نظفر منها بغير هذه الكلمة رأيناها في معجم البلدان لياقوت، وهي قوله: (إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أديباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإن الرغبة فوق الصريح)"⁴.⁵ لكن غالبية العرب مدركون هذا الإعجاز القرآني فلم يحاولوا مجاراته، رغم أن التحدي البلاغي كان صريحاً في آيات القرآن، كقوله: {أَمْ يَقُولُونَ تَفَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاثُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}⁶، وقد يكون التحدي بمثل القرآن ثقيلًا تعجز عنه النفوس رغم قدرتها عليه، فوقع التحدي الصارخ ببعض سوره، كما في الآية القرآنية: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الْآلِ وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ إِعِدَّتْ

1 - المعجزة الكبرى القرآن، لأبي زهرة، ص: 72، نشر: دار الفكر العربي.

2 - فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، للدكتور: نعيم الحمصي، ص: 24، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 2، 1400 هـ / 1980 م.

3 - كان من أشجع العرب، قدم مع قومه في وفد أسد بن خزيمه على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع فأسلموا، ثم لما رجعوا تنبأ طلحة، وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله، وكان يزعم أن ذا النون يأتيه بالوحي. تنظر ترجمته في: تاريخ الأمم والملوك، للطبري، 2/ 225، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1407 هـ، ومعجم البلدان، لياقوت الحموي، 1/ 408، نشر: دار الفكر، بيروت، وتاريخ ابن خلدون، 2/ 61، نشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان.

4 - أصل هذا التعبير مثل قاله عبيد الله بن زياد لهائى بن عروة المرادي، وهو: "أبدي الصريح عن الرغبة" أي ينكشف الصريح عن الرغبة، والرغبة تعلوه. ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري، 1/ 60 / 61.

5 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 176.

6 - سورة الطور، الآية: 31 - 32.

لِلْكَافِرِينَ¹، فجزم القرآن بأنهم لن يستطيعوا معارضة القرآن مهما حاولوا {فَل لِّسِ
 اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِسُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ
 بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً²، فتميزت بلاغة القرآن المجيد عن
 سائر ما يدبجه فصحاء العرب وبلغاؤهم بالإعجاز والتحدي، حتى إنها قد تجاوزت حدود
 البيان والفصاحة المجردة إلى التأثير في القلوب والنفوس تأثيراً لا يبلغه كلام آخر غير
 القرآن. وفي تقرير هذا المعنى يقول الخطابي رحمه الله: "إن في إعجاز القرآن وجهاً آخر
 ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك: صنيعة بالقلوب وتأثيره في
 النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى
 القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه،
 تستبشر به النفوس وتتشرح له الصدور (...) تقشعر منه الجلود فتتزعج له القلوب (...)
 وقد كانوا يجدون له وقعا في القلوب وقرعا في النفوس، يرببهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن
 يعترفوا نوعاً من الاعتراف"³. فالتحدي البلاغي في القرآن شمل نوعين من الإعجاز، هما:
 الإعجاز في تركيبه وأسلوبه البياني الفذ حتى لم يقدر أحد على معارضته والإتيان بسورة
 من مثله، وإعجازه الذي يجذب القلوب ويؤثر في نفوس السامعين، فكان القرآن المجيد بهذا
 الإعجاز البلاغي قد ملك سر الفصاحة "وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم
 معه، مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء في علم النفس، فاستبد بإرادتهم، وغلب على
 طباعهم، وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافه، حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم
 يجهدون في نقضها، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها"⁴.

فلما وقع التحدي بالإعجاز البلاغي ولم يكن بمقدور أحد من العالمين مجارة
 القرآن المجيد ومعارضته كان ذلك دليلاً قطعياً على صحة الرسالة المحمدية، وبرهانا
 ساطعاً على أن القرآن وحي منزل من الله وحده. ورحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول في
 رده على ابن الراوندي الذي ادعى أن القرآن في مقدور البشر الإتيان بمثله⁵: "وأجمع
 ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله
 عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز. ما حذي على مثال، ولا أشبه
 غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة

1 - سورة البقرة، الآية: 21 - 22.

2 - سورة الإسراء، الآية: 88.

3 - البيان في إعجاز القرآن، للخطابي، ص: 64، و25.

4 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص: 159 - 160.

5 - هو الملحد المشهور، الذي كان معتزلياً ثم تزندق وألحد وادعى أن في القرآن لحناً، وأن إقليدس وبطلميموس أيضاً لا يأتي أحد بمثلهما، واسمه: أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، من أهل مرو الروذ، سكن بغداد، وتوفي سنة: ثمان وتسعين ومائتين (298 هـ). تنتظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، 14/ 61، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 9، 1413 هـ / 1993م، ووفيات الأعيان، لابن خلكن، 1/ 94، تحقيق: إحسان عباس، نشر: دار صادر، بيروت، والبداية والنهاية، لابن كثير، 11/ 127، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1408 هـ / 1988م، ولسان الميزان، لابن حجر، 1/ 323، تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 3، 1406 هـ / 1986م.

العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب... {وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}¹، وإنَّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلمٍ يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشَّهاب المتألَّى في جُنح غسق، والزَّهرة البادية في جُذوبٍ ذاتِ نسق؛ فتبارك الله أحسن الخالقين³.

المطلب الثاني: خصائص الأسلوب البلاغي في القرآن المجيد:

يعتبر الأسلوب مكنن الإعجاز القرآني، والحد الفاصل بين كلام القرآن وغيره من كلام العرب؛ لذلك لن يعرف بلاغة الأسلوب القرآني إلا "من كثر نظره واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب"⁴، لأن القرآن المجيد قد جاء بأسلوب فريد، مخالف لما جرت عليه التعابير العربية التقليدية في ميزاته وخصائصه البلاغية المتعددة، يعود بعضها إلى جمالية الأسلوب وفصاحة الكلمات، وطرق نظمه وتركيبه، ويرجع بعضها الآخر إلى الذوق والوجدان وسحر البيان.

أولاً: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى المفردات والكلمات:

إن أسلوب النقد في القرآن المجيد قد تهيأ له من أعلى درجات الكلام الفاضل أرفعه وأشرفه، فجاءت كافة كلماته ومفرداته جامعة بين البليغ الرصين، والفصيح المبين، حتى بلغ درجة الإعجاز، لما تميز به من القدرة الفائقة على التصرف في لسان العرب على وجه لا يقدر عليه عربي مطبوع "باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب أو لغاتهم"⁵، وقد استعمل القرآن المجيد مفردات مترادفة أو متقاربة في المعنى استعمالاً بلاغياً خاصاً، نبينه في الآتي.

1 - بلاغة التعبير بالمترادف في الأسلوب القرآني:

تضمن القرآن المجيد كلمات كثيرة هي متقاربة ومترادفة في المعنى الأصلي، لكنها في الاستعمال القرآني تكتسب خصوصية لغوية وبلاغية أخرى في دلالتها، غير ما تكتسبه في استعمال الناس عادة، لأنهم لا يحسنون اختيار اللفظ الأليق بحسن الأسلوب ومقام الخطاب، حسبما أشار إليه الجاحظ بقوله: "وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون (السغب)

1 - سورة الحشر، الآية: 21.

2 - الجدوب: صفة لأرض مجدية لا تكاد تخصب. ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 84، مادة (جدب)، ولسان العرب، لابن منظور، 254 / 1، مادة: جدب.

3 - رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، ص: 158 - 159، تصحيح: إبراهيم اليازجي، ط 1، 1325 هـ / 1907 م.

4 - تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص: 17، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

5 - المعجزة الكبرى القرآن، لأبي زهرة، ص: 92.

ويذكرون (الجوع) في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر (المطر) لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر (المطر) وذكر (الغيث)، ولفظ القرآن الذي عليه نزل: أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل: الأسماك، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال¹. فكان الأسلوب القرآني متميزا عن غيره في استعمال الألفاظ المترادفة لعلو فصاحته، وكمال دلالاته، ودقة بيانه. ولو تتبعنا مترادفات القرآن لوجدناها كلها تتحو هذا المنحى، غير أن البحث لم يوضع لهذا الغرض.

2 - بلاغة الأسلوب القرآني في التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة

تميز الأسلوب النقدي في القرآن بتكرار بعض المعاني والأحكام والقصص، وتعدد المفردات التي تصور الخبر الواحد بعبارات متعددة مع فصاحتها وائتلافها وعدم تناقضها واختلافها {إِلَّاهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَفُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ إِلَهِ²}، فتزد المعاني متكررة، وتختلف طرق الأداء والأساليب رغم أن أصل المعنى واحد في العبارات المختلفة. وفائدة هذا التكرار المعنوي مع اختلاف العبارات: هو إبراز البلاغة القرآنية وتميز أسلوبه عن غيره، وقد اعتبر الشيخ محمد رشيد رضا هذا الاختصاص القرآني من أوجه التحدي والإعجاز فيه، فقال: "ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وإزالة شهة تخطر بالبال (...).، كأنه يقول: أتحداكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة من حيث موضوعها، فإن جئتم به في مثل سوره القصصية في سائر مزاياها، فأنا أعترف لكم بدحض حجتي عليكم"³. وإلى هذا الأسلوب الإعجازي نفسه أشار الزركشي رحمه الله بقوله: "إنما كرر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقا واحدا، إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص"⁴.

1 - البيان والتبيين، للجاحظ، ص: 26، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، نشر: دار صعب - بيروت، ط 1، 1968م.

2 - سورة الزمر، الآية: 21.

3 - تفسير المنار، 1/ 162.

4 - البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 3/ 29 - 30، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391 هـ.

ثانيا: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى الجمل والتراكيب: (النظم القرآني)

يَعْتَبِرُ بعض علماء البلاغة كالإمام عبد القاهر الجرجاني¹، أن ميدان البلاغة القرآنية إنما هو النظم أو التراكيب والجمل، أما الألفاظ والحروف فليس لها أي أثر في كون الكلام بليغا أو غير بليغ و"إنما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم. وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده، إنما تساوق المعاني، وتلاقي الألفاظ وتأخيها في تكوين هذا المعنى المؤثر"². وعليه فإن النظر هنا ينبغي أن يتجه إلى حسن السبك في النظم القرآني والتناسب بين فواصله وآياته، وما تختص به دلالاته ومعانيه.

1 - جودة السبك وحسن التأليف والتناسب بين كلمات القرآن وفواصله:

إن التأليف القرآني بجمله وفواصله في غاية من التناسق والتناغم، ودقة من الفصاحة والبيان، حتى اعتبر علماء البيان حسن تأليفه ونظمه التركيبي وجها من وجوه إعجازه. والمراد بحسن التأليف هنا: وجود التناسق والتناغم في الكلمات وانعدام النفرة في مخارجها، بحيث لا تبدو واحدة منها بنطق غير مؤتلف مع نطق تابعتها³. وبإمكان أي باحث في بلاغة القرآن المجيد -من النظرة الأولى في علاقة الكلمة بالكلمة وملاءمة الجملة للآخرى- أن يدرك حسن تأليفها وبلاغة تركيبها. وقد عد الباقلائي وغيره من علماء الإسلام المهتمين بالإعجاز القرآني حسن التأليف وجها من وجوه إعجازه البياني، به تميز القرآن في الفصاحة عن غيره، فقال: "إن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع (...). كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه"⁴. ويدرك هذا السبك الحسن والتأليف البديع بين جمل القرآن ومفرداته وآياته بإبراز المناسبات والعلاقات التي تربط بين الجمل والآيات والسور، وقد ألف علماء الإسلام مؤلفات عدة في هذا المجال⁵، حتى كتبوا في بيان التناسب بين اللفظ والمعنى، وتناسب الحروف في الكلمة الواحدة، والتناسب في تضعيف الكلمة أو الزيادة فيها، والتناسب في التعبير بالاسم أو الفعل، والتناسب بين الآية والآية، وبين السورة والأخرى، وهو ما لخصه الشهيد سيد قطب بقوله: "ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش

1 - ينظر كتابه "دلائل الإعجاز" ص: 52 - 53، تحقيق: د. محمد التتجي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1995م.
2 - المعجزة الكبرى: القرآن، لأبي زهرة، ص: 102.
3 - ينظر: إعجاز القرآن، للباقلاني، ص: 184، والمعجزة الكبرى، لأبي زهرة، ص: 134.
4 - إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلائي، 1/ 42 - 43، تحقيق: السيد أحمد صقر، نشر: دار المعارف - القاهرة.
5 - ويعتبر ابن الأثير أبرز من تطرق لهذا الموضوع في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" 2/ 186 وما بعدها، ثم جاء البقاعي فألف كتابا مستقلا في الموضوع، سماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". وقد كان كثير من المفسرين يشيرون لهذه المناسبات، كالزمخشري، وابن عاشور، وغيرهما.

معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص بظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو"¹.

2 - المرونة في التأويل مع تعدد الدلالات:

إن الأسلوب القرآني متميز بتعدد معانيه، ووفرة دلالاته، مع مرونة في تفسيره ومطاوعة في تأويله، حيث ترد الجملة القرآنية فتحتمل معاني متعددة، لا يصادم أي منها الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور "فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التي كانت مغيبة وفي علم الله ما يكون من بعد"². ونماذج هذه الميزة القرآنية كثيرة، منها -على سبيل المثال- قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَافاً ۖ

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} ³، فهذه الآية سمعها سائر العالمين، فبعضهم -من المتقدمين- فهم من سياقها أن القمر نور والشمس نور، وإنما اختلف اللفظان للمجاز وبلاغة التنويع⁴، وفهم الآخرون أن القمر أضعف نورا من الشمس، لأن الشمس عبر عنها بالسراج، وهو أشد وهجا واتقادا من النور⁵، ثم يفهم المحدثون -بعد تطور العلوم- أن المراد إثبات ما كشفتته العلوم من أن القمر جرم سماوي مظلم، وضوءه انعكاسي يستمد من نور الشمس التي هي سراجة؛ إذ النور لا يكون من ذات نفسه، وإنما ينبعث من مصدر آخر غيره⁶.

ثالثا: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى الذوق والوجدان:

يتميز الأسلوب القرآني عن غيره بكونه أسلوبا خطابيا يتجاوز لغة العقل إلى لغة الوجدان والأحاسيس، ولهذا يرجع تقدير الذوق في الأسلوب والدقة البيانية في الخطاب إلى الإحساس الوجداني وحده، خاصة لدى أولئك العرب المطبوعين الذين رأوا القرآن الكريم وكأنه قد جمع "في أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النفس إليه، فقد أحسوا بعجزهم عما امتنع مما قبله، وكان كل امرئ منهم كأنما يحمل في

1 - في ظلال القرآن، لسيد قطب، 28 / 1.

2 - إعجاز القرآن، للرافعي، ص: 207.

3 - سورة نوح، الآية: 15 - 16.

4 - ينظر: تفسير الطبري، 23، 637.

5 - وهو اختيار الفخر الرازي، كما في تفسيره، 30، 654، والزمخشري في الكشاف، 4 / 618.

6 - ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، 29 / 204، والبحر المديد، لابن عجيبة، 7 / 147، وتفسير الألوسي، 15 / 83.

قرارة نفسه برهان الإعجاز، وإن حمل كل إفك وزور على طرف لسانه"¹، فقد تضمن القرآن المجيد هذا النوع من الذوق المعجز الذي جعل المستعربين والمولدين يدركون إعجازه ويتذوقون جماله، وجعل متدبر القرآن ومتذوق معانيه لا يكل ولا يمل مهما أعاد القراءة وكررها، غير أن هذا البيان الوجداني تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه من "كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مُبلِّغه أعلى مقاما في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه"². ويعتبر الخطابي من أوائل من أشار إلى هذا الإعجاز في الأسلوب القرآني، فبينه بقوله: "قلت في إعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس³، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنتشر له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب⁴ والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتترعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا (...). ومصدق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْفُرْعَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} ⁵؛ لأن القرآن يخاطب الذوق والوجدان البشري والإحساس الإنساني الفني، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثم لا يُدل عليها حين التعرف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأن هذه الروح تحاول أن تفصح عن معاني النبوغ الفني في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تهيج الإحساس بها في كل نفس، فيجزئ ذلك في البيان عنها؛ لأن الإحساس إنما هو اللغة النفسية الكاملة⁷، ذلك لأن لغة الذوق والوجدان لا يؤثر عليها تقلب الزمان والمكان، وتغير الأحوال وتطورها أو تخلفها، فهي أديم خلودا وأشد تأثيرا من لغة العقل والجدل، أو الخبر الذي قد تقرؤه مرة ثم لا

1 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص: 191 - 192.

2 - تاريخ ابن خلدون، المقدمة، 1/ 762.

3 - أي أنهم غفلوا عنه ولم يذكروه.

- الوجيب: صوف خفقان القلب، وهو مبدل أصله الوجيف. ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 6/ 90، ولسان العرب، لابن منظور، 4/ 81، مادة: وجب.⁴

5 - سورة الحشر، الآية: 21.

6 - بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص: 71، مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" تحقيق وتعليق: محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام، نشر: دار المعارف، مصر، ط 3، 1976م.

7 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص: 209.

ترغب في تكراره، بينما يبقى الخطاب الوجداني مؤثراً في نفوس السامعين، مهما تقادم العهد وتغير الزمان والمكان؛ لبهائه المعتاد وجماله الأخاذ وحسن وقعه في الوجدان الإنساني، فكان هذا دليل إعجاز لكتاب الله المجيد الذي استولى على الذوق والوجدان الإنساني الذي يقدر جمال البيان حق قدره. وقد سجل القرآن حيرة المعاندين أمام بلاغة الأسلوب القرآني وتأثيره الوجداني، فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْفُرْعَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}¹.

من خلال هذه النظرة الموجزة التي ألقيناها على خصائص الأسلوب القرآني، ندرك أن سر هذا الإعجاز القرآني راجع إلى مصدره الرباني، فليس من وضع الإنسان البتة؛ إذ لو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد²، ولاختلفت أساليبه وتناقضت دلالاته ومعانيه {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا}³؛ ولهذا خضعت لسلطته البيانية وسطوته البلاغية -التي تؤثر في الوجدان بقدر ما تؤثر في العقول- أساطين الفصاحة والبيان على مر الدهور.

المطلب الثالث: قضايا ونماذج من البلاغة القرآنية

يعتبر القرآن المجيد كتاباً جامعاً للبلاغة العربية وأسرارها، فما من فن من فنون البلاغة إلا وله استعمالات بديعة في القرآن، وما من ضرب من ضروب الفصاحة والبيان إلا وقدمه القرآن في أبهى حله، وأرقى دلالاته ومعانيه، حتى فُتن به جميع المهتمين بالبلاغة العربية، وانبهروا بروعته ودقة أسلوبه، وجمال بيانه، فوقفوا يتأملون دقائقه البلاغية ونكته البيانية، ويدرسون نواذر استعمالاته في فنون القول والخطاب، حتى صار القرآن المجيد مصدر البلاغة العربية، وأساس المادة الفنية والبيانية التي يتداولها الدارسون لعلوم البلاغة، أمثال: الإمام عبد القاهر الجرجاني، والنظام، والزمخشري، والجاحظ، والسكاكي، وغيرهم من علماء الفن والذوق المفتونين بالبيان القرآني، والمهتمين بدراسة أساليبه واستخراج كنوزه في النظم، وحسن السبك في صياغة الألفاظ وتركيب المعاني، فاستخلصوا منه أساليب بلاغية متعددة، وفنونا خطابية متنوعة، أقتصر فيها على إيراد قضايا من الإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والتشبيه، والمجاز، والكناية، باعتبارها نماذج من بلاغة القرآن وإعجازه الذي له صلة مباشرة بموضوع النقد والإصلاح.

1 - سورة فصلت، الآية: 25.

2 - إعجاز القرآن، للرافعي، ص: 203.

3 - سورة النساء، الآية: 81.

أولاً: الإيجاز والإطناب في القرآن المجيد:

من أوسع أبواب البلاغة العربية التي تهتم بدراسة الأساليب وبيان مكانتها البيانية وقيمتها الخطابية ودقتها في إيصال المعاني إلى المخاطبين، باب الإيجاز: الذي يراد به "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، إذ المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة"¹، وباب الإطناب: الذي يعبر عنه بأداء المقصود من الكلام بألفاظ كثيرة لا حشو فيها². وهما أعظم أنواع البلاغة، حتى قالوا: "البلاغة هي الإيجاز والإطناب"³، وكلاهما أسلوبان بلاغيان من علم المعاني، قد ورد استعمالهما في القرآن على وجه من الإعجاز البلاغي، كما سنتبينه في النماذج الآتية.

1 - نماذج من الإيجاز القرآني:

إن الإيجاز البلاغي يتحقق إما بالقصر⁴ - وهو الوجيز بلفظه، حيث يتم فيه تكثير المعنى بتقليل اللفظ⁵ - أو بحذف ما يستغنى عنه من الكلام مما دلت عليه القرائن، دون أن يتأثر المعنى بحذفها، بل يكون الحذف دالاً على فائدة بلاغية لا توجد في حالة ذكر المخدوف⁶.

أ - أمثلة من الإيجاز بالحذف في القرآن:

الإيجاز بالحذف في القرآن إما أن يقع بحذف كلمة واحدة، وهو كثير في القرآن، كما في قوله تعالى: {وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}⁷ والمراد سؤال أهلها؛ إذ لا يصح عقلاً إسناد السؤال إلى القرية⁸، وقوله: {قَفُلْنَا بِضَرْبِ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ} فَاَنْبَجَرَتْ مِنْهُ إِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا⁹، فإن الآية فيها إيجاز بحذف كلمة (فضرِب) من الجملة، وتقدير الكلام: فضرِب فانفجرت، وإنما اكتفى بذكر المسبب -الذي هو الانفجار- عن السبب الذي هو الضرب¹⁰، ومنه حذف جواب القسم كما في قوله: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْفًا} وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}.

- 1 - النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ص: 76، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
- 2 - ينظر: مفتاح العلوم، للسكاكي، ص: 388، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000م، والمعجزة الكبرى: القرآن، ص: 328.
- 3 - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 2/ 144.
- 4 - ووجه بلاغته وإعجازه: أنه يدل على التمكن في الفصاحة وأساليب البيان، كما ذكره الزركشي في البرهان، 3/ 221.
- 5 - ينظر: دلائل الإعجاز، للرجاني، ص: 222، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي 2/ 146، وعرفه الزركشي بقوله: "الوجيز باللفظ: أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة" البرهان في علوم القرآن، 3/ 221.
- 6 - ينظر: بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص: 52، وإعجاز القرآن، للباقلاني، ص: 262.
- 7 - سورة يوسف، من الآية: 82.
- 8 - ينظر: البرهان، للزركشي، 2/ 110، 3/ 108، والمثل السائر، 1/ 77.
- 9 - سورة البقرة، الآية: 59.
- 10 - المثل السائر، لابن الأثير، 2/ 81.

فَالسَّيْفَتِ سَبْفًا ﴿٤﴾ فَاَلْمَدَبَرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾¹، فإن الجواب محذوف يدل عليه سياق الآية، وهو "لتبعثن، أو لتحشرن، أو لتحاسبن"²، أو بحذف جملة بأكملها، كما في الآية القرآنية: {وَلَوْ أَنَّ فُرْعَانَ سِيرَتْ بِهِ إِلْجِبَالٌ أَوْ فُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} ³، فحذفت جملة جواب الشرط، وتقديرها: "لكان هذا القرآن"⁴، فالحذف في مثل هذه المواطن أبلغ من الذكر؛ "لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب، ولو ذكر الجواب لكان مقصورا على الوجه الذي تناوله الذكر"⁵. ومن ذلك: قوله: {فَإِذَا فَرَأْتَ الْفُرْعَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} ⁶، فالمراد: إذا أردت قراءة القرآن، فاكتفى بذلك بذكر المسبب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الإرادة والإقبال على التلاوة "والدليل على ذلك: أن الاستعاذة قبل القراءة، والذي دلت عليه أنها بعد القراءة، كقول القائل: إذا ضربت زيدا فاجلس، فإن الجلوس إنما يكون بعد الضرب لا قبله، وهذا أولى من تأويل من ذهب إلى أنه أراد: فإذا تعودت فاقراً، فإن ذلك قلب لا ضرورة تدعو إليه، وأيضاً فليس كل مستعيز واجبة عليه القراءة، وعلى هذا ورد قوله تعالى: {إِذَا فُتِنْتُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ} ⁷، والوضوء إنما يكون قبل الصلاة (..) وتأويل الآية: إذا أردت القيام إلى الصلاة فاغسل، فاكتفى بذكر المسبب عن السبب"⁸.

ب - أمثلة من الإيجاز بالقصر في القرآن:

يختلف الإيجاز بالقصر عن الإيجاز بالحذف في أن معناه كثير يزيد على لفظه دون حاجة إلى تقدير محذوف، فهو عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجملة بنفسه⁹، فلا يحتاج في الإيجاز بالقصر إذن إلى حذف كلمة أو جملة من الكلام، وإنما يتم فيه انتقاء جوامع الكلم التي لا يمكن تعويضها بأية جملة أو كلمات أخرى؛ لدقته في الاختصار وبلاغة الإيجاز، "فلا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها، لا، بل يستحيل ذلك"¹⁰. ومن هذا الإيجاز في الإعجاز القرآني: قوله تعالى: {وَلَفَدَ أَوْحَيْنَا

- 1 - سورة النازعات، الآية: 1 - 8.
- 2 - ينظر: المثل السائر لابن الأثير، 99 / 2، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي، 192 / 3، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 172 / 2.
- 3 - سورة الرعد، الآية: 32.
- 4 - ينظر: بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص: 52، وإعجاز القرآن، للباقلاني، ص: 262.
- 5 - بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص: 52.
- 6 - سورة النحل، الآية: 98.
- 7 - سورة المائدة، جزء من الآية: 7.
- 8 - المثل السائر، لابن الأثير، 80 / 2.
- 9 - ابرهان، للزركشي، 102 / 3.
- 10 - المثل السائر، لابن الأثير، 107 / 2.

إِلَى مُوسَىٰ أَرِ بِعِبَادِي قَاضِرٌ لَّهُمْ طَرِيفًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَلْفَ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٦﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ¹. فَإِنْ قَوْلُهُ: {فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} من الإيجاز المعجز، و "من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله، ولا يحيط به غيره"². ومنه قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْلَمُوا³، فَإِنَّ اسْتِقَامَةَ كَلِمَةِ جَامِعَةِ لِمَعَانٍ عَدِيدَةٍ تَفْصَحُ عَنِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا فِي الْإِثْمَارِ وَالْإِنْجَارِ، وَذَلِكَ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَطَاعَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مِائَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ سَرَقَ حَبَّةً وَاحِدَةً خَرَجَ بِسَرْقَتِهَا عَنْ حُدِّ اسْتِقَامَةٍ"⁴. ومن الإعجاز بالقصر في القرآن ما جاء في آية القصاص من قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَوةٌ⁵، فَإِنَّهَا جُمْلَةٌ مُخْتَصِرَةٌ لَا حَذْفَ فِيهَا، لَكِنَّا ذَاتَ مَعْنَى كَبِيرٍ يَزِيدُ عَلَى أَلْفَظِهَا، لِأَنَّ الْمُرَادَ: "أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مَتَى قَتَلَ قَتْلًا كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُ، قُوِيًا إِلَى أَنْ يَقْدُمَ عَلَى الْقَتْلِ، فَارْتَفَعَ بِالْقَتْلِ - الْقَصَاصُ - كَثِيرٌ مِنْ قَتْلِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَكَانَ فِي ارْتِفَاعِ الْقَتْلِ حَيَاةٌ لَهُمْ"⁶. وقد ترجمه بعض بلغاء العرب قبل نزول القرآن، فقال: "القتل أنفى للقتل"⁷، لكن البلاغة القرآنية قد أذهبت كل ما فيه من الاختصار المخل، وجاءت بألفاظ أقل ومعاني أكبر، منها: "إبانة العدل بذكر القصاص، والإفصاح عن الغرض المطلوب من الحياة، والحث بالرغبة والرغبة على تنفيذ حكم الله به، والجمع بين ذكر القصاص والحياة، والبعد عن التكرير الذي يشق على النفس، فإن قوله: القتل أنفى للقتل تكرير غيره أبلغ منه"⁸. قد بين هذا المعنى أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه "الصناعتين" بعبارة أبين، فقال: "فالقصر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني، وهو قول الله عز وجل: {وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَوةٌ⁹، ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل. فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرغبة لحكم الله به وإيجازه في العبارة. فإن الذي هو

1 - سورة طه، الآية: 76 - 77.

2 - المثل السائر، 2 / 115.

3 - سورة فصلت، الآية: 29.

4 - الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص: 10، نشر: المطبعة الميمونية، مصر، ط 1، 1897م.

5 - سورة البقرة، من الآية: 178.

6 - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص: 184.

7 - هكذا أورده الإمام الثعالبي في الإعجاز والإيجاز، ص، 13، وأبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين، ص: 178، وغيرهما من الأدباء والمفسرين.

8 - الإعجاز والإيجاز، لأبي منوصر الثعالبي، ص: 13.

9 - سورة البقرة، من الآية: 178.

نظير قولهم: "القتلُ أنفى للقتل" إنما هو {إِلْفِصَاصِ حَيَوَةٍ} وهذا أقلّ حروفاً من ذاك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن برئ من ذلك، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحسّ، لأنّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة¹.

2 - نماذج من بلاغة الإطناب في القرآن:

إذا كانت بعض مقامات الخطاب تقتضي القصر والإيجاز في الألفاظ، فإن بعض السياقات تستلزم الإطناب²، وتكافؤ المعاني والألفاظ، حيث تصاغ الألفاظ على قدر معانيها، دون أن يستغنى فيها بلزوم عن ملزوم، أو بملزوم عن لازم، ولا بخاص عن عام، ولا بالإشارة عن العبارة، فيكون إطناباً لا حشو في كلماته ولا زيادة في ألفاظه إلا لفائدة لا يمكن حصولها دون تلك الزيادة³، كما يقتضيه سياق المدح، ومقام تبين الأحكام الشرعية، وتفصيل الأخبار وبسط المعاني في آيات القرآن المجيد.

وأمثلة هذا الأسلوب البلاغي كثيرة في القرآن، خاصة في المقامات التي تستوجب الإطناب، كالقصص، ومجادلة أهل الكتاب، وبسط معاني الخلق الإنساني والكوني، وآيات الأحكام العقدية والشرعية الموضوعة للبيان، كما نجده في آيات تحريم الخمر والميسر {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (.. إلى قوله:) فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ⁴، والآيات الواردة في أحكام الطلاق من قوله: {يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّفُوهُنَّ لِعِذَّتِهِنَّ وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ} (...). وَإِنْ كُنَّ ائُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْبِفُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ⁵، فقد أتى بألفاظ دالة على قدر المعاني المراد بيانها دون تطويل ممل ولا

1 - الصناعتين، لأبي هلال العسكري، س: 178، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ.

2 - الإطناب في اللغة: مشتق من (طنب) وهو أصل صحيح يدل على ثبات الشيء وتمكنه في استطالة، فهو يفيد معنى الطول والإطالة، ثم أطلقت على البلاغة في المنطق في مدح أو ذم. ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 3/ 333، وكتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، 438/ 7، مادة (طنب)، تحقيق: د. مهدي المخزومي - د. إبراهيم السامرائي، نشر: دار ومكتبة الهلال.

3 - لأن بعض البلاغيين قد عرفوا الإطناب بأنه: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة". ينظر: المثل السائر، لابن الأثير، 2/ 120، والتلخيص في علوم البلغة، للقزويني، ص: 209 - 210، والبلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص: 229، وهو تعريف أمر غير سليم، لأن اللفظ الذي يفيد معنى أو فائدة مستقلة لا يسمى زائداً.

4 - سورة المائدة، الآية: 92 - 93.

5 - سورة الطلاق، من الآية 1 إلى الآية: 6.

إيجاز مخل مقل؛ لأنه في سياق التعرض لبيان ما يكلف الله به عباده "ولا بد أن يكون ذلك واضحاً للمكلف كل الوضوح، حتى لا يكون في ذلك موضع إبهام تكون فيه معذرة للمكلف، بل إنه بيان الله تعالى الشامل الذي لا إبهام فيه، ولا مظنة لإبهام"¹، ونجد مثل هذا الإطناب في قوله: {لَا يَسْتَدِينُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}  إِنَّمَا يَسْتَدِينُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} ²، فإن ذكر إحدى الجملتين ربما أغنى عن الأخرى، لكن هذا الإطناب وبسط المعاني دل على أن الجملة الأولى لا يمكن أن يكتفى بها عن الأخرى، ومن هذه المعاني التي أفادتها: أن هذه الآية جاءت بيانية لقوله تعالى قبل هذه الآية: {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} ³، فكان ما بعدها بيانا لحال الفريقين. ومنها: التعليل، ففي الآية الأولى تعليل لما صدر عنهم من الإيمان، وأن عدم استئذان المؤمنين في التخلف إنما كان بسبب التقوى، وأما الآية الثانية فقد عللت "استئذان المنافقين" بأن ذلك راجع إلى شكهم وحيرتهم في هذا الدين. ومما تفيدته الثانية: أن التعبير بالماضي في قوله: {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} يفيد قِدَمَ ذلك الارتياب ورسوخه، وأنه ليس ارتياباً حادثاً في هذه الغزوة فقط، ففي هذا الخطاب القرآن إطناب، لغرض التنويه⁴.

ومن المواطن التي تقتضي الإطناب: القصص بهدف تفصيل الأخبار وبسط المعاني، كما نلاحظه في قوله تعالى: {فَالَوْ أَن يَمُوسَىٰ إِيمَانًا أَن تُلْفَىٰ وَإِنَّمَا أَن نَّكُونَ نَحْرُ الْمُلْكِ} ⁵، فقد كان يكفيهم أن يقولوا: "إما أن تلقى وإما أن تُلقى"؛ لكن مجيء الآية بهذا الإطناب يفيد معنى زائداً على مجرد التخيير في الإلقاء، وهو: الإخبار عن قوة أنفس السحرة "واستطالتهم عند أنفسهم على موسى، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منه في إسنادهم الفعل إليه"⁶.

1 - المعجزة الكبرى، لأبي زهرة، ص: 335.

2 - سورة الأنفال، الآية: 44 - 45.

3 - سورة الأنفال، الآية: 43.

4 - ينظر: المثل السائر، لابن الأثير، 2/ 126، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، 10/ 212.

5 - سورة الأعراف، الآية: 114.

6 - ينظر: البرهان في علوم القرآن، 2/ 412، والإتقان في علوم القرآن، 2/ 327.

ثانيا: أسلوب الفصل والوصل في البلاغة القرآنية:

من أعلى أساليب البيان ومقامات الخطاب في اللسان العربي: أسلوب الفصل¹ الذي يراد به: قطع معنى عن معنى آخر بواسطة أدوات الفصل²؛ لغرض بلاغي ونكتة بيانية، وأسلوب الوصل³ الذي يعني: ربط معنى بمعنى آخر بواسطة أدوات الربط⁴ المعروفة؛ لأغراض بلاغية ونكت بيانية⁵. قال الجرجاني في دلائل الإعجاز مبينا مكانة هذا الأسلوب البلاغي في الكلام العربي: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، وما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص وإلا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم فيها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم⁶ أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل"⁷؛ ولهذا نجد القرآن المجيد تارة يفصل بين المعاني والفواصل، وتارة يربط بينها، وأحيانا أخرى يزوج بين الأسلوبين، فيفصل ويفصل بين المعنيين في موضوع واحد، مراعاة لمقتضيات المقام، وثقة بفهم السامع للخطاب، حتى يحقق بمنهجه النقدي الغايات التي يسمو إليها؛ ذلك لأن أسلوب الفصل والوصل يهدف على الدوام إلى إثارة العقل الإنساني المخاطب بمختلف درجات استيعابه وإدراكه.

أ - بلاغة الفصل في القرآن المجيد

يلاحظ الباحث في الأساليب القرآنية، أن القرآن المجيد يفصل في المواطن التي يكون فيها الفصل أبلغ من الوصل، كما في المجالات التي ترد على سبيل الاستقلال البياني، فلا يحتاج فيها إلى ذكر لفظ يدل على الربط. ومثال ذلك: آية الكرسي {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٥٢﴾ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَسْ ذَا الْأَيْمِ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٤﴾ لَا

- 1 - الفصل في اللغة، هو: القطع، والتمييز بين شيئين بوضع حاجز بين جملتين أو معنيين، وهو ضد الوصل. ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 403 / 4، مادة (فصل)، وكتاب العين، 126 / 7، كتاب الصاد، باب الصاد واللام والفاء معهما.
- 2 - أدوات القطع والفصل هي: إسقاط واو الربط من الجمل، أو الإتيان بواو الاستئناف، و "أم" وبل الإضرابية، والاستثناء المنقطع، وضمائر الفصل، والجملة الاعتراضية.
- 3 - الوصل في اللغة: هو الربط وضم الشيء إلى الشيء. ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، 87 / 6، مادة (وصل).
- 4 - وهي: كل أداة تصل بين المفردات والجمل ليستقيم المعنى، وفي مقدمتها: حروف العطف.
- 5 - ينظر: البلاغة الواضحة، لعلي الحارم ومصطفى أمين، ص: 252، والبلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن الميداني، ص: 436.
- 6 - روى الإمام أبو هلال العسكري هذا عن الفارسي، في كتابه "الصناعتين" ص: 132.
- 7 - دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص: 174.

إِكْرَاهٍ فِي الدِّينِ فَدَتَّبَيَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ¹، فهي بمثابة جسم واحد، إذا دخلها حرف وصل كان غريبا شاذًا، فأية الكرسي هذه قد رتبت فيها الفواصل من غير حرف عطف، لأن ما من جملة فيه إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه². وكذلك الأمر في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} ³، فإنها فواصل مستقلة مفصولة، لا تحتاج رابطا يربط بينها "وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم حتى جيء بها متتاسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متأخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة"⁴. وكذلك الأمر في الجمل الاعتراضية التي يراد بها تنبيه المخاطبين إلى معنى آخر مستقل، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ فَالَوْ أَنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ} ⁵، فإن جملة {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} اعتراضية مفصولة عن سابقتها، والمراد بها: تعليم المسلمين ذلك، أو الجواب على دعوى المشركين، فجعل الجواب اعتراضاً⁶، فائدته: أن ذلك من الله وليس من الرسول محمد، وأنه أعلم بذلك منهم⁷.

ب - بلاغة الوصل في القرآن المجيد

يهدف أسلوب الوصل إلى الربط بين عناصر متعددة بين نفس الموضوع، أو بينه وبين ما يشبهه في المضمون والهدف، كما نجده كثيرا في القصص القرآني، ومن ذلك: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} ⁸ إلى قوله {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} ⁹، عطا على قصة الذين كفروا، في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ

1 - سورة البقرة، الآية: 154 - 255.

2 - الكشف، للزمخشري، 1 / 302.

3 - سورة البقرة، الآية: 1 - 2.

4 - الكشف، 1 / 37.

5 - سورة النحل، الآية: 101.

6 - ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، 14 / 283، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي، 3 / 59.

7 - المثل السائر لابن الأثير، 2 / 174.

8 - سورة البقرة، الآية: 7 - 8 - 9.

9 - سورة البقرة، الآية: 19.

لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ¹، فإن "قصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة"²، لأن المنافقين جناء يظهرون غير ما يبطنون فلا يناسبهم في المقام إلا أن يعطفوا بقصتهم على قصة الكفار وتصير القستان قصة طويلة لها جزآن³. وقد يجد الباحث بعض آيات القرآن موصولة بأكثر من رابط؛ لاختلاف القصد في الموضعين، كما في قوله تعالى في سورة الأنعام: {فَلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}⁴. يقول الزمخشري في بيان هذا الوصل المعجز: "جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: {ثُمَّ أَنْظَرُوا} فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ثم انظروا ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله (ثُمَّ أَنْظَرُوا) فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ {ثُمَّ} لتباعد ما بين الواجب والمباح"⁵.

ج - الجمع بين الفصل والوصل في موضوع واحد:

قد ترد في القرآن المجيد آية موصولة في موضع ومفصولة في موضع آخر، بغرض التفسير وزيادة البيان وتثبيت المعنى في نفوس المخاطبين، كما نلاحظه في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا}⁶، ثم تمضي ثلاثون آية وتأتي نفس الجملة وهي مفصولة دون واو الوصل: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ}⁷. وقد وضح الزمخشري فائدة الفصل والوصل في الموضعين من سورة الحج وسرهما البياني بقوله: "لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر المناسك، فعطفت على أخواتها، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً"⁸.

1 - سورة البقرة، الآية: 5 - 6.

2 - الكشف، 54 / 1.

3 - الفصل والوصل في القرآن الكريم، لمنير سلطان، ص: 131، نشر: منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 2.

4 - سورة الأنعام، الآية: 12.

5 - الكشف، 8 / 2.

6 - سورة الحج، جزء من الآية: 32.

7 - سورة الحج، الآية: 65.

8 - الكشف، للزمخشري، 3 / 169.

ثالثاً: المجاز والكناية في القرآن المجيد

من أركان البلاغة العربية وأعمدها البيانية: الكناية، والتشبيه البلاغي بمجازه واستعاراته؛ ذلك لأن الكلام -على الجملة- إما أن يكون قد أريد به الحقيقة إذا استعملت ألفاظه فيما وضعت له في اللسان العربي، أو يكون المراد غير حقيقته اللغوية، فيكون حينئذ إما كناية، أو مجازاً، أو استعارة على سبيل التشبيه. ولأن القرآن المجيد خبير بأسرار العربية وخباياها البيانية، فإنه يستعمل الحقيقة المجردة في سياقها وموضعها، ويعبر بالكناية أوالمجاز والتشبيه إذا كانت بلاغة السياق ومقام الخطاب تقتضي ذلك.

1 - نماذج من بلاغة المجاز في القرآن المجيد:

المجاز ضد الحقيقة، فهو استعمال اللفظ في غير معناه الذي وضع له، لعلاقة بينهما وقرينة تصرفه عن إرادة معناه الأصلي¹؛ ولا يخفى ما فيه من نقل المخاطب من مقام إلى آخر، قد يكون أعلى فصاحة وبيانا إذا كان المقام مناسباً للمجاز، وقد يكون غير بليغ إذا كان متكلفاً متصنعاً لا يناسب السياق؛ ومن أجل هذا كان القرآن المجيد أبلغ كلام وأفصح، لأنه يراعي مقامات الخطاب في كافة أساليبه، حقيقة كانت أو مجازاً. ومن مجاز القرآن المجيد: قوله: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا}²، فإن القرينة لا تسمح بحمل الآية على ظاهرها وحقيقتها اللغوية -وهي عمى العين- فتعين أن يحمل لفظ العمى على المجاز؛ حتى يتناسب مع لفظ "الضلال"، فهو مجاز استعارة، حيث شبه فيه الكفر والضلال بالعمى، بجامع الحيرة والاضطراب وفساد الحاسة العقلية وعدم إِبصار الحجة في كل منهما³. ومن المجاز القرآني قوله: {ذُوِ النَّكَ أَنْتَ الْغَزِيْرُ الْكَرِيْمُ}⁴، فهو مجاز استعارة، حيب عبر بالذوق عن الإحساس في سياق التهكم والسخرية والإستهزاء، والمراد عكس ذلك، فقد شبه الإحساس المليم بذوق الطعم الكريه، بجامع البشاعة في كل منهما، ومثل هذا قول الله تعالى: {بَأْذَانَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}⁵، ففي هذا النص القرآني المعجز مجاز استعارة يبلغ أعلى درجات السمو البياني، لما فيه من إضافة اللباس إلى الجوع، حيث شبه الجوع القائم المستفحل، والخوف الذي يفرع النفوس وييسبب الاضطراب باللباس السابغ؛ لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله، وكذلك الجوع إذا عمّ،

1 - ينظر: الخصائص، لابن جني، 2/ 442، ومفتاح العلوم، للسكاكي، ص: 170، وأسرار البلاغة، للجرجاني، ص: 325.

2 - سورة الإسراء، الآية: 72.

3 - ينظر: الكشف، للزمخشري، 2/ 683، والتحرير والتنوير، 15/ 170.

4 - سورة الدخان، الآية: 46.

5 - سورة النحل، الآية: 112.

والخوف إذا طمّ، فإنه لا يبقى في الجماعة أحدًا لم ينله، فكان التعبير عن هذه الحالة باللباس، بجامع الملابس والإحاطة والتمكن¹، فإن اللباس يلتصق بالجسم ويلزمه ولا يفارقه، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف، وفي ذلك تصوير بديع لحال الأمة إذا عمّها البؤس والشقاء وداهمها خوف من كل جانب. فقد استعير اللباس للجوع، ثم قرن بما يلائم المستعار له من الإذاقة، على وجه الاستعارة التجريدية؛ ولم يقل: "فكساها"؛ لما في لفظ الإذاقة من المبالغة في الألم². كما شبه أموال اليتامى بالنار المحرقة في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}،³ بجامع الإيذاء في كل منهما، بغرض التقرّيع والتنفير من أكل مال اليتيم.

2 - بلاغة الكناية في القرآن المجيد:

من أساليب البيان في القرآن: أسلوب الكناية⁴ والتلميح بدل التصريح، كما تقتضيه كثير من مقامات الخطاب، كالمقام الذي يقتضي الاستحياء على سبيل المثال، فإن الدلالات التي يستقبح فيها التصريح يؤتى بالكناية في مقامها. قال صاحب الصناعتين: "وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح، لما في التصريح من هتك الستر"⁵، ومن هذا قول الله تعالى: {نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَبَاتُوا حَرْتَكُمْ} أُنْبَىٰ شَيْئُكُمْ⁶، فقد كنى بالحرث عن الجماع⁷؛ لأن المقام من المواطن التي يستحى فيها، وقد كان القرآن حياء يحث الناس على الحياء، ولذلك يكنى ولا يصرح. ومثل هذا قول الله تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّبَتْ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ}،⁸ فقد كنى بالرفث عن الجماع، لأن حقيقة الرفث اللغوية هي: مجرد الكلام مع النساء في شؤون الالتذاذ بهن، ثم أطلق على الجماع لأنه يفضي إليه⁹، كما أطلق الغائط - وهو في الأصل اللغوي: المكان المنخفض من الأرض - على

1 - التحرير والتنوير، 14 / 306.

2 - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، 2 / 123، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي، 3 / 438.

3 - سورة النساء، الآية: 10.

4 - والكناية ضد التصريح، ولفظها مأخوذ من الأصل اللغوي (كنى يكنى ويكنو، أو من الكنو، كما في مقاييس اللغة، لابن فارس، 5 / 113) بمعنى: تكلم بشيء وأراد غيره مما يستدل عليه، لسان العرب، 15 / 233، مادة كنى، والقاموس المحيط، ص: 1713، مادة (كنى)، فمعناه: التورية عن اسم بغيره، يقال: كنى عن كذا، إذا تكلمت بغيره مما يستدل به عليه. مقاييس اللغة، 5 / 113. ويعرف البلاغيون مفهوم الكناية بقولهم: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه" أو هي: "اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، كاللمس والجماع، فإن الجماع اسم موضوع حقيقي، واللمس كناية عنه، وبينهما الوصف الجامع؛ إذ الجماع لمس وزيادة، فكان دالا عليه بالوضع فكان دالا عليه بالوضع المجازي". ينظر: المثل السائر لابن الأثير، 2 / 181، والإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص: 301، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت، ط 4، 1998م..

5 - كتاب الصناعتين، ص: 49.

6 - سورة البقرة، الآية: 221.

7 - الإتيان، للسيوطي، 2 / 129.

8 - سورة البقرة، الآية: 186.

9 - التحرير والتنوير، 2 / 182.

قضاء الحاجة في قوله تعالى: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَايِبِ} ¹؛ لأن الناس تقصده عند الحاجة رغبة في التستر ². ومن عجيب الكناية القرآنية ما جاء في سياق تحريم الغيبة والنميمة، من قول الله تعالى: {وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} ³، فكنى عن الغيبة بأكل لحم الآدمي الميت؛ لأن في الغيبة ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض من باب أكل اللحم ⁴.

المبحث الثالث: الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد

من أبرز وجوه الإعجاز في القرآن المجيد إعجازه التشريعي، الذي يشمل العلوم الدينية، والأحكام التكليفية التي تنظم حياة الناس فيما بينهم بواسطة مجموعة من النواميس الأخلاقية وقوانين الآداب العامة، وأصول الشريعة السياسي والمدني والاجتماعي، حتى تكون آيات القرآن المجيد وأحكامه التشريعية قادرة على مسايرة الحياة الإنسانية المتغيرة، وشاملة لمجالات الأحكام كلها، سواء كانت عقدية، أو تعبدية، أو أسرية، أو معاملات، أو أخلاقاً وفضائل، كما سنتبينه من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: دلالة الإعجاز التشريعي في القرآن، وغايته النقدية:

أولاً: دلالة الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد:

لم ترد في القرآن آية تتضمن على وجه التصريح إعجاز القرآن من جهة التشريع، لكن عموم الإعجاز القرآني يشمل تشريعاته القويمية، وأنظمتها الحكيمية، سواء ما تعلق منه بالفرد أو الأسرة أو بالعلاقات التي تنظم المجتمعات فيما بينها؛ لأن إعجازه البياني لا يتم إلا بما تحمله الألفاظ القرآنية من المعاني والأحكام التشريعية المعجزة في حد ذاتها، فهو كما قال منزله سبحانه: {كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} ⁵، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ⁶، فالإعجاز القرآني واقع بتشريعاته وأحكامه التي لا تحتل الفساد والبطلان بحال. وقد ورد مفهوم "التشريع" في

1 - سورة المائدة، الآية: 7.

2 - ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي، 2 / 385، والمثل السائر، 1 / 76.

3 - سورة الحجرات، الآية: 12.

4 - المثل السائر، 2 / 191.

5 - سورة هود، الآية: 1.

6 - سورة فصلت، الآية: 40 - 41.

القرآن، معبرا عنه بالمصدر تارة - شريعة، وشريعة- كما في قوله تعالى: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} ¹، وقوله: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} ²، وبفعل "شرع" تارة أخرى، كما في قوله: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} ³. وهي راجعة في أصلها اللغوي إلى معنى واحد هو "شيء يفتح في امتداد يكون فيه" ⁴، كالطريق وغيرها، ومنه اشتقت الشريعة، والشرعة، والتشريع؛ بمعنى سن الطريقة ورسم المنهج، وما سنه الله من الدين ⁵. قال الراغب: "والشرع: نهج الطريق الواضح، يقال شرعت له طريقا، والشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقليل له: شرع، وشرع شريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية، قال {شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} فذلك إشارة إلى أمرين: أحدهما: ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحرره مما يعود إلى مصالح العباد وعمارة البلاد (...) الثاني: ما قيض له من الدين وأمره به؛ ليتحرره اختيارا مما تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ ودل عليه قوله {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا}. قال ابن عباس: الشرعة ما ورد به القرآن، والمنهاج ما ورد به السنة" ⁶. ومن هذه الدلالة اللغوية، عرف العلماء مفهوم الشريعة بقولهم: "كل ما سنه الله لعباده من الأحكام الاعتقادية والأخلاقية والعملية" ⁷، وبعبارة أعم وأشمل، فإن الشريعة هي: "ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة في شعبها المختلفة، لتنظيم علاقة الناس بربهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة" ⁸.

فالتشريع القرآني إذن هو ذاك المنهج الإلهي القويم الذي وضعه من أجل حماية الحياة الإنسانية، وتنظيم عباداتها وتعاملاتها وكافة سلوكياتها اليومية، فهو بمثابة نظام كوني لا يتعارض ولا يتناقض، صالح لمسايرة الحياة الإنسانية على الدوام. ومن هذا المنطلق كان التشريع القرآني معجزا؛ لكونه تشريعا كاملا، وشاملا، ومحكما متقنا. فهو كامل لاستيفائه أصول المسائل وقواعدها، ولعدم احتياجه إلى ما يكمله من النظم الأخرى، وهو شامل؛ لأنه يعتني بالحياة الإنسانية كلها، ويشمل كافة أوجه التشريع، سواء ما يتعلق منها بالأفراد أو الأسر والمجتمعات، أو ما تعلق منها بأحكام التعبدات، والأخلاق

1 - سورة المائدة، جزء من الآية: 50.

2 - سورة الجاثية، الآية: 17.

3 - سورة الشورى، جزء من الآية: 11.

4 - مقاييس اللغة، لابن فارس، 3/ 262، مادة (شرع).

5 - ينظر: لسان العرب، لابن منظور، 8/ 175، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص: 946، مادة (شرع) باب العين، فصل الشين.

6 - مفردات غريب القرآن، للراغب الإصفهاني، ص: 258.

7 - خصائص الشريعة الإسلامية، لعمر سليمان الأشقر، ص: 11، نشر: مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1982م.

8 - تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان، ص: 13 - 14.

والتعاملات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في السلم والحرب على حد سواء. وهو محكم متقن؛ لأنه رباني المصدر، لا عيب فيه ولا قصور يعتريه، لا يقدر البشر عن الإتيان بمثل تشريعاته وأحكامه¹. فهذا وجه عظيم من أجه الإعجاز القرآني، سمي بالإعجاز التشريعي؛ لأن وجه الإعجاز فيه راجع إلى أحكامه التشريعية التي لا تختلف ولا تتناقض على الرغم من كثرتها وتنوعها ومسايرتها لحياة الناس العامة والخاصة، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا}².

فالمراد بمفهوم "الإعجاز التشريعي في القرآن" إذن: هو "كمال أحكامه الوافية بمطالب البشر في كل زمان ومكان، وخلو تلك الأحكام في أدق جزئياتها وتفصيلها من التناقض والاختلاف والزيغ بالرغم من تعددها وتنوعها بتعدد وتنوع البشر وحاجاتهم على اختلاف الزمان والمكان"³، وعلى وجه معجز يثبت أن التشريعات القرآنية إنما هي وحي منزل من خالق الكون والإنسان. فالإعجاز التشريعي بعبارة أخرى، هو: "إثبات عجز البشر جميعاً عن الإتيان بمثل ما جاء به القرآن من تشريعات وأحكام، تتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع في كافة المجالات"⁴. فلن تجد تشريعاً إنسانياً يضاهي التشريع الرباني في مرونة أحكامه، وعدالة تنزيله، وشمول خطابه لكافة الناس دون تمييز أو تفريق، واستمرارية شريعته وصلاحياتها لكل زمان ومكان. فإن هذا هو مكن الإعجاز في التشريع القرآني، وذلك راجع إلى أمرين اثنين: أولهما: شمولية أصوله وسعة قواعده ومبادئه التي أقام عليها أنظمتها وأحكامه التشريعية، التي تنظم المجتمعات البشرية على أحسن وجه {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}⁵. وثانيهما: بناء أحكامه على تحقيق مصالح العباد ودرء المفسد عنهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا أحد أعلم من الله بحاجة الناس وما به يكون صلاح أمورهم وفسادها، فهو تشريع أنزل على مقياس وميزان، كما عبر عنه في قول القرآن: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}⁶. ولا شيء أدل على إعجازه التشريعي من بقاءه حتى عصر الناس هذا -والى أن يرث الله الأرض ومن عليها- دون أن يستطيع أحد نقض أحكامه وتشريعاته، أو يتمكن من الإتيان بمثلهما، مما يحقق العدالة الاجتماعية بين الناس دون تمييز أو تفريق، ذلك لأن القوانين الوضعية مهما بلغت من الدقة والإتقان في تحريرها تبقى ناقصة وقاصرة عن الإحاطة بمصالح الناس ومسايرة

1 - دراسات في علوم القرآن الكريم، لفهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ص: 300.

2 - سورة النساء، الآية: 81.

3 - دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل، ص: 357، نشر: دار المنار، ط 2، 1419 هـ / 1999م.

4 - مقالات متعلقة بالإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، لمحمد أحمد محمود، ص: 3.

5 - سورة التين، الآية: 8.

6 - سورة الشورى، الآية: 15.

حياتهم الخاصة والعامة، بناء على طبيعة الوضع البشري الذي يطغى عليه القصور والسهو والنسيان.

ثانياً: الغايات النقدية من الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد:

إن المجتمعات البشرية مهما عظمت وبلغت من التقدم والنمو فإنها تبقى في أمس الحاجة إلى تشريع شامل، يستطيع تنظيم حياتهم الإنسانية، حتى تستقيم على نظام يسيرون عليه، وقانونون يحتكمون إليه، بعيداً عن الأهواء النفسية وشهواتها، قال تعالى: {وَأَنۡ حَكُمۡ بَيْنَهُمۡ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ} ¹، {وَقُلۡ - أَمِنْتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍۭ وَءَمِرَتُ لَأَعۡدِلَ بَيْنَكُمۡ} ². وإلا وقعت المجتمعات في عنت عظيم وفساد كبير؛ لأن النفس الإنسانية مجبولة على الأثرة والأنانية وحب الذات والشهوات، فلا يصلح بحال من الأحوال أن تترك إلى نزعاتها وشهواتها؛ ومن أجل هذا المعنى جاءت الأحكام التشريعية في القرآن المجيد لتحقيق غايات نقدية تتجه بالإنسانية اتجاهاً تنظيمياً سليماً. وأبرز هذه الغايات النقدية:

1 - الإصلاح العقدي والفكري، ومخاطبة الفطرة الإنسانية السوية، وصونها عن بعض الانحرافات التي عرفتتها البشرية في مجال الاعتقاد وعبادة آلهة أخرى من دون الله، فجاءت الآية القرآنية بالتنصيص على ذلك، بقولها: {بِقَآفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطَرَتَ ٱللَّهُ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَیْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَیِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ} ³، وفي آية أخرى: {وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۡ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتِهِمۡ وَأَشْهَدَهُمۡ عَلَىٰ أَنفُسِهِمۡۖ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱلَوۡأَبَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا یَوْمَ ٱلْفِیۡمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِیۡنَ} ⁴. فجاءت التشريعات القرآنية من أجل المحافظة على هذه الفطرة التوحيدية وحفظها من فتن الشهوات النفسية والشبهات العقلية والقلبية بأحكام عجيبة، تتجلى دقتها في صياغتها التقنينية، "حتى ما يبذل لفظ بلفظ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر، حيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير (...)

1 - سورة المائدة، الآية: 51.

2 - سورة الشورى، الآية: 13.

3 - سورة الروم، الآية: 29.

4 - سورة الأعراف، الآية: 272.

فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها، ويصنع المجتمع الذي يقنن له صنعة إلهية متكاملة متناسقة، تربية وتشريعاً، وتقوى وسلطاناً¹.

2 - إبراز قيمة التشريع القرآني وتفوقه على كافة التشريعات الوضعية الأخرى التي يحررها الإنسان، ذلك لأن التشريعات القرآنية ربانية المصدر، غاية في الأحكام والإتقان {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى}²، خلاف ما يسنه الإنسان من تشريعات وضعية، يعترتها كثير من السهو والنسيان، ويغلب عليها الطابع الإنساني الذي يسعى لتحقيق أغراضه الخاصة وتلبية رغباته وشهواته النفسية والذاتية {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}³. ومما يبرز قيمة التشريع القرآني ومكانته في الحياة الإنسانية، أن القواعد العامة في التشريع القرآني تتسم بالسعة والمرونة، لا تختص بقوم دون آخرين ولا بزمان دون آخر، لأنها جاءت بصيغة موجهة إلى كافة المخاطبين، على خلاف التشريعات الوضعية التي بقيت قواعدها قاصرة غير متكاملة، ومؤقتة "لجماعة خاصة في عصر معين، فهي في حاجة إلى التغيير كلما تطورت الجماعة وتجددت مطالبها"⁴، هذا بالإضافة إلى أن التشريع القرآني له ارتباط وثيق بالعالم الآخروي، على خلاف التشريع الوضعي القاصر على الزواجر الدنيوية، فمن أجل هذا تضل القوانين البشرية الوضعية محدود التزليل والتنفيذ، وتبقى الشريعة القرآنية واسعة التزليل والتطبيق، لأنها تنبثق من إيمان راسخ باليوم الآخر، وتشبث ظاهر بعقيدة الحلال والحرام، والعقوبة الآجلة والآجلة في آن واحد؛ حتى يبقى الإنسان المسلم على الخصوص خائفاً من عقاب الله الآجل أكثر من خوفه من العقاب العاجل.

3 - تربية الأفراد والجماعات على الأخلاق الفاضلة، فعلى خلاف القوانين الوضعية التي تهتم بتحقيق المصالح المادية فحسب، فإن التشريع القرآني يتعدى كل ذلك ويتجاوزته إلى تأسيس مجتمع فاضل، يعيش على الحب والأخوة والاحترام المتبادل. وبالنظر إلى كافة التشريعات القرآنية -وحتى الأحكام التعبدية منها- نجدها حاملة هذا المعنى العظيم، فإن في الصلاة -على سبيل المثال- تربية على المواظبة وحسن السلوك وهجر مسالك الفحشاء والمنكر، كما في صريح الآية: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ⁵، وفي الزكاة تربية للنفس الإنسانية على خلق البذل والعطاء، وكراهية

1 - في ظلال القرآن، 491 / 1 - 497.

2 - سورة طه، الآية: 51.

3 - سورة الأحزاب، الآية: 72.

4 - الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم: دراسة تأصيلية تمثيلية، لعمر إسماعيل عبد الله سليمان، ص: 56، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة الفلسفة في الدراسات الإسلامية، ربيع الأول 1437 هـ / يناير 2016م، جامعة الجزيرة، لية التربية - حنتوب.

5 - سورة العنكبوت، الآية: 45.

الشح والبخل والحرص على جمع المال، كما يعتبر الصيام مدرسة تربية في تحقيق التقوى وضبط النفس الإنسانية عن غرائزها وشهواتها، قال عز وجل: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}¹. إلى غير ذلك من التشريعات الربانية التي تضمنت التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية في مجال المعاملات على وجه الخصوص، بخلاف القوانين الوضعية التي تعتبر بمثابة نصوص جافة جامدة لا تستطيع مسايرة الأخلاق والقيم الروحية التي يحتاجها المجتمع الإنساني.

4 - ومن أبرز غايات الإعجاز التشريعي في القرآن: تنبيه كافة الخلق إلى هذا الدستور الإلهي المعجز الذي ضمنه كل شيء، فقد اشتمل القرآن المجيد على كافة الأنظمة التي "يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانبا من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة وتشريعه المستقل، بحيث ينتج من مجموعة أنظمتها تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها، قال تعالى: {إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}²، فينتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية، متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم"³، وقد نزل المسلمون الأوائل هذا المغزى القرآني وترجموه إلى واقع معيش يلحظه سائر الناس، حتى بلغوا بالشرعية القرآنية ما لم تبلغه أمة قط، بفضل المبادئ السامية "التي وردت في الشريعة الإسلامية، وتضمنها القرآن الكريم"⁴؛ لتبقى الشريعة القرآنية إعجازا ربانيا دالا على صدق رسول القرآن محمد صلى الله عليه وسلم، وأن ما أتى به من التشريعات إنما هي من لدن خالق العالمين.

المطلب الثاني: مزايا الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد ومظاهره:

مهما قارن الدارسون وفقهاء القانون بين الأحكام والقوانين الوضعية والتشريعات القرآنية الربانية لن يجدوا أي علاقة توافقية بين خطاب الله التشريعي وبين خطاب الإنسان الوضعي، فلن يقدر البشر عن الإتيان بمثل تشريعات الله في القرآن مهما اجتهد وقارب، تحقيقا لقول الخالق سبحانه: {فَلْيَسِّرْ لِّجَمْعِ الْإِنْسِ وَالْجِسِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْعَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

1 - سورة البقرة، الآية: 182.

2 - سورة المائدة، الآية: 4.

3 - الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، د. عمر إسماعيل عبد الله، ص: 61.

4 - مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، ص: 232.

ظَهيراً¹. فالتشريع القرآني يفوق طبيعة التشريع البشري ويمتاز عنه بأمور كثيرة، أبرزها:

1 - العالمية والكمالية:

إن القرآن معجزة إلهية عظيمة، يتجه خطابه النقدي والتشريعي إلى سائر العالمين، كما في نص الآية القرآنية: {تَبَرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا²، ويستتم بالتمام والكمال، كما دلت عليه الآية القرآنية: {إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا³. فالتشريعات القرآنية تفوق التشريعات البشرية من جهة كمالها وعالمية خطابها وتكليفاتها؛ ذلك لأن البشر في حاجة على الدوام إلى تغيير القوانين من وقت لآخر، ومكان لآخر، ومن جنس لآخر، على خلاف الكمال القرآني الذي جعله الله خاتمة التشريعات، و"استطاع علماء القانون الوضعي أن يتخيلوه، لكنهم لم يستطيعوا أن يوجدوه"⁴، فبقي التشريع القرآني معجزاً من حيث اكتماله وإحاطته بجميع جوانب حياة المخاطبين، فردية كانت، ك بعض الأمور والأحكام التعبدية، أو اجتماعية كأحكام المعاملات والآداب الإنسانية. فهو تشريع كامل لا ينافي العقل الإنساني السليم في شيء، بل يحترمه ويحترم وجوده، ويكرمه عن الإهانة والابتذال، "ويتعاق مع القيم والأخلاق في وحدة عجيبة تدل على أن هذا التشريع من عند الله، بينما القوانين لا تهتم بهذه القضية، بل ربما أهانت الإنسان"⁵.

2 - الاستمرارية والتجدد:

من أبلغ وجوه الإعجاز التشريعي في القرآن وأبرز مميزاته عن التشريعات البشرية، دوامه واستمراريته وقدرته على مواكبة الأحداث المستجدة بين الناس، بفضل مبادئه وقواعده الكلية العامة، قال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاحِظُونَ⁶. فكما كتب لأحرفه وألفاظه الدوام والاستمرارية، فقد كتب على معانيه وأحكامه الاستمرارية والتجدد ومسايرة أحوال الناس وأوضاعهم، على خلاف القوانين

1 - سورة الإسراء، الآية: 88.

2 - سورة الفرقان، الآية: 1.

3 - سورة المائدة، الآية: 4.

4 - التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، للدكتور عباد القادر عودة، ص: 16، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 14، 1422هـ.

5 - ينظر: الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، لسيف بن منصور الحارثي، ص: 93، (بدون طبعة) ونظريات الإعجاز القرآني، د. أحمد رحمان، ص: 104، نشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1418هـ.

6 - سورة الحجر، الآية: 9.

البشرية التي لا تستطيع الإحاطة بالأسباب والأصول العامة التي تضمن مسايرة المصالح الإنسانية. ولما كانت أحكام التشريع القرآني قادرة على الاستمرارية والتجدد ومسايرة الحياة زمانا ومكانا، دل ذلك على أن مصدر التشريع القرآني هو الله الخالق القادر الذي يستطيع معاينة الواقع البشري ومسايرة أوضاعه. يقول الراغب الأصفهاني في بيان هذا المعنى: "فذكره تعالى أصولا منطقية على فروع، بعضها بينها النبي عليه الصلاة والسلام، وبعضها فوض استنباطه إلى الراسخين في العلم تشريفا لهم وتعظيما لمحلهم؛ لكي يقرب منزلة علماء هذه الأمة من منزلة الأنبياء في استنباطهم بعض الأحكام، ولاختصاص هذه الأمة بهذه المنزلة الشريفة"¹، حتى يحتكم الناس إلى شريعة الله في الفصل بين قضاياهم الاختلافية، وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية، وأداء واجباتهم الدينية والدنيوية.

3 - اقتضاء العلل والحكم:

إن تحت كل تشريع من تشريعات القرآن علة منضبطة، وحكمة بالغة، وسرا ظاهرا أو باطنا يستخرجه الخبراء والعالمون بأسرار التشريع القرآني؛ لأن أقوال الله وأحكامه لا تصدر عبثا ولهوا، كما نفى الله ذلك بقوله: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَلَعِيلِينَ}². فالأحكام الشرعية -المتعلقة بالحلال والحرام في مجال المعطومات والمشروبات مثلا- تنضبط بعلة الخبث والإضرار بالنفس الإنسانية، مع ارتباطها بالأصل الكلي الذي يقتضي الإباحة فيها، لقول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}³، ثم يخرج عن هذا الحكم الأصلي كافة ما وجدت فيه علة إضرار أو خبث لحديث الموطأ: "لا ضرر ولا ضرار"⁴، فيحرم كل ما هو مضر بالصحة الإنسانية بسبب تلك العلة، كتحريم الخمر لما فيها من تغييب العقل، وتحريم الخبائث؛ لخبثها، كما في نص الآية: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}⁵، وتحريم الميتة لما فيها من خشية التضرر بالمرض الذي ماتت به والحذر من آثار الضرر الذي يسببه الدم الذي لم يخرج. وكذلك الأمر بالنسبة للأحكام التعبدية -التي لا تظهر حكمها ومعانيها- فإنها لا تخلو من أسرار ربانية وحكم دينية ودنيوية، يعقلها من يعقلها ويجهلها

1 - مقدمة جامع التفاسير، ص: 74.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 17.

3 - سورة البقرة، الآية: 28.

4 - أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب: القضاء في المرفق، 2/ 745، الحديث رقم: 1429.

5 - سورة الأعراف، الآية: 157.

من لا يدركها، وقد قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}¹، ولا شك أن الأحكام الشرعية مندرجة تحت خلق الله المقدر بحكمة². قال الإمام ابن القيم: "إن كل ما خلقه وأمر به فله فيه حكمة بالغة، وآيات باهرة، لأجلها خلقه وأمر به"³، وقد ذكر السرخسي في المبسوط: أن المشركين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويسبون من أنزل ومن أنزل عليه، فأنزل الله تعالى: {وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}⁴ فكان يخافت بعد ذلك في صلاة الظهر والعصر؛ لأنهم كانوا مستعدين للأذى في هذين الوقتين، ويجهر في صلاة المغرب، لأنهم كانوا مشغولين بالأكل، وفي صلاة الفجر والعشاء، لأنهم كانوا نياماً، ولهذا جهر في الجمعة والعيدين، لأنه أقامها في المدينة وما كان للكفار بها قوة أذى⁵.

4 - العدالة المطلقة:

من أبرز مزايا الإعجاز القرآني في تشريعاته الحكيمة، أنه عدل بين الناس دون تمييز أو تفريق {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ⁶، فإن بني آدم متساوون أمام التشريع القرآني في جميع الحقوق والواجبات الإنسانية، فلا حيف في نظامه التشريعي ولا ظلم ولا ميل إلى تحقيق مصالح فئة معينة دون أخرى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}⁷، حتى يكون الناس كأسنان المشط لا يختلف غنيهم عن فقيرهم، وقويهم عن ضعيفهم في أحكام القانون الإلهي دونبغي أو ظلم. {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ}⁸، فالتشريع القرآني لا يحابي أحدا حاكما كان أو محكوما، على خلاف القوانين الوضعية التي شرعها البشر، وفرقوا فيها بين الأشخاص "فتعطي البعض صلاحية يمكن من خلالها أن يرتكب أي جريمة ولا معاقب له، بل يحميه

1 - سورة القمر، الآية: 49.

2 - قراءة في علم مقاصد الشريعة الإسلامية، للدكتور علاء الدين زعتري، ص: 3.

3 - مفتاح دار السعادة، 3/ 16.

4 - سورة الإسراء، الآية: 109.

5 - المبسوط، للسرخسي، 1/ 17، نشر: دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة. بتاريخ: 1414 هـ / 1993م.

6 - سورة الحجرات، الآية: 13.

7 - سورة الأنعام، الآية: 116.

8 - سورة النحل، الآية: 90.

في القانون، وهو ما يسمى بالحصانة الدبلوماسية أو البرلمانية¹. أما التشريع القرآني فالمكلفون فيه على استواء، كما يفيد الحديث الصحيح: "والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"²، تنزيلاً لقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} ³، فكان مطلب العدالة الاجتماعية وتحقيق المساواة بين الناس في التشريع مقصدا عظيما من مقاصد القرآن المجيد، كما تكررت الإشارة إلى ذلك في آيات متعددة، منها قول القرآن: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} ⁴.

5 - التيسير ورفع الحرج:

يتميز التشريع القرآني ببسره ورفقه بعموم المكلفين والمخاطبين {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} ⁵، فهذه آية صريحة في الدلالة على أن شرع الله مبناه على التيسير والتخفيف لا على الحرج والتشدد والتضييق على الناس. فبتتبع التشريعات القرآنية نجد لها قائمة على أساس اليسر ورفع الحرج عن المكلفين ف {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ⁶، حتى بلغ هذا التيسير القرآني درجة التخفيف عن أداء بعض التكاليف والواجبات، كما في التيمم عند الخوف من المرض وغيره من الأعذار بدل الوضوء واستعمال المياه، وتناول المحرمات عند الاضطرار، كما نصت عليه الآية القرآنية: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ⁷. فليس من العدل الإلهي أن يتم معاقبة المضطر وغير القادر على التكاليف الشرعية، كما رفعت التكاليف عن الصبيان والمجانين، لقوله صلى الله عليه وسلم: "رفع

1 - ينظر: الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، للدكتور علي بن عبد الله علي علان، ص: 88، والموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية، للدكتور لأحمد متولي، ص: 437، نشر: دار ابن الجوزي، القاهرة، ط 1، 1426هـ.

2 - متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، 6/ 2491، الحديث رقم: 6405، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، 5/ 114، الحديث رقم: 4505.

3 - سورة النساء، الآية: 57.

4 - سورة الحديد، الآية: 34.

5 - سورة البقرة، الآية: 184.

6 - سورة البقرة، جزء من الآية: 285.

7 - سورة البقرة، الآية: 172.

القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ¹.

6 - رعاية المصالح الإنسانية:

مما يمتاز به الإعجاز التشريعي في القرآن، حمايته للمصالح والمطالب الإنسانية، وحرص تشريعاته الحكيمة على جلب المصالح ودرء المفسدات عن الناس، فلم يرد في التشريع القرآني أمر بوجوب فعل من الأفعال إلا لتحقيق مصلحة يقتضيها ويستلزمها، ولم يرد في القرآن نهى عن أمر من الأمور إلا لمفسدة يدرأها أو ضرر يدفعه "فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم، أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد"²، على خلاف التشريعات الوضعية التي ليس لها علم كامل بمصالح الناس العاجلة والآجلة، ولا معيار دقيق متناه في الدقة توازن به فقه المصالح والمفسدات.

7 - خطاب المادة والروح:

إن التشريع القرآني يجمع في خطابه بين الروح والمادة، وبين الفطرة الوجدانية للإنسان وعقله الذي يدرك به الأحكام التكليفية، حتى يتمكن الإنسان من ممارسة حياته العملية بكل طاقاته وأشواقه القائمة على المبادئ القرآنية قال سبحانه: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}³، فلم يكن التشريع القرآني مجرد أحكام محدودة جزئية كما هو الحال في القوانين الوضعية؛ بل هو تشريع رباني يخاطب العقل والقلب والروح والوجدان، وينسجم مع الفطرة البشرية، ومثاله: الصوم الذي يعني الامتناع الجزئي في اليوم عن الشهوات، إذا ما قارنته بصيام البوذيين الذي يعني الامتناع الكلي، ومثاله أيضا: تحريم الرهبانية للزواج مثلا، وما هي عند النصارى إلا بدعة لم يأمرهم الله بها، قال سبحانه: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}⁴؛ لأنها لا تتوافق وطبيعة الإنسان وما أودع الله فيه من شهوة⁵. ولهذا المعنى نجد في التشريع القرآني توازنا تاما بين الجسد والروح، لأن لكل واحد منهما حاجياته الخاصة به،

1 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه مرفوعا عن علي رضي الله عنه، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، 2017 /5، رقم الحديث: 4969، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد، 32 /4، الحديث رقم: 1423.

2 - شفاء العليل، لابن القيم، ص: 377.

3 - سورة القصص، الآية: 77.

4 - سورة الحديد، الآية: 26.

5 - الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم (موقف العلماء منه وأثره في الإعجاز البياني)، للدكتور علي بن عبد الله علي علان، ص: 256. بحث منشور في مجلة "تبيان" للدراسات القرآنية، العدد: 23، السنة: 1437 هـ.

فإذا كان الجسد يتطلب خطابا يهتم بصحته، وغذائه، وحيويته، فإن الروح أيضا تحتاج إلى خطاب به تتغذى وتنمو، كالعدل، والحرية، والراحة النفسية والطمأنينة القلبية الإيمانية، فجمع القرآن المجيد بهذا بين خطاب الحس والمعنى، والروح والجسد، بناء على الفطرة الإنسانية التي تحتاج خطابا تشريعيا يخص الجانب الروحي المعنوي والنفسي، كما يخص الجانب المادي: {فَدَ أَفْلَحَ مَن زَكَّيْهَا ۖ وَفَدَّ خَابَ مَن دَسَّيْهَا} ¹.

المطلب الثالث: نماذج من الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد

قد شمل التشريع القرآني كافة مجالات الحياة، فلم يقتصر على جانب العقائد، والعبادات وأمور الأسرة فحسب، بل تعداها إلى تقنين المعاملات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والجنائية، وتنظيم المجالات الأخلاقية بين الناس. فعرض أحكامها بتفصيل دقيق يستند إلى الأدلة العقلية والنقلية والفطرية، التي لا يقف عندها باحث منصف إلا أقرها واعترف بريانية مصدرها. وفي هذا المطلب أقتصر على إيراد ثلاثة نماذج من التشريع الإسلامي، تخص مجال الحدود الجزرية، ومجال المالية والاقتصاد، ومجال الأطعمة والمشروبات، نتبين من خلالها إعجاز القرآن المجيد في مجال التشريع.

أولاً: الإعجاز التشريعي في حد السرقة والقتل:

من كليات التشريع في القرآن، صون المصالح الإنسانية، وحماية أموالهم وأنفسهم من الضياع والهلاك؛ ولكي يقطع الطريق على أسباب الجريمة والسرقة وضع حدودا زاجرة تردع من تسول له نفسه الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم، فشرع قطع اليد في حد السرقة الموصوصوفة، قائلا: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ} ²، حتى تحفظ أموال الناس مسلمين كانوا أم ذميين معاهدين، من النهب والسرقة والغصب، وشرع القصاص في الاعتداء على أرواح الناس قائلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ} ³، حتى تصان أرواح الناس فلا تزهق، كما كان عليه الأمر في الجاهلية، حيث يأخذون بالثأر فتزهق أرواح كثيرة مقابل شخص واحد، فينتشر الظلم والقتل، دون أن يتحقق مقصد الردع والزجر من قتل الناس ظلما وعدوانا، فجاء التشريع القرآني مراعيًا نوازع النفس الإنسانية وحباها للانتقام. ومن هنا ندرك "سعة آفاق الإسلام وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها، ومعرفة بما فطرت عليه من النوازع (...) إن الغضب للدم فطرة وطبيعة،

1 - سورة الشمس، الآية: 9 - 10.

2 - سورة المائدة، الآية: 40.

3 - سورة البقرة، الآية: 177.

فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص، فالعدل الجازم هو الذي يكسر شره النفوس، ويردع الجاني عن التمادي¹، حتى ترى مرتكب الجريمة يطلب التخفيف والعفو من أولياء القتل، وهو أمر شرعه القرآن أيضا بقوله: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنَ رَبِّكَ} ²، لكن حكمة الردع والزجر تبقى ثابتة، وإن عفا عنه أولياء القتل، ذلك لأنه "ليس الترغيب في أخذ مال الصلح والعفو يناقض حكمة القصاص في الردع والزجر - لأن الازدجار يحصل بتخيير الوالي في قبول الدية، فلا يطمئن مُضمر القتل - من أفراد المجتمع - إلى عفو الولي إلا نادرا، وكفى بهذا في الازدجار"³، فالهدف الأسمى من القصاص إنما هو حماية أرواح الناس، وحفظ الحياة الإنسانية، فالقصاص حياة كما عبر عنه التشريع القرآني في قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}⁴، وليس تشوفا إلى قتل الناس كما يريد أن يصوره بعض المستشرقين والمستغربين، ممن رد عليه السيد محمد رشيد رضا في قوله: "نرى كثيرا من الناس حتى المنتسبين إلى الإسلام يفترون بآرائهم ويرونها شبهة على الإسلام، وأما نافذة البصيرة العارف بمصالح الأمم الذي يزن الأمور بميزان المصلحة العامة لا بميزان الوجدان الشخصي الخاص بنفسه أو ببلده، فإنه يرى أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذي يربي الأمم والشعوب والقبائل كلها"⁵. هكذا نلاحظ أن التشريع القرآني هدفه حفظ مصالح الناس بالعدل والمساواة، ويتجلى إعجازه في تشريع القصاص في أمور كثيرة، أبرزها امران اثنان:

- أولهما: انسجام القصاص حسب التشريع القرآني مع النوازع النفسية التي جبل عليها الإنسان في فطرته، فلا تحفظ أرواح الناس وتحمى إلا بعقوبة رادعة يرضاها سائر الناس، وإلا لجأوا إلى الثأر كما كان عليه الأمر في الجاهلية. والذي يلحظه الباحث أن القرآن المجيد أرجع إمكانية العفو إلى أولياء القتل، وليس إلى تقدير الحاكم، كما في بعض القوانين الوضعية⁶، ولا شك أن ذلك مخالف لمقصد الحماية النفسية، لأن المراد عفو أولياء القتل لا غيرهم، لأن إطفاء نار الانتقام يرجع إلى نفوس أولياء الدم وحدهم، فإذا عفووا تحقق مقصد حماية الناس، ولم يكن هناك داع بعد لإقامة القصاص، فيستبدل بعقوبة أخف.

1 - في ظلال القرآن، للسيد قطب، 1/ 164.

2 - سورة البقرة، الآية: 177.

3 - التحرير والتنوير، لابن عاشور، 2/ 145.

4 - سورة البقرة، الآية: 178.

5 - تفسير المنار، 2/ 124.

6 - العفو عن العقوبة وأثره بين الشريعة والقانون، د. إبراهيم بن فهد بن إبراهيم الودعان، ص: 239.

- وثانيهما: أن القصاص جاء قائماً على أساس العدل والمساواة بين الناس، فيقتص من القاتل كيفما كان حسبه ونسبه ومنصبه، فاستطاع القرآن المجيد بهذا التشريع الرباني المعجز أن يحفظ أرواح الناس قروناً كثيرة، على خلاف التشريعات الوضعية التي تدعي الأحكام في مجال الردع ومكافحة الجريمة وهي في انتشار دائم، فلم تتجح فيما تضعه من القوانين والتشريعات المجحفة بحقوق المظلومين والمعتدى عليهم، بل نجدها أحياناً تحاول حماية الظالمين والمعتدين، كما في تمكين المجرم الثابت إجرامه من محام يدافع عنه بدعوى الحق والقانون، فتأخذ بمبدأ الرحمة والشفقة في غير موضعه، فتضيع بذلك حقوق المعتدى عليه.

ثانياً: الإعجاز التشريعي في تحريم الربا:

إن حماية الأموال من ضياعها والاستيلاء عليها دون وجه حق مقصد أساسي في التشريع القرآني، فقد أباح التعاملات المالية التي تتضبط بقواعد الاتجار البيع والشراء، وحرّم التعاملات المالية التي لا تتضبط بقواعد المالية الإسلامية، كالتعامل بالربا؛ فإنه أمر محرم بالنص القرآني، قال تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ¹؛ لأنه أكل لأموال الناس من غير وجه حق، واستغلال لحاجاتهم من غير وجه مشروع، واستثراء من دون ضوابط شرعية وعملية؛ لأنه مجرد زيادة محددة معلومة على دين المدين مقابل أجل أو زمن متعاقد عليه، وذلك يخالف طبيعة الاستثمار التجاري المشروع الذي يخضع للخسارة والربح ويحتملها معاً؛ ومن أجل هذا حرم الربا ومحقت بركته، في التشريع القرآني {يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِجُ الصَّدَقَاتِ} ²، لما يتضمنه من المفساد ويترتب عليه من آثار سلبية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، للأفراد والجماعات، وأبرز ذلك:

1 - إهمال الطاقة الإنسانية وهدر الموارد الاقتصادية، وترغيب الناس في الكسل والعزوف عن العمل. فإن الاقتصاد والاستثمار المالي إنما ينمو ويتطور إذا بذل الجميع طاقاتهم في العمل والإنتاج، على خلاف المرابي الذي يربح الأموال دون أية جهود بشرية، فيألف الدعة والخمول، فيتأثر بذلك الاقتصاد والاستثمار ويتسبب في ركوده وتعثره؛ لأن النقود لا تلد النقود كما يقول علماء الاقتصاد، فلا بد من العمل وبذل الطاقة الإنسانية ³.

2 - تعطيل الحركة المالية عن الدوران، فإن المال عصب الحياة كما قيل، وتوقفه عن الحركية والاستمرارية يؤدي إلى أضرار اقتصادية خطيرة، لها آثار سلبية على الأفراد والمجتمعات، من الكساد وانتشار البطالة وغير ذلك؛ لأن الفائدة الربوية تؤدي إلى زيادة

1 - سورة البقرة، الآية: 274.

2 - سورة البقرة، الآية: 275.

3 - التورق المصرفي في نظر التحليل المحاسبي والتقويم الاقتصادي، للدكتور: حسين حسين شحاتة، ص: 30، مقالة علمية منشورة على الشبكة.

أسعار السلع، فينقص الطلب عليها، وينحسر الاستهلاك مما يؤدي إلى فائض في المنتجات، فيلجأ المشغلون والمنتجون إلى تخفيض أجور العمال أو الاستغناء عن بعضهم¹، وقد نهى التشريع القرآني عن اكتناز الأموال في قوله: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

الذَّهَبَ وَالْبِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}².

3 - ومما ينتج عن الربا من الأضرار والمخاطر الاقتصادية والاجتماعية: التضخم وغلاء الأسعار³، لأن معنى التضخم راجع إلى: "الزيادة في كمية النقود التي تؤدي إلى ارتفاع في الأسعار"⁴، وهذه نتيجة طبيعية لاحتساب الربا على رأس المال المستخدم في الإنتاج، فتزداد نفقة الإنتاج، وتزداد الأسعار تبعاً له، فيؤدي ذلك إلى ارتفاع الأسعار في الأسواق⁵.

4 - كما يعتبر الربا مسلماً خطيراً من مسالك القضاء على الأخلاق والقيم، لأنه قائم على نظام الجشع والطمع، يبيت في النفوس مبادئ الشح والبخل، والحرص على الخمول والكسل، فيجلس المرابي منتظراً جهود الآخرين وطاقاتهم المستنزفة.

من أجل تجنب هذه الأضرار الاقتصادية والاجتماعية، ومن أجل تربية النفس الإنسانية على العمل والتزكية الأخلاقية حرم التشريع القرآني التعامل بالربا، وأحل البيع، وبذل الأموال وإنفاقها أو إقراضها في سبيل الله دون زيادة على رأس المال، حتى يتحقق النماء الاقتصادي والتكافل الاجتماعي، كما صرحت به الآية القرآنية: {وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}⁶.

ثالثاً: الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر وسائر المسكرات:

على الرغم من نزول التشريع القرآني في محيط زمني ومكاني قد انتشر فيه استهلاك الخمر وتناول المسكرات بشكل مهول، حتى كان الناس في عصر نزول القرآن يعتقدون مجالس السكر والشراب، ويمدحونها في أشعارهم وندواتهم الأدبية، فإنه لم يلجأ إلى إرضاء عامة الناس بتشريع ما فيه الإضرار بعقولهم وصحتهم النفسية والجسدية، بل جاء بتشريع معجز، يحمي الصحة العقلية من مخاطر المسكرات ومفاسدها، وإن ظن البعض

1 - الربا وفائدة رأس المال بين الشريعة الإسلامية والنظم الوضعية، للدكتور فتحي السيد، لاشين، ص: 82.

2 - سورة التوبة، الآية: 35.

3 - وقد كتب الدكتور حسن شحاتة بحثاً في الموضوع سماه: "الفائدة الربوية وقود التضخم النقدي وليس تعويلاً عنه" منشور في مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، العدد: 6، السنة: 1402 هـ / 1982م.

4 - الاقتصاد النقدي والمصرفي، لمصطفى رشدي شحبة، ص: 575، 577، 584، نشر: الدار الجامعية، بيروت، 1981م.

5 - المصدر السابق، ص: 584.

6 - سورة الروم، الآية: 38.

أن فيها بعض المصالح والمنافع، كما في نص الآية القرآنية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْبَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}¹. ومن مظاهر إعجاز التشريع القرآني في تحريم الخمر: أنه تدرج في حمل الناس على تركها، وتعرض أول الأمر لذكر مصادر الخمر والإسكار دون أن ينشئ فيها حكماً بالحلية أو بالحرمة، فقال: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا}²، مشيراً إلى أن الإسكار ليس أمراً حسناً، وأن تحريمه أمر تقتضيه المصلحة الإنسانية العامة على وجه فريد من التدرج والتربية النفسية، فقد "كان الأمر في الخمر والميسر أمر عادة وإلف، والعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إحياء بأن تركهما أولى"³. يقول مؤلف الظاهرة القرآنية ت-عليقا على نص التشريع القرآني {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}-: "إن النص يثير آثام الخمر في الضمير المسلم، وقد كانت هذه الطريقة المتحفظة لإثارة المشكلة وتسجيلها بصورة ما في عداد الهموم الاجتماعية"⁴؛ ذلك لأن المسكرات أم الخبائث وجماع الشرور، تجمع معها آثاماً ومنكرات شتى؛ لفقدان العقل المدبر، وارتفاع مناط التكليف في الإنسان، فيتصرف السكران بلا عقل يرشده ولا ضمير يزجره ويردعه.

بهذه الحكمة التدرجية التي راعت مستويات المخاطبين وعقلياتهم استطاع التشريع القرآني أن يقنع الناس -بحججه العقلية والفطرية والبيانية- بتحريم الخمر، وإضرارها بالنفوس والعقول، فعالج هذه المعضلة بأيسر سبيل، وسرعة استجابة من قبل المخاطبين، ليظهر بذلك سر إعجازه الرباني، الذي لا تقدر القوانين الوضعية والأنظمة البشرية على مسايرته مهما شرّعت من عقوبات ردعية، وهيات من إمكانات مادية ومعنوية من أجل الحد من انتشار المسكرات والمخدرات.

وقد أنهيت فصول هذا الباب الثالث الأخير من البحث مستجلباً في ثناياها مجموعة من خصائص المنهج النقدي في القرآن وأساليبه وآليات الإعجاز فيه، فهو بحق كتاب تصديق وهيمنة، وكتاب كوني وعالمي لانفتاحه الواسع على الكون والتاريخ ومختلف الحضارات الإنسانية، يدعو إلى دوام النظر والبحث في المجالات الكونية والإنسانية عبر

1 - سورة البقرة، الآية: 217.

2 - سورة النحل، الآية: 67.

3 - في ظلال القرآن، لسيد قطب، 1/ 229.

4 - الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، ص: 299، نشر: دار الفكر، دمشق، ط 4، 1420 هـ / 2000 م.

تاريخها المديد. وهو دستور التخفيف والتيسير والاعتدال والواقعية، لا يتعارض مع الطبيعة، بل يساير قوانينها ويجد الحلول لأزماتها. وهو كتاب تحد وإعجاز، سواء في جانبه البلاغي والبياني، أو في جانبه العلمي والكوني، أو في جانبه التشريعي الذي ينظم حياة الناس فيما بينهم بواسطة مجموعة من النواميس الأخلاقية والقوانين والآداب العامة، ولذلك فآيات الكتاب المجيد وأحكامه التنظيمية قادرة على مسايرة الحياة الإنسانية المتغيرة، وشاملة لمجالات الأحكام كلها، سواء عقدية، أو تعبدية، أو أسرية، أو معاملات، أو أخلاق وفضائل. وهذا كله يتوصل إليه من خلال القرآن الكريم بنعمة اللغة والبيان التي أنعم الله بها الإنسان، كما أنعم عليه بالعديد من النعم التي لا تعد ولا تحصى. فالحمد لله على توفيقه لي ومنته وفضله علي بإتمام هذا البحث، فما كان منه من صواب فمن الله، وما كان منه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان.

خاتمة

قدمت في هذا البحث دراسة فكرية لقضية النقد والحجاج في القرآن المجيد، فعملت على ضبط معالمها المنهجية ومسالكتها الحوارية، إذ إنصبَّ مجهودي أساساً على إبراز المنهج النقدي وتتبع آليات الحوار، وضوابط العملية الحجاجية، ومسالكت النقد والإصلاح في القرآن المجيد الذي يعتبر كتاباً يدعو إلى التفكير والتدبر والنقد والإصلاح والنظر، لا تتنصب معانيه، ولا تنقُض دلالاته ومعجزاته. فشمّل الحديث النقدي في القرآن الحديث عن العقيدة وتوجيه السلوك العقدي لدى الإنسان المخاطب بأحكام الكتاب العزيز حتى يخلص إيمانه من كل شوائب العبودية لغير الخالق الحق، وشمّل الحديث عن أوجه العبادات واتباع أوامر الله ونواهيه، وشمّل الحديث عن الأخلاق وترشيد السلوك الإنساني في تعاملاته اليومية على الجملة، آخذاً في تحقيق ذلك بالمبادئ النقدية العامة، من التدرج، والرفق، والتيسير، والقصد والاعتدال، والاستدلال بالحجج الفطرية والحسية والعقلية.

ومما لا شك فيه أن عملية نقدية كهذه تستدعي خطاباً نقدياً شاملاً، يأخذ بأساليب خطابية وبيانية وإعجازية متنوعة، ويجمع بين منهجي الترغيب والترهيب، والتخفيف والتشديد، وبين الإعجاز اللغوي والعلمي والتربوي والتشريعي، وإن كان إعجاز حفظه بنفس اللغة التي نزل به منذ العصر الأول إلى الآن - على مدى أربعة عشر قرناً من الزمن أو يزيد - كافياً في التدليل على أن القرآن دستور الإصلاح الخالد الذي ينبغي أن يسترشد به الإنسان ويهتدي بمنهجه وهديه، في الوقت الذي تعرضت فيه كل الدساتير الإنسانية والإلهية السابقة للتحريف والتغيير، فبقي النقد القرآني منهجاً للإصلاح والتفكير صالحاً لكل زمان ولكل مكان.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أسطرها في الآتي:

1 - إن مجرد النظر في اشتقاق كلمة "القرآن" يوحي أنه كتاب علم يدعو إلى إعمال الفكر والنظر، كما تؤيده الدلالات الاشتقاقية اللغوية للقرآن الكريم، فهي كلها دائرة على أسامي الكتاب والقرآن والفرقان والهدى والنور والبرهان.

2 - القرآن المجيد كتاب نقدي كوني، يخاطب النوع الإنساني على الجملة، موظفاً في سبيل ذلك سائر الأساليب النقدية والبيانية، فالمتلقي للقرآن الكريم هو الإنسان بغض النظر عن أصله، وجنسه، ولغته، وثقافته. وهذا ما تؤكدته كثير من آيات القرآن الكريم التي توظف مجموعة من الألفاظ والمصطلحات التي تفيد عموم الخطاب في القرآن، ومن أعم هذه الألفاظ وأكثرها استعمالاً في التنزيل: لفظ "الناس"، ولفظ "كافة" ولفظ "العالمين".

3 - خص القرآن المجيد اليهود والنصارى بالذكر واعتبرهم من أه الكتاب والعلم، وأكثر من ذكر أحوالهم، وليس ذلك لأهل ديانة أخرى غيرهم. ولعلَّ السبب في ذلك راجع إلى أمرين اثنين: أولهما: أنهم من أمة الدعوة، والأمر الثاني: أنهم كانوا أعلم أمم العالم في ذلك العصر، يتلون التوراة، ويقرؤون الإنجيل، ويملكون قانونًا وتشريعًا.

4 - يهدف النقد القرآني على الجملة إلى ثلاثة أبعاد وغايات كبرى، هي: بناء شخصية عقدية سليمة، وتحرير العقول وبناء الحس النقدي لدى الإنسان، والأمر الثالث: التشريع وتخليق الحياة العامة وسياسة الأمة.

5 - يتميز المنهج النقدي في القرآن بميزات عديدة، أبرزها:

- التبين والتثبت

- التدرج في عملية النقد والإصلاح والتغيير

- الثبات ومسايرة المستجدات (المرونة)

- البيان ومراعاة أساليب الخطاب.

6 - أما فيما يخص مبادئ النقد في الرآن، فقد استخلصت منها ثلاثة مبادئ كبرى، أولها: الموضوعية والإنصاف في حكاية الرأي الآخر، وثانيها: النقد بالبينة والبرهان وإقامة الحجج العقلية والنقلية والفطرية على المخالفين، وثالثها: ضبط الثوابت والمسلمات والانطلاق من المشتركات في العمليات الحجاجية.

7 - لقد أسس القرآن المجيد لجملة من المبادئ والضوابط النقدية، أبرزها: احترام الطرف الآخر، ومبدأ الحلم والصفح عن إساءاته، والأخذ بالرفق واللين والحسنى في مخاطبته ومحاورته.

8 - تقوم المحاجة القرآنية على ثلاثة أصول استدلالية كبرى، هي: الأصل الفطري، والأصل العقلي، والأصل الحسي.

9 - لم يكن الكتاب العزيز أثناء تأسيسه لأصول التغيير والنقد والحوار كتابا يقتصر على تقديم نظريات علمية فحسب. بل كان دستوراً تطبيقياً في مجال النقد والرؤية الإصلاحية، كما يتجلى ذلك في وقوفه على كثير من وقائع الأمم السابقة من أهل الكتاب، ورده على اتهامات المشركين واستخفاء المنافقين، وشبهات الملحدين والمستشرقين. وقد وقف هذا البحث على جملة من الشبهات التي أثارها غير المسلمين، فنقضها القرآن المجيد وفند أكاذيبها، سواء ما تعلق منها بمجال الأخبار أو بمجال الأحكام الشرعية، أو بشخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أو بالنص القرآني نفسه. فوقف عند قضية التثليث، وقضية الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالشبهات المثارة

حول المرأة والحرية الإنسانية في الإسلام، وفند الادعاءات الاستشراقية المتعلقة بالنص القرآني.

10 - كما خلص البحث إلى أن العملية النقدية في القرآن تجري وفق مناهج منضبطة، أبرزها: منهج المحاجة الإقناعية الذي يعتمد على تقديم الأساليب الحجاجية والبرهانية الملزمة، ومنهج الترغيب والترهيب الذي يلفت النظر الإنساني إلى إمعان الفكر في كتاب الله وتشريعاته، ومنهج التدرج؛ ذلك لأن الخطاب الإصلاحي والنقدي الموجه إلى النفوس البشرية والعقول الإنسانية في أمس الحاجة إلى فترة زمنية معينة، تقصر أو تطول حسب المخاطب ونوع الخطاب وسياق المخاطبين، فإن لكل شيء أوانه وميقاته، و "من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه". فيكون البدء بالأيسر فالأيسر والأقرب إلى القبول فالأقرب، دون أن يحمل الناس على التكاليف الشاقة منذ الوهلة الأولى؛ إذ البناء النقدي السليم والتغيير أو التحديث القويم لا يقع جملة واحدة، وإنما يتأسس درجة درجة، ورتبة رتبة، ومرحلة مرحلة.

11 - القرآن المجيد كتاب تصديق وهيمنة، وكتاب كوني وعالمي لانفتاحه الواسع على الكون والتاريخ ومختلف الحضارات الإنسانية، يدعو إلى دوام النظر والبحث في المجالات الكونية والإنسانية عبر تاريخها المديد. وهذه ميزة قرآنية لم تكن لأي كتاب، بدءاً بالوحدة البنائية من حيث الشكل، والمضمون، والشمولية، ومن حيث مقارنة الموضوعات العامة، ومن حيث الانفتاح على الكون والإنسان، وفي ذلك انسجام تام مع كونية الرسالة الإسلامية وعالميتها.

12 - يفيد التصديق والهيمنة القرآنية جملة من المعاني النقدية الكبرى، أولها: تقرير سلامة القرآن من التحريف والتغيير والنسخ، وثانيها: بيان صحيح الكتب السابقة وباطلها، وثالثها: نسخ الرسالات السابقة، ورابعها: إثبات عالمية القرآن واستمرارية معانيه وتجديدها، وخامسها: بيان آليات التحريف، وكشف المسائل التي حاول أهل الكتاب إخفاءها.

13 - إن القرآن المجيد دستور التخفيف والتيسير والاعتدال والواقعية، لا يتعارض مع الطبيعة، بل يساير قوانينها ويجد الحلول لأزماتها.

14 - يعتبر أسلوب القرآن المجيد أرقى الأساليب البيانية على الإطلاق، ولذلك لقي اهتمام العرب، فاندثرت أساطين البيان أمام بلاغته؛ لأنه كلام الله المعجز، الذي اكتملت معانيه الإعجازية من كافة الجوانب، فهو أس أساليب الفنون العربية، تجد بين الحرفين مناسبة وحبكا، وبين كلماته ملاءمة وتشاكلا، وبين عباراته ترابطا وتكاملا. فاستخدم أساليب التقرير في مواقعها وأساليب الإنكار في مواطنها، واستعمل أساليب

التأكيد والإطناب والتكرار والفصل والوصل في مواضعها، وأساليب الحذف والاختصار والإيجاز في مقامها.

15 - كما تعتبر أمثال القرآن المجيد من أعظم الطرائق الأسلوبية التقريرية التي يعزز بها النقد القرآني أحكامه التشريعية والإصلاحية والتربوية. ويتميز "المثل" القرآني في أسلوبه عن الأساليب التعبيرية بخصائص فنية، وميزات بلاغية كثيرة، أبرزها: الإيجاز البليغ، حيث يتأتى به إصابة المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة محكمة، وحسن التشبيه، وجودة الكناية.

16 - ومن أبرز الأساليب النقدية في القرآن المجيد أسلوب القصص الذي يكتنز معاني كثيرة، تحمل في طياتها إشارات نقدية تمكن الإنسانية من تحسين المعتقد وتقويم السلوك، واستخراج الكثير من الدروس والعبر. وكثيرا ما ينبئ القصص القرآني عن الحقائق الواقعية عن طريق حكاية ما نزل بالأقوياء الذين أخذهم الغرور، وملأوا الدنيا بالفسوق والفجور، وعن الجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.

17 - يتضمن النقد القرآني كثيرا من الإعجازات العلمية والكونية، باعتبار الإعجاز العلمي دليلا ماديا ملموسا، ومسلكا منهجيا فريدا في تحقيق الدعوة إلى توحيد خالق الكون والتصديق بدينه ورسالته، فجاءت آيات القرآن المجيد مليئة بالحديث عن الخلق الإنساني، وعن الكون، وعن الطبيعة بقصد التحدي وإظهار العجز البشري أمام قدرة الله الخالق، فخاطب القرآن المجيد العقل الإنساني المعاصر بما يلائم واقعه ومحيطه، فاشتمل على حقائق علمية ناصعة أوردها الله ليدل الناس على وجوده ووحدانيته وقدرته وعظمته.

18 - من أوجه الإعجاز القرآنية التي لها علاقة بالنقد وعملية الإصلاح والتغيير إعجازه من الناحية البلاغية دلالة وتركيبا، فإن كلام الله أرفع كلام وأسماء براعة ودقة وبيانا، فما من لفظة أو حرف فيه إلا وقد وضع في محله وموضعه.

19 - من أبرز وجوه الإعجاز في القرآن المجيد إعجازه التشريعي، الذي يشمل العلوم الدينية، والأحكام التكليفية التي تنظم حياة الناس فيما بينهم بواسطة مجموعة من النواميس الأخلاقية والقوانين والآداب العامة، فأيات الكتاب المجيد وأحكامه التشريعية قادرة على مسايرة الحياة الإنسانية المتغيرة، وشاملة لمجالات الأحكام كلها، سواء عقدية، أو تعبدية، أو أسرية، أو معاملات، أو أخلاق وفضائل.

20 - يتميز التشريع القرآني عن التشريع البشري بخصائص إعجازية كثيرة، أبرزها:

- العالمية والكمالية

- الاستمرارية والتجدد ومسايرة الحياة الإنسانية

- اقتضاء العلل وتوخي الحكم

- العدالة المطلقة
- التيسير ورفع الحرج
- رعاية المصالح الإنسانية
- خطاب المادة والروح.

وهكذا تكون خلاصة الغايات النقدية من الإعجاز القرآني آيلة إلى مقصدين اثنين، هما: الإصلاح الديني والدنيوي، ومقصد التحدي والبرهنة على صدق الرسالة القرآنية. فالحمد لله أولا وآخر على عظيم نعمه علينا، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	السورة ورقم الآية	طرف الآية
242	الفاحة: 1	{الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}
384 – 380	الفاحة: 4	{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}
223	الفاحة: 5	{إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}
420-230	البقرة: 1	{أَلَمْ ذَلِكََ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}
291	البقرة: 2	{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ}
468	البقرة: 5	{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ}
554	البقرة: 5	{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ}
104	البقرة: 11	{وَاِذَا فِىلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْاَرْضِ}
464	البقرة: 12.	{اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئَاتُ وَلَٰكِنَّ لَا يَعْلَمُونَ}
489	البقرة: 16	{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْفَدَ نَارًا}
247 – 10	البقرة: 20	{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}
205	البقرة: 21	{وَإِن كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا}
265	البقرة: 22	{فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّسْ مِّثْلِهِ}
220	البقرة: 23	{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰن تَفْعَلُوا}
364	البقرة: 27	{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ ءَمُوتًا}
479	البقرة: 28	{هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْاَرْضِ جَمِيعًا}
190	البقرة: 32	{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ}
312	البقرة: 41	{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}
262	البقرة: 43	{أَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}
249	البقرة: 59	{وَإِذِ اسْتَسْفَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ}
545	البقرة: 59	{فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ}
494	البقرة: 63	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ}

176	البقرة: 66	{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَحُوا بَقَرَةً}
176	البقرة: 68	{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا}
156	البقرة: 71	{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا}
178	البقرة: 73	{ثُمَّ قَسَتْ فُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}
308	البقرة: 74	{أَقْتَطَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}
308 – 315	البقرة: 78	{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}
145 – 47	البقرة: 79	{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}
59 – 58	البقرة: 82	{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}
495 – 128	البقرة: 83	{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}
213	البقرة: 86	{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}
211	البقرة: 97	{فَلِأَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا}
212	البقرة: 99	{أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}
495 – 128	البقرة: 83	{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}
61	البقرة: 103	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا}
179	109	{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ}
181	البقرة: 110	{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ}
188 – 48	البقرة: 115	{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ}
182 – 179	البقرة: 119	{وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ}
257	البقرة: 120	{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ}
495 – 42	آل عمران: 130	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا الرِّبَا}
352 – 180	البقرة: 134	{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا}
378	البقرة: 136	{فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ}

127 – 126	البقرة: 143	{فُلْ بَلْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيباً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}
14	البقرة: 152.	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}
467	البقرة: 154	{إِلَّا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}
247	البقرة: 162	{وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}
233	البقرة: 163	{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}
481	البقرة: 172	{بِمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}
195	البقرة: 170	{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُو}
255	البقرة: 172	{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ}
255	البقرة: 172	{بِمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}
216	البقرة: 176	{وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ}
346	البقرة: 177	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْفِصَاصُ}
347	البقرة: 177	{بِمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}
464 – 252	البقرة: 178	{وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَوةٌ}
364 – 21	البقرة: 182	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}
344	البقرة: 183	{بِمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}
137	البقرة: 184	{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ}
293 – 40	البقرة: 184	{بِمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}
300 – 287	البقرة: 185	{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}
471	البقرة: 186	{أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}
223	البقرة: 189	{وَفَلْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْلِتُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا}
223	البقرة: 189	{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}
294	البقرة: 192	{وَفَلْتَلَوْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}
257 – 9	البقرة: 196.	{وَاتَّقُوا يَتَاوَلِيهِ الْإِلْبَابُ}

17	البقرة: 206.	{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ دَخَلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً }
294	البقرة: 214	{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ }
210	البقرة: 215	{وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ }
256 – 42	البقرة: 217	{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ }
487	البقرة: 217	{وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا }
40	البقرة: 226	{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ }
237	البقرة: 226	{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ }
237 – 229	البقرة: 226	{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ }
326	البقرة: 229	{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ }
318	البقرة: 236	{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى }
377	البقرة: 249	{وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ }
332-172	البقرة: 255	{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }
245	البقرة: 257	{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ }
245	البقرة: 258	{فَالَ أَبْنَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا }
150	البقرة: 259	{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى }
242 – 150	البقرة: 259	{بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيُطْمِئِنَّ قُلُوبُ }
414	البقرة: 263.	{بِمَثَلِهِ كَمِثْلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ }
31	البقرة: 266	{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِئُوا }
25 – 9	البقرة: 268.	{يُوتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ }
345	البقرة: 271	{وَمَا تُنْفِئُوا مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا نَفْسِكُمْ }
485 – 38	البقرة: 274	{وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا }
485-277	البقرة: 275	{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِجُ الصَّدَقَاتِ }
296-42	البقرة: 277	يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا
14	البقرة: 281.	{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ }
299	البقرة: 285	{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا }

310	آل عمران: 19	{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}
249	آل عمران: 48	{وَابْرِءِ الْكُمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَالْأَخْيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}
374	آل عمران: 54.	{فَلِإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}
12	آل عمران: 63.	{فَلْ يَتَأْهِلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ}
52	آل عمران: 64	{هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}
190	آل عمران: 67	{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلذِّينِ اتَّبَعُوهُ}
314 – 12	آل عمران: 70	{يَتَأْهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}
47	آل عمران: 74	{وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنِ إِنْ تَأْمَنَهُ بِنُطْقِ يُوْدِهِ إِلَيْكَ}
312	آل عمران: 74	{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}
371	آل عمران: 77	{وَإِنْ مِنْهُمْ لَقَرِيفًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ}
170	آل عمران: 85	{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}
209	آل عمران: 93.	{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ}
369	آل عمران: 93	{فُلْ قَاتُوا بِالتَّوْبَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}
229	آل عمران، 94	{يَتَأْهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ}
229	آل عمران: 95	{فُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}
453	آل عمران: 101	{وَمَنْ يَّعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}
177	آل عمران: 112	{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}
451	آل عمران: 119	{هَآأَنْتُمْ أَهْلُآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}
296 – 42	آل عمران: 130	{يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا الرِّبَاَ}
279	آل عمران: 137	{فَدُ خَلَّتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}
325 – 56	آل عمران: 159	{فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ}
26	آل عمران: 179	{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ}
375	آل عمران: 185	{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِفَةٌ الْمَوْتِ}
14	آل عمران: 187.	وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ ءَاثَرُوا الْكِتَابَ
242 – 28	آل عمران: 190	إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

328	النساء: 3	{ فَإِنْ خِفْتُمْ ۚ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً }
128	النساء: 6	{ فَإِذَا دَبَعْتُمْ ۚ إِلَيْهِمْ ۚ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ }
257	النساء: 7	{ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ }
312	النساء: 10	{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا }
338	النساء: 11	{ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ }
277	النساء: 19	{ وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ }
290	النساء: 20	{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ۖ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ }
297	النساء: 22	{ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ }
297 – 240	النساء: 25	{ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ }
239	النساء: 25	{ فَإِذَا أَهْضِمْتُمْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِغِلَظٍ }
44	النساء: 26	{ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ }
44	النساء: 29	{ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ }
256	النساء: 30	{ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ }
42	النساء: 43	{ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَفْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ }
306	النساء: 45	{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ }
238	النساء: 32	{ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا }
54	النساء: 58.	{ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }
451 – 57	النساء: 62	{ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ }
293	النساء: 76	{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ فِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ }
474 – 53	النساء: 81	{ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ }
49	النساء: 86	{ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا }
269	النساء: 89	{ فَإِنْ اِغْتَزَلْتُمْ فَلَمْ يَفْتَلُوكُمْ }
333	النساء: 92	{ وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًا ۖ جَهَنَّمَ }
75-40	النساء: 93.	{ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا }

263	النساء: 94	{لَا يَسْتَوِي الْفَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}
218	النساء: 94	{غَيْرِ أَزْوَاجٍ الضَّرَرِ}
292	النساء: 100	{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ}
191	النساء: 101	{وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ}
49	النساء: 121	{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ فِيلًا}
256	النساء: 126	{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ فَلِ اللَّهِ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}
264	النساء: 126	{وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}
29	النساء: 134	{يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْفِسْطِ}
291	النساء: 135	{يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}
313	النساء: 154	{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}
177	النساء: 156	{فَبِمَا نَفَضِهِمْ مِّثْلَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَعَايَتِ اللَّهِ}
349 – 41	النساء: 159	{فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ}
303	النساء: 162	{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}
295	النساء: 164	{رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}
186 – 162	النساء: 170	يَأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
184	النساء: 170	{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ}
304	النساء: 171	{وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ إِنْتَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ}
283 – 43 – 32	المائدة: 4	{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}
256	المائدة: 5	{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ}
346 – 64	المائدة: 9	{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ فَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا}
314	المائدة: 14	فَبِمَا نَفَضِهِمْ مِّثْلَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا
314	المائدة: 15	{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي}
183	المائدة: 16	{يَأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا}
189 – 181	المائدة: 20	{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ}

257	المائدة: 40	{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا }
313	المائدة: 43	{يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يُخْزِنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ }
12	المائدة: 43	{وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ }
370	المائدة: 43.	{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ }
363	المائدة: 50	{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ }
385	المائدة: 50	{لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا }
475	المائدة: 51	{وَأَنَّا نَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ }
327	المائدة: 52	{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ }
352 – 313	المائدة: 66	{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ }
313	المائدة: 74	{لَفَذَ كَعَبَرِ الَّذِينَ قَالُوا }
321 – 183	المائدة: 75	{لَفَذَ كَعَبَرِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ }
192 – 174	المائدة: 84	{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ }
180	المائدة: 85	{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ }
318	المائدة: 91	{بِكَفَرَتْهُوَ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ }
465 – 42	المائدة: 92	{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ }
263	المائدة: 102	{فُلَ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ }
362	المائدة: 118	{ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَءِئِمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ }
245	الأنعام: 3	{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ فَضَّلَ أَجَلًا }
469	الأنعام: 12	{فُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا }
384	الأنعام: 15	{فُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا }
430	الأنعام: 35	{وَلَفَذَ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ بَصَبْرًا }
441	الأنعام: 39	{مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }
384	الأنعام: 41	{أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

192	الأنعام: 44	{وَلَكِنَّهُمْ قَسَتْ فُلُوبُهُمْ }
268	الأنعام: 49	{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }
172	الأنعام: 68	{قَلَّا تَفْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
291	الأنعام: 71	{وَأَمِزْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
140	الأنعام: 77	{قَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ }
246	الأنعام: 79	{وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ }
118	الأنعام: 80	{إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهَى لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيعًا }
243	سورة الأنعام: 82	{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ }
368	الأنعام: 82	{قَبَّأى الْقَبْرِيفِى أَحَقُّ بِالْأَمِّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }
368 – 33	الأنعام: 83	{الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ }
243	الأنعام: 84	{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ }
351	الأنعام: 91	{فُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا }
310	الأنعام: 91	{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }
314	الأنعام: 92	{وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }
308	الأنعام: 92	{فُلْ مِّنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى }
231	الأنعام: 96	{إِنَّ اللَّهَ قَلِيلٌ الْحَبِّ وَالنَّوَى }
230	الأنعام: 104	{لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ }
336 – 55	الأنعام: 109	{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ }
480	الأنعام: 116	{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا }
407	الأنعام: 123	{أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ }
257	الأنعام: 144	{ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ }
254	الأنعام: 146	{فُلْ لَا أَجِدُ مَآءُوحًى إِلَىٰ مُحَرَّمًا }
270	الأنعام: 148	{فَبِإِذْكَ دُوبُوكَ قَبْلُ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ }
194	الأنعام: 149	{فُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا }
310	الأنعام: 156	{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ }

314	الأعراف: 22	رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا
311	الأعراف: 26	{يَبْنِيْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ }
528	الأعراف: 29	{وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا }
200	الأعراف: 56	{وَهُوَ الَّذِيْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ نُّشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِيْهِ }
348	الأعراف: 58	{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَى قَوْمِيْهِ }
383	الأعراف: 64	{يَقُوْمُ اعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ }
313	الأعراف: 66	{فَالَ يَقُوْمُ لَيْسَ بِهٖ سَبَآهَةٌ }
298	الأعراف: 74	{فَالَ اَلْمَلَا الَّذِيْنَ اِسْتَكْبَرُوْا مِّنْ قَوْمِيْهِ }
315	الأعراف: 79	{اَتَاْتُوْنَ الْفَحِيْشَةَ مَا سَبَفَكُمْ بِهَا مِّنْ اَحَدٍ مِّنْ اَلْعٰلَمِيْنَ }
336	الأعراف: 95	{وَلَوْ اَنَّ اَهْلَ الْفُرْيٰى ءَامَنُوْا وَاتَّقَوْا }
422	الأعراف: 112	{وَجَآءَ السَّحَرَةُ بِرَعْوٰى }
549	الأعراف: 114	{فَالُوْا يٰمُوسٰى اِمَّا اَنْ تُلْفٰى }
43	الأعراف: 146	{سَآصِرٍ عَن - اِيْتٰى الَّذِيْنَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِى الْاَرْضِ }
374	الأعراف: 156	{وَاَكْتُبْ لَنَا فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْاٰخِرَةِ }
479 – 253	الأعراف: 157	{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰثٰتِ }
359-11	الأعراف: 158	فَلْ يَتَّخِذْهَا النَّاسُ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ
75	الأعراف: 159	{وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسٰى اِثْمَةٌ يَّهْدُوْنَ بِالْحَقِّ وَبِهٖ يَّعْدِلُوْنَ }
46	الأعراف: 163	{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُوْا بِهِ } }
146	الأعراف: 172	{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ }
440	الأعراف: 172	{ اَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }
429 – 21	الأعراف: 176	{فَاَفْضٰصِ الْفَضٰصَ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُوْنَ }
153	الأعراف: 179	{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيْرًا مِّنَ الْجِيْنِ وَالْاِنْسِ }
284	الأعراف: 182	{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُوْنَ }
19	الأعراف: 198.	{وَتَرِيَهُمْ يَنْظُرُوْنَ اِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُوْنَ }
25	الأعراف: 199	{حٰذِ الْعَفْوَ وَاْمُرْ بِالْعُرْفِ }
146	الأعراف: 272	{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ }

412	الأنفال: 3	{وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَبِعِلْمُوٓا۟ أَنَّكُمْ عَنِ الْمُعْجِزَةِ ٱللَّهُ }
236	الأنفال: 22	إِنْ شَرَّ ٱلدَّوَّآبِ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
234	الأنفال: 30	{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ }
248	الأنفال: 31	{لَوْ نَشَآءُ لَفَلَنَّا مِثْلَ هَٰذَا }
253	الأنفال: 33	{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ }
204	الأنفال: 36	{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ }
415	الأنفال: 43	{لِيَهْلِكَ مَنِ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ }
448	الأنفال: 44	{لَا يَسْتَنْذِثُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ }
466	الأنفال: 45	{وَأَرْتَابَتْ فُلُوبُهُمْ }
224	الأنفال: 62	{وَإِنْ جَنَحُوا۟ لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ }
223 – 212	الأنفال: 91	{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ }
270	التوبة: 4	{إِلَّا ٱلَّذِينَ ٱلْهَدَّتُمْ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }
265	التوبة: 5	{فَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرْمِ }
183 – 179	التوبة: 20	{وَقَالَتِ ٱلنَّصْرَى ٱلْمَسِيحُ ابْنُ ٱللَّهِ }
255	التوبة: 28	{إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ }
320 – 47	التوبة: 30	{وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ ٱللَّهِ }
187	التوبة: 30	{ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ }
486	التوبة: 35	{وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْبِضَّةَ }
28	التوبة: 51	{فَلَن يُّصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا }
318	التوبة: 59	{إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ }
326	التوبة: 67	{ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ }
326	التوبة: 72	{وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ }
403	التوبة: 72	{وَٱؤْتِيكَ سَيِّرَٰتِهِمُ ٱللَّهُ }
263	التوبة: 73	{وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّٰتٍ }
263	التوبة: 110	{أَقْبَسُ سِسِّ بُنْيَنُهُ، عَلَى تَفْوِيٍّ مِّن ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ }

24	التوبة: 123	{قَلُولًا نَقَرٍ مِّن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ }
343	يونس: 3	{خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }
278	يونس: 4	{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا }
150	يونس: 12	{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ فَاعِدًا أَوْ فَايِمًا }
250	يونس: 38	{أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرِيَهُ فَلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ }
277	يونس: 57	{يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ }
426	يونس: 67	{وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ }
26	يونس: 101	{فَلْ نُنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }
41	هود: 1	{أَلَمْ يَكُنْ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ }
248	هود: 13	{أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرِيَهُ فَلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ }
248	هود: 14	{فَبِأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ }
280-102	هود: 24	{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ }
437	هود: 28	{أَنزَلْنَاهُ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ }
505	هود: 36	{وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ }
249	هود: 41	{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسِيهَا }
302	هود: 49	{تِلْكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ }
155	هود: 54	{إِنْ نَقُولُ إِلَّا ابْتَغِيكَ بَعْضُ الْهَيْئَاتِ بِسُوءٍ }
55	هود: 88	{إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ }
363 – 333	هود: 99	{أَبَآنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }
447	هود: 108	{وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا }
351	هود : 114	{وَأَفِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ }
46	هود: 117	{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ }
63	هود: 118	{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِمِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ }
264	هود: 119	{وَكَلَّا نَفُصِّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ الرُّسُلِ }
53	يوسف : 1	{أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }
498	يوسف: 3	{نَحْنُ نَفُصِّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصَصِ }

365	يوسف: 17	{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}
314	يوسف: 23	{وَعَلَّغَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ}
452	يوسف: 32	{وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ}
73	يوسف: 39	{يَصْلَحِي السَّجْنَاءَ رَبَّابٌ مُتَقَرِّفُونَ}
484	يوسف: 51	{إِنَّمَا حَصْحَصَ الْحَقُّ}
388-29	يوسف: 53	{وَمَا أَتَيْنَا نَفْسِي}
65	يوسف: 76	{وَبَقِيَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}
366	يوسف: 80	{أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا}
462	يوسف: 82	{وَسَأَلَ الْفَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}
238	يوسف: 106	{وَمَا يَوْمٌ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}
51	يوسف: 107	{فُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ}
501	يوسف: 111	{لَقَدْ كَانَ فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}
524	الرعد: 2	{الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ}
202	الرعد: 5	{وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذًا كُنَّا ثَرْبًا}
350	الرعد: 9	{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى}
46	الرعد: 12	{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}
198	الرعد: 13	{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْبًا وَطَمَعًا}
431	الرعد: 19	{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}
463	الرعد: 32	وَلَوْ أَنَّ فُرْءَانَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ
403	الرعد: 36	{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ}
228	الرعد: 41	{وَإِنْ مَا نُزِينَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ}
44	إبراهيم: 5	{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}
150	ابراهيم: 13	{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ}
338	ابراهيم: 26	{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}
337	ابراهيم: 27	{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}
312	ابراهيم: 47	{وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}

366	الحجر: 9	{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}
409	الحجر: 29	{فَفَعُوا لَهُ سَلْجِدِينَ}
448	الحجر: 30.	{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}
325	الحجر: 39	{نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}
67	سورة الحجر: 88.	{وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}
290	النحل: 10	{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ}
23	النحل: 44	{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ}
320	النحل: 51	{فَبِإِيَّايَ قَارِهَبُونَ}
234	النحل: 57	{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}
236	النحل: 58	{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}
480	النحل: 60	{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ}
369	النحل: 64	{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ}
572	النحل: 67	{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ}
148	النحل: 78	{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}
520	النحل: 89	{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}
565	النحل: 90	{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ}
445	النحل: 91	{وَلَا تَنْفَضُوا الْيَمِينَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}
285	النحل: 96	{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ}
551	النحل: 101	{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}
233	النحل: 103	{إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ}
247	النحل: 103	{لِّسَانَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ}
314	النحل: 112	{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ أَمِينَةً}
470	النحل: 112	{فَإِذَا فُهِقَ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}
255	النحل: 116	{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}
402	النحل: 119.	{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ}

64	النحل: 125	{ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ }
233	النحل: 126	{ وَلَيْسَ صَبْرُتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ }
300	الإسراء: 1	{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا }
272 – 103	الإسراء: 9	{ إِنَّ هَذَا الْفُرْعَانُ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَفْوَمُ }
324	الإسراء: 29	{ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْفِكَ }
195	الإسراء: 31	{ وَلَا تَفْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَئِي }
253 – 39	الإسراء: 36	{ وَلَا تَفُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ }
357 – 144	الإسراء: 42	{ فُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا تَفُولُونَ }
454	الإسراء: 47	{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ }
244	الإسراء: 51	{ فَسَيَفُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا فُلِ الذِّمَّةُ بَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ }
322	الإسراء: 59	{ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيعًا }
357	الإسراء: 70	{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ }
553	الإسراء: 72	{ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى }
351	الإسراء: 78	{ أَفَمِ الصَّلَاةِ لِلذِّكْرِ الشَّمْسِ }
414 – 412	الإسراء: 81	{ وَفُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ }
515	الإسراء: 88	{ فُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ }
481	الإسراء: 89.	{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْفُرْعَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ }
245	الإسراء: 94	{ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى }
245	الإسراء: 95	{ فُلْ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ }
155	الإسراء: 101	{ وَلَقَدْ - آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ }
337	الإسراء: 102	{ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَهْرَعُونَ مَثُورًا }
406	الإسراء: 103	{ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ الْأَرْضِ }
49	الإسراء: 106	{ وَفُرْعَانًا فَرَفَنَاهُ }
487	الإسراء: 109	{ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ }
324	الكهف: 1	{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ }

73	الكهف: 6	{فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ}
525	الكهف: 9	{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ}
525	الكهف: 13	{نَحْنُ نَفُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ}
525	الكهف: 17	{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ}
503	الكهف: 19	{وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ}
426-156	الكهف: 21	{وَكَذَٰلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ}
426	الكهف: 24	{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}
268	الكهف: 29	{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ}
448	الكهف: 33	{كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا}
485	الكهف: 44	{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا}
339	الكهف: 48	{لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}
429	الكهف: 53	{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ}
66	الكهف: 53	{وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}
44	الكهف: 56	{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا}
498	الكهف: 63	{فَارْتَدَّ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا}
412	الكهف: 74	{أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}
11	مريم: 11.	{يَلِيحِيى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}
404	مريم: 16	{فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}
288	مريم: 17	{إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَفِيًّا}
422	مريم: 19	{أَبْنَىٰ يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا}
423	مريم: 20	{فَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ}
186	مريم: 21	{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا فَصِيًّا}
224	مريم: 29	{فَآتَتْ بِهِ فَوْمَهَا تَحْمِلُهُ}
449	مريم: 32	{وَيَوْمَ ابْعَثْ حَيًّا}

296	مریم: 4	{يَتَأْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ }
72	مریم: 44	{يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ }
318	مریم: 46	{قَالَ أَرَأِغِبُ أَنْتَ عَنْ -إِلَهْتِ }
144	مریم: 91	{يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ }
176	طه: 4	{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }
379	طه: 35	{قَالَ فَذُ اوتيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى }
453	طه: 39	{وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى }
59	طه: 42	{إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }
476	طه: 51	{لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى }
260	طه: 62	{إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَا }
479	طه: 62	{وَيَذْهَبَا بِطَرِيفَتِكُمُ الْمُثْلَى }
69	طه: 64	{قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْفَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى }
69	طه: 68	{وَأَلْوِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَفَّفَ مَا صَنَعُوا }
69	طه: 69	{قَبِئْلَفَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }
319	طه: 74	{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَذُ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ }
463	طه: 76	{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ إِسْرِ بِعِبَادِي }
464	طه: 77	{بَغْشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ }
404	طه: 102	{إِذْ يَقُولُ أَمْثَلَهُمْ طَرِيفَةً إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا }
146	طه: 107	{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا }
398	طه: 110.	{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ فُرْعَانًا عَرَبِيًّا }
56	طه: 111	{وَلَا تَعْجَلْ بِالْفُرْعَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ }
450	الأنبياء: 5	{بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ إِبْتِرِيهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ }
39	الأنبياء: 10	{لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ }
479	الأنبياء: 17	{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا }
170	الأنبياء: 22	{لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }

137 – 50	الأنبياء: 24	{فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}
445 – 200	الأنبياء: 30	{أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
372	الأنبياء: 31	{وَجَا جَاءَ سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}
201	الأنبياء: 43	{أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا}
281	الأنبياء: 44	{أَقْبَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُضُهَا مِ
15	{ الأنبياء: 51	{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ
24	الأنبياء: 62	{فَالَوْ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ}
13	الأنبياء: 66	{أَقْتَعِبُدُونَ مِ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْبَغُكُمْ شَيْئًا}
19	الأنبياء: 67.	{إِن لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِ دُونَ اللَّهِ أَقْبَلًا تَعْمَلُونَ}
318	الأنبياء: 89	{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}
264	الأنبياء: 89	{وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}
207 – 206	الأنبياء: 97	{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِ دُونَ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}
207	الأنبياء: 98	{لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُّوهَا}
388	الحج: 1	{يَأْتِيهَا النَّاسُ بُتْفُوا رَبَّكُمْ}
281	الحج: 1	{إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}
61 – 34	الحج: 3	{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}
201 – 171	الحج: 5	{يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ}
282	الحج: 19	{بِالَّذِينَ كَفَرُوا فَطِطَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن بَارٍ}
277	الحج: 25	{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}
469	الحج: 32	{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا}
268	الحج: 37	{إِذِ لِلَّذِينَ يُفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}
388	الحج: 44	{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ}
532	الحج: 65	{لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ}
449 – 404	الحج: 71	{يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ}

345	الحج: 76	{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}
268	الحج: 76	{لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ}
346	المؤمنون: 03	{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}
447	المؤمنون: 12	{وَلَفَدُ خَلْفُنَا إِلَّا نَسْنِ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِيٍّ}
391 – 389	المؤمنون: 15	{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ}
395 – 375	المؤمنون: 36.	{هَيِّهَاتَ هَيِّهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ}
247	المؤمنون: 45	{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا}
408	المؤمنون: 54	{كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ}
83	المؤمنون: 116	{أَفَحَسِبْتُمْ أَنْنَا خَلْفَنَكُمْ عَبَثًا}
59	المؤمنون: 118	{وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً - آخَرَ}
309	النور: 2	{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا}
334	النور: 19	{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ}
486	النور: 25	{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}
289	النور: 33	{وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ}
486	النور: 39	{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُّجِّيٍّ}
486	النور: 38	{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ}
449	النور: 43	{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ}
328	النور: 53	{وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}
312	النور: 57	{وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ}
272	النور: 53	{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ}
266	النور: 61	{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}
478-10	الفرقان: 1	{تَبَرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}
246	الفرقان: 4	{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَآءُ إِفْكٍ يُفْتَرِيهِ}
173	الفرقان: 5	{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا}
461 – 196	الفرقان: 32	{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانُ}
410	الفرقان: 67	{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْعَفُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُفْتِرُوا}

73	الشعراء: 2	{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}
468	الشعراء: 8.	{وَإِنْ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}
440	الشعراء: 17	{أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}
194	الشعراء: 22	{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}
299	الشعراء: 63	{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ إِضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ}
533	الشعراء: 92	{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}
344	الشعراء: 213	{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}
277	النمل: 14	{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}
48	النمل: 22	{وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينِ}
48	النمل: 27	{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}
452	النمل: 43	{فَلَمَّا جَاءَتْ فِيلٌ أَهْلَكَذَا عَزَّشِكِ قَالَتْ كَانََّهُ هُوَ}
314	النمل: 62	{وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْبَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}
60	النمل: 66	{أَمْنَ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}
28 – 10	النمل: 66	{أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ}
401	النمل: 86.	{أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا}
433	النمل: 90	{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}
363	سبأ: 17	{وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ}
62	سبأ: 24	{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينِ}
279	سبأ: 28	{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}
19	سبأ: 46	{فُلٍ إِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بِوَاحِدَةٍ}
260-427	القصص: 3	{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}
421	القصص: 10	{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ فُصِّيه}
260	القصص: 40	{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}
25	القصص: 60	{وَمَا أَوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا}
488	القصص: 77	{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ}

278	القصص: 77	{وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}
312	القصص: 77	{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}
313	القصص: 81	{إِنَّ فَارُوقَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ}
325	العنكبوت: 7	{وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}
325	العنكبوت: 22	{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِفَآئِهِ}
455	العنكبوت: 32	{وَلَمَّا أُنْجِيَ رَسُولُنَا لُوطًا}
431	العنكبوت: 40	{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ}
24	العنكبوت: 43.	{وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}
560	العنكبوت: 45	{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}
64	العنكبوت: 46	{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}
517	العنكبوت: 48	{وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ}
15	العنكبوت: 61.	{وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}
303	الروم: 1	{أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ}
22	الروم: 8.	{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ}
243	الروم: 26	{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}
436	الروم: 28	{بِمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}
42	الروم: 29	{فَأَفِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}
144	الروم: 29	{فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَٰهَ فِطْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا}
291	الروم: 32	{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}
334	الروم: 38	{وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ آيَةٍ}
340	الروم: 46	{وَكَانَ حَفًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}
281	الروم: 47	{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ}
61	لقمان: 12	{يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}
68	لقمان: 16	{وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ}
196	لقمان: 20	{بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا}
124 – 101	لقمان: 24	{وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ}

263	السجدة: 18	{ أَقِمَّ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَّ كَانَ فَاسِفًا }
193	الأحزاب: 10	{ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ قَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْقَلَ مِنْكُمْ }
224	الأحزاب: 25	{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ }
309	الأحزاب: 40	{ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ }
233	الأحزاب: 48	{ وَدَعَ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }
149	الأحزاب: 72	{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }
476	الأحزاب: 72	{ وَحَمَلَهَا إِلَّا نَسْأُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }
117	فاطر: 1	{ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }
471	فاطر: 19.	{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ }
336	فاطر: 43	{ فَلَسْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا }
465	يس: 15	{ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ }
450	يس: 35	{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا }
524	يس: 37	{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا }
171	يس: 76	{ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْقَةٍ }
415	يس: 77	{ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ }
202 – 142	يس: 78	{ فُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ }
227	الصفافات: 51.	{ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ }
437	الصفافات: 95	{ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ }
437	الصفافات: 153	{ أَصْطَقَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ }
245	ص: 3	{ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ }
234	ص: 3	{ وَفَالِ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ }
169	ص: 25	{ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ }
23	ص: 28	{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ }
279	ص: 85	{ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }
301	ص: 86	{ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ }

227	الزمر: 5	{لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّا صُطْبِئِي}
511	الزمر: 10	{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً {
77	الزمر: 17	{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}
457 – 243	الزمر: 22	{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}
363	الزمر: 18	{أَقَابَتْ تُنْفِذُ مَسْ فِي الْبَارِ {
409	الزمر: 26	{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ {
367	الزمر: 35	{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ {
271	الزمر: 68	{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا {
271	الزمر: 70	{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا {
270	غافر: 2	{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ {
401	غافر: 36.	{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَاسُ {
399 – 397	غافر: 38.	{وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَفْؤْمِ اتَّبِعُونِ {
198	غافر: 56	{لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ {
445	فصلت: 10	{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ {
461 – 196	فصلت: 21	{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ {
269	ص: 27	{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ {
406	فصلت: 29	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْؤْمُوا {
41	فصلت: 32	{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا قَالَ {
70	فصلت: 33	{وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ {
368	فصلت: 40	{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ {
38	فصلت: 41	{لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ {
443 – 32	فصلت: 52	{سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقَاِ {
144	الشورى: 3	{يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْ قَوْفِهِنَّ {
289	الشورى: 5	{لِنُنْذِرَ ءِمْ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا {

54	الشورى: 8	{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}
177	الشورى: 9	{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}
473	الشورى: 11	{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}
475	الشورى: 13	{وَقُلْ- اٰمَنْتُ بِمَا اَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ}
382	الشورى: 34	{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْمِرُونَ}
383	الزخرف: 1	{ جَمٌّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ }
456		{لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} الزخرف: 19
455	الزخرف: 21	{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا}
236	الزخرف: 21	{ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ }
19	الزخرف: 23	{فَلْأَوَّلُ حِثُّكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}
143	الزخرف: 26	{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}
453	الزخرف: 38	{وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ }
438	الزخرف: 39	{أَقْبَانَتْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى }
348	الزخرف: 43	{وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}
249	الزخرف: 58	{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}
279	الزخرف: 59	{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْبًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ}
290	الزخرف: 63	{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ }
378	الزخرف: 64	{إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}
470	الدخان: 41	{ذُو انِّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}
168	الجاثية: 02	{إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ}
473 – 29	الجاثية: 17	{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا}
228	الجاثية: 15	{وَلَقَدْ- اٰتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ }
34	الجاثية: 22	{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ }
64	الجاثية: 23	{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا }

137	الأحقاف: 3	{إِيتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا }
248	الأحقاف: 8	{فُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ }
22	الأحقاف: 25	{وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيْمَا إِنْ مَّكَنَّكَم فِيهِ }
259	الأحقاف: 34	{قَاصِرٌ كَمَا صَبَرِ الْوُلُؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}{ }
297	محمد: 4	{فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا }
380- 40 - 16	محمد: 20.	{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ }
19	محمد: 25	{وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ }
114	الفتح: 29	{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ }
252	الفتح: 27	{لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ }
39 - 27	الحجرات: 6	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }
113 - 103	الحجرات: 9	{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }
259	الحجرات: 12.	{وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا }
237	الحجرات: 13	{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَءَنثَى }
444	ق: 7	{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ }
32	الذاريات: 21	{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ }
446	الذاريات: 47	{وَالسَّمَاءِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }
203	الذاريات: 52	{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }
297	الذاريات: 56	{وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوا }
375	الطور: 5	{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا }
271	الطور: 19	{وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ }
271	الطور: 27	{فَذَكِّرْ بَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ }
454	الطور: 31	{أَمْ يَقُولُونَ تَفَوَّلَهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ }
244 - 197	الطور: 33	{أَمْ خُلِيفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ }
197	الطور: 36	{قَلِيلَاتٍ مُّسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ }

298	الطور: 46	{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}
450	الطور: 49	{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}
249	النجم: 13	{وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ}
50	النجم: 19.	{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ}
28	النجم: 23	{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ}
238	النجم : 28	{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}
44	النجم: 31	{فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ}
387	النجم: 43	{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى}
413	النجم: 57	{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}
300	القمر: 1	{إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}
470	القمر: 17	{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}
384	القمر: 24	{أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ}
252	القمر: 44	{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ}
480	القمر: 49	{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}
471	الرحمن: 11.	{قَبَائِيءَ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ}
444	الرحمن : 17	{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَفِيَسِ}
409	الواقعة: 1	{إِذَا وَفَعَتِ الْوَافِعَةُ}
372	الواقعة: 4.	{إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا}
414	الواقعة: 25	{وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ}
349	الواقعة: 60.	{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}
309	الواقعة: 80	{إِنَّهُ لَفُرْعَانٌ كَرِيمٌ}
266	الحديد: 26	{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً}
328	الحديد: 26	{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}
138	الحديد: 24	{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}
255	المجادلة: 1	{فَدَسَمِيَاعَ اللَّهُ قَوْلَ الْتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا}

251	المجادلة: 20	{ كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي }
193	الحشر: 8	{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ }
266	الحشر: 13	{ لَا نَتَمَنَّوْا أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ }
453	الحشر: 20	{ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ }
456	الحشر: 21	{ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }
224	المتحنة: 8	{ لَا يَنْهِيكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفْتِلَوْكُمْ فِي الدِّينِ }
193	المتحنة: 9	{ إِنَّمَا يَنْهِيكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ فَتِلَوْكُمْ فِي الدِّينِ }
38 – 31	الصف: 2	{ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ }
179	الصف: 14	{ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ }
132	الصف: 10	{ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَى تَجَرَّةٍ }
440	الجمعة: 2	{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ }
417 – 280	الجمعة: 5	{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ }
286	التغابن: 16	{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }
465	الطلاق: 1	{ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ }
27	التحريم: 1	{ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ }
396-337	التحريم: 9	{ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ }
420	التحريم: 11	{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ }
143	الملك: 3	{ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا }
306	الملك: 6	{ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ }
162	الملك: 11.	{ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }
409	الملك: 15	* أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ
473	الحاقة: 1	{ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ }
340	المعارج: 1	{ سَالَ سَابِيلٌ بِعَذَابٍ وَإِغِي }
233	المزمل: 9	{ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا }
413	المزمل: 18	{ وَأَفِيضُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ، }

448	المدثر: 4	{وَتِيَابَكَ طَهَّرَ}
453-19	المدثر: 28	{إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ}
247	المدثر: 23	{قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}
204	القيامة: 36	{أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنِي}
365-192	الإنسان: 1	{هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ}
526	الإنسان: 2	{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّن نُّطْقَةٍ أَمْشَاجٍ}
372	الإنسان: 15	{فَوَارِيرًا}.
298	الحاقة: 44	{وَلَوْ تَفَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ}
544	النازعات: 1	{وَالنَّازِعَاتِ غَرْفًا}
435	النازعات: 41	{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا}
529	عبس: 25	{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}
339	عبس: 42	{يَوْمَ يَمِرُّ الْمَرْءُ مِّنَ أَخِيهِ}
142	الانفطار: 1	{إِذَا السَّمَاءُ انْقَطَرَتْ}
339	الانفطار: 17	{وَمَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمَ الدِّيسِ}
189	الطارق: 5	{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}
38	الطارق: 13	{إِنَّهُ، لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿٣٨﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}
446	الطارق: 17	{فَمَهْلٍ الْكُبَرِيِّينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤُودًا}
364	الأعلى: 18	{إِنَّ هَذَا لَمِنَ الصُّحُفِ الْأُولَى}
449 – 169	الغاشية: 17	{أَفُلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}
366	الفجر: 4	{هَلْ فِي ذَلِكَ فَسَمٌ لِّذِي حَجَرٍ}
241	البلد: 11	{فَلَا يَفْتَحَمَ الْعَفْبَةَ}
29	الشمس: 7	{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَهَا}
483	الشمس: 9	{فَدَا بَلَحَ مَسَ زَكَّيْهَا}
275	الضحى: 1	{وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}
367	الضحى: 6	{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَءَاوَى}

367	الشرح: 1	{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }
395	الشرح: 5.	{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا }
264	الشرح: 8	{ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ }
435 – 35	العلق: 01	{ إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }
400	العلق: 9.	{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ }
282	الزلزلة: 6	{ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا }
268	الزلزلة: 8.	{ بَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ }
276 – 61	الهمزة: 1	{ وَيُلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ }
394-290	الكافرون: 1	{ فُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَاِبِرُونَ }
413	الكافرون: 6.	{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِي }
275	المسد: 1	{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }
30-12	<u>الإخلاص: 1.</u>	{ فُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }
402	الناس: 1.	{ فُلْ آَعُوذُ بِرَبِّ }

فهرس الآحاديث النبوية

رقم الصفحة:	توثيق الحديث:	طرف الحديث:
178	صحيح البخاري	اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود
34	متفق عليه	أحب الأعمال إلى الله أدومها
275	صيح البخاري	احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم
252	صحيح البخاري	أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب،
297	صحيح البخاري	إخونكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم
288	متفق عليه	ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني

		رسول الله
270	تاريخ دمشق لابن عساكر	ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة
65	سنن أبي داوود	أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ
218	الموطأ	أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ
58	صحيح مسلم	إِنْ الرِّفْقُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ
250	متفق عليه	أَنْ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرِيَهُمْ آيَةً
47-63	سيرة ابن إسحاق	إِنْ بِهَا مَلَكًا لَا يَظْلِمُ النَّاسَ بِبَيْلَادِهِ
292	تفسير الطبري	أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ
46	دلائل النبوة، للبيهقي	إِنْ لَهُ لِحَلَاوَةٌ
192	صحيح البخاري	إِنْ يَعْشَ هَذَا لَا يَدْرِكُهُ الْهَرَمُ
195	متفق عليه	إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ
319	صحيح البخاري	أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ
339	المسند، للإمام أحمد	إِنَّكُمْ أُمَّةٌ أَرِيدَ بِكُمْ الْيَسْرَ
178	سيرة ابن هشام	إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ
287	صحيح البخاري	إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ سُورَةُ مِنَ الْمَفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ
204	شعب الإيمان، للبيهقي	إِنَّمَا يَعْلَمُ مُحَمَّدًا عَبْدَ لَّالِ الْحَضْرَمِيِّ
286	صحيح البخاري	أَوَّلَ مَا بَدِءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ
23	صحيح البخاري	إِيْهِ، أَوْ هِيَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ
64	صحيح مسلم	تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ
453	مستدرک الحاكم	جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ
218	صحيح البخاري	دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدًا فَكَتَبَهَا
133	[الحاكم في المستدرک]	ذَاكَمُ فَتَى الْكُهُولِ، إِنْ لَهُ لِسَانًا سُؤْلًا وَقَلْبًا عَقُولًا"
481	صحيح البخاري	رَفَعَ الْقَلَمَ عَنْ ثَلَاثَةِ
34-300	صحيح البخاري	سَدَدُوا وَقَارِبُوا
62	صحيح البخاري	صَدَقْتُ وَهُوَ كَذُوبٌ
217	صحيح البخاري	فَتَنَّبَعَتِ الْقُرْآنَ أَجْمَعَهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللَّخَافِ

291	متفق عليه	فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين
292	صحيح ابن حبان	فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين
258	سنن الترمذي	فَلَهَا الْمَهْرُ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا
206	المعجم الكبير ، للطبراني	فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيزا
292	متفق عليه	كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بصيام يوم عاشوراء
240-297	سنن الترمذي	كل الناس من آدم وآدم من تراب
140	سنن الدارمي	كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون
61	صحيح البخاري	الكلمة الطيبة صدقة
213	سنن الترمذي	كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع
331	صحيح مسلم	لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله
218	صحيح مسلم	لا تكتبوا عني
60	سنن الترمذي	لا تكونوا إمعة
199	صحيح مسلم	ليبيك لا شريك لك
60	صحيح ابن حبان	ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان
64	صحيح مسلم	لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا
299	متفق عليه	ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما
157	مسند الإمام أحمد	ما من مسلم يدعو بدعوة
120	صحيح البخاري	ما من مولود إلا يولد على الفطرة
270	تفسير الطبري	من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده
338	صحيح مسلم	من رأى منكم منكرا فليغيره بيده
218	متفق عليه	نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو
157	صحيح البخاري	هلك المال وجاع العيال
481	متفق عليه	والذي نفس محمد بيده
309	متفق عليه	والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا
262	صحيح مسلم	وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ
288	صحيح مسلم	يا عائشة لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِشِرْكِ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ

60	متفق عليه	يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله
331	الكبرى للبيهقي	يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، السنن
327	صحيح البخاري	يسرّوا ولا تعسروا

لائحة أهم المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- أبجديات البحث في العلوم الشرعية، للدكتور فريد الأنصار رحمه الله، نشر دار الفرقان، المغرب، ط 1، 1417هـ / 1997م.
- أبحاث في الفكر اليهودي" لحسن ظاظا، نشر: دار القم، دمشق - دار العلوم، بيروت، ط 1، 1407 هـ / 1987م،
- الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم، دراسة ونقد، للدكتور: أحمد محمد الفاضل، نشر: مركز الناقد الثقافي، دمشق.
- الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، تأليف: د. جمعة خولي، نشر: جامعة المدينة.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، نشر: المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م.
- إحصائية لحالات الميراث في الفقه الإسلامي، للعالم السوداني الشيخ عبد الجليل ندى الكاروري،
- أحكام القرآن، لابن العربي، تعليق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1424 هـ / 2003م.
- إحياء علوم الدين، للغزالي، نشر: دار المعرفة، بيروت.
- الأخطاء اللغوية في القرآن الكريم، للدكتور سامي عوض الذيب، ، نشر: مركز القانون العربي، 2017م.
- أدب الحرب والسلام في سورة الأنفال، نشر: دار المعارف، ط ذ، 989م.
- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد، لفضيلة الدكتور عمر بن إبراهيم رضوان، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 1، 1413 هـ / 1992م.
- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد، للدكتور عمر رضوان، نشر: دار طيبة، الرياض، ط 1، 1413 هـ / 1992م.
- إرشاد الفحول، للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزوز عناية، نشر: دار الكتاب العربي، ط 1، 1419 هـ / 1999م.
- إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة زتحصيلها وبيان العلل المؤثرة، لابن القيم، دراسة وتقيق: أيمن عبد الرزاق السوا، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت لبنا ج دار الفكر، دمشق، ط 1، 1417 هـ / 1996م.
- أزمة الإنسان ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، للدكتور: طه جابر، نشر: دار الشروق، سلسلات إسلامية.
- الأزمة الفكرية العالمية: نموذج معرفي قرآني، للدكتور علي صديقي، بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة: 15، العدد: 59.

- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون، نشر: دار الكتب العلمية، 1419 هـ / 1998م.
- أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، للدكتور الحسين جرنو محمود جلو، نشر: مؤسسة الرسالة - دار العلوم الإنسانية، ط 1، 1414 هـ / 1994م.
- أسباب النزول، للواحي، نشر: دار الباز للنشر والتوزيع - دار الاتحاد العربي للطباعة.
- استخراج الجدل من القرآن الكريم، لعبد الرحمن بن نجم الدين أبي الفرج ناصح الدين ابن الحنبلي، تحقيق: د. زاهر بن عواض الألمعي، نشر: مطابع الفرزدق التجارية، ط 2، 1401 هـ.
- الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، لإسحاق موسى الحسيني، نشر: مطبعة الأزهر.
- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، للدكتور: مصطفى السباعي، نشر: دار الوراقي - المكتب الإسلامي.
- الإسلام في عصر العلم، للدكتور محمد أحمد الغمراوي، نشر: مطبعة السعادة، ط 1، 1392 هـ / 1973م.
- الإسلام في قفص الاتهام، للدكتور: شوقي أبو خليل، نشر: دار الفكر، ط 5، 1402 هـ / 1986م.
- الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرزاق، دراسة ووثائق بقلم الدكتور محمد عمار، نشر: مكتبة الإسكندرية - الطبعة العربية الجديد، 2000.
- الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين، للدكتور محمد عمارة، نشر: مكتبة الشروق الدولية.
- الإسلام والغرب، للدكتور نور من دانييل، وكتاب الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، لمؤلفه: دودي بارت، ترجمة: الدكتور مصطفى ماهر، نشر: دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.
- إشكاليات الفكر العربي المعاصر، للدكتور عابد الجابري، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية.
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، لعبد الرحمان النحلاوي، نشر: دار الفكر، ط: 25، 1428 هـ / 2007م.
- أصول الحوار وآدابه في الإسلام، لصالح بن عبد الله بن حميد، نشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - مكة، ط 1، 1415 هـ / 1994م.
- أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، نشر: مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1395 هـ / 1975م.
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها = the History of the Decline and fall of the Roman Empire، لإدوارد جيبون، ترجمة: محمد علي أبو درة، تقديم: أحمد نجيب هاشم، نشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
- أضواء البيان، للشنقيطي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر.
- الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم (موقف العلماء منه وأثره في الإعجاز البياني)، للدكتور علي بن عبد الله علي علان، بحث منشور في مجلة "تبيان" للدراسات القرآنية، العدد: 23، السنة: 1437 هـ.

- الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم: دراسة تأصيلية تمثيلية، لعمر إسماعيل عبد الله سليمان، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة الفلسفة في الدراسات الإسلامية، ربيع الأول 1437 هـ / يناير 2016م، جامعة الجزيرة، كلية التربية - حنتوب.
- الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، لسيف بن منصر الحارثي، (بدون طبعة).
- الإعجاز الطبي في القرآن، للسيد الجميلي، نشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 3، 1402 هـ / 1982م.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لعبد السلام حمدان اللوح، دراسة أكاديمية محكمة، نشرتها مطبعة الآفاق، غزة.
- الإعجاز العلمي في القرآن، للدكتور السيد الجميلي، نشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، - دار الوسام، بيروت، لبنان، ط 2، 1992م.
- الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن، للدكتور فهد خليل زايد، نشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط 1، 1428 هـ / 2008م.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مطابع الأهرام، 1390 هـ / 1970م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط 9، 1393 هـ / 1973م.
- إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، نشر: دار المعارف - القاهرة.
- الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، نشر: المطبعة الميمونية، مصر، ط 1، 1897م.
- افتراءات على الإسلام والمسلمين، للدكتور أمير عبد العزيز، نشر: دار السلام، ط 1، 1422 هـ / 2002م.
- الاقتراض البنكي والاضطرار الشرعي: دراسة للموقف الفقهي من فتوى الشيخ يوسف القرضاوي في مسألة امتلاك السكن بقرض بنكي بالمغرب لفضيلة الدكتور إسماعيل الحسني، الطبعة الثانية: 2013م.
- الاقتصاد النقدي والمصرفي، لمصطفى رشدي شيحة، نشر: الدار الجامعية، بيروت، 1981م.
- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، لمالك بن نبي، نشر: دار الإرشاد، ط 1، 1388 هـ / 1969م.
- الانتصار للقرآن، للقاضي الباقلاني، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، نشر: دار ابن حزم، ط 1، 1422 هـ / 2001م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت، ط 4، 1998م.
- الإيمان بين الغيب والخرافة، لخميس بن راشد العدوي، وخالد بن مبارك الوهيبي، نشر: مكتبة الغبراء، ط 1، 1428 هـ / 2007م.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للإمام ابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، 1419 هـ.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد الحفيد، تنقيح وتصحيح: خالد العطار، مكتب البحوث والدراسات، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1415 هـ / 1995م.
- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق وتعليق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1408 هـ / 1988م.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني، نشر: دار الكتب العلمية، ط 2، 1406 هـ / 1986م.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 2 / 389، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391 هـ .
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1391 هـ،
- البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن الميداني.
- بيان إعجاز القرآن، للخطابي، مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" تحقيق وتعليق: محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام، نشر: دار المعارف، مصر، ط 3، 1976م.
- بيان مشكل الآثار، للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، نشر: دار صعب - بيروت، ط 1، 1968م.
- بين الطب والإسلام، د. حامد الغوابي، نشر: دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة 1967م،
- بين المسيحية والإسلام: أرضية مشتركة، للقمص زكرياء بطرس، منشور على موقع: www.fatherzakaria.com
- بينات المعجزة الخالدة، لحسن ضياء الدين عتر، نشر: دار النصر، سورية - حلب.
- تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 2، 1408 هـ / 1988م.
- تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، نشر: دار امعاريف.
- تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، للدكتور: محمد خليفة حسن، نشر: دار الثقافة العربية، 2002م.
- تاريخ الأمم والملوك، للطبري، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1407 هـ.
- تاريخ الجدل، لأبي زهرة، نشر: دار الفكر العربي.
- تاريخ القرآن، للمستشرق ثيودور نولدكه ترجمة وقراءة نقدية، للدكتور: رضا محمد الدقيقي، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1432 هـ / 2011م.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ دمشق، لابن عساكر، دراسة وتحقيق: علي شيري، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1419 هـ / 1998م.

- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي، نشر: دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ط 1، 1992م.
- تجريد المنطق، لنصير الدين الطوسي، نشر: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط 1، 1408هـ / 1988م.
- تحديد المفاهيم أولاً، للدكتور محمد البهي، نقلا عن كتاب أدب الحوار في الإسلام، للدكتور محمد سيد طنطاوي، نشر: دار النهضة، مصر، 1997م.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر: الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- التدرج بين التشريع والدعوة، للدكتور: يوسف أبو هلاله، نشر: المؤلف، ط 1، 1412هـ.
- التدرج في التشريع الإسلامي، للدكتور: ماهر حامد محمد الحولي، بحث مقدم لورشة عمل "تطبيق الشريعة الإسلامية في ضوء الواقع الفلسطيني" الذي تنظمه كلية الشريعة والقانون بالتعاون مع جمعية القدس للبحوث والدراسات الإسلامية، المنعقد يوم الخميس 19 / نوفمبر / 2009م.
- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، للدكتور عباد القادر عودة، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 14، 1422هـ.
- تصديق القرآن للكتب السماوية وهيمنته عليها، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة لإبراهيم عبد الحميد سلامة، نشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة: الثانية عشرة - العدد السادس والأربعون، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الثانية، 1440 هـ / 1980 م.
- التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، لأنيس القدسي، نشر: دار العلم للملايين.
- التعريفات، للرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، نشر: دار الكتاب العربي، ط 1، 1405هـ.
- تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420 هـ / 1999م.
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير الفخر الرازي = مفاتيح الغيب، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.
- تفسير القرطبي، تصحيح وتعليق: أحمد عبد العليم البردوني، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1405هـ / 1985م.
- التفسير الماركسي للإسلام، للدكتور محمد عمارة، نشر: دار الشروق.
- تفسير النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكرياء عميرات، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ.

- تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدیع، للخطیب القزويني، تعليق: الدكتور ياسين الأيوبي، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، 1432 هـ / 2011م.
- التلمود كتاب اليهود المقدس: تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه، للدكتور أحمد إيبش، القسم السادس: العصبية الدينية والإثنية في التلمود، نشر: دار قتيبة.
- تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، نشر: دار تكوين للدراسات والأبحاث، ط 1، 1436 هـ / 2015م.
- تنزيه القرآن عن المطاعن، لقاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحم، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث- القاهرة، ط 1، 1435 هـ / 2014م.
- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد، مفتي جمهورية لبنان، نشر: المكتب الإسلامي، ط 3، 1411 هـ / 1990م.
- التورق المصرفي في نظر التحليل المحاسبي والتقويم الاقتصادي، للدكتور: حسين حسين شحاتة، مقالة علمية منشورة على الشبكة.
- التوقيف على مهمة التعاريف، للمناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1، 1410 هـ.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ / 2000م.
- جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، نشر: دار ابن الجوزي، ط 1، 1414 هـ / 1994م.
- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405 هـ / 1985م.
- جمع القرآن، لجون جلكريست، ص: 15، كتاب منشور في الأنترنت على موقع: www.an-swering-islam.Org/arabic/gilchrist/jam
- جواهر القرآن، للغزالي، نشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1979م.
- الجواهر في تفسير القرآن الكريم، للشيخ طنطاوي جوهري، نشر: المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط 2، 1350 - 1394 هـ / 1974م.
- جوهر الإسلام، للعشماوي، نشر: دار سينا، القاهرة، ط 4، 1416 هـ / 1996م.
- حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، 2 / 232، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، نشر: دار الفكر، بيروت، 1414 هـ / 1994م.
- حاشية رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، إشراف: مكتبة البحوث والدراسات، نشر: دار الفكر، بيروت، 1415 هـ / 1995م.

- حضارة العرب، لغوستاف لوبون، بترجمة: عادل زعير، نشر: مرسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد، نشر: مطبعة مصر، القاهرة، ط 1، 1376 هـ / 1957م.
- حول أسماء القرآن الكريم وصفاته، لعبد الجليل عيسى، سلسلة مع القرآن الكريم، العدد الثالث.
- حول الدين، لكارل ماركس، ترجمة: ياسين حافظ، نشر: دار الطليعة، بيروت، ط 2، 1981م.
- حياة محمد، لمحمد حسين هيكل، نشر: مؤسسة هنداوي، مصر.
- خصائص الشريعة الإسلامية، لعمر سليمان الأشقر، نشر: مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1982م.
- خصائص القرآن الكريم، للمفكر السوداني: محمد أبو القاسم حاج حمد، نشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية – الرباط.
- الخطاب والتأويل، للدكتور نصر حامد أبو زيد، نشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- دراسة في السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، نشر: مؤسسة الرسالة – دار النفائس، ط 10، 1406 هـ / 1986م.
- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر: جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، ط 2، 1411 هـ / 1991م.
- الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني، أطروحة قدمت إلى مجلس كلية الفقه، جامعة الكوفة، للباحثة: سحر جاسم عبد المنعم الطريحي، 1433 هـ / 2012م.
- دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، نشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 1، 1414هـ.
- دراسات في تفسير النص القرآني، تأليف: مجموعة من الباحثين، نشر: مكتبة مؤمن قريش.
- دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل، نشر: دار المنار، ط 2، 1419 هـ / 1999م.
- درر الحكام شرح غرر الأحكام، لمحمد بن فرامرز ملا خسرو، نشر: دار إحياء الكتب العربية.
- دروس في علم العربية، لسميح أبو معلي وآخرون، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر، عمان – الأردن، ط 1، 2000م.
- الدعوة: قواعد وأصول، لعبد العزيز جمعة أمين، نشر: دار الدعوة للطباعة، الإسكندرية، ط 2، 1409هـ، 1989م.
- دلائل الإعجاز، للجرجاني، تحقيق: د. محمد التتجي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1995م.
- دلائل النبوة، للإمام البيهقي، بتحقيق عبد المعطي قلجي، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1408هـ / 1988م.
- دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلجي، نشر: دار الطتب العلمية، ط 1، 1408 هـ / 1988م.

- الدليل إلى المتون العلمية، لقاسم بن عبد العزيز بن إبراهيم، نشر: دار الصميعة، الرياض، ط 1، 1420 هـ.
- رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن، للدكتور محمد جمعة عبد الله، جامعة أم القرى، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، 1436 هـ / 2015م.
- الرد على النصارى، مطبوع ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، نشر: دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411 هـ / 1991م.
- رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، تصحيح: إبراهيم اليازجي، ط 1، 1325 هـ / 1907م.
- رسالة القرآن، لنبذة من الباحثين والكتاب، بمناسبة الاحتفال بإنجاز مصحف قطر وبدء تداوله، إعداد: إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، ط 1، 1431 هـ / 2010م.
- رسالة في إثبات النبوة، مطبوع ضمن: رسائل في الحكمة والطبيعات، لابن سينا، نشر: مطبعة الحوائب، قسطنطينة، 1298 هـ.
- الرق في الإسلام، لأحمد شفيق باشا، ترجمة أحمد زكي، نشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
- زاد المعاد، لابن القيم، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، ط 27، 1415 هـ / 1994م.
- الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1412 هـ / 1992م.
- سنن أبي داود، نشر: دار الكتاب العربي.
- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السنن الكبرى، للبيهقي، نشر: مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، ط 1، 1344 هـ.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط - حسين الأسد، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 9، 1413 هـ / 1993م.
- سيرة ابن إسحاق = السير والمغازي تحقيق: سهيل زكار، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 1، 1398 هـ / 1978م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تعليق وتقديم وضبط: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل.
- شبهات حول الجهاد الإسلامي، ضمن موسوعة بيان الإسلام، تحت إشراف: داليا محمد إبراهيم.
- شبهات حول المرأة وحقوقها في الإسلام، مطبوع ضمن موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات لمجموعة من الباحثين، تحت إشراف: داليا محمد إبراهيم، المجلد الحادي عشر، الجزء: 18، 19 / نشر: دار نهضة مصر.
- شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي أبي العز الحنفي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق.

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، نشر: دار الصميعي، ط 2، 1234 هـ / 2013م.
- الصادق النيهوم إسلام ضد إسلام شريعة من ورق، نشر: رياض الريس للكتب والنشر.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1414 هـ / 1993م.
- صحيح البخاري، تحقيق وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، نشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط 2، 1407 هـ / 1987م.
- صحيح مسلم، نشر: دار الجيل، بيروت - دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ضوابط الحوار مع الآخر، للدكتور سعد عبد الله عاشور، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الأول.
- ضوابط الحوار وآدابه في القرآن الكريم (نماذج وتطبيقات) للدكتور سجاد أحمد، وطاهر إسلام. مقال منشور في مجلة الأضواء، العدد 47.
- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، نشر: دار القلم، دمشق، ط 4، 1414 هـ / 1993م.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد، نشر: دار صادر، بيروت.
- الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، نشر: دار الفكر، دمشق، ط 4، 1420 هـ / 2000م.
- العفو عن العقوبة وأثره بين الشريعة والقانون: دراسة مقارنة، للدكتور: إبراهيم بن فهد الودعان، بحث مقدم لاستكمال درجة الماجستير، تحت إشراف: د. محمد فضل المراد، منشورات: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1423 هـ / 2002م.
- علم البحث والمناظرة، لطاش كبري زده، بتحقيق أبي عبد الرحمن ابن عقيل، نشر: دار الظاهرية.
- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، لسفر بن عبد الرحمان الحوالي، على موقع الشيخ: "<http://www.alhawali.com>".
- العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص، للدكتور: أحمد إدريس الطعان، نشر: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ط 1، 1428 هـ / 2007م.
- عن المرأة والدين والأخلاق، لنوال السعداوي، نشر: مؤسسة هنداوي سي آي سي، 2017م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، للدكتور حمد الزغيبي، مكتبة العبيكان، ط 1، 1418 هـ / 1998م.
- عيون الأثر في فنون المغازي والسير، لابن سيد الناس، نشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1406 هـ / 1986م.
- الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب، للدكتور محمد عمارة، نشر: مكتبة الشروق الدولية.

- الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، لمحمد عللوة، نشر: مكتبة الأقصى للدراسات والترجمة.
- الفائدة الربوية وقود التضخم النقدي وليس تعويضاً عنه، الدكتور حسن شحاتة، منشور في مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، العدد: 6، السنة: 1402 هـ / 1982م.
- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1408هـ / 1987م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، نشر: دار المعرفة، بيروت، 1397هـ.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، نشر: المكتبة العلمية، بيروت، ط 2، 2005م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم الظاهري، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ط 2، 1416 هـ / 1996م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم، وما بعدها، نشر: مكتبة الخانجي - القاهرة.
- الفصل والوصل في القرآن الكريم، لمنير سلطان، نشر: منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 2.
- فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، للدكتور: نعيم الحمصي، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 2، 1400 هـ / 1980م.
- الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، للدكتور عبد الوهاب المسيري، نشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان - دار الفكر، دمشق، سورية، ط 1، 2002م.
- في ظلال القرآن، نشر: دار الشروق، القاهرة.
- قالوا عن الإسلام، للدكتور عماد الدين خليل، نشر: دار ابن كثير.
- القاموس المحيط، لليفروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، نشر: مؤسسة الرسالة.
- قاموس المورد، لمنير البعلبكي، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، 1977م.
- القانون الإسلامي وطرق تنفيذه، لأبي يعلى المودودي، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، 1395هـ.
- قراءات معاصرة في النص القرآني، لمجموعة من المؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، نشر: مكتبة مؤمن قريش، ط 1، بيروت، 2008م.
- قراءة في علم مقاصد الشريعة الإسلامية، للدكتور علاء الدين زعتري، بدون.
- القرآن الكريم في دراسات المستشرقين: دراسة في تاريخ القرآن، للدكتور مشتاق بشير الغزالي، نشر: دار النفائس.
- القرآن الكريم: هيمنته وخاتمته وعالميته وخلوده، بحث للدكتور أحمد علي الإمام، منشور في مجلة كلية القرآن الكريم، العدد الأول، السنة: 1427 هـ / 2006م.
- القرآن وعالم الحيوان، للدكتور عبد الرحمان محمد حامد، نشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ.

- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي - د. ابراهيم السامرائي، نشر: دار ومكتبة الهلال.
- كتاب الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) لابن قيم الجوزية، نشر: دار الكتب العلمية، ط 2، 1408هـ.
- كتاب المنطق، لابن سينا، بدون.
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، نشر: دار صادر - بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ.
- كيف نتعامل مع القرآن، للشيخ محمد الغزالي، ضمن سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م.
- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت.
- لسان العرب، لابن منظور، نشر: دار صادر، بيروت، ط 1.
- لسان الميزان، لابن حجر، تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند، نشر: مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ط 3، 1406 هـ / 1986م.
- الله واحد أم ثالث، للدكتور محمد مجدي مرجان، kav: l ;jfm hgkht`m>
- الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، نشر: دار مصر للطباعة، ط 2) طبعة دار القاهرة،
- الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من الباحثين الأمريكيين، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، تعليق ومراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، نشر: دار القلم - مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع.
- المادية التاريخية، لكيله وكوفالسون، ترجمة: إلياس شاهين، نشر: دار التقدم، موسكو.
- مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، نشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط 2، 1416 هـ 1996م.
- المبسوط، للسرخسي، نشر: دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة. بتاريخ: 1414 هـ / 1993م.
- المجموع شرح المذهب، للإمام النووي، نشر: دار الفكر - بيروت.
- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، نشر: دار الفكر، بيروت، ط 2، 1398 هـ / 1978م.
- المحرر الوجيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.
- المحيط البرهاني، للشهيد برهان الدين مازة، نشر: دار إحياء التراث العربي.
- المختصر في المنطق، للإمام ابن عرفة، بدون.
- المدخل إلى القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الله دراز، نشر: دار القلم، الكويت.

- مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، للدكتور: زغلول راغب محمد النجار، نشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 1، 1430 هـ / 2009م.
- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، للدكتور عماد الدين خليل، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1400 هـ / 1983م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبي شهبة، نشر: دار اللواء، السعودية، ط 1، 1407 هـ / 1987م.
- مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، نشر: دار الشروق، ط 9، 1422 هـ / 2001م.
- المرأة في القرآن، للعقاد، نشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
- مراجعة سقوط الإمبراطورية الرومانية، للأستاذ علي أدهم، ص: 86 وما بعدها، وهو منشور في مجلة: تراث الإنسانية، السنة: 1964م.
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1411 هـ / 1990م.
- المستشرقون مالهم وما عليهم، لعمر فروخ، منشور في مجلة الاستشراق، العراق 1987، العدد الأول.
- المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، نشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1420 هـ / 1999م.
- المستصفي، للغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر: دار الكتب العلمية، ط 1، 1413 هـ .
- المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، نشر: دار الكتب العلمية، ط 2، 1986م.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1420 هـ / 1999م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، للدكتور: محمد فاروق الزين، نشر: دار الفكر، دمشق، ط 1، 1421 هـ / 2000م.
- معترك القرآن في إعجاز القرآن، للسيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة.
- المعجزة الكبرى القرآن، لأبي زهرة، نشر: دار الفكر العربي.
- المعجم الأدبي، لجبور عبد النور، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، نشر: دار الفكر - بيروت.
- معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ط 1، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي.
- المعجم الفلسفي، لجميل صليبا، نشر: دار الكتاب اللبناني.
- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط 2، 1404 هـ / 1983م.

- المعجم الوسيط، لثة من الباحثين، لثة من الباحثين: أحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، نشر: مجمع اللغة العربية.
- مفتاح العلوم، للسكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000م.
- مفردات القرآن، للراغب الإصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، مطبعة التقدم العربي، دار الفكر، بيروت، 1392هـ / 1972م،
- مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، نشر: مكتبة الفكر الجديد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود.
- مقالات متعلقة بالإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، لمحمد أحمد محمود، منشورة سنة 1429 هـ / 2008م.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر: اتحاد الكتاب العربي، 1423 هـ / 1002م.
- من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، للدكتور معتصم بابكر مصطفى، منشور في مجلة "كتاب الأمة" سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، العدد: 90، جمادى الأولى 1414 هـ / السنة: 23.
- مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور: زاهر عواض الألمعي، ط 3، 1404 هـ.
- المناهج العقلية التي استخدمها القرآن الكريم في الحوار والجدل مع أهل الكتاب، لقيس سالم مجلي المعاينة، منشور في مجلة دراسات عوم الشريعة والقانون، المجلد 44، العدد: 1، السنة: 2017.
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم، للشعراوي، نشر: دار العودة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
- منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجا، للدكتور صابر مولاي أحمد، نشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط 1، 2017م.
- منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، للدكتور عثمان علي حسن، نشر: دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط 1، 1420 هـ / 1999م.
- منهج الفرقان في علوم القرآن، للشيخ محمد علي سلامة، تحقيق: د. محمد سيد أحمد المسير، نشر: دار نهضة مصر، ط 1، 2002م.
- منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي، للدكتورة تهاني عفيف يوسف جابر، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين، د. نادية الشرقاوي، نشر: صفحات للدراسات والنشر.
- منهج القرآن في الرد على المخالفين، لنادية الشرقاوي، نشر: صفحات للدراسات والنشر، ط 1، 2010م.
- الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، بتحقيق: فضيلة الدكتور الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، ط 1، 1438 هـ / 2017م.

- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية، للدكتور لأحمد متولي، نشر: دار ابن الجوزي، القاهرة، ط 1، 1426هـ
- الموطأ، للإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي - مصر.
- الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 3، 1976م.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز، نشر: دار القلم، الكويت.
- نحن والغرب أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة، للشيخ القرضاوي، بدون طبعة.
- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، لأحمد شهاب الدين خفاجي، نشر: درسعادات، المطبعة العثمانية، 1312هـ.
- النص، السلطة الحقيقة إدارة المعرفة وإدارة الهيمنة، لنصر أبو زيد، نشر: المركز الثقافي العربي.
- النصارى في القرآن الكريم والتفسير، لعواد علي، وحسن البطوش، وعلاء الرشق، بإشراف يوسف قزماخوري، ط 1، 1998م، إصدارات المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان.
- نظريات الإعجاز القرآني، د. أحمد رحمانى، نشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1418هـ.
- نظرية النسخ في الشرائع السماوية، للدكتور: شعبان محمد إسماعيل، نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1408 هـ / 1988م.
- نقد الخطاب الاستشراقي، للدكتور: ساسي سالم الحاج، نشر: دار المدار الإسلامي، ط 1، 2002م.
- نقد الخطاب الديني، للدكتور نصر أبو زيد، نشر المركز الثقافي العربي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود.
- النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حقيق وتعليق: محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام، نشر: دار المعارف، مصر، ط 3، 1976م.
- نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن، للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، نشر: مطبوعات الشعب، 1975م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام ابن القيم، دراسة وتحقيق: د. محد أحمد الحاج، نشر: دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1416 هـ / 1996م.
- الوجه العاري، لنوال السعداوي، نشر: مؤسسة هنداوي، مصر.
- الوجيز في الطب الإسلامي، للدكتور: هشام إبراهيم الخطيب، نشر: دار الأرقم، عمان، ط 1، 1405 هـ / 1985م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، نشر: دار صادر، بيروت.

فهرس المحتويات:

2	مقدمة
3	إشكالية البحث
3	أهمية البحث
4	أسباب اختيار البحث
5	أهداف البحث
5	الدراسات السابقة
6	منهجية البحث وخطته
9	تمهيد: القرآن والخطاب النقدي
9	القرآن في الدلالة اللغوية
	الباب الأول:
15	تأصيل الفكر النقدي في القرآن المجيد
17	الفصل الأول: مصطلح الفكر النقدي في القرآن
17	المبحث الأول: مصطلح الفكر في القرآن
18	المطلب الأول: دعوة القرآن إلى التفكير والتدبر
20	المطلب الثاني: أهمية التفكير في فهم القرآن
23	المطلب الثالث: تجليات التفكير في القرآن ومظاهره
24	ثانيا: تحرير العقول وبناء الإنسان
25	ثالثا: الاهتمام بتبيين مقاصد الأحكام وغايات التشريع
25	المبحث الثاني: مصطلح النقد في القرآن المجيد
26	المطلب الأول: مدلول النقد
27	المطلب الثاني: بناء الحس النقدي في القرآن
30	المطلب الثالث: أهداف النقد وغاياته
31	المبحث الثالث: مدلول المنهج في القرآن المجيد
32	المطلب الأول: مصطلح المنهج في القرآن
35	المطلب الثاني: دور المنهج القرآني في بناء النقد
39	المطلب الثالث: خصائص المنهج القرآني ومميزاته
46	الفصل الثاني: مكونات المنهج النقدي في القرآن المجيد
46	المبحث الأول: مبادئ النقد في القرآن المجيد
46	المطلب الأول: الموضوعية في حكاية الرأي الآخر
49	المطلب الثاني: النقد بالبيئة والبرهان
52	المطلب الثالث: ضبط الثوابت والمسلمات والانطلاق من المشتركات

55	المبحث الثاني: آداب النقد في القرآن المجيد ومبادئه
55	المطلب الأول: مبدأ الحلم والصفح والصبر
58	المطلب الثاني: مبدأ القول اللين والمخاطبة بالتي هي أحسن
62	المطلب الثالث: مبدأ احترام الطرف الآخر وإنصافه
65	المبحث الثالث: مقاصد النقد في القرآن المجيد
66	المطلب الأول: إصلاح المعتقدات:
71	المطلب الثاني: التشريع وسياسة الأمة
77	المطلب الثالث: تثبيت القيم والأخلاق
82	الفصل الثالث: تتبع مجالات الفكر النقدي في القرآن الكريم
82	المبحث الأول: في مجال التربية والتعليم
82	المطلب الأول: مفهوم التربية والتعليم
84	المطلب الثاني: مكانة التربية والتعليم
87	المطلب الثالث: الآيات التي تؤسس للتربية والتعليم
91	المبحث الثاني في مجال تصحيح العقيدة
94	المطلب الثاني: مكانة العقيدة
96	المطلب الثالث: نماذج في منهج تصحيح الاعتقاد في آيات القرآن
103	المبحث الثالث: النقد القرآني في مجال الإصلاح وتوجيه السلوك
103	المطلب الأول: مفهوم الإصلاح في القرآن
105	المطلب الثاني: الإصلاح السياسي والاقتصادي في القرآن
105	أولاً: الإصلاح السياسي في القرآن الكريم
108	ثانياً: الإصلاح الاقتصادي في القرآن المجيد
110	المطلب الثالث: آيات الإصلاح في القرآن الكريم
115	الباب الثاني:
115	أصول الفكر النقدي في القرآن الكريم، ومناهجه
116	الفصل الأول: أصول الفكر النقدي في القرآن الكريم
117	المبحث الأول: الأصل الفطري
117	المطلب الأول: مفهوم الفطرة في القرآن
121	المطلب الثاني: اعتماد أصل الاستدلال بالفطرة في القرآن
125	المطلب الثالث: أثر النقد القرآني في الاستدلال بالفطرة
131	المبحث الثاني: الدليل العقلي
131	المطلب الأول: مفهوم الدليل العقلي
135	المطلب الثاني: ضوابط الاستدلال العقلي في القرآن
138	المطلب الثالث: أثر النقد القرآني في الاستدلال بالأصل العقلي
147	المبحث الثالث: الأصل الحسي

المطلب الأول: الاستدلال بالحس في القرآن	147
المطلب الثاني: أثر النقد القرآني في لاستدلال الحسي	154
الفصل الثاني:	173
تجليات الفكر النقدي في القرآن المجيد من خلال دحض شبهات المخالفين	173
المبحث الأول: نقد أهل الكتاب	173
المطلب الأول: معالم الشخصية اليهودية في القرآن (العناد والجحود والحيل)	174
المطلب الثاني: معالم الشخصية النصرانية في ضوء القرآن الكريم	179
المطلب الثالث: النقد القرآني لمزاعم أهل الكتاب وشبهاتهم	183
أولاً: نقد القرآن لقضية التثليث	184
ثانياً: النقد القرآني لنسبة الولد لله	187
المبحث الثاني: نقد المشركين في القرآن المجيد	191
المطلب الأول: الشخصية المشتركة في ضوء القرآن المجيد	191
المطلب الثاني: نقد القرآن لشبهات المشركين العقدية	196
أولاً: شبهة الدهرية ونفي الخالق	196
ثانياً: نقد القرآن لشبهة القول بتعدد الآلهة	199
ثالثاً: نكران البعث والقول باستحالة الحياة بعد الممات	201
المطلب الثالث: نقد شبهات المشركين وافتراءاتهم على الرسالة المحمدية	202
المبحث الثالث: نقد مزاعم المستشرقين والعلمانيين وشبهاتهم حول القرآن المجيد	208
المطلب الأول: معالم الشخصية الاستشراقية، والعلمانية	208
أولاً: الشخصية الاستشراقية	208
ثانياً: الشخصية العلمانية	211
المطلب الثاني: النقد القرآني لشبهات المستشرقين	213
الفرع الأول: نقد ادعائهم بأن في القرآن تحريفاً ولحناً	213
1 - دعوى وقوع التحريف واللحن في القرآن:	213
أ - دعوى ورود التحريف في آيات القرآن وسياقها:	213
ب - دعوى وقوع اللحن اللغوي والبلاغي في القرآن:	214
2 - نقد دعاوي التحريف ووقوع اللحن في القرآن:	216
أ - نقد الشبهة الأولى: (وقوع التحريف في القرآن):	216
ب - النقد القرآني للشبهة الثانية: (اختلال الأساليب القرآنية):	218
ج - نقد الشبهة الثالثة: (وقوع اللحن في القرآن):	220

221	الفرع الثاني: نقد ادعائهم بأن القرآن كتاب سيف وقتل
225	المطلب الثاني: النقد القرآني لشبهات العلمانيين والماديين
225	الفرع الأول: شبهات العلمانيين حول القرآن
225	1 - شبهة الخرافة والأسطورة
227	2 - شبهة قصور النص القرآني وتاريخيته:
228	3 - دعوى إساءة القرآن لحرية الإنسان (المرأة، وقضية الرق نموذجاً):
229	الفرع الثاني: النقد القرآني لشبهات العلمانيين
230	أولاً: النقد القرآني للشبهة العلمانية: "الأسطورة العقدية في القرآن
232	ثانياً: النقد القرآني لشبهة "تاريخية القرآن ومحدوديته
236	ثالثاً: النقد القرآني لدعوى: "امتهان المرأة، والحرية الإنسانية في القرآن
237	1 - المرأة في القرآن
239	2 - الرق في القرآن
242	المبحث الأول: منهج المحاجبة الإقناعية
242	المطلب الأول: الحجاج الإقناعي في إثبات وحدانية الله
247	المطلب الثاني: المحاجبة الإقناعية في تقرير النبوة
253	المطلب الثالث: المحاجبة الإقناعية في التشريع وترسيخ الأخلاق
263	المبحث الثاني: منهج الترغيب والترهيب
263	المطلب الأول: دلالة الترغيب والترهيب في القرآن
269	المطلب الثاني: منهج الترغيب والترهيب في القرآن
269	الطريق الأول: اقتران مقام الترغيب بالترهيب وإرداف البشارة بالندارة
272	الطريق الثاني: تغليب أحد الأسلوبين على الآخر
274	الطريق الثالث: ورود أحد الأسلوبين دون قرينه
276	المطلب الثالث: الأساليب الخطابية المستعملة في تحقيق مقامات الترغيب والترهيب في القرآن
277	أولاً: أسلوب الجزاء في تحقيق مقصد الترغيب والترهيب
279	ثانياً: إيراد مقام الترغيب والترهيب بوسيلة الحكى والقصص
279	ثالثاً: أسلوب التمثيل
281	رابعاً: أسلوب السرد والإخبار بأحوال القيامة وأهوالها
283	المبحث الثالث: منهج التدرج
283	المطلب الأول: مفهوم التدرج في القرآن المجيد، وأبعاده النقدية

المطلب الثاني: التدرج في تقرير الأحكام العقدية والتعبدية	288
المطلب الثالث: التدرج في تشريع المعاملات وترسيخ الأخلاق وقضايا التربية والسلوك	295
الباب الثالث:	
خصائص الفكر النقدي في القرآن الكريم، وأساليبه	301
الفصل الأول: خصائص الفكر النقدي في القرآن الكريم	302
المطلب الأول: مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن المجيد	302
المطلب الثاني: الأهداف النقدية للتصديق والهيمنة في القرآن	305
المطلب الثالث: مظاهر التصديق والهيمنة في القرآن المجيد وتجلياتهما	310
أولاً: الاسترجاع النقدي للكتب السابقة بغرض	311
ثانياً: حدوث تأثير قرآني في معظم المجتمعات الدينية التي أدركها القرآن	311
ثالثاً: الاحتكام إلى آياته في القضايا التي خالفوا فيها الحق	312
رابعاً: بيان آليات التحريف، وكشف المسائل التي حاولوا إخفاءها	313
المبحث الثاني: خاصية الوسطية	315
المطلب الأول: مفهوم الوسطية	315
المطلب الثاني: مظاهر الوسطية في القرآن	319
المطلب الثالث: منهج الوسطية في القرآن	331
المبحث الثالث: خاصية الواقعية	339
المطلب الأول: مفهوم الواقعية	340
المطلب الثاني: مظاهر الواقعية في القرآن:	344
المطلب الثالث: منهج الواقعية في القرآن المجيد	350
1- طلب الحق وانتفاء النفعية فيه:	350
2- النزاهة في سماع ونقل حجج الآخر:	351
الفصل الثاني: أساليب الفكر النقدي في القرآن الكريم	361
المبحث الأول: أسلوب التقرير	361
المطلب الأول: أسلوب الاستفهام	362
المطلب الثاني: أسلوب التوكيد	371
المطلب الثالث: أسلوب التكرار في القرآن	392
المبحث الثاني: أسلوب المثل	403
المطلب الأول: مفهوم المثل في القرآن المجيد	403
المطلب الثاني: خصائص المثل القرآني	406
المطلب الثالث: أهداف المثل القرآني وغاياته النقدية	414
المبحث الثالث: أسلوب القصص	420
المطلب الأول: التعريف، والأنواع	420

المطلب الثالث: المقاصد والغايات النقدية في القصص القرآني	429
الفصل الثالث: آليات الفكر النقدي الإعجازية في القرآن الكريم	433
المبحث الأول: الإعجاز العلمي في القرآن المجيد	434
المطلب الأول: مفهوم الإعجاز العلمي في القرآن، وغاياته النقدية	434
أولاً: مفهوم الإعجاز العلمي	434
ثانياً: أهداف الإعجاز العلمي في القرآن وغاياته النقدية	435
المطلب الثالث: مجالات الإعجاز العلمي في القرآن المجيد	443
أولاً: المجال الكوني:	444
ثانياً: المجال الإنساني	446
ثالثاً: مجال الحيوانات والنباتات	449
المبحث الثاني: الإعجاز البلاغي في القرآن المجيد	450
المطلب الأول: دلالة الإعجاز البلاغي في القرآن، وغاياته النقدية	450
المطلب الثاني: خصائص الأسلوب البلاغي في القرآن المجيد	456
أولاً: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى المفردات والكلمات	456
ثانياً: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى الجمل والتراكيب: (النظم القرآني)	458
ثالثاً: خصائص الأسلوب القرآني على مستوى الذوق والوجدان:	459
المطلب الثالث: قضايا ونماذج من البلاغة القرآنية	461
أولاً: الإيجاز والإطناب في القرآن المجيد	462
ثانياً: أسلوب الفصل والوصل في البلاغة القرآنية	467
ثالثاً: المجاز والكناية في القرآن المجيد	470
المبحث الثالث: الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد	472
المطلب الأول: دلالة الإعجاز التشريعي في القرآن، وغايته النقدية	472
أولاً: دلالة الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد	472
ثانياً: الغايات النقدية من الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد	475
المطلب الثاني: مزايا الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد ومظاهره	477
المطلب الثالث: نماذج من الإعجاز التشريعي في القرآن المجيد	483
خاتمة	489
فهرس الأحاديث النبوية	522
لائحة بأهم المصادر والمراجع:	526
فهرس المحتويات	540